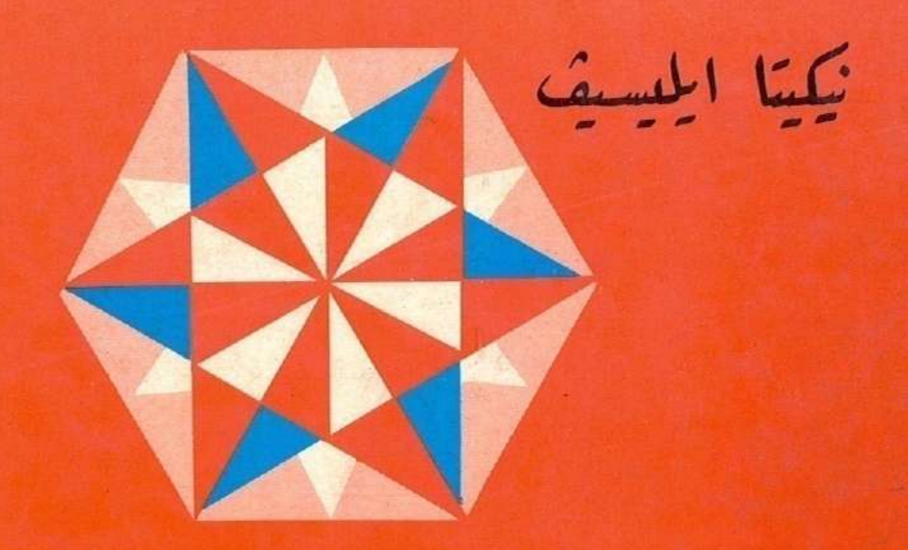
نيكيتا ايليسيف

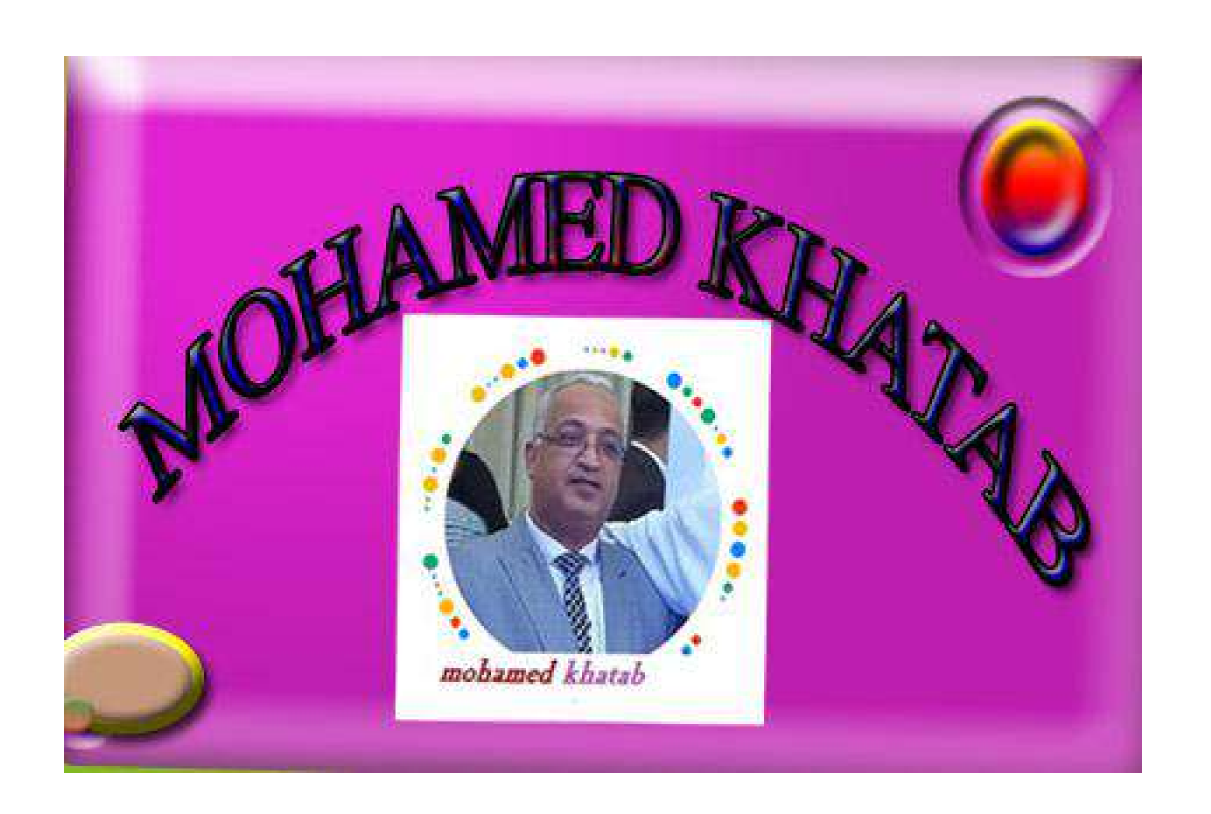


الشرق الإسلامي في العصر الوسيط

ترجمة

منصور أبو الحسن





الشرق الإسلامي في العصر الوسيط

مؤسسة دار الكتاب الحديث

بيروت- لبنان- طريق المطار
خلف الكلية العاملية المهنية
بناية بدير
ص. ب: ١٤/٥٩٦٣

نيكيتا ايليسيف

الشرق الإسلامي في العصر الوسيط

ترجمة

منصور أبو الحسن



المقدمة

«.. تكوّن العالم الإسلامي كان ظاهرة رئيسة غيّرت وجه الكون وأدخلت عليه عناصر جديدة ثابتة ودائمة..»

«غاستون وييت»

● حين يتحدّثون، في الأوساط الأكثر إختلافاً، عن حوارٍ أوروبّي - عربيٍ؛ كيف يكون هذا ممكناً مع استمرار جهل العوامل العميقة المتعلّقة بتاريخ منطقة واسعة من الكون كهذه التي يغطيها العالم الإسلامي «دار السلام»؟

العهد الذي نعالجه يمتدّ من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر، أي منذ مجيء الإسلام حتّى سقوط الهجمة المونغوليّة لدى مواجهة مماليك القاهرة لها.

وهذه الحقبة التاريخيّة تضمّ «المرحلة العربيّة» من التاريخ الوسيط للعالم الإسلامي؛ وهي التي غشتها حقبة ظهور الأتراك الّذين، منذ النصف الثاني للقرن الثالث عشر، افتتحوا «المرحلة التركيّة» المسمّاة، في العربيّة، «دولة الأتراك»

لقد حاولنا أنْ نعرض تسلسل أحداث المراحل المختلفة للتطوُّر التاريخي للشرق الإسلامي في القرن الوسيط؛ ولهذا الشرق أعطينا حدوداً جغرافيّة هي: النيلِ وعمو - داريا غرباً وشرقاً، وجبال طوروس وحضر موت شمالاً وجنوباً.

ومؤلّفنا مقسّم، من حيث وقائعه التاريخية، حسب سلالات المشاهير، والأسر الحاكمة، أو المالكة الكبرى، الأمر الّذي اقتضى التكرار أحياناً.

لقد علّقنا أهمية خاصّة على العامل الجغرافي، ما دام الأمر يتعلّق بمنطقة لا يألفها الدارس الفرنسي إلاّ قليلاً... وهذا العرض البيئي بدا لنا ضروريًّا لكونه الأصل - أو في الأصل - للشروط الاقتصادية، والإجتماعيّة غالباً، التي تأثّر بها تطوّر الأحداث السياسيّة.

ـ على العموم، معرفة تاريخ العصر الوسيط للشرق الإسلامي كانت سيّئة: - بعض الأفكار عن ظهور الإسلام.. وصورة ظلّيّة غامضة لمحمّد، وحديث، عارض أحياناً، عن الأمويّين باعتبارهم الأخصام للبيزنطيّين، وكلام يرد فيه إسم الخليفة العبّاسي، ذو الهالة الأسطورة، هارون الرّشيد بطل «ألف ليلة وليلة» (غير المباشر) ومعاصر «شارل الأوّل الكبير».

ـ القرنان العاشر والحادي عشر لا مكان لهما قطّ في البرامج الرسميّة رغم كونهما قرنان مهمّان بالنسبة لتاريخ العالم الإسلامي:

● القرن العاشر لم يكن، فقط، قرن تفكّك الأمبراطوريّة العبّاسية، ونشوء دول مستقلّة مثل مصر، بل كان، أيضاً قرن أفول شمس السنّة وبلوغ الشيعة أوج تألّقها.

● أما القرن الحادي عشر فتأتي أهمّيته من كونه يحمل سمة الهيمنة التركيّة على آسية الأماميّة وإقامة سلاطين السلاجقة في بغداد؛ كما تأتي أهميّة هذا القرن من كون السياسة، في أرض الإسلام، بدأت تأخذ طابعها الايديولوجي.

ـ الشرق الإسلامي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر عُرف من خلال الحملات الصليبيّة التي ظلّت، طويلاً، تُعرض من وُجهة نظر غربيّة.. ومن خلال الصورة (الرومنسيّة) لصلاح الدين: حتّى أنّه كان يندر التطرّق إلى ظاهرة نظام المماليك ونجاح هؤلاء في التصدّي لموجة الغزاة المغول تلك الموجة الّتي أُوقفت في فلسطين ودُحرت إلى ما وراء الفرات عام ١٢٦٠.

خلال عرض الأحداث الجوهريّة، حاولنا شرح المشاكل الدينيّة وبُني التشريعات الأساسيّة، والقضايا الاقتصاديّة، كما أنّ مدخل مؤلّفنا احتوى على عرض للمناخ الروحي، والديني، الذي ظهر فيه

الإسلام؛ دون أن نغفل تظهيراً للقرآن يلقي الأضواء على النصوص والقرائن الإسلاميّة. وهذا أساسيّ من أجل فهم الرِّجال والمؤسَّسات في الشرق العربي.. وقد أتبعنا الفصل المخصَّص للخلفاء العبَّاسيِّين بعرض للأنظمة الحكوميّة في ذروة خلافة بغداد، مع ذكر النشاط الإقتصادي لهذه المنطقة من العالم. ـ وإذا كنَّا لم نقل شيئاً عن مختلف مظاهر الحضارة الإسلامية ولا عن تقاليدها الفنيّة، فذلك لأنَّ هناك غيرنا عالج هذه المواضيع في مؤلَّفات مماثلة.

ـ إنَّ التوثيق الذي يعتمده المؤرِّخ يختلف من قارَّة إلى أخرى، وهذا لا يعني إطلاقاً أن التوثيق يصبح من النوافل عندما تستهدف المعالجة ملتقى قارَّات ومفرق طرق مثل الشرق الإسلامي، فالواقع العملي يثبت أنَّه لا يوجد ما يضاهي الشرق الإسلامي بمحفوظاته ومخزوناته الوثائقيَّة الصَّالحة كمستندات لوضع تاريخ للغرب في عصره الوسيط.. ومثل زميله المتخصِّص بتاريخ العصر الوسيط الغربيّ، إنَّ مؤرخ العصر الوسيط الإسلامي يعاني من تضارب التوثيق وعدم كفاية مصادره السهلة، لأنَّ معظم المخطوطات العربية القديمة لم تطبع وتنشر بعد.. وكذلك معظم ترجمات النصوص الكبرى للمتخصِّصين بتأريخ العهد العربي مازالت متواضعة جدًّا.

ـ الأبحاث التاريخيَّة عن الشرق الإسلامي هي، في الحقيقة، حديثة، نسبياً، خصوصاً إذا ما قورنت مع تلك التي كرِّست، قبل عدة قرون، للعصور القديمة الكلاسيكية؛ والجديد، في هذه الأبحاث التي مازالت محصورة في وسط المتخصِّصين، هو أنَّها تشكِّل عائقاً وعقبة بمعنى أنَّه، بمقدار ما يتبادل الباحثون الغربيّون والشرقيّون العمل لتحقيق خطوات متقدِّمة في البحث التاريخي الخاص بالشرق في عصره الوسيط فتتضاعف وتنشر أعمالهم في مختلف قطاعات علوم التاريخ.. بمقدار ما تضيق الفجوات القائمة بينهم حتَّى تتغطَّى تماماً وعندئذ، فقط، تتجدَّد، دوريَّاً، الأعمال المدقَّقة القابلة لأن تعطي الصورة الأكثر دقَّة وصدقاً عن عالم مازال يبدو لنا وكأنه مختلف عن عالمنا وأكثر تعقيداً.

مدخل جغرافي

حدود العالم الإسلامي تبدّلت باستمرار خلال القرون؛ فمن حدوده الأولى، المقتصرة على الحجاز، وشبه الجزيرة العربية، اتّسع، مع انتشار الإسلام، حتّى الأطلسي غرباً ووادي الاندوس (السند) وبحر آرال شرقاً، والبحر الأسود شمالاً والمحيط الهندي جنوباً. وتاريخ الإسلام، في العصر الوسيط، تكوّن داخل هذا المحيط الواسع الذي يضمّ ـ من الغرب إلى الشرق ـ المغرب وأفريقية ما وراء الصحراء، وشبه الجزيرة الإيبريّة (اسبانية والبرتغال) والعربيّة ـ وسورية، والجزيرة والأناضول، والعراق، والهضبة الإيرانيّة، وواحات ما وراء المحيط، ـ إذن، فمراكز القوّة للإمبراطوريّة كانت موجودة داخل المنطقة التي تدلّ عليها، في هذه الأيّام، تسمية «الشرق الأوسط»؛ وأقطابها هي: دمشق ـ بغداد ـ القاهرة. والمحوران الّذان استقرّت عليهما المجموعات السكانيّة الكبرى هما النيل والفرات ودجلة (رافدا بلاد ما بين النهرين) يضاف إليهما محور ثانوي، شرقي ـ غربي، ينطلق من المحورين الرّئيسين، ويطاول البحر الأبيض المتوسّط، حتى نقطة إلتقاء المغرب مع شبه الجزيرة الإيبيريّة ـ وحدود الكتلة الإسلامية شديدة التطابق مع حدود المنطقة الجافّة الشماليّة للعالم القديم. . وعلى جانبي خطّ الإستواء توجد منطقتان شديدتا الحرارة، بمناخهما الحار والرطب أحياناً والصالح للأحراج البكر. والجاف أحياناً أخرى وتكثر فيه المفازات والواحات والمروج. ـ الأراضي الحارّة تتاخمها، من جوانبها نصف الدائرية، مناطق جافّة ففي العالم القديم، تمتد هذه المنطقة من شمال القارّة الأفريقيّة منحدرةً حتى مدار السرطان؛ في حين أنّها، في آسية الوسطى، تصعد حتّى الدرجة /٥٠/ من خطّ العرض الشمالي. وهذه المنطقة الجافّة، بين /١٥/ و /٣٠/ من خطوط العرض المتوازية، تشكل صحاري حقيقيّة، مثل الصحراء الكبرى، وصحاري ليبيا، والعربيّة، وأيران، وتركستان الشرقيّة، (قرة قم)، وصحراء منغولية

الصينية (غوبي)، وتشمل أيضاً سهوباً قابلة للسكن وأن كانت مواردها لا تكفي لأن تعيش فيها تجمُّعات بشريّة ذات شأن. والقطاعات الأفريقيةوالآسيويّة من المنطقة الجافّةالمذكورةهي ،بالتخصيص ،مسلمة.

ــ داخل هذه الحدود، تضاريس شديدة الإختلاف:

هضاب عاليه.. سلاسل جبال تبلغ ذروتها /٤٥٠٠م/ في الأطلس، وما يقرب من /٤٠٠٠ م/ في طوروس، وما يزيد على /٥٠٠٠ م/ شمالي إيران. وهي تتميَّز بمناطقها التي، فيها، تعتمد الحياة على نظام الأمطار.

ــ وللمياه دور حاسم في أراضي العالم الإسلامي فإذا ما أخذنا خريطة لقياس كميات الأمطار السنويّة نجد أن الأمطار التي يبلغ وسطي كميّة الأمطار التي تهطل، سنويّاً، فيها /٥٠٠ مم/ تتطابق غالباً مع حدود البلدان الإسلاميّة.

والإستغلال المكثَّف للأرض غير ممكن إلاّ في بعض المواضع تتوفَّر لها المياه الدائمة مثل وادي مصر، وما بين النهرين، وبعض مناطق سورية، وفيها تمتد الخصوبة حتّى حدود تسرُّب المياه.. وخارج هذه الحدود تبدأ الصحراء المجدبة التي لا تخلو من نقاط تواجُد المياه، حيث تتكوَّن الواحات، مثل تدمر.. والعلاقة بين الأرض والماء علاقة رئيسة، بها تتحدَّد الحياة الزراعيّة، وحياة البدو الرحَّل الرَّعويّة. وهناك مراكز خضريّة، وأسواق زراعيّة تقدِّم شواهد على حضارات قديمة جدّاً، في حين توجد مسافات واسعة لا أثر فيها تقريباً للزراعة، يجوبها رعاة تخضع حياتهم لنظام الحلّ والترحال.

ــ والمناخ، أيضاً، هو أحد عوامل وحدة البلدان الإسلامية، صحيحٌ أنَّ شواطيء هذه البلدان طويلة جدّاً، ولكنَّ أكثرها يطاول بحاراً داخليّة عديمة التأثير على داخل الأراضي حيث يسود، عادةً، مناخٌ قارِّي خاضع لتقلُّبات طقسيّة كبيرة.. فبلاد ما بين النهرين، مثلاً، ــ وهي واحدة من أكثر بلدان العالم حرارة ــ تعرف تقلُّبات طقسيّة تصل إلى /٤٥/ درجة مئويَّة صيفاً وإلى /١٠/ شتاءً؛ أمَّا في أعالي الهضبة الإيرانيَّة فتصل إلى /٤٥/ صيفاً و /٣٠/ شتاء.

تضاريس الشرق الأوسط العربي

ـ نتفحَّص، هنا، خصائص الشرق الأوسط العربي، الوسط الذي، فيه، تكوَّنت، ونمت، الحضارة العربيَّة ـ الاسلاميَّة ويدخل، في نطاقها، شبه الجزيرة العربيّة، وسورية، وبلاد ما بين النهرين (يحيط بها من الشمال هلال خصيب وقابل للسكن هو المهد لثلاث ديانات سماويَّة، وكثيراً ما يطلق عليه إسم «الهلال الخصيب»)، ثم مصر وكذلك الهضبة الإيرانيَّة.

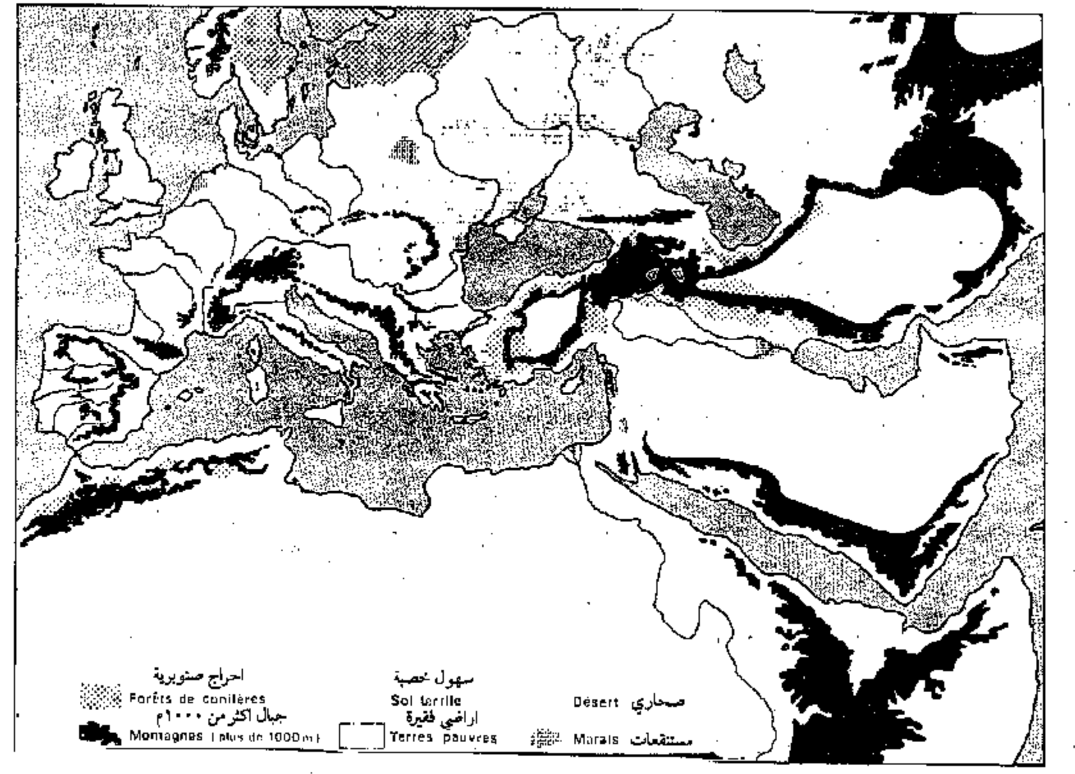
ـ هذا النطاق يشكِّل كتلة قاريَـة تتجمَّع في الشمال، وفي الشمال الشرقي عند التقاء القارَّتين الأوروبيّة ـ الآسيويّة، بين خطّ العرض الموازي /٣٨° و ١٣°/ ممتدَّة حتّى تخوم المنطقة شديدة الحرارة (الإستوائيَّة) الرطبة وسواحل المحيط الهندي.

ـ في الجنوب: شبه الجزيرة العربيّة (جزيرة العرب) وهي منطقة مستديرة الشكل، بالأصل، خالية من الجبال، إلاَّ عند تخومها الغربيّة، والجنوبيّة، والشرقيّة؛ وهي منطقة ذات نموُّجات، دون ثنايا أو تغضنات، مع بعض المكاسر دون مجاري مياه. وهي، من الناحية الجيولوجية، تمثِّل امتداداً لأفريقية الصحراويّـة. ـ وعلى الهضبة الّتي وُجدت منذ العصر الجيولوجي الثاني (٣٠٠ ـ ٣٥٠ مليون عام) توجد ثلاث مجموعات جبليّة:

ـ المجموعة العربيَّة ـ النوبيّة وتضمّ سلسلة الجبال العربيّة ذات الصخور الغرانيتية والصوّانية، بدءاً من شبه جزيرة سيناء وحتّى شماليّ اليمن.

ـ والمجموعة الحبشيّـة ـ اليمنيّـة المشكَّلة من صخـور ومصهورات بركانيّة.

ـ وأخيراً، المجموعة الغرانيتيّة، العربيّة ـ الصُّوماليّة الممتدَّة من الغرب شرقاً، من الساحل الصومالي إلى حضرموت.



LE RELIEF DU MONDE MUSULMAN
خريطة تضاريس العالم الاسلامي

وهذه الهضبة عرفت اختلاجات وانتفاضات جيولوجية مختلفة كما تعرَّض مجمل غطائها إلى سلسلة تغيُّرات في حقبة تكوّن التغضّنات الجبليّة: ـ عند ذلك، ظهرت التكسُّرات، والتشقُّقات التي يمتدّ أهمُّها نحو الشمال اعتباراً من وهدة موزمبيق ـ بأفريقية الشّرقيَّة، ومنطقة البحيرات الكبرى في أفريقية الإستوائيّة فتكوّن البحر الأحمر ـ وبين البحر، وسلسلة جبال العربيّة يمتدّ سهل تهامة الشاطيء المختلف العرض والضيق عموماً ـ وفي جنوب البحر الأحمر تقوم مساحة متّصلة، بركانيَّـة، تتخلّلها عـلامات زوبعيَّـة الشكل في قسمهـا الجنوبي، بينما، في الشمال، تنبسط مصهورات بركانيّة أكثر هدوءاً، تشكل مرتفعات عسير والحجاز (الحجاز، أو الحزام الحاجز، تسمية تدلّ على طبيعتها المذكورة). والجبال، في الزاوية الجنوبية ـ الغربية لشبه الجزيرة، مرتفعة بشكل كاف لتتلقّى الأمطار التي أعطت تسمية «العربيّة السعيدة» معناها الحقّ وهي العربيّة القديمة التي توفَّرت فيها إمكانات الزراعة بفضل نظام ريّ متقن.

ـ سلسلة حضرموت تنتهي في عُمان وتستقبل، إبّان رياح الصيف الموسميَّة، أمطاراً حفرت، مع الزمن، بعض الوديان على وجهها الخارجيّ. وعدا هذه السيول لا يوجد، في العربيّة، أنظمة هيدروغرافيَّة؛ فالأودية المذكورة ـ العريضة والعميقة ـ تقطع السلسلة العربيّة من الغرب. وبفضل المياه الجوفيّة توجد آبار وينابيع نادرة أتاحت، بدورها، وجود واحات الحجاز.

ـ وداخل شبه الجزيرة مؤلف من هضاب تبلغ /٢٠٠٠م/ في الجنوب، وتنخفض إلى /٥٠٠م/ في الشمال.

في شرقيّ اليمن، وشماليّ حضرموت، تمتدّ حتّى شاطيء الخليج، واحدة من أكثر مناطق العالم جفافاً وقحولا: « الربع الخالي» ـ ومع سيرنا باتّجاه الشمال نجد صحراء نجد الرمليّة ورملها هذا كوّنه التحاتّ الناجم عن تحرُّك الهواء؛ ومع إثارة الريح للرمل تتكوَّن، منه، الكثبان. ـ ما وراء منطقة اليمامة ينبسط سهل النَفود الوعر، وتشكّل

بادية الشام امتداداً له نحو الشمال. ويمكن تحديد التخوم بخطّ إلتقاء هذه الصحراء مع الأراضي المزروعة.

ـ طريق تجاري كبير (طريق البخور ـ الدهناء) يربط المحيط الهندي بالبحر الأبيض المتوسط؛ مروراً بالسلسلة العربيّة من الشرق، مؤمّناً حركة المواصلات والتجارة بين الجنوب والشمال. ولهذا الشريان ـ بعد يثرب، فرع يتّجه نحو العراق مارًّاً بوادي الرمّة.

ـ في شمال الشرق الأوسط العربي توجد منطقة ضخمة على حدود السّلاسل الجبليّة وينتظم هذه المنطقة قوس دائرة من /٢٥٠٠/ كيلومتراً؛ والسلاسل الجبليّة المذكورة تغضّنات جبليّة حديثة تبتدىء بطوروس الذي يبلغ ارتفاع ذراه /٣٠٠٠/ متراً وهو امتداد، نحو الشرق، لجبال قبرص، وسلسلة الأمانوس الشّاطئيّة. . وثمّة عدد من الممرّات الطبيعيّة تتيح اجتياز هذا السُور مثل أبواب السلجوقيّة في طوروس، وأعالي وادي الفرات ووادي دجلة التي تشقّ طوروس أرمينية، وإلى الشرق تغضّنات جبليّة تأخذ الإتّجاه الشمالي ـ الغربي، ثمّ الجنوب الشرقي، وتصبح أكثر بساطة في سلسلة زَغْرُس المحاذّة لمساكن الأكراد. . ثمّ منطقة الجبال التي ترتفع، وراءها، جبال القفقاز، وكتلة «إيلبورز» القائمة جنوب بحر قزوين والمحاذّة للهدّاب الغربي للهضبة الإيرانية؛ في إيران، تتنوّع، وتصبح أكثر تعقيداً فتتطلّب وصفاً، ولو موجزاً، كأن نذكر، مثلاً، أن وسط المنطقة مشغول بسهل مرتفع، جافّ، وفيه نجد واحدة من أكثر صحاري العالم يباساً كما نجد فيه، أيضاً، مناطق ازدهرت فيها حياة الزراعة، ورعي المواشي، عقب تكوّن السيُول.

وإيران، التي ظلّت امبراطوريّة بضعة آلاف من السنين، صارت مركز استقطاب في أطراف السهل العالي حيناً، وفي ما بين النهرين حيناً آخر؛ حتى تمّ دمجها مع العالم الإسلامي فأعطاها الإسلام مسحة صوفيّة متميزة خاصّة بها.

في الغرب يشكّل البحر الأبيض المتوسّط حدود الشرق الأوسط

العربي. وفي هذه المنطقة التّي نسمّيها [سورية ـ فلسطين] يتشكل الساحل مع كتله الجبليّة الهامّة أحياناً، من قطاعين اختلفت طبيعة كل منهما عن الآخر:

القطاع الكائن بين جبل كاسيوس وجبل الكرمل الذي كان ساحل فينيقية.

والقطاع الممتدّ من الكرمل إلى وادي العريش وهو الوجه البحري لبلاد الفلسطينيين.

وفي القطاع الشمالي، شمال نهر الكبير، الشاطيء غير صالح للأعمال المرفئية. أما في الجنوب فهناك عدّة مرافيء تستفيد أكثر من شرم، مثل اللاذقية، وبيروت، أو جون مثل جبيل؛ أو جزيرة صغيرة مثل بحريّة طرابلس أو صيدا.. وعلى هذا الجزء من الشّاطيء يقوم الجبل على مسافة ضيّقة جداً من البحر، ونادراً ما يزيد عمق السّاحل على /٢٥/ كيلو متراً ـ وقمم جبليّة تحاصر مقاطعات صغيرة في هذا السّهل الضيّق، فعلى أسفل السفوح مناطق متوسّطة الارتفاع فوق سطح البحر تغطّيها زراعات مصطبيّة مدعّمة بالردم على السفوح المواجهة للبحر، وعندما تقوم المساكن على علوّ لا يزيد على /٧٥٠/ م فهناك المراعي.. أمّا بقايا أحراج الأرز فموجودة حيث يصل الارتفاع إلى ألفي متر. ـ جنوب صور يبتعد الجبل، تدريجياً، عن الشاطيء، وينخفض علوّه.. هضبة، ذات تموّجات، تنتهي عند السهل المنبسط تحت قمّة الكرمل (٥٦٢ م). وجبل الكرمل يشكّل رأساً يحمي عكّا من رياح الجنوب. ـ وادي «سيزون» (وهو الممرّ إلى الجليل، ثم طبريّا، وحوران) يشكّل حدود القطّاع الأوّل. أما القطّاع الثاني الذي ينسلّ من جبل الكرمل، عند وادي العريش، الذي يسمّيه المؤرخون الغربيّون «سيل مصر» فمختلف كلّياً عن الأوّل لأنّ شاطئه رمليّ ومنخفض في حين أنّ ما وراءه يتكوّن من رمال شقراء تليها، شرقاً أرض ذات تربة سوداء خصبة؛ والموانيء، على هذا الشّاطيء، نادرة: ـ قيصريّة وعسقلان، موضعان بحريّان كان التنازع عليهما

ضارياً في القرن الوسيط. وعلى بعد أربعة كيلو مترات من الشاطيء تعتبر غزّة آخر مدينة مهمّة قبل تخوم مصر. . وعلى مسافة أبعد من ذلك، شرقاً، منطقة جبليّة هي النقب، وتحيط بالبحر الميت وتمتدّ جنوباً لتصبح ظهيراً لمرتفعات سيناء التي تصل ذراها إلى /٢٦٠٠/ م.

ـ محصّلة التحرُّكات الجبليّة تتمثّل في فجّ طويـل، كثير التكسُّرات والتغضّنات ومكسوّ بقشرة ترابيّة يسمّى المهاد السوري أو الثلم المتوسّط الذي يطاول، شمالاً، البحر الأحمر؛ والجزء الّذي يتّصل بآسية يبدأ، شرقاً، بخليج العقبة، شرق شبه جزيرة سيناء. والعمق يرتفع ثانية في وادي عَرَبة تتلوه صحراء صخريّة تنحدر نحو البحر الميّت على /٣٩٥م/؛ وشمال البحر الميِّت يوجد مصبّ نهر الأردن بعد اجتيازه هبْطة الغور وخروجه من بحيرة طبريّا. . وأسفل الهبْطة المذكورة يعود إلى الارتفاع شمالاً فيبلغ /٢ م/ عند بحيرة الحولة ثمَّ يتّسع الفجّ للدخول في البقاع. - «سورية المقعّرة» أو (كويليسورية الرومان) سهل عرضه من ثمانية إلى /١٢/ كيلو متراً وطوله ١٢٠ كيلو متراً تحادّه سفوح جبال لبنان، والأحضان الغربيّة لسلسلة الجبال الشرقيّة، يعتبر واحداً من أخصب مناطق الشرق.

على أعتاب بعلبك، وعلى علوّ /١٠٠٠م/ نقطع خط اقتسام المياه، وبعده بقليل، شمالاً، يبدأ وادي نهر العاصي الذي يجتاز أكثر من شعب، ومضيق جبلي، وأكثر من منبسط، ويجتاز منخفض الغاب عند أفامية وغربيّ أنطاكية، وقبل أن يصبّ في البحر الأبيض المتوسّط يتلقّى، في بحيرة العمق، مياه نهر عفرين، ونهر الأسود المنحدرين من طوروس في مجريين متوازيين، وفيهما خاتمة الفجّ الكبير الذي تطاوله مرتفعات جبليّة عديدة. . فعند طرفه الغربي مرتفعات في صحراء النقب يصل علوُّها إلى /٢٠٠م/، وغربيّ البحر الميِّت هضبة يصل ارتفاعها، عند القدس إلى /٨٠٠م/ (المؤرخ يسمّي هذه الهضبة، «اليهودية»)؛ وعند شاطىء بحيرة طبريّة تبدأ مرتفعات الجليل

وتصل ذراها الى /١٢٠٠م/، ثم سلسلة جبال لبنان التي تقف جداراً بين البحر وبين السهل.. ثم الفاصل بين لبنان الجنوبي، ولبنان الشمالي، وتصل ذروته إلى ما يقارب /٣٠٠٠م/ ويتميّز بصهوة ظهر البيدر /١٦٠٠م/ وبعد فجوة حمص يبدأ جبل النصيريّة الذي يلتقي مع مرتفعات «كاسيوس».

وعلى الجانب الآخر، الشرقي، تتتابع، من الجنوب إلى الشمال، المرتفعات التي جثمت فوقها البتراء ثمّ قمم موءاب مع الكرك وجبل «نبو» وقبلها المرتفعات الكلسيّة لجبال عجلون /١٢٤٨ م/ ؛وعند الحدود الشرقيّة لبحيرة طبريّا تبدأ مرتفعات الجولان الخصبة.. ثمّ، وبعد بحيرة الحولة يبدأ تصعيد سلسلة الجبال الشرقيّة (نسبة إلى لبنان) مع المرتفعات الكلسيّة لـ «حرمون» حصن المياه الحقيقي لسورية الجنوبية؛ فمن /٢٨٠٠م/ ينخفض إلى /١٤٠٠م/ في مرتفعات وادي بردى ثمّ تصعد المرتفعات تدريجيًا لتصل إلى /٢٣٠٠/م ثمّ تنخفض حتّى تساوي السهل عند فجوة حمص التي يتاخمها، شمالاً، جبل الزاوية ومرتفعات «بيلوس» الكلسيّة القديمة.. ثمّ، وإلى الشمال دائماً، يشرف على سهل ترمانين جبل سمعان الذي يربط هذه الجبال مع طوروس وسلسلة جبال لبنان الشرقيّة، وينفصل عن مرتفعات القلمون، بالإتجاه الشمالي الشرقي، جبل البشري الذي يمتدّ في ما وراء الفرات، في الجزيرة، وامتداده، هناك، هو جبل عبد العزيز، وجبل سنجار.

وفي شرقيّ الفجّ السوري هذا حدثت ظواهر بركانيّة أهمُّها مصهورات انهداميّة وفوهات بركانيّة خاصّة في جبال حوران من سورية الجنوبيّة (اللجاة والصّفاة) وكذلك في مرتفعات «الوعر» في سورية الوسطى وعلى بُعد /٣٠٠/ كيلو متراً شمال شرق الفجّ في مرتفعات ديار بكر.

المنطقة الثالثة الهامّة هي الصحراء السُّوريّة، وهي هضبة واسعة منحنية قليلاً من الغرب، ومن الشّرق وتمتدّ من الثّلم المتوسّط إلى

الفرات؛ وجزء من هذه الهضبة المرتفعة يتكوّن من سهوب (فيافي) مغطّاة بالنجيليات. . إنها ليست صحراء بالمعنى الحقيقي للعبارة؛ بل هي «الحماد». . المنطقة غير المسكونة لا لأنها غير قابلة للإستيطان، بل بالعكس، لدى توفّر المياه فيها، والشواهد ماثلة في آثارها، وبخاصة تدمر وقصر الحير الخ. . .

في غربي القطاع الأسيوي للشرق الأوسط، توجد مصر، بلد الحضارة العريقة جدًّا والذي يلعب دوراً هامًّا في العالم الإسلامي منذ الفتح العربي؛ وحدود مصر الغربيّة هي صحراء ليبيا، والشماليّة (ألف كيلو متراً) شاطىء منخفض على البحر الأبيض المتوسّط، والشاطىء هذا صخريٌّ من جهة الغرب، ورمليّ في جزئه الباقي. . والشرقيّة. البحر الأحمر، مع جبال عالية قريبة من الشاطىء، وسواحل ضيِّقة، وحشفات (صخور بحريّة) مرجانيَّة. ـ والجنوبيّة تقع في منطقة الشلّالات تحت مدار السرطان؛ وكبلد ضعيف التموُّجات، تعتبر مصر بنت النيل بالدرجة الأولى. . وهو النهر الذي لا علاقة له إطلاقاً بالمناخ المحلِّي لأنّه يتكوّن من مياه أجنبيَّة منها مياه النيل الأزرق الآتية من بحيرة «تسانا»، الموجودة على علوّ /١٨٥٠م/ ويجري بين صحرائين، في وادٍ محصور (مصندق) عرضه يتراوح بين (١٠٠ و ٣٠٠ / متراً في صعيد الهضبة ويصل عرضه إلى /٢٥/ كيلو متراً، ومن وادي حلفا إلى المصبّ (الدلتا)؛ ويقطع النيل مسافة ألف كيلو متراً بين صحراء ليبيا، من الغرب (وهي صحراء حجريَّة ورمليّة فيها واحة واحدة خضراء هي واحة سِيْوَة)، وبين صحراء «العربية» التي تنتهي، من الشرق، بمخدة دائريّة من الصخور البركانيّة مجاورة للبحر الأحمر. ـ والدلتا (المصبّ) هو مثلث واسع من /٢٠٠/ كيلو متراً، محدَّد بفرع روزيت، وفرع دمياط، مع جبهة بحريّة عرضها /٥٠٠/ كيلو متراً. . والإقليم الجاف يفرض هنا، كما هناك، أوليّته على الحياة النباتيّة، والحيوانيّة، إلا أنَّ غياب الأمطار يعوَّض عنه بالفيض السَّنوي للنيل الذي يعيد للحياة توازنها. . فمن /١٧/ حزيران، حتى ٢٦ أيلول، يرتفع منسوب المياه. وهناك يبدأ ينقص حتى نيسان وأيّار

المقبلين مخلّفاً، للزراعة، أرضاً تلقّت المياه الخضراء من النيل الأبيض كما تلقّت المياه الحمراء المحمّلة بالطمي الذي نقله النيل الأزرق (بناء السدّ العالي بأسوان غيّر تغيّراً عميقاً علاقة الكائنات الحيّة مع وسطها الطبيعي أي ايكولوجيا وادي النيل). - ومياه هذا النهر تستعمل لكلّ شيء:

للنقل.. للشرب للناس والحيوانات.. للريّ الخ.. وهـذه الاستعمالات تعكس نفوذهـا على الحياة الإداريّـة، والزراعيّـة، والديمغرافيّة؛ «فالنيل، قبل الدين، هو الذي يصنع وحدة مصر» كما قال العالم الإجتماعي « نيو وينهويجز».

المناخ والبيئة

مناخ الشرق الأوسط العربي هو الأقل تأثراً بالبحر الأبيض المتوسّط من المناطق الأخرى المحيطة بهذا البحر.. هذا ما قاله «جان دريخ» (في مؤلفه الجغرافي صفحة ٢٥٧) فالبحار قليلة التأثير على هذه المنطقة من العالم التي يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقاليم مناخيّة:

أولاً: الإقليم المتوسّطي الخاضع بشكل تتابعي لنسيم البحر ورياح البرّ وهي لا تمثل سوى فجوة ساحليّة، ثمّ منطقة صحراويّة واضحة تشكّل امتداداً للصحراء، ثمّ تلتحم معها في تركستان، ويجتازها، عرضيّاً، ثلاثة أنهر كبيرة هي: - النيل الذي يجري من الجنوب إلى الشمال، والفرات ودجلة واتّجاه مجراهما شمال - جنوب؛ وفي هذه المنطقة التي تتلقّى، وسطيًّا، أقلّ من /٢٠٠/مم من الأمطار سنويًّا، يسود مناخ صحراويّ شامل يقرّر نمط حياة خاصاً يعيشه، جنباً إلى جنب، البداة الرّعاة، والحضريّون المقيمون، كما هي الحالة حول تدمر، مثلا. - وشرقي خطّ المطر (١٠٠مم) تظهر نباتات من النّوع الصحراوي. ويوجد، أخيراً، منطقة اشتدّت عليها الحرارة، وخصوصاً في جنوب شبه الجزيرة العربيّة؛ وفي هذه المنطقة

تستدعي شدَّة حرارة الأرض رياح البحر وتتولّد عن ذلك أمطار الصيف الموسميّة التي تأتي مفاجئة، غزيرة، سريعة التغيّر، الأمر الذي سمح بتسمية عسير واليمن وحضرموت «العربيّة السعيدة». ـ أمَّا أمطار موسم الشتاء، فتتخلَّلها هبَّات الريح الجافَّة القارِّيَّة. والتتابع المنتظم للتيَّارات المذكورة، المدوَّن في العصور القديمة باسم [*Erec Hippalos* ايرك هيبالوس] كان ينظم، في العصر الوسيط، ملاحة السفن الشراعيَّة وفي المحيط الهندي؛ وأخيراً، لا بدَّ من الإشارة إلى وجود العواصف الرمليّة المخيفة في الصحراء العربيّة السُّوريّة، وكذلك الهواء الحارّ الجنوبيُّ المهبّ المعروف بالخماسيني في الشرق.

الشرق الأوسط، إجمالاً، يتألف من بلدان حارَّة، مع تباين في الحرارة، يتأكد أكثر كلَّما بَعُدنا عن البحر أكثر.

في العربيَّة، ومصر العليا، حزيران هو الشهر الأشدّ حرارة؛ أمَّا في شماليّهما فشهر تَمُّوز هو الذي يسجِّل أعلى قياس للحرارة. ـ القياس الوسطى في العراق يبلغ ٣٥° إلى ٣٦° مع ذروة متوسّطها /٤٣°/ الى /٤٤°/ وذروة مطلقة تقرب من /٦٠°/. ـ وشهر كانون الثاني هو الأشدّ برداً في كلّ مكان وفيه تنخفض الحرارة، وسطيًّا، إلى /١°/ و ٠°/ في الموصل وإلى /٢°/ و /٢/ في القاهرة؛ وبعد شباط تبدأ الحرارة ارتفاعها، بمعنى أنّه، عمليًّاً، لا يوجد سوى فصلين إثنين متعارضين تتفاوت وتختلف مددهما دون فاصل إنتقالي حقيقي. فالصيف الذي يدوم أكثر من ستّة أشهر هو المتميز بغياب كامل للتغيُّرات المفاجئة من أيَّار حتّى تشرين الأول، باستثناء جنوب الجزيرة العربيّة. . ويتلو الخريف الذي لا وجود له واقعيًّاً، يتلوه شتاء قصير بعلاماته المتميّزة أكثر في الداخل. . فالمياه تتجمد، ويتشكَّل الجليد في دمشق كما في طهران بالهضبة الإيرانية. . ومع مطلع آذار يبدأ الربيع فتنمو النباتات ويتفتّح زهر الصحراء؛ ومع آخر نيسان تتدفق هبَّات الريح الحارَّة معلنة قدوم الصّيف دون غيوم، في سماء زرقتها صافية وثابتة.

أمَّا فيما يخصّ التغيّرات الطقسيّة التي تنجم عنها الأمطار والطلّ والثلج فلا بدّ من التمييز بين قطّاعين في الشرق الأوسط العربي، أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب: - ففي الشمال، المصدر الوحيد لرطوبة الأجواء هو البحر الأبيض المتوسط إذ لا تصل إلى هذا القطاع من شماله، وشرقه، وجنوبه، سوى الهبّات الجافّة والرياح الوحيدة المطرة تأتي من الغرب ناقلة رطوبتها إلى منحدرات الجبال وسفوحها. . ومن هنا كانت ضخامة أمطار إقليم سورية التي تغذّي المدّخرات الجوفيّة للآبار والينابيع التي عليها تعتمد حياة البلاد. - أما في الجنوب فشبه الجزيرة العربيّة لا تستفيد قط من رطوبة أجواء البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج لأنَّ التضاريس الشاطئيَّة تحجز الرُّطوبة وتستفيد، وحدها، من أمطار الرياح الموسميّة؛ فيختلف توزُّع الأمطار وتقلّ نسبتها تدريجيًّا، من الشمال إلى الجنوب في حين تختلف في الغرب عنها في الشرق. . والتموُّن من المياه الجوفيّة في الشرق الأوسط العربي يتأمَّن بنسبة تفاوت تفاوت الأمطار وغزارتها على الأراضي ذات السطح النفيذ.

نسبة المياه الجارية والمدّخرة تتوقَّف على التغيّرات الطقسيّة أكثر منها على التضاريس والبنية الجيولوجيَّة؛ ففي الشرق الأوسط العربي يوجد نمطان إثنان للنِّظام الهيدروغرافي: - نمط الوادي ونمط النهر:

الوادي مسيل حفرته مياه الأمطار، يجفّ مجراه بعد نهاية فترة الأمطار القصيرة. وهذا السيل العارم عادةً، يحمل كلّ شيء يعترض مجراه فيتعجّل تآكل التربة وتحاتّها حتى إذا بلغ مركناً أو حوضاً وضع فيهما ما يحمله من حصى وطمي. . والعناصر المساميّة تدع للماء فرصة المرور إلى أعماق التربة فتدوم الرطوبة زمناً يكفي لأن تنبت الأعشاب وتنمو. والوديان تغيِّر مجراها أحياناً، وهي غير صالحة لما تصلح له الأنهار من إستخدامات رغم الجهود المبذولة لتثبيت جرفها وحوافها؛ وديان كثيرة تصلح للإستدلال على خط السير مثل وادي السرحان جنوب فلسطين ووادي الرمّة شمال شرق العربيّة.

والنهر مجرى ماء دائم يكثر وجوده في المناطق ذات الأمطار الفصليّة الغزيرة، وذات البنية الجيولوجيّة التي فيها قشرة نفيذة تستوعب كميات كافية من المياه تعود لتظهر عند التقائها بقشرة خزفية.. تظهر على شكل ينابيع تتفجر من ذاتها. ـ على شواطيء ومنحدرات جبال سورية ولبنان ليشكّل النهر سيلاً قصيراً جداً ويحفر مجرىً يتحوَّل إلى منفذ إلى الداخل يستخدمه الناس.

المناخ يعطي للمياه الأرضيّة دوراً جوهريّاً من أجل الحياة الزراعيّة.. ففي الشّرق الأوسط، تحت سماء بخيلة بالأمطار، أصغر الينابيع وترشحّات المياه تسبغ على الأرض الصهباء رداءها الأخضر.. علماً أنّ عوامل الطبيعة كلّها في الشرق تعمل ضدّ تكوّن الينابيع الدائمة: ـ المياه عرضة للرّياح وللشّمس فتتبخّر عند السطح حتّى قبل أن تتمكّن التربة النفيذة من استيعابها؛ وأيّة عقبة تضع حدّاً لمجرى الماء فتتبدّد مياهه في المستنقعات؛ ففي فلسطين يضيع الاردن، بعد تعرّجات عريضة، يضيع في البحر الميّت. ـ في سورية، الليطاني، والعاصي يجريان الواحد من الشمال جنوباً والثاني من الجنوب شمالاً ليصبّا في البحر الأبيض المتوسط. ـ وبردى الذي يحمل الخصب والرواء لمدينة دمشق يضيع عند مشارف الصحراء بعد أن يكون قد وزّع كلّ مياهه، تقريباً، على تفرّعات الغوطة العديدة. ـ في الشمال، نهر قويق يمرّ في حلب ويضيع في مستنقع المطخ.

نهر عفرين، والنهر الأسود يندمجان مع نهر العاصي في بحيرة العمق. ـ الفرات يستفيد من مياه السّاجور والبليخ، والخابور، ويتعرّض لدرجة عالية جدّاً من التبخّر لأنّ انحداره هاديء جداً، في حين أنّ دجلة، بسيره السّريع، يتلقّى، على ضفته الشرقيّة، مياه الزاب، وديالة، ولا يفقد الكثير من مياهه عن طريق التبخّر.. والنهران، كلاهما، يلتقيان في شطّ العرب شمال الخليج.

إجمالاً، الشبكة الهيدروغرافيّة متواضعة جدّاً. ومنذ آلاف السنين أظهر سكان هذه المنطقة من العالم كنوزاً من المهارات الفنيّة

والهندسيّة للإحتفاظ بكلّ قطرة ماء ولحسن استخدامها، والفضل، هنا، يكون لنظام الريّ العلميّ المعقّد فتقوم السدود والأقنية وتتوفّر إمكانات الحياة الزراعيّة.

في الشرق الأوسط العربي، خشونة وقسوة الوسط، الذي على الإنسان التعوّد عليه، تمارسان على هذا الإنسان تأثيراً ونفوذاً عميقين؛ وهناك شكلان من أشكال الحياة يتيسّران له: ـ حياة البداوة، في الصحراء التي تتحكّم بالمنطقة بسبب إتساعها. . أو الحياة المدنيّة، في المدن القائمة على حافّة الصحراء، أو على طول الأنهار، وعلى خطوط سير المواصلات التجاريّة. ونمطا الحياة موجودان في آن واحد في مناطق السهوب حيث يتعاطى الناس أعمال الزراعة ويعيشون حياة الرّعاة. وهذه لوحة بيانيّة تعطينا الأنماط البشريّة التالية في الشرق الأوسط العربي:

البدويّ، راعي الإبل، يتنقّل، متّبعاً، في حلّه وترحاله، خطّ سير تقليدي: فهو، أحياناً، مالك أرض ينشيء عليها المزارع، ونصف البدوي موجود داخل محيط دائرة السهب حيث الرطوبة موجودة بمقدار يكفي لز راعات معيّنة؛ وحتّى حقبة زمنيّة قريبة، كانت السهوب موئل البداة أصحاب الأغنام على طول مجرى الفرات ويوجد بدو رحّل جبليّون يرتادون الجبل والسهل معاً وكثيراً ما يستوطنون.

أما الفلاّح الجبلي، فتجده في السلاسل الجبليّة المواجهة للسواحل اللبنانيّة، والسّوريّة؛ فهو يجهل النجعة الكبيرة، يملك الأرض ويمارس البستنة غالباً والقروي الحقيقي ـ الفلاّح ـ يشتغل في الواحات تحت هيمنة البدوي أو نصف الحضري في العراق والجزيرة؛ أمّا في مصر ـ حيث كانت الأرض، إلى وقت قريب، لكبار الملاّكين. فالقروي عامل زراعي مياوم، أو مشارك، أو مزارع. في القرن الوسيط كان النظام العام نظام الملكيّات الكبيرة. . والدولة الإسلاميّة كانت تُقطع الأراضي للوجهاء والمتنفّذين وفق نظام حقّ الانتفاع، وحتى يحصل هؤلاء على مردود أكبر، كانو يشرفون مباشرة

على الأعمال ويستثمرون أراضيهم بموجب إتفاقات مشاركة وكان يوجد، أيضاً، أراضي جماعيّة عائدة للقرية يستثمرها سكانها وفق نظام المشاع.

منذ آلاف السنين، لعبت الحياة المدنيّة دوراً هامّاً في الشرق الأوسط، المنطقة التي كثرت فيها المدن، ومنطقة العبور والإتّصال بين عدّة قارّات.. بعض مدنها القديمة ماتت ودُثرت (مجرّد تلال) والأخرى بقيت مسكونة إلى أيّامنا هذه.. والعامل الجوهري في المدينة أنّها مركز تجارة تزدهر عندما تزاول اقتصاداً منفتحاً تحيا به وبه توفّر أسباب الحياة للمسافرين والعابرين؛ ومن أجل ذلك يكون على هذه المدن أن تحيط نفسها بمناطق زراعية وينشأ ويستقر المهنيّون فيها فتقوم الصناعات المحليّة. وحالما تصبح للمدينة، إيّاها، أهميّة سياسيّة تنشأ وتنمو فيها الوظائف العامّة ويأتي الإزدهار محصّلة لنشاطات الأفراد وقدرتهم على إقامة علاقات دوليّة، ضروريّة، لتحقيق الأعمال المزدهرة حتى إذا اعترى العلاقات الإقتصادية فتور ما، كان ذلك البداية لزوال الطابع المدني عنها.

ثلاث قارّات تلتقي في الشرق الأوسط العربي، وتجعل منه ملتقى طرق هامّاً جدّاً إذ تتوارد نحوه طرق أوروبة والشرق الأقصى البحريّة وطرق قارّيّة أخرى مثل طريق الذّهب من النيجر حتى العراق، وطريق البخور بين اليمن وبين شواطيء البحر الأسود، وطريق الحرير بين أقاصي الصين وبين سورية الشماليّة، وطريق الفراء بين غابات روسية وأسواق بغداد.. ومرافيء أخرى تربط بين البحر الأبيض المتوسط وبين إيران.

مجاري الأنهار الكبيرة كانت تشكّل طرق مواصلات نهريّة للنقل بالمراكب.. وكانت المنطقة مغطّاة أيضاً، بشبكة طرق خاصّة بالحجّ:
- فيها الأماكن المقدّسة مثل القدس ومواقع أخرى حولها يزورها ويحجّ إليها المؤمنون من أبناء الديانات السّماويّة الثلاث التي وُلد جميع انبيائها وعاشوا في هذا الشّرق؛ وثمّة أماكن أخرى مقدّسة كان الحجّ

إليها قديماً جدًّاً وظلَّت مقصد المسلمين مثل مكَّة والمدينة.

إذا كان الشَّرق الأوسط العربي له خاصَّته النوعيّة التي فرضها العامل الجيولوجي إضافة إلى المناخ؛ فسوف نرى أنَّ التاريخ أعطى البلدان التي يتألَّف منها بعض أوجه الإختلاف أيضاً.



الفصل الاول

الشرق الأوسط قبل الهجرة

الدول العربية القديمة

الصحراء هي الغالبة المهيمنة على شبه الجزيرة العربيّة فارضةً عليها البداوة الرعويّة؛ والهجرات الجماعيَّة، على تفاوت أهميَّتها، كان أصلها إمَّا نموّ العرب الديمغرافي، وإمَّا كساد وبوار الحياة الإقتصادية وتجارة القوافل في جنوبيّ العربيَّة، حول «المحيط الصحراوي.. مجال البداوة»، (والتعبير أخذناه من «ماكسيم رودنسون» في كتابه «محمّد» ص /٣٣/)، حول مناهل الماء، وفي المناطق الغنيَّة بالأمطار، استقرّ سكّان حضريُّون تعاطوا زراعة الحبوب والنخيل والواحات.

في أثناء الألف سنة الثانية، كان تدجين الجمل وحيد السنام فحقّق تحسّناً في شروط حياة البدوي ونمّى علاقاته مع الحضريّ وساعد هذا الأخير على توسيع دائرة عمله التجاري؛ وحققت القوافل الروابط بين مختلف الأوساط الإنسانية، كما حدثت هجرة نحو داخل البلاد حيث كان يوجد سكّان قدماء قليلو العدد.. ففي المنطقة الموجودة شمال شبه الجزيرة، بين ما بين النهرين وبين سورية، شكّل البداة قبائل متنقِّلة وهؤلاء البدو الفقراء المحرومون من لوازم الزراعة عُرِّفوا بتسمية [أعرابيّ - أعراب] في نصوص كتب القدماء الّتي تعود إلى القرن التاسع والقرن السادس قبل الميلاد؛ ومنذ تلك الحقبة والعرب يتسرَّبون الى السهول الخصبة شمال الصحراء السُّورية، عند

أطراف الهلال الخصيب ويستوطنون أحياناً متَّخذين الآراميّة لساناً لهم بانتظار التأثر المتفاوت النِسَب بأخلاق اليونان وطباعهم وثقافتهم. والمؤرخون اليونان سمُّوهم «ساراكينوا» («سارّاسينوس» لدى الرومان و «سارّازان» وهو الاسم الذي أطلقه الغربيون في القرن الوسيط على عرب أوروبة وأفريقية).

ونعلم أنَّه، في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، ساعد محاربون عرب « سيروس الأوّل» على فتح «بابل» فأصبح الشرق الأوسط تابعاً للأمبراطوريَّة الفارسيّة «الأخيمينيديّة» ـ وعرب آخرون قدَّموا الجمال لملك فارس.

وآخرون حالفوا ملوك آسية الثائرين ضدّ فارس.

وعندما فتح الإسكندر الامبراطوريّة الأخيمينيديّة، أخضع العربيّة أيضاً وألزم سكّانها أن يقدِّموا للجيش اليوناني السلاح والألبسة. وبعد موت الإسكندر، معظم عرب الجزء الغربي من العربيّة، وكذلك المواطن العربية على الساحل السُّوري اللبناني، انحازوا ألى «أنطيوخوس»؛ وفي حروب الشّرق الدامية، في القرن الأول قبل الميلاد، حارب العرب إلى جانب الرومان ضدّ «ميتريدات» (٧٩ ق. م) وثاروا في سوريّة ضد « بومبيه» الذي هزمهم عام /٦٣/ ق م؛ وبعد بضعة أعوام عملوا ضد «البارثيِّين» (الفرس).

منذ القرن السابع تشكَّلت جماعات عربيّة كبيرة متَّجهة إلى بناء دولٍ لها ومن بينها، قامت في جنوب البحر الميِّت، مملكة النبطيّين التي دامت حتّى عام /١٠٦/ للميلاد وهو التاريخ الذي، فيه، نجح «تراجان» بإنهاء استقلال تلك الدولة وتحويلها إلى « إقليم عربي» (بروفانسيا آرابيا).. علماً أن الدولة ـ إيَّاها ـ اتسعت، في القرن الأوّل قبل الميلاد، حتى حوران ودمشق وبالإتِّجاه الجنوبي الغربي وصلت شواطيء البحر الأحمر، والجانب الشرقي من دلتا النيل؛ والبتراء، عاصمة المملكة، المتحصِّنة جيِّداً بموقعها الجبلي. كانت سوقاً واسعة للتجارة الداخليّة والخارجيّة وما زالت، إلى اليوم، مبعثاً

للدهشة بروعة أبنيتها المنحوتة في الصخور الكلسيّة الحمراء.

مملكة أخرى نمت في قلب الصحراء السوريّة قرب نبع ماء غزير: - إنَّها «تدمر» التي عرفت في التاريخ بإسم «بالميرا». وتدمر مدينة هامَّة منذ القرن الأوّل قبل الميلاد وظلّت مستقلّة عن «بومبيه» الذي حوَّل سوريّة إلى إقليم تابع لروما؛ إلَّا أنَّ تدمر فقدت حرِّيتها في القرن الأوَّل للميلاد وأستعادت هذه الحرِّيّة في منتصف القرن الثاني ثمَّ أصبحت مستعمرة رومانيّة منذ نهاية القرن الثاني إلى منتصف القرن الثالث، وفي عام /٢٦٥/م، أذينة أمير تدمر تلقّى من روما لقب «دوق» مكافأة له على الهزيمة القاسية التي ألحقها بشابور الأوّل ابن «ادرشهر» الذي سبق له، قبل سنوات خمس، أن أسر الأمبراطور «فاليريان» - في ظلّ حكم زينب «زنوبيا» أرملة أذينة ووريثته بلغت تدمر ذروة قوّتها وتوسّعها الأمر الذي أثار مخاوف روما وانتهى الصراع بينهما إلى تداعي وسقوط المملكة وأسر ملكتها.

السياسة الرومانيّة الرامية إلى كسب ودّ العرب على أساس الإتّحاد مع الأمبراطورية، أو مساعدتها ضدّ بدو الصحراء وضدّ الفرس، تلك السياسة إستؤنفت ونمت من قبل أباطرة الشرق.

اللّخميُّون والغسَّانيُّون

حقبة التنافس البيزنطي - الساساني التي دامت قرابة ثلاثة قرون - أي منذ مطلع القرن الرَّابع حتّى مطلع القرن السابع - ستشهد ظهور نزاعات وحروب دولتين عربيّتين أقامت كلٌّ منهما روابط تبعيّة إحداهما مع العاهل السَّاساني، والثّانية مع الأمبراطور البيزنطي.. وبذلك أصبح إقليم الفرات إقليم حدود فارسيّة يخضع لسلطة اللخميّين حتّى عام /٦٠٢/ م؛ في حين أنَّ إقليم سوريّة أصبح في قبضة الغسَّانيِّين الذين مُنح رؤساؤهم لقب «فيلارك - *PHYLARQUE*» (فولارخوس

اليونانيَّة لقب قاضي القضاة الذي كان يرأس مؤتمر كلٌ من قبائل أثينا العشر) من قبل الملك البيزنطي.

١ - اللَّخميُّون

● على التخوم الشرقيّة للصحراء السوريّة، وغرب الفرات، تعيش عدَّة قبائل عربيّة، واختار الساسانيُّون من قبيلة تنوخ عائلة بني لخم جاعلين منها ملوك دولة تابعة كانت عاصمتها الحيرة التي فيها استوطنت العائلة المذكورة في مطلع القرن الثالث. وعلاقات تلك الدولة مع الرومان كانت جيِّدة إذا صدّقنا تسجيلات نقوش «نامارا» (٣٢٨)؛ والإتِّصالات المباشرة مع السكَّان الآراميِّين، المتقدِّمين ثقافياً في مواطنهم بين النهرين، حقَّقت نموًّا سريعاً للملكة اللَّخميّة.. كما أن لجوء اعداد من النساطرة ضحايا الإضطهاد اليوناني، جعل اللَّخميِّين يختارون العقيدة المسيحيّة النسطوريّة مذهباً لهم وبذلك صارت الحيرة مركز مطرانيّة.

عبر الخدمات التي أدّوها للسَّاسانيِّين، ساهم اللَّخميُّون في عمليات حربيّة ضدّ البيزنطيِّين دون أن يتنازلوا عن تطلُّعاتهم الإستقلالية التي حقَّقوها مع الزمن؛ فامتلكوا زمام سياستهم الخاصَّة بين إيران وبيزنطية وهم يحصلون على الإعانات الماليَّة من الطرفين كليهما.. وأقام اللَّخميُّون علاقات مع قبائل وسط شبه الجزيرة العربية: كندة. ومَعَدّ. وبلغت هذه الدولة ذروة قوَّتها إبَّان ملك المنذر الثالث (٥٠٣ - ٥٥٤) الذي هزمه الحارث الغسَّاني ولقي مصرعه قرب قنّسرين في سورية الشماليَّة. وبعد موت النعمان الثالث عام /٦٠٢/ م عيِّن كسرى الثاني حاكماً ساسانيًّا مكان النعمان.

٢ ـ الغسّانيّون

● في نهاية القرن الرابع، هاجرت نحو الشمال، مجموعة من القبائل من شبه الجزيرة العربيّة؛ ولم يمض قرنٌ حتّى أصبح رؤساء تلك القبائل مُقطعين من قبل الأمبراطور. وفي القرن السادس أختار ملوك بيزنطية أعواناً لهم، ضد هجمات الفرس، بني غسّان المسيحيين من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة المستوطنين في الأردن؛ ومقابل الإعانة الماليّة التي كانوا يتلّقونها كان هؤلاء يقدّمون الفرسان للجيش البيزنطي ومن هؤلاء الفرسان تشكلت وحدات مسلّحة متحرّكة شديدة الفعاليّة أصبحت الوارثة لدور رماة النبال التدمريّين الذين استخدمهم الأمبراطور الروماني «فسباسيان» (٦٩ ـ ٧٩م)، والوارثة أيضاً لدور المتطوّعة الذين جندهم «تراجان» في تدمر (٩٨ ـ ١١٧م). وتلقّى أمراؤهم (قادتهم) لقب «فيلاركوس». ـ ولم تكن لهم عاصمة معيَّنة ومراكزهم كانت «جبيًا» في الجولان و«جلّق» في الجنوب من دمشق؛ وبعد زمن تمركزوا أيضاً في «سرجيو بوليس ـ الرصافة» جنوبيّ الفرات. وفي منتصف القرن السادس قام مُلك أشهر ملوكهم «الحارث بن جَبَلة» الذي شاركت كتائبه في الحروب ضد الفرس ـ «جوستيسيان» (نحو ٥٤٠م) منح من كان اليونان يسمّونه [*ARETHAS* ـ اريثاس] منحه لقب «فيلارك» ومنصب «بطريق». ـ في /٥٥٤/م انتصر الحارث على اللّخميّين في «يوم حليمة» كما سبق القول. ـ في /٥٦٩/م خلفه ابنه المنذر فهاجم اللّخميّين واستولى على الحيرة في العام الثاني وأخرقها وبعد ذلك بقليل نشبت خصومة بينه وبين «يوستان الثاني» وضعت حدّاً لها معاهدة أبرمت بينهما في الرّصافة. ـ عام /٥٨٠/ تلقّى من الامبراطور «طيبار» نفس الألقاب الممنوحة من قبل أبيه فتطلع المنذر إلى تأسيس دولة سوريّة مستقّلة

دينها المسيحيّة ومذهبها الطبيعة الواحدة فأوجست قسطنطينية خيفةً من تصاعد قوّته وغدر به البيزنطيُّون وحكموا عليه بالموت: - الأمبراطور «موريس» عدَّل الحكم واستبدله بالإبعاد فنفي إلى صقلّية. ونهض ابنه النعمان للثأر له فألحق الخراب والدمار بجميع مناطق سورية ولكنه اعتقل بدوره وألحق بأبيه في منفاه؛ ومنذئذٍ قسمت مملكة الغسَّانيِّين بين /١٥/ رئيساً بعضهم تحالف مع الفرس.

الغسَّانيُّون الذين بقوا في سورية مرُّوا بمحنة كبرى بين [٦١٢ - ٦١٤ م] إبَّان حملة كسرى الثاني الذي احتلَّ دمشق والقدس ووصل إلى الإسكندرية في /٦١٩/. وخلال الربع الأوّل من القرن السَّابع فرضت على «هرقل» خليفة «موريس» مواجهة أزمة عميقة ولكنَّه صمد لها وأحرز نصراً على الفرس عام /٦٢٨/ ولكنه سلك سياسة دينيَّة رعناء خلت من روحه التسامح فتسبَّبت بتخلِّي العرب عنه ووقوفهم مع الهجمات الجادَّة الأولى التي قام بها المسلمون القادمون من العربية.

ممالك العربيّة الجنوبيّة

في الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربيّة، المنطقة التي كان يسمّيها الرومان «آرابيا فيليكس» وسمّاها العرب «اليمن»؛ تختلف المناطق كثيراً: ـ الأمطار المنتظمة للرّياح الموسميّة تغذّي بنباتات التربة الخصبة، وتنظيم الريّ يسمح بوجود زراعة الحبوب والأشجار المثمرة والبقوليّات وكذلك كروم العنب والكثير من البهارات الغالية الثمن.. في حين كانت تنبت على الساحل الجنوبي أشجار الصّبر والبخور؛ وكان على سكان جنوب العربيّة أن ينمّوا؛ باكراً جدّاً، علاقاتهم التجاريّة مع مصر و «ديلوس» (اليونان) وما بين النهرين، وكذلك مع الهند وأفريقية الشرقيّة. واستخدموا، في مواصلاتهم التجارية الأرضيّة،عناصر من بدو العربيّة.

● في منتصف الألف الأوّل قبل الميلاد حصلت حركة هجرة نحو العربيّة من على ضفاف الفرات ويبدو أنّها نجمت عن كثافة السكّان.. ونما تيّاران على طول كلٍّ من الساحل الغربي والساحل الشرقي. كما أنّ عرباً جاؤوا من شمال العربيّة وأستوطنوا في جنوبيّ شبه الجزيرة.

ففي القرن الثامن قامت في المنطقة المذكورة أربع ممالك: ـ معان ـ سبأ ـ قطبان ـ حضرموت.

● دولة معان موجودة شمال سبأ، ودولة قطبان إلى الجنوب والجنوب الغربي، وحضرموت إلى الشرق. واختلفت الروايات في تحديد تواريخ قيام هذه الدول:

قال البعض أنّ دولتي معان وسبأ تزامنتا. وآخرون قالوا أنّ معان سبقت سبأ؛ وحسب أقدم الوثائق التاريخيّة المتوفّرة قامت المملكتان المتنافستان في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد وأقدم الوثائق هي كناية عن نقوش الكتابات ذات شكل الزاوية

[CUNEIFORME]ولا تتعدى، بقدمها، القرن الثامن قبل الميلاد، أي الحقبة التي فيها، احتلّ الملك الآشوري «تقلات بيلاصر الثالث» (٧٢٥ ـ ٧٤٥) جزءاً من سورية، وأخضع مملكة سبأ.

● في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، الحميريُّون (الذين ذكرهم المؤرخون اليونان الكلاسيكيُّون بإسم «حِمْيَريتَايْ») أخضعوا السبئيِّين لسلطانهم وأصبح لقب ملوكهم «مَلك سبأ وذو ريدان» وأضافوا، بعد زمن، و«حضرموت واليمنان».

● في القرن الأوّل للميلاد حكم الحميريُّون العربيّة الجنوبيّة كلّها فأقامت روما مع هذه المملكة علاقات تجاريّة. ـ وفي القرن الرابع نجح ملوك «أقصوم» الأحباش في فرض سيطرتهم فأقام الأباطرة البيزنطيُّون علاقات جيِّدة مع الحميريِّين لتأمين تجارتهم وللحيلولة دون امتداد نفوذ الساسانيِّين إلى هذه المنطقة من العربية.

● بعثات علميَّة آثاريّة تتابعت منذ ربع قرن، ولم يقتصر ما حقَّقته، فقط، على إكمال مجموعة الوثائق الغنيّة جدّاً من المنقوشات الكتابيّة التي أعطتنا نصوصاً قانونيّة، وإداريّة، ودينيّة، بل عثرت على قطع من العملات، ومن أدوات الفن الشاهدة على مؤثرات يونانيّة، وهنديّة.. وساعدت على دراسة المنشآت المائية، وأشهرها سدُّ مأرب؛ وبالتالي معرفة هندسة بناء المدن القديمة وتنظيمها.

● في وسط القرن الرابع هاجرت من حضرموت قبيلة منشؤها جنوب شبه الجزيرة العربيّة بسبب هزيمة لحقت بها في حروب محليّة عديدة:

إنَّها قبيلة كِنْدَة التي تكامل تاريخها من قطاعات جغرافية مختلفة.. ففريق من الكنديِّين لجأ إلى شمال نجد؛ ومن هناك تسرَّب بعض الفريق المذكور إلى العراق وفلسطين وسورية، في حين اتّجه البعض الآخر إلى وسط العربيّة واحتلّ جزءاً من أراضي قبيلة مَعَدّ ومداها الحيوي. ونجح سيِّد كندة في قهر وإخضاع القبائل، وإعادة

تجميعها في اتحاد حقيقي كان تطوُّراً جديداً من نوعه بالنسبة لقبائل بدويَّة تأبى تقاليدها التنازل عن استقلالها القبلي.

● وفي القرن الخامس تمّ توحيد جنوبي العربيّة وقام ملكها «ابو كرب أسد» بغارات وعمليّات غزو بعيداً جدًّاً، بمعاضدة ومؤازرة مرتزقة من أهل البادية أو مُقْطَعِين مثل ملوك كندة، ومن بينهم «حجر آكل المرار» الذي اتّسعت الأراضي الخاضعة لنفوذه لتشمل الجزء الأكبر من وسط العربيّة... ولكن المدى المذكور تمزّق بعد موته بسبب الصراعات القبليّة المستجدَّة.

● في أواخر القرن الخامس، وفي عهد الحارث بن عمر، حفيد حجر، (المعروف لدى البيزنطيِّين بإسم «آريْتَاسْ») وصلت عائلة كندة الملكيَّة ذروة قوَّتها إذ تمكّن الحارث، منذ السنوات الأولى من القرن التالي، أن يصبح سيِّد عرب العراق جميعهم بمن فيهم ملك الحيرة اللَّخمي الذي خضع له أيضاً؛ وفي عام /٥٢٥/ سمِّي ملك كندة «فيلارك» العرب من قبل امبراطور بيزنطية.. ولكنّه مات في العام التالي فازداد الوضع السياسي لملوك كندة تعقيداً، وخصوصاً بعد موقعة «كلاب» التي تفجَّرت، على أثرها، المنافسات القبلية. وحتى ولدا الحارث (شرحبيل - وسلامة) انقسم أحدهما على الآخر ومع كلٍّ منهما أنصاره... - آخر أمراء قبيلة كندة كان الشاعر الكبير امرؤ القيس ابن حجر الذي لم يستطع بلوغ الثأر لأبيه الذي قتله جماعة من بني أسد إذ مات في النصف الأوّل من القرن السادس، في أنقرة، وهو عائد من القسطنطينية حيث طلب العون لبلوغ ثأره واستعادة ملك أبيه.

● في تلك الحقبة التاريخيّة، كان التنافس في أوجه؛ جنوبي شبه الجزيرة العربية، بين الديانتين الإبراهيميّتين القائلتين بوحدانيّة الله.. ففي موقف مضاددة الأحباش المسيحيين، أعطى الحميريُّون، عام /٥١٠/، السلطة، لأمير سبق وأعلن تحوُّله إلى دين اليهوديَّة.. إنّه «ذو نؤاس يوسف» وقد قام ذلك الأمير باضطهاد المسيحيين، في جنوب الجزيرة، وأقام علاقات مع الفرس.. ولمّا اطلع الأمبراطور

على واقع الحال، رأى فيه تهديداً لبيزنطية، وعندئذ، في عام /٥١٢/ طلب من حليفه ملك أقصوم غزو أراضي العربيّة الجنوبيّة الغربيّة؛ ففعل، وأعاد الهدوء إلى المنطقة ثمّ ردّ معظم قوّاته إلى مواطنها بأفريقية.. واغتنم ذو نؤاس الفرصة ليقوم بحملة اضطهاد عنيفة ودامية ضدّ مسيحيّين «نجران»؛ ومرّة جديدة، طلبت بيزنطية من أقصوم التدخّل فتحرّك جيش حبشي بقيادة «آريات» واجتاز مضيق باب المندب والحق، عام /٥٢٥/ هزيمة حادّة بالملك الحميري الذي قالت الأسطورة أنّه رمى بنفسه، مع جواده، في البحر ومات غرقاً..

● العناصر الحبشية الذين بقوا في العربيّة ثاروا عام /٥٣٠/ وسوّدوا عليهم «أبرهة» (وهو عبد مسيحي سابق) الذي قام، باديء ذي بدء بإعلان الإستقلال عن أقصوم.. ثمّ عاد وتقرّب إليه وانتهج سياسة عدوانية ضد فارس. ـ عام /٥٤٢/ حدث نقب في سدّ مأرب فقام أبرهة بإجراء إصلاحات له؛ ولكنّ الكارثة حلّت بعد وقت قليل فحوّلت سهل سبأ الخصب إلى سهب صحراوي.. وإلى ذلك رمزت الصورة القرآنيّة /٣٤/. ـ عام /٥٤٧/ فتح أبرهة معركة ضد قبيلة مَعَدّ وهزمها.. وحسب الرواية الإسلامية، وجّه أبرهة، عام /٥٧٠/، جيشاً لغزو مكّة وأطلق على ذلك الغزو إسم «حرب الفيل» (عام الفيل) ـ وإنّه لمن الصعب التسليم أنّ ملك أبرهة امتدّ إلى التاريخ الآنف الذكر؛ وثمّة حاجة إلى العلم إذا كانت الرواية قد قامت بنقل فوز عام /٥٤٧/، المثبت في النقوش، على العام /٥٧٠/؟.

والسلالة التي أسّسها هذا العبد السابق ظلت تحكم حتّى الغزو الفارسي؛ والحميريّـون، الذين ملّوا وصـاية الأفـارقة المتسلّطين عليهم، هم الذين استنجدوا بالفرس فوصلوا، عن طريق البحر، عام /٥٧٥/ وبعد أن طردوا الأحباش، حوّلوا العربيّة الجنوبيّة ألى حماية فارسيّة تحت الزعامة الإسميّة لواحد من أحفاد ملوك حمير، سيف بن ذي يزن.

الدولتان الأعظم قبل الهجرة

في القرن السَّابع، كانت مكَّة تقيم علاقات مع الدولتين العظميين في القرن المذكور ونعني بيزنطية وإيران: - أمبراطوريَّتان تقاسمتا فيما بينهما الشرق السامي وارتبط مصير إحداهما بالأخرى ارتباطاً وثيقاً لأنَّ القرون الثلاثة التي سبقت ظهور محمَّد امتلأت بالثورات والحروب واستنزفت قوى كلٍّ من العدوَّين المتنافسين في صراعهما على الهيمنة الاقتصاديَّة العالميَّة.

منذ عام /٣٣٠/ أصبحت قسطنطينيّة هي العاصمة للأمبراطوريّة البيزنطيّة التي كانت يونانيَّة اللِّسان، ملكيَّـة أرثوذكسيَّـة المذهب الديني، ورومانيّة النظام الإداري في أهمِّ نقاطه. - وحدود تلك الأمبراطوريّة كانت نفس حدود الأمبراطوريّة الرومانيّة في الشرق التي كانت تشمل، عام /٦٠٠/، هضبة الأناضول، وسورية، ومصر، والجنوب الشرقي في أوروبة حتى الدانوب؛ بمعنى أنَّ جزر البحر الأبيض المتوسِّط كانت تحت سيطرتها مع بعض مناطق من إيطالية بالذات، ونقاط تمركز على سواحل أفريقية الشماليَّة. - وغزَّة ودمشق كانتا داخل منطقة نفوذ الأمبراطوريّة وفيهما كان ملتقى القوافل الغنيّة جدّاً. كان سلطان الأمبراطور سينتهي عند «النوبة» أي أن الملك البيزنطي، من جهة الغرب وفي الشمال الأفريقي، لم يكن يتعدَّى «سيرين»، فسكان سوريَّة الآراميُّون، وأقباط مصر، كانوا معارضين، حتى العداوة، لمذهب بيزنطية ويلتزمون طقوس مذهب الطبيعة الواحدة القائل أنَّه لا يوجد في المسيح سوى طبيعة واحدة هي طبيعة الإنسان المشغولة بالطبيعة الإلهيَّة.

● الدولة المنافسة لبيزنطيّة من جهة الشرق كانت أمبراطوريّة الساسانيِّين الإيرانيّة (الفارسيّة) التي خلفت أمبراطورية «الفارثيين» (الفرس القدامى) في القرن الثالث بعد الميلاد. وهذه الأمبراطورية تضمّ الأراضي الخصبة الممتدَّة من بلاد ما بين النهرين إلى أفغانستان وإلى الهكسوس في الشمال الشرقي، وتشغل هضبة هي الهضبة

الإيرانية باسطة سيطرتها على إقليم ساميٍّ هو العراق. ـ وعاصمة تلك الدولة ـ التي كانت الزرادشتيّة دينها الرسمي ـ كانت في «ستيسيفون ـ المدائن»، على دجلة، جنوب بغداد الحالية.. والبنية الداخليّة للأمبراطوريَّة الساسانية كانت أقلَّ استقراراً من أمبراطوريَّة بيزنطية، فالطغيان العسكري المستبدّ الذي اتَّسم به نظامها يعتمد قوَّات من المرتزقة مثيراً حركات النقمة والإستياء في أوساط قبائل الأقاليم الشرقيّة لخوارزم، وبختيار، وصوغديان بسمرقند ذات الوضع المتفجِّر، الخطر على النظام.

● خلال القرن السابع تفاقم التنافس بين الأمبراطوريتين واستتبع ذلك حروباً متَّصلة كان مسرح أغلبها داخل أراضي بيزنطية ومنها كان يخرج الفرس منتصرين دائماً؛ وبين /٦٠٣ و٦٢٨/ دارت، في الشرق، آخر الحروب وأكبرها بين الأمبراطوريَّتين فمنيت قوَّات الجهتين بخسائر باهظة. ومنذئذٍ رضي كلٌّ منهما بوضعه الرَّاهن.

البيزنطيون كانوا يريدون استعادة ما بين النهرين (بدعوى أنَّها «كانت رومانيّة») ومعها أرمينية وذلك أيَّام حكم «تراجان». ـ في حين أنَّ الفرس كانوا يحلمون بإعادة بناء أمبراطوريَّة داريوس الكبرى التي ضمَّت سوريَّة، ومصر، عبر البحر الأسود شمالاً والبحر الأبيض المتوسِّط غرباً؛ ومن أجل تحقيق ذلك الحلم استعملوا وسيلتي السِّياسة والحرب.

في مطلع القرن السابع، إبَّان جلوس «فوكاس» على العرش، (تشرين الثاني ٦٠٢) عانت بيزنطية من متاعب داخليّة.. وعلى حساب تقدُّم الأمبراطورية قامت الفتن والثورات بين الأفواج المسلَّحة وسادت المدن حالات الهياج الشعبي؛ فعمَّ الخوف، وساد القلق كلَّ مكان.

وفي أيَّام كسرى الثاني فارويز، حدث تغيير مشهود لأسلوب الحرب: ـ لم تعد أعمال الفرس الحربيَّة مقصورة على الغارات، بل أخذت شكل الفتوح والاحتلال وجني الغنائم؛ فبعد إنجاز عمليّاتهم الحربيَّة في «طور عابدين» و «ديار بكر» في عام /٦٠٩/، عبروا

الفرات غرباً واحتلُّوا هضبة منبج.. وفي /٦١٠/ استولوا على انطاكية.

في قسطنطينيّة، جاء هرقل خلفاً لفوكاس وكان الفرس يتابعون تقدّمهم في سورية.. وفي عام /٦١٢/ سقطت في أيديهم كلٌ من آفاميا وحمص ودمشق، ثم حاصروا القدس واحتلوها في الخامس من أيّار /٦١٤/ بعد حصار طويل.. وكانت خشبة الصّليب بين الغنائم التي نقلوها معهم إلى عاصمتهم. وبعد أن رسَّخ وجوده في [سوريَّة ـ فلسطين]، استأنف كسرى حربه ضدّ مصر التي كانت تموّن قسطنطينيّة بالقمح. وبين /٦١٧ و ٦١٩/ تمَّ احتلال الوجه البحري ومحاصرة اسكندرية ثم الاستيلاء عليها بالحيلة وبذلك قطعت مؤ ن القمح عن بيزنطية لمدَّة عشر سنوات دام فيها التسلط الفارسي على البلد.

● النجاحات الفارسيّة نجمت عن عوامل يعود بعضها إلى البغضاء الّتي يكنّها الشرقيون (يعاقبة ونساطرة ويهود) لبيزنطية التي أثقلت عواتقهم بالضرائب وجعلت الاضطهاد أسلوبها الرئيسي في التعامل معهم، إلا أنَّ توسُّع الأمبراطورية السّاسانية سرعان ما أضعفها.. وما أن تحرّك الملك «هرقليوس» لإعادة أوضاع الشرق إلى ما كانت عليه، حتّى نجح في استعادة مواقعه في سورية وعزم على مهاجمة الفرس من جهة ارمينية والقفقاز؛ وبفضل المشاحنات داخل الأسرة السّاسانيّة المالكة أحرز الأمبراطور البيزنطي نصراً على الفرس قرب نينوى في أيلول /٦٢٧/ وأصبح الطريق إلى المدائن العاصمة مفتوحاً أمام البيزنطيِّين فأعاد لهم الفرس الأقاليم التي احتلُّوها وأخلوا بعضها فعلاً في حين بقيت كلٌ من سورية ومصر بين يدي قائد فارسيّ متمرِّد وذلك حتّى عام /٦٢٩/. ـ وفي عام /٦٣٠/ أعاد الفرس الصُّلبان التي نهبوها سابقاً ومن بينها «الصليب الحقيقي» الذي عاد إلى مكانه في القدس وكانت اعادته تلك من وجهة نظر بيزنطية رمز انتصار المسيحية على الزردشتيية واليهوديّة ومذاهب الهراطقة.

● إيران المنهكة لم تعد قادرة أن تمنع حركات غزو في الشرق:

غارات الخزر من جهة القفقاز، ثمّ الترك القادمين من بختيار الأمر الذي جعل العاهل السّاساني، فيما بعد، عاجزاً عن مواجهة ضغوط القوى العربيّة الفتيّة التي وحّدتها إيديولوجية الإسلام الجديدة وسرعان ما تحوّلت إيران إلى جزء متمّم لدولة الخلافة.

● في بيزنطية شهدت الحياة الإجتماعية بعض الظواهر الدالّة أنّه قد آن، فعلاً، أوان انهيار وزوال آخر ما تبقى من علاقات الإسترقاق.. والمؤشرات الوثيقة الإرتباط بتلك الأزمة تمثّلت في حالات التمرّد العسكري، وتهييج الشعب وتحريضه في ما كان يُكتب أو يُترجم، والبدع والهرطقات المسيحيّة، ونجم عن كلّ ذلك ظهور قوىً جديدة نبذت الأسس البنيويّة الإجتماعيّة الأصليّة للمجتمع الإقطاعي. فقام نظام حكومي عملي أكثر واقعيّة أتاح لبيزنطية الصمود على جميع الجبهات؛ وأن تقاوم بخاصة، هجوم قوّتين شعبيّتين ديناميكيّتين نشيطين وفعالين: السلاف والعرب.. الأمر الذي تعجّل بإزاحة النظام الإقطاعي فانهار الإقتصاد الرقّي ونظام المزارعة بالإيجارة تحت ضربات الثورات وظهرت في الأمبراطوريّة طبقة جديدة هي طبقة الفلاّحين الطلقاء المتجمعين في «كومونات».

وهكذا: ـ قوّتان عالميّتان، وجدت كلٌ منهما نفسها، في حالة المواجهة المباشرة لتناقضاتها الداخليّة، تناقضات مجتمع إقتصادي رقّي، بلغ نهايته.. وكلٌ منهما حاولت عن طريق سياستها الخارجيّة، أن تجد مخرجاً من الأزمة؛ ولكن عبثاً فعلت. ـ «تاريخ بيزنطية وإيران، قبيل الفتح العربي سطّر أهم صفحات التاريخ العالمي وكان الشرق الأدنى مسرح قدرهما في نهايات القرنين السادس والسّابع». ـ هذا ما قالته المؤرخة السّوفيتيّة الكبيرة «نيتا بيجوليفسكايا».

● لقد توافق ظهور الإسلام في حين كانت تقوم وتتثبّت، في العالم الشّرقي، بنى إجتماعيّة واقتصاديّة جديدة، رافقها زوال قوى سياسيّة أخرى.

تطوُّر المجتمع قبل الهجرة

● بعد الأزمة الكبرى للقرن الثالث في العالم القديم، شوهد ظهور العلامات الأولى لمجتمع من نمط إقطاعي. وفي الامبراطوريَّة الرومانيّة - البيزنطيّة كان تقدُّم تلك الظاهرة وانتشارها بطيئين وإن انعدمت عوامل الرجعة إلى القديم؛ ففي الأرياف حلَّ عمل القنّ (الفلاّح المرتبط بالحقل والتابع للسيد) محلّ عمل العبد الرقيق؛ أما في المدينة، فبشكل تدريجي حلّ الحرفيّ الحرّ محلّ الرقيق.

صحيح أنَّ الفوارق والإختلاف في البُنى الإجتماعية العربيّة عكست فوارق واختلافات نموّ الأقاليم المختلفة في العربيّة؛ ومع ذلك، يمكن التأكيد أنَّ القرن الرابع شهد تطورات سريعة جدًّا في عادات وأعراف النظام الأبوي البدائي... فعلى ضوء سلسلة المستندات الحاليّة نجد أنَّ العرب البداة - في معظمهم - هم سليلو عرب حضريّين أختاروا أن يكونوا رعاة في القرون الأولى للميلاد، بسبب ما أصاب التجارة والزراعة من انحطاط وبوار في الشرق.

● في عهد الجاهليّة؛ كان المجتمع، في العربيّة، يشتمل على حضريّين بعضهم كانوا يعيشون في المدن التجاريّة، وبعضهم الآخر في الواحات التي كانت أيضاً مستقراً لنصف البداة مربيّ الأغنام الخاضعين للإرتحال الموسمي مثلهم مثل كبار البُداة أصحاب الإبل. - في العربيّة الجنوبيّة، كان الحضري المتمدن يعيش حياة ترف ورخاء في دول منظَّمة حيث العائلات الكهنوتيّة، راعية الهياكل، تتولّى إدارة خزائنها، وسياستها، وتلعب دوراً إجتماعياً هامًّا. والسُّكان الزراعيُّون المتحضّرون كانت لهم بنية إجتماعية قائمة على وحدة القرية ثمّ يشكِّل عدد من هذه الوحدات وحدة إجتماعيَّة تدلّ عليها، في العربيّة، كلمة «شعب». والرباط الإقتصادي كان يؤمن إلتحام الإتحاد السائد بين هذا «الشعب» أو ذاك. وكانت توجد إدارة اتحادية يتولى ملك سلطتها التنفيذية وكانت توجد هيئة تشرعية ومجلس

شورى.. في المدن، والواحات، والسهوب المزروعة، كانت تقوم بُنى إجتماعية تتواءم مع حياة الصحراء.

المجتمع البدوي

● بين الحقبة التي عاش فيها المسيح، وتلك التي عاش فيها محمّد، ثمّة يقظة عرفتها الحياة البدويّة، وفي القرن السادس، آل إلى الزوال، في العربيّة، مجتمع زراعي كانت تتوافق معه معظم البُنى البدويّة القليلة التأثير في الجهة الجنوبيّة الغربيّة من شبه الجزيرة ـ فالحياة البدويّة تستتبع توافقاً مع الوسط الجافّ القاحل المتميّز بانقطاع ولا تماسك تنبّت أنواع الشجر المتوائمة مع الجفاف (وسط لا تتعدى نسبة الأمطار فيه مئة ملّميتراً) ـ ولا بدّ من الإشارة أنّ تفكير البدوي يغذّي تفكير الراعي المتنقّل بسجايا وسمات الإنسان المحارب الوثيقة الإرتباط بتربية الجمال وحيدة السنام وكذلك بشكل معيّن من التنظيم القبلي.

● القبيلة هي الإطار للمجتمع البدوي الذي لا يقيده مكان أو حدود، علماً أنّ المعلومات الّتي لدينا مازالت، في الحقيقة، قاصرة، أو مشوّهة؛ وأعني المعلومات عن التنظيم القبلي العربي القديم.. ولذلك لا نعطي عنه، نحن، بدورنا، غير الخطوط العريضة. ـ عدد ما من الكيانات المستقلّة لبدو رُحّل، شكّل عشائر تخضع لسلطة إحداها، يؤلف مجتمعاً قبليّاً ذا بُنية بسيطة. ـ والبدوي رجل حرّ، طليق، لا يعرف التّنظيم المهني، ولا التصنيف الطبقي على أساس العمر كلّا ولا الجمعيّات السرّيّة؛ إلّا أنّ الشروط الماديّة للحياة في صحاري الشرق الأدنى لا تتيح له البقاء في أمان من الموت منهكاً، مرهقاً، إن لم يوثّق روابطه مع الآخرين، فإمكانيّات البقاء والإستمرار معدومة خارج إطار القبيلة.. وعندما لا تكون في مجتمع القبيلة انقسامات أفقية فالبنية العمودية تكون منطقيّة وتجد ما يعبّر عنها في الأنساب السُّلاليّة الغالية جدّاً على العرب حتّى أنّها كثيراً ما تتمثّل القبيلة بعائلة عريضة. ـ نظام عصبيّة كثير التفرّع يُلحق كلّ فرد بعائلة،

بعشيرة، بقبيلة، واتّحاد لواحد من الجدّين الأعظم: ـ عدنان بالنسبة لعرب الشمال. وقحطان بالنسبة لعرب الجنوب.

في الواقع، ذلك النظام يستند إلى مآثر ثابتة بالبراهين رغم ما يكتنفه من دهاء وحيلة.. والإختلاط العميق الذي فرضته الهجرات، والحروب أدّى، على صعيد القبيلة، إلى خلخلة تآلف وانسجام أسرة ما والإخلال بنظامها إخلالاً قد يصبح تحوُّلاً بالمعنى الكامل للكلمة؛ خصوصاً وأن العشيرة تقبل، في وسطها، عناصر غريبة، وزبائن دخلوا في حمايتها، أو اتّحدوا معها، وانتهى بهم الأمر إلى الإندماج الكامل بها عن طريق الزواج والمصاهرة أو بفضل تحالف الدم، أو الشعائر والطقوس الدينيّة القديمة.

تعريف القبيلة يتحدّد بأنها مجموعة عريضة من الأفراد تعارفوا على أساس أنَّ لهم جدّ مشترك يحملون إسمه جميعاً (بنو فلان) وتشدّ بعضهم إلى بعض أواصر قربى حميمة (لجهة الأب) فالتضامن يشدّ هذه الجماعة بعضها إلى بعض بحيث تكون مسؤولة، مسؤوليّة جماعيّة، عن كلٍّ من أعضائها.. وهذا التضامن الجماعي يتجلّى، بخاصّة، في حالات الثأر ممَّن يقتل بدويّاً (أنظر بشر فارس في «الشرف عند العرب»). وتطبيق القصاص ـ إحدى دعائم المجتمع البدوي ـ واجب على جميع أعضاء القبيلة، ومطاردة القتلة لا تتوقف إلا بعد القبول بتعويض عادل «الدية» (ثمن الدم) الذي قد يُدفع نقداً أو ما يعادل النقد المحدَّد من الإبل مثلاً.

المجتمع البدوي كان ليكون قائماً على المساواة.. فكلُّ عضو من القبيلة ندّ لأيٍّ كان من الآخرين؛ وقد لا تكون هذه المساواة كاملة، في الواقع، لأنَّ بعض العشائر تستطيع الإثراء دون سواها أو على حساب غيرها، وبذلك يتأكد وجود الأغنياء والفقراء. كلّ جماعة تختار لنفسها رئيساً ـ السيّد ـ يأخذ، فيما بعد، لقب «الشيخ» ـ والقاعدة في انتخابه هي سجاياه العالية المتميزة. وسلطته تكون محدودة فهو الذي يقود مناقشات مجلس الوجهاء ورؤساء العائلات

ولا يستطيع إتّخاذ أيّ إجراء مخالف لما يقرّونه فهو الساهر على حسن سير النظام، وينظم عمليات الإرتحال الموسميّة، وللقبيلة، أيضاً، رئيس مسؤول عن العمليّات الحربيّة (العقيد أو الرئيس) ـ والحكم أو «العارفة» ـ وهو أجدر بهذه التسمية من «القاضي» ـ يقترح على المتخاصمين الحلّ المتطابق مع الحقوق المتفقة مع العرف والعادة والتقليد وذلك سواء في الحقّ الجزائي والالتزامات والتعهّدات والمخالفات. ـ وهناك «الربّانيّ ـ الكاهن» الذي لا يمارس أي دور كهنوتي، بل هو، في شطحاته الإنتشائية، وفي رؤاه، يستلهم «الجنّ» وبذلك هو أقرب ما يكون إلى شخصيّة متميّزة لدى القبيلة هي شخصيّة الشاعر ـ وعبقر هي مصدر وحيه هو أيضاً ـ ولشعره الذي يتفنّن في نظمه نفوذ كبير وتأثير على الرأي العام، فهو البطل المحامي والمناضل عن العشيرة والقبيلة في مبارزات الفروسيّة، والمباريات الخطابيّة، أثناء الأسواق الكبرى وكان للشعراء، في دورهم ذلك، فضلٌ كبير في نشوء لغة تخاطب مشتركة لدى جميع القبائل العربيّة.

● على الصعيد الرُوحي، للبدوي إيمان معتدل، فقد يكون «شديد التعلّق بالمشاعر الدينيّة، إلا أنّه واقعيٌ.. وحياة الصحراء القاسية هيّأته سلفاً ليس ألى التأمل باللانهاية بمقدار الإدراك الدقيق لمواطن القوّة والعجز فيه..» (م. رودنسون ـ «محمد» ص ٣٨).

وفي مفهوم البدوي، لا حدود لحيويّة الإنسان وفعاليّته سوى تلك التي تُعزى للقدر الأعمى، «للدهر»، مصدر كلّ ما يحدث للإنسان من خير وشرّ.. وقد كان للبدوي مثلٌ أعلى أخلاقيٌ لا يلعب فيه الدين أيّ دور وتدفعه العراقة إلى تمثّله، مَثَله في ذلك، مَثَل كائنٍ تحلّى بالمروءة التي تستوجب الشجاعة والإحتمال والوفاء للجماعة من ذوي القربى وللواجبات واللوازم الاجتماعية وكرم الأخلاق وكرم الضيافة.

● البُنى الإجتماعية للعرب، في القرن السّادس ظلّت ضبابيّة متردّدة وكأنّها أقرب ما تكون ألى البدو الرحّل منها إلى المتحضّرين؛ فالانتساب إلى الأب هو الأساس للأسرة دون إقامة أيّ حساب

لاختلاف الأمَّهات. وسيطرة الرَّجل على المرأة أمر ملحوظ يتجلَّى في حقِّ تعدُّد الزوجات، وحقِّ الطَّلاق.. ومهما كان وضع البنت، وبلغ سنُّها؛ فالرضى الأبوي لازم في الزواج

أمَّا المرأة فإنَّها، بفضل عملها وتأثير أمومتها، تمثِّل ثروة للأسرة يتنازل عنها الوالد للزوج لقاء دفع «مهر» (هبة عرسيَّة) تكون «ضمانة».. «صداقاً» تستبقيه المرأة لها في حالة الطلاق. وفي بُنى الأسرة، وَعي صلة القربى والشعور بها يعطي الجماعة تماسكاً قويًّا، ومن هنا كانت الأهميَّة الكبرى المعطاة لشجرة النسب وللذرِّية والخلف وهذا هو الأصل في الاعتقاد بضرورة تزاوج أبناء العم وبنات العم كأن كان مثلاً أعلى للرجل أن يتزوَّج من بنت العمّ ولا بدّ من الإشارة، أخيراً، إلى اجتماع شمل الأسرة في «البيت» وهو الخيمة السوداء (بيت الشعر) لدى البدويّ والبيت المبني لدى المتحضر. ـ رئيس الأسرة يعيش مع زوجته وأولاده وعبيده وعندما يتزوَّج الأولاد يستقل كل منهم في خيمته الخاصَّة به وتصبح له أسرته.. بيوت الأولاد تُبنى على شكل دائرة حول مسكن الرئيس ومن هنا جاءت كلمة «الدوَّار». ـ مجموع المخيَّم يشكِّل عشيرة مبنيَّة على قرابة الأب.

الوضع الديني في القسم الأمامي من آسية

● من أجل فهم أحسن لظهور الإسلام في مطلع القرن السابع وانتشاره عبر القسم الأمامي من آسية، وفي شمال أفريقية؛ يكون من المفيد رسم لوحة للوضع الديني في الشرق في ذلك العهد.

إذا ما اعتبرنا الفرات خطًّاً فاصلا يقسم آسية الأمامية إلى شطرين: ـ من جهة، العالم الآسيوي الشرقي شرقاً؛ ومن جهة أخرى عالم البحر الأبيض المتوسِّط غرباً.. فإنَّنا لواجدون تداخل الحضارات في الشطرين كليهما.. وكلاهما مطبوعان بالحضارة اليونانية بشكل متفاوت.

في الشرق، مختلف الجماعات البشرية نسطوريّة أو «مانيّة» (مذهب مبدئي الخير والشرّ) إذا كانت هذه الجماعات تنتمي إلى المسيحيّة أما إذا كانت مؤمنة بالديانة الأقدم من المسيحية فهي زردشتيّة، وعندما نتوغّل أكثر شرقاً نجد شعوباً تابعة لتعاليم «بوذا» (القرن السادس قبل الميلاد) أو تعاليم «كونفوشيوس» (السادس والخامس قبل الميلاد) أو الثالوث الهندوسي (براهما وفيشنو وسيوه). - أمّا في الغرب فالمسيحيّة هي السائدة والكنيسة الرسوليّة (البابويّة) لم تكن مقسّمة بين روما وبيزنطية فهي كاثوليكية بالمعنى الكيفي للكلمة.

أفريقية الشماليّة التي تفاوتت، في أقطارها، نسب انتشار المسيحيّة وترسّخها، عرف البربر فيها «المانيّة» التي انتشرت منذ القرن الثالث لديهم حتى شملت أقاصي الغرب والشرق هناك؛ وأهمّ المصادر التي استلهمت منها تعاليمها كانت الهرطقة اليهوديّة - المسيحية والزردشتيّة الإيرانية. - وكثيرون كانوا العرب الّذين اعتنقوا المسيحيّة في أوج زخمها وحيويّتها في الشرق وقد تلقّوا تعاليمها على أيدي رهبان الارثوذكسية في فلسطين وسوريّة؛ ومعلوم أيّ شعور حارّ من الورع لدى بعض القبائل البدويّة نحو القدّيس «سمعان ستيليتوس» الموقّر في سوريّة الشماليّة. وبعضهم بلغوا رتبة القدّيسين في عمر مبكّر: - القدّيس موريس الشّهيد ورفاقه السبعون. - القدّيس باخوس والقدّيس سيرج (مار سركيس) - شهيدا القرن الرابع - وقبر هذا الأخير هو أحد أماكن الحجّ المسيحي الهامّة في «سرجيو بوليس» - الرصافة، شمال تدمر، على بُعد عدة كيلو مترات من الفرات. - والقدّيس «يوثيم الكبير» /٣٧٧ - ٤٧٣/ الذي هدى عدداً كبيراً من العرب؛ وأيضاً القديس «ساواس» /٤٣٩ - ٥٣١/ الزاهد (أو الناسك) مؤسّس رهبانيّة سدرون الكبرى؛ دون أن ننسى «الياس» العربيّ المولد، الذي أصبح بطريرك القدس بين /٤٩٤ - ٥١٧/. - في القرن الرابع، كان يوجد، في سورية، مجموعة هامّة من السكان المتحضّرين اعتنقت المسيحيّة كما تشهد بذلك كثرة

الكنائس في شمال سورية، في جبال البلعاس، وحماه، وحوران، في الجنوب، وبخاصّة في إزرع وكذلك آثار المركز الديني الكبير «بصرى». . ففي القرن الخامس، القبائل العربيّة مثل بني غسّان وبني لخم الذين عاشوا على الأطراف الخصبة لسورية وما بين النهرين، اعتنقوا المسيحيّة ثمّ إنحاز بعضهم إلى مذهب الطبيعة الواحدة وانحاز الأخرون إلى المذهب النسطوري (مذهب الطبيعتين). - في القرن الخامس والسادس مزّقت الشرق المسيحي المنازعات العقائدية الكبرى التي وجدت دمامةً لها في خصائص الشعوب التي تشكّلت منها الأمبراطوريّة البيزنطيّة. . فالأرثوذكسيّة ومذهب الطبيعة الواحدة والنسطوريّة كانت شديدة التنافس فيما بينها على تبوّء المناصب العالية في الإدارة، فقسطنطينية والمناطق المجاورة لها كانت تعتنق الأرثوذكسيّة التي حضيت بالحماية العلنيّة من قبل الأباطرة ولذلك سمّي أتباعها «ملكيّين» (أي أنصار الملك) أو كلدانيّين (وهذا تلميح إلى الحركة السرّية التي قامت عام /٤٥١/ ضدّ مذهب الطبيعة الواحدة)؛ ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ عبارة «أرثوذكس» كانت مستعملة من قبل كلّ الكنائس فتعطي كلاّ منها تسمية تختلف عن الأخرى فالارثوذكس يمكن أن يكونوا - مبدئيّاً - الكلدان أو الملكيّين، أو النسطوريّين، أو، أيضاً، اليعاقبة أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة. - في عام /٤٢٩/نسطوريوس بطريرك القسطنطينيّة، بشّر بوجود شخصين في ذات يسوع: لاهوتي وناسوتي وأنّ الله يسكن في الإنسان يسوع كما في معبد وذلك الإدراك والتصوّر بلغ نفي التجسيد وسلب مريم لقب «أمّ الله».

حركة «إيفاز» السّرّيّة، عام /٤٣١/، أدانت النسطوريّة التي ظلّت، مع ذلك، مذهباً له أنصاره المدافعون عنه في «إيداس وسورية الشماليّة». . ومن هناك انتشرت بعدئذٍ، في بلاد ما بين النهرين وصارت «تصّيبين» مركز الدعوة لها فتغلغلت في فارس ثمّ في الصين.

عام /٤١٠/ في ظلّ حكم «يزد شير الأوّل» (٣٩٩ - ٤٢٠) ٢

أعلنت الكنيسة الفارسيّة استقلالها (قنصلية سلوق) وهي تتشكل من ستة أقاليم أسقفية وتنتمي إلى عقيدة «نيسي» (مدينة إزنيق الحاليّة) في الأناضول. ـ لقد أعلنت استقلالها /١٨/ عاماً قبل بدء المنازعات النسطوريّة وفي نهاية القرن الخامس أكّدت عداوتها تجاه بيزنطية وأصحاب مذهب الطبيعة الواحدة في أنطاكية وانتمت إلى النسطوريّة مدلّلة، بذلك على أنّ اتباعها ليسوا أعداء للأمبراطوريّة الساسانيّة.

ـ منذ القرن السابع قبل الميلاد كانت المزدكيّة هي الديانة الرسمية لإيران وهي ديانة ثنائيّة قامت على تعارض الخير والشرّ وكتابها هو (آفستا، أو زند ـ آفستا) وهو مجموعة الكلام المقدّس المنسوب إلى زرادشت وتفسير وشرحه هو «الزند» وهو ديانة قديمة جدّاً فقدت تعاليمها تأثيرها الجاذب للجماهير في حين أنّ مذهب الطبيعة الواحدة جلب لفارس السّاسانيّة شيئاً جديداً وحيوياً فالمسيحيّة انتشرت في إيران بشكلها النسطوري السهل القبول من قبل سكّان تربّوا على النظرة الثنائيّة الى هذا العالم، فوجدت أتباعها، بخاصّة، بين الحرفيّين وتجّار المدن.

بالرّغم من تسامح كسرى الثاني، حصلت إضطهادات ضد المسيحيّين، وبخاصّة ضد الإيرانيّين المستجيبين للمسيحيّة الذين نال بعضهم الإستشهاد. ـ وردّ الفعل، ضد النسطوريّة، في الشرق خصوصاً، كان بعض أعمال أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة الّذين اعتبروا أنّ جمع المسيح للطبيعتين مؤدّاه نفي كينونتهما المتزامنة معاً في شخصه؛ وفي نظرهم ان الطبيعة الإنسانية فيه قد انشغلت بالطبيعة الألهية حال توحّدهما (توحّد الكلمة مع الطبيعة الإنسانية).. فسموّ الطبيعة الإلّهية اللانهائي جعل الطبيعة الأخرى تضيع فيها ـ كما يقول أصحاب المذهب ـ مثلما قطعة شمع العسل في جمرة.

ومذهب توحيد الطبيعة أو الطبيعة الواحدة للمسيح ألغى ـ مثلما فعل النسطوريّون ـ عقيدة التجسيد وبدلاً من «الإنسان ـ الإلّه» لا يبقى إلّا الإلّه.

عام /٤١٩/ أقرَّ مجمع « إيفاز» المبدأ، وأدانه المجمع الرابع المسكوني في «كالسيدوان» عام /٤٥١/ وطبَّقته الكنيسة الأرمنيّة، رغم غضب بيزنطية، وهي الكنيسة التي أسَّسها، في نهاية القرن الثالث، القدِّيس «غريغوار» في ما بين النهرين: ـ فبنو تنوخ ـ وهم من أقوى القبائل العربيّة ومركزهم الأنبار على الفرات ـ كانوا من أكثر الموحِّدين حماساً وورعاً، ولم يحل ذلك دون استدراك مفاخر فرسانهم وأعمالهم الباهرة في «أيَّام العرب». ـ والموِّحدون شكَّلوا أكثريّة ساحقة في [سورية ـ فلسطين] وذلك مع اليعاقبة وبطريركيّة انطاكية، وكانوا السادة في مصر مع الأقباط وبطريركيَّة الإسكندريّة. . فالإكليروس الموحَّد كان قريباً من السكَّان المحليِّين في اللُّغة وحظي بدعم واسع من الشعب أتاح له قدرة المجابهة لسلطات بيزنطية.

فمعتقد الطبيعة الواحدة لم يكن مجرَّد تيَّار فلسفي أو عقائدي بل كان مشدوداً إلى أبعاد سياسيَّة أخرى نخصُّ منها مطامح الإنفصال الإقليمي عن الأمبراطوريّة التي كانت تنشدها وتعمل لها شعوب المنطقة غير اليونانيّة ـ السوريّون والأقباط بخاصَّة ـ وقد ضاقوا ذرعاً بممارسات الارثوذكسيّة الرسميّة حتَّى أنَّهم، في عام /٦١٠/ استقبلوا الفرس الزردشتيِّين كمحرِّرين؛ علماً أنَّ النطاق الجغرافي السوري، أو الآرامي جعل من العربيّة لغة الكنيسة الموحَّدة كما جعل من رعاياها أناساً مستقلِّين عن بيزنطية على الصعيد الإيديولوجي. . ومن الصعب إخضاعهم وهم الذين حافظوا على تقاليدهم الثقافيَّة والفلسفيّة التي تكوَّنت في سوريّة خلال الأجيال. ـ صحيح أنَّ الملوك والأسياد العرب تنصَّروا وساندوا الموحِّدين بدافع عداوتهم لبيزنطية، ولكنَّ هذا لا يشجِّعنا على الإستنتاج أنَّ القبائل تنصَّرت فعلا؟!

المؤمنون كانوا يتبعون مُطارنتهم ، ويسمعون رأيهم؛ ولكن من منهم كان قادراً أن يفهم الجدل العلمي والفلسفي المسيحي الذي كان يهزّ الكنيسة بمشاحناته، طوال القرنين الخامس والسادس؟ ـ تلك المشاحنات الجدليّة لم تهدأ إلَّا أيّام المجمع الديني السادس في

قسطنطينيّة عام /٦٨٠/ قبل أن تثار، من جديد في القرن الثامن، مع خصام المتمرّدين على البدع والتقاليد محاربي الإيقونات.

في القرن السابع، وجد العرب أنفسهم داخل مناطق نفوذ كلّ من التيّارات المسيحيّة الشرقيّة الثلاثة لذلك العهد؛ ولكنّ وحدة اللّغة ووشائج القربى ظلّت تشدّ بعضهم إلى بعض، وهي الأقوى.. رغم وجودهم في ظلّ مناطق هيمنة سياسيّة مختلفة ورغم انسياقهم هم بالذّات مع الخلف والتشاحن الجدلي.

مع انتشار المسيحيّة، عرفت الكتابة السّريانيّة انتشارها الواسع وكانت، في زمن متأخر، مصدر الخطّ العربي؛ وبفضل المخطوطات والمؤلفات انتشرت الأفكار الجديدة في الوطن العربي وارتفع المستوى الأدبي والأخلاقي، وحتى إذا كانت المسيحيّة لم تتغلغل إلى أعماق الوسط العربي فقد كان لها، عليه، تأثير أكيد خصوصاً لجهة تعريف مذهب التوحيد باعتباره العنصر المشترك في الأديان «الإبراهيمية».

الدين في العربية قبل الاسلام

في فجر القرن السابع، ظهرت العربية على انها ملتقى العقائد الدينية والقوى السياسية لذلك الزمن، والإتّصالات المباشرة كانت تتمّ في بعض المدن، أو الواحات، مثل يثرب، الطائف، مكّة، نجران... التي ترتادها القوافل جالبة للمقيمين المتحضّرين - مع البضائع - المدارك والأفكار الجديدة. وداخل البلاد التي تحول بنيتها الطبيعية أو الجغرافية دون الإنتشار السريع للأفكار وكذلك لأيّة عقيدة جديدة معيّنة تتوفّر، بالمقابل، إمكانيّة البقاء والإستمرار الطويلين للمعتقدات السلفيّة. - لقد كانت الوثنيّة سائدة في مجمل مناطق العربيّة ولكنّ العبادات والطقوس تختلف في الجنوب عنها في الشمال: - عرب الجنوب - اليمن وحضرموت - يعبدون آلهة

والآهات (ربّات) تجسّد كواكب، خصّصت لها معابد، يخدمها كهنة يديرون أرزاقها وأملاكها، والهبات المقدّمة لها؛ فالعبادة ترتكز على تقديم العطور وقرابين الحيوانات والحجّ والصلوات.

عزب الشمال، كانت لهم معتقدات، أكثر واقعيّة.. فالأرض، في نظرهم، كانت مسكونة من قبل الجنّ، في حين استوطنت الآلهة أشجاراً وصخوراً منتصبة؛ وبيوت الله (بيت إيل) التي تمارس - حولها - عبادات، على شكل حلقات تقام في الهواء الطلق.. وتلك طقوس استمرّت المحافظة عليها، عند الكعبة، بعد مجيء الإسلام، كما أنّها حركات وعادات انتقلت إلى مسيحيّي الشرق في الطقوس المأتميّة، والزواج، والمعموديّة.

والجنّ يلازمون الناس بوسوساتهم على شكل جماعات، وهم لدى الحضريّين أكثر عدداً مما هم لدى البُداة.. ولا بدّ من الدفاع عن النفس ضدّهم دون إلحاق الأذى بهم وتلك خرافات «تطيّرات» استمرّ وجودها سواء عند المسيحيّين والمسلمين في سورية.

أماكن العبادة تشكّل أرضاً ملاذاً وملتجأ كما في روما.. فيها تتمّ مراسم حجّ محدّدة بدقّة كبيرة؛ وحراسة المقدّسات كانت توكل إلى أسر كهنوتيّة معيّنة مثل بني قريش في مكّة.

في تلك الديانة البدائيّة لم يكن التآلف والانسجام معها مطلقاً: فلا البدو، ولا التجّار، ولا الحضريّون، ولا سكّان الضيّاع الزراعيّة «يكابدون» مشاعر دينيّة حقيقيّة، أو «إفتقاراً» إلى ما وراء الطبيعة.. فالعرب، إجمالاً، كانوا يضعون ثقتهم بالآلهة مؤمّلين حلّ مشاكلهم مع عدم المساس إطلاقاً بالتقاليد التي تقرّ بوجود عدد من الآلهة لكلّ نحلة من النحل؛ وفوق ذلك العدد من الآلهة كان الإجماع على تأليه الثالوت المتميّز المؤلّف من: «اللات» (إلهة الشمس) و «العزّى» (المماثلة، بنظر البعض، لأفروديت اليونان وفينوس إلّهة الجمال لدى الرومان) و «مناة» (إلّهة القدر والمصير التي كانت تقطع خيط الحظ والمستقبل).. ذلك الثالوث كان يدعى «بنات الله» ويخضعن بدورهنّ لإلّه أسمى كلّي القدرة له ملك السموات أطلق

عليه العرب إسم «الله» وهو الذي ألغى، بعدئذ، جميع الآلهة ليكون الله الواحد الأحد.

هناك من سمّاهم القرآن «الحنفاء»، كانوا يرشدون إلى دين إبراهيم التوحيدي المتجرّد من دخائل اليهوديّة والمسيحيّة. - وإذا كان عامّة العرب قد ظهروا بمظهر اللامبالي بمسائل ما وراء الطبيعة، فهناك من كانوا منفتحي الفكر على مسائل الدين، ويحرزون عن ذلك الطريق نفوذاً خارجيّاً يهودياً ومسيحياً، مستوردين عناصر جديدة لإغناء الوثنيّة العربيّة، تلك الوثنيّة التي شوّهتها تيّارات توحيديّة جاءت من شمال وشرق وجنوب شبه الجزيرة؛ إلى جانب ما كان لتجّار الحجاز من احتكاكات مع اليهوديّة والمسيحيّة بأشكالهما المختلفة.

في أواخر القرن السّادس تلقّى الحجازي عقيدة الكائن الأعلى الذي هو الأب لجميع الآلهة المقبولة لديه دون أن تتطوّر تلك العقيدة إلى مذهب مستقلّ.

واليهوديّة نشأت بقوّة في العربيّة، في تلك الحقبة، خصوصاً بعد مجيء طوائف يهوديّة استوطنت في جنوبيّ شبه الجزيرة، مثل الحجاز، ملتحقة بطرق قوافل التجارة أو هاربة من الإضطهاد في مواطنها السابقة، سواء في ظلّ حكم «تيتوس» في عام /٧٠/ للميلاد (اوكل اليه والده الامبراطور اجتياح وتدمير القدس عام ٧٠)؛ أو حكم «آدريان» في القرن الثاني.. أو في حقبة إلغاء البطريركيّة في القدس عام /٤٢٥/. - في ظلّ تلك الظروف، آثرت الفئات اليهوديّة المعتقد الإنتقال إلى مناطق الساسانيّين هرباً من اضطهاد المسيحيّين لهم؛ وفي فجر القرن السادس أنهى كهنة وربّانيّو اليهود تأليف «تلمود بابل» (تعاليم تفسير شريعة موسى) الذي لعب دوراً أكثر أهميّة من «التلمود الفلسطيني» الذي وضع في منتصف القرن الرابع.

والتلمود يتألّف من الـ «مشناح» (مجموعة أبحاث تضمّ النصوص الأخلاقية وقد تمّ تحضيرها بين /١٣٥/ و /٢١٧/

للميلاد أي تماماً عقب اضطهادات آدريان)؛ ومن «الجماراح» (وهي مجمل تفسيرات وشروح المشناح المثبتة كتابة بالأراميّة). ويبدو أن اليهوديّة وجدت لها منفرجاً كبيراً في جنوبي شبه الجزيرة العربيّة حيث تمّ كسب بعض السكّان للموسويّة وفي مقدّمتهم أمير جعل من الموسويّة ديناً للدولة - ويقول «ريجيس بلاشير» (في كتابه قضيّة محمد ص ٢١) أنّ تلك الإنطلاقة سحقت عام /٥٢٣/ على يد الأحباش، وبدعم من البيزنطيّين حيث أسقطت دولة الشيخ «مسروق ذو نؤاس». - وبعد أقلّ من نصف قرن طُرد الأحباش من جنوبيّ الجزيرة بدعم مباشر من الفرس المتعاطفين مع اليهود. - وبقيت، هناك، طوائف يهوديّة نشيطة عاشت في بعض الواحات الغربيّة من شمال الحجاز، في يثرب، وشمال هذه المدينة، في خيبر، وكان لتلك الطوائف كما في اليمن تنظيم القبيلة العربيّة ولسانها:

القبائل اليهوديّة المعتقد «بنو النظير»، وبنو خنيقة، وبنو قُريضة، كانوا في صميم منافسات القبيلتين العربيتين «الأوس والخزرج» وكان لهم فيها تأثير لا يسقط من الحساب دون أن ينخرط اليهود - إياهم - فيما بعد، في صفوف «الأنصار».

وفي العربيّة، حقّقت سطوة المسيحيّة تجربتها انطلاقاً من المناطق المحيطة المتطرّفة (فلسطين - العراق - الحبشة) وتغلغلت بعدئذٍ إلى داخل شبه الجزيرة تحت أشكال مختلفة: - في الشمال الغربي ظهر مذهب الطبيعة الواحدة ممتدّاً من فلسطين ودمشق.

في الشمال الشرقي ظهرت النسطوريّة جاعلة من الحيرة مركزاً لها وإن كانت سطوتها الحقيقية قد تحقّقت في الجنوب (كانت للنساطرة مطرانيات في جنوبي شبه الجزيرة وصنعاء وجزيرة سوقطرة).

عرب الجنوب كانوا على علاقات وثيقة مع مسيحيّي الحبشة أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة إلى جانب انتشار المعتقد اليهودي

بين ظهرانيهم. . ونظراً لأهميّة الإقليم الإقتصادية صار مسرحاً للفتن والحروب التي كان الدين مجرّد غطاء سطحي وذريعة لها، بدليل أن البيزنطيّين حاولوا توسيع نفوذهم متسلّحين بنشر المسيحيّة وقيّض لهم حليف نشيط في منطقة البحر الأحمر هـو الملك الاثيوبي «اقصوم». - في وسط شبه الجزيرة عدد من القبائل - منها كندة - انتمى إلى المسيحية دون أن يعرف أحد شكل ذلك الإنتماء. وفي وسط شبه الجزيرة أيضاً، وخارج بعض المناسك والصوامع في وادي القرى، لم تكن للمسيحيّين مواطن ذات جماعات منظّمة. . والمركز الوحيد الهامّ كان موجوداً في «نجران» بعد أن لجأ إليه أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة الهاربون من اضطهاد «جوستيسيان» وبعد مذابح المسيحيّين من قبل شيخ اليمن اليهودي «مسروق ذو نؤاس». عام /٥٢٥/ أقامت نجران علاقات وثيقة مع كنيسة المذهب الموحدّ الاثيوبيّة طلباً لمساندتها وذلك بعد ان أقامت هذه الأخيرة مركزاً لها في اليمن بالإتفاق مع بيزنطية وقد طُردت من هناك عام /٥٧٠/ من قبل الفرس الذين قدموا بدعوة من اليهود أسياد صنعاء آنذاك. . وحلّت محلّها الكنيسة النسطوريّة وظلّت تلك هي الأوضاع الدينيّة في شبه الجزيرة حتّى ميلاد محمد.

العربيّة: والتنافس الاقتصادي بين فارس وبيزنطية

● إتّصف الألفا سنة الأخيران قبل الميلاد والعهد الروماني، اتصفا، في الشرق، بصراع مرير هدفه السيطرة على الطريق التجاريّة بين الغرب والشرق برّاً وبحراً؛ والعربيّة التي نجح الاشوريّون فيها، في القرن الثامن قبل الميلاد، بأن سيطروا على طريق «البخّور»، لم تستطع - في القرن السادس للميلاد - أن تتحرّر من أطماع القوى الكبرى لذلك العهد - ففي الشرق كان الخليج العربي - الفارسي هو مدخل بلاد ما بين النهرين، وملك فارس كان هو المسيطر على شاطيء الخليج المذكور، والسفن القادمة من المحيط الهندي كانت تُرسَى في مرفأ «اوبولا» في شط

العرب ومن هناك تنتقل الواردات صُعُداً نحو الشمال بواسطة دجلة والفرات.

في الغرب، بيزنطية، وارثة روما، كانت ترغب أن تطرح عن كاهلها الرسوم الجمركية المفروضة من قبل فارس، وتحاول ان تحتفظ لها، في البحر الأحمر، بطريق تجاري نحو الهند يمرّ بمضيق «باب المندب» وبمرفأ ترسو فيه السفن في «آدوليس» على شاطيء اريتريا الذي كان يتلقّى منتجات الشرق الأقصى وافريقية الشرقيّة - ومن أجل الإحتفاظ بحرّية المرور كان لا بدّ من السيطرة على الجنوب الغربي من العربية، وتلك هي المهمّة التي كلّف بها الملك « أقصوم» وهو من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة؛ إلاّ أنّه، ازاء عدوّ مشترك هو فارس التي كانت تدعم النساطرة، كان لا بد من إخماد الصراعات حول المسيح.

التجارة مع الهند كانت صعبة لأنّ الفرس - كما لاحظ المؤرّخ « بروكوب القيصري» (نسبة الى قيصريّة - فلسطين) كانوا يحكمون قبضتهم على جميع مرافيء وأسواق الهند حيث كانوا يشترون المنتجات كلّها ويمارسون احتكاراً حقيقيًا على السلع الغذائيّة التصديريّة.

وبعد سنوات عشر، جاء اسطول ساساني فتمركز في اليمن وقطّع الطريق البحريّة على بيزنطية. وبقيت هناك مراكز تجاريّة داخل العربيّة، وأشهرها، فعلاً، كانت مكّة. واستطاع البيزنطيّون - في أواخر القرن السّادس - أن يظلّوا على علاقات جيّدة معها ومكّة كانت أفضل مدن شبه الجزيرة لأنّها كانت ملتقى طرق بالغ الأهميّة وكانت سوقاً كبيراً، وفيها البيت العتيق مركز العبادة الكبير أيضاً. ولذلك كلّه كانت مكّة المكان المفضّل لإجتماع العرب قبل ظهور الإسلام بقرون طويلة. تلك العاصمة كانت معروفة لدى قدامى المؤلّفين تحت إسم « ماكورابا» وبهذا الإسم ذكرها العالم الفلكي الجغرافي اليوناني «كلود بتوليمي» (القرن الثاني للميلاد).

قبل ظهور الإسلام بعدّة قرون، رغم مناخ مكّة والطبيعة الصخريّة لمنطقتها، فقد عرفت بفضل نبعها الفخم (زمزم) عرفت نشاطاً تجاريّاً ودينياً كبيراً: فهي واقعة على طريق «البخور» طريق الطيوب والمواد العطريّة الذي يعبر العربيّة الغربيّة ليصل بين سبأ وغزّة فمكة، إذن هي في وسط الطريق بين عالمين: الأوروبي - الآسيوي والافريقي وقد لعبت دوراً هامّاً كوسيط في مجالات التجارة الدوليّة.

قوافل العرب التجاريّة كانت تستحصل، لقاء مكافآت ماليّة، على حماية البدو لها مؤمّنة، بذلك، حركة سيرها التجاريّة ورحلاتها على طرق التجارة التي تصل العربيّة الجنوبيّة مع مصر وفلسطين وسورية. وتبادل السلع التجاريّة كان يتمّ في المراكز الحدوديّة مثل «كلزوم» في مصر و «غزّة» في فلسطين، و «بصرى» في جنوب سورية. - من هنا كانت للحجاز ومكّة، لدى بيزنطية، أهميّة خاصّة إذ، بها، كانت تمرّ حركة التبادل التجاري بين المحيط الهندي، وبين البحر الأبيض المتوسّط الأمر الذي كان يتيح لها تلقّي منتجات الشرق الأقصى الثمينة جدّاً والمطلوبة جداً في الغرب ومنها البهارات وخصوصاً الحرير. والتجارة، في مكة، كانت خاضعة لنظام المراباة (الدين بفوائد مركّبة فاحشة) وتعيش على نقل البضائع وتمريرها وعبورها (ترانزيت) ممّا يخلق شروطاً اقتصاديّة من المبادلات والحركة النقديّة والربا تساهم كلّها في تنمية المدينة. ونظام القرض والإعتماد والتعامل بالدّين كان قوام حياة سكّان مكّة ولأنّ مختلف عملات ذلك الزمن كانت تجلب إليها، فقد لعب فيها الصرّافون دوراً في أعلى مستوى. . وبين البداة القدامى الذين تحضّروا كان يظهر رجال مال وأعمال ماهرون يتولّون مباشرة، تنظيم القوافل التي تشقّ طرقها في جميع أنحاء شبه الجزيرة. . رجال مكّة ونساؤها كانوا يموّلون القوافل ويؤسّسون شركات التوصية لقاء أرباح تتراوح بين (٥٠٪ و ١٠٠٪).

● الصراع من أجل احتكار الطرق التجاريّة هو الذي جذب بيزنطية، عام /٥٩٠/، الى محاولتها السيطرة على مدينة التجارة الكبرى مكّة. . ولم يقتصر الإستيطان فيها على بيزنطيّين أو سوريّين موالين لبيزنطية، بل تعدّاهم إلى يونان انتهزوا فرصة وصول زمرة موالية لبيزنطية منهم إلى السلطة. وعلى أيّ حال، وإن كان المكّيون أمْيل إلى التعاطف مع بيزنطية منهم إلى الفرس؛ فإنّهم لم يكونوا يرغبون اطلاقاً أن يخضعوا ويحنوا الرقاب لأيّ من القوّتين.

معارض سنويّة كانت تقام في مراكز كبرى مثل الحيرة وبصرى ومكّة والمعرض في هذه الأخيرة كان يتميّز باقترانه بالحج وفي جوار مكّة أماكن مقدّسة مثل (منى وعرفات والمزدلفة) التي تجذب الحجّاج اليها بشكل دوري، كلّ عام. - وهناك ناحية أخرى، بالغة الأهميّة هي أنّ أرض المدينة «أرض حرام» (منيعة وذات صون) خلال عدّة اشهر من كلّ عام (الأشهر الحرم) تسودها هدنة إلّهيّة وتمّ اختيار للشهور المذكورة في الخريف والربيع أي في وقت الشهر الكبيس في النظام القمري الذي يطمئنّ فيه الناس الى مجرى الطبيعة المنتظم والمستقر.

أهمّ معابد مكّة، الكعبة، وكانت موضوع احترام وإجلال متميّزين فقبل ظهور الإسلام كانت زيارة الكعبة مرّة واحدة على الأقلّ في العمر وإكمال الشعائر المحدّدة وتقبيل الحجر الأسود المقدّس سبع مرّات. . كلّ ذلك كان الحلم الأغلى على قلب كلّ عربي. في هذا المعبد الذي يجلّه الجميع كانت القبائل تضع اصنامها (الصنم هو الطوطم او الإلّه) وبعد ان تقوم بإتمام الشعائر الخاصّة بالكعبة، تنعطف كل منها، في الوقت المحدّد، إلى تكريم إلهها الخاص بها. والمعبد (الكعبة) محاط بدرجة عالية من الصيانة والتعهدّ والمحافظة عليه وخدمة زوّاره لأنّه الملاذ الحرام لمدينة مكّة والحافز على الحجّ الدوري السنوي للقبائل البدويّة التي تحمل معها مورداً ماليّاً ثابتاً ومنتظماً لسكّان المدينة. وتواقت

النشاطات الدينية والتجاريّة كان منظماً تنظيماً دقيقاً كاملاً وكـان يجذب عدداً كبيراً من ممثّلي ابعد القبائل. . وخلال المعارض التي كانت تقوم في الواحة المجاورة للبيت العتيق كانت تتمّ المباريات بين شعراء القبائل وتنظّم مسابقات الحذاقة والشجاعة وتعقد المواثيق السّياسيّة والصفقات التجاريّة. وأسياد مكّة، من قريش كانوا يحتلّون مركز الوجاهة بين القبائل العربيّة باعتبارهم من كبار مالكي العبيد فكانوا يحتكرون كامل الانتاج الحرفي في مكّة والقائم كلّه على شغـل السخرة، وباعتبارهـم حفظة وحـرّاس المقدّسـات استطاع القرشيّون اقامة شبكة متينة وواسعة من العلاقات مع مختلف قبائل العرب. . علاقات تتمتّن غالباً بالمصاهرة وصلات القربى. وفي هذا الوسط بالذات ولد وتربى محمد.

ميلاد الإسلام

محمد

محمد في مكّة

● من الصعب معرفة مجريات السنين الأولى من حياته لأنّ الوثائق التاريخيّة انعدم وجودها بشكل مؤسف؛ والغربيّ ما زال واقعاً تحت تأثير الأحكام المسبقة لماضٍ موروث عن عهد الصّليبيّين الذي، فيه، صوّر مؤسّس دين الإسلام وكأنّه التجسيد للشّيطان؛ أو أعطي صوراً متأثّرة بأحكام بعض المستشرقين الّذين - حتّى نصف قرن مضى - كانوا يرون في الإسلام «ضلالاً ومغالطة تاريخيّة وانحرافاً بالنّظام السماوي عن جادّته».

إنّه لمن الصّعب الإحاطة بشخصيّة محمّد ودوره التاريخي.. لأنّ الأسطورة، بكلّ ما فيها من تشويه؛ ومسخ فرضت نفسها سواء في حالات القدح والذمّ أم في حالات الإطناب في التعظيم. والتقليد الشعبي، في الشرق، يرى في محمّد الحصيلة الإجماليّة لجميع الفضائل وصفوة المزايا والقدرات الفائقة للطبيعة؛ فالكمال المطلق للرّجل الموسوم بآية اصطفائه للنبوّة محا، إلى حدّ، إنسانيّة محمّد الذي كان تاجراً وأصبح زعيماً دينياً، وفي الحالين لم يستطع أحد إنكار أمانته وصدقه، ثمّ أصبح رجل دولة عليه مواجهة المشاكل الإقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة المطروحة في مكّة في مطلع القرن السّابع.. وحتّى نعرف شخصيّة مؤسّس الإسلام، فإننا نعتمد القرآن، من جهة، والحديث من جهة أخرى إذ يمكن أن نستخلص، من الحديث، المعطيات لسيرة حياة محمّد وترجمتها وإن كانت فكرة تحرير السّيرة عقبت موت الرسول بزمن ليس بقصير بدليل أنّ أوّل ترجمة جادّة لحياة

محمّد مرتّبة ترتيباً تاريخيّاً كانت تلك التي وضعها «ابن إسحٰق» الذي مات عام /١٥١/٧٦٨/. وقد تمّ تنقيحها وتلخيصها من قبل «ابن هشام» الذي مات عام /٢١٩/٨٣٤/ أي أكثر من قرنين بعد محمّد وذلك المؤلّف يحمل عنوان «سيرة الرسول».

حسب المصادر المختلفة، تاريخ ولادة محمّد يقع بين /٥٧٩ و٥٧٣/ والإجماع عام على عام /٥٧١/ المسمّى «عام الفيل» تذكيراً بالحيوان الذي كان يركبه أبرهة صاحب العربيّة الجنوبيّة الذي شنّ هجوماً على مكّة في العام المذكور.

والد محمد يدعى «عبد الله» وجدّه هو «عبد المطّلب» من أسرة «بني هاشم» التي يقوم ثراؤها على تجارة القوافل مع سورية.. وبنو هاشم ينتمون إلى قبيلة قريش ويضطلعون، في مكّة، بأعلى المهامّ: - فعبد المطّلب هو الذي كشف الردم عن بئر زمزم وأقام عبد الله حارساً له ومن هنا كان للقرشيّين امتياز سقاية الحجّاج من مياه زمزم المقدّسة كما كانت لهم، أيضاً وحصراً، رفادة الحجيج (التزويد بالمؤن)؛ وكانت الأسرة تمارس «الاغتراب» أي مصاهرة الأباعد ولذلك تزوّج عبد الله، وهو في الرابعة والعشرين، من «أمينة بنت وهب» المشدودة بأواصر القربى إلى «بني الخزرج في يثرب»؛ الأمر الّذي يفسّر - إلى جانب ما - اختيار تلك المدينة بالذات، لدى الهجرة من مكّة. - وتقول الأسطورة أنّه، مثلما نقلت الروح القدس نفحة من الله إلى بطن مريم أم يسوع، كذلك فعل ملاك فنقل إلى عبد الله قبساً من النور الإلٰهي.. ومن جهة أخرى، تناقلت الألسن عن أمينة أنّها سمعت، وهي بين النوم واليقظة، صوتاً يؤكّد لها أنّها تحمل نبيّاً في أحشائها.. والصوت - إياه - ألزمها أن تسمّي مولودها «أحمد». ولا أحد يعلم لماذا سمّي، أخيراً، محمّد؟.

الرواية الإسلاميّة التي شاءت أن تنمّي اتجاه التعبّد للرسول إضافة إلى التقاليد معجزات وعجائب سبقت أو رافقت، من قبل، ميلاد العظماء من الرّجال.

ولمّا وُلد محمّد ـ وقد طبع ملاكان بين كتفيه ختم النبوّة ـ كان موت والده قد سبق ميلاده، وماتت أمّه حالما أتمّ السّادسة من عمره دون أن تترك له أيّ ميراث ذا قيمة؛ فأصبح اليتيم في كفالة جدّه «عبد المطّلب» الذي كان يتباهى بعلامات النضج المبكر لدى الطفل. وبعد عامين اثنين، مات عبد المطّلب، بدوره، بعد أن أمّن مقوّمات العيش لحفيده الذي تولّى أعمامه رعايته منذئذٍ فكفله، منهم، أبو طالب تيمّناً منه بميلاد ابن جديد له «عليّ» ـ وعليّ تعلّق بابن عمّه تعلّقاً لم ينفصم أبداً وقد أصبح صهره فيما بعد.

نادرة هي المعلومات التي لدينا حول شباب محمّد؛ ويبدو أنّ الفتى عاش مرحلة تفتّح شباب سعيدة وهو المدلّل لدى عمّته فاطمة بنت عمر وثمّة أسطورة تنسب إلى تلك المرحلة من حياته اتّصالاته المباشرة مع المسيحيّة وبخاصّة تلك الاتّصالات مع الراهب «بُحيرة» في بصرى من سورية الجنوبيّة.

في عامه العشرين، دخل محمّد في خدمة أرملة ثريّة، خديجة، التي كانت تبحث عن رجل أمين يرافق قوافلها.. وبعد سنوات خمس بلغت سنّ الأربعين وتزوّجت من محمّد وهو زواج فسّره المحلّلون أنّه كان بقصد استغلال اليتيم، وخديجة ـ في التقليد الإسلامي ـ محسوبة بين الوجوه النسائيّة الأربعة في التاريخ: ـ آسيا زوجة فرعون، وكلثوم أخت موسى، ومريم بنت عمران أمّ عيسى (المسيح)، وخديجة. ـ وطوال وجودها على قيد الحياة، لم يعرف محمّد سواها زوجة ولا سريّة ومن ذلك الزواج رزق سبعة أولاد: ـ ثلاثة أبناء ماتوا في سنّ مبكّرة وأربع بنات صغراهن «فاطمة» التي تزوّجت عليّاً. ـ قبل تلقّي الوحي كان محمّد يمارس عبادات أجداده: يصلّي في الكعبة، ويشهد شعائر الطواف، ويشارك في احتفالات العمرة والحجّ.

تلك الفترة تحقّق فيها التواصل في أرجاء شبه الجزيرة بين من أطلق عليهم اسم «الحنفاء» وهم جماعات المتنسّكين، المتقشّفين، أصحاب عقيدة الإلّه الواحد الذين كان ظهورهم مرحلة مشهودة

لتطوّر معتقدات تعدّد الآلهة، نحو عقيدة التوحيد المطلقة. ومن بين حنفاء مكّة، ابن عمّ لخديجة هو «ورقة بن نوفل» الذي كان عالماً، ضليعاً بالسّريانيّة، والعبريّة، إلى جانب العربيّة، ويبدو أنّه استطاع ممارسة بعض التأثير على تطوّر محمد الفكري.

القرآن لا يعطينا معلومات كاملة عن أصول وبدايات رسالة محمّد فرسالته، على ضوء تحليلها العميق من قبل «ريجيس بلاشير»، في كتابه «قضيّة محمد»، تمرّ في ثلاث مراحل: ـ لدى بلوغه الأربعين وشعوره بأنّه مدعوّ إلى رسالة نبويّة، دخل مرحلة الأزمات، والتخيّلات، والرؤى.. وقد لعبت خديجة خلالها، بدعمها المعنويّ، دوراً هامّاً تجاه زوجها؛ لقد كان يذهب للإعتكاف والعزلة في غار بجبل «حراء» (ولنذكر، هنا، القيمة الدينيّة للمغاور في تاريخ الإنسانيّة).. وهناك تلقّى أوّل الوحي، ليلة ٢٦ أو ٢٧ رمضان التي أطلق عليها اسم «ليلة القدر» وأصبح يُحتفل بذكراها، كلّ عام، احتفالاً يتميّز بمواصلة القراءات الليليّة للقرآن في المساجد.

و«تنزيل» القرآن تمّ من قبل الملاك «جبريل» الذي قال لمحمّد «إقرأ» وعلّمه قراءة أقوال الله «كلمة الله» الّتي أمليت عليه منجّمة خلال عشرين عاماً؛ ولدى تلقّيه الوحي شعر محمد أنّ «الروح» قد أخذت بمجامعه وصارت تتجلّى بالكلمة أحياناً وبالروح القدس أحياناً أخرى.. وتلقّى أيضاً، من الله، آيات النهي أي الوحي الّذي مكّنه من قيادة المؤمنين وتوجيههم، ونجد هنا، مرّة أخرى، دور الروح والملائكة كأدوات معتمدة في حكم العالم.

لقد اعترى محمّداً اضطراب وبلبال ثمّ، ولمدّة ثلاثة أعوام عقبت ما جرى، لم يسمع إطلاقاً صوت الله وعرف مرحلة انهيار عصبي إلاّ أنّ خديجة وابن عمّ لها من الحنفاء (ورقة) عملا على إعادة الثقة إلى نفسه.. والمؤمنون الأول كانوا امرأته، ابن عمّه علي، ابنه بالتبنّي زيد بن حارثة (وهو عبد معتق أي محرّر)، وإثنان من وجهاء مكّة: أبو بكر وعثمان.

والمسألة المهمّة، هي أن نعرف أصل أفكار محمد الوثني مثل محيطه، والذي لا يجهل تيّارات التوحيد التي نفذت إلى شبه الجزيرة العربيّة.. والسؤال: - هل كان يعرف القراءة؟ - هل كان يعرف الكتابة؟ - الظاهر والمؤكّد أنّه لم يعرف سوى العربيّة لساناً، وعن طريق المحادثات الشفهيّة فقط، استطاع أن يحيط علماً بالتوراة والأناجيل دون أن يستعملها تعبّداً وتطبيقاً.. بل ظلّ يجهل محتواها الحقيقي. فإلى جانب التأثيرات اليهوديّة الأكيدة نلاحظ تأثيرات مسيحيّة من مختلف الإتّجاهات النسطوريّة أو التوحيديّة، في القرآن؛ ولكن لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الإسلام، خلافاً للمسيحيّة، لم يُبنَ لا على المحبّة ولا على الأمل؛ بل على الإيمان المطلق بالله.. زد على ذلك أنّ غياب عقيدة خلاص الجنس البشري (على يد المسيح الذي افتدى البشر بدمه) غيابها عن القرآن يسمح بالتفكير أنّ محمداً قد تثقّف بالحنيفيّة دون سواها وهمّه ترسيخ عقيدة وحدانيّة الله (الله الواحد الأحد) وأن يكون صاحب الحكم الأخير في هذه العقيدة وفي فكرة المكافأة (الثواب والعقاب) حسب الأعمال.

وعرف النبي الجديد فترة مهادنة نسبيّة، فيها استعاد ثقته بنفسه؛ وفي عام ٦١٣ بدأ دعوته (التبشير) وقد قامت الدعوة على ركائز ثلاث: انتظار وخشية عقاب الله.. الإيمان بالله الواحد والخالق.. نبذ عبادة الأصنام (الآلهة الكاذبة) ثمّ عبادة الله (العبادة تعني الطاعة) وشهادة الإعتراف بنعم الله.

عند مشابهته مع كبار أنبياء بني إسرائيل (إرمياء - حزقيال - إيشوع) كان محمّد منذراً ومحذّراً كالّذين جاؤوا من قبله، وهم - حسب القرآن - إبراهيم، وموسى، وعيسى. - ثمّ وبصفته منذراً ومحذّراً، أصبح الملقّن لشريعة - قانون - تنظيم حياة المؤمن بجميع أبعادها؛ وهنا يكون محمّد ناشر عقيدة ومنهج (نظام) حياة.. - إنّه يحمل «البشرى».

عندها حدثت القطيعة مع الوثنيّة المكّيّة: - فدخل مرحلة المجادلة

والإقناع؛ فهو لم يأت، فقط، لتثبيت عقيدة إبـراهيم التوحيـديّة الأصليّة حسب تعاليم الحنفاء؛ بل قدّم نفسه الحلقة الأخيرة من سلسلة الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى الناس (خاتم الأنبياء).. دعا أولاً إلى إصلاح أخلاقي واجتماعي أعطى الدعوة أصداءها الظاهرة، الواضحة، والهجوم ضدّ عبادة الأصنام أثار انعكاسات عنيفة في مكّة - أبو طالب تدخّل لصالح ابن أخيه، ولكن المعاكسات والإزعاجات لم تتوقّف فالمكّيون يدافعون، بدعم من أسياد الباديـة، عن أصنام ارتبطت شعائرها بشعائر الكعبة، بالحجّ وبالمعرض (السوق) ولهذه دور رئيسي واضح التأثير على الحياة الإقتصاديّة. - عام /٦١٤/، عمر، الرجل القويّ النفوذ، الذي أسلم فيها بعد، صمّم على إنهاء محمّد.. ورغم دعم بني هاشم صارت الحالة حرجة في مكّة. وفي /٦١٥/ نصح محمّد مؤيّديه أن يهجروا المدينة وأوّل فريق منهم قوامه /١١/ رجلاً وأربع نسوة تلاه آخر من سبعين رجلاً عدا النساء والأولاد، وثالث مؤلّف من /٨٢/ شخصاً قصدوا الحبشة ذات مذهب الطبيعة الواحدة حيث لقوا معاملة حسنة.

في مكة نفسها، تابع المؤمنون قيامهم بشعائر الكعبة وبخاصّة الطواف والصلوات عند الحجر الأسود ومراسم الحجّ مجتزئين، من كلّ ذلك، ما يتعلّق بالأصنام.. وقد أصبح كلّه خالصاً لله وحده وكانوا يجتمعون في مكان آمن للإستماع إلى الوحي.

خلال مرحلة الدعوة المكيّة، لا بدّ من تسجيل المعجزة الكبرى في حياة النبيّ وقد جاء ذكرها في القرآن: - إنّها الإسراء. فقد قاده جبريل محمولاً على «البراق» من مكّة إلى القـدس ثمّ إلى السّماء السابعة، ووفق التقاليد، كانت هناك مرحلتان: أولاهما حتّى القدس (الإسراء)؛ والثانية هي الصعود من القدس إلى السّماء (المعراج) - معناها الحرفي السُّلّم - فاغتنمها القرشيّون فرصةً لاتهام محمد أن قد سيطر عليه الجنّ وأنّه «مجنون». وعلى العموم، إنّ تجربة الإصلاح الديني في مكّة ظلّت أقرب إلى الفشل حتّى انضمّ عمر إبن الخطاب

(الخصم الكبير والخليفة الكبير فيما بعد) إلى صفوف المسلمين.

عام /٦١٩/ حكم محمّد على الأصنام بالهدم وأثار قضيّة «الكهانة» وفي نفس العام فقد زوجته خديجة، وبعد ثلاثة أيّام من وفاتها فقد عمّه ووليّه الأمين «أبو طالب» فأصبح في وضع خطير.

لقد صار أبو لهب سيّد بني هاشم وهو عمّ محمّد وعدوّه العنيد.. لقد فقد كلّ سند فحكم عليه بالمقاطعة (النفي من الجماعة) ونُبذ خارج العشيرة وكان المؤمنون قلّة لا يتجاوز عددهم المئة ولا يملكون قدرة تثبيت أقدامهم في مكّة ففكّر محمّد بالطائف وبيثرب، والطائف واحة يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر /١٦٥٠/ متراً وهي أحد أهراء مكّة وفيها يصطاف أغنياؤها فلا سبيل إلى الهجرة إليها.. وانتقل بتفكيره إلى واحة يثرب، شمال مكّة، الواقعة في سهل مرويّ وخصب وكان قد أقام فيها رهط من قبيلة أمّه «بنو الخزرج».

خلال حجّ عام /٦٢٠/ فاتح محمّد أناساً من يثرب بالأمر، وفي نفس العام، وعده أبو بكر بالزواج من ابنته «عائشة» التي كانت في السّابعة من عمرها آنذاك؛ وبذلك أصبح قريبه، وحليفه. وانطلاقاً من تصميمه على إداء رسالته الإلهيّة بحث له عن مركز عمل خارج مكّة؛ وتوالت المشاورات بين قبيلتي يثرب العربيّتين فانضمّ إلى الستّة من بني الخزرج الّذين أعلنوا إسلامهم عام ٦٢٠ اثنا عشر مؤمناً جديداً عام /٦٢١/، أدّوا القسم في مضيق العقبة. وفي حزيران عام /٦٢٢/ تجدّد ميثاق العقبة: - سبعون يثربيّاً بينهم امرأتان تعهّدوا، بطلب من محمد، أن يختاروا من بينهم /١٢/ شخصاً أطلق عليهم اسم «نقباء» مهمّتهم السهر على شؤون الجماعة.. ولعبت الصدف دورها بأنّ الاثني عشر رجلاً «النقباء» هؤلاء عادوا بذاكرة بعض الناس إلى نقباء موسى الإثني عشر وإلى تلاميذ ورسل المسيح الإثني عشر؟!

هؤلاء الرّجال وحّدت بينهم رابطة جديدة: إنّها رابطة الدين بدل رابطة العلاقات القبليّة؛ وأصبح محمّد، بدوره، مسؤولاً عن وجود،

وكيان، وديمومة عدد معيّن من الأفراد منذ أصبح رئيس جماعة. . ولّما ازداد الوضع حرجاً في مكة، نهاية عام /٦٢٢/ دعا أتباعه إلى ترك المدينة على شكل جماعات صغيرة، قادرة على الإفلات من الملاحقين، والإلتحاق بيثرب القائمة على مسيرة عشرة أيّام شمالاً. . لقد كانت عمليّة هرب حقيقيّة: ـ المسلمون مطاردون ومأواهم المغاور. الرّسول، بالذات، بقي، ثلاثة أيّام، مختبئاً بين الصّخور مع أبي بكر. . ذلك الإنتقال سمّي «الهجرة» والذين قاموا به هم «المهاجرون».

محمد في المدينة

● محمد نفسه، التحق بأنصاره في ٢٤ أيلول عام /٦٢٢/ وتاريخ جديد بدأ: التاريخ الهجري. وقد حدّد اليوم الأوّل من التقويم الاسلامي يوم الجمعة الأوّل من محرّم من العام الأوّل ويصادف /١٦/ تمّوز ٦٢٢.

الإقامة في يثرب شكّلت بداية المرحلة الثالثة من إداء الرّسالة وهذه المرحلة قسمت بدورها إلى حقبتين: ـ الأولى من /٦٢٢/ إلى نهاية /٦٢٧/ والثانية من /٦٢٨/ إلى /٦٣٢/.

بعد إقامة قصيرة في «قبا»، جنوب واحة يثرب، حيث وُجد أوّل جامع، انتقل الرّسول إلى يثرب وقبِل ضيافة عائلة أمّه ـ أبو أيّوب الأنصاري ـ وكان لا بدّ من بناء بيت في الوادي امتدّ العمل فيه سبعة أشهر وهو بناء خشن، من اللّبن الطيني، لا يزيد ارتفاع جدرانه على ثلاثة أمتار. . في وسطه فناء واسع مفروش بالحصى، وعلى جناحه الجنوبي الشرقي تفتح أبواب حجرات يسكنها محمّد وبناته وزوجته «سودا» وتُرك مجال لإقامة حجرات أخرى لزوجاته المستجدّات. . وفي الشّمال تمّ إعداد خباء ركائزه وأعمدته من جذوع النخل وسقفه من عسف النخل المقوّى بالطين وفي ذلك البيت كان المؤمنون يجتمعون حول النّبيّ ويؤدّون الصلاة جماعة.

في المدينة، أصبح محمّد قائداً للناس يطبّق، عمليّاً، أوامر الله ونواهيه ويجتهد في تفسيرها؛ فهو، في نفس الوقت، المشرّع والقاضي.. وقد نجح في خلق ألفة حقيقيّة بين المهاجرين والأنصار حيث بترت الروابط الأسريّة والاجتماعيّة الأولى بين المهاجرين وبين ذوي قرباهم الباقين في مكّة فقطعت أواصر التماسك القبليّة وظهرت، مكانها، علاقات المجتمع الجديد إلّا من جانب واحد حرص محمّد على الإبقاء عليه من تقاليد ما قبل الإسلام وهو أخوّة الدم.

خلافاً لأعراف ذلك الزمن، بقي محمد على رأس جماعته؛ والأنصار من قبيلة الخزرج اعترفوا به رئيساً لهم. وحسب الأعراف أيضاً التحق المهاجرون بالأنصار وقامت بينهما روابط الموالاة فشكّلوا، جميعاً، مجتمعاً تيوقراطيّاً (نظام الدولة ذو السلطة الإلّهيّة) تجاوز أطر العصر الاجتماعيّة، وسادته تعاليم الوحي التي أخذت آنئذٍ صيغةً ولغةً سلطويّة، قضائيّة، ناظمة لمشاكل الحياة العمليّة، ومحدّدة للالتزامات الشعائريّة للمؤمن بمعنى أنّ العلاقة الناظمة لحياة الجماعة أصبحت الدين بدل العقليّة العشائريّة.

داخل إطار حاشية محمّد، (بعد موت خديجة، تزوّج سودا بنت زمعة التي كانت خير عون له على تربية بناته) بدأت تسري المخاوف من النفوذ والتسلّط نتيجة الرابطة الزوجيّة بين فاطمة وعليّ فبدأت تظهر مناهج التحالف السياسي القائمة على المصاهرة.

في شباط /٦٢٣/ تزوّج محمد من عائشة التي وعده بها أبو بكر وكانت في الثانية عشرة من عمرها ثمّ تزوّج من «حفصة» بنت عمر أرملة قُميص السحمي التي لم تنجب أولاداً، ثمّ تزوّج من زينب بنت جحش الزوجة المطلّقة لابنه بالتبنّي زيد، وفي بداية عام /٦٢٤/ رزق عليّ وفاطمة ولدهما «الحسن»، وبعد عام، ولدهما «الحسين» فأصبح محمّد جدّاً مرّتين.

آنئذٍ، كان يوجد في يثرب، إلى جانب القبيلتين اليمنيّتين «الأوس والخزرج»، ثلاث قبائل أخرى يهوديّة مستعربة قويّة النفوذ: - بنو النظير - وبنو قريضة - وبنو قينقة. - وكان محمد قد أسقط من حسابه دعوتهم إلى التحوّل عن دينهم فلم يكتفوا بأن ظلّوا على إيمانهم بل بدأوا يظهرون ضيقهم بالرّسالة النبويّة الجديدة وبدأوا يجهرون بخصامهم لمحمد واعتراضاتهم على ما أوتيه من نبوّة مذكّرين أنّ الله لم يسبق له أن كلّم الناس عن غير طريق يهود: - ذلك لأنّهم لم يستطيعوا أن يتقبّلوا أن يكون للعرب نبيّ ما. . . - وكان قد سبق لمحمّد أن أخذ عن اليهود بعض طقوسهم وشعائرهم استرضاء لهم (صوم عاشوراء - العاشر من محرّم - والوضوء - وصلاة الظهر - وقبلة القدس في الصلاة). كما ركّز محمّد على الروابط التي تعود إلى إبراهيم وتجمع بين «الأمّتين» (كلمة أمّة كان لها معنى الجماعة أو الطريقة والدين «كنتم خير أمّة» أي كنتم خير أهل دين - عن مختار الصحاح).

ولكن اليهود أصمّوا آذانهم ممّا اضطرّ النبي إلى مقاطعتهم مدّة /١٥/ شهراً، بعد الهجرة، بدءاً من منتصف شباط /٦٢٤/.

في المدينة دخلت الدعوة إلى الإسلام طوراً هجومياً لترسيخ دعائم الدين الجديد المستقلّ. . ففي العام الثاني للهجرة /٦٢٤/ قرّر محمّد تحويل قبلة الصلاة إلى الكعبة التي بناها إبراهيم وولده إسماعيل جدّا العرب المستعربة، وجعل من الحجاز مركزاً للدين الحقّ وذلك التحوّل حدّد المستقبل وأعطى تأييداً لقيمة البيت العتيق (الكعبة) الذي كان يشدّ إليه ولاء جميع قبائل الحجاز تقريباً وفيه صلّى مسلمو مكّة الأول. . وأدخل، في الشعائر، رمضان شهر الصوم، إحياءً لذكرى الوحي والصوم يدوم كل نهار من أيام هذا الشهر، وما دام نور النهار يمكّن الصائم من تمييز الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

والتقى محمّد مع العقيدة الحنيفيّة، على أساس أنّ الإسلام

جاء لتجديد وإحياء دين إبراهيم الّذي شوّهه اليهود والمسيحيّون عبر الزمن.

«كل كائن يولد مسلماً» حسب بعض رواة الحديث ووالدا هذا الكائن يجعلان منه يهوديّاً أو مسيحيّاً. ومن جانب آخر، فبعد تطهير الكعبة من رجس الأصنام (هذا كان رأي محمد وعزمه) يجب العودة إلى مكّة لتكون قطب الدعوة إلى الدين الجديد.

الوضع المادّي للمهاجرين كان صعباً، في المدينة، فما كانوا يملكون أرضاً يعملون فيها وليس بإمكانهم تأجير جهدهم كعمّال لدى اليهود، والمخرج الوحيد الباقي لهم هو الغزوات التي قاموا بها، والغنائم: - وقد بدأت على شكل عمليّات قطع طرق لا صلة لها بالجهاد (الحرب المقدّسة). ونعني هنا قرار مهاجمة قوافل مكّة وبعض البداة حصولاً على الموارد وإزعاجاً لاقتصاد المدينة الكبيرة.. وعلى تلك العمليّات أطلق، فعلاً، اسم «المغازي». - في آذار /٦٢٤/ رمضان من العام الثاني/ تقرّر اعتراض قافلة قرشيّة عائدة من سورية، وذلك بجيش من المسلمين قوامه ثلاثمائة رجل اتجهوا نحو «بدر»، جنوب غرب المدينة، عند مناهل الماء، حيث كانت المواجهة مع ألف رجل خفّوا من مكّة لنجدة القافلة التي يقودها أبو سفيان والتي كانت قد اجتازت منطقة الخطر.. ولكنّ المواجهة حصلت بهجوم من قريش بدأ ناجحاً وانتهى بتقهقر المكّيين وهزيمتهم مخلّفين، وراءهم، قتلى وأسرى فكانت ضربة قاسية لنفوذ المدينة الكبيرة.. وفي نفس الوقت كانت الانتصار الأوّل على المشركين الذي قوّى إيمان المسلمين ورفع مكانتهم في يثرب. وصحيح أنّ غنائم بدر لم تكن تساوي ما كانت تحمله القافلة ولكن توزيع تلك الغنائم أثار نوازع الحسد والغيرة فتقرّر طلب فدية عن الأسرى واقتسام محصّلتها. ومنذئذٍ وضعت أسس التشريع العسكري الإسلامي الذي، بموجبه، وضع خُمس الغنائم تحت تصرّف النبي والباقي للمقاتلين.. وبعد موت النبي أصبح الخليفة،

أمير المؤمنين، هو القيّم على الخمس المذكور.

انتصار «بدر» الذي «تسبّبت بحدوثه غزوة قطع طريق قام بها مهاجرون لا موارد لهم» أشاع موجة من الحماس في نفوس المسلمين الذين أصبحوا لا بيوت لهم ولا بساتين فلم يتردّدوا، بعد شهر من بدر، في الرّد على استفزازات سبقت من بني قُنيقة اليهود المقيمين في الواحة، فهاجموهم، وحاصروهم خمسة عشر يوماً تركوهم، بعدها، يخلون بيوتهم نازحين شمالاً بعد أن صادروا ثرواتهم لصالح المهاجرين.

وفي حين كانت الامبراطوريّة البيزنطيّة تقوّم وضعها السياسي وتستعيد بعض الأقاليم التي انتزعها منهم العاهل الساساني.. كان الإهتمام كلّه يتّجه إلى هذه الأحداث بحيث لا أحد يعير انتباهه إلى نبأ معركة في العربيّة بين فريقين من العرب وفيها انتصرت القلّة المؤلّفة من ثلاثمائة رجل على الخصم الذي يربو عدده على ألف مقاتل.

المؤرّخ «برتولد سبولر» يعقّب على ذلك بقوله أنه لم تبق أيّة ذكرى حيّة للمعارك بين الامبراطوريّتين في حين أنّه، كنتيجة لانتصار الثلاثمائة رجل، من «رباط» إلى «جاكارتا» ومن «قازان» إلى «داكار» تستقطب الناس، اليوم، الصلاة لإلّه واحد إسمه بالعربيّة «الله».

وبينما كانت الغزوات مستمرّة، قام القرشيّون الذين قطعت عليهم طريق القوافل الغربيّة، بتنظيم «ميليشيا» من المرتزقة الأفارقة، وفي مطلع عام /٦٢٥/ فكّروا بالثأر لهزيمة بدر؛ وبعد أشهر عدّة توجهوا نحو يثرب بقوّة من ثلاثة آلاف مقاتل فجاء محمّداً من أعلمه بالهجوم، وحذّره منه وتردّد المسلمون في اختيار الوسيلة التعبويّة الواجب اتّباعها: ـ أهي هجوميّة أم دفاعية؟

وغلب رأي أنصار الهجوم، وكان اللقاء مع المكّيين المتفوّقين عدداً ثلاثة أضعاف، في «أحد» على بعد أربعة كيلومترات شمال المدينة.. فجرح محمد في المعركة وأحرز جماعة مكّة نصراً

ولكنّهم انكفأوا راجعين إلى مدينتهم دون أن يستثمروا ذلك النجاح الذي يعود، كما يظهر، إلى خطأ تعبوي.

موتى «أحد» خلّفوا أرامل وأيتاماً وجب تأمين حياتهم. لذلك، ومنذ تلك الحقبة، وضعت أسس التشريعات القانونيّة الخاصّة بالإرث (القرآن ـ صورة النساء ـ من ٨ ـ ١٨). ـ معركة أحد، إذن، لم تحسم شيئاً، وبنو النضير اليهود، المشتبه بتواطئهم مع القرشيّين عملائهم في التجارة حوصروا في يثرب فاستسلموا وتنازلوا عن أملاكهم وأجلوا عن المدينة فنزحوا شمالاً إلى واحة خيبر وإلى أذرعات. ـ وفي آذار /٦٢٧/، وبتحريض من جالية اليهود في خيبر، عزمت قريش على حسم الأمر مع محمد وأنصاره. وزعيم المكّيين، آنذاك، أبو سفيان الأموي، كانت له عيونه داخل يثرب وبخاصّة لدى اليهود من بني قريضة.. وحُذّر محمد من الهجوم المبيّت فجمع رجاله وقرّر ألاّ يخرج من المدينة بل أخذ بنهج نصح به سلمان الفارسي وحفر خندقاً حول المدينة التي كانت مجرّدة من أيّ تحصين دفاعي مثلها مثل أكثر مدن ذلك العهد وأعدّ الخندق بحيث صار صالحاً لكسر اندفاعة الفرسان الأعداء الذين وقفوا متردّدين ولم يهاجموا طوال خمسة عشر يوماً حدث بعدها إعصار عُزي إلى القدرة الإلٓهيّة فزرع الفوضى في صفوف المكّيين الذين رفعوا الحصار فجأة.. وفي نفس اليوم تقرّر مصير بني قريضة الذين لعبوا دور «الطابور الخامس»: ـ لقد قاوموا في حيّهم طيلة شهر وانتهى الأمر بقتل رجالهم وسبي نسائهم وأولادهم عبيداً للمنتصرين.

«حرب الخندق» سجّلت نهاية المعارضة المدينيّة وبداية المرحلة الهجوميّة للإسلام الوليد فانطلق في عمليّة فتح العالم وتتابعت، بادىء ذي بدء، فتوحات محدودة استولى فيها المسلمون على «دومة جندل» و«فدك» و«تيماء» وبذلك سيطروا على طريق القوافل إلى سورية.

في السادس من ذي القعدة، الموافق للفاتح من نيسان /٦٢٨/ قرّر محمّد القيام بالحجّ إلى مكّة وبرفقته /١٥٠٠/ من أنصاره، وقرّر المكّيون منعهم من الدخول إلى أرضهم، وعلى أثر ذلك جرت مفاوضات «الحديبيّة»: ـ إذا صرف محمد النظر عن الحج هذا العام يصبح له حقّ المجيء في العام الّذي يليه ولمدّة ثلاثة أيّام يؤدّي خلالها مناسك «العمرة». ذلك كان الاتفاق الذي انتهت إليه المفاوضات والذي تكمن أهمّيته في الاعتراف الصريح بالمسلمين.

في أيّار /٦٢٨/ هاجم المسلمون الجالية اليهوديّة في خيبر على بعد /١٥٠/ كيلومتراً شمال يثرب؛ وبعد معارك دامت ستّة أسابيع انتصر المسلمون واستولوا على غنائم كبيرة اقتطع منها النبيّ جزءاً، إضافة إلى قسمته ومنها أنشأ نواة الخزينة العامّة «بيت المال». وتمّ التوصّل إلى اتّفاق عقد الصلح على أساسه: ـ منح اليهود حق مزاولة أعمالهم الزراعية لقاء دفع نصف غلالهم للمسلمين وأصبح الإتّفاق ـ إيّاه ـ قاعدة طبّقت أحياناً بين المسلمين وبين أخصامهم.

في السابع من ذي القعدة، آذار /٦٢٩/، وحسب الاتفاق السابق، قام المسلمون بإداء العمرة وعادوا إلى يثرب. ـ وفي مكّة، اهتدى كلّ من «عباس» عمّ النبي، و«أبي سفيان» القائد العسكري.. فبدأت هناك حركة مؤيّدة لمحمد الذي لم يشغله تنظيم البُنى الهيكليّة لجماعته الناشئة عن القيام بمحاولات كسب المؤيّدين خارج الحجاز فأرسل، إلى الشمال، نحو الأردن وبهدف السيطرة على الغسّانيين المقيمين هناك، أرسل جيشاً من ثلاثة آلاف رجل وفي «موته»، في سهل خصب جنوبيّ البحر الميت، هزم الجيش المذكور من قبل البيزنطيّين وذلك في الثامن من جمادى الأوّل والثاني من آب /٦٢٩/. وفي نهاية العام نفسه، على أثر خلاف مع المكّيين، أعلن محمّد أنّ اتفاق الحديبيّة أصبح لاغياً وزحف على المدينة المقدّسة فدخلها في /٢٠/ رمضان،

/٨ ـ ١١/ كانون الثاني /٦٣٠/ وأعلن عفواً شاملاً، بـه «ربح القلوب». ـ وصدر الأمر بهدم /٣٦٠/ صنماً كانت قائمة في مكّة، في حين أعلن الحرم (داخل أسوار الكعبة) مكاناً مقدّساً وأعتق سكان مكّة التي فتحت بقوّة السّلاح ويسري على سكانها الحكم الذي يسري عادةً على الأسرى. ولقاء العفو الشامل عنهم (الطلقاء) أقسم المكّيّون على البيعة للنبي.

وبقي إخضاع الطائف مصيف العديد من المكّيّين حيث أعلنت قبيلة بني هوازن إسلامها.. ومع إخضاع الطائف تهـدئة بعض القبائل البدويّة والتمكّن من أخصـام مثل «الأسـود ـ وطليحة ـ ومسيلمة».

من آذار /٦٣٠/ إلى آذار /٦٣١/، العديد من القبائل التحقت بالمسلمين وأعلنت ولاءها له دون أن تنتمي إليه بل تدفع الجزية، إنّ شروط الإهتداء إلى الدين تستتبع مراعاة الإداء المنتظم للزكاة مع ضمانات متبادلة في احترام العهود المسؤولة.. وكلّ قبيلة أسلمت كانت تقبل أن يهدم صنمها والمعبد المخصّص له ولا حرج بعد ذلك في أن يستمرّ المؤمنون في تقديس المكان وتشييد جامع فوقه أو تكريمه ببناء مقام فيه لواحد من أعلام الإسلام الصالحين.. وانتهت المفاوضات مع مسيحيّي نجران إلى وضعهم تحت حماية المسلمين بحيث يمارسون شعائر دينهم بحرّيّة كـاملة ويدفعـون الجزية حسب معاهدة كثيراً ما اعتبر نصّها مثالاً للتسامح.

في ذي الحجّة، التاسع من اذار /٦٣١/ انتدب محمد أبا بكر ليأخذ مكانه على رأس الحجّ، وفي العام التـالي، رغم وضعه الصحّي القلق، رأس الرسول الحجّ بنفسه وتلك هي المناسبة التي، فيها، حدّدت جميع الأحكام، وجميع الشعائر الناظمة للحجّ مثل «وقفات» عرفات والمزدلفة ومنى وأماكن الحجّ التي سبقت الإسلام؛ مع الإشارة إلى أن كلّ قبيلة احتفظت، في سهل عرفات، بنفس المكان الذي، فيه، كانت تقيم قبل إسلامها وكذلك بمكانتها في

الموكب بين المناسك ومكانها في منى لدى تقديم الأضاحي.. والحجّة الأخيرة، تلك سمّيت «حجّة الوداع».

في صفر /١١ أيّار ٦٣٢/ مرض محمد في /١٠ ربيع الأوّل/ يوم الإثنين /١١ حزيران ٦٣٢/ مات في حجرة عائشة وهو ممسك بيدها.. ومنذئذ أصبحت يثرب «مدينة النبي» أو «المدينة». - محمد نفسه الذي نال سمات النبوّة والفضل الإلّهيّ لم يأتِ بمعجزات إطلاقاً والمعجزة الوحيدة التي عرفها له المسلمون هي «إعجاز القرآن» معنىً ومبنى. - في حديث نسب إلى عائشة: - «لما مات النبي جنح الأعراب إلى الردّة، ورفع اليهود والنصارى رؤوسهم، وصار مثل المسلمين كمثل قطيع بلّله المطر في إحدى ليالي الشتاء.. فنبيّهم لم يعد موجوداً.. ولكن الله جمع شملهم حول أبي بكر». (أ. م. غودريفروا ديمومبين - محمد - ص ٢٢٥) وقد عرف الخليفة الأوّل كيف يُعيد الطمأنينة إلى نفوس المدينيّين ويثبّت تماسك والتحام جماعة المسلمين.

عقب غياب النبي ظهر الإسلام الفتيّ (حسب عبارة «ريجيس بلاشير») وكأنّه حنيفيّة إبراهيميّة مجدّدة.. إذ لم يكن قد تمّ ترسيخ شيء من رسالة محمّد: نصوص القرآن تمّ تثبيتها فيما بعد، والدولة استكملت بنيتها الهيكليّة خلال السنين التالية، واعتبار تراث محمّد هو الأساس والمرجع (وهو تراث كان موزّعاً مشتّت بين أصحابه) جعل من تولّوا الأمور بعده يجمعون التقاليد ويؤلّفون منها «السنّة» التي اعتمدها إسلامٌ كيّفته القرون المتعاقبة.

القـــرآن

بنية القرآن

● كتاب الإسلام المقدّس، «القرآن الكريم» مؤلّف من الوحي الذي نزل على محمّد بين /٦١٢ و٦٣٢/ وذلك في مكّة، ثمّ في المدينة. ولا بدّ من الإشارة، باديء ذي بدء، إلى الإختلاف الأساسي بين التوراة وبين القرآن: - فالتوراة نتاج جماعي تتابع على وضعه عدد من المؤلّفين سُمع عنهم أنّهم كانوا يتلقّون الإلهام من الروح القدس» وكانت لكلّ منهم خصائصه الذاتيّة، ولغته، وأسلوبه في التعبير؛ أمّا القرآن فعلى العكس من ذلك فهو وحدة متماسكة صدر عن رجل واحد وصيغت آياته بلغة هذا الرجل: العربيّة. - والعربيّة ليست لغة ميتة كاللاتينيّة التي لا تتعدّى كونها لغة الطقوس والشعائر الدينيّة؛ بل هي، أي العربيّة، اللغة الحيّة لعدّة بلدان إسلاميّة وتشكّل جذراً هامّاً من جذور كلّ من اللغات التركيّة، والفارسيّة، والأوردويّة (الهند باكستانيّة) والسواحليّة وحتى الماليّة. ويرى المسلمون السنّة أن الكتاب ليس من وضع وتأليف محمد بل هو وحي منزل أملاه عليه الملاك جبريل.

وكان محمد يبلّغ الآيات الإلّهيّة فيتعلّمها من حوله ويحفظونها عن ظهر قلب، وكانت تدوّن أحياناً على صفائح مختلفة بالتتابع وحال نزول الوحي وذلك بالحرف وأسلوب الكتابة السّاميّين دون نقط تتميّز بها الحروف بعضها عن بعض ودون تأشيرات صوتيّة؛ ونعرف، اليوم، أسماء أربعين من الكتبة والناسخين الذين تولّوا مهامّ ما يسمّى، اليوم، «أمانة السـرّ» لتثبيت النصّ وتوثيقه. - وفي استعراض «النصّ» القرآني المعتمد بعد عشرين عاماً من موت

محمد نجد أنّ الوحي لم يسجّل على أساس التسلسل الزمني بل حسب الطول المتناقص للصور المؤلفة، بدورها، من آيات (والمعنى الحرفي للآية علامة).

● ما هو أصل لغة القرآن؟

- يرى «ريجيس بلاشير» أنّ لهجة مكّة ولغتها المحلّية ليست الأساس للغة القرآن؛ بل الاصطلاح التعبيري لشعر ما قبل الإسلام الذي بلغ تمامه في عهد محمّد.. ذلك الإصطلاح التعبيري كان يمثّل «لغة تخاطب مشتركة» مفهومة على نطاق جغرافي واسع جدّاً وبقيت أصولها، حتّى اليوم، سرّاً خافياً.. تلك الـ «كواني *KOINE*» (لغة التخاطب والكتابة المشتركة في اليونان في العصور اليونانية والرومانية) الشعريّة عمّ استعمالها ليس فقط داخل شبه الجزيرة العربيّة، بل، أيضاً، في [سورية - فلسطين] وفي ما بين النهرين وهي «لغة وسط» يفهمها الحضر والبداة على السواء بمعنى أنّها ليست اللهجة الحجازيّة. - علماء لغة آخرون، سبقوا «ر. بلاشير»، شكّكوا في النظريّة الإسلاميّة التي جعلت اللهجة المكّيّة أصل الفصحى في حين أنّ «نولديكي» أعطى منبعين للعربيّة هما شعر ما قبل الإسلام والقرآن.

«فوليرز» كان يقول أنّ لغة القرآن سبق انتشارها كلغة تخاطب في نجد قبل محمّد بزمن طويل جداً. - «هنري فليش» يلحظ أنّ الشعراء كانوا ينتمون إلى قبائل مختلفة فكانوا يتنقّلون بينها، ويلتقون، ويستعملون نفس اللغة.. ويرى أنّ صانعي هذا النتاج الأدبيّ الشعري كانوا عرباً من الحجاز في المركز الوسط بين عرب نجد وبين المناطق المجاورة بما فيها وادي الفرات؛ والمسألة هي أن نعلم أيّة لهجة كانت القاعدة والأساس للغة الشعر؟

أم أنّ أولئك الشعراء صنعوا لغةً وسطاً تعمّمت فيما بعد وفرضت ذاتها على اللّهجات المحلّية وأصبحت هي المأثورة

بموجب أعراف نبيلة؟ ـ في مجمله، كلام الله دوّن بلغة الشعر مع بعض تجلّيات اللهجة المكّيّة. ودور القرآن كان رئيساً في تاريخ الّلغة العربيّة وخصوصاً بفعل القدسيّة التي أضفاها على لغة الشعر القديمة. واللغة العربيّة لعبت، باديء ذي بدء، ومع انتشارها في مدى الفتوحات الإسلاميّة، لعبت دور لغة الشعائر الدينيّة (طقسية) وبعدها أخذت مكانها كلغة أدب وعلاقات تواصل ومنذ القرن الثامن حلّت، في الإدارة، محلّ الّلهجات المحلّية، والّلغات الأجنبيّة وذلك قبل أن تحلّ محلّها أيضاً، في القرن التاسع، في مجالات العلوم والثّقافة.. وهكذا أمكن الوصول إلى شكل موحّد للتخاطب.

القرآن يشكّل «وحدة».. كُلاًّ..، الأمر الذي لا يمنعه أن يكون مختلفاً جدّاً سواء في المحتوى أم في الشكل ومن هذه الإختلافات انطلق المستشرقون منذ عام ١٨٤٤ في تصنيف القرآن حسب تسلسل وتعاقب الأحداث، تاريخيّاً، في الصور؛ مستندين في ذلك إلى المعايير التالية: ـ تلميحات وإشارات القرآن إلى حوادث معروفة، ومضمون النصّ، وأسلوب (طراز) الوحي... والأخير (من حيث التاريخ للتصنيفات المذكورة) هو مؤلّف «ريجيس بلاشير» وفيه يحدّد أربع مراحل يجزّئها، بدورها، إلى مجموعات:

في المرحلة الأولى، المجموعة الأولى تضمّ الصور التي يدور موضوعها الجوهري حول الدعوة إلى التنزيه والتنقية، إلى البرّ والإحسان والمعروف، وإلى الحزم والمثابرة. ـ والمجموعة الثانية تعالج موضوع تكوّن الإنسان كشاهد وبرهان على البعث؛ وقد لاحظ «تور اندراي»، في مطلع القرن، أن كثرة الاستشهادات بالشرائع والمعتقدات السابقة حول مصير الإنسان قد غلبت على الصور القديمة أي قبل طرح موضوع «توحيد الله». والذي يتكرّر باستمرار كان التذكير بنهاية العالم ويوم الحساب والعدالة الإلّهيّة.. فكلّ، حسب أعماله، يفوز بالجنّة أم مآله النار. ـ في المجموعة الثالثة نجد، ثانيةً، عناصر ترمي لترسيخ الإعتقاد بتطوّر الرسالة ومهامّ

الرسول محمّد. . وفيها ردود سريعة مفحمة للمعارضين وبدء معركة مع الوثنيّة. وظهر، أيضاً، آنئذٍ، [موضوع القصاص الأرضي] الذي ضرب، في الماضي، أولئك الّذين أصمّوا آذانهم عن سماع صوت الأنبياء. ـ أخيراً، «ريجيس بلانشير» يجمع، في المجموعة الأخيرة خمساً من قصار الصور، على شكل عقيدة. . قانون إيمان. . أو صلوات تعزيميّة. . توسّليّة. . ولا نعلم إلى أيّة مرحلة تعود الصور المذكورة؟

صور المرحلة الأولى، بخاصّة صورة «القيامة» وصورة «الكافرون» تتألّف من آيات قصيرة ذات قافية واحدة وإيقاع موسيقي رنّان. ـ المرحلة الثانية تتعلّق بتفاقم المعارضة للنبي الّذي هوجم ونوقش وهُدّد أيضاً. . فشرك بورجوازيّي مكّة عارض الإسلام الوليد ودافع عن نفسه. . والموضوع الجوهري أصبح شعار توحيد الله ومهاجمة الآلهة الكاذبة التي تلقى تعظيماً في مكّة. وأصبح محمد المبشّر، والمنذر، المبلّغ للمشركين أن ساعة الحساب تأتي مداهمةً. . واضعاً نفسه في مصافّ الأنبياء الذين جاؤ وا قبله دون أن يدّعي أنّه فوق البشر. . وصور هذه المرحلة تتأثّر شكل العظة والخطب الأخلاقيّة في ثلاثة أقسام: ـ يتألّف الأوّل من منطلقات العقيدة، والثاني يتميّز بالأمثال حول مصير الكافرين، والثالث يتكوّن من الإستنتاج؛ وإلى هذه المرحلة تعود «صورة مريم» و«صورة الكهف» (التي تجب تلاوتها كلّ أيّام الجمع وتحتفي بذكرى البعث) و«صورة المؤمنون». (أهل الكهف ـ تاريخياً ـ هم ناغو «إيفيزيا» الذين دفنوا أحياء واستيقظوا بعد ثلاثمائة عام ثمّ عادوا ليموتوا في المغارة).

المرحلة الثالثة تشكّل الإنتقال، مع الوحي المتنزّل، إلى المدينة، بعد عام /٦٢٢/ وصورها «مغلّفة بميناء» من الإستفهامات والإستجوابات مثل «يا أيّها الناس. . .» وقد وسّع محمد حقل الدعوة ليشمل القبائل، وأهل الطائف، محاولاً أن يهدي الملحدين

والمشركين ويحوّلهم عن آرائهم مركّزاً على المكافأة والجزاء على أساس الأعمال (الصورة العاشرة) «الحوت» والصورة /١٢/ «يوسف».

المرحلة الرابعة تشمل، من الصور المدينيّة صورتي «البقرة» و«آل عمران» وهما أطول الصور (٢٨٦ آية و٢٠٠ آية).

هكذا، وحسب أسلوب ومحتوى الصور، يمكن الدلالة، في القرآن، على منعطفات التجربة الدينيّة للنبيّ. ـ ومحمد كان يستعمل المفاهيم السهلة البلوغ من قبل من يخاطبهم وأدواته المستعملة لتغيير عالمه الروحي والفكري مأخوذة من اليهوديّة والمسيحيّة. ولتحديد بعض المؤشّرات نحتاج إلى تحليل فقهي، لغوي، ومقارنة لغة القرآن اللاهوتيّة مع لغة الكنائس المسيحيّة في سورية للقرن السابع، مع الملاحظة، مثلاً، أنّ وصف الجنّة في القرآن مستوحىً من وصف كهنة سورية المسيحيّين وبخاصّة القدّيس «افرام السوري» (القرن الرابع).

في المجتمع الإسلامي، القرآن هو المرجع لتسوية الخلافات وإيجاد الأجوبة على الخلافات الناشبة، ففي الصور المدينيّة، مثلاً، تعالج مشاكل الملكيّة، وحقوق المالك.

ومشاكل الأسرة عولجت في «صورة النساء» وبرز، في المعالجة، النمط الأبوي للأسرة وفيها ذِكرٌ لأحكام الزواج والعقبات التي تحول دون الزواج مثل القرابة وأخوّة الحليب (الرضاع) ومسألة الأيتام واقتسام الإرث ـ الصورة /٢٤/ «النور» تعالج الزنا والعلاقات الإجتماعية وسلوك الزوجة. ـ على الغالب، واستناداً إلى الأهميّة العمليّة أو القانونيّة أنّ الصورة الـ /٢٤/ التي نزلت في المدينة تشكّل المصدر والنواة للنّظام وقوانينه. ـ وعندما يفتقد النصّ القرآني المباشر لإقرار حكم، أو تثبيت قاعدة، فيُرجع إلى «السنّة» (الحديث) المسند إلى أصحاب النبي والذي أصبح مبدأ من مبادىء

التشريع.. وفي القرن التاسع أصبحت سيرة النبي مرجعاً للتشريع أيضاً.

● مراجع إحصاء القرآن

اكتمل نزول الوحي القرآني في /٨ حزيران ٦٣٢/ لدى موت محمّد؛ ومنذئذٍ لم يعد ممكناً الرجوع المباشر إليه. وفي تلك الفترة، قلّة من المؤمنين، فقط، كانوا «حفّاظاً» للقرآن واتّفق أنّهم يبلغون السبعة؛ أمّا أغلبيّة المؤمنين الباقين فكانوا يحفظون أجزاء متفاوتة منه، إذ نادرة كانت الصّور التي نزلت جميع آياتها مرّة واحدة.. وكان أصحاب النبي بشراً مآلهم الموت وخُشي أن يذهب الوحي بذهابهم إن لم يتمّ تثبيته في النّصوص.. وأوّل محاولة من هذا القبيل تمّت في عهد الخليفة «أبو بكر» من قبل «زيد بن ثابت» الذي كان يعلم الكتابة وهو من حفظة القرآن. ـ قام زيد بإعادة جمع آيات القرآن المكتوبة على حجارة صقيلة، وقطع خزفيّة، وعظام كتف البعير، أو الشّاة.. ثمّ دوّن ما كان ثابتاً فقط في ذاكرة وحفائظ الأصحاب الّذين حفظوا الآلات دون نظام محدّد انتهجوه، وهذا الإنجاز فُقِد دون أن يترك أثراً يدلّ عليه، وحكوا، بعدها، عن محاولات مماثلة، وبخاصّة محاولة «عليّ» صهر النبي. ومجموعات أخرى من الصّور تمّ تداولها وفيها اختلافات عديدة مردّها إلى ضعف في النقل أو إلى نظام الكتّاب الذي لم يكن استكمل دقّته بعد.

كان لا بدّ من تثبيت نصّ لا خلاف عليه. وحسب رواية مقبولة أنّ الفضل في إنجاز ذلك يعود إلى «عثمان» الخليفة الثالث: ـ لجنة ـ زيد بن ثابت واحد منها ـ عملت على تثبيت نصّ القرآن قرابة عشرين عاماً من بدء عملها؛ وذلك النصّ الذي تمّ في عام /٦٥٣/ ينقسم إلى /١١٤/ صورة مرتّبة وفق النظام التراجعي لطول الصور، ما عدا صورة «الفاتحة». ـ صحيح أنّه وُجد أناس اتّهموا عثمان بأن زاد على... أو حذف من... بعض آيات الذكر

الحكيم؛ ولكن تلك التّهم لا تقلّل شيئاً من قيمة إنجاز عظيم تمّ فعلاً بمشاركة ومشاورة الأصحاب، وبفضل الجهد المباشر بحميّة وحماس زيد بن ثابت ألا وهو وضع نصّ واحد وكامل حفظ للإسلام وحدته وأنقذها فيما بعد.. لقد وُضعت أربع نسخ للنصّ الأصلي (وقال البعض أنّها سبع) محفوظة في مكّة والبصرة والكوفة ودمشق؛ وهذه المجلّدات التي سمّاها «ريجيس بلاشير» [*LECTIONNAIRES*] أعطت القراءة الصّحيحة للنصّ المقدّس، ووجّهت القارىء؛ بعد ثلاثمائة عاماً، ولمّا أصبحت العربيّة هي اللغة الرسميّة للإدارة في عهد الخليفة الأموي «عبد الملك بن مروان»، لم يبق ممكناً تغيير القراءات واختلافها فتقرّر التثبيت النّهائي للنصّ المقدّس. والناس مدينون للحجّاج، الوالي الأموي على العراق، بمراجعة النصّ وضبطه بالتّأشيرات الخاصّة بجرس الصوت، وبالنقط للتمييز بين الحروف المتماثلة..

● أمّا ما هي أصول الكتابة العربيّة؟ ـ فمن أجل المحافظة على نصّ القرآن كان هناك توحيد (فردانيّة) لنمط أصلي للكتابة السّاميّة وبفضل انتشار الديانة الجديدة عرف هذا النمط من الكتابة انتشاراً سريعاً مع تطوير متعدّد الأشكال رافق هذا الانتشار طوال /١٤/ قرناً. وحتّى زمن قريب منّا بقي الإجماع على أنّ الكتابات للنسخ الأربع الأقدم للقرآن باللّغة العربيّة قد اشتقّت من الكتابة النبطيّة العاديّة السّريعة؛ وفي عام /١٩٦٤/ عرض القسّ «جان ستاركي» رأياً آخر ـ بعد دراسة مقارنة مفصّلة للكتابة النبطيّة وللكتابة السّريعة العاديّة لـ «السّريانيّة» (المشتقّة من الآراميّة السّاميّة) وللمدوّنات العربيّة الأوّليّة؛ استنتج وجود العلاقة بين «السيرياك» والعربيّة لأنّ كلاهما يأخذ الخط الأفقي في حين أنّ الأنماط النبطيّة تأخذ الإتّجاه العمودي.

التطوير تمّ بين /٣٢٨ و٥١٢/ وبلغ الكتابة المسمّاة بـ «الكوفيّة» التي ظلّت، طويلاً، تستخدم لنسخ القرآن.

● العبادات

● الإسلام هو التسليم لله، وإبراهيم الذي خضع للإرادة الإلٓهيّة هو المسلم الأوّل. وقبول الإسلام كان، في البدء، الإقرار بـ«الشّهادة»، وتأدية الصلاة، وإيتاء الزكاة ثمّ أضيف إليها الصوم (طوال شهر رمضان) والحجّ.

والعبادات الخمس، في الإسلام، المستخلصة من القرآن ليس لها هدف آخر سوى مرضاة الله وشكره وترديد الآيات التي أنزلها الله على نبيّه محمد. وهذه العبادات تشكّل أركان الإسلام الخمسة ومن تابع التطبيق العملي الديني والإجتماعي لها ـ وفق تعاليم النبي ـ من المؤمنين فهو مسلم تبع دين الحقّ وسلك طريقه.

● العقيدة (قانون الإيمان)

أولى الالتزامات الشخصيّة هي «الشّهادة»، وهي النطق بالكلام المعلن بالشهادة تجاه الله ومحمد. والعبارة تعيّن المجاهرة بالإيمان الإسلامي والشهادة القانونيّة للمسلمين أمام المحاكم وتتألّف من قسمين: ـ «لا إلٓه إلّا الله» (موافقة إجماعيّة على توحيد الله) والثاني «ومحمّد رسول الله» (وفيه تأكيد للرّسالة النبويّة وترسيخ للإنتماء للإسلام). ـ إن دليل كينونة الإنسان هو الشهادة لله وتوحيده، أو، بتعبير آخر استعمله «لويس غارديت» هو «الإيمان والبيّنة» وبهما يحقّق المسلم الأنا ـ الكائن العاقل ـ حسب تعبير «عزيز لحبابي».

● الصّلاة

المؤمن، مفروض عليه أن يؤدّي ويعلن ولاءه لله معترفاً بسلطانه ملتمساً عفوه طالباً فضله وبركاته؛ وهذا الواجب يؤدّي يوميّاً في الصّلاة الثانية وفق القواعد المحدّدة للتهيئة لها واختيار النصوص الواجب تلاوتها، وتحديد زمانها، ووضعيّة المصلّي:

صلاة الفرد عبادة خاصّة وطبيعيّة، في حين أنّ صلاة الجماعة

تكون بمثابة تظاهرة عبادة جماعيّة تتمّ الجمعة ومعها «الخطبة» وهي عمل رسمي وعام؛. ولا بدّ من إعطاء فكرة دقيقة عن أهمّيتها بالنسبة للمسلم. ـ الصّلاة إنجاز، من القلب، له قيمة التطهير والتنقية هدفه الأسمى هو الوصول بواسطة الخشوع إلى الإنصهار بالذّات الإلّهيّة.

المسلم الذي يريد أن يتابع فرائض شريعة دينه، ملزم بخمس صلوات، كلّ يوم، تحمل كلّ منها اسم الوقت الذي تؤدّى فيه: ـ «صلاة الصبح أو الفجر» ـ «صلاة الظهر» ـ «صلاة العصر» ـ «صلاة المغرب» ـ «صلاة العشاء». ـ وإيقاع الشعائر مسألة كونيّة سواء لدى المسلمين أو المسيحيّين ونجهل في أيّ وقت بالضبط أصبح هذا العدد ثابتاً ومحدّداً.. وحسب الروايات فقد تمّ ذلك بعد موت محمّد.

كلّ صلاة يسبقها «آذان» ـ دعوة يقوم بها المؤذّن من مكان عال في حال عدم وجود المئذنة؛ عندها، على المسلم البالغ رشده، الخالص النيّة، عليه أن يضع جسمه في حالة طهارة تامّة وفق أصول محدّدة، وعندما يدخل المسجد بثياب محتشمة لائقة يجب أن يكون مغطّى الرّأس وأن يخلع حذاءه (ذكرى التجلّي لموسى في الشجرة الملتهبة ـ القرآن ٢٠ ـ ١٢).

والإسلام، يفرض حالات تطهّر شرعيّة، منتظمة، بكلّ دقّة وفي الإسلام، كما في الدينين التوحيديّين الآخرين، يرتبط الماء بفكرة التطهير ـ ويقول «هنري ماسّي» أنّ «هذه الشعيرة اقتبست عن يهود المدينة» ـ والإغتسال جزئيّ «الوضوء» ـ أو كلّي «الغسل»: فالجزئيّ يشمل غسل الوجه واليدين والساعدين ومسح الرأس بيدين مبلّلتين وتنظيف الفم والأنف وغسل القدمين.. وفي حال عدم وجود الماء يتمّ الوضوء بالرمل. أمّا الغسل فيتمّ إطلاقاً بالماء ومن هنا تلازم، عادة، وجود «الحمّام» قرب الجامع.

أثناء الصلاة يجب أن يتّجه الوجه يَمّ «القبلة» أي باتّجاه مكّة الذي يدلّ عليه المحراب. ـ في بداية الهجرة (٦٢٢) كان

المسلمون، كما اليهود، يصلّون متجهين يمّ القدس ولكن وجهة مكّة اتُخذت منذ العام الثاني. . وللصّلاة ثلاث وضعيّات: ـ [القيام ـ الركوع ـ السجود] يتخلّلها كلام ووضعيّات تختلف باختلاف المذاهب والعناصر الأخيرة هذه هي: ـ إعلان «النيّة» بصوت عال أو منخفض. ثمّ التكبير ـ «الله أكبر». ـ ثمّ ما يسمّيه «لويس غارديت». (القدّاس) ويتألّف من ركعتين إلى ثلاث أو أربع وعدّة وضعيّات وكلام وتتلى «الفاتحة» عند كلّ ركعة، كما تتلى بعض قصار الصّور بعد انتصاب القامة. ويأتي «السجود» ثمّ «الجلوس» ثُمّ سجود ثان. لدى انتهاء الصلاة، وإبّان الجلوس، يتلو المؤمن «الشهادة والتبريك» وتختتم بالسلام مرّتين ملتفتاً إلى اليمين أوّلاً ثمّ إلى الشمال. ـ الصلاة تؤدّى في أيّ مكان ما عدا القبر والأماكن الملطّخة مثل المسالخ ويفرش المكان المختار ببساط أو «سجّادة» ويستطيع المسلم أن يصلّي وحده، وتفضّل صلاة الجماعة كلّما كان ذلك ممكناً وفي المكان المخصّص لذلك (المسجد ـ الجامع) الذي فيه يجتمع المؤمنون من أجل الصلاة، وسماع تلاوة القرآن وتلقّي التعاليم الدينيّة، وفي الصّلاة ينتظم المؤمنون صفوفاً مقابل جدار القبلة يتقدّمهم الإمام ونظراً لعدم وجود «الاكليروس» في الإسلام فكلّ مسلم عُرف أهلاً بتقواه وعلمه يستطيع أن يملأ وظيفة الإمام المحفوظة، عموماً، لرئيس المذهب المحلّي.

مرّة واحدة في الأسبوع «صلاة ظهر الجمعة» تأخذ الصلاة أهمّية خاصّة وتتمّ جماعةً في المسجد الكبير وتأخذ بُعداً إجتماعيّاً إذ «ينتظم فيها عقد أمّة النبي» وتتأكد وحدتها. ـ في هذا اليوم تترافق الصلاة مع الخطبة من على المنبر مع تنويه بالإمام الأعلى الذي كان الخليفة، من حيث المبدأ، وهذا التنويه يكون بمثابة فريضة الولاء والطاعة السّياسيّين. ـ صلاة الجمعة إجباريّة عادةً كما هي إجباريّة صلاة كلّ من العيدين الكبيرين (عيد الأضحى أو العيد الكبير، ذكرى تضحية إبراهيم) و(عيد الفطر ـ أو العيد الصغير) والصلاتان تتمّان في المصلّى في الهواء الطلق.

صلاة الجنازة تتمّ قبيل الدفن، عنـد رأس النقّالـة إذا كان المتوفّى رجلاً، وعند أسفلها إذا كانت إمرأة، وهي صلاة من أجل الغير وفيها ابتهال لشفاعة الملائكة إلاّ أنّه، في يوم الحساب، يَمثُل الإنسان وحده أمام الديّان.

وتوجد الصّلوات النوافل تؤدّى في الّليل وفي سهرات رمضان. ـ وصلوات الإستسقاء (طلب المطر والاستجابة للنـذر) والتقليد يقضي أنّ كلّ صلاة تؤدّى يجب أن تسبقها النيّة الخالصة وفي الحديث ما معناه أن المواظبة اليوميّة من قبل المؤمن على الصلوات الخمس تدخله الجنّة.

إلى جانب الصّلاة، هناك «الأدعية» وهي صلوات فرديّة صوتيّة، أو عقليّة، تأبينيّة، أو تضرّعيّة، وهناك، أيضاً، «الذكر» وهو نوعان فردي وجماعي.

● **الصدقة القانونيّة**

الفريضة الثالثة هي «الزكاة» (الصدقة القانونيّة) المفروضة على المسلمين انطلاقاً من حدّ أدنى هو «النصاب». . والعبارة مقتبسة من الّلسان العبراني ـ الآرامي «زاكوت» وقد وردت في القرآن بكلمة «زكاة» حيناً و«صدقة» أحياناً. وعبارة «صدقة» تستدعي فكرة العدالة (القرآن ـ ٩ ـ ١٠٣) فهي، إذن، أقرب إلى الصدقة الطوعيّة (المظهر العفوي للمحبّة) في حين أنّ الزكاة هي الصدقة المكتوبة على المؤمن كشعيرة من الشعائر؛ والإلتزام بها وثيق العرى بفضيلة البرّ والإحسان والعون المتبادل: ـ أن يحصي الواحد أمواله ويبذل منها لإعانة بائس مسكين أو من أجل الجماعة؛ فذلك عمل من أعمال التقوى التي تمحو الذّنوب والخطايا. والدأب على الإحسان فضيلة جوهريّة من فضائل المؤمن الحقيقي، ومن أجل هذا، فإداء الزكاة يطهّر المسلم (القرآن ـ ٣ ـ ٨٦) ويكافأ عليها في الآخرة (القرآن ـ ٩ ـ ١٢٢) ـ والزكاة صارت فريضة منذ بداية نبوّة محمد، وفي

المدينة كانت ـ مع جزية السكان الخاضعين ـ المصدر الأساسي لموارد جماعة المسلمين. ـ وفي ظل خلافة أبي بكر فقدت الزكاة صفة التصدّق القابل للتسامح لتكون ضريبة حقيقيّة مشروعة خاصّتها إجتماعيّة لا تصرف إلاّ لخدمة المسلمين ووجب أن تكون الضريبة المباشرة الوحيدة التي يدفعها المسلمون وسرعان ما أضيفت إليها ضريبة أخرى هي الخراج (الضريبة العقاريّة). وبشكل عامّ حدّدت نسبة الزكاة بعشر الموارد تدفع عيناً أو تصفّى فتدفع مقابلها نقود عينيّة وهي مفروضة على أنواع محدّدة من الثروة:

على النَّعَم (الماشية) للمرعى؛ وتتناسب النسبة، هنا، مع أهمّية وحجم القطعان (إبل ـ بقر ـ أغنام ـ ماعز).. وعلى منتجات الأرض مثل الأشجار المثمرة والنخل والعنب.. أمّا الحبوب فيقتطع منها بين العشرة والعشرين حسب مراتب المحصول؛ والزكاة، هنا، تأخذ تسمية «العشر» وهي غير قرآنيّة ولا تتغيّر التسمية حتى إذا زاد الإقتطاع على العشرة.. أمّا على الذهب والفضّة والمعادن النادرة والحجارة الكريمة وعلى الصفقات والأرباح التجاريّة وكلّ كسب بشكل عام؛ فتختلف الإقتطاعات. ـ وعلى الكنوز المدفونة يقتطع الخمس ولا بدّ من الملاحظة أن ما يُتَزَيَّنُ به من الذهب والفضّة لا يخضع للضريبة. ـ ومن أجل جباية الإيرادات الضريبيّة كان محمّد يرسل «عاملاً» ينهض بمهامّ الدعوة والإمامة ويجمع الجزية والزكاة. ـ والفئات الثمانية ممّن لهم حقّ في الزكاة تمّ تحديدها في القرآن (٩ ـ ٦٠): ـ الصدقات ـ تكون فقط للمحتاجين، والفقراء، واليتامى، والمؤلفة قلوبهم وذوي القربى والعبيد والمجاهدين في سبيل الله، وأبناء السبيل.

● عبر التاريخ، غالباً ما كان يحذّر من «المكوس» أي الضرائب التعسّفيّة المفروضة من قبل السلطة فيلغيها الأمير الذي تولّى العمالة وكثيراً ما يعود ويفرضها هو نفسه أو خلفه؛ ومن المفيد هنا، أن نلاحظ مع «لويس غارديت» أنّه، في نواظم الزكاة والصدقة والوقف،

الحقّ التقليدي أخضع عرف الملكيّة الخاصّة للخير العام.. للمواطنين.. إذ كلّ ما أوتيه الإنسان هو من فضل الخالق الذي له وحده ملك الأرض وما تحتوي عليه.

● الصوم

الفريضة الرابعة، الصّوم، تعبُّد عُرف عند العرب في عهد سبق الإسلام ومارسته، في الأصل، اليهوديّة والمسيحيّة وفي بدء إقامة المسلمين في المدينة أحدث محمّد صوم الأيّام العشرة الأولى من شهر محرّم «صوم عاشوراء» النظير والمقابل لصوم اليهود [تيشري - TISHRI] إحياءً لذكرى عبور البحر الأحمر وعقاب رجال فرعون. - وبعد معركة بدر /٦٢٤/ عزم محمّد على مقاطعة اليهود فاستبدل صوم الأيّام العشرة الأولى من العام بصوم نهاري لشهر كامل والشهر الذي اختير كان رمضان الشهر التاسع من عام الهجرة والشهر الذي كانت له قدسيّة في عهد الوثنيّة وقد اختير عقب نزول الآية القرآنيّة بتكريمه وتخليد ذكرى الشهر الذي نزل فيه الوحي.. ويثبت بدء الشهر عن طريق شاهدين رأى كلّ منهما ظهور الهلال الدالّ على انتهاء شهر شعبان، والقاضي هو الذي يعلن النبأ، وبإشارة معيّنة يتمّ إبلاغ ذلك إلى السّكان.

في عهد إحداث هذا الصوم، شهر رمضان (وجذره اللغوي [رم ض اء] ويشير إلى اشتداد الحر) لم يكن ينتقل، إذ، حسب التقليد الكلداني، كان الناس يمارسون عباداتهم أيّام الشهر «الكبسي» للسنة القمريّة وهي السنة المؤلّفة من /١٣/ شهراً والتي تأتي كلّ ثلاث سنوات مرّة ـ والغاية من الصوم كانت أن يتمكّن المؤمن من كبح أهوائه والتكفير عن خطاياه.. واستمرّ هذا الصوم [تظاهرة «الجهاد الأكبر» جهاد النفوس والإنتصار على الذات].

التعاليم التي تؤلّف القواعد الناظمة للصوم جاءت في الصورة الثانية (١٧٩ ـ ١٨١) (هو يمتدّ حسب الشعائر اليهوديّة من غروب

الشمس إلى غروبها الثاني) - [كلوا واشربوا حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ثمّ صوموا صوماً كاملاً حتى الغروب (القرآن ٢ - ١٨٣) - واختلفت وسائل التنبيه إلى الأوقات المذكورة (المؤذّن - المسحّر - الأنوار من رؤوس المآذن...) - قبل كلّ فجر، على المؤمن أن يعقد النيّة على الصوم ويصبح محظوراً عليه الطعام والشراب والتدخين أو دخول أيّ شيء من «المفطّرات» إلى جسمه وإلّا فسد صومه.

الغزّالي، في كتابه «كتاب أسرار الصوم» يقول بوجوب عدم النوم طيلة نهار الصوم، ووجوب القناعة والإعتدال في الّليل: فلا شراهة ولا نهماً في شراب أو طعام وعلى المؤمن أن يأخذ فطوراً خفيفاً به يقطع صيامه وأن يتناول «سحوره» قبل الفجر فشهر رمضان شهر امتحان للنفوس وتعظيم للإيمان. وبعد الإمساك، طوال النهار، ينصرف الكثيرون إلى الإستراحة والإنبساط عقب الغروب مباشرة. والشهر يظهر، هنا، وكأنّه فترة مسرّات بدل التكاليف الآنف ذكرها.

و«ليلة القدر»، ليلة /٢٦ - ٢٧/ رمضان، التي خُصّت بصورة من القرآن، تتميّز باحتفال ديني مشهود، يقضونها بتلاوة القرآن في المساجد.. وتزدان المدن بالأنوار.. وتشترى هدايا العيد؛ ونهاية الصّوم تأتي مع ظهور الهلال المؤذن ببداية شهر شوّال - إنّه «عيد الفطر» أو «العيد الصغير» وفيه تؤتى «زكاة الفطر» وتؤدّى بالأصل إلى الفقراء والمحتاجين وتتكوّن من توزيع الأطعمة والألبسة الجديدة وأوّل أيّام العيد الثلاثة يخصّص لزيارة المقابر. - فريضة الصوم، التي تدوم شهر رمضان كلّه، تتوجّب على كلّ مؤمن بمفرده ولكنها تحفظ «خاصّتها الجماعيّة»: - فالصوم تظاهرة إيمان حقيقيّة وشاهد عملي على التضامن الإجتماعي، به يتقوّى شعور الأخوّة لدى «الأمّة»؛ أضف إلى ذلك المنطلق الرائع فرحة العيد المشتركة والإعتداد بالإنتماء إلى جماعة المسلمين.

الصوم، في رمضان، واجب على كل مؤمن، إلّا أنّه يجوز

التعويض عن أيّام المرض بمثلها في زمن آخر، والصّوم إلزاميّ أيضاً بعد نذر أو كفّارة أو استغفار. . وهناك صوم طوعيّ يوميّ الإثنين والخميس ويوم «عرفات» وستّة أيّام في شهر شوّال وهو العاشر بين شهور السنة القمريّة ويحرّم الصوم يوم «الضحيّة» (العيد الكبير) ويوم «الفطر» (العيد الصغير).

● الحجّ

الفريضة الخامسة هي «الحجّ» والحجّ إلى مكّة ركن أساسيّ من أركان الإسلام (القرآن ٣ ـ ٩١)؛ خُصّ بصورة منفردة (٢٢). و«حجّة الوداع» قام بها النبيّ في العام العاشر للهجرة /٦٣٢/. وشعائر الحجّ حدّدها القرآن (٢٢ ـ [٢٥ ـ ٣٧]) وفي مأثورات «الحديث» (وهي شعائر دينيّة قديمة جدّاً استمرّت بعد تهذيب وتنقية).

كلّ مسلم بالغ وسويّ، عليه أن يؤدّي فريضة الحجّ مرّة في العمر على الأقلّ، ولكنّ الكثيرين من المسلمين تنقصهم الوسائل فيموتون دون أن ترى مكّة مقدمهم، والبعض يؤدّون الحجّ بالواسطة إذ مسموحٌ التوكيل والحجّ إلى مكّة «أمّ القرى» كان، بالنسبة للمسلم، إحياءً لذكرى تضحية إبراهيم. والحج نوعان مختلفان:

«العمرة» ـ أو «الحجّ الصغير» المتمثّل في زيارة الكعبة مع التركيز على الحجر الأسود وهو عمل فرديّ يمكن أن يؤدّى في أيّ زمن من السنة، وغالباً ما يتمّ قبل، أو بعد، الحجّ وهو الحج الإبراهيمي الجماعي، وذروته وقفة عرفات ـ لدى دخوله الأراضي المقدّسة المحيطة بمكّة والمحرّم دخولها على غير المسلم تحت طائلة الحكم بالموت، يدخل الحاجّ «الإحرام» وشعائر الإحرام تشمل، إضافة إلى إعلان عقد النيّة والوضوء، تغييراً كاملاً للثّياب وهذا يحمل أيضاً تسمية «الإحرام» يرافق ذلك ترديد «الطلبيّة»: ـ «لبّيك اللهم الخ. . .» ـ ويتألّف الإحرام من قطعتي قماش غير

مخاطتين: ـ «الإزار» الذي يغطي الجسم من الزنّار حتّى الركبتين، و«الرداء» الذي يغطّي الكتف (العاتق) الأيسر مارّاً تحت الإبط الأيمَن وهو اللباس الموحّد للعمرة والحجّ وهو من نوع واحد للجميع، من القطن الأبيض ويجب أن يبقى الرأس حاسراً.

شعائر الإحرام، شعائر تطهّريّة أصولها وثنيّة فتغيير الثياب يضفي تأثيره على الحالة النفسيّة للحاجّ القادم إلى الكعبة فيصبح في وضع جديد من الطهارة والنقاء ـ لنتذكّر أنّ مدينة «مكّة» موجودة في جوف واد وتحيط بها الجبال. . وفي المكان الأكثر انخفاضاً من المدينة توجد الكعبة و«بئر زمزم» المقدّس الذي استطاعت «هاجر» أن تطفيء منه ظمأ ولدها إسماعيل، و«مقام إبراهيم» الحجر الذي عليه صعد إبراهيم كما يقال ثمّ جامع واسع طول فنائه ١٦٤ م وعرضه ١٠٨ م ويحتوي على البئر والكعبة وهذه الأخيرة بناء تكعيبيّ الشكل قاعدتها ١٠ × ١٢ م وارتفاعها ١٥ متراً؛ وفي الزاوية الشرقيّة يوجد الحجر الأسود الذي كسره القرامطة في القرن التاسع.

وحسب التقليد، بنيت الكعبة، من أساسها وقاعدتها، من قبل إبراهيم بمعاونة ابنه إسماعيل ولمّا نقصهما حجر زاوية لإكمال العمارة حمل لهما الملاك جبريل حجراً أبيض ويقول التقليد أنّه صار أسوداً لأنه يحمل أوضار خطايا البشر. ـ والكعبة، للإسلام، هي وسط العالم، فهي قبلة المؤمنين في صلاتهم تغطّيها، دائماً، «كسوة» سوداء موشّاة بالذهب إلاّ خلال الحجّ فالكسوة تكون بيضاء. والحاج، لابس الإحرام، يدخل مسجد الحرم ويذهب ليقبّل الحجر الأسود وعلى المطاف يؤدّي شعيرة «الطواف» سبع مرّات، والمسيرة، بمجملها تبلغ /١٤٠٠/ متراً حول الكعبة بالإتّجاه المعاكس لعقارب الساعة مع التوقف، في كلّ دورة لتقبيل أو لمس الحجر. ـ وبعد الطواف مباشرة يأتي «السعي» ويتألّف من الطواف سبع مرّات بين «الصفا والمروة» وهما تلاّن قريبان من المسجد وبينهما مسافة تبلغ /٤٠٠/ متراً؛ والسعي إحياء لذكرى جري

«هاجر» ركضاً بحثاً عن نبع منه تسقي إسماعيل.

هذه الشعائر التي تشكّل العمرة، أي التمهيد للحجّ الكبير الذي يبدأ في السابع من ذي الحجّة بـ «خطبة» يلقيها قاضي مكّة من على منبر قرب الكعبة.. وفي الثّامن يكون الحجّاج على موعد لقاء في وادي «منى» على بعد /١٢/ كيلومتراً من مكّة وهناك يتمّ توقير الأماكن المقدّسة التي جعلتها التقاليد وثيقة الارتباط بالعبادات الإبراهيميّة.. وهناك يجب قضاء ليلة [٨ - ٩] ذي الحجّة، واحتفال الحجر الكبير يجري في التّاسع بعد صلاة الظهر حيث يتوجّه الجمع نحو وقوف جبل «عرفات» على بعد /٢١/ كيلومتراً شرقيّ مكّة والوقوف يتمّ في سهل عرفات خارج الأراضي المقدّسة المحاطة بمدرّج جبلي؛ وزمن الإحتفال منذ تميل الشمس إلى الزوال وحتى غيابها وهي لحظة ذروة شعار الحجّ يقف فيها المؤمن ويشارك في التأمّل المشترك من ساعة الظهر إلى غروب الشمس، ثمّ، وتبعاً لشعيرة سبقت الإسلام يعود راكضاً إلى «مزدلفة» حيث يقضي ليلة [٩ - ١٠] في الصّلاة.

قبل شروق شمس العاشر يتوجّه الجمع ركضاً إلى «منى» حيث تتمّ شعائر «التحلّل» و«الجمرة» و«الأضحى» و«الحلق».

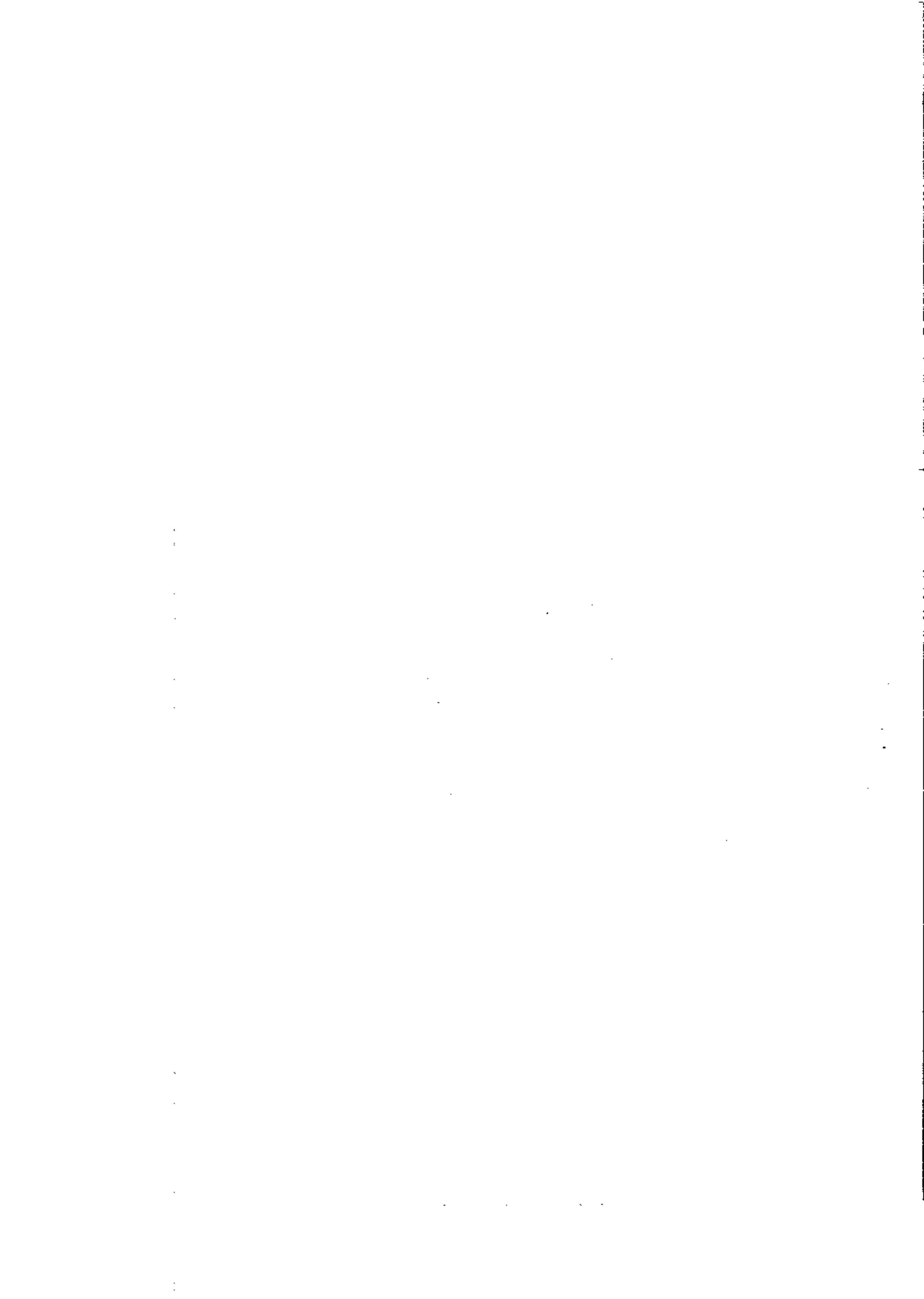
لإتمام شعيرة «الرجم» يجتاز الحاج منى ويقوم برمي الحصى في الطرف الغربيّ من الشعب الذي، منه، يكون الإنصراف بعد تكويم الحصى.. إنّها شعيرة «جمرة العقبة». ومقابل كلّ من الكومات الثلاث من الحجارة (جمرة) يتمّ رمي سبع من الحصى جمعت بالأمس في «مزدلفة» والكومة الثالثة، وهي الكبرى، تمثّل «الشيطان» والعمليّة إحياء لشعيرة رجم الشيطان. - بعد الرجم، يتمّ، في منى، ذبح الأضاحي، وهذا تذكير مباشر بضحيّة إبراهيم. والأضاحي تصحّ من الجمال، أو البقر، أو الغنم، أو الماعز.. تذبح على الأرض وفق الشّعائر ودون مكان محدّد لذلك (مثل المذبح، أو الهيكل، أو حتّى الحجر) وفي نفس اليوم، لدى اجتماع

الحجّاج، يذبح العديد من الخراف في وسط «دار السلام»، إنّه العيد الكبير في التقويم الإسلامي، العاشر ذو الحجّة، وتستمرّ الإحتفالات ثلاثة أيّام. ـ والإحتفال الثالث الذي يجب أن يتمّ في «منى» هو «الحلق» ولا يتعدّى، عادة، تقصير الشعر، وقصّ الأظافر ودفنها في نفس المكان.. والعمليّة إيثار شخصي، رمزي، من قبل المؤمن تجاه خالقه. ـ ويتمّ الحاجّ حجّه بزيارة الكعبة حيث يقوم بـ «طواف الإفادة» الذي يحرّره من محظورات ومحرّمات الجنس ويصبح في حلّ منها، ويعود إلى بيته وقد غسلت ذنوبه، واستوثق في إيمانه.. فالحجّ يشكّل تجديداً إذ يطهّر المؤمن ويوثّق عرى إيمانه، ويغفر كلّ خطاياه وسيبقى الحجّ ـ عبر الأجيال ـ تظاهرة اقتصاديّة واجتماعيّة، وسياسيّة تتجلّى فيها الوحدة الإسلاميّة فهو الآية لتضامن جميع المسلمين.

بعض «الراسخين في العلم» من المسلمين، يقولون بوجود «ركن سادس» للإيمان هو «الجهاد» إلاّ أنّه، وإن كان مكتوباً على المسلمين جميعاً، ومفروضاً عليهم؛ فلا يدخل في عداد «العبادات» المفروضة على المؤمن.. بل هو مجهود ذاتي يبلغ به المؤمن درجة كماله الأخلاقي والديني.. فالجهاد منشّط، ومحرّض لوجدان «الأمّة» الديني. والدعوة إلى الجهاد هي، دائماً، دعوة إلى الوحدة، والنضال ضدّ قوى الشرّ؛ فالوحدة، وفتح البلدان، أو استعادة البلدان المضاعة بعد فتحها.. هذه هي العوامل المحرّكة لهذه الدعوة.

وفي السنّة، الجهاد يتمّ بالعمل المسلّح لنشر الإسلام والمفهوم النظري للجهاد يرتكز على تمييز أساسيّ، في هذا العالم، بين «أرض الإسلام» (دار السلام) وبين «أرض الحرب» (دار الحرب) وهي، حقّاً، تخصّ الإسلام ويجب نشره فيها حالما آتت الفرص. في البدء كانت الحرب دفاعيّة ثمّ، ومنذ هجرة محمد إلى المدينة، أصبحت أداة رئيسة للدعوة ووسيلة بتنمية عدد المؤمنين؛ وبالفتوحات أصبحت الحرب وسيلة إقرار أمن الكيان الإسلامي

وإغناء لهذا الكيان عن طريق «الفيء». ـ فالعمل المسلّح، إذن، أصبح يؤخذ على محمل نشر الإسلام والدفـاع عنه في آن.. والدفاع هذا، يبيح المعارك الحربيّة حتّى داخل «دار السلام» لإجبار المؤمنين الخارجين على العودة إلى جادّة الصواب، أي إلى «السنّة» الصراطيّة؛ والحروب الموجّهة ضد غير المسلمين لا تعتبر، كلّها، «جهاداً» خصوصاً عندما يكون سببها السعي وراء الغنائم أو بلوغ أطماع شخصيّة يحقّقهـا الفتح.. بمعنى أنّ الحـرب ضدّ غيـر المسلمين يختلف وصفها حسبما تكون دفاعيّة أم هجوميّة عدوانيّة: ـ ففي الحالة الأولى يكون الجهاد واجباً أي «فرضاً عيناً» على الفرد.. وفي الحالة الثانية يكون «فرض الكفاية». ـ وكلّ مشارك في الحرب (مجاهد) يسقط في المعركة، يكون شهيداً تمحى ذنوبه ويدخل الجنّة، وهذا هو الإعتقاد الشعبي السائد.. والجهاد الهجومي لا يُفرض سوى في حالة توفّر ظروف الأمل بالنّصر.. والحالة الدائمة لـ «الحرب المقدّسة» لا تمنع إحلال مهادنات محدودة المدد مقابل أن يدفع العدوّ جزية محدّدة، وعندما تكون في الهدنة مصلحة ظرفيّة. ـ فكرة الجهاد تختلف، حسب الزّمان والمكان والوسط ويكون يوجد، دائماً ـ في الأساس ـ عداء وخصومة إيديولوجيّان يستمرّان حتّى يبسط الإسلام سيادته على المناطق غير المسلمة. وانطلاقاً من الوجهة العسكريّة المتطوّرة مع الزّمن ترجم «الغربيّون» الجهاد بعبارة «الحرب المقدّسة» والمفهوم المركزي يبقى مجهود الجماعة المتّصل لتسود وتنتشر، في الأرض، «حقوق الله والناس» الثابتة في القرآن، وهو المجهود السّامي المؤكّد بالإسلام والطموح المطلق للدين الإسلامي الحنيف.



الخلفاء الرّاشدون
ومرحلة التّوسّع الإسلامي الأولى

خلافة «أبو بكر»

مات محمد في المدينة، في ربيع الثاني /حزيران ٦٣٢/ دون وارث ذكر، ومن بناته، فاطمة زوجة علي، وحدها بقيت على قيد الحياة بعده؛ وتمّ تشييع الجنازة، وفق التقليد، بعد ساعات من الوفاة، فاقتصرت على حضور أفراد العائلة وعلى رأسهم عليّ؛ ولم يأتِ شيء مسبقاً يخصّ من يخلفه لا في القرآن ولا في السنّة؛ فالخلافة، لدى العرب، ليست وراثيّة ولذلك بقيت مشكلتها معلّقة وظهرت بوادر أزمتها التي تنازع فيها فريقان: المهاجرون (الذين تبعوا محمّداً من مكّة) والأنصار (أبناء المدينة)؛ وداخل المهاجرين بالذات، نشب الخلاف بين من اعتبروا الخلافة حقّاً مشروعاً لعليّ ابن عمّ النبي وزوج ابنته، وبين سائر قريش ممّن تكتّلوا وراء أبي سفيان الخصم العنيد لمحمّد قبل أن أسلم. ـ وحال سماع نبأ وفاة محمد اجتمع فريق من الأنصار المدينيّين استعداداً منهم لنقل السلطة إلى واحد منهم، ولموقفهم ذلك خلفيّة معارضة الأنصار لسياسة النبيّ تجاه القرشيّين الذين تأخّر دخولهم الإسلام.

ومطلب الأنصار تحدّد بأن يعامل ممثّلوهم على قدم المساواة مع القرشيّين. واقترحوا اسمين أحدهما قرشيّ والآخر أنصاري يُختار أحدهما من قبل الجماعة الأمر الذي لم يرض به القرشيّون المصرّون على تقليد الخلافة لواحد منهم على أن يكون الأكثر حزماً في مواجهة أسرة الرسول (علي وذويه)؛ وفي الواقع، المؤمنون الأقرب إلى الرسول كانوا «أبو بكر وعمر وعبيدة» وهم المهاجرون

الّذين لا يريدون أن تفوت السلطة واحداً منهم. . وأبو بكر هو أقرب الأصحاب وعمّ النبي إذ زوّجه ابنته عائشة المفضّلة بين زوجات النبي. . فتقبّل «البيعة» وكان الإجماع على الإعتراف بسلطته من قبل جميع الفرقاء. . علماً أنّه سبق أن قاد الحجّ في العام الذي سبق، ومحمّد ـ إبّان مرضه الأخير ـ كلّفه بإمامة المصلّين وبانتخابه نال لقب «خليفة رسول الله» فانتقلت إليه جميع مهامّ محمّد الوظيفيّة باستثناء دور النبوّة والصفة الروحانيّة. . ولعدّة أشهر امتنع عليّ وعبّاس وأنصارهما عن الإعتراف بأبي بكر وحضور الاحتفالات التي تقتضي أن يرأسها ـ وقد دامت خلافته سنتين فقط (حتى ١٣/٦٣٤) وتخلّلتها «الرّدة» (حركة المعارضة السياسيّة والدينيّة) علماً أنّ الحالة العامّة في شبه الجزيرة العربيّة داخلها الإضطراب قبل موت محمّد، وما إن غاب وجهه حتّى ذرّ قرن الفتنة وظهرت في كلّ مكان حركات إنفصاليّة: ـ ثلث سكان شبه الجزيرة، على الأقلّ «أسلموا ولم يؤمنوا» أيّام محمد، يضاف إليهم العديد من القبائل التي احتجّت على المكانة المعطاة للمدينة وامتنعوا عن دفع الزكاة؛ والبعض الآخر داخلت قبولهم بالسلطة السياسيّة للمدينة نوازع حسد وغيرة، وآخرون، أيضاً، اعترفوا بالمدينة عاصمة ودفعوا الجزية محتفظين بدياناتهم السّابقة الخاصّة بهم: ـ الشرك ـ الحنيفيّة ـ المسيحيّة ـ وثمّة قبائل ظلّت لا تعترف بسلطة المدينة وليست لديها أيّة فكرة واضحة عن الإسلام، وحسب تصنيف «كايتاني» نستطيع، بعد موت محمد، توزيع القبائل على أربع فئات رئيسة:

١ ـ القبائل التي أعلنت إسلامها وانتظمت مباشرةً في وحدة المدينة ومكّة وهي موجودة في جوار كلّ من المدينة ومكّة.

٢ ـ قبائل «العربيّة الوسطى» التي شملتها الضغوط الإسلاميّة القويّة ومع ذلك احتفظت لها بمحاور قويّة معارضة للخضوع للمدينة.

٣ ـ القبائل التي كان المسلمون، من أبنائها، قلّة وهي في بدايات تقبّل نفوذ المسلمين والتعاطف مع هذا النفوذ.

المقلب

Abd Manaf
Hâchim هاشم
Abd Chams عبد شمس
al Muttalib المطلب
Umayya أمية
Abd al-Muttalib عبد المطلب
Nutayla نتيلة
Fâtima فاطمة
Abû-Tâlib أبو طالب
al-Abbas العباس
Abd Allâh عبد الله
Âmina آمنة
MUHAMMAD محمد
Khadîja خديجة
Zaynab زينب
Ruqayya رقية
Umm-Kulthum أم كلثوم
Fâtima فاطمة
ALI علي (4e calife) الخليفة الرابع
al-Hasan الحسن
al-Husayn الحسين
Abd Allâh
Ali علي
Muhammad محمد
Ibrâhîm ابراهيم
Abû-Ja'far أبو جعفر
ABÛ-L-ABBAS (1er calife abbasside) الخليفة العباسي الأول
Abû-l-Âçi أبو العاص
al-Hakam الحكم
MARWAN مروان (2e dynastie umayyade) الدولة الأموية الثانية
Affân عفان
UTHMAN عثمان (3e calife) الخليفة الثالث
Harb حرب
Abû-Sufyân أبو سفيان
MU'AWIYA معاوية (1re dynastie umayyade) الدولة الأموية الأولى
Umm Habîba أم حبيبة
Hafça حفصة
UMAR عمر (2e calife) الخليفة الثاني
A'icha عائشة
ABÛ-BAKR أبو بكر (1er calife) الخليفة الأول

فروع — filiations
زواج (مصاهرة) — mariages

LA FAMILLE DU PROPHETE

Source : André MIQUEL, *l'Islam et sa civilisation*

اسرة النبي

المصدر: اندريه ميكيل (الاسلام وحضارته)

٤ ـ القبائل التي احتفظت باستقلالها السياسي والإيديولوجي (العقائدي) وبخاصّة «حنفاء» اليمامة واليمن وحضرموت. . ولذلك ظلّت في عزلة عن المسلمين ـ وبالتالي القبائل التي عرفت انتشاراً واسعاً وعميقاً للمسيحيّة فيها (بنو كلب ـ الغسّانيّون ـ التنوخيّون ـ التغلبيّون) ـ ويلحظ أيضاً تجدّد نفوذ اليهوديّة في اليمن والتمهيد للإنفصال بظهور أنبياء محلّيين مثل «مسيلمة» (الحنيفي السابق) قائد الفتنة العنيفة في منطقة اليمامة الغنيّة، والّذي وقع ـ كما يظهر ـ تحت مؤثّرات مسيحيّة، وكانت له عظوة خفيّة في المدينة نفسها.

ومن بين الأخصام، إمرأة ادّعت النبوّة «صادجة» (صادقة) التي تنتمي لبني تميم لجهة الأب وللتغلبيّين لجهة الأم ـ وربّما كانت مسيحيّة؟ ـ فلا يُعرف الكثير عمّا جاءت به من «تعاليم»؛ وكلّ ما علم عنها أنّها ظهرت في ما بين النهرين وحاربت في نجد حيث حاولت التحالف مع مسيلمة الذي فسح مجالاً لعلاقات غير ملزمة معها. وبطل قمع تلك الفتن كان خالد بن الوليد الذي أنهى، تماماً، انفصال بني حنيفة في اليمامة. . وفي معركة «عقربة» /٦٣٣/١٢/ سحق أنصار مسيلمة الذي قتل في ساحة المعركة وذلك بعد ثلاث كرّات متتابعة. . وخاض خالد معارك منتصرةً وأكثر سهولة، بعدئذٍ، في كلّ من البحرين، وعمان، وحضرموت. أمّا في اليمن، فقائد المعارضة ممثّل الحنيفيّة المحلّيّة «الأسود» قاد، بادىء ذي بدء، حرباً ضدّ الحاكم الفارسي في اليمن واستولى على نجران، ثمّ صنعاء، وبعدها انقلب ضدّ المسلمين ممّا اضطرّ «العمال» المدينيّين أن يغادروا جنوبيّ شبه الجزيرة؛ ولكنّ الأسود قتل فجأة وثبت أنّ قتله كان على يد أنصار الساسانيّين.

في العربيّة الوسطى خصم آخر: «طليحة» قاد المعارضة العنيفة دون أن يدّعي النبوّة لأنّه كان، في عهد النبي، معروفاً بمواقفه ضد المدينيّين والمكّيّين يسانده، في ذلك، الطائيّون وقد هزمه خالد، هو أيضاً، ويقال أنّ أنصاره الّذين أسروا ورفضوا إعلان إسلامهم حُرقوا أحياء ليكونوا عبرة لسواهم. أمّا طليحة فقد استطاع الإفلات واختفى

زمناً ثمّ أعلن إسلامه في خلافة عمر فنال عفواً وساهم في حروب الفتوحات أيضاً.

إذن، فللرّدّة وجوه تختلف باختلاف مناطق نشوئها ولذلك لا يمكن اعتبارها ارتداداً وكفراً، ولا حركة دينيّة؛ لأنّ معظم القبائل - في حياة محمد - لم تقرّ الإسلام ديناً لها وكذلك رفضت، كما سبق وذكرنا، الإعتراف بالسلطة السياسيّة للمدينة ودفع الضرائب لعمّال الجباية المدينيّين.

وأبو بكر نجح في إخضاع القبائل العربيّة إلى «الوحدة» [المدينيّة - المكّيّة] واحتاج إلى عام كامل حتى امتلك بيديه زمام شبه الجزيرة العربيّة كلّها. والقبائل التي تمّ إخضاعها كانت تبيّت إظهار عدوانيّتها ولذلك تمّ تطويع رجالها، الواحدة بعد الأخرى، لحروب الفتح التي تنتقل بالمتطوّعين إلى اسبانية وإلى حدود الهند. أمّا التوحيد الفعلي لقبائل شبه الجزيرة فكان مهمّة الخليفة الثاني «عمر بن الخطّاب» عمّ النبي لجهة حفصة بنت عمر. - في عهد الخليفة «أبو بكر» شنّ العرب هجومهم ضد أكبر امبراطوريّتين في عالم ذلك العصر وهما فارس وبيزنطية.. والذي فاجأ وأدهش حاميات العراق وإيران وسورية ومصر، حماسة وحميّة الفاتحين وحركيّة السّرايا، ومهارة الفرسان الآتين من العربيّة؛ وتجدر الإشارة إلى أنّ الهجوم - إيّاه - كان، قبل كلّ شيء، نصراً للعروبة، لأنّه يشكّل المرحلة الرئيسة والكبرى للتغلغل البطيء الذي بدأ منذ قرون، من قبل قبائل شبه الجزيرة العربيّة، في الهلال الخصيب من الجزيرة. فالفاتحون وسكان المناطق المفتوحة من «أهل الكتاب» المسيحيّين واليهود تجمعهم اللغة، والثقافة، وأواصر القربى العربيّة والسّاميّة فكان سهلاً أن يتعارفوا ويتفاهموا.

في عام /٦٣٣/١٢/، بدعوة من رئيس قبيلة بكر، انطلق خالد بن الوليد من مناطق اليمامة والبحرين، في الجانب الشرقي من شبه الجزيرة، انطلق متّجهاً نحو جنوب العراق. - وباستثناء غزوة «مؤتة» التي تمّت أيّام محمد، كانت المرّة الأولى التي - فيها - تجتاز قوّات

مسلمة حدود شبه الجزيرة. والتقى المسلمون مع قوّات الحدود من الفرس ومع زردشتيّين وبخاصّة مع عرب مسيحيّين يقيمون في «السّواد» الخصيب؛ وبدعم من بني شيبان تقدّم الفاتح حتى وصل إلى أبواب الحيرة، فدفعت العاصمة اللخميّة مبلغاً كبيراً، كجزية، لقاء تراجع الجيش واكتفائه باحتلال العراق الأدنى. ومن هناك تلقّى خالد بن الوليد من الخليفة أبي بكر إيعازاً بالتوجّه إلى سورية عوناً للقوى الموجّهة إلى هناك بقيادة كلّ من عمر بن العاص ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وتبعهم أبو عبيدة الذي كان قد سلك طريق القوافل بين المدينة وسورية، وهزم البيزنطيّين بقيادة «البطريق سرجيوس» جنوب البحر الميّت في «وادي عَرَبة» عام /١٣/٦٣٤/ وثأر، بذلك، لهزيمة قوّات محمّد في «مؤتة».

أبو بكر أمر خالد بن الوليد بالذهاب إلى سورية وقد تلقّى الأمر المذكور إبّان استيلائه على «عين التّمر» على بعد /١٣٠/ كيلومتراً غربي كربلاء فأخذ طريق الصحراء السّوريّة ووصل إلى أبواب دمشق فهزم البيزنطيّين في «مرج راهط» ثمّ اتّجه نحو «بُصرى» جنوبي سورية حيث التقى مع القوّات القادمة من العربيّة فاكتمل الجيش الذي أحرز نصر «أجنادين» في /٢٨/ جمادى الأولى عام /١٣/ ٣٠/ تموز ٦٣٤/ وبذلك أصبح طريق فلسطين مفتوحاً وكانت بداية فتح سورية.

إجمالاً، لم تكن هناك مقاومة تذكر سواء في الأراضي الخاضعة للفرس، أم تلك التي يديرها البيزنطيّون وذلك لأنّ السكّان المحلّيين فتحوا أبواب المدن، آمنين على حياتهم وثرواتهم وأبنائهم مع دفع الجزية التي كانوا، أصلاً، يدفعون مثلها للبيزنطيّين. ـ والعمليّات، إذن، لا تتعدّى طرد الأجانب المحتلّين.. ولا يصحّ تسمّى «فتحاً» بالمعنى المعروف للكلمة.

● خلافة عمر

مات أبو بكر في /٢٢ جمادى الثانية عام /١٣/ ٢٣ آب ٦٣٤/ دون أن يتّخذ أي إجراء سبق خاصّ بالخلافة. - عمر بن الخطّاب الصحابي، وعمّ النبي لجهة ابنته حفصة، استلم السلطة في المدينة بعد مبايعته «أميراً للمؤمنين» ودامت إمارته عشرة أعوام من /٦٣٤/ إلى /٦٤٤/.

● اتّساع الفتح

خلال العشرة أعوام المذكورة، عرفت عمليات الفتح التي بدأت في عهد أبي بكر، عرفت توسّعاً كبيراً في سورية والعراق وإيران ومصر؛ فتكوّنت، آنئذٍ امبراطوريّة جديدة كبيرة: **الامبراطوريّة العربيّة الإسلاميّة**.

إبّان تقبّل عمر المبايعة، وتسلّمه مهام الخلافة، (إمارة المؤمنين) تحرّك خالد بن الوليد على رأس ثمانمائة فارس من قوّاته، متقدّماً نحو الشمال فاستولى على بصرى المدينة الكبيرة التي تحطّ فيها وتنطلق منها القوافل وحقّق انتصار «مرج الصفّر» في الفاتح من محرّم عام /١٤/ ٢٥ شباط ٦٣٥، واحتلّ غوطة دمشق ولعدم توفّر الأدوات لديه لم يستطع اقتحام المدينة المتحصّنة بسورها القديم. - في رجب /١٤/ أيلول /٦٣٥/ وبعد حصار دام ستّة أشهر استسلمت دمشق بعد أن أدرك «هرقل» خطورة الوضع فجمع فلول قوّاته في شمال سورية. (النصوص تذكر مئتي ألف رجل من الجانب البيزنطي، وأربعة وعشرين ألفاً في الجانب العربي المسلم وهي أرقام تبدو مبالغاً فيها: - كيف يمكن تأمين تموين وتجهيز أعداد كبرى كهذه؟ - راجع «ف. لوت» - الفن العسكري والجيوش في القرن الوسيط في أوروبة والشرق الأوسط - الجزء الثاني - المكتبة التاريخيّة بايوت - باريس ١٩٤٦).

المسلمون لم يبقوا في دمشق بل خفّوا عائدين جنوباً، وفي

/١٢ رجب/ عام ٢٠/١٥ آب ٦٣٦/ حملوا على اليرموك، رافد الأردن، وكان النصر الحاسم الذي أكّد ضياع سورية من أيدي البيزنطيّين: ـ فرسان هرقل والمفارز السوريّة بقيادة ملك غسّان جبلة بن الأيهم، والمتطوّعة المرتزقة الأرمن، انكفأوا منهزمين نحو الشمال وأوكلت إلى أبي عبيدة القيادة العامّة للجيوش العربيّة الإسلاميّة، فأعيد احتلال دمشق وسقطت، تباعاً، كلّ من بعلبك وحمص وحماه حتى سيزر، على العاصي، وقد تمّ ذلك في العام /١٦/٦٣٧/ واستكمل ضمّ الأجزاء الشماليّة من سورية حتى جبال طوروس.. أمّا في الجنوب فقد أبدى البيزنطيّون مقاومة جادّة لأنّ القدس لم تسقط إلّا بعد حصار عامين كاملين.. وقد استقبلت الخليفة عمر في عام /١٧/٦٣٨/ الذي دخلها دون قتال واستقبل استقبال المنقذين من قبل أبنائها الذين عاشوا خاضعين للنير البيزنطي منذ عام /٣٢٥/ ونكبوا بالغزو الفارسي قبل عشرين عاماً ويرون في الفاتحين أخوة لهم في العرق جاؤ وهم محرّرين من النير الأجنبي.

على الشاطىء، قيصريّة قاومت طويلاً فجابهت المسلمين طوال سبع سنوات لأن آلات دك الحصون تنقصهم في حين نجح البيزنطيّون بإمداد أهلها بحراً بالذخائر والمؤن حتّى عام ١٩/٦٤١.

قبيل الاستيلاء على القدس، قام الخليفة عمر، الذي تميّز بعقل تنظيمي، قام بزيارة معسكر «الجابية» لتثبيت وضع المناطق المفتوحة، وبعد ذلك بقليل، أي عام /١٨/٦٣٩/ حلّ وباء مُميت عُرف باسم «طاعون الأمواس» ذهب ضحيّته في «الأمواس» عدد كبير من القادة الآتين من العربيّة، ومنهم أبو عبيدة الذي يقال أنّ عمراً كان يفكّر بالتمهيد لكي يخلفه وعندئذٍ أسندت القيادة في سورية إلى معاوية فقسمت إلى أربع مناطق عسكريّة «جند»: [ـ فلسطين ـ الأردن ـ دمشق ـ حمص] ـ ولم يطل الوقت حتى اقتطعت من منطقة حمص مقاطعات الشمال لتؤلف «جنداً» جديداً هو «قنسرين»

والمناطق العسكريّة تلك أصبحت، كما يبدو، البديل للتقسيمات الإداريّة البيزنطيّة.

بين /٦٣٣ و٦٤٦/ أصبحت سورية، بكاملها، خاضعة لسلطة المسلمين بمعنى أنّ المشكلة السّوريّة سوّيت وتفرّغ المسلمون للإلتفات إلى الفرس.

لم يكن السّاسانيّون يرون خطراً محتملاً سوى من جهة بيزنطية في الشمال، والأتراك من الشرق؛ فما كان العرب البداة، في نظرهم، يصلحون لغير عمليّات الغزو وتدمير المزروعات بمعنى أنّ «العصابات البدويّة» لم توقظ أيّ اهتمام لدى السّاسانيين سادة امبراطوريّة فارس إلّا أن هؤلاء العرب الآتين من الحجاز وسورية وجّهوا إلى فارس ضربة لا تقلّ قسوة عن تلك التي وجّهها الاسكندر الكبير.

الاستيلاء على الحيرة ترك أوّل ردّ فعل لدى السّاسانيّين فشعر المثّنى بن الحارثة بالخطر وطلب المدد من المدينة لأنّ خالداً استُقدم إلى سورية ضد البيزنطيّين. فأرسل عمر أبا عبيدة الثقفي.. وفي عام /١٣/٦٣٤/ نشبت المعركة المسمّاة «معركة الجسر»: ـ الفيلة الساسانيّة أجفلت الخيول العربيّة فوطأ أحد الفيلة على أبي عبيدة نفسه وانكفأت سراياه دون نظام؛ ولكنّ الفرس لم يلاحقوا العرب المتراجعين.

بعد عام، استؤنفت العمليّات القتاليّة.. وفي شعبان عام ١٤/ تشرين أوّل ٦٣٥/ أحرز المثّنى نصراً مؤزّراً في وادي «البويب» قرب الكوفة واستولى على غنائم هامّة. وحسب عمر حساباً أن يكتسب هذا القائد من بني شيبان أهمّية تجعل منه مركز قوّة، فأرسل سعد بن أبي وقّاص بعد أن عقد له لواء القيادة العامّة للجيوش فأدرك السّاسانيّون آنئذٍ جدّيّة الخطر وأوكلوا مهامّ الدفاع عن الفرات إلى قائد عام الألوية «رستم بن فاروخزاد» ـ وتقابل الجيشان في مطلع عام /١٦/٦٣٧/ على الضفة الغربيّة للفرات، في القادسيّة غير بعيد من الحيرة.

بعد مفاوضات دامت أربعة أشهر نشبت المعركة في جمادى الأولى عام /١٦/ حزيران /٦٣٧/ وكان سعد يعاني ألماً منعه أن يكون على رأس المقاتلين في المعركة فراح يقودها، ويوجّهها من فوق مرتفع قريب مجاور (وهذه بدعة مبتكرة في الفنّ العسكري لدى العرب) - وفي اليوم الرابع من مجابهة متذبذبة وصل مـدد القوّات القادمة من سورية فتغيّر توازن القوى وانهار الجيش الساساني وقتل رستم قائده؛ وبعد شهرين تقدّم سعد نحو المدائن (ختـازيفون القديمة) عاصمة الشتاء للسّاسانيّين الواقعة على الضفة الشـرقيّة لدجلة. . وكان الفرس قد تراجعوا إلى تلال «زاغروس» في «حلوان» فاستولى العرب على غنائم كبرى تناولتها الأخبار التاريخيّة القديمة ذاكرة شدّة الاختلافات في اقتسامها.

فتح العراق لم يكن سوى المرحلة الأولى على طريق الشّرق فالمسلمون بلغوا «زاغروس». . سلسلة الجبال المهيمنة على ما بين النهرين والخليج والتي تشكّـل الحدود الشـرقيّة للعـالم السّامي والطرف الغربي من الأرض الإيرانيّة. - والقواعد العمليّاتيّة ضد إيران كانت، آنئذٍ، البصرة، والكوفة، والبحرين.

جاذب الغنائم أغرى المسلمين بالتقـدّم واحتلال خـوزستان وعاصمتها الأهواز في عام /١٨/٦٣٩/ و«يزدجرد الثالث» أدرك أنّ المسألة ليست مجرّد غزوة بسيـطة على الحدود فـالقضيّة بـالغة الجديّة: - يجب إيقاف المدّ الأجنبي وإعاقة تقدّم المسلمين الذين يقودهم «النعمان بن عمر بن مقرّن». - حاول الشاهنشاه تعبئة جيوش جديدة ولكن الخصام دبّ بين القادة حتّى أنّ عدداً منهم لم يستجب لدعوة الملك واستنجاده. . - لذلك وفي عام /٢١/٦٤٢/ (أو عام /٢٣/٦٤٤/) وراء سلسلة جبال «زاغروس» في نهاوند القريبة من همذان، وعلى علوّ ١٨٠٠ متراً فوق سطح البحر، هناك مُني الجيش الفارسي بهزيمة ثانيـة فتحت أمام المجتـاحين طريق أصفهـان، والهضبة الإيرانيّة. . وقد سمّى العرب تلك المعركة «فتح الفتوح».

الامبراطوريّة الفارسيّة تمزّقت تماماً وأصبح همّ كلّ من أقاليمها

الحصول على استقلاله الذاتي وهذه الحركة كانت أشد حساسيّة لدى طبقة النبلاء في الأرياف، وعند كبار ملاّكي الأراضي، أي من كان يطلق عليهم اسم «الدهقان»؛ حتّى أن بعضهم قبلوا الخضوع للعرب ودفع الجزية من أجل الإحتفاظ بثرواتهم وأملاكهم. منذئذٍ لم تبق صعوبات تذكر بوجه الفتح العربي بعد أن زالت المقاومة المنظّمة.. ولكنّ العرب تمهّلوا في تقدّمهم إذ بَعُدت المسافة بينهم وبين قواعدهم؛ والسكّان يكنّون لهم الضغينة والعداوة ولذلك تمّ الاستيلاء على المدن تباعاً..

بعد بضعة أعوام سادها السلم، وانتظم خلالها وترسّخ النظام الجديد في قاعدتي البصرة والكوفة تحرّك الفاتحون شمالاً، وفي عام /٦٤١/ استولوا على الموصل في الجزيرة، وقاموا بغارات وحملات في أرمينية وجورجية.

في عام /٦٤٤ـ٦٤٥/ انطلق العرب، من البحرين، بهجوم برّي وبحري عبر الخليج ضدّ فارس وتغلغلت بعض المفارز والتجريدات المسلمة في قلب «بالوخستان» حتّى بلغت تخوم الهند ودامت تلك العمليّات أربعة أعوام.. ـ وفي عام /٢٩/٦٤٩/ تمّ الاستيلاء من جديد على «اصطخر» المقرّ الصيفي للساسانيّين القريب من خرائب «عاصمة الفرس الأولى» لأن المسلمين اضطرّوا لإخلائها بعد الاحتلال الأوّل على أثر ثورة نشبت في عام /٣١/٦٥١/ وفيها قتل آخر ملوك ساسان «يزدجرد» إذ عُثر عليه في مطحنة لجأ إليها، كما يقال، لقضاء ليلته، قرب «مرو». ـ في نفس العام وصل العرب إلى الضفة الجنوبيّة من «أمّ داريّة» (الاكسوس) وهناك دخلوا، لأوّل مرّة، في احتكاك مباشر مع الترك.

الامبراطورية السّاسانيّة زالت وتحقّق فتح إيران خلال عشر سنوات ولكن العرب واجهوا مصاعب اعترضت فرض حكمهم في بلاد بنيتها السّكانيّة غير عربيّة وغير ساميّة، سكّانها آريّون والذين أسلموا منهم لعبوا، في مستقبل الأيّام، دوراً هامّاً سواء على الصعيد الدّيني، أم في ميدان العلم والمعرفة.

في الغرب، استؤنفت العمليّات الحربيّة بعد توطيد الحكم والنظام الجديدين في سورية؛ فبدأ فتح أفريقية من قبل العرب بحملة تمّت ضد مصر بقيادة «عمر بن العاص»، في ذي الحجّة عام /١٦/ كانون الأول ٦٣٩/. ويقول بعض المؤرّخين، أنّ عمر بن العاص انطلق، بمبادرة خاصّة منه، نحو وادي النيل لأنّه شعر أنّه أوذي وجرح في كرامته في سورية عقب تسمية معاوية.. وهذا القول لا يبدو صحيحاً، دقيقاً، لأنّ الحملة ـ إيّاها ـ استنجزت بدافع الضرورة لتموين الحجاز بالقمح فاحتياجات مكّة لهذه المادّة تضاعفت وازدادت كثيراً منذ تمّ توحيد شبه الجزيرة وتضاعف عدد الحجّاج.. ومن جهة أخرى أصبحت المدينة هي الأخرى، من الناحية العمليّة، عاصمة الخلافة فنما وتزايد عدد سكّانها بشكل سريع وكبير؛ ولا بدّ والحالة هذه، من موارد تموين جديدة تتكافأ مع هذا النموّ في عدد المستهلكين.. ففي محرّم عام /٢٠/ كانون الثاني ٦٤١/ (وسواء بإذن من عمر أم بدون إذن) استولى الجيش، الذي بإمرة عمر بن العاص، على «بيلوز» (فاراميا ـ قرب بور سعيد الآن) ثمّ «بيلبايس» وتوغّل في «الدلتا» وشنّ غارة على «الفيّوم» (روضة مصر وبستانها) ـ وكان الخليفة واعياً لحدود سلطته فقام بمهامّ القائد العام: ـ في رجب عام /١٩/ تموز ٦٤٠/ أرسل المدد اللاّزم لجيش مصر فصعد المسلمون ثانية نحو الشمال وأحرزوا نصراً على البيزنطيّين في «عين شمس» (هيليوبوليس) وفي أيلول أحكم عمر الحصار على المدينة المحصّنة «بابليون» التي سلّمت بعد مفاوضات طويلة وذلك في /٢١ ربيع الثاني عام ٢٠/٩ نيسان ٦٤١/ وصك التسليم كان أوّل معاهدة استسلام وقّعت في مصر علماً أنّ الأقباط لم يُبدوا أيّة مقاومة (كان موقفهم مشابهاً تماماً لموقف الغسّانيّين في الشام) وبين ظهرانيهم أقام عمر معسكره وهو أصل «الفسطاط».

بعد ذلك سار العرب نحو الإسكندريّة وحاصروها في/ رجب/ حزيران/؛ وفي ذي القعدة/ مطلع تشرين الثاني/ وقّع البطريرك

المحلّي اتّفاقاً أخلى، بموجبه، القلعة وسلّمها لعمر. ولم يتمّ احتلال المدينة إلاّ بعد أحد عشر شهراً وهي مهلة تمّ الإتّفاق عليها للسماح للقوات البيزنطيّة والسكّان من أصل يوناني بالجلاء عن المدينة.

في /٢٨/ شوال ٢١/٢٩ أيلول ٦٤٢/ دخل العرب المدينة حسب الإتفاق بالتراضي.

هناك أسطورة تمّ ترويجها في القرن الثالث عشر تتّهم العرب بحرق مكتبة الإسكندريّة لدى احتلالهم المذكور للمدينة إلاّ أنه، في الحقيقة والواقع، كانت الأسطورة المروّجة إحدى الطرف والحكايا اللامسؤولة وتتعلّق بحرق مكتبة هيكل «سيرابيس» (سيرابيوم - الإله اليوناني المتّصل بأوزيريس وزيوس ورمز الوحدة الدينيّة اليونانيّة - المصريّة) حرق تلك المكتبة من قبل الرومان في عام /٤٨/ قبل الميلاد.

أسّس عمر الفسطاط على الضفة اليمنى للنيل وأعاد للقناة صلاحيّتها للملاحة وهي القناة التي أنجزها «داريوس» (ملك الفرس ٥٢٢ - ٤٨٦ ق. م.)؛ ثمّ أعادها إلى حالتها الصالحة للملاحة «تراجان» (الامبراطور الروماني ٩٨ - ١١٧ للميلاد) وكانت تربط النهر بـ«كلثوم» على البحر الأحمر وتسهّل نقل الحبوب إلى الحجاز.

عام /٢٤/٦٤٥/ فتح الأسطول البيزنطي عنوة مرفأ الاسكندريّة وأنزل قوّة طردت الحامية العربية الأمر الذي كلّف العرب حصاراً جديداً للمدينة حتى فتحوها من جديد خلال صيف عام /٢٥/٦٤٦/ - وهو النّصر الذي سجّل إجلاء بيزنطية نهائيّاً خارج مصر. وكان «عبد الله بن سعد» الأخ بالرضاع للخليفة عثمان قد سمّي حاكماً لمصر منذ عام. - وبعد التجربة المذكورة وجد لزاماً عليه تحريك مشاغل بناء السفن في الاسكندريّة لبناء أسطول كان له، فيما بعد، أثره الفعّال في تأكيد قوّة دولة المسلمين.

ومنذ عام /٢٠/٦٤١/ قام، في مصر، نظام استيطاني حقيقي

وكان نظاماً ضرائبياً ثقيلاً: حكمت البلاد من قبل ولاة سوريّين احتفظوا لأنفسهم بالإدارة التي فرضها البيزنطيّون على الأقباط. والولاة السوريّون - إيّاهم - ساروا تدريجيّاً في تعريب مصر وتحويلها إلى قطر مسلم وفي مصر، بدأ شنّ الغارات على ليبيا المجاورة.. والقبائل المحلّية لم تقاوم تلك الغارات فسهل عليها التغلّب على القوّات البيزنطيّة المتواجدة هناك واستولى العرب على «بركه» عام /٦٤٢/٢١ وذلك قبل احتلالهم «سيرينايبك» (اقليم بنغازي شمال شرق ليبيا) وتوغّلوا جنوباً حتّى بلغوا «فزّان» - أمّا غرباً فقد تمّ الاستيلاء على طرابلس عام /٦٤٧/٢٢/ ومن هناك نفذ الجيش العربي، بقيادة عبد الله بن سعد، إلى إفريقية (تونس) وهزم البيزنطيين فوق أراضي «قرطاجة» القديمة وهذا يعني أنّ العرب انتزعوا من البيزنطيّين، خلال عشرين عاماً، أراضي واسعة جدّاً في آسية وافريقية وفي نفس الوقت أخضعوا الامبراطوريّة الفارسيّة وأفنوا الساسانيّين وتلك هي المرحلة الأولى التي عقبتها مرحلة استيطان الفاتح المسلم وتنظيم نفسه داخل الأقاليم الشرقيّة.

ماذا كانت أسباب سرعة الفتوحات المذكورة؟ - نحن لا نملك أيّ دليل نعتمده في الإفتراض أنّ الخلفاء الأوَل وقادتهم العسكريّين كانوا يملكون خططاً سبق وضعها لاستراتيجيّتهم الهجوميّة؛ فالكثير من النجاحات التي تحقّقت ظهرت لهم مفاجئة وغير منتظرة أكثر ممّا كان ذلك بالنسبة للمغلوبين أنفسهم. وهناك تفسير جزئيّ، يكمن في الأسباب الإقتصاديّة للنجاحات إيّاها.. فعقب معارك لا حصر لها عرفت كلّ من بيزنطية وإيران السّاسانيّة أزمة هي تناقص في الموارد أضعف قدرة القوّات البيزنطيّة والفارسيّة وأفواج المرتزقة التي منها كانت تتشكّل جيوش ذلك الزّمن، أصبحت أقلّ عدداً ممّا كانت قبلاً.. وسلاح الفرسان الثقيل بدا عاجزاً عن المناورة ضدّ النبّالين والفرسان العرب؛ هذا مع نقص في التسليح ووسائل تعهّد الأماكن المحصّنة بالصيانة والمؤن؛ وفي الصّف المقابل سرايا تتلقّى المدد وتزداد في العدد

من بداة لا يملكون شيئاً يدافعون عنه، وكلّ شيء أمامهم هو برسم الفتح. ونستطيع، أيضاً، إدخال سبب هام هو التطوّر الاجتماعي في الامبراطوريّتين موضوع بحثنا حيث كان على شفا الإنطفاء والزوال مجتمع عاش على العمل الرقّي لينشأ على أنقاضه مجتمع إقطاعيّ البنية؛ فهناك، إذن، العوامل النفسيّة والسكان المضطهدون من أجل معتقداتهم الذين سحقوا من قبل البيزنطيّين الأرثوذكس أو السّاسانيّين الزردشتيّين ليستغلّهم ويستثمر جهودهم الجباة الغرباء..

في نظر هؤلاء كان الفاتحون العرب القادمون من العربيّة محرّرين لهم من أسيادهم المتسلّطين.. ومبادرة الإتّفاقات والمعاهدات مع الفاتحين كانت تخصّ ممثّلي الشعوب المغلوبة الذين كانوا يطلبون «الأمان» لقاء دفع جزية فيها الملاذ والوقاية لحياتهم وممتلكاتهم؛ علماً أنّ حرّية المواطنين وضمان عدم إدخال ضمان ثروات وممتلكات سكّان المناطق المفتوحة لا يدخلان في «الفيء» كما لا يدخل فيه تعهّد الدفاع عن المدينة، وبخاصّة الأماكن المسوّرة (النطاق) وصيانة المطاحن، والإلتزام بعدم تحويل المؤسّسات الدينيّة إلى جوامع وعدم هدمها. - ورؤساء الدين للمذهب النسطوري هم الذين سهّلوا لجيوش المسلمين دخول أراضي الامبراطوريّة الساسانيّة عن طريق فتح أبواب مدنهم لكسب حسن التفات السادة الجدد وعطفهم ورفقهم وتسامحهم؛ وكثيرون، أيضاً، كانوا أولئك الزردشتيّون الذين أصبحوا يسيرون على غير هدى بعد زوال دولتهم وديانتها، فتقبّلوا معاونة الفاتحين حتّى دخلوا في دين الإسلام. وفي الأقاليم التي كانت خاضعة للسلطة البيزنطيّة يمكن تفسير الدخول في الإسلام تعاطفاً وتضامناً بين قبائل العرب مثلما كان رفضاً للدخول في وضع «أهل الذمّة» يضاف إلى كلّ هذا التطلّع إلى المشاركة في السلطة.

في القطاعات التي كان المسيحيّون فيها مؤزرين بإكليروس

حسن التنظيم، كان اعتناق الإسلام على نطاق أضيق وأكثر بطئاً. . - هذا، ومن جهة أخرى، كان المسلمون يفرضون على الذين يخضعون لسلطتهم شروط تعايش وكينونة أكثر احتمالاً من تلك التي كان يفرضها المتسلّطون السابقون. وصحيح أنّ لا مفرّ من دفع الضرائب وإداء الجزية ولكن ممارسة العبادات كانت حرّة، والكنائس التوحيديّة التي أغلقها البيزنطيّون أعيد فتحها، كما أنّ سكان البلدان المفتوحة لم يقفوا عند حدود عدم معارضة تقدّم الفاتحين بل آزروهم في ذلك أيضاً. - أمّا تفسير النّجاح وردّه كلّه إلى «حماس الفاتح واندفاعه الديني» فلا بدّ من إعادة النظر فيه. . فالبدوي، في الواقع، لم يكن متعمقاً في معرفة الدين الجديد، ونصّ القرآن لم يدوّن قبل منتصف القرن السّابع أي بعد إنجاز المرحلة الأولى من الفتح. - الامبراطور (البازيلوس) البيزنطي «ليون السادس الحكيم» - في مؤلّفه حول التعبئة قال قولاً صحيحاً جدّاً: - «الحرب لا تصمّم لا على أساس التفوّق العددي ولا الشّجاعة العمياء، بل يتطلّب ذلك ذكاءً فائقاً لدى القادة وقوّة معنويّة لدى القوّات». - وهذه مزايا لا يبدو أنها كانت تنقص العرب في الثلث الثاني من القرن السّابع.

● تنظيم الامبراطورية في عهد عمر

منذ القرن الأوّل للإسلام، هناك قوّة تنظيم سياسي واجتماعي تكوّنت مع تكوّن «الأمّة» أي جماعة المؤمنين.

وتقول المصادر العربية من القرن الوسيط أنّ تأسيس الخلافة، أي تحويل الأراضي المفتوحة إلى دولة مسلمة مركزيّة، يعود الفضل فيه إلى عمر بن الخطّاب الخليفة الثاني الذي تميّز، عموماً، لمنظّم فعّال أوتي حنكة سياسيّة، فريدة وإرادة حازمة صلبة ومقدرة وطاقة قويّتين. . ومن خلال الصورة ذات الإطار المثالي التي ابتكرتها له أجيال عدّة من المسلمين، كان الرّجل أميراً متواضعاً متّزناً في تصرّفه، لا يحب الترف والبذخ، قليل الإهتمام

بالرفاهية ورغد العيش، همّه الأوّل خدمة مصالح الإسلام والمسلمين.. وحتّى الوثائق التّاريخيّة الحديثة تقدّمه على أنّه «رجل دولة ديمقراطي» جدير أن يكون قدوة في جميع الأقطار العربيّة.

الإهتمام بإقامة علاقات طبيعيّة مع سكان الأراضي المفتوحة دفع الخليفة عمر إلى المجيء من المدينة لعقد مؤتمر في «الجابية»/ عام ١٧/٦٣٨/ على بعد /٨٠/ كيلومتراً جنوبي دمشق، ودراسة المشاكل النّاجمة عن الفتح. ذلك الإجتماع عرف تحت إسم «يوم الجابية». - إذن، فالسبب الذي ابتدعه المؤرّخون، والقائل «أنّ عمراً جاء إلى سورية للإتفاق على شروط استسلام القدس» يبدو محض اختلاق في زمن متأخر.

في الواقع، يبدو أنّ عمراً كان الممثّل لمصالح الطبقة الاجتماعيّة العليا [المدينيّة - المكّية] أي طبقة أصحاب النبي (مهاجرين وأنصاراً) وهي التي تتطابق مع مصالح رؤساء القبائل البدويّة الذين قبلوا بأولويّة الوحدة الإسلاميّة واضطلعوا بمهامّ قياديّة في الجموع والحشود الفاتحة.. وعمر هو المعني بمواجهة مشاكل إدارة امبراطوريّة واسعة أقاليمها قريبة العهد بالفتح.. وهو المعنيّ أيضاً بمشاكل الضبط والربط بين ممثّلي تلك الأقاليم؛ وكمثال:

في عامي /١٤ - ١٥/٦٣٥ - ٦٣٦/ انتقل يهود خيبر للإقامة في أريحا، في حين أنّ مسيحيّي نجران لجأوا إلى سورية.. فكيف يمكن الحصول على مستقرّ ومساكن في بلدان قريبة العهد بالإحتلال وأراضيها ملك عام للجماعة؟ - لقد أبقى عمر، في الإدارة، على البُنى القائمة واكتفى أن ألحق بالسلطة المحلّية حاكماً (أميراً) وموظفاً ماليّاً (عميلاً) للسهر على أعمال الجباية المختلفة.. ومن أجل تحقيق رقابة وسيطرة أفضل على البلدان المفتوحة، أنشأ معسكرات حربيّة هامّة (أمصاراً) بلغ عددها خمسة في سورية: - الجابية جنوب دمشق - حمص - أمواس - طبريّا - اللدّ قرب القدس - وتحوّل هذا الأخير إلى الرملة بعد مدّة؛ وفي

مصر: ـ الفسطاط ـ ومعسكر قرب الإسكندريّة ـ؛ في العراق: ـ معسكرا البصرة والكوفة. وقد تنظمت هذه القوّات وأنشىء لكلّ منها ديوان للتسجيل والإحصاء الخ. . . وكان «العرفاء» يتولّون الإدارة والقضاء العسكريّين.

● النظام المالي والسياسة الضرائبيّة أيام عمر

● عمل عمر على إقامة نظام مالي مستقرّ لتأمين توزيع عادل للنفقات والأجور والمرتّبات وأحدث استعمال السجلّ (الديوان) وأوّل ديوان أنشىء كان في المدينة عام /٢٠/ ٦٤١/ وفيه يدوّن عدد القوّات المقاتلة النظاميّة على أساس القبائل وكذلك أسماء الأشخاص الذين لهم حقّ اجتباء المرتّب عن الخدمات المقدّمة من أجل الإسلام، وتلحظ درجة القرابة للنبي والنسبة المقتطعة من بيت المال والجراية المستحقة لهم الخ. . .

وذلك كان ديوان الجند وأنشىء مثيل له في البصرة والكوفة والفسطاط. ـ في زمن الأمويّين تطوّر نظام الدواوين وأصبح أكثر تعقيداً كما سنرى ذلك في مكانه.

موارد بيت المال كانت: ـ خُمس غنائم الحرب والزكاة، ـ العشور على الأراضي ـ وضريبة الخراج، والجزية.

جمع الغنائم كان من الإهتمامات الرئيسة لدى الفاتحين وكانت على صنفين: ـ «الفيء» في حالة الاستسلام دون شروط والغنيمة المستحصل عليها إبّان المعركة أو بعد معركة. ـ واقتسام الغنائم خلق مشاكل سببها الحجم الكبير جدّاً لتلك الغنائم خصوصاً ما يتعلّق منها بالأسرى والرهائن. . وكان للمنتصرين الاختيار بين استرقاقهم أو طلب الفدية عنهم. وجباية مختلف الغرامات والضرائب وقد نجح عمر بالوصول إلى إقرار عام أنّ «الفيء» يجبى للصالح العام. . وهناك شيء جديد اكتشفه العرب هو تخلّفهم عن البلدان التي احتلّوها من ناحية النموّ والتقدّم الإجتماعيّين والخبرات والمؤهّلات الإداريّة. . وأنّهم يحتاجون إلى

زمن لتكوين جهاز إداري مماثل؛ خصوصا فيما يتعلق بإدارة العقارات ونظام الإستثمار الإقتصادي الّذين لم يكونوا قد ألمّوا بهما بعد؛ فاكتفوا، بادىء ذي بدء، بالغنائم والفيء وجباية الضرائب الآنفة الذكر، دون تجاوز ذلك إلى تغيير شيء في البُنى الإجتماعيّة والإقتصاديّة القائمة والجهاز الإداري والمالي في البلدان المعنيّة.

جميع الأراضي الزراعيّة التي وقعت ضمن سلطتهم اعتبرت «ملك الله» ووضعت تحت تصرّف المجتمع الذي أصبح المستثمر لها دون أن يعلم ذلك أو يباشره ـ ولأنّه كان يجب أن تستمرّ زراعة الأراضي واستغلالها، كما يقضي الصالح العام، فقد أبقاها الفاتحون بين أيدي الإقطاعيّين المحلّيين ورجال الكنيسة وغيرهم من ملاّكي الأراضي، وبذلك احتفظ المستثمرون الزراعيّون بحقوقهم وامتيازاتهم تجاه الفلاّحين العاملين في حقولهم ومناطق نفوذهم شرط الإلتزام بدفع الأجر لبيت المال.

في منتصف القرن السابع أصبحت الامبراطوريّة العربيّة، ونعني الأراضي الواسعة المفتوحة في آسية وإفريقية، مجموعة أقاليم ذات أنظمة ضرائبيّة عقاريّة مختلفة.

في «السّواد» الإقليم الخصب في جنوب العراق، صنّفت الأراضي، بعد الفتح، إلى أربع مجموعات:

● الأولى هي مناطق نفوذ الدهاقنة أي طبقة الأسياد الصغار المحلّيين ويمارسون سلطتهم في نطاق الإدارة المحلّية لمناطقهم وتمثيل الحكومة لدى السكّان، وجبي الضرائب العائدة للدولة. والفاتحون لم يمسّوا شيئاً من ممتلكات وامتيازات هؤلاء ومن جهة أخرى، لم يشعر السكّان أنّ شيئاً ما قد تغيّر باستثناء الضريبة التي أصبحت تصل إلى بيت المال بدل الخزينة الساسانيّة.. وحدّد العرب لهم هدفاً هو أن يجبوا من السّواد المبلغ المماثل تماماً للّذي كان يدفع سابقاً للسّاسانيّين؛ معتمدين، في الجباية، على السّجلاّت القديمة، وعلى التعاون النشط من قبل «الدهقان».

● مجموعة الأراضي الثّانية تتشكل من ممتلكات الامبراطور البيزنطي وطبقة نبلاء يونان القسطنطينيّة وبخاصة ممتلكات البطارقة (البطريق - باتريسيوس - لقب أطلقه الأباطرة على كبار رجال الإدارة المطلقي الصّلاحيّة) الذين استوطنوا في الشرق، وممتلكات الشاهنشاه الساساني وعائلته الفارسيّة المالكة؛ وبالتّالي النبلاء الفرس الذين قتلوا في المعارك أو هزموا: - أملاك هؤلاء جميعاً أصبحت ملكاً عاماً، أي ملك المجتمع الإسلامي، وخضعت للضرائب. - وأراضي «الصوافي» (جمع صافية) التي لم تكن خاضعة، أصلاً، لتقسيم دخلت في الفيء من الغنيمة وصارت تحت تصرّف الخليفة الذي، له، أن يقطعها من يراه أهلاً لذلك.. وصاحب الحق الجديد لا يصبح مالكاً للأرض بل يستثمرها ويدفع الضريبة لبيت المال.

والفلاّح، وهو، على العموم، مزارع يلتزم بدفع مبلغ معيّن لبيت المال والمالك الجديد للضيعة يلتزم بدفع «زكاة» الحاصل العائد له والمماثلة عيناً للعشر ومن هنا جاءت التسمية «أرض العشور». ونستنتج، من كلّ هذا، أنّ ملكيّات الأرض الكبرى زالت لصالح السلطة المركزيّة إلاّ أنّه، في الواقع العملي، اضطرت هذه السلطة لإعادة تثبيت نوع آخر من ملكيّة الأراضي له طبيعة الإقطاع؛ فلم يطل الوقت حتى صار مالك الأرض يجبي الضريبة من الفلاّحين وينفّذ مدفوعات جزافيّة (إتّفاقيّة؟) تكون، نظريّاً، لحساب بيت المال؛ ولكن الملاّك يجتزىء منها لنفسه الفارق بين المتّفق عليه وبين المحصّل فعلاً.. وهكذا أفرز النظام الجديد - ومن العرب أنفسهم - طبقة جديدة متسلّطة مدرجة في عداد كبار ملاّكي الأراضي.

● المجموعة الثالثة تتشكّل من الأراضي غير الصالحة للزراعة، مثل المستنقعات، والأراضي المالحة، والأراضي المتروكة بوراً بفعل الإهمال أو عدم كفاية نظام الري أو السقاية.. فالحروب، مثلاً، ألحقت أضراراً بالسدود ودمّرت بعضها فحوّلت

مياهُها مساحات كبيرة من الأراضي إلى مستنقعات. . هذه المجموعة كلّها أدرجت في تصنيف «الأرض الموات» والمزارعون الذين عملوا على إحيائها زراعيّاً وإعادة تنظيم سقايتها دعمت جهودهم من قبل الدولة عن طريق تخفيف الضرائب وإنقاصها.

● المجموعة الرابعة هي الأراضي الجارية على ملك أبناء المدن وهذا الصنف منتشر كثيراً في العراق: ـ سكان المدن عقدوا اتفاقات مع العرب الفاتحين يدفعون، بموجبها غرامة سنويّة يضمن لهم الفاتح، مقابلها، الوقاية والملاذ لحياتهم وثرواتهم، وممتلكاتهم، وبذلك احتفظوا بحرّية التصرّف بهذه الممتلكات (الأراضي) بيعاً ورهناً ووصيّة.

الجزية والخراج

● سكان المدن والأرياف، الخاضعون والمنتمون إلى أهل الكتاب، (شملت التسمية، عمليّاً، اليهود والمسيحيّين والزردشتيين) هم «الذميّون» الذين أخذ وضعهم شكلاً محدّداً أيّام الفتوح من عهد عمر: ـ كانوا معفيّين من الخدمة العسكريّة ولكن ملزمين بدفع «الجزية» (ضريبة الرقبة) و«الخراج» (ضريبة الأرض) والتسميتان مقتبستان من التسميات اللغوية الضرائبيّة الفارسيّة إذ طبّقت، بادىء ذي بدء، على الأراضي التي كانت قديماً للساسانيّين. . إلاّ أنّ معاني التسميتين تطوّرت بشكل معقّد بعدئذٍ:

ـ فالجزية (غازيت الفارسيّة) تشكّل نوعاً من الإفتداء (شراء الدم) ونسبتها تتغيّر وتختلف كثيراً. . فحسب رواية «البلاذري»، لدى الإستيلاء على دمشق، كانت الجزية ديناراً على الواحد ومعه جارب من الحبوب. ولكنّ عمراً حدّدها بالنسبة للبلدان التي تتعامل نقديّاً بالذهب، أو على أساسه، حدّدها هكذا: ـ أربعة دنانير عن الغني، وديناران عن الرجل المتوسّط الدخل وديناراً واحداً عن الفقير.

أمّا البلدان التي تتعامل بالفضّة، أو على أساسها، فالجزية

فيها موحّدة وتبلغ أربعين درهماً. وهذا مؤشّر آخر على طبيعة النظام النقدي في الامبراطوريّة وقيامه على أساس معدنيّ الذهب والفضّة. ـ والنسبة التي تدفع عيناً تختلف أيضاً: ـ أضيف إلى جارب الحنطة، كميّة من الخلّ وزيت الزيتون، ثمّ زادت كميّة الحنطة لتصل إلى «مدّين» وكميّة من العسل ودهن الغنم.

في مصر، تنقصنا الوثائق الدقيقة، وما اجتمع عليه علمنا هو أنّ البالغين من الرّجال يدفعون دينارين عن كلّ واحد كما في باقي البلاد المفتوحة. ويستثنى من ضريبة الرقبة النساء، وغير البالغين، والشيوخ، والعاجزون، وغير السويّ عقليّاً، والمشلولون، والرهبان الذين يعيشون من عمل أيديهم. ـ الكاهن غير القانوني لم يكن يدفع الجزية في البدء ولكن، بعد الإطلاع على واردات أملاك الأديرة وهبات المؤمنين والمريدين، والثروات المدّخرة، وصل المسلمون إلى قناعة وجوب فرض هذه الضريبة على الاكليروس.

ضريبة الخراج، مع السجلّات الصحيحة الناظمة لوضعها، وكانت تفرض على أساس مساحات الأراضي الزراعيّة: ـ (في سورية، على كلّ قصبة وفي مصر على كلّ فدّان) مع الأخذ بعين الاعتبار لطبيعة الأرض وللسقاية، والوجه المعيّن، أساساً، لصرف الضريبة، هو تموين الجيش العربي المقيم في البلد ذي العلاقة الذي يتوجب على سكّانه، أيضاً، تقديم الألبسة، والأحذية.

● هذه الضريبة التي كانت تدفع على الحقول، والقطعان، تمّ إصلاحها في عهد عمر: ـ ففي عهد الساسانيّين كانت الارستقراطيّة من كبار ملّاكي الأراضي معفيّة من الضريبة العقاريّة بعكس عامّة سكان الريف. أما في العهد الإسلامي فجميع طبقات المجتمع خضعت للضريبة وحتى المسلمون كانوا يدفعون «عشر» حاصلاتهم ـ ففي حال الإهتداء إلى الدين والدخول في الإسلام هل يصبح لزاماً إعفاء المسلمين الجدد من دفع الضريبة؟

الإيجاب مؤدّاه، حتماً، الإخلال بالميزانيّة. ـ إذن، وفي

النهاية، أصبح الخراج ضريبة الأرض المستحقة على الجميع دون استثناء.

أوّل (مصلحة خراج) أنشئت في الكوفة. ولإدارة شؤون السواد استعمل السجلّ ونمط الجباية المحلّي السابق ولا بدّ من الإشارة إلى أنّه، في السواد، كان الغموض والبلبلة يعمّان النظام الضرائبي ولم يكن مردّ ذلك إلى تصور العرب عن استيعاب النظام الساساني بل كان مردّه، قبل كلّ شيء، إلى اختلاف الضوابط والموافقات السائدة بين المدينة والريف وخاصة على أثر تحديد مهامّ الدهقان الذي، منذ كلّف بالجباية، صرف همّه الأوّل إلى منفعته الخاصّة وسلك طرقاً ملتوية مؤدّاها اختلاس جانب من الضرائب.

عام/٢٢/٦٤٣/ أعلم أمير الكوفة الخليفة عمر أنّ الضريبة العقاريّة لا تشمل كلّ الأراضي بل تقتصر على أراضي زراعة الحبوب والمنتجة للتّمور والعنب والزيتون و[ALFALFA] الأمر الذي صرف الفلّاحين إلى استنبات الزراعات غير الخاضعة لضريبة الخراج فقرّر الخليفة تعديل الأنظمة وعندئذٍ لم يشمل الخراج كلّ الحاصلات وحسب بل أصبحت الضريبة تقتطع عن الأراضي الصالحة للزراعة والمتروكة بوراً وتطوّر الضريبة هذا احتاج إلى عشر سنوات حتّى أخذ شكله النهائي.

لدى مؤرّخي الفتح مثل (البلاذري - والطبري) لا نلحظ ذكراً واضحاً لتطوّر السياسة الضرائبيّة بل نجد ما يكشف القناع فقط عن رفع النسب وتزايد ثقل الأعباء والتكاليف.

الجيل الأوّل من المسلمين كان يعتبر كلّ ما يُجبى، كضريبة، ملكاً خالصاً للفاتحين؛ دون تمييز بين غنيمة أخذت بعد معركة منتصرة وبين ناتج استثمار الأراضي من قبل سكّان البلد المفتوح.. خالطين بين الفيء، والغنيمة والخراج. - عليّ، صهر النبي، عارض مبدأ إنشاء الدواوين لأن وجهة نظره كانت وجوب اقتسام الموارد كلّها دون استبقاء شيء منها. في الواقع، بيت مال المدينة، وبيوت مال الولايات كانت تتلقّى خمس الغنائم وكذلك الضرائب

بعد اقتسام أربعة أخماس الغنائم بين القادة، الأمر الذي سمح لهم أن يغتنوا؛ أضف إلى ذلك أنّ الأرستقراطيّة العربيّة أسلكت أسرى الحرب العديدين في رقّها مستفيدة من يد عاملة مجّانيّة عمليّاً تعمل في الأراضي العامّة للأقاليم المفتوحة والقادة، هناك، يأخذون حصصهم منها.

وخارج الغنائم، كان الجيش المسلم يفرض غرامات عينيّة تحت إسم وسائل إقامة يحملها المغلوبون إلى معسكرات الجيش مع الحصص المقتطعة لبيت المال؛ بمعنى أنّ الفاتحين كانوا يعيشون على حساب السكّان المحلّيين ولا حاجة لأن ينصرفوا إلى مزاولة أي عمل إنتاجي وهم الذين لا يحبّون الزراعة أصلاً وقليلون جدّاً منهم انصرفوا إلى مزاولتها في البلدان المفتوحة.

● التطوّر الإجتماعي

منذ عهد عمر، بدأت تتكوّن طبقة جديدة: ـ طبقة المسلمين الجدد المعروفين بـ «الموالي» وهم الأبناء الأصليّون للبلدان المفتوحة الذين دخلوا دين الإسلام ولكن إسلامهم لم يضعهم، عمليّاً على قدم المساواة مع الفاتحين العرب. والعرب الذين كانوا يستوطنون، وكذلك الذين تابعوا خوض الحروب، حافظوا على نظامهم القبلي خلافاً لما حاوله محمد من كسر البُنَى القَبَليّة واستبدالها بالوحدة القائمة على الدين.. ابن البلد الداخل في دين الإسلام، كان يخرج من مجتمعه السابق دون أن يصبح لا عربيّاً ولا ذا قربى مع الفاتح بمعنى أنّ إسلامه لم يجعل منه عضواً بكامل الحقوق في أسرة أو قبيلة عربيّة.. فالدفاع عنه وحمايته حقّ محفوظ له حسب العادات العربيّة.

من هنا رأينا غالبيّة المسلمين الجدد من غير العرب يضعون أنفسهم تحت حماية هذا أو ذاك من سادة العرب ورؤساء القبائل فيصبح له «مولى» ونفس العبارة كانت تعني العبد الذي أعتق وظلّ يتمتّع بحماية سيّده القديم أو أعضاء أسرته الذين يصبح لهم تابعاً.

والسادة العرب ينطلقون إلى حرب فيتبعهم (مواليهم) الذين يشكّلون جمهوراً من الحرفيّين والصنائعيّين من كلّ نوع. . ومن ذوي المهن الحرّة مثل الطب وأمانة السرّ وعلماء الفلك ولا ننسى الشّعراء. - كلّ ما له علاقة بالحرب كان واجب العربي حصراً. - وحتى تاريخ متأخّر جداً لم يكن يحقّ حمل السلاح لا للموالي ولا للذمّيين.

من جهة أخرى، النظام القبلي كان يحمي العرب من الامتزاج بالشعوب الخاضعة، ولولا تلك الحماية لما كان مستبعداً انصهار العرب بالشعوب المذكورة؛ فحفاظاً على البقاء، الانعكاس العصبي الأوّل بالنسبة للعرب المنتشرين كان رفض الاندماج والتواؤم مع وضع الأقلّية وقبول نتائج هذا السلوك كاملةً؛ ففي البلدان المفتوحة كان العرب يعيشون في معسكراتهم (أمصار ج مصر) المحاطة بأسوار مرتفعة وهذا النمط من التسوير اقتبس من القبائل التي عاشت، سابقاً، في أراضٍ بيزنطية أو فارسيّة. - وفي المعسكر، المستطيل الشكل عادة، أربعة أبواب (مداخل) مفتوحة في كلّ من الجوانب الأربعة. . والحارات مفصولة، بعضها عن البعض الآخر، بشوارع (جادّات) عموديّة ومفروزة إلى أقسام مخصّصة لمختلف القبائل. . وكما في مضارب خيام البدو يرتبط الجوار بتسلسل درجة القرابة.

هكذا قامت، مثلاً، مستوطنات الكوفة (٦٣٦) والبصرة ٦٣٧/ في العراق وبعدها الفسطاط في مصر والقيروان /٦٧٠/ في أفريقية. وغياب المرافق الصحية في معسكرات الجيوش جعل منها بؤر أمراض حتى أن الطاعون تسبّب بعدد من الموتى أكثر من عدد قتلى بأشدّ الحروب ضراوة. والوبأ الذي اشتهر أكثر من سواه هو ذلك الذي تفشّى في فلسطين، في (الأمواس) عام ٦٣٩/١٨ وذهب بآلاف من الضحايا.

خارج السور، كان يستوطن الأفراد الذين جذبهم التكسّب والربح عن طريق إداء الخدمات للعرب المغتنين بالغنائم. وبذلك نشأت الضاحية ونما سكّانها فقامت مشاغل الحرفيّين والمستودعات

والمخازن والدكاكين وبيوت الصرّافين ومع كل هذا جماعات من العمّال (المسحوقين) وحتى بيوت الدعارة وبيع الهوى.. وقام سوق دوري أسبوعي وأسواق دائمة تكفي لتموين المعسكر؛ ومع الزمن، استبدل السور الترابي بجدران الأسوار العاديّة، مترافقة بحصون دفاعيّة، واستبدلت المضارب والخيام بأبنية للدوائر الرسميّة وببيوت خاصّة من القرميد. - وتحوّلت المدن الجديدة إلى مراكز إقتصاديّة وسياسيّة وثقافيّة وفتحت أمام الموالي طموحات وإغراءات كبيرة. - أمّا في المدن القديمة فقد استوطن الفاتحون، جنباً إلى جنب، مع السكّان المحلّيين، ولكن في حارات منفصلة.. كما شغلوا البيوت والمساكن التي هجرها مالكوها وكان للمحاربين الأفضلية الأولى في تأمين السكن؛ كذلك، في المدن التي كانت قائمة قبل الفتح، حوّل المسلمون بيوت عبادة سابقة إلى جوامع ومنها الكنائس ولكن الأمر انحصر بتلك التي كانت، في الأصل، هياكل وثنيّة. ولعلّه قانون استمرار أماكن العبادة هذه وتطوّر العبادات أو تبدّلها؟...

ويعود إلى عمر، أيضاً، فضل تثبيت تاريخ بداية العهد الجديد، ولأسباب إداريّة، وقع الاختيار على اليوم الأوّل من السنة القمريّة التي هاجر محمد خلالها إلى المدينة: - إنّه أوّل شهر محرّم من العام المذكور الموافق إلى /١٥ تموز ٦٢٢ من تقويم يوليوس القيصر (٤٦ ق. م) ويجب الإشارة إلى أنّه تمّ منذئذٍ، ولأسباب لم نستطع العثور على ما يوضّحها تماماً، تطبيق السنة القمرية دون الشهر الكبيس.

الذين كتبوا الوقائع التاريخيّة في العهد العبّاسي نسبوا، أحياناً، إلى عمر، إصلاحات إداريّة تمّت وتحقّقت بعده.. ولكن نسبتها إليه أعطتها قيمة، في نظر الجمهور، أكبر مما لو نسبت إلى عمر بن عبد العزيز الأموي مثلاً...

إدارة البلدان المفتوحة ظلّت تلك الّتي كانت قبل الفتح: - القضاء - الشرطة - الجسور والطرق - كانت تقع على عاتق السكّان وكذلك خدمات جباية الضرائب. - عمليات جباية الضرائب كانت

تؤمّن من قبل الدهاقنة، والملاّكين، والإكليروس، والوجهاء الذين كانوا، جميعاً، ضامنين، كافلين لإداء الضرائب.

اللغة الإدارية كانت، في عهد عمر، اللّغة الخاصّة التي كانت سائدة (رسمياً) في كلّ بلد قبل فتحه: الفارسيّة في السواد ـ اليونانيّة في سورية وفي مصر اليونانيّة والقبطيّة معاً.. الخ.

خلافة عثمان (٢٣/ ٦٤٤ ـ ٣٥/ ٦٥٦)

● الخليفة عمر غاب قبل الأوان، في عام /٢٦/ الموافق الثالث من تشرين الثاني /٦٤٤/ وعن عمر بلغ /٥٣/ عاماً. وبعد عشر سنوات من ممارسة مهام الخلافة. ـ هناك قول أنّه ذهب ضحيّة ثأر إذ أصيب بجرح مميت من يد عبد مسيحي يخصّ حاكم البصرة. ـ ورواية أخرى تقول أنّ الضربة كانت من يد أسير فارسي استرقّ قتله واحد من أبناء عمر وفاقاً لقانون الثأر. وقبل أن يموت، حسب المأثور، عيّن عمر مجلساً مؤقتاً للشورى مؤلّفاً من ستّة أعضاء مهمّته أن ينتقي، من بين أعضائه، أمير المؤمنين الجديد.. وتألّف المجلس المذكور من أقدم أصحاب النبي: ـ علي ابن عم وصهر النبي ـ عثمان وهو صهر آخر لمحمد ـ الزبير ـ طلحة ـ سعد ـ عبد الرحمن ابن عوف ـ وجميعهم كانوا قرشيّين بمعنى أنّ أهل المدينة ـ الأنصار ـ ليس لهم أيّ صوت في المجلس. ـ وهناك رواية تقول أنّ المجلس أتاح لسيّد قريش، أبي سفيان، التدخّل فيه. ومن جانب آخر، لجأ المجلس، إيّاه، إلى تقديم الأكبر سنّاً فاستبعد عليّ وهو، بنظر البعض، صارم وشديد و«رجعي» واختار عثمان بن عفّان الأرستقراطي المكّي ورجل الأعمال الغني ممثّل رهط بني أميّة والذي، بفضل نفوذه الإقتصادي العائد إلى زمن «الجاهليّة» كان يمارس نفوذه هذا في مكّة وحتى في العربيّة كلّها.

حكم عثمان دام /١٢/ عاماً وعرف حقبتين: ـ الأولى من /٢٣/٦٤٤/ إلى /٢٩/٦٥٠/ وقد مرّت دون مشاكل خطيرة. ـ والثانية من عام /٣٠/٦٥١/ إلى /٣٥/٦٥٦/ وقد اتّسمت

بالمصاعب وخلالها عظمت المعارضة بقيادة عليّ حتى بلغت الثورة المكشوفة.

● **الحقبة الأولى / ٦٤٤ ـ ٦٥٠/**

لقد كان عثمان، ومعه قريبه أبو سفيان الوجه الأموي المكّي الآخر، كان خصماً لمحمد في حين كان سلفاه ـ أبو بكر بخاصة ـ من الصحابة الأول.. ـ وبعد إسلام عثمان دخل في قرابة النبي عن طريق الزواج وصار صهر محمّد مرّتين: ـ الأولى زواجه من «رُقيّة» التي ماتت مبكّرة جداً، والثانية زواجه من أم كلثوم؛ ومنذ صار خليفة اعتمد وجهاء مكّة وأغضب أنصار المدينة فأسرعوا للإنضمام إلى المعارضة. وبين جماعة القبائل مارس عثمان «ملكيّة مطلقة»، ولعدم وجود أيّ شكل قائم للجهاز الإداري أشرك عثمان، في الحكم، ـ بصفة أمين سرّ ومستشار ـ ابن أخيه مروان بن الحكم الذي صار خليفة في دمشق بعد زمن.. ـ وانطلق عثمان في تنمية ثرواته وأملاكه هو وعائلته على حساب بيت مال المسلمين الذي امتدّت إليه، أيضاً، أيدي آخرين من أصحاب النبي.. وعثمان عاجز عن ردعهم لأنّه أعطى القدوة السيّئة، وهنا خرج المعارضون عن صمتهم.

في مقدّمة المعارضين كان قريب لمحمد هو الزبير بن العوّام وكان يملك عقارات مؤجّرة في البصرة والكوفة والفسطاط والإسكندريّة؛ وطلحة بن عبيد الله أحد الداخلين الأوائل في الإسلام وكان يملك عقارات في الكوفة وأراضي في العراق وقصراً من القرميد في المدينة. وأخيراً عبد الرحمن بن عوف أحد الصحابة الأول عضو مجلس الشورى وقد بنى لنفسه، هو أيضاً، بيوتاً واسعة ـ وحسب رواية المؤرّخ «المسعودي» ـ كان يملك قطعاناً كبيرة من الخيل والغنم.

أوكل الخليفة مراكز هامة، مرموقة، لأبناء عائلته ومن بينهم

اختار ممثّليه في الأقاليم احترازاً من تجاوزات السلطة إلى الإستقلال من قبل بعض الحكّام وخاصّة في «السواد» وفي «مصر».

أما سورية فلم تكن عرضة للمشاكل لأن زمامها - من قبل - بيد معاوية بن أبي سفيان قريب الخليفة. ولدى ضبط الأراضي المفتوحة بالسيف توفّر لدى عثمان ملك واسع للدولة سمح بتوسيع نظام تلزيم الأراضي الزراعيّة الذي أقرّه عمر. وكان الإجراء - إيّاه - موضع نقد عنيف لأنّه مغاير لمبدأ التوزيع الكامل للغنائم بين المقاتلين الذي أقرّه النبيّ.. ولأنّه يناقض الحضر الذي أقرّه عمر أي حضر امتلاك الأراضي خارج شبه الجزيرة. فمن الإنحرافات المأخوذة على الخليفة عثمان، والمتعلّقة بتلزيم الأراضي، أنّ بني أميّة استأثروا لأنفسهم، في السّواد، وفي سورية، بمساحات واسعة من الأراضي استثمروها عن طريق تشغيل العبيد فيها.

الأصحاب الأول، والتابعون، عابوا على عثمان تحويله موارد الدولة إلى ذويه، كما أخذوا عليه العودة إلى إكرام علاقات القرابة، والعصبيّة بدل الاستمساك الملتزم بعرى الدين التي وحّدت الأمّة دون تميّز بين أعضائها... واتهموا عثمان بمحاباة الأقارب وتفضيلهم على سواهم، واستنكروا المفاسد، وسوء الامتحان وسوء الإستعمال والتعسّف التي انتشرت، هنا وهناك، في عهد عثمان.. وتطوّرت مواقف النّاقمين إلى التكتل وتنظيم قواهم.

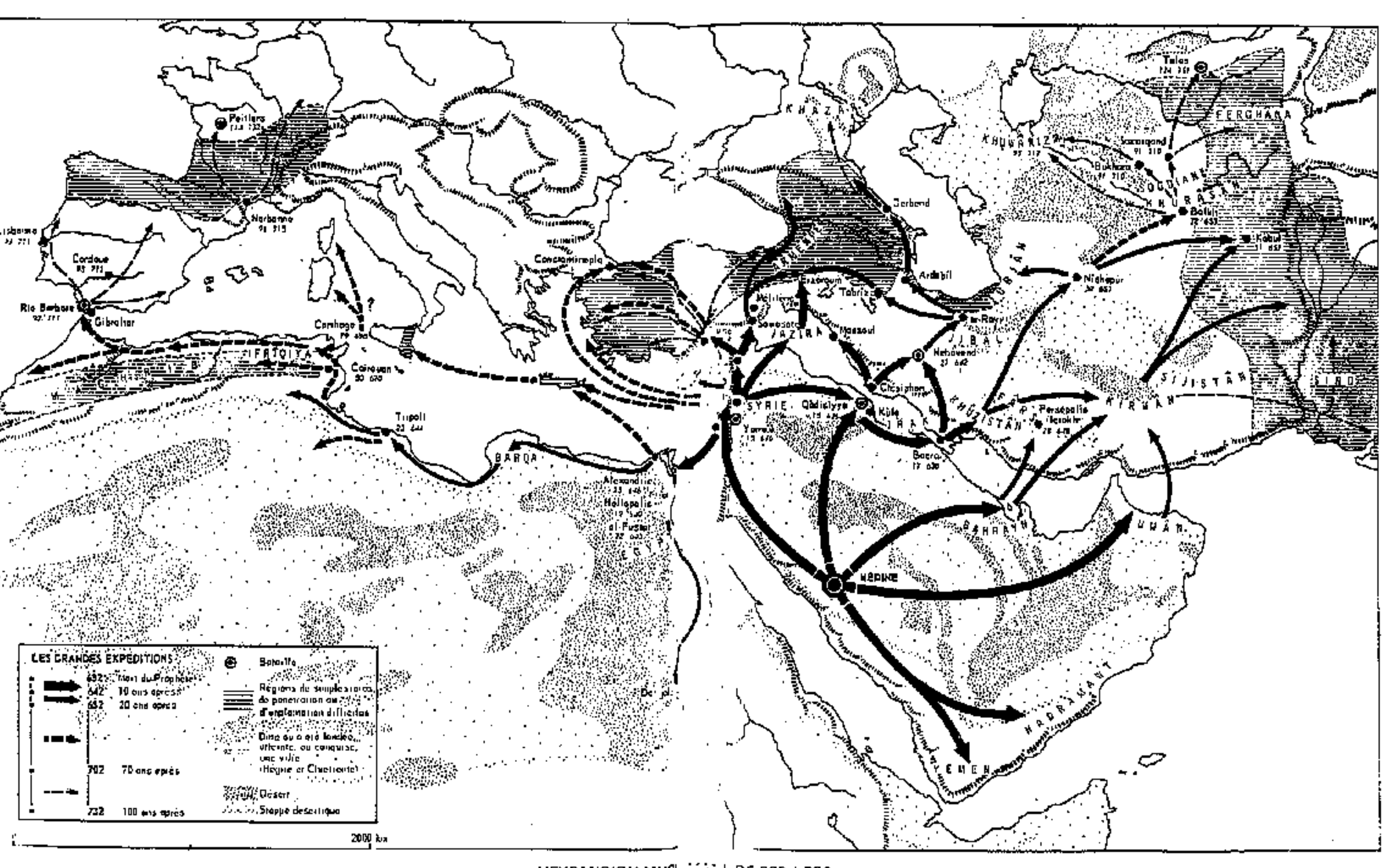
بوادر المراعاة والحظوة للعائلة جرّت إلى انعكاسات في جميع الأوساط بين الأنصار الذين أُقصوا واستُبعدوا والعرب البداة الذين حيل بينهم وبين المشاركة في الحرب.

ومعارضة عائشة؛ أرملة النبي، كانت ذات وزن يحسب له حساب، لأن عائشة وجّهت، لصالحها، تلك النقمة التي كانت وليدة شروط اقتصادية معيّنة. في حين أنّ المعارضة أعطت الأولوية لشعارات فكريّة، مذهبيّة، أو دينيّة، تثير المشاعر أكثر مما تحرّك العقول... كما جرى، مثلاً، في تسجيل القرآن وتثبيت نصوصه عن طريق لجنة ألّفها عثمان فأثار ذلك الاحتجاجات العنيفة

مصحوبة باتّهامات إتلاف نسخ القرآن الأخرى وتحريف الـوحي الإلهي بإلغاء ما كان منه لغير صالح الأمويِّين.

عندما اضطلع عثمان بمهامِّ السُّلطة عرفت شبه الجزيرة أزمة ماليَّة خطيرة ترافقها مصاعب إقتصاديّة بالغة الجدِّيَّة... فالفتوح حقّقت الإثراء السَّريع للفاتحين وتصَّرفت الدولة بمدّخرات ضخمة وفجأة توقّفت الفتوح فانخفض حجم الغنائم والفيء انخفاضاً كبيراً وبذلك نقصت موارد رجال الأفواج المحاربة؛ وبالمقابل - بالنسبة للوجهاء والمتنفِّذين - فإنَّ إقطاعهم الأراضي سمح بتعويض ما نقص من مواردهم فالجنود، وحدهم، هم الذين تلقوا ضربة فارق وضعهم وتناقضه مع وضع المسملين المقرَّبين من بني أميَّة من قـريش الـذين خُصّـوا - دون غيـرهم - بـالحـظوة والإمتيـازات والمخصَّصات المختلفة حتى طالب المحرومون المذكورون إما أن يقطعوا الأراضي مثل سواهم وإمَّا أن يأخذوا قسمتهم من حاصلات الأراضي المقطعة..

وطـوال المدة التي، فيهـا، تمَّت الفتوحـات داخـل أقـاليم مزدهرة، كانت الغنائم كافية؛ ولكن، منذ اليوم الذي، فيه، خفَّت وبطؤت العمليَّات تقدم عدد كبير جديد من البدو - خصوصاً في العراق ومصر - من أجل الخدمة العسكرية وطمعاً بقبض أجور عالية؛ ومنذئذ أختلَّ توازن الميزانيّة الماليَّة وأصبح لا بد من العودة إلى سياسة التوسُّع لتهدئة الجيوش المستاءة... فأخضعت أرمينيا (عـام /٢٤/ ٦٤٥ - ٦٤٦) لسلطان العرب بقيـادة «حبيب بن مسلمة» بعد طرد البيزنطيّين من البلد المذكـور.. وتـمَّ، أيضاً، احتلال الأقاليم الشَّرقية من الأمبراطوريّـة السَّاسـانيَّة وزال حكـم «يزدجرد الثالث» الذي قتل عام /٦٥١/ ووُسِّعت العمليَّات غرباً مطاولةً شاطيء أفريقية الشمالي حتى «أفريقية». وأهم من كـل ذلك، كانت العمليّات الحربيَّة البحريَّة التي خاضها معاوية، حاكم سورية وعبدالله بن صرح - وهي المرَّة الأولى التي فيها يستعمل العرب القطع البحريّة في الحـرب «فاحتلوا قبـرص عام /٢٨/



L'EXPANSION MUS[illegible] DE 632 à 750

Source : [illegible]

٦٤٩/ ثم، وبعد مدّة قليلة، غزوا شواطيء صقلّية. وفي عام /٣٤/٦٥٥/ (على طول شواطيء «ليسيه» جنوب غرب آسية الصغرى) حقّق الأسطول العربي انتصاره التاريخي في «معركة ذات الصواري» الذي أنهى هيمنة بيزنطية على شرقي البحر الأبيض المتوسّط من جهة، ومن جهة أخرى، ظهرت قوّة بحريّة جديدة في البحر المذكور ولعبت في مستقبل الأيّام دوراً سياسيّاً واقتصاديّاً كبيراً في ظل الراية الأمويّة.

الحالة الماليّة كانت تختلف حسب الأقاليم والمناطق: ففي حين كانت، في سورية، تدار الماليّة وتساس بشكل حسن وتدفع الأجور والنفقات بانتظام، فالوضع يختلف في مصر وفي العراق وأمراء الأقاليم، منذ عمر، أعطوا صلاحيّة الإقتطاع على حساب ضرائب ناتج البلد لكامل حساب المصروفات المحلية والعسكريّة ولا يلتزمون أن يدفعوا للخزينة المركزيّة سوى الفائض فقط.. ومنذ تفشّي سوء الاستعمال وسوء الإئتمان أصبح الفائض المذكور زهيداً، .. قليلاً جدًّا وصار دفع الرواتب للجيوش يتأخر في بعض الأحيان بسبب المصاعب الماليّة الأمر الذي كثيراً ما أثار الإعتراضات وتوجيه التُّهم.

المعارضة في مرحلة العمل [٦٥١ - ٦٥٥]

عام / ٣٠/ ٦٥١/ تفجّرت حركات التمرُّد الأولى في العراق وأخذت الإضطرابات إتّساعاً وحجماً خاصّاً في الكوفة عام / ٣٢/ /٦٥٢/ متذرّعة، ومتعلّلة بحجج سياسيّة ودينيّة حتّى نجحت مدينة السواد الكبرى في أن تطرح عنها، مؤقتاً. سلطة الحكومة المركزيّة. - وأقاليم خراسان وسجستان، البعيدة عن القواعد العربيّة، كانت مسرحاً لثورات متلاحقة، مثل ثورة الأمير «كارينيد» (طبرستان) ضد عرب خراسان. إلاّ أنَّ الثّائرين سُحقوا بقسوة عام / ٣٢/ ٦٥٢ - ٦٥٣/. - هذا النوع من الثورات الاقليميّة أصبح

الطابع المميَّز للأيام الأخيرة لحكم عثمان ولخلافة عليّ كلّها عندما مزَّقت صفوف العرب النزاعات والمعارك المتعلِّقة بالخلافة والتي لم يستطيعوا مقاومتها وتجاوزها. ـ مصر، أيضاً، عرفت حركة ثوريَّة آخر عام / ٣٥/ ٦٥٦/ ولم يكن عمر بن العاص غريباً عنها بعد أن استبدله عثمان، منذ استلم الخلافة، بعبد الله بن سعد أخيه بالرضاع. ـ وتمرَّدت قوَّات مصر وتحرَّكت ضد المدينة فسلَّم عثمان بمطالبها وانكفأت راجعة إلَّا أنَّها، وهي في طريق عودتها، اعترضت سبيل رسول يحمل أوامر من الخليفة تلزم حاكم مصر بالقبض على رؤوس التمرُّد وقتلهم. . . وعندها انقلب الجيش قاصداً المدينة فأعلن عثمان أنَّ الأمر ـ إيَّاه ـ مزيَّف ومدسوس عليه؛ فتحصَّن في داره وأرسل إلى معاوية أن يرسل له من سورية قوَّات قادرة على حسم الموقف فتفجَّرت الإضطرابات آنئذٍ في المدينة وحوصر بيت عثمان.

أثناء الأحداث تلك لم يخف عليٌّ تعاطفه مع المعارضة بعد استبعاده، ثلاث مرَّات، من الخلافة. وعائشة اغتنمت فرصة الحج وغادرت المدينة وعثمان رفض الإستسلام. ـ في الأيّام الأخيرة من عام / ٣٥/ ٦٥٦/ دخل الثوَّار البيت عنوة وقتلوا الخليفة وهو مستغرق بقراءة القرآن. . وأطلق على ذلك اليوم إسم «يوم الدار». ـ القوَّات الأمويَّة انكفأت راجعة إلى دمشق إذ علمت بنهاية النزاع. هذا القتل الذي قام به إخوان الخليفة في الدين والمذهب، وبينهم أخ لعائشة هو ابن أبي بكر، ترك أصداء عميقة، دائمة، في العالم الإسلامي. . . فهو قتل سياسيٌّ يبحث عنه الأمويُّون سلاحاً للإنتقام وبذلك فتحت النهاية الدامية لعثمان عهد الخلافات والحروب الأهلية يتناحر فيها أبناء المجتمع الواحد وفيها ينقسم الإسلام على ذاته. . . ـ المشاكل التي ظهرت بفعل التوسُّع الإسلامي السَّريع لم تجد لها حلاً في ظل السيادة الإسلامية والوحدة السياسيَّة، ثم الدينيَّة، للإسلام، وعاشت حتى بدأت الفتنة الكبرى.

خلافة علي [٣٥/ ٦٥٦ ـ ٤١/ ٦٦١]
منذ استلام السلطة حتى معركة صفِّين

● بعد قتل عثمان بن عفَّان أصبح الوضع مضطرباً: النجدات الأمويَّة عادت إلى سورية، وأنصار الخليفة المقتول هربوا من المدينة، وعلي بن أبي طالب اختار درب الإستفادة من الوضع فيحقِّق، أخيراً، مطمح عمره: ـ أن يكون خليفة. إنَّه واحد ممَّن اعتنقوا الإسلام منذ الساعة الأولى، وهو إبن عم النبي وصهره.. زوج ابنته فاطمة التي أنجبت لعلي إبنيه: الحسن والحسين.. ومن سوء حظِّه أنه لم يكن يملك الصِّفات المطلوب توفرها لرجل الدولة وفيه... وعرف محمَّداً هذا في علي فلم يوكل إليه ـ رغم كونه ابن العم والصهر ـ إلاَّ المهام الثانويَّة على الصعيد السياسي مع الإعتراف الكامل بمزاياه كقائد عسكري لم يتردَّد إطلاقاً ولم يحجم يوماً عن بذل النفس.

بعد موت النبي، لم يحدث قط أن فرض علي نفسه، وهو التَّقي الكبير، والزاهد بعرض هذه الدنيا، المترفِّع عن الإرتباط بالسياسة... هذا، في حين اغتنى أقرانه وأثروا وغنم وجهاء القوم الغنائم والفوائد من الفتوح. ـ ثمَّة خلافات كانت بينه وبين أبي بكر ولكن لم يفعل شيئاً تستشم منه معارضته لانتخابه مكتفياً بتأجيل الإعتراف به خليفة ستَّة أشهر؛ وفي عهد عمر كانت العلاقات جيِّدة بين علي وبين أمير المؤمنين حتى أنه عيِّن [قائماً مقام] عمر أثناء فترة غيابه إلى سورية؛ إذن، لم يتدهور الوضع إلا في عهد عثمان الذي اتهمه علي أنَّه لم يتِّبع ما جاء في القرآن.

لم يكن هناك اتِّفاق مرتِّب، ومسبق، بين أصحاب النبي، وانتخاب علي لم يرجع إلى قرابته ولا إلى مصاهرته للنبي؛ بل عاد ذلك إلى دعم الأنصار الذين اغتنموا فرصة اضطراب الأمويين فحملوا الى السلطة خصماً لعثمان وبذلك ثأر المدينيُّون لأنفسهم

من المكيّين بمعنى أنَّ الثائرين هم الذين انتخبوا عليّاً رغم كلّ الظواهر التي دلَّت على أنَّه لم يُرد قتل عثمان. ـ بعد القتل لم يتّخذ موقف استنكار معلن.. وبعد انتخابه، لقي معارضة قويّة من قبل الأصحاب الذين أثروا في عهد عثمان.. ومن قبل اقرباء الخليفة المتوفي وبخاصة أولئك الذين تكتلوا وراء معاوية. كان لعلي، من آل البيت، رجال أوفياء أمناء وكان معه أخصام عائشة وأعداؤها وجمهرة الناس في القواعد العسكرية الثلاث الكبرى (الأمصار) المؤسَّسة حديثاً في البصرة والكوفة والفسطاط فتخلَّصوا، بأنفسهم ، من القادة المعينين من قبل عثمان.. وفي ذلك كانت صدمة لبعض المسلمين فهو، بنظرهم، موافقة على عدم معاقبة الجناة المذنبين.

ومنذئذٍ أصبح قتل الخليفة جريمة، وخرق حرمة مقدَّسة وألقوا مسؤوليَّة ذلك على عاتق علي الذي ظهر وكأنه المستفيد من العمليَّة وظروفها.. كما ان سياسته المباشرة ضد قريش زادت عدد أخصامه.

منذ تولِّي السلطة، أعلن عليٌّ أنَّه يريد الإقتداء بعمر فأخذ يستبدل «العمال» ويصادر الأراضي التي احتكرها واستأثر بها الخليفة السَّابق والمقرَّبون إليه، الأمر الذي رفد المعارضة بقوى جديدة وأصبح أمراً بعيد المنال إعادة الإلتحام بين الأقاليم وبين السلطة المركزيَّة: ـ وحتّى في الحجاز، بلغت المعارضة أوج قوّتها، وفي سورية، رفض معاوية مبايعة علي كما رفض إخلاء مكانه لخلفه المعيَّن من قبل الخليفة؛ وعلى رأس خصوم علي كانت عائشة أرملة النبي التي كانت في مكة تؤدي «العمرة» وجاءها نبأ مقتل عثمان على الطريق وهي عائدة إلى المدينة فانقلبت راجعة إلى مكَّة واتخذت موقفاً معلناً ضدّ القتلة وفي المطالبة بقصاص الجانين.. علماً أنَّها لم تكن في عداد أنصار عثمان ولكنَّها أدانت الجريمة وطالبت بترضية تكفي لرأب الصَّدع.

ـ ومن جهة أخرى، لم تستطع عائشة أبداً الإحتمال أن يصبح علي

هو المستفيد من الجريمة، وهي التي كانت، دائماً، لا تحب علياً.

طلحة والزبير، عضوا الشورى، لم يخفيا معارضتهما البالغة حدود العداوة للمتوفّى عثمان.. وقد بايعا عليًّا. وعاهداه ولكنه، أي علي، لم يمنحهما المراكز العالية التي كانا يرغبان بها، وبعد مضيّ أربعة أشهر على الأحداث التي جاءت بالسلطة للخليفة الجديد، انتقلا إلى مكّة متذرعين بإداء العمرة وحبكا، مع عائشة، إتّفاقاً سرّيّاً كثر الضالعون فيه، في مكّة المكرّمة، من خصوم علي الكثير هناك... وقرّر المتآمرون اتخاذ البصرة قاعدة لهم حيث كانوا يحسبون أنّ المال متوفر وكذلك القوّات المحاربة، وقبلت عائشة أن ترعى الحركة وتساندها وأن تدعو الى الثأر وصارت الثورة المسلّحة على وشك الإبتداء حيث بدأ جمع الرجال وأصبح مشهوداً انتقال محور الحياة السياسيّة الإسلامية، من الحجاز إلى «السواد» (العراق الأسفل).

ولم يقف علي مكتوف اليدين بل بادر، من جانبه، إلى العمل وجمع وحدات مسلّحة قوامها سبعمائة رجل وحاول استباق المتآمرين الذين وصلوا البصرة وراحوا يقنعون الناس بالانضمام اليهم.. ودارت معركة في ١٦/ جمادي الثانية عام ٣٦/ ٩ كانون الأول ٦٥٦/، قرب البصرة، وذلك بين قوّات الثوّار وبين قوّات علي التي تجمع وحدات من المدينة ومن الكوفة... قوّات طلحة والزبير سحقت وقُتل الرّجلان... لقد كانت المعركة الأولى بين مسلمين مؤمنين وعُرفت بـ «وقعة الجمل» نسبة ألى عائشة التي حضرت الموقعة في هودج على جمل وشهدت الهزيمة، وأسرت ولكنّها عوملت بكل الأحترام والرعاية المستحقّين كأرملة للنبي ونقلت إلى المدينة التي لم تبرحها حتى جاء أجلها عام / ٦٧٨/.

- ولكن ذلك النصر لم يضع الحدّ الحاسم للحرب الأهلية، فالخليفة الجديد لم يكن له سند ما في العربية ولم يكن يعتمد، في معركته، سوى على عرب العراق الذين كانوا بعيدين عن

دسائس الحجاز وسورية فبرزوا كمدافعين عن القيم المشتركة و«الديمقراطية» وحماة لها... وذلك كان أحد العوامل التي جعلت عليًّا ينقل مركز الخلافة إلى الكوفة (التي استمرّت كبؤرة للدعوة العلويّة) وَنَقْلُ مركز الخلافة إلى العراق الأسفل وضع شبه الجزيرة على هامش السلطة والنفوذ للدولة الواسعة الأرجاء في بداية الإزدهار الإسلامي: فلا المدينة ولا مكّة سيكونان عاصمتين للعالم الإسلامي.

وعليٌّ الذي «فُرض» على الجماعة، من قبل فريق منها، لم يستطع أن ينال الإجماع عليه. وبذلك كان في البدء من الفتنة الأولى، وفي البدايات لبتر الوحدة وتمزيقها، وبعد معركة الجمل انضم الذين طالبوا بالثأر لدم الخليفة المقتول، انضموا إلى ارستقراطيّة الجماعة التي يشكّل الأمويُّون نواتها وقادتها وعلى رأسهم جميعاً برز، آنئذٍ، والي سورية، معاوية، الذي، لديه امكانات كبرى وجيوش قويّة إضافة إلى مزاياه الشخصية كرجل سياسة وهي مزايا يفتقر عليٌّ لها. وبحكم درجة قرابة معاوية من عثمان فمعاوية ملزم، وفق أحكام القرآن ـ أو هو صاحب الحقّ ـ بالثأر لموت قريب «قُتل طلحا..» (القرآن ٢٧ ـ ٣٣ ـ ٣٥).

وبعد انتصاره على طلحة والزبير، قوي أمل علي بإخضاع معاوية لطاعته ولكن معاوية طالب، قبل كل شيء، بتسليمه القتلة، وتوجه علي نحو سورية فخفَّ معاوية لملاقاته وتقابل الجيشان، وجهاً إلى وجه، في ربيع عام /٣٦/ ٦٥٧/ على الضفة اليمنى من الفرات، في سهل «صفّين» وهناك أقام الجمعان عدّة شهور دارت خلالها أشهر المجابهات في تاريخ الإسلام. والدماء التي سالت فيها كانت عامل تمزيق للجماعة الواحدة. ـ في الثامن من صفر /٣٧/ ٢٦ تموز ٦٥٧/ بدأت المعركة الحاسمة وفي بدئها دارت الدائرة ضد معاوية، وحسب روايات المؤرخين العرب، استنبط عمر بن العاص الذي انضم الى معاوية بعد معركة الجمل، استنبط حيلة انتزعت من أنصار علي نصراً كان مؤكداً:

لقد وضعوا صحائف القرآن على أطراف أسنّة الرِّماح ورفعوها بما يعني طلب التحكيم والإنصياع لحكم الله. وهذا يعني، عمليّاً، قيام هيئة تحكيميَّة، برضى الفريقين. ولما كان أنصار علي متيقنين من كونه وإيّاهم على حق فقد أقنعوه بقبول هذا العرض؛ وهكذا كان.. فتخلّى علي عن مهام الخلافة وامتيازاتها واختار وأصحابه حكماً؛ رجلاً محايداً هو «أبو موسى الأشعري». ومعاوية - من جانبه - عيَّن عمر بن العاص.. والموضوع الذي يتناوله التحكيم كان كالتّالي:

هل قُتل عثمان ظلماً؟ أم أن قتله كان عمل حشد من عامَّة الناس هيَّجته بِدع لم يستسغها وفي هذه الحالة الأخيرة لا يكون القتلة سوى منفّذين لإرادة جماعيَّة وبذلك يسقط حقّ ذوي القرابة فيما نهضوا للمطالبة به..؟ - وهل معاوية كان على حق في دعوته إلى الثأر؟ - لقد توقّف الجيشان عن القتال والتزم كلٌ قواعده بانتظار نتيجة التحكيم.. وبعد فترة طويلة من التفكير التقى الحكمان في «دومة جندل» (الجوف حالياً) في صفر عام ٣٨/ كانون الثاني ٦٥٨/ ولكنّهما لم يتوصّلا إلى حل فأرجآ الأمر إلى لقاء آخر خلال عام .. وكان عامل الزّمن لصالح معاوية؛ فقد تخلّلته أحداث لم يكن ممكناً تقويم أهميتها إلا بعد حين..

إنشقاق الخوارج

● فريق من أنصار علي، في صفّين، اعتبروا التحكيم خطأ وضلالاً لأن الحكم لله وليس للنّاس وفي القرآن آيات صريحة مثل:

- ﴿إذا طائفتان من المؤمنين اقتتلتا أصلحوا بينهما بالحقّ، وإذا بغت إحداهما على الأخرى قاتلوا التي تبغي حتّى تفيء إلى رشدها وأقسطوا إنّ الله يحبُّ المقسطين﴾. وفي نظر هؤلاء، معاوية وأصحابه بغوا على علي فوجبت مقاتلة الباغين... والملتزمون بهذا

المنطلق لاحظوا أنَّ مؤيديهم يتنامون ويتضاعفون فقرَّروا التخلِّي عن عليّ وتركوا صفوفه واعتزلوا في النهروان بين الأنبار والوازعيَّة وأولئك هم الذين أطلق عليهم منذئذٍ إسم الخوارج.

إنشقاق الخوارج جرَّد عليّاً من إمكانات العمل الفعَّال ضد معاوية عام /٦٥٨/ في حين كانت المفاوضات جارية ودون نتيجة. وفي نفس العام وجَّه علي بعض قوَّاته ضد بلدة النهروان في محاولة لإخضاع الخوارج ومهَّد لذلك بدعوة لوضع حد للمعارضة المسلَّحة عارضاً، لقاء ذلك، الأمان الذي خلق التردُّد والبلبلة في صفوف الخوارج حتَّى أنَّ كثيرين تركوا معسكر قائد الخوارج الأمير عبد الله بن وهب الرازبي. ومن هؤلاء من عاد للإنضمام إلى علي ومنهم من آثر الذهاب إلى الكوفة، ومنهم، أخيراً، من توزَّعوا بين إيران ومكَّة.. والذين ظلُّوا ثابتين على ولائهم لإبن وهب لا يبلغ عددهم الثلاثة آلاف. فقتل أكثرهم مع قائدهم وسحقت الفتنة من قبل قوَّات علي في التاسع من صفر /٣٨/ ١٧ تموز ٦٥٨/ دون أن يكون ذاك الإنتصار حاسماً لجهة وضع حد لنشاط الخوارج بل أعطى ردّ فعل عكسي إذ أثار، أكثر فأكثر، النقمة ضد علي وشجّع خوارج الكوفة على الإنضمام للفصائل الموجودة في العراق وإيران واستئناف الثورة ضد علي.. وعندما قرَّر هذا الأخير تحريك قوَّاته ضد معاوية كثرت حوادث الهرب داخل جيشه حتَّى اضطر إلى التراجع عن عزمه والعودة ألى الكوفة.

بعد بضعة شهور، في شعبان عام /٣٨/ كانون الثاني ٦٥٩/ تجمَّع حشداً واسع من وجهاء القوم في «اذروح» وهو معسكر روماني قديم على نبع ماء بين [معان والبتراء] وهناك أعلن الحكمان أنَّ «عثمان قتل ظلماً» مثبتين، بالنتيجة مسؤولية علي الذي اعترض

على القرار واعتبره مخالفاً للقرآن؛ وانتقل النقـاش، آنئذٍ، إلى موضوع اختيار خليفة جديد إذ يئس القوم من أي احتمال لتأييد علي واحتدم الجدل:

عَمْر كان يضمر في نفسه اختيار معاوية في حين كانت أمنية ابي موسى تنصب على الدعوة لانتخاب حقيقي للخلافة وهو الذي كان يؤكد أنَّ لا علي ولا معاوية (الذي أعلن خليفة من قبل قبل أنصاره) يجوزانتخابهما ولا بدّ من أرجاء الموضوع بعض الوقت.. وكان أبو

موسى من أنصار انتخاب أحد أبناء عمر (عبد الله) ولكن عمر لم يتقيَّد بالارجاء وأعلن موقفه المساند والمؤيد لمعاوية وعندها انفرط عقد الإجتماع دون الوصول إلى أي قرار وترك الأمر فوضى.. فظلَّ أنصار علي يعتبرونه هو الخليفة واستمرَّ في بسط سلطته على الأراضي التي يقبل ويؤيد أهلها هذه السلطة في حين مكَّن معاوية سيادته على سورية ومصر واستعمل دهاءه في عدم مهاجمة علي الذي راح، من جانبه، يعدّ العدَّة للإنقضاض على سورية ولكنَّه تعرَّض لحادث الإغتيال الذي، فيه، أصيب بجرح قاتل وذلك في شهر رمضان عام /٤٠/ كانون الثاني ٦٦١/. ـ لقد أصيب بضربة سيف مسموم، لدى خروجه من مسجد الكوفة، من يد خارجيٍّ ثأر لمذبحة النهروان. بقي علي حيَّاً يومين اثنين وأُبقي على سرِّيَّة مكان دفنه خشية تعرُّضه لتدنيس ما.. وبعد زمن أعلن مكان القبر على بُعد عدَّة كيلو مترات من الكوفة فنشأت ونمت حوله مدينة النجف ومقابرها الواسعة. ـ الحسن، الإبن البكر لعلي بويع بالخلافة من قبل الشيعة ولكنَّه أجبر على التنازل عن حقوقه بضغوط من قبل معاوية ومن المفيد الإشارة هنا إلى أنَّه من بين الخلفاء الأربعة الأول، أبو بكر وحده مات ميتة طبيعيّة أمَّا الباقون فقد ماتوا قتلاً.

إنَّ الأحداث التي بدأت في صفّين تركت أصداء لها حتى يومنا هذا.. فصفّين تبقى حيَّة في ذاكرة المسلمين:

«كان ذلك في الأمس».. - وفي الواقع تجزأت الوحدة الإسلامية إلى ثلاثة أجزاء سياسيّة، دينيّة، رئيسة: - أهل «السنّة» ويشملون أنصار معاوية. - وجزءان منشقان أكثرهما عدداً كان «شيعة علي» أي «حزب علي» وأصبحت «الشيعة» (وهذه هي التسمية التي أطلقت على مذهبها في إطاره العام وينضوي تحت لوائها، حتّى الآن، أكثر سكان إيران وما يقارب نصف سكان العراق. وبعدها. يأتي مذهب الخوارج المعروف باسم «الخارجية».

المؤرخون العرب يرون للمذاهب المستحدثة جذوراً تشدّها إلى أنصار «العدل والتوحيد» الذين وجدوا منذ زمن محمَّد وأصحابه الأول وقد عرفوا بانصرافهم الكلّي إلى الصّوم والصّلاة ووصفوا، بذلك، كما عرفوا بتشدّدهم المتطرّف وعدائهم للتسويات وانصاف الحلول. لقد تخلّوا عن علي في صفّين وانقلبوا راجعين نحو دجلة، ومن هنا جاءت تسميتهم بالخوارج حسب بعض الروايات التي أضافت، أيضاً، أنَّ التسمية، أطلقت من قبل أخصام هؤلاء لأن التسمية لغويّاً، تأخذ معنى آخر هو «الثورة على...» أو «الثورة ضد...» - إذن فالحركة الخارجيَّة كانت بين الظواهر المعبّرة عن المعارضة الداخلية لبُنى المجتمع العربي... فالوضع الإجتماعي والإقتصادي لرؤساء القبائل العربيّة التي منها تشكّلت القوى المسلَّحة للخليفة كان يفسد وينحل بمقدار ازدياد الإثراء ونموّ الثروة.. وسلطان الأرستقراطيّة الوراثيّة المتحدّرة من سكان المدن كان يتعاظم أيضاً. وهذا السلطان كان يظهر في التنظيم المطبّق

على جماهير وجموع الفاتحين لأنَّ القبائل العربية لم يكن لديها أيَّة فكرة عنه في مضاربها البدويّة ولأنّه يتّصل، فقط، بالحملات العسكريَّة، وإدارة المعارك حيث يُمدّ رؤساء القبائل بوسائل الضغط والتأثير على قوّاتهم.

أصحاب النبي، ممثّلو الجيل المسلم الأول، مثل عمر، حاولوا ممارسة سياسة متطابقة مع الإهتمامات الديمقراطية للجماعة؛ إلّا أنَّه، بعد عثمان الذي في ظلِّ حكمه تمكّنت الارستقراطية العربيَّة إن تتبوَّأ أعلى المراكز؛ اضطر فريق آخر من الأصحاب المذكورين، مثل علي، أن يأخذوا في حسابهم، الحقائق الواقعية لميزان القوى وذلك على حساب ما يملكون من ثروة محدودة. وحفاظاً عـلى الوئام، قبلوا، مضطرين، الإنفتاح على الارستقراطيَّة الجديدة.. تلك الحالة هي التي نجم عنها، بالضرورة، انتفاضات الاحتجاج لدى الجماعات العربيّة ولدى القوى العاملة في البلدان المفتوحة.

فالحركة الخارجيّة، مثلاً، لم تكن، في الأصل، سوى امتداد للإنتفاضة التي أدَّت إلى مقتل عثمان.. ومن بين الخارجين الأول عدد من المتشددِّين الأتقياء أنصار الإسلام في بداياته الذين كانت اهتماماتهم الأولى ـ إن لم تكن الوحيدة ـ هي الصَّوم والصلاة وتعليم الدين. إلاّ أنَّ هذه القلَّة لم تكن لتشكّـل النواة لجيش الخوارج: فلا الصلاة ولا الصَّوم جذب العامَّة الى صفوف الخوارج ولكن الإتجاهات والميول التي تصبو إلى المساواة والعدالة بين العرب والعرب وبين العرب والموالي كانت هي الأرضية لمبادىء هؤلاء الديمقراطيَّة التي من أجلها أصبح يتحرَّك المسلم خارجاً لقتال أخيه المسلم وسيفه في يده. ـ المبدأ الأوّل كان «حكم الجماعة».. جماعة المؤمنين، فعن طريق الإنتخاب يجب أن ينال

الخليفة سلطته وحالما ينحرف عن سياسة الدفاع عن مصالح هذه الجماعة فلها حقٌّ الرجوع عن بيعتها له واعتبارها لاغية فيسقط الامام الذي انحرف عن سواء السبيل وللجماعة حقّ مقاضاته وحتى قتله. . هذا يأتي بين عوامل التخلّي عن علي في صفّين ففي نظر الذين اعتزلوا القتال ليس إلزامياً أن يكون الخليفة قرشيّاً فالقرشي وأي عربيٍّ آخر يمكن رفعهما إلى سدّة الإمامة وحتى غير العربي له، في نظرهم، هذا الحقّ وليكن افريقيّاً ما دام مسلماً تقيّاً؟.

الاجتهادات النظرية «الخارجية» شكّلت وجهات نظر برّرت نفاذ الصبر، والتعصّب، والغلواء في الحماس. . وإحدى النقاط الجوهريّة في الشعارات الخارجيّة تتعلّق بالخلاص الذي لا يصبح الإيمان طريقاً إليه إلاّ مشفوعاً بالأعمال، مترافقاً معها فالخارجيّة جاءت باجتهاد خاصٍّ بها فيما يتعلق بقضيّة الإيمان.

لقد كفّر الخوارج خصومهم والتزموا بشنِّ الحرب المقدّسة ضدّهم. . وهذا النوع من التعصّب عزل الخوارج وأبعد منهم جماهير الشعب دون أن تخفي هذه الجماهير تعاطفها مع ثوّار ضدّ الاقطاعيّين، والسلطة أي ضد الإضطهاد الإقتصادي للارستقراطيّة سواء في المدن، وفي القرى والأرياف.

حسب إحدى الروايات، خوارج مكّة هم الذين قرّروا قتل علي ومعاوية وعمر بن العاص حتّى يخلو مركز الخلافة لمرشّحهم؛ وإذا كان عليٌّ (عام ٦٦١) قد مات بضربة من يد خارجي فإنَّ الإغتيال المقرّر بحقِّ الإثنين الآخرين قد فشل. ـ وتحت شكل سِحَل وفِرَق سرِّيّة متعدّدة انتشرت الحركة تحت حكم الأمويّين وقامت بنشاطات سياسيّة وعسكريّة في أقاليم الخلافة جميعها تقريباً. .

موت علي كان ختاماً للحكم التيوقراطي الذي دام أيّام محمد

واستمرَّ بالخلفاء الراشدين الأربعة. القرآن كان قاعدة النظام المذكور وسلوك النبيِّ كان القدوة والخلفاء الأقرب إلى محمَّد اتَّبعوا السبيل السوّي الذي رسمه وتقيّدوا دائماً، بالخوف أن يميلوا عنه في أيّة مبادرة منهم، شخصيَّة يضطرّون إلى اتّخاذها.. وما أكثر الضرورات الملحَّة، المستجدَّة، التي حدت بعمر وعثمان أن يكمِّلوا بعض الثغرات في نصوص القرآن والسنَّة ويحدثوا المنطلقات للأحكام القانونيّة القويّة. وبعد غياب عليٍّ وأصحاب النبي، لم يبق في السّاحة من يقف مواقف الاعتراض الصلبة بإسم الماضي سواء العالمون بأحكام القرآن أو الأتقياء حفظة السنَّة وتوسّع الأمبراطوريَّة، وتطوُّر المجتمع، ونموّ الإقتصاد، كل هذا أجبر خلفاء القرون التالية على تكييف بنى الدَّولة وفق المعالجات المطلوبة للمشاكل المعاصرة.



الفصل الرابع

الخلافة الأمويّة

● مارست الخلافة الأمويّة سلطتها على البلدان العربيّة من عام /٦٦٠ الى ٧٥٠/ والأسرة الأمويّة، في سورية عرفت فرعين: - «السفياني» ومنه معاوية الأوّل (٦٦٠ - ٦٨٠) وابنه يزيد الأوّل (٦٨٠ - ٦٨٣) وحفيده معاوية الثّاني (٦٨٣ - ٦٨٤) الذي مات بالطاعون بعد بضعة أشهر من تولّيه الخلافة. - والفرع الثاني هو فرع المروانيّين انتساباً إلى مروان الخليفة الأمويّ الرابع.

الخليفة الأمويّ الأوّل، سليل أميّة، معاوية بن أبي سفيان، ولد في مكّة في مطلع القرن السّابع. وكانت لأبيه مكانة متميزة في الوسط التجاري والعائلة - إيّاهما - لم تدخل في الإسلام إلاّ بعد أن توطّدت أركان سلطة محمد؛ وقد عاش معاوية، منذ شبابه المبكّر في المحيط المباشر للنبي بصفته أميناً للسّر؛ وفي أيّام أبي بكر ساهم في فتح فلسطين وسورية حيث ظهرت - مزاياه كقائد عسكري وعند وفاة أخيه البكر، يزيد، أصبح حاكماً للبلاد الدمشقيّة حيث بقي عشرين عاماً في السلطة.. وقد استبقاه عمر في مركزه وأيّده عثمان في مهامّه الوظيفيّة. وانطلاقاً من قرابته من عثمان اعتبر أنّ من واجبه الثأر له؛ الأمر الذي وضعه في حلبة الصّراع مع عليّ.. وكان تنازل الحسن عن حقوقه فخلت الساحة لمعاوية على رأس الجماعة الإسلامية؛ وكزعيم مرموق للأرستقراطيّة القبليّة في سورية عرف معاوية كيف يقيم العلاقات الجيّدة مع السكان المحلّيين الذين أيّدوه ودعموه.

الامبراطورية

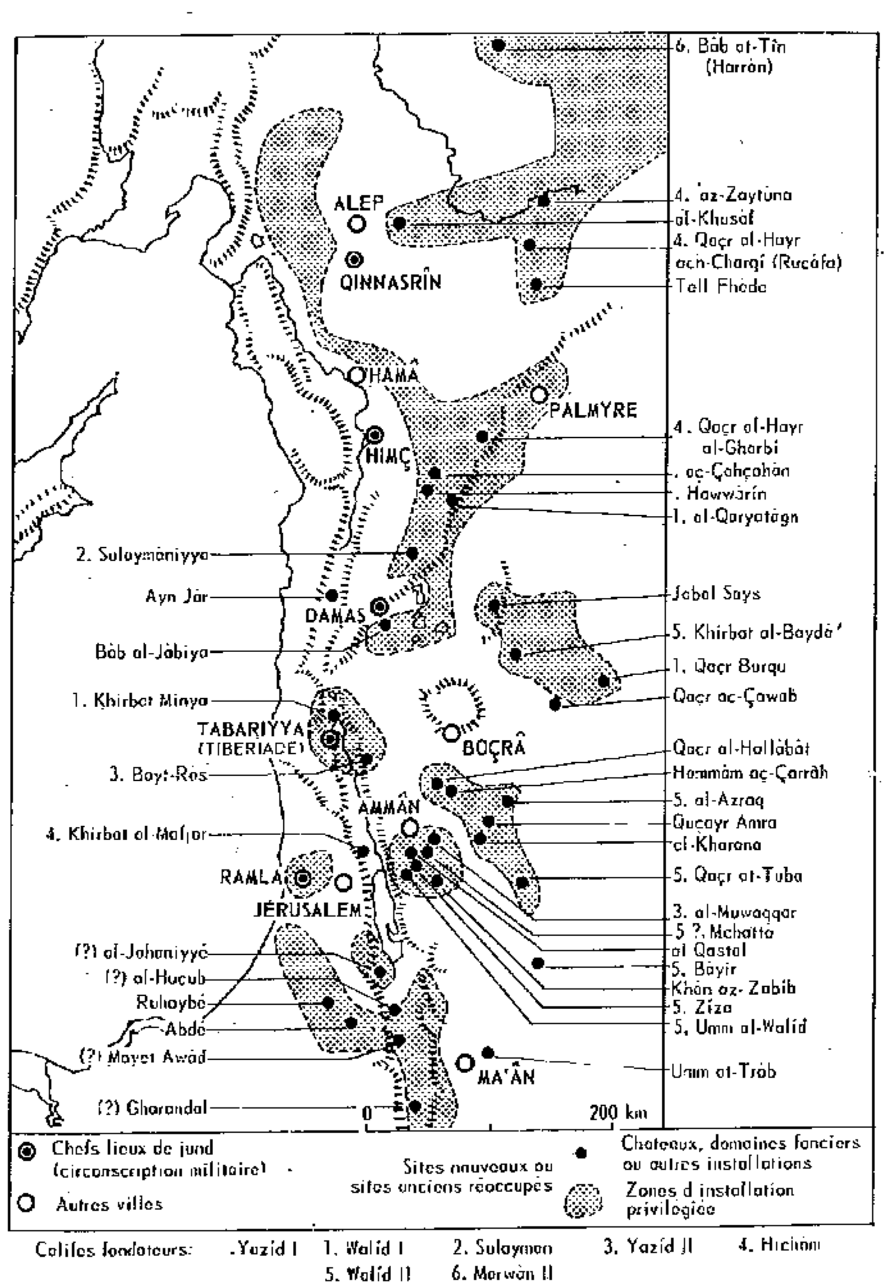
السفيانيّون

● خلافة معاوية (٤٠/ ٦٦٠ - ٦٠/ ٦٨٠

● الحقبة السفيانيّة من السيطرة الأمويّة (٦٦٠ - ٦٨٤) تميّزت بضرورة بناء دولة وتحويل تجمّع الفوضى العمياء في القبيلة العربيّة إلى مركّب عضوي؛ وخلق الأدوات الضروريّة لتحريكه وإدارته.. وتحقيق هذا البرنامج كان عنوان انتصار مؤسّس الأسرة: - فمعاوية كان من أكبر رجال الدّولة الذين أنجبهم الإسلام والمجهود المطلوب منه لم يكن عاديّاً: - لزوم قيادة المجابهة في الحرب ضد البيزنطيّين، والقتال على التخوم الشرقيّة، والتغلغل ما وراء نهر «الأكسوس» (عمو داريا) وحتى الهند؛ ومن جهة أخرى، استعادة التوازن بين مختلف القبائل العربيّة. واحتواء محاولات التصادم بين قبائل الشمال وقبائل الجنوب، والإجتناب، ما أمكن، لإنفصال كان محتملاً بين العراق وسورية؛ فكان لا بدّ من إعطاء العناصر المتبدّدة تلك إدارة موحّدة. (هـ . مونرية دي فيلارد - انتروديزيون آلّو ستوديو - ص ١٨١).

ومع مجيء معاوية، انتهت خلافة «الراشدين» أصحاب النبي، وبدأت حقبة جديدة للحاكم فيها أهميّة أكبر إذ أصبح رأساً للدولة ترك الحياة السهلة وأساليب الراعي والرعيّة لدى أسلافه ووضع مسافة ما بينه وبين الشعب وأحاط شخصه ببلاط وحاشية، منثنياً نحو الرسميّات وتقاليد الحفلات محمّلاً حياته مظاهر الأبّهة والعظمة.

ومعاوية كان الأوّل الذي عرف كيف يخلق دولة عربية تساوي في ظلّها الإهتمام بالإقتصاد والمال والدفاع عن الأمبراطوريّة وبذلك استبدلت الشورى بحكم القلّة (النخبة) من العائلات والأشخاص (الأوليغارشيّة) وفيها يشارك «الأشراف» وأمراء الجيوش، وممثلو الأقاليم جميعها، وسار الخليفة معاوية على نهج



LA SYRIE OMEYYADE

Source : André MIQUEL, *op. cit.*

ابن عمّه عثمان فأمّن لذوي قرباه وأصحابه ولنفسه مناطق نفوذ سهّلت للجميع حيازة الأملاك الواسعة مع حرصه في نفس الوقت، على عدم استبقاء أحد في منصبه العالي وقتاً طويلا. - ومع استيطان الأمويّين في سورية تبدّل، مرّة جديدة، مركز جاذبيّة العالم الإسلامي.. فبعد المدينة، والكوفة، صارت دمشق هي عاصمة الأمبراطوريّة واستعادت سورية ازدهارها بفضل الثروات الزراعيّة والإدارة الحسنة. - إبّان الفتح العربي، شهدت سورية التي توقّفت زراعتها على نظام واسع جدّاً للريّ تحقّق منذ عدّة قرون قبل الميلاد، شهدت تقلّصاً في المساحات المزروعة بسبب الحروب البيزنطيّة - الفارسيّة؛ فالتدمير الجزئي لنظام الريّ وهرب الفلّاحين، تسبّبا بخفض مستوى الحياة الإقتصادية.. وجاء السّادة الجدد فأرسلوا إلى أراضيهم مئات العاملين ممّن تمّ أسرهم خارج أراضي سورية - في آسية الوسطى خصوصاً - وبمساعدة المهندسين السوريّين وعلماء الزراعة والمتخصّصين بالريّ الذين ورثوا التقاليد الزراعيّة النبطيّة عاد منسوب الريّ إلى مستواه السّابق العالي، وعاد الخصب إلى الأراضي المتروكة، لتتحوّل إلى حقول وبساتين وجنائن وبقوليّات وكروم أعناب حقّقت، مجتمعة، رفع الدخول الماليّة. ومنذ معاوية، استفادت دمشق - مثل باقي المناطق السوريّة - من الإزدهار الإقتصادي الناجم عن فتح الحدود وزوال الحواجز الجمركيّة التي قامت سابقاً بوجه التصدير بين سورية وبين الأمبراطوريّة الساسانيّة القديمة؛ فسوّقت المنتجات في العراق وإيران وبالمقابل حمت جماهير المهنيّين السوريّين من منتجات البلدان المجاورة.

واستطاعت سورية أيضاً ان تنعم بادارة حسنة وهي الادارة المقتبسة من النظام البيزنطي الذي خبرت مزاياه والذي كان معاوية من الذكاء بحيث حافظ عليه ودعّمه بخبرات المستشارين المحلّيين الأكفّاء وأكثرهم من العرب المسيحيّين مثل «بني سرجون» من دمشق وأجداد القدّيس «يوحنّا الدمشقي» الذين أدّوا خدمات كبرى

للإدارة والتنظيم الماليّين. . وبرغم المحاباة والتمييز الدينيّين، قامت أقوى العلاقات وأجودها بين السكّان المحلّيين ذوي الأصول العربيّة في معظمهم، وبين الفاتحين المسلمين الذين فضّلوا الإستيطان داخل المعسكرات وكانوا الأقلّ عدداً، نسبيّاً، في المدن. ـ هذا، علما أن التعايش مع المغلوبين خلق مشاكل اقتصاديّة واجتماعية وجب حلّها: ـ على الصعيد الخارجي، اضطرّ معاوية إلى ضبط وتوضيح علاقات سورية مع الأقاليم الأخرى داخل حدود الخلافة وأقاليمها التي لم تكن قد شكّلت بعد، كُلًّا موحداً ذا سلطة مركزيّة. ـ وأمراء الجيوش، والحكّام المزوّدون بتفويض وتوكيل كاملين من الخليفة، كانوا يتصرّفون في اقاليمهم دون رقابة. . فيرسلون خمس مجتبياتهم إلى دمشق ويتوازعون الأربعة أخماس الأخرى؛ وفي العراق، بخاصّة، اضطرّ خليفة دمشق ان يخوض حرباً حقيقيّة: فالخوارج لا يعترفون بالأمويّين. والشيعة، أنصار البيت العلوي، يؤيّدون اماماً لهم كبير ابناء عليّ الحسن بن فاطمة حفيد النبي ويعتبرون معاوية غاصبا. ـ وقد توصّل معاوية عام ٤١/٦٦١ الى ابعاد الحسن عن المسرح السياسي والحسن، بالأصل، لم يكن شديد الحماس لـلإلتزام بالثورة ضد الخليفة فضمن له معاوية واردات قويّة لقاء أن يعتزل ويعيش حياته الخاصّة. . وتنحّية ذاك كان موضع انتقاد شديد ولكن مناطق شرقيّ دجلة خضعت فتحقّقت وحدة بين المشرق والمغرب. . وللتمكّن أكثر من زمام النظام في العراق حرص معاوية، بدهائه، على حسن اختيار أعوانه وتسمية حكام من غير الإقطاعيّين؛ فالمغيرة بن شعبة ـ في الكوفة ـ كان ذا سلوكيّة اخلاقيّة تناقضت الأحكام فيها وتنازعت كما كان مزواجاً أعطى الرقم القياسي في امتلاك النساء، وخلال عدّة أعوام استطاع الإضطلاع بالمهام الدقيقة لحكم معقل الشيعة وحصنها كما استطاع ان يكون السياسي الداهية الذي عرف كيف يشيع الذبذبة والمواربات بين نهّازي الفرص والمكّارين الفطنين. . وعلى هذا

النحو عرف كيف يؤدّي دوره في هذه المدينة الهائجة. . - وعيّن «زياد بن ابيه» حاكماً على البصرة في مطلع عام/ ٤٥/٦٦٥/ وتلقّى، بعدها، تكليفاً، بحكم الكوفة، بعد موت المغيرة وبذلك عرف معاوية كيف يكسب زياد الى جانبه بعد أن شاقّه وعارضه زمنا وقد سمّي «ابن ابيه» لأنّه مشكوك في نسبه لجهة الأب فقام معاوية بتثبيت ذلك النسب معلناً أنّ زياد هو ابن ابي سفيان اي أنّه الأخ غير الشقيق لمعاوية.

صرامة زياد أقرّت الأمن في البصرة ووضعت الأقاليم الشرقيّة تحت رقابة مدينتين عراقيّتين اضطلعتا بتأمين بدائل الجيوش وكان يوجد جيشان في خراسان، أحدهما أرسل عام /٤٤/٦٦٤/ الى وادي الهندوس والثاني بلغ شمال شرق نهر «عموداريا» (اكسوس) - ولأوّل مرّة بدأ الاحتكاك بينه وبين القبائل التركيّة. - إنّ نقل السلطة الإسلاميّة إلى دمشق جعلها أقرب إلى البحر الأبيض المتوسّط فتكونّت سياسة متوسّطيّة عربيّة استمرت حتّى بعد نقل العاصمة إلى بغداد.

عام ٦٥٨/٣٨/ وجّه معاوية عمر بن العاص ضد الحاكم المعيّن من قبل عليّ في الفسطاط. وعمر القرشي الصحابي القائد العسكري المحنّك والبارز في اليرموك وفي الاستيلاء على دمشق؛ عمر هذا انضمّ إلى الصفوف المؤيّدة لمعاوية وكان له في صفّين دور حاسم في تاريخ الإسلام وبعد احتلال مصر استطاعت القوّات الأمويّة، بعد عامين اثنين، السيطرة على مدن الحجاز المقدسّة.

غرباً، كان المغرب - الإقليم الذي لم يعرف بعد تغيّرات ذات بال - كان مسرح الأعمال الباهرة التي حققها عقبة بن نافع منذ عام /٤٣/٦٦٢/ الى /٥٥/٦٧٥/ ومن عام /٦٢/٦٨٢/ حتى موت عقبة المذكور عام /٦٣/٦٨٣/ فقد اقام قاعدة في القيروان عام /٥٠/٦٧٠/ وفتح افريقية. . كان عقبة شديد الورع والتقوى وعمل جاهداً على نشر الإسلام في الإقليم المذكور وبلغت حملته العسكريّة شاطىء الأطلسي، إلاّ أنّه، وهو في طريق

عودته ذهب ضحيّة متمرّدين محلّيين يرأسهم القائد البربري «فصيلة» الذي انتزع السلطة لنفسه لمدّة عدّة سنين لأنّ الوضع في المشرق كان قد تبلبل وتدهور وأصبح الخليفة مشغولاً عن قصاص المتمرّد بشؤون أخرى.

كان الجيش الأموي، السوري، يتألّف، بأكثريّته، من عناصر ذات أصول غسّانيّة أو لخميّة شديدة المراس في الحرب والقتال، والخليفة هو القائد الأعلى لتلك القوّات يساعده امراء فشكّلت، والحالة هذه، الدعامة الأكثر امانا للأسرة الأمويّة.. والقبائل السوريّة ـ العربيّة لعبت دوراً كبيراً في السياسة الأموية وتنتمي القبائل ـ ايّاها ـ الى كلّ من التجمّعين الرئيسين للقبائل العربيّة: ـ الكلبيّون (بنو كلب) اليمنيّة. ـ والقيسيّة (بنو قيس) أو النزاريّة وهي أصلا من شمال شبه الجزيرة. ـ كان الكلبيّون من كبار مربّي المواشي، ومن انصاف الحضريّين ذوي المدى الحيوي التدمري والحمصي والدمشقي. ـ والقيسيّة التي جاءت من شمال شبه الجزيرة، وتعود إلى «قيس عيلان»، فكانت تنتشر بشكل رئيسي، في مناطق ما بين النهرين. والتنافس بين التجمّعين أدّى إلى الكثير من المواجهات الدامية.. ورغم كون الأمويّين قرشيّين، فقد انحازوا إلى القيسيّة، ولعوامل سياسيّة اعتمدوا، في سورية، على الكلبيّين حتى ان معاوية لجأ ـ في تمتين العلاقات مع هؤلاء، لجأ الى تحالفات الزواج والمصاهرة فتزوّج من «ميسونة» الكلبيّة وهي أمّ يزيد الأوّل، الخليفة الأموي الثاني الذي، بدوره، تزوّج من كلبيّة.. ومنذ صار الكلبيّون سنداً للسفيانيّين من أميّة استغلّوا ودّ الخلفاء وأذن لهم بالذهاب للإقامة بين أهلهم في قلب الصحراء؛ كما اصبحوا مخوّلين باختصار اقامتهم في الحاميات مع قبض المكافآت والعلاوات العالية.. ووجهة نظر الأمويّين، في ذلك، هي «تأليف القلوب» وشراء اخلاص ووفاء القوّات.

العلاقات العربيّة - البيزنطيّة

● في ظلّ السفيانيّين تواصلت حروب الفتوحات في ما وراء القفقاز، وآسية الوسطى، وإيران الشرقيّة؛ والجيوش المجنّدة في سورية كانت مهمّتها محاربة البيزنطيّين وقد صارت آسية الوسطى مسرحاً للغارات العربيّة. وفي كلّ صيف، من كلّ عام، كانت الغارات المذكورة تتوغّل، أكثر فأكثر، وراء سلسلة جبال طوروس. ولم يكن البحث عن الغنائم هو الهدف الوحيد؛ بل تركّزت المحاولات الرامية للتقدّم نحو القسطنطينية، التي كان معاوية يتطلع الى الاستيلاء عليها عام ٦٦٨ ولأوّل مرّة، ظهر العرب على الشاطيء الشرقي للبوسفور ولكن البرد وقلّة الثياب الدافئة ونقص المؤن ووبأ الطاعون وانتشار مرض الزحار (الاسهال). . كل هذا افرغ المعسكر العربي من المحاربين فأرسلت الامدادات بقيادة يزيد ابن الخليفة وبدأ الحصار ولكن جدران سور المدينة كانت قويّة وتنقص العرب أدوات دكّها فرفعوا الحصار عن المدينة صيف عام /٦٦٩/.

نتيجة نجاحاتهم البرّية، سواء في سورية ومصر، ونظراً لاستيطان العرب على الشواطيء الشرقيّة للبحر الأبيض المتوسّط؛ فقد انقلب وتغيّر ميزان القوى في هذه المنطقة.. ولأنّهم صاروا متضلّعين بشؤون ترسانات ومصانع السفن في الإسكندرية وعكّا وصور وطرابلس فقد بنى الأمويّون، بواسطة اليد العاملة المحلّية اسطولا صار، فيما بعد، سلاح الإسناد لهم في العمليّات الحربيّة على طول الشّاطيء وقد أطلقت السفن الأولى في عهد معاوية، في طرابلس، عام /٦٤٥/ وقد ركبتها طواقم فلسطينيّة ولبنانيّة وقامت بعمليّات قرصنة ضدّ شواطيء قبرص ورودس وسواها وذلك عام /٢٨/٦٤٨/.

إنّ الإنتصار الحربيّ البحريّ الذي احرزه العرب في بحر «فونييكس دي ليسي» والذي سمّاه العرب «معركة ذات الصواري»

وفيها هزم الأسطول البيزنطي بقيادة امبراطور بيزنطية نفسه من قبل اسطول عربي أقل عدداً. ذلك الانتصار أتاح للأمويّين قطع المواصلات البحريّة للقسطنطينيّة مع الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط؛ ومن ثمّ ظهرت اساطيل عربيّة من سورية، ومن مصر فأربكت نشاط البيزنطيّين التجاري ممّا جعل هؤلاء يردّون بتدعيم أسطولهم بحرس شواطىء وبناء قطع حربيّة بحريّة خاصّة للتدخّل؛ ورغم كل تلك الإحتياطات استطاع الأسطول الذي أرسله معاوية عام /٥٢/ ٦٧٢/ أن ينفذ إلى «بروبونتيد» (بحر مرمرة) دون أن تجرؤ البحريّة البيزنطيّة على ازعاجه.. وأقام العرب قاعدة في شبه جزيرة «سيزيك» (مدينة فريجية القديمة على بحر مرمرة ومعروفة اليوم باسم كابي داغي) وجعلوها قاعدة للاشتاء.

عام /٥٤/ ٦٧٤/ هاجمت قوّات معاوية قسطنطينيّة برّاً وبحراً ولكن المدينة المحصّنة جيّداً وراء سورها المزدوج قاومت الهجوم الذي دام ثلاث سنوات فرفع العرب حصارهم عام /٥٧/ ٩٧٧/ تاركين العديد من موتاهم تحت الجدران في حين منيت سفنهم بأضرار خطيرة سبّبتها «النار اليونانيّة» المخترعة حديثاً (مُركّب حارق أساس نترات البوتاسيوم والقار الزفتي لاتطفئه الماء). - والقطع التي بقيت من الأسطول اصيبت بمحنة وهي راجعة فتعرّضت لعاصفة بحريّة ولهجوم من عمارة بيزنطيّة فكانت قليلة السفن التي استطاعت الوصول سالمة إلى مرافئها الأصليّة.

في عهد الأمويّين، لعب الإكليروس السوري دوراً اجتماعياً كبيراً فبعد جلاء البيزنطيّين انتهت الإرباكات والقلاقل التي كان المسيحيّون الشرقيّون ضحايا لها لأنّهم اخصام البيزنطيّين اليونان.. ويجب ان نتذكّر أنّ أهمّ الطوائف كانت من الموحّدين (اليعاقبة)، والنساطرة، والموارنة، فالإكليروس المحلّي حافظ، في عهد الأمويّين، على وظائفه القضائيّة وهو الذي كان يجبي الضرائب وأعفي من دفعها ونعمت الأديرة برعاية خاصّة من قبل الأمويّين

الذين ساندوها حتّى أن الكثيرين كانوا يرون الإسلام وكأنّه نحلة مسيحيّة قريبة من مذهب «آريوس» (في الثالوث الإبن ليس مساوياً للآب وليس من نفس طبيعته وليس شريكاً له في ازليّته وأبديّته. إذن فألوهيّة المسيح كانت ثانويّة وتابعــة).

لم يكن قد تكوّن لدى العرب طبقة مثقّفة والمهن الحرّة كانت ممارستها مقصورة على ابناء البلاد الأصليّين: ـ مهندسو البناء ـ الأطبّاء ـ أمناء السّر ـ المختصون بالزراعة وبالريّ الخ..

وإلى جانب المسيحيّين كان هناك اليهود الذين أُعطوا، هم ايضاً، حريّة ممارسة عباداتهم لقاء دفع الجزية.. وكـان هؤلاء اليهود قد استوطنوا في سورية بعد هدم الهيكل في القدس من قبل «طيطوس» عام /٧٠/م. والذين ليسوا أطبّاء منهم كانوا حرفيّين او تجّارا. ـ أمّا الموالي السوريّون المتعلّمون ـ الضليعون بالقراءة والكتابة، فكانوا يمارسون وظائف امانـة السرّ وأمنـاء الخزينـة، ومدراء وأمناء صناديق وقيّمين وفي وظائف اداريّة اخرى..

وشروط الحياة، في سورية، كانت على ما يُرام لأننا نعرف قيام الثورات والإضطرابات، ايام الغسّانيّين والخوارج، فكان نشاط هؤلاء خطيراً في العراق وإيران ولم يحرزوا أيّ تأييد جماعي لهم في سورية السفيـانيّة حيث كـان الخليفة يـدعم ويسانـد ملاّكي الأراضي، وأغنياء التّجار، والمثقّفين السوريّين اليونان، والفئات العليا من المهنيّين، والإكليروس المسيحي.

ومعاوية، بفضل دهائه السياسي وحلمه، نجح في المحافظة على وحدة وتماسك الجماعة بالرغم من جو التنازع والتآمر الذي ساد بعد صفّين.. والمعارضة للخليفـة اقتصرت على التـابعين الملتزمين ولذلك توصّل معاوية الى تنشيط تطوير البُنى الحكوميّة وتجاوز الأعراف القبليّة وصولا الى مطمحه في اقامة نظام ملكي يبقى الدين، في ظله، مجرّد معيار للمحاباة والتمييز العنصري.

في اواخر ايّام حكمه، كان الشاغل الأوّل للخليفة هو تأمين اسس (الإرث والتعاقب) اجتناباً للفتنة وتجدّد النزاع بعد موته: ـ

لقد نجح باقناع امراء الجيوش والوجهاء المحيطين به بالإعتراف بابنه البكر يزيد وارثاً لأبيه وطبعاً كان الولاء للبيعة مبدأ مرفوضاً حالماً استبدل بالتعاقب الحقيقي. . والإجماع لم يكن ضرورياً للإعتراف بالوارث المعيّن: ففي سورية كان مبدأ الوراثة طبيعياً في نظر اناس عرف معظمهم النظام البيزنطي الملكي الوراثي المقترن برضى وقبول الجيش ومجلس الأعيان. . كما ان مبدأ السلالة، والعائلة المالكة كان موجوداً ايضاً لدى الفرس؟! - وفي الواقع لقد استُبدل النظام الإنتخابي بالنظام الملكي الوراثي. . وكانت ردّة هي نوع من العودة الى مبدأ «الولاء للكُبر» (وهو ان يموت الرجل ويترك ابنا وابن ابن فيكون الولاء للابن دون ابن الإبن. . ويختلف الأمر في قول العرب «توارثوا المجد كابراً عن كابر» اي كبيراً عن كبير في العزّ والشرف) والولاء المذكور عرفه العرب وكان سائداً عند بعضهم قبل الاسلام. . فبدعة معاوية تلك سمحت للأمويّين ان يملكوا تسعين عاما وللعبّاسيّين ان يحتفظوا بالخلافة خمسة قرون كاملة. . وهذا يعني أنّ ازمات الخلافة لم تعد تتكرّر بل العكس: - لدى موت بعض الخلفاء كان يظهر بين أعضاء العائلة أكثر من واحد يعلنون حقّهم في المركز وتتمّ الحلول بالعودة الى المبدأ السابق ذكره إن لم يلجأ المتنطّح لفرض شخصه الى القوّة. . ونفس نظام «الولاء للكُبر» أصبح مطبّقاً لدى العائلات حاكمة الأقاليم البعيدة عن العاصمة المركزية والتي أصبح ارتباطها بالخلافة نسبياً بل ورمزياً في بعض الحالات.

مات معاوية عام /٦٠/٦٨٠/ عن عمر بلغ الثمانين ودفن في دمشق في مقبرة «باب الصغير» وقد احترم العبّاسيّون قبره ولم يمسّوه وكان يزيد، ابنه ووارثه، في «اناضولية». . وبانتظار عودته تمّ تشكيل مجلس وصاية في دمشق.

خلافة يزيد الأوّل (٦٠/ ٦٨٠/ ٦٤/ ٦٨٣)

● أثار تعيين يزيد وارثاً ردود فعل كان بعضها عنيفاً. . فأخصام مبدأ الوراثة في انتقال الخلافة نشطوا سريعاً للعمل: ـ ففي السواد ـ الإمتداد العلوي للكوفة ـ قامت المؤامرات لإبعاد يزيد عن السلطة (غول اهل البيت) في حين جمّع الخوارج صفوفهم واستعدّوا للثورة. ـ من جهة اخرى، في الحجاز، تحرّك عدد من أصحاب النبي الّذين أقصاهم الخليفة الأموي عن مراكز عالية يرونها من حقهم، ويرون انفسهم أهلاً لها؛ واجتهدوا بوضع اجتهادات فكريّة سنّيّة مضادّة لمصالح الأمويّين والمدعومة هي الأخرى بمنطلقات تخدمها وقد لقيت الحركة دعماً كبيراً من الشخصيات المعروفة بالتقوى والملتزمة بالسنّة. . وفي المدينة نفسها زال التنافس وعاد الإلتحام الى صفوف الأنصار والمهاجرين لأنّ الأنصار أُوذوا في مصالحهم الإقتصادية بعد نقل العاصمة الى دمشق وأصبحوا لا يخفون عداءهم للسلطان الأموي.

هكذا، بعد موت معاوية عام ٦٠/ ٦٨٠ كان ابنه البكر ابعد ما يكون عن نيل الموافقة الإجماعيّة من ممثلي الجماعة الإسلاميّة فتميّز «ملكه» الذي دام ثلاثة اعوام، تميّز بقمع مختلف حركات المعارضة التي تفجّرت في معظم البلدان باسم الدفاع عن السنّة وأحكام القرآن. ـ وبعد ان فرض يزيد الإعتراف به، لجأ إلى محاولة كسب المحتجّين الى صفه بالإقناع ولكنّ ثلاث شخصيات هامّة ممّن اعلنوا خصومتهم للأمويّين ولجأوا الى مكّة رفضوا مبايعة يزيد وهم: ـ الحسين حفيد النبي ـ عبد الله بن الزبير احد اغنياء قريش ـ وعبد الله ابن الخليفة السابق عمر. ـ وأرسل يزيد الى الحجاز أحد ثقاته، مسلم بن عقبة، وزوّده بأمر حمل «المتمردين؟» على الإعتراف به خليفة ولكنّ ابن عمر، المسموع الكلمة، كان الوحيد الذي انصاع للأمر اجتناباً للشّقاق والفتنة واعتزالاً لهما فوقف على الحياد واعتزل الحياة السياسية.

ثورات وقمع

● كربلاء:

كان الحسين أوّل الثائرين، فمنذ موت أخيه البكر، الحسن، عام /٤٩/٦٦٩/ أصبح، رسمياً، الطامح الرسمي الأوّل الى الخلافة. . كان قبل ذلك في المدينة، مجاوراً لقبر جدّه، وبعد موت معاوية انتقل الى مكّة واستقرّ هناك. وهناك جاءته وفود الشيعة من الكوفة، وعاهدته على تفجير ثورة باسمه اذا انتقل الى مدينتهم، فقام الحسين بارسال واحد من أبناء عمّه في مهمّة إعلاميّة وتلقّى منه تقريراً مشجّعاً فتوجّه الى الكوفة مع أهل بيته وحامية صغيرة مؤلّفة من ثلاثمائة رجل وبدأ، في تلك الأثناء، يتكشّف ما يدبّر في الخفاء فقام حاكم الكوفة، عبيد الله بن زياد، بالتخلّص من إبن عمّ الحسين وأرسل فصائل من الفرسان لرصد حركات الحسين. . وفي نفس الوقت بذلت المحاولات الممكنة لثني الحسين عمّا عزم عليه ولكنّ الحسين رفض فقام عبيد الله بوقف تقدّم الثوّار في واحة «كربلاء» على بُعد/٧٥/ كيلومترا شمال الكوفة. . ثمّ طوّقهم ومن ثمّ دارت ما تسمّى «مأساة كربلاء» وفيها سقطت جميع الفصائل العلويّة في ميدان حرب يائسة وحتى الحسين الذي كان يتابع المعركة عن كثب استشهد في يوم «عاشوراء» العاشر من محرّم عام/٦١/١٠ تشرين الأول ٦٨٠/ ومنذئذ أصبح الشهر المذكور ذكرى حداد وصوم وأسى لدى الشيعة. - أرسل رأس الحسين الى الكوفة - ثمّ الى دمشق عن طريق حمص وبعلبك ثمّ ارسل الى مصر عن طريق مرفأ «اشكالون» الفلسطيني.

وهكذا تعمّقت الهوّة بين السّنّة والشّيعة ففي نظر السنّة لم يكن قتل حفيد النبي عملاً مذموما لأنّ الحسين شقّ عصا طاعة وليّ الأمر؛ أمّا الشيعة فقد اولت الموضوع اهمية كبرى والموقع الذي فيه لقي الإبن الثاني لعلي مصرعه تحوّل سريعاً الى مكان حجّ

مشهور. . ويتوالى احياء ذكرى المأساة حتى اليوم. . ويوم «التعزية» الانفعالي يوم شهور، دوري، سنويّ لدى الشيعة.

●القمع في الحجاز

من أجل التحرّر من القبضة الأمويّة، رفض اصحاب النبي مبايعة يزيد بالخلافة بعد موت معاوية وتبلورت المعارضة بالتفافها حول عبد الله بن الزبير الذي تشدّه الى آل البيت اواصر قربى؛ والذي (في عام ٦٨١/٦١ - بعد موت اخيه عمر) اعلن، على رؤوس الأشهاد، عزل يزيد؛ وبعد ان استلم يزيد زمام السلطة قام وفد مديني بالذهاب الى دمشق لاستطلاع الأحوال وسرعان ما شاهد ان يزيد لا يتميّز لا بتقواه ولا بصفات حاشيته التي اشتهر فيها مربّي يزيد الشاعر المشهور «الأخطل» المنتمي الى قبيلة تغلب المسيحيّة. وما رواه هؤلاء الزوّار عن اوضاع دمشق، لدى عودتهم الى المدينة، كان كافياً لتأجيج نار الثورة عام /٦٨٣/٦٣/ والاتّفاق مع ابن الزبير باعلان عزل يزيد وطرد الحاكم المعيّن من قبل دمشق.

من أجل إعادة النظام الى المدينة أرسل الخليفة إلى الحجاز قوّة مسلّحة بإمرة مسلم بن عقبة القائد الذي امتحن الأمويّون ولاءه وإخلاصه لهم وحضي بثقة معاوية ويزيد المطلقة ومن اجل ذلك وقع الإختيار عليه في المهمّة المذكورة رغم تردّي صحّته وتقدّمه في السنّ.

ووصلت القوّات السوريّة الى ضواحي المدينة وعسكرت في «الحرّة» ثلاثة ايام بانتظار نتيجة المفاوضات وفي اليوم الرابع اندلع القتال فاحتُلّت المدينة ونُهبت طوال ثلاثة ايام وبعد راحة قليلة، توجّهت القوّات الأمويّة نحو مكّة لمقاتلة عبد الله بن الزبير الذي اعتصم في مكّة منذ نهاية عام /٦٣/ آب ٦٨٣/ والذي بدأ، منذ يوم كربلاء، يعبيء القوّات ويحشدها حوله. وحوصرت مكّة رغم كونها مدينة مقدّسة وتوالي قذفها بحجارة المنجنيق التي لم تسلم الكعبة بالذات منها؛ فأصابها بعض الخراب واشتعلت فيها النيران.

ـ وفي ربيع الأوّل عام /٦٤/ تشرين الثاني ٦٨٣/ وصل نبأ موت يزيد في «حوّارين». . والقوّة السّوريّة التي فقدت «مسلم» ايضاً، اصبحت لا تعرف من اجل من تقاتل حتى أنّ قائدها الجديد حزم امره على العودة الى دمشق فعرض على عبد الله بن الزبير أن يعلنه خليفة ويسير في ركابه الى دمشق حيث قيسيّة سورية المستعدة للوقوف الى جانبه وهي التي اغاظها تفضيل الكلبيّين عليها من قبل معاوية وابنه يزيد. . ولكنّ عبد الله بن الزبير رفض مغادرة مكّة وأعلن نفسه اميراً للمؤمنين فيها؛ وأعلنت ولاءها له القبائل العربية المتواجدة في خراسان وما وراء عمو ـ داريا وأذربيجان. . وذلك مع الدعم والمساندة؛ الا انها في نهاية المطاف اقرّت، في سورية، خلافة معاوية الثاني ابن يزيد البكر البالغ من العمر عشرين عاما وذلك وفق النظام الوراثي للعائلة المالكة ولكن «العاهل» الجديد كان معتلّ الجسم. رخواً، ومتقلباً، فمات بعد قليل ضحيّة وبأ الطاعون عام /٦٨٤/٦٤/ وقد أهمل، أيّام حكمه، تعين من يخلفه بعده وكلّ ما فعله، قبيل موته، أنّه كلّف الضحّاك بن قيس ووليد بن عتبة بحمل مسؤوليّات ومهام الخلافة وتسيير شؤونها. . فتفاقم الإضطراب وعمّ سورية ايضا ونشبت حرب مفتوحة بين الكلبيّين الذين احتكروا المكاسب والمغانم والإمتيازات أيّام معاوية ويزيد وربطوا مصيرهم بمصير الفرع السفياني من أميّة ومصير منافسيهم القيسيّين الذين يساندون عبد الله بن الزبير. ـ وانعقد مؤتمر في «الجابية» لمناقشة مشكلة الخلافة فتمركزت القوى القيسية في مرج الصفّر جنوب شرق دمشق حيث انضمّت اليها قوى يمنية اخرى منشقة وذلك بإمرة الضحاك بن قيس.

أمّا الكلبيّون الذين اصبحوا يتحرّكون بتأثير مروان بن الحكم ابرز ممثلي الأسرة الأمويّة فقد كانوا يسيطرون على دمشق المدينة. . و مد مضي عشرين يوماً صار الأخصام يناورون بين الجابية ومرج راهط شمالي دمشق وقد ضايقتهم بساتين وأقنية مياه الغوطة. ـ في نهاية المطاف، في عام /٦٤/ تموز ٦٨٤/ دارت رحى معركة «مرج

راهط» وفيها تقرر مصير الأمويّين فالخسائر كانت فادحة وقوّات الضّحاك تخلّت عن مواقعها وارتدّت على اعقابها فكان النصر لمروان بن الحكم.. وذلك كان الانتصار الحاسم الذي أجبر عبد الله بن الزبير على التقهقر إلى مواقعه الدفاعيّة وأتاح للفرع الثاني الأصغر من أميّة الإحتفاظ بالسلطة أكثر من سبعين عاما.

المروانيّون

● الخليفة مروان الأوّل

لدى موت معاوية الثاني ظهر مروان بن الحكم العضو المرموق في الأسرة ولكنّ الإجماع على انتخابه كان بعيد المنال لأن اكثريّة المسلمين يرفضون ان يروا أمويًا آخر على «العرش».

مروان هو مؤسّس الفرع المرواني الذي بلغ احد عشر خليفة وقد لعب مروان، طويلا، الدور العقوق لرجل الدولة الثاني المتألّق نجمه.. وحتّى في عهد عثمان ويزيد الأوّل تولّى حكم الحجاز ومثّل هناك سادة دمشق الأمويّين. وما إن اصبح، بدوره، خليفة، حتّى تزوّج من ارملة ليزيد ويقال انّ هذه قامت بقتله خنقاً لأنّه رفض الإعتراف بابنها وارثاً له.. في حين تقول رواية اخرى انه مات بوباً الطاعون بعد بضعة اشهر من معركة مرج راهط في /٢٧ رمضان عام ٦٥/٧ ايار ٦٨٥/ وقد نجح مروان في استعادة مصر من عبد الله بن الزبير الذي استولى عليها في شعبان عام ٦٤/ نصف نيسان ٦٨٤/ وولّى ابنه عبد العزيز حاكماً لها وعاجله الموت قبل ان يتمكّن من التفرّغ لاعادة تنظيم الدولة وهي المهمّة التي اعترضته بعد اعادة توحيد الأمبراطوريّة وقد تركها لولده عبد الملك (٦٨٥ - ٧٠٥) الذي خلفه الوليد الأوّل (٧٠٥ - ٧١٥) الملقب بـ «الباني»

● خلافة عبد الملك /٦٥/ ٦٨٥/ - ٨٦/ ٧٠٥/

مهمّة عبد الملك كانت صعبة منذ البدء فالوضع مضطرب، والصراع بين القيسيّين والكلبيّين تفاقم، وابن الزبير كان، اسميّاً، سيّد العربيّة وجزء من العراق. وفي الكوفة كانت السلطة بين يدي المختار الثائر باسم الشيعة اذ حاول، باديء ذي بدء، ان يأتي بضمانة لحركته واحداً من اولاد علي، ابن الحنفيّة ولكن هذا كان له انصاره (المعتزلة) فرفض عرض المختار ومخططه وعندها قرّر هذا الأخير أن يعمل لنفسه وتمادى حتى تسمية الحكّام في ايران والعراق والجزيرة وأذربيجان.

بدأ عبد الملك بمهاجمة المختار فهزمت قوّاته وقتل هو على يد أخ ابن الزبير ودخل رجال عبد الملك الكوفة عام /٦٧/ ٦٨٧/ ومنذئذٍ أصبح العراق خاضعاً لسلطة الأمويّين وهي السلطة التي نازعها وعارضها بشراسة كلّ من الزبيريّة (الحركة المضادّة للأمويّين) ومن الخوارج.

واستعدّ الخصمان، عبد الملك وابن الزبير، للمعركة الفاصلة بينهما وعبّأ كلٌ منهما قوّاته الكافية للمعركة المذكورة وللقضاء على المعارضة داخل الأراضي التي تحت سيطرته.. ابن الزبير متمكّن من سلطته على الحجاز وقد اتخذ مكّة مقراً له وفيها تلقّى تأييد من أيّدوه؛ ولكنّه كان عليه مواجهة الخوارج المسيطرين على نقاط هامّة على شواطيء شبه الجزيرة: في اليمن وحضرموت والبحرين.. حيث كانوا يقطعون الطريق على القوافل وكذلك عناصر اخرى كانت، عملياً، هي صاحبة الكلمة في العراق.

أما عبد الملك، من جانبه، فكان عليه مواجهة العديد من الإنتفاضات وحالات التمرد، ومواجهة البيزنطيّين الذين عادوا الى حروب المباغتة.. وحتّى لا يكون في وضع المضطرّ للحرب على جبهتين، توصّل إلى تسوية الأوضاع الداخليّة في عام /٦٩/ ٦٨٩؛ ثمّ أبرم ميثاق مهادنة مع البيزنطيّين قبِلَ بموجبه أن يدفع، كلّ عام،

غرامة مقدارها خمسة آلاف دينار ذهبي وتقديم ٣٦٥ اسيرا ـ اسير واحد عن كل يوم ـ و ٣٦٥ جوادا ومقابل ذلك قبل «يوستينيان الثاني» سحب قوّاته وإعادتها الى آسية الوسطى. أمّا واردات قبرص فتمّ الإتّفاق على اقتسامها بالتساوي.. بذلك امن عبد الملك جانب البيزنطيّين وتفرغ لدخول الحرب ضد ابن الزبير الذي كان يعتبر نفسه الخليفة..

عام /٧٢/٦٩١/، بعد سحق ثورات العراق، وقتل مصعب اخي ابن الزبير، وجّه عبد الملك الى مكّة جيشاً بقيادة الحجّاج بن يوسف، وهو معلّم مدرسة سابق في الطائف ورجل مثقف وخطيب بليغ ولكن صعب المراس لا تنقصه المواهب ولا المقدرة والنشاط.. ودام حصار مكة عدّة شهور قصفت المدينة خلاله بالمنجنيق ولم تسلم الكعبة نفسها من الأضرار الناجمة عن قصفها مباشرة كذلك.. ثمّ انقضّت القوّات السوريّة على المدينة واستولت عليها واستشار ابن الزبير أمّه فأشارت عليه بمتابعة القتال حتى استشهد وهو يذود عن الحرم الشريف؛ وهكذا زال خصم خلفاء ثلاثة ووفق ما اعتاد الأمويّون، ارسل رأس الزبير الى دمشق.. وبعد انتصاره ذاك استطاع الحجّاج اخماد حركات الخوارج في العربيّة خلال عامين اثنين تفرّغ بعدهما للعراق.

● العراق ارض مرويّة، كثيرة الإنتاج، تناقصت مواردها الإقتصادية بسبب الثورات الخارجيّة وحروب الشيعة ففي عام /٧١/٦٩٠ ـ ٦٩١/ عيّن عبد الملك أخاه بشر بن مروان أميراً للكوفة وضمّ إليه، بعد عامين، البصرة وكان مشغولاً بمحاربة الخوارج. وفي عام /٧٤/٦٩٣ ـ ٦٩٤/ مات بشر فقرّر الخليفة اعادة النظام الى العراق فأرسل إليه حاكماً الحجّاج بن يوسف بعد ان امتحن إخلاصه للأسرة الأمويّة.

العراق في ظلّ حكم الحجّاج

وصل الحجّاج إلى العراق عام /٧٥ /٦٩٤، وذلك على حين غرَّة، وبقي فيه حتى عام /٩٥/ ٧١٤/ وهو تاريخ موته؛ فأحكم قبضته على جميع الشؤون وأدارها بقسوة وصرامة وتناقلت الأجيال، بعده، الخطبة البليغة التي ألقاها من على منبر جامع الكوفة الكبير حال وصوله إلى هذه المدينة وبخاصة ما جاء فيها من تأكيد لعبارة وردت في خطبة يزيد قبله: ـ «أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها. .» ـ ومن بين القادة الذين اعتمد عليهم الحجّاج «عبد الرحمن ابن الأشعث» الذي انضمّ إلى صفوف الأمويّين بعد هزيمة الزبيريّة في العراق. . لقد تلقى هذا القائد مهمَّة قتال الخوارج قبل تسميته حاكماً ل «الرَّيّ» من قبل بشر بن مروان ولما خلف الحجّاج بشرا ثبَّت ابن الأشعث في مهمَّته. ـ وفي عام /٧٩/ ٦٩٨/ أرسل الحجّاج قائده هذا إلى سجستان الإقليم الذي كان، العام السابق، تابعاً لخراسان. . أرسله إلى هناك مع تفويض باحتلال كابولستان. وعام /٨٠/ /٦٩٩ ـ ٧٠٠/ تم احتلال الإقليم المذكور وإقرار النظام فيه فلم تعجب الحجّاج الوسائل التعبويّة لذلك التقدُّم وثار ابن الأشعث وألحق هزيمة بقوات الحاكم الأموي في ذي الحجّة عام /٨١/ كانون الثاني عام ٧٠١/ وفي آخر الشهر نفسه استولى القائد المتمرِّد على البصرة وتحصَّن فيها. ـ في محرَّم عام /٨٢/ مطلع آذار عام ٧٠١/ دارت معركة كانت بداياتها لصالح ابن الأشعث ثمَّ غُلب وانكفأ متراجعاً نحو الكوفة مع قوَّات من المدينة المذكورة وفرسان من البصرة؛ وفي الكوفة، انضمَّت إليه جموع ناقمة على نظام الخلفاء بدمشق ويجمع بينها مبدأ تكفير بني أميَّة. ـ في منتصف صفر عام /٨٢/ نيسان/ ٧٠١ توجّه الحجّاج إلى الكوفة وتعرَّض جيشه لمشاكل تموينيّة جادَّة، واجتناباً للخسائر المحتملة، لجأ عبد الملك إلى استخدام المفاوضات مظهراً استعداده لتنازلات محدَّدة. ومال ابن الأشعث إلى إلقاء السلاح ولكنَّ أنصاره رفضوا متابعة المفاوضات فكانت مجابهة جديدة في شعبان

٨٢/ أيلول /٧٠١/ انتهت بهزم ابن الأشعث فهرب نحو سجستان واحتلّ الحجّاج الكوفة وثأر ممن فيها بشراسة وقسوة ومات ابن الأشعث ميتة فظّة عام /٨٥/ ٧٠٤. ـ وقد رأى البعض أنّ ثورة ابن الأشعث تعود، في الأصل، إلى حقد عميق متبادل بينه وبين الحجّاج؛ وآخرون يعتقدون أنّه كان طبيعيّاً أن ينشب النزاع بين حاكم من دهماء الناس وعامتهم وبين نبيل من سراة كندة وضع تحت أوامر الحاكم المذكور. ويبدو أنّ لا مجال للبحث عن أسباب فتنة ما في العواطف والمشاعر الشخصيَّة، لأنّ الثورة ـ إيّاها ـ تطوَّرت إلى مجابهة بين موالي البصرة والكوفة وبين عرب مسلمين. بل وفسحت المجال أيضاً للعراقيين أن يحاولوا، مجدَّداً، كسر نير السُّوريّين متذرّعين بالنقمة العامَّة ضد الأمويّين «أئمّة الضلال». ـ وحتّى يجتنب الحجَّاج الإحتكاكات والخلافات بين القوَّات السُّوريَّة وسكَّان مدينتي البصرة والكوفة قام ببناء «واسط» عام /٨٣ ـ ٨٦/ ٧٠٢ ـ ٧٠٥/ وهي مدينة حقيقيَّة محصَّنة في منتصف الطريق بين البصرة والكوفة، مركزي إستناد المعارضة. لقد اتّصفت حكومة الحجَّاج بما تتّصف به حكومة أيّ نظام إحتلالي طاغٍ على نسق الإرهاب الدموي فالسجون والمعتقلات امتلأت والذين نفّذ فيهم حكم الإعدام ربا عددهم على /١٣٠/ ألفاً وذاك قمع اضطر المعارضين إلى الهرب نحو إيران أو افريقية الشمالية حيث ما زال أحفادهم إلى أيّامنا هذه في «موزاب» (واحات شمال صحراء الجزائر و«غردقة» مدينة معروفة فيها) ويحملون هناك إسم «العباديّين».

صرف الحجّاج همّه إلى زيادة الواردات فحسَّن الزراعة وأولى نظام الريّ اهتماماً خاصاً وحلَّ مشكلة اليد العاملة عن طريق جلب العبيد السود والزنج الذين جيء بهم من أفريقية الشرقيّة وبخاصَّة من زنجبار.

وفيما يخصّ سياسته الضرائبيَّة يجب الإشارة إلى قانون عام /٨١/ ٧٠٠/ الذي بموجبه صار المسلمون الجدد غير معفيّين من الجزية وذلك إجراء أثار نقمة الموالي خصوصاً في الكوفة والبصرة وكان سكّان

الأرياف أقلّ تأثّراً بالقانون لأنّهم ظلّوا، أصلاً، على دينهم السّابق وهو الزردشتيّة على الغالب.

العمليّات في أفريقية

ولم يخلُ الأمر من حملات وجّهت نحو الغرب، ففي عهد عبد الملك استخدمت مصر قاعدة للعمليّات نحو أفريقية لطرد البيزنطيّين الذين بدأوا يعودون إليها؛ فبقيادة «حسّان بن النعمان» الغسّاني استعادت القوّات الأمويّة قرطاجة ودمّرتها عام /٧٦/ ٦٩٥/ واستعادت مدن الشاطيء التي عاد البيزنطيّون وتمركزوا فيها بعد مدّة لأنّ حسّان اضطرّ أن ينثني إلى طرابلس لمعالجة ثورة البربر بقيادة «الكاهنة» التي ادّعت النبوّة وأثارت نقمة أنصارها ضدّها بتصرّفاتها السياسيّة ومنها محاولة تطبيق خطّة «الأرض المحروقة» لمنع مهاجميها من الوصول إليها. ـ وعاد المسلمون عام /٧٨/ ٦٩٧ ـ ٦٩٨/ واستعادوا قرطاجة وتمّ التغلّب على «الكاهنة» وقتلها في معركة دارت عام /٨٣/ ٧٠٢/. ـ وفي صفر /٧٩/ نيسان ـ أيار ٦٩٨/ خلع حسّان من قبل عبد العزيز بن مروان أخ الخليفة وأمير مصر وسُمّي مكانه موسى بن النصير.

اصلاحات الدولة

في عهد عبد الملك أنجزت إصلاحات عميقة تعتبر إنعطافاً في التاريخ الإسلامي: ـ سبق وقلنا أنّه بعد الفتح، بقيت الإدارة بين أيدي الخاضعين أي العناصر التي لا غنى للعرب عنها وهم الذين لا خبرة سابقة لهم في أجهزة بنيتها بيروقراطيّة.. وهذا التعاون من قبل الموظفين الذين كانوا، سابقاً، في خدمة البيزنطيّين أو السّاسانيّين، نجم عنه واقع هو أنّ الوثائق والتقارير كانت توضع إمّا باليونانيّة وإمّا بالبهلويّة؛ فأعطى عبد الملك أوامره باستعمال العربيّة في المراسلات الرسميّة وفي سجلّات الخراج وفي الأعمال الحسابيّة الخاصّة بالديوان.

وإدخال اللغة العربيَّة. هذا أظهر رغبة الارستقراطيّة العربيَّة في أن تمسك بيديها الأجهزة الحكوميَّة.. وأن تراقب، مباشرة، الشؤون الماليَّة؛ وذلك دون حاجة إلى تغيير ملاك الموظَّفين ـ إياه ـ لأنَّ الجيل الجديد من السكَّان المحليِّين ضليع باللغة وبالكتابة العربيَّة لأنها لغته الأم أصلاً.. وحتَّى الخطّ الذي استعمل في تلك الفترة أثبتت الدراسات الحديثة أنَّ أصوله تعود إلى الكتابة العاديّة السَّريعة لدى السريان. ـ والإصلاح المذكور تحقَّق في العراق عام /٧٨/ هـ. وفي سورية عام /٨١/ ٧٠٠/ وعمَّم بعد بضعة سنين، /٨٧/ ٧٠٦/ على مصر من قبل حاكمها عبد الله بن عبد الملك. إنَّ تقدُّم التعريب ـ وهو تتويج لتقدُّم انتشار الإسلام ـ كان سريعاً في العراق وفي سورية مهد اللغات السَّاميَّة أما في مصر فالقبطيّة كانت عقبة نظراً لاختلافها الكبير عن العربيّة؛ والمسألة لم تكن، فقط، إصلاحاً لغويًّا، بل كانت تلبية لحاجة بناء وحدة لغويَّة وترسيخ لغة القرآن الأمر الذي يفرض على المغلوبين وضع الأقلِّيَّة السياسيَّة؛ ففي البصرة والكوفة تكوَّنت لغة مبسَّطة سهلة البلوغ للجميع بفضل قواعدها المبسَّطة الموضوعة وأصبح إلزاميّاً التخاطب والكتابة بالعربيَّة وكانت المفاجأة في ردَّة الفعل: ـ المغلوبون المشتغلون في اقتباس وتكييف وترجمة النصوص البهلويَّة هم الذين ابتكروا النثر الأدبي والثقافي العربي.

ومن أجل تحسين المواصلات عبر الأمبراطورية الاسلامية تمَّ شغل الطرق واستعملت الحجارة في تعيين الإتجاه وكذلك المسافة فبين العلامة والعلامة الثانية ألف وحدة قياسيَّة بمعنى أنَّه تمَّ إحياء النظام الروماني الذي أبطل بعد زمن. ولا بدَّ من الملاحظة هنا أنَّه، على الإشارات المذكورة، عيِّنت القدس تحت إسم «ايليا» (عالية) قبل أن استعمل، نهائيًّا، إسمها العربي «القدس».

ونموّ العلاقات التجاريَّة، والإقتصادية، بين مختلف أجزاء الخلافة، اقتضى إدخال نظام نقدي جديد، وتلك علامة جليّة على تجدُّد الأزمنة، ومؤشر على الإتِّجاه إلى مركزيَّة الدولة. وقد بدأ تطبيق إصلاح نقدي /٦٩٦/ ٦٩٧/ لاستبدال النقود العينيَّة الساسانيَّة

والبيزنطيّة. . والدولة الأموية لم تتوصّل حتى التاريخ المذكور ـ في إطار تداول عملة إسلاميّة ـ إلاّ إلى قطع نحاسيّة (فلس) سكّت في عهد معاوية من أجل المعاملات والصفقات التجاريّة اليومية. . إلا أن استمرار تداول قطع العملة البيزنطيّة يشغل الأذهان بشمّة تبعيّة تجاه بيزنطية فأبطلت، إذن، القطع القديمة لاستبدالها بقطع كان التقليد فيها واضحاً للعملة السابقة ولكن هذا التغيير مؤشر على استقلال الدولة الأمويّة حتى أن الغرامة السنويّة التي كان الأمويّون يدفعونها لأمبراطور بيزنطية دفعوها بالدينارات الجديدة فرفض البيزنطيّون الإعتراف بالنقد الجديد لأنهم رأوا فيه رفضاً للتبعيّة فاستأنفوا عمليّاتهم العدائيّة ضد الخليفة.

وأقيمت بيوت خاصّة لصك العملة (دور الضرب) ونظّمت وصارت تعمل في العاصمة وفي بعض مدن الأقاليم الكبيرة. وتألفت العملة الجديدة من الدينار الذهبي والدرهم الفضي؛ وكان وزن الدينار (ديناريوس) ٤,٢٥ غراماً وعياره ٩٦٪ و ٩٨٪. أمّا الدرهم الفضّي (دراخما) فوزنه ٢,٩٧ غراماً فضّة ونسبة القيمة هي عشرة دراهم لقاء دينار واحد. وهكذا فإنّ النظام النقدي المزدوج في المناطق التي دمجت بالدولة الإسلاميّة تمّ استبداله بنظام نقدي عربي موحّد. . والقطع الإسلاميّة كانت تحمل المجاهرة بالإيمان: ـ «لا إله إلاّ الله ومحمد رسول الله» ويضاف إسم الخليفة ومكان الضرب.

ويعود إلى عبد الملك، أيضاً، بناء الحرم الشريف في القدس وذلك في الباحة المحاذية تماماً للحائط المزعوم أنّه الأثر الباقي من الهيكل. وأصبح الحرم الشريف في القدس واحداً من أقدم الأماكن المقدّسة في العالم. . ومن الرّاوئع الأمويّة «قبّة الصخرة» وهي عمارة متميّزة، مخطّطها مركزي مثمّن الزوايا تغطّيه قبّة وألبس بديكور (زخرف) غني بالموزاييك الزجاجي والذهبي وقد تعدّدت الأسباب في تفسير بناء هذا الصّرح فالكتلة الصخريّة الطبيعيّة التي بنيت القبّة فوقها تتّصل بأكثر من ذكرى دينيّة: ـ ضحيّة إبراهيم، ومعراج محمّد. فنحن، إذن، أمام مذخر. علماً أن البناء لا تجمعه أيّة علامة هندسيّة

معمارية مع المسجد؛ الأمر الذي يجعلنا نلتفت باهتمام إلى شعيرة «الطواف».. وإلى بعض الروايات القائلة أنَّ عبد الملك بنى قبَّة الصخرة لتكون بديلاً للكعبة ولتجنيب السوريِّين الحجّ إلى مكّة التي كانت آنئذٍ تحت سلطة ابن الزبير وتجاوزاً سُمِّي هذا المسجد «مسجد عمر» ومنذ الصليبيِّين لم يعد يؤخذ مثالاً معمارياً في أيِّ بلد من بلدان الإسلام.

خلافة الوليد (٨٦/ ٧٠٥ ـ ٩٦/ ٧١٥)

عام /٧٠٥/، خلف «الوليد» أباه عبد الملك ودام «ملكه» حتى عام /٧١٥/ فاستغلّ جهود وإنجازات والده التي جعلت الأمبراطوريّة تبلغ أوج اتّساعها، كما جعلت الأسرة الأمويّة تبلغ أوج مجدها والخزينة تفيض بمدّخراتها؛ فأرخى الخليفة الجديد لنفسه العنان في البناء فهو الذي بنى المسجد الكبير في دمشق.. المسجد الذي ينقل ذكراه عبر الأجيال كما ينقل أروع ما توصَّل إليه الفنّ الإسلامي.. وبنى مساجد في الأقاليم فأعاد بناء مسجد المدينة عام /٨٨ ـ ٩٠/ ٧٠٧ ـ ٧٠٩/، وأكمل بناء المسجد الأقصى في القدس، وينسب إليه، أيضاً، مسجد «ديار بكر»؛ وعلى بحيرة طبريَّا بنى قصر الـ «منيا» الذي اقتبس تخطيطه من الفن المعماري الروماني.. وتنسب إليه مجموعة أبنية «قصر عمره» في الصحراء شرقي «عمّان» وفيها مساكن مجهَّزة بحمَّامات مزخرفة باللوحات الجداريّة يمثل ما رسم منها على القبَّة بالورق الذَّهبي، القبَّة السماويَّة مع علامات تدلّ على البروج؛ كما نجد في صالات أخرى رسوم راقصات وموسيقيِّين وحيوانات مع صور كاملة لأربعة ملوك تغلَّب عليهم الخليفة. ـ لقد تصرَّف الخليفة بمبالغ ضخمة من المال، ليس، فقط، لأنَّ والده سلك نهجاً سياسيّاً متحفظاً، وإنّما، بفضل واردات الجزية، والغرامات، والضرائب والموارد الأخرى من البلدان المفتوحة (مثل سورية ومصر) التي ازدهرت في حقبة الأمن والإستقرار.

في الشرق، أخضع الحجّاج جيوشه لنظام دقيق وصارم:

أحد هذه الجيوش، بقيادة قتيبة بن مسلم، أحتلّ، بين عامي /٨٧ و ٩٦/ ٧٠٦ - ٧١٥/. «مرو» وما وراء النهر مع «بخارى» و «سمرقند» (افرازياد) حتى بلغ «شاس» متوغلاً في وادي «فرغانة» (سيرداريا القديمة) وحتى «قشقار» عند تخوم «العالم الصيني».. - خلال ما يقارب العشرة أعوام، من /٨٦/ الى /٩٦/ - /٧٠٥ - ٧١٥/ استخدم ذلك القائد، الممثل للخليفة الوليد، واحة «مرو» الغنيّة كقاعدة عمليّاتيّة... وفي كل ربيع كان يقوم بحملة تدفع نحو الشمال الشرقي القبائل التركيّة المتواجدة على يسار «أم داريا» أو لمجابهة الصينيّين بالذات الذين تأثّرت بالحروب تجارتهم عبر النهر فقاموا بدور المساند والظهير لقبائل خراسان ولكنَّ مساعداتهم تلك كانت ضعيفة، قليلة التأثير.

عام /٧١٥/ ثار قتيبة ضد سليمان الذي خلف الوليد وقُتل على يد عناصر من قوّاته.. وفي نفس الحقبة قام جيش آخر بقيادة «محمد بن القاسم» باجتياز جنوب إيران وبلغ «الهندوس» واحتلَّ المناطق الغربيَّة للنهر (٩١ - ٩٤/ ٧١٠ - ٧١٣).

خلال الربع الأوّل من القرن الثّامن دُمجت بالأمبراطوريّة الأمويّة أراضي واسعة جداً تشمل خراسان وبلاد ما وراء النهر (تراتسوكستان). وخوارزم، وحدها، جنوب بحر «آرال»، أسفل آموداريا، احتفظت باستقلالها؛ ومجموع تلك الأراضي شكّل مناطق زراعيّة مزدهرة هي التي - منذ أقدم العصور - شكّلت إقليم الإتّصال بين العالم الأبيض والعالم الأصفر.. وبين المقيمين في الحواضر والبدو الرُّحل؛ فهي، إذن - وباختصار - القطب الجاذب للتجارة وملتقى طرق الديانات.. ففيها يسهل الإلتقاء مع البوذيّة والزردشتيّة (المجوس) والمانيّة (القائمة على مبدئي الخير والشرّ) - منذ القرن الثالث - والمزكاكيّة التي نشرت منذ مطلع القرن الخامس مباديء نظريّة لحياة مشتركة.. والنساطرة الهاربين من اضطهاد الارثوذكس البيزنطيّين؛ ثمَّ الإسلام الآتي مع السرايا شبه القبليّة التي جاءت من

«العربيّة» فكان ـ أي الإسلام ـ الدين المتمِّم في مجتمع الأفكار الإنتقائيَّة.

وانتشار الإسلام كان بطيئاً، باديء ذي بدء، ثمَّ، وابتداء من مطلع القرن الثَّامن حصل تغيّر سريع تضاعفت فيه أعداد من يُسلمون؛ ولكنَّ التعريف، بمعناه العملي والواقعي، ظلَّ غير موجود: الفاتحون، البعيدون عن بلدهم الأصلي، المتغلغلون في وسط عرقي غريب، والذين استوطنوا كمستعمرين في عالم آريٍّ نمط تفكيره يختلف عنه في العالم السامي، توصَّلوا أخيراً لأن يصبحوا «مستساغين»؛ وزواج العازبين من العرب لعب، ولا شك، دوراً هامًّاً في نجاح التمثّل وتقدُّمه.

تحسُّباً من نشوب ثورات بين السكّان المحليِّين عمل الأمويُّون على إقامة مستعمرات زراعيّة، إلى جانب الحاميات في المدن إلَّا أنَّ ذلك التحضير للبدو لم ترتح له الطبقة القرويّة الفلاحيّة المحليّة.. وذلك لأسباب أوَّلها أنَّ الوافدين الجدد كانوا يحصلون على حصَّة من الأرباح.. وبخاصَّة، لأنَّهم كانوا لا يدفعون العشر على حاصلات الأرض في حين أن الفلاَّحين يدفعون الخراج وكان يصل، في بعض الحالات إلى نصف الحاصلات. ـ والضرائب، قبل الإحتلال الأموي، كانت تجبى عن كل منزل.. لذلك، ومن أجل دفع ضرائب أقل، كان الناس يحتملون العيش معاً، وبأعداد كبيرة، تحت سقف واحد؛ في حين أنَّ العرب، منذ عام /٧٢٥/ قاموا بإحصاء عام من أجل جباية ضريبة الجزية، والضريبة العقاريّة. والنظام الضرائبي المذكور أثار استياء لدى سكان البلاد المحتلَّة حديثاً وامتد الإستياء حتَّى شمل الموالي و«المزابنين» والدَّاخلين الجدد في الإسلام لأنَّ هؤلاء قد اعتبروا أنداداً مساوين للعرب من الناحية النظريّة فلماذا، إذن يُعاملون كمسلمين من الدرجة الثانية وهم الذين اعتنقوا الإسلام يحدوهم الأمل بالمساواة الإجتماعيّة والضرائبية؟ ـ لقد كانوا يدفعون الخراج ولا يتقاضون مرتَّباً في الجيش وعليهم أن يعيشوا من حصَّتهم ممَّا يجنون.. إنَّ خيبة الأمل الناجمة عن عدم المعاملة «مثل المسلمين

تماماً وكمـالاً» لم تكن غريبـة عن ضغينة وعـداوة الموالي بـالنسبة للأمويّين. ـ وسكّان خراسان استمرّوا في تعاطي الزراعة والصناعات الحرفيّة وفي وسطهم وُجد الأطبّـاء تلاميـذ مدرسـة «جنديشـابور» الفخمة؛ كذلك وُجد الموظفون والمدرّسون، وبناة السُّفن، والنوتيّة.

وكان المسلمون في شاغل عن الإهتمام بالتجـارة وتمتّع غـير المسلمين، إجمالاً، بتلقائيّة كبيرة. ـ وبفعل التمدين المتنامي تناقص، بالمقابل، وبنفس المقدار، التخصيص لسكنى الريف والعمل فيه لأنّ هذا العمل شاقّ نسبيًا.. وهذا سبب جعل الملاّكين الكبار يفرضون أسعاراً منخفضة فنقصت ـ نتيجة لذلك ـ دخول صغار الملاّكين.. فظهرت مشكلة فقدان اليد العاملة الزراعيّة ولكنَّ الحجّاج وجد لها حلاً بأن أوفد فلاّحين للعمل في الأرض.

التوسُّع نحو الغرب

منذ عام /٨٦/ ٧٠٥/ بسط الأمويـون سلطانهم على شمال افريقية حتى الشاطىء الأطلسي.. موسى بن النصير، بتأييد من الوليد، أخضع قبائل «الهوّارة» و«زناتـة» و «كتامة». كذلك، وبعد ترسيخ قدمهم في المغرب وإدماج البربر الحديثين في إسلامهم والمقاتلين الرائعين، اندفع العرب القادمون من الشرق فهاجموا شبه جزيرة «أيبريا» (اسبانية والبرتغال). ـ لقد تعدّدت الروايات حول اسباب قدوم العرب إلى شبه الجزيرة المذكورة: ـ تقول بعض الروايات أنّ النبلاء الذين اختاروا «رودريك» ضد «أخيلا» ابن «فيزيغوت ـ فيتيزا» هم الذين استدعوا العرب كعونٍ لهم.. في حين تقول روايات أخرى أن «الكونت فيزيغوت ـ جوليان» حاكم «سوتا» (سبتة) هو الذي حرّض على الحملة العسكريَّة لينتقم لنفسه من «رودريك».. وأخيراً قال البعض أنَّ العرب قدموا لمساعدة أنصار «ويتيزا» و«الكونت جوليان» الـذي يُعزى إليه بسبب بربري..

إنّ فتح الأندلس الذي لا تُعرف تفاصيل أسبابه على حقيقتها

أدهش الناس بسرعته . . فسلطان «الفيزيقوط» (القوط الغربيُّون)، في اسبانية، تفتت، بعد تجزئة، في مطلع القرن الثامن وقـد سئم الأسبان النير الأجنبي (القوط دخلاء على اسبانية، وعلى أوروبة، ظهروا في حوض الدانوب في القرن الرابع، وهم آريُّون، وعام ٤١٠ فتحوا روما وتوسَّعوا في جنوب غرب فرنسة ثمَّ فتحوا أجزاء هامَّة من اسبانية عام ٤٧٦).

أوّل إنزال عربي تمَّ في رمضان عام /٩١/ تموز ٧١٠/ في «الجزيرة الخضراء» بقيادة القائد البربري «طريف» مساعد موسى بن نصير فخرَّب ونهب المنطقة الساحلية المجاورة وعاد محمَّلاً بالغنائم الغنيّة. . وهذا النجاح حفز موسى بن النصير لأن يوكل إلى رجل آخر من مساعديه «طارق بن زياد» حملة ذات نطاق أوسع؛ وفي شعبان عام /٩٢/ نيسان أيار ٧١١/ توجَّه جيش مؤلف من سبعة آلاف محارب بمساعدة سفن وضعها الكونت جوليان تحت تصرُّف هذا الجيش فاجتاز المضيق واستعاد تجمّعه على سفح جبل صخريّ أخذ منذئذٍ إسم «جبل طارق» (جبرالتار حالياً). وفي /٢٨ رمضان عام ٩٢/ ١٩ تموز ٧١١/ ـ عند بحيرة «جاندا» غربي الجزيرة ـ هزمت قوَّات طارق جيش الملك فيزيقوط رودريك الـذي يضمّ وحدات مسلَّحة فرنجيَّة وفاسكونيَّة (غاسكون وباسك) وفي أثناء تقدُّم الجيش العربي المنتصر سقطت مدن شبه الجزيرة الواحـدة تلو الأخرى وبخاصَّة «قرطبة» و «طليطلة» (وهذه الأخيرة لم تبدِ أيَّة مقاومة) وحتّى لا ينفرد طارق بهذا النصر المؤزّر أنزل موسى ابن النصير بقيادته هو جيشاً كبيراً، في رمضان عام /٩٣/ حزيران ـ تموز ٧١٢/ واحتلَّ «قرمونة ـ سيفيل ـ ميريدا» واتَّجه نحو «طولاد» وبعد التقاء الجيشين المسلمين تابعا تقدُّمهما نحو الشمال واستوليا على «سـاراقوسـة». ـ في أيلول /٧١٣/ في جنـوب ـ غـرب «سالامنكا» قتل رودريك أثناء المعركة. وفي عام /٩٥/ ٧١٤ كان موسى على وشك أن يحقّق نجاحات جديدة ولكنّه استدعي إلى

دمشق مع مساعده طارق، من قبل الخليفة. فانصاع القائد الأموي للأمر وأبطأ كثيراً بعودته لأنّه اصطحب معه عرباً وبربراً وأسرى «ويزيقوطيين».. الموكب، والركب، والقوافل المحمّلة بالغنائم، سدّت طرق دمشق وحبست السير فيها فاستقبل الوليد المنتصرين بأبّهة وبذخ ولكن موسى لم ينعم طويلاً بهذا النجاح لأنَّ سليمان، الأخ الوارث للوليد، نفاه إلى المشرق وهناك مات فاتح الأندلس عام /٩٨/ ٧١٦ ـ ٧١٧/. ـ ذهاب موسى فتح في الأندلس حقبة جديدة ولي الأمر فيها، بالتتابع، حكام كانت دمشق تعيّنهم وكانت حقبة مظلمة تجدّد واستيقظ فيها التنافس القبلي والعشائري العربي في المغرب الأقصى.

أواخر المروانيِّين

بعد موت الوليد الذي امتلك السلطة المطلقة طوال عشرة أعوام توارث السلطة، لمدة قصيرة جداً، ثلاثة من آل مروان:

سليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، (وخلافة كلّ منهما لم تطل أكثر من عامين) ويزيد الثّاني بن عبد الملك الّذي استمرّت خلافته قرابة أربعة أعوام.. والثلاثة مارسوا سلطتهم المطلقة مع اختلاف كلّ منهم عن الآخر اختلافاً كبيراً سواء في الأخلاق والشخصيّة المتميّزة:

سليمان عسكري طاغية مع نصيب من البر والتقوى وعمر صاحب الضمير الحيّ والتقيّ إلى حدّ التزمّت ويزيد الشهواني حتّى الهستيريا (الهرع والجنون).

خلافة سليمان بن عبد الملك

كان سليمان في الخامسة والثلاثين لمّا خلف أخاه الوليد في جمادى الثّانية عام ٩٦/ آخر شباط ٧١٥/ فترك «الرملة» ـ المدينة التي أسّسها وشيّدها في فلسطين ـ لمّا كانت مركزاً لقيادته للقوّات

الأمويّـة هناك. وما إن استلم السلطة، حتى كان أوَّل ما تذكَّره العداء الذي ناصبه إيَّاه الحجَّاج ولأنَّ هذا الأخير مات في عام /٩٥/ ٧١٤/ فأنصاره هم الذين وجب عليهم أن يكفِّروا عمَّا كان منه ومن بين الضحايا نذكر قتيبة بن مسلم فاتح ما وراء النهر والذي حاول إثارة القوَّات ضدّ سليمان فكُشف أمره وقُتل. ثمَّ نذكر محمَّد بن القاسم صهر الحجّاج وفاتح السند الذي عُذِّب وقُتل من قبل حاكم العراق.

الحرب ضد البيزنطيّين استمرَّت بجدِّية أكبر، ففي حلب حيث نما المسلمون إلى نسبة عالية ومنها تنطلق الجيوش نحو الشمال الغربي، شيَّد سليمان، على رحبة الكاتدرائية، الجامع الأوَّل الكبير الذي كان ردًّا سريعاً على الجامع الكبير بدمشق، والحدث الجوهري الذي حقّقه الخليفة سليمان كان حملة عسكريَّة هامَّة ضدّ بيزنطيَّة: ـ ففي الخريف عام /٩٧/ ٧١٥/ سارت القوَّات العربيَّة ضد الأمبراطوريَّة.

«عموريوم» (عمُوريَّة) القائمة على الطريق العسكري الرئيسي (كيليكيا ـ القسطنطينيَّة) حوصرت من قبل أحد القادة المساعدين لمسلمة بن عبد الملك ولكن دون نتيجة.. وقضى الجيش الشتاء في «آسية الصغرى» وفي الصيف التالي استؤنفت العمليَّات بقيادة مسلمة، ومنذ شهر آب، ثمانون ألف رجل تساندهم /١٨٠٠/ سفينة عربيّة، طوّقوا قسطنطينيية التي دافع عنها «ليون الثالث الأيصوري»؛ ودام الحصار عاماً كاملاً وبدأ المحاصرون يعانون من البرد، ومن فقد المؤن فرأى سليمان أنَّ لا أمل في الاستيلاء على العاصمة البيزنطيّة وفكَّر باستدعاء جيشه ولكنَّ الموت عاجله وهو في «دابق ـ في شمال سورية» في شهر صفر عام /٩٩/ أيلول ـ تشرين الأوَّل ٧١٧/ ورفع الحصار بأمر من خليفة سليمان عمر بن عبد العزيز.. وكانت آخر محاولة جادَّة ضد البيزنطيّين الذين ظلُّوا العدوّ الذي يُخشى جانبه، في البرّ كما في البحر، وعادت الحرب الى

مسارها التقليدي، أي إلى عمليّات هجوميّة متبادلة ومتواصلة كلّ صيف من كلّ عام. . وكان انتقال الثغور ومراكز الحدود، من أيدي إلى أخرى، أمراً عاديًّا؛ وفي الشرق ساد هدوء مشهود في زمن حكم خلفاء الوليد، فمنذ تولّى سليمان سُمّي «يزيد بن المهلّب» عدوّ الحجّاج، مكان يزيد بن أبي مسلم حاكماً للعراق حيث حصلت بعض الصعوبات في إدارة الشؤون الماليّة.

والمغرب حاول انتزاع استقلاله والإنفصال عن المشرق.. وفي الأندلس شهد الناس حقبة تثبيت الحكم وترسيخه قبل استئناف العمليّات الحربية في الشمال وسنعود الى هذا في حينه.

خلافة عمر الثاني بن عبد العزيز

لم يكن متوقّعاً من قبل، أنّ عمر الثاني بن عبد العزيز سيكون أحد وارثي الخلافة، إلاّ أنّ سليمان، وهو على فراش الموت، خضع للضغط القوي الذي مارسته عليه المعارضة بقيادة العالم الديني «رجاء بن حاوية» كي يخلفه ابن عمّه الشقيق بدل واحد من ولدي عبد الملك. ـ وعندما استلم عمر الثاني السلطة، فجر القرن الثاني للهجرة، كثر عدد المستائين لأنّ المقدّمات أكدّت النتائج التي راجت القناعة بصحتها وهي أنّ الإسلام لن يدوم أكثر من قرن. حتّى أنّ الكثيرين من المسلمين سادهم القلق من الخوف أنّ ساعة الدينونة قد أزفت.

عمر بن عبد العزيز عاش في المدينة، مسقط رأسه، في وسط نسوده التقوى، حتى عام /٨٥/ ٧٠٤/ التاريخ الذي فيه استقدمه إلى دمشق عمّه الخليفة عبد الملك وكان في الثانية والعشرين من عمره. ـ وفي عام /٨٧/ ٧٠٦/ عيّنه الوليد حاكماً للحجاز الأمر الذي أتاح لعمر العودة إلى المدينة. . وقرّر الحجّاج أنّ حكومة الأمير الأموي كانت معتدلة جدًّا والبرهان هو كثرة عدد المعارضين الذين كانوا يتوافدون من العراق إلى الحجاز كلاجئين. . وتلك

حركة لم تكن غريبة عن الإصلاح الضرائبي الذي باشره عمر بن عبد العزيز. ـ الإصلاح الضرائبي في عهد عمر الثاني ضيَّق الهامش القائم بين تكاليف المسلمين القدماء وتكاليف حديثي العهد بالإسلام؛ فالعدد المتزايد للمهتدين إلى الدين تسبَّب بخسائر خطيرة للخزينة (بيت المال) ليس، فقط، لأنَّ الجزية قلَّت؛ وإنَّما لأنَّ الاعفاءات من الضرائب العقاريّة استتبعت الدخول في الدين، لذلك وحتَّى يستطيع الحجَّاج موازنة ميزانيَّته في العراق فرض الخراج حتَّى على ملاَّكي الأراضي المسلمين واتَّخذ إجراءات تمنع الهجرة الجماعيَّة إلى المدن من قبل الداخلين الجدد في الدين وذلك بقصد أن تحتفظ الزراعة بحاجتها من العاملين فيها: ـ عمر الثاني تمسَّك بمبدأ أنَّ المسلمين غير ملزمين بدفع أيَّة غرامة ودافع أيضاً عن وجهة النظر القائلة أنَّ كلَّ بلد فتح هو ملك مشترك للأمة ولذلك لا يجوز إخضاعه لأيّ شكل من أشكال التجزئة أو التغيير والتحويل بطريق بيوع.. وحرّم الخليفة على المسلمين شراء أراضي خاضعة للضريبة؛ إلاَّ أنَّ التحريم المذكور بالنسبة للبلدان الخاضعة للغرامة لم يحترم طويلا..

عمر الثاني تميز بخُلُقه عمَّن خلفهم وكذلك عمَّن خلفوه فكان النقيض تماماً لعمِّه سليمان الذي خلفه والذي تجاذبته أهواؤه الميَّالة إلى النساء.

في حياته الخاصَّة تميَّز الخليفة الجديد ببساطة لا حدود لها وبتعفّف ونقاء سريرة.. وتقواه العميقة أحيت دائماً في ضميره وفي سلوكه شعوره بالمسؤولية أمام الله ورافق هذا الشعور نهجه في تصريف شؤون الدولة وإدارتها. ـ ومن أجل إخماد الشقاقات والتفرقة الداخليّة أبطل عمر العادة المطبَّقة في [لعن عليٍّ من على منبر الصلاة] وهو موقف أكسبه تعاطف الشيعة معه؛ وعمل جاهدا ايضاً ألاَّ يكون حياديًّا تجاه القيسيِّين والكلبيِّين علماً أنَّه، في بدء خلافته، قام بقمع تمردٍ جادٍّ في الشرق كان حلقة في سلسلة تنافس

القبائل الكبرى العربيّة كما كان أحد مضاعفات وجرائر اضطهاد انصار الحجّاج..

لقد قُهرت تلك الثورة وقائدها، يزيد بن المهلّن، وضع في السجن. كما أنّ غالبيّة أصحاب الحقوق في المراكز الإداريّة الهامّة تمّ استبدالهم برجال اكفّاء وشرفاء.

كانت تُحرك عمرا رغبته في التطبيق الدقيق لمبادىء الاسلام وكان يعامل العلماء والقضاة بما يستحقّونه من الاحترام حتّى أنّه أعطى القضاة نوعاً من الإستقلال متوخيّاً تحسين القضاء.. هذا المتزهدّ الناسك كان شغله الشاغل تقويم الأخطاء وإبطال التجاوز وسوء الإستعمال ومقاومة الإغتصاب والإبتزاز اللامشروع.. والموالي الذين كانوا يقاتلون في صفوف الجيوش العربيّة تمّ منحهم الرواتب وبعض الإعفاءات من الضرائب.. أمّا «الذمّيّون» فقد اعترف أنّهم قد أسيئت معاملتهم وحرص على عدم اثقال كواهلهم بالضرائب والفرائض المفرطة ولكنّ ميله للتطبيق الدقيق للشريعة الإسلاميّة حدا به الى أن يقيّد تطبيق الوضع السابق لمن لهم حقّ الرعاية. وعليه منع بناء كُنس جديدة وكنائس وفرض من جديد الشارات المميّزة بالنسبة لـ.. «أهل الكتاب».

كان عمر الثّاني من انصار «اللاّعنف» ولذلك لم يكن يقيم وزناً كبيراً للانتصارات الحربيّة وذلك دون ان يهمل الجيش الذي بقي الدعامة الأولى للأسرة الأمويّة.. لقد كاد عهده يخلو من الأحداث العسكريّة ومنذ تولّيه الخلافة أمر القوّات التي كانت تحاصر القسطنطينيّة منذ عام، امرها بالعودة الى قواعدها في سورية؛ امّا في الأندلس، فالمعارك التي كانت قائمة استمرّت (وسنعود الى هذا في حينه).

لقد عمل جاهداً على توسيع حدود امبراطوريّته دون حروب وان يكسب تبعيّة الأديان الأخرى وتأييدها للإسلام بالطرق السلميّة، وبالأخصّ، وعد الذين يدخلون دين الاسلام بالإعفاء من

الضرائب.. واذا كانت نجاحات رُسله الى الشرق محدودة وذلك لدى «الصوغديّين» (سمرقند وأوزبكستان حاليا) فقد كان العمل عظيم النتائج في المغرب، في اوساط البربر.

السياسة العامّة لعمر بن عبد العزيز كانت ذات تأثير مزعج على خزينة الدولة (بيت المال) ولكنها نالت رضى وتأييد رعاياه وسمعته في النزاهة والتقوى لم يختلف فيها اثنان.. ما من مؤرّخ وصف هذا الخليفة إلّا وأصاب كبد الحقيقة، لأنّ الجميع، على اختلاف ازمانهم وتآليها، قدّموه مثالاً للحاكم والسيّد المسلم ـ صحيح أنّ سياسته التوفيقيّة جنّبت عهد الكثير من القلاقل ـ وبخاصة من جهة الخوارج ـ إلّا ان قوىً سرّية كانت تعمل في الظلام من اجل اسقاط الأسرة الأمويّة.. ولما مات مسموماً في رجب عام /١٠١/ شباط ٧٢٠/ دفن شمال حلب في «دير سمعان» وخلفه ابن اخيه يزيد بن عبد الملك.

● خلافة يزيد بن عبد الملك

● يزيد الثاني خلف عمرا الثاني في شباط عام /٧٢٠/ وبعد بضعة اشهر، في شهر صفر عام /١٠٢/ آب ٧٢٠/ كان عليه ان يواجه انتفاضة نظمها «يزيد بن المهلّب» حاكم خراسان والعراق والذي لم يكن قد مضى زمن طويل على اطلاق سراحه من السجن ـ وعمر هو الذي اعتقله ـ ؛ ومركز التمرّد كان «واسط» وقمعه اوكل الى «مَسْلَمة» الأخ غير الشقيق للخليفة وقد هزم الثائرون وقتل يزيد بن المهلّب في /١٤ صفر ١٠٢/ ٢٤ آب ٧٢٠.

وحكم يزيد الثاني يتناقض في عدّة نقاط مع حكم سلفه؛ فقد اخذ الإتّجاه المعاكس لاتّجاه الذين سبقوه فانحاز إلى القيسيّين الأمر الذي أثار ضدّه عداء وضغينة الفريق الثاني ـ الكلبيّين ـ وهم السند التقليدي للأسرة الأمويّة. ـ وطريقة حياته كانت تختلف كثيراً عن عمر فقد كان يزيد يحبّ الصيد ويتذوّق الموسيقى وتستهويه حياة

الخلاعة والفجور. ولكن هذا لم يمنعه من أن يبني، في بصرى، بسورية، الجامع المهمّ المسمّى «جامع عمر» واشترى مغنّيتين كان لهما نفوذ كبير في البلاط (سلاّمة.. وبخاصّة حبّابة) والحب الذي حمله الخليفة لهذه الأخيرة كان كبيراً إلى حدّ أنّه، بعد موتها العرضيّ الطارىء، انقطع عن الغذاء ونحل جسمه حتى مات وجداً عليها قبل بلوغه الأربعين - في /٢٤ شعبان ١٠٥/٢٦ كانون الثاني ٧٢٤/ أي ان خلافته دامت أربعة أعوام.

في عهد الخلفاء المباشرين للوليد عرف النشاط على الحدود بعض الهدوء والراحة.. وفي الأندلس كانت مرحلة ترسيخ وجود العرب وادارتهم التي لاقت بعض المعارضة المحلّية؛ وخليفة دمشق هو الذي كان يسمّي الحكّام ولكنّهم كانوا يتمتّعون باستقلال ذاتي واسع.. والمغرب اجمالاً، كان ينزع الى نيل استقلاله عن المشرق، على الصعيدين السياسي والعسكري. إنّ فتح شبه الجزيرة الايبيريّة (اسبانية) كان سريعاً جدًّا كما سبق أن رأينا ولكنّه استمرّ فتحاً سطحيّاً.. والمنافسات بين الفاتحين خلقت عوامل عدم الإستقرار وغذّتها. - البربر اعتبروا انفسهم قد أوذوا وجرحوا في كرامتهم لأنّهم لم يحصلوا على ما كانوا يأملون الحصول عليه في حين أنّ العرب كانوا متمزّقين بفعل الصّراع الدائم بين القيسيّة والكلبيّة؛ وبرغم تلك الحالة تابع المسلمون تقدّمهم في ما وراء سلسلة جبال «البيرينيه» ومنذ عام /٩٩/٧١٧/ حصلت الغارة الأولى على جنوب بلاد «الغال» (الاسم الذي اطلق قديماً على المناطق الواقعة بين الرين والألب والمتوسط والبيرينيه والأطلسي). وقد قاد العمليّة الأمير القيسي «الحرّ الثقفي» ابن أخ موسى وحاكم الأندلس منذ عام. ويقال أنهّ في تلك الحقبة، فكّر البعض بالإلتفاف حول البحر الأبيض المتوسّط والوصول الى القسطنطينيّة من جهة الخلف وفتحها..

في عام /١٠٠/٧١٨/ توقّف الجيش المسلم في «كوفادونغا»

حيث ظهر استوريّ يدعى «بيلايو» فدعا إلى المقاومة وتمّ تنظيمها في كلّ مكان ما عدا الجنوب الذي ظلّ الوضع فيه غامضا..

عام /١٠١/٧١٩/ خلع عمر بن عبد العزيز الأمير الحرّ وعيّن مكانه حاكماً لشبه الجزيرة الأمير «السمح المالك» الذي «غرس» الإسلام في «برشلونة» و «جيرون» واستولى على «ناربون» التي ظلّت قاعدة عمليّاتيّة اسلاميّة مدّة اربعين عاماً.

عام /٧٢١/ مُني السمح أثناء غارة على «تولوز» بهزيمة على يد «أود داكيتان» فتراجع بعد ان قام بنهب «ناربونيز».

● خلافة هشام.

عام /١٠٥/٧٢٤/، هشام، الإبن الرابع لعبد الملك، خلف يزيد الثاني ودامت خلافته قرابة عشرين عاما عرفت الامبراطوريّة خلالها، ما وصفه المستشرق الإيطالي «فرانسيسكو غابرييلّي» بعبارة «آخر حقبة ازدهار وفخامة عرفتها الخلافة الأمويّة». - وحال تولّي هشام الخلافة سمّى «خالد القصري» حاكماً للعراق، وأمّه مسيحيّة، دون أن يمنعه ذلك ان يكون شديد الإخلاص للخلفاء الذين خدم في عهدهم؛ فقد كان، في عهد الوليد، حاكماً لمكّة ثمّ خلعه سليمان وظلّ مبعداً حتى جاء هشام وأسند إليه مهامّ العراق في شوّال عام /١٠٥/ اذار /٧٢٤/ فلم تكن فيه قسوة الحجّاج كما لم ينقصه حزمه ومقدرته ونشاطه.. إنّه واحد من ثلاثة (زياد - الحجّاج - خالد) كانوا افضل وأبرز حكّام عرفهم العهد الأموي - كان تعاونيّاً ممتازاً وخلال خمسة عشر عاماً كرّس نفسه بالدرجة الأولى للتنمية الإقتصادية لإقليمه عن طريق تنشيط الزراعة وتحقيق ازدهارها.. ومساحات واسعة ضُمّت الى الرقعة المزروعة.

في الادارة، عرف كيف يوفّق بين مصالح الدولة ومصالحه الشخصيّة ممّا أتاح له جمع ثروة طائلة أثارت حقداً وحسداً فاتّهم بالثراء غير المشروع؛ كما انّ تساهله تجاه اليهود والمسيحيّين سهّل تقييمه بخلوّه من الإيمان بدينه ولا مبالاته بذلك ونتيجة سعي اعدائه

به لدى هشام وتدخّلهم القوي اضطرّ الخليفة لأن يتخلّى عنه ويخلعه في عام /١٢٠/٧٣٨/ فقضى خالد أكثر من عام في السجن وأطلق سراحه ثمّ أعيد إلى السجن في عهد الوليد الثاني ومات تحت التعذيب في عام /١٢٦/٧٤٣/.

في جمادى الأولى عام /١٢٠/ نيسان - ايار ٧٣٨/ استُبدل خالد بيوسف بن عمر الثقفي الحاكم الجديد، قريب الحجّاج، الذي اتّخذ الحير مقرّاً له واشتهر سريعاً بطغيانه الدموي.. لقد بقي بالإمكان الحفاظ على الأمن الداخلي ووقايته حتى عام /١٢٢/٧٤٠/ حيث نشبت ثورة في الكوفة شارك فيها جمع من معارضي الأمويّين دون أن يجمعهم تنظيم موحّد، وكان على رأس الثائرين زين ابن علي بن علي زين العابدين حفيد الحسين الذي سبق ان ترك الرصافة حيث كان يقيم ايام هشام.. ولقد جاء إلى العراق بضغوط من الشيعة ودارت حرب شوارع قمعتها القوّات الأمويّة بقيادة يوسف بن عمر وقتل فيها زيد بن علي الأمر الذي جعل الحركة تتبلور حول ورثة الشهيد العلوي الجديد.

وجاءت نُذُر الخطر المؤكّدة من التخوم البعيدة للأمبراطوريّة ممّا اضطرّ هشام لأن يمارس سياسة الحفاظ على تراث الأمّة الذي بلغ اقصى امتداده وتوسّعه في عهده وذلك دون أن يتحقّق نموّ ملحوظ في القوى الديمغرافيّة والإقتصاديّة والفكريّة العربيّة؛ وفي ظلّ شروط كهذه لم يتأخّر ظهور العلامات الأولى لتفكّك وانحلال هذا التراث فقامت سياسة هشام علي تأجيل التفجّر والسقوط.. والأبطال الحقيقيّون للأحداث كانوا حكّام الأقاليم القاصية..

● في الشرق، في وراء النهر، مارس «الترك» ضغطاً قويّاً: وبعد عدّة مجابهات نجحت القوّات الأمويّة في صدّهم. - في رجب /١٢٠/حزيران - تموز ٧٣٨/ وضع هشام «نصر بن سيّار» على رأس ادارة خراسان فاستقرّ في «مرو». وفي العام الثاني شنّ نصر هجوماً نحو الشرق باتّجاه «الشاش» (طشقند) بقصد التخلّص من ضغط القبائل التركيّة. وفي طريق هجومه وجّه صدمة قويّة لقوّات

القائد التركي «كورسول» وقتل القائد المذكور، وبعد إبرام اتّفاق مع صاحب الشاش تابع عمليّاته في «فرغانة» وعقد معها معاهدة سلام؛ وقد عرف نصر كيف ينظّم العلاقات بين المسلمين وبين رعاياهم ويتفرّغ، بالاتفاق مع الخليفة طبعاً، لإصلاح هام في النظام الضرائبي، بموجبه، ألزم الملاّكين جميعاً، بمن فيهم المسلمين، بدفع الخراج في حين أنّ الجزية كانت تجبى فقط من غير المسلمين. ـ يوسف بن عمر، حاكم العراق، أمّل إقصاء نصر بن سيّار عن ادارة خراسان لحسابه هو ولكن هشام لم يقبل إبتزاز كهذا وهو يعلم أنّ نصر نجح في نشر السلام والأمن في ذلك الإقليم الذي فيه تفجّرت، بعد حين، ثورة العبّاسيّين. ـ في الشمال، لم يطرأ أيّ تغيير على الحدود البرّية مع بيزنطية المطاولة لسلسلة جبال طوروس.. ومنذ صرف النظر عن حصار القسطنطينيّة عام /٧١٦/٩٨/ اقتصرت العمليات على الغارات والغزوات الموسميّة صيف كلّ عام (الصوائف) وهي عمليّات أصبح من يقوم بدور الحسم والبطولة فيها هو «البطل» التاريخي موضوع الحكايا الملحميّة الشعبيّة. ـ القائد «مسلمة»، بعد غاراته التي قام بها في عمق الأراضي البيزنطيّة واحتلال «قيصريّة» في منطقة «كابادوس». ـ بالأناضول. ـ عام /١٠٨/٧٢٦ ـ ٧٢٧/ تابع عمليّاته الهجوميّة في ارمينية وأذربيجان حيث كان «الخزر» يصعّدون ضغوطهم وبعد أن نجح في بلوغ ما وراء القفقاز وتأسيس «دربند» قرب مصابّ نهر الـ «فولغا» عام /١١٣/٧٣١/ اضطّر أن ينسحب ونجح، بعد صعوبات جمّة في اعادة قوّاته الى الأراضي العربيّة عام /١١٥/٧٣٢/.

في غربي الأمبراطوريّة، في الأندلس والمغرب، دارت الأحداث الأكثر تميّزاً؛ ففي عهد هشام اجتاز المسلمون جبال البيرينيه؛ وفي عام /٧٣٢/ قام الأمير «عبد الرحمن الغافقي» بمهاجمة بلاد «الغال» فعبر البيرينيه من منخفض «ونسيفو» منطلقاً من «بامبيلونا» ودمّر «بوردو» ثمّ مني بهزيمة في «أود» بين «غارون» و

«دوردونيي» وكان هدفه الوصول الى خزائن الكنيسة الرئيسية «سان ـ مارتان ـ دي ـ ثور» ومن اجل وقف تقدّم الأمير استنجد دوق «آكيتان» بـ «شارل مارتيل» حاكم القصر الذي (في رمضان عام /١١٤/ تشرين الأوّل ٧٣٢/) قاتل المسلمين على بعد عشرين كيلو مترا شمال شرق «بواتييه» في مكان اصبح معروفاً لدى المؤرّخين العرب باسم «بلاط الشهداء». وفي المعركة ـ إيّاها ـ نال لقبه «مارتيل» (مطرقة). ـ وفي تلك المـواجهة التي سميّت «معـركة بواتييه» دامت المجابهة اسبوعاً كاملا وفي اليوم الأخير قام الفرسان العرب بهجوم يائس على الفرنجة بتشكيلاتهم المربّعة وكان القائد عبد الرحمن الغافقيّ من بين الشهداء.. وعنـد الفجر فـوجيء الفرنجة انّهم لم يروا سوى مواقع عدوّهم وبعض امتعته:

لقد انسحب العرب خلال الليل سالكين طريق «ناربون»؛ الأمر الذي حوّل معنى المعركة، بالمفهوم العسكري، وجعلها مجـرّد «غزوة» إلّا أنّ العمليّة ـ إيّاها ـ ظلّت ذات قيمة رمزيّة سجّلت ذكرى دائمة لأبعد مكان بلغه العرب إبّان تواجدهم في اوروبة الغربيّة.

بعد أن احتلّ المسلمون «كاركاسون» و «نيم» عام /٧٢٥/ وصلوا الى «آرل» عام /٧٣٥/ وفي العام التالي اجتازوا الـ «رون» ونفذوا الى «بورغوني» التي لم تخضع طويلا لنظام الاحتلال. ـ عام /٧٣٨/ قطع المجتاحـون من جديـد، نهر الـ «رون»؛ وفي عام/٧٥٦/ توضّح خطّ حدود بين المسيحيّين والمسلمين يمرّ في «كوامبرا ـ كوريا ـ تالافيرا ـ طولاد ـ غادا لاجارا ـ طودال، على الايبر ـ وبامبيلون في نافار.».

بدءاً من عام /٧٤٠/ الصراعات العربيّة ـ البربريّة وقفت عائقاً بوجه كلّ عمل توسّعي في العرب.. ووصول قوّات سوريّة مسلّحة زاد الموقف تفاقماً فالبربر تعبوا من الإستثمار الضرائبي من قبل العرب القادمين من المشرق فثاروا عام /٧٤٠/ والحقوا بالعرب هزيمة مشؤومة في موقعة عرفت بإسم «غزوة الأشراف». ـ وأرسل هشام جيشاً آخر بقيادة القيسي «كلثوم بن إياد» الذي هزم بدوره في

ذي الحجّة عام /١٢٣/ تشرين الأوّل ـ الثاني ٧٤١/ على ضفاف «وادي سابو ـ نابدوره» وسادت المغرب حالة الفوضى التي نفخت فيها النزعة القوميّة البربريّة المدعومة بتحالف الخوارج.

أخيراً، وفي ٧٤٢/١٢٤/ خاض جيش ثالث اموي معركة فاصلة في القيروان كسرت فيها شوكة البربر وأوقف زحفهم إلاّ أنّ سلطة الخليفة، منذئذٍ، ظلّت نافذة داخل افريقية فقط؛ وبنتيجة الأحداث الدائرة في المغرب قطعت العلاقات بين الأندلس وسورية منذ عام /٧٣٩/١٢١/ كما أنّ حصّة الخلافة من واردات بيت المال المركزيّة لم تعد تصل الى دمشق ممّا حمل هشام على عدم المبالاة بالمغرب.

بسبب اعتماده على الكلبيّين، اضطر هشام ان يغادر دمشق الخاضعة لسيطرة القيسيّين؛ وأقام في قصر «الحير الغربي». غربي تدمر عام /١٠٩/ ٧٢٨/ وهو القصر الغني بالزخرف (الديكور) ومنه تمثال للخليفة متصدّراً على عرش.. وفي تلك الأثناء امر هشام ببناء قصر آخر على بُعد مئة كيلومترا شمال شرق تدمر اطلق عليه اسم «قصر الحير الشرقي» او «رصافة هشام» وفيه اقام عام /٧٢٩/١١٠/ وعاش خمسة عشر عاماً اغتنم هشام خلالها الهدوء والإزدهار فبنى خارج القصرين المذكورين مقرّ إشتاء في «المنجر» قرب أريحا و«قصر الحلاّبات» وحمّام الصراخس وقصر التوبة» في منطقة البلقاء.

في عهد هشام عرفت البلاد توزيعا أفضل للضرائب وابطالا لبعض امتيازات الأرستقراطيّة وفي عهده ايضاً فضّل الأخذ بنمط الإدارة السّاسانيّة على النمط البيزنطي للتنظيم الإداري ومارس الخليفة، لأوّل مرّة، سياسة تقارب مع المشرق حتى أنّه لبس الـ «تادي» المستوحاة من شكل التاج الساساني عام /٧٢٥/ واستعمل الـ «عصا» (الصولجان) والخاتم شارتين لسلطته.

ومنذ الجهود التي بذلها عبد الملك دعّم الأمويّون سياستهم الخارجيّة بتنظيم نوع من السلطان على البحار. فالقوّات البحريّة

الاسلاميّة اصبحت تتألّف من اربعة اساطيل يقابل كلاً منها اسطول بيزنطي:

مقابل اسطول سورية، اسطول آسية الصغرى.. ومقابل اسطول شمال افريقية نظيره البيزنطي.. واسطول مصر يضرب في عمق البحر وازاءه الأسطول الامبراطوري وأخيراً اسطول صغير في البحر الأحمر للحفاظ على أمن التجارة والحجّ وردع القراصنة.

وأنشيء مركزان مهمّان لبناء السفن في حوض البحر الأبيض المتوسّط من الأمبراطوريّة الأمويّة: - مصر التي كانت تبني السفن بالأخشاب المستوردة من قبرص. - ولبنان الجنوبي حيث كانت تستعمل الأخشاب المحلّية.

السنوات الأخيرة من خلافة هشام تعكّرت بسبب مشاكل من سيخلفه وقد اضطّر الى التنازل وتسمية ابن اخيه الوليد بن يزيد خليفة له وهو شخصيّة مختلفة جداً عن هشام الذي مات بسبب ذبحة صدريّة بعد عشرين عاما من حكم خصب نمت خلاله الحضارة الاسلاميّة.

آخر الأسرة الأمويّة

● **خلافة الوليد بن يزيد:**

بعد موت هشام في ربيع الثاني عام /١٢٥/ شباط /٧٤٣/ بدأت المرحلة الأخيرة للخلافة الأمويّة؛ فالوليد بن يزيد كان في الرابعة والثلاثين من عمره لمّا تولّى الخلافة وكان ذوّاقاً للشّعر والموسيقى والميل الى نوع معيّن من الحرّيّة.. فحالما انتهت مراسم واحتفالات «البيعة؟» قفل راجعاً الى الصحراء حيث يعيش على هواه غير مبال بشؤون الخلافة وأوامر ونواهي القرآن.. وللتغطية استأنف التقليد الذي سار عليه عمّه هشام في البناء؛ فأكمل بناء «قصر التوبة» وبدأ، في «موآب»، بناء قصر «مشاطه» الذي صار زخرفه معروفاً على مستوى عالمي.

ومن أجل تعيين ورثته لم يعتمد الوليد الثاني قانون الإرث الذي،

بموجبه، تنتقل السلطة حسب أسبقية ولادة أعضاء العائلة بل حسب حق أسبقيّة الولادة في أبناء الخليفة نفسه وعليه أعلن أولاد الوليد الثاني ورثة وولاة عهد الأمر الذي جعل أبناء الوليد بن عبد الملك يشعرون بالغبن ويرفضون قبول قرار الوليد الثاني فاغتنموا فرصة غيابه وأجّجوا نار الثورة في دمشق وانضمّ إلى الكلبيين كثيرون من الناقمين بينهم المروانيّون الذين تخلّى عنهم الخليفة وسلبهم حقوقهم في نزواته المتقلّبة. ـ وبمساندة من «جند» فلسطين والأردن تولّى يزيد قيادة المتمرّدين الذين قرّروا مفاجأة الوليد إبّان الصيد فأدركوه وقتلوه في جنوب تدمر في / ٢٨ جمادي الثانية عام ١٢٦ / ٢٧ نيسان ٧٤٤ /

وقد سبق أن أبقي «نصرا» في مركزه في خراسان ثمّ عزم على خلعه ولكن الموت عاجله قبل تنفيذ قصده وبقي أمير خراسان في منصبه.

خلافة يزيد الثالث ـ وإبراهيم

ــ أعلن يزيد الثالث خليفة في رجب عام /١٢٦ / نيسان ٧٤٤ / ودام عهده ستّة شهور فقط ومنذ تولّيه السلطة اوكل إدارة العراق وخراسان الى الكلبيّ «منصور بن جمهور» ولمّا لم يجد يوسف بن عمر سنداً له بين القوّات لاذ بالفرار ولكنّه كشف في منطقة البلقاء شرقيّ الأردن وقادوه الى السجن في دمشق.

أثناء الإضطرابات التي عقبت موت الوليد الثاني، سنحت الفرصة للخوارج فبادروا إلى الهجوم في العراق حيث قام حاكمان متنافسان احدهما تدعمه اليمنيّة والثاني تدعمه المضريّة.. ولكن الخطر المشترك جمع بين الرجلين اللذين هزمهما وقتلهما «الضّحاك بن قيس الشيباني» الذي استولى على الكوفة في رجب عام/١٢٧ /نيسان ـ أيار ٧٤٥ /.

ــ في خراسان أحاطت المصاعب بنصر بن سيّار فتفجّرت الإضطرابات لدى تكييف نظام دفع الرواتب وتمّ توقيف من كان على رأس الحركة (جُديّ بن علي الكرماني) في رمضان عام /١٢٦ / منتصف تموز ٧٤٤/ ولأنّ «نصر» كان يواجه ثورة ضد الأمويّين بقيادة «الحارث بن شُريح» فقد اضطُر لاسترضاء سجينه ونشبت حرب

مفتوحة ونجح الثائر في كسب الكرماني الى صفه عام/١٢٨ /٧٤٦/ وعندئذ اضطرّ نصر لأن يخلي «مرو» لاجئاً الى «نيسابور» وهناك مات بعد عامين من عمر ناهز الخامسة والثمانين. ـ وفي ذي الحجة عام/١٢٦/ ايلول ٧٤٤/ مات يزيد الثالث؛ ويقول المؤرخ «اليعقوبي» (القرنين الثالث والرابع) أن يزيداً المذكور مات مسموماً على يد اخيه «إبراهيم» الذي كان، آنئذٍ، أميراً للأردنّ. وبعد تعيينه بثلاثة أيّام (٢٠ جمادي الثانية ٩/١٢٦ نيسان ٧٤٤/ عيّنه يزيد الثالث وليًّا للعهد فاشتعلت حرب أهليّة حقيقيّة في سورية حيث كان شبه إجماع على رفض خلافة ابراهيم (بايعته سورية الشمالية فقط). ـ مروان بن محمد، بعد أن أبرم اتفاقاً مع يزيد دخل سورية من أجل خلع الخليفة الجديد وحماية حقّ ولدي الوليد الثاني فاستولى مروان ـ أولاً ـ على أخوة إبراهيم وترك حمص تحت الحصار متوجّهاً نحو دمشق عن طريق البقاع المألوفة فأرسل إبراهيم، لقتاله، قوّات كلبيّة بقيادة سليمان بن هشام، ونشبت المعركة في السابع من صفر عام /١٨/١٢٧ تشرين الثاني ٧٤٤/ في موقع «عين الجرّ» على السفح الغربي للسّلسلة الشرقية من لبنان.. فهُزم سليمان وتراجع نحو دمشق وعندئذٍ قُتل، في دمشق، كلّ من يوسف بن عمر والولدين الاسيرين للوليد الثاني.. وأعلن مروان ترشيحه للخلافة بعد تهيئة الدمشقيّين للإعتراف به.

● **خلافة مروان بن محمد**

في /٢٦ صفر عام ١٢٧/ ٧ كانون الأوّل ٧٤٤/ دخل مروان الثاني عاصمة الخلافة الأمويّة لتلقيّ مبايعة السكّان؛ وتقول بعض الروايات أنّ ابراهيم أقرّ خلافة مروان؛ بينما يقول آخرون أنّ إبراهيم وسليمان بن هشام هربا الى تدمر مركز القوّة الكبير للكلبيّين ثمّ اتّفق مع الخليفة الجديد الذي ـ بعد أن أعاد النظام الى نصابه ـ أقام في «حرّان» حيث يتمتّع بدعم القبائل القيسيّة (من ديار مضر). وواجه مروان صعوبات جادّة سبّبها له سليمان بن هشام الذي نادى به البعض «أميراً للمؤمنين».

أخيراً، وحتّى يتفادى مروان كلّ ثورة في سورية هدم أسوار مدن حمص وبعلبك ودمشق والقدس. - في عام /١٢٨/٧٤٦/ استتبّ النظام في سورية وامتلكت يدا الخليفة زمام الأمور. . واستيقظت الأزمة الماليّة التي استطاع هشام إرجاءها فقد بُدّدت اموال بيت المال بسرعة وانحلّ الجهاز المالي والاداري جرّاء حالة دائمة من التمرّد في الأقاليم حيث عمّت الفوضى الأقاليم الشرقيّة، وقامت في كلّ مكان حركات ضدّ الأمويّين وبإسم السنّة. . وعمّت الدعوة للعودة الى تعاليم القرآن والسنّة. . وكثيرون من المعارضين الواقعين تحت تأثير افكار الخوارج تجدّدت آمالهم بالعودة الى المساواة بين جميع المسلمين دون تمييز. وتردّد على الألسنة القول أنّ الأمويّين تركوا الإسلام الحقيقي ولن يعيد الأمور الى نقائها إلاّ واحد من آل البيت (اقارب النبي).

في العراق كان الحاكم عبد الله احد أولاد عمر بن عبد العزيز الذي لم يقرّ مروان على مطامحه ونواياه. ومن جهة أخرى، في محرّم عام /١٢٧/ تشرين الأوّل ٧٤٤/ قامت ثورة في الكوفة بزعامة عبد الله بن معاوية حفيد جعفر اخ عليّ فهزمه مروان وفرّ الى خراسان حيث قتل على يد أبي مسلم بعد ثلاثة اعوام. وبقي العراق خاضعاً لسلطة الأمويّين بفضل «يزيد بن عمر بن هبيرة». - والنجاح الذي احرزه مروان يعود الى ما حقّقه اصلاح لنظام الجيش وهو الذي اصبح خبيراً بالشؤون العسكريّة نتيجة تولّيه امارة ارمينية وأذربيجان: - لقد أعاد تنظيم الجيش بشكل يمكّنه من مواجهة أيّ تمرّد لا يشكّل جبهة دائمة في ميدان المعركة: - انشأ من المتطوّعة المرتزقة ظهيراً للوحدات النظاميّة للقوّات المسلّحة ويقود المتطوّعة المذكورين ضبّاط محترفون يتمتّعون بمحبّة واخلاص ووفاء عناصرهم وغيّر النمط القديم لتشكيل القوّات في المعركة حيث جزّأ الوحدات الكبرى الى فصائل صغيرة أقدر على الحركة وأكثر مرونة.

● **معارضة الأمويّين في الأقاليم الشرقيّة**

ظهرت معارضة الأمويّين قبل عهد مروان الثاني، ولكنّها كانت معارضات فرديّة حتّى أنّه، في أوج سلطة بني أميّة، أعلن حاكم خراسان «عبد الله بن خازم» الذي ساهم في الحملة الأولى عام /٦٥١/٣١/ أعلن نوعاً من الاستقلال لدى موت يزيد الأول عام /٦٥/ ٦٨٥/ وحكم زمناً بإسم خصم الخليفة ابن الزّبير؛ وفي عام /٦٩٢/٧٣/ شعر أنّه من القوّة بحيث يستطيع شقّ عصا الطاعة للخليفة عبد الملك ويغتصب منه حقّ صك النقود الذهبيّة.. ثمّ غُلب عام /٦٩٢/ على يد «بُكير بن وشاح» الذي قبل ان يصبح ممثّل الخليفة في خراسان.

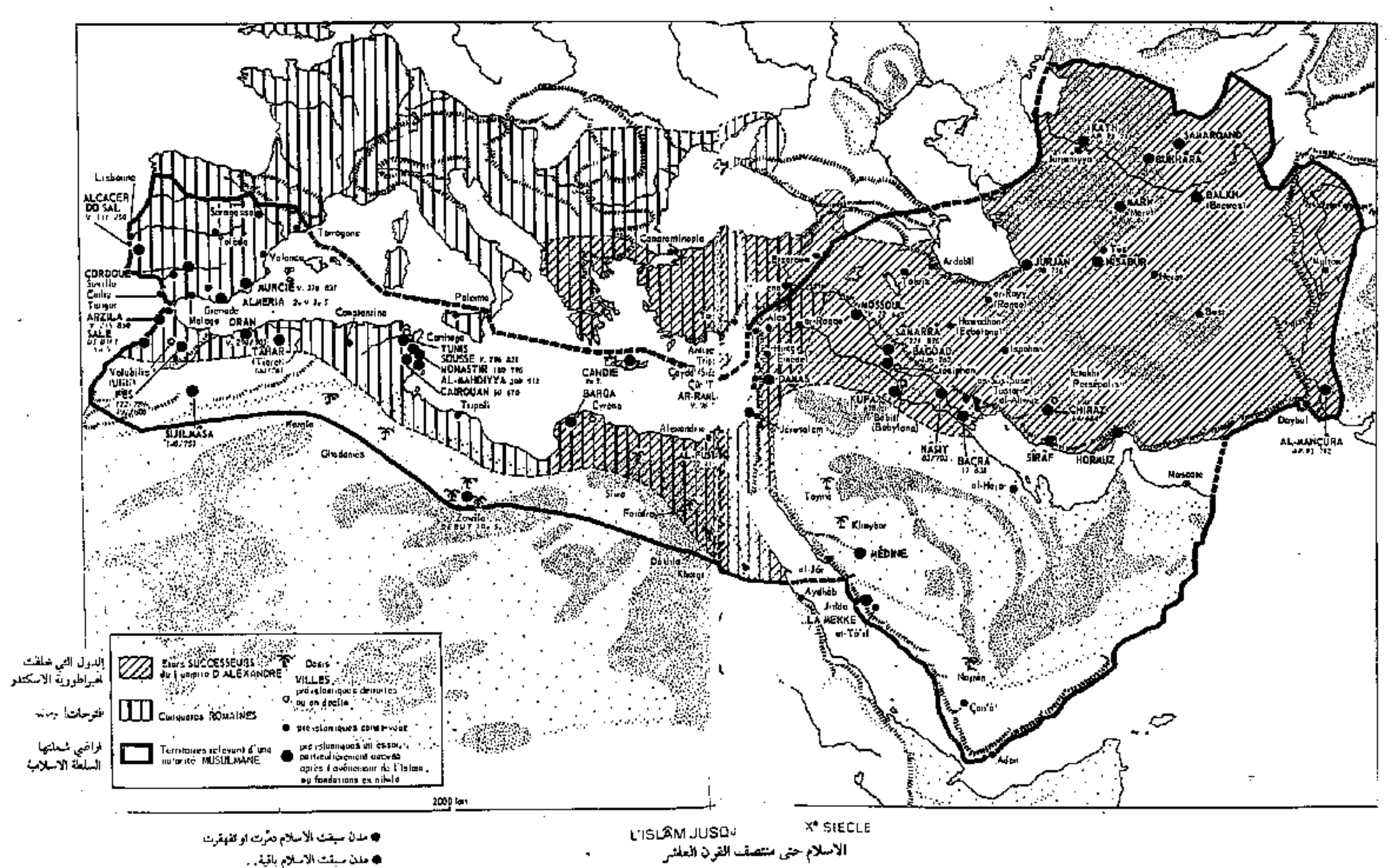
عام /٦٩٩/٨٠/ ثار قائد القوّات العربية في المشرق وتوجّه نحو سورية ولكنّه هزم من قبل قوّات الخليفة؛ وحدث أيضاً، عام /٧١٥/٩٦/، بعد موت الوليد، ثورة قادها قتيبة بن مسلم، فاتح آسية الوسطى، ولكنّ قتيبة قتل على يد جنوده الذين ثاروا عليه بتحريض من سليمان الخليفة الأموي الجديد.

إلى جانب الحركات الثوريّة للشخصيّات العربيّة الكبيرة حصلت اضطرابات مختلفة نجمت عن استياء شعبي عام. والحركات المضادّة للأمويّين، في اواخر القرن السّابع، ومطلع القرن الثامن، ظهرت وعلى أكثرها طابع الخوارج وشعار «لا خلافة خارج إرادة الله وإرادة الشعب» فأعطت إمكانات اللقاء والتكتّل إلى أناس اختلفت مشاربهم واتجاهاتهم.. والحركتان الرّئيستان العربّيتان بالأصل (الخوارج والشيعة) كانتا وراء كلّ معارضة ظهرت في الأقاليم الشّرقية للأمبراطورية الأمويّة. فالخوارج الذين ظلّ عددهم ينمو ويزداد، في العراق، منذ «صفّين»، كانوا يدّعون أن الخلافة الأمويّة نقضت مبادىء الإسلام الأصليّة.. ورجعت - عن سابق تصوّر وتصميم، الى نظم الحكم السابقة للإسلام.. وفي نظرهم، يجب ان تقوم الخلافة على اساس مطلق من المساواة بالنسبة للجماعة

كلها وليس ان تظلّ حكراً لعائلة او أسرة والخوارج، في هذا، يختلفون ايضاً مع شيعة عليّ: - ويقوم النهج الخارجي على مبدئين اثنين رئيسين: - اوّلهما تساوي الأعراق والأجناس امام الإيمان فالخلافة يمكن ان يتولاّها زنجيّ (كان عبداً في الأصل) اذا ثبت كونه مؤهّلاً لذلك. - وثانيهما الإعفاء من الخراج والجزية لجميع الداخلين الجدد في الدين دون أن ننسى أن الأراضي جميعها يجب ان تكون ملكاً مشتركاً للمسلمين، للأمة، والدخول هنا، في التفاصيل يجعل محتملا دخول دائرة تأثير «المزدكيّة».

عام /٦٩٣/٧٤/ نمت في بلاد ما بين النهرين حركة كبرى مهّدت حتى لتوزيع الموارد بين المؤمنين جميعا. وانحاز الى الحركة المذكورة الجناح الشرقي كلّه من بلاد الخلافة ممّا اضطرّ الأمويّين الى تعيين الطاغية الحجّاج بن يوسف حاكماً للعراق وهو الذي بنى «واسط»؛ وأشهر أخصامه كان «عبد الرحمن بن الأشعث»؛ وبنتيجة ملاحقة السلطات الخليفية للخوارج بحثوا عن ملاجىء لهم في ايران وأقاليم فارس، وخوزستان، وكرمان، وسجستان وفي تلك الأقاليم لقوا تأييداً من عدد كبير من الفلاّحين والحرفيّين الذين أغرتهم مبادىء المساواة «الليبراليّة» والحركة إيّاها انقسمت على ذاتها الى مذاهب مختلفة يجمع بينها كلّها تقريباً قاسم مشترك هو الفوضويّة والعدوانيّة وسنشهد، في المستقبل، ميلاد حركات اخرى تأثّرت بتخمرات مبادىء المساواة هذه.

أخطر الحركات كانت الإنفصالية التي ارهقت الخلافة وأضعفتها حتّى عجزت عن مواجهة البيزنطيّين وخضعت لتنازلات خطيرة لهم؛ في مطلع القرن الثامن لجأ العلويّون، اخصام الأمويّين الى الجبال الحراجيّة جنوب بحر قزوين في بلاد «الديلم» حيث عجز الحاكم الأموي عن إخضاعهم بعد محاولات فاشلة منه اختار، بعدها، طريق التسويات.



الدول التي خلفت امبراطورية الاسكندر

فتوحات رومية

اراضي شملتها السلطة الاسلامية

L'ISLÂM JUSQU'AU X^e SIÈCLE

الاسلام حتى منتصف القرن العاشر

● مدن سبقت الاسلام دمّرت او تقهقرت

● مدن سبقت الاسلام باقية.

● مدن سبقت الاسلام وحققت ازدهاراً جليا في الاسلام

عمر بن عبد العزيز /٧١٧ ـ ٧٢٠/ حاول اعادة الهدوء الى الشرق عن طريق تخفيف الضرائب وصرف النظر عن ملاحقة المعارضين (الخوارج بخاصّة) ولكنّ محاولته جاءت متأخّرة لانقاذ موقف الأمويّين.

من بين أوساط ومراكز التوتّر والنقمة لا بدّ من ذكر آسية الوسطى، وسغديان، وبخاري، وسمرقند، (أفرازياب) التي وصل اليها العرب عام /٧٠٩/٩٢/ و/٧١٠/٩٣/؛ إنّ تمادي الحكّام الأمويّين في الاحكام الى السيف والسوط خلق انعكاساً هو التيار المعادي للعرب في ما وراء النهر، وان كان النظام قد اعيد الى نصابه هناك. وفي نفس فترة تأجّج الثورة في آسية الوسطى تحرّك الخوارج في خراسان بزعامة «الحارث بن سُريج» الذي رفع ضدّ الأمويّين «الراية السوداء» بإسم القرآن والنبي والشريعة.. وتبعه في ذلك بعض الوحدات العسكرية العربيّة والسكان المحلّيون ثمّ انضمّ اليهم الدهاقنة وكُلّف «نصر بن سيّار» الحاكم الأموي لخراسان، والإداري الموهوب، كلّف بقمع الفتنة ومجابهة الحارث فارتكب نصر بعض الأخطاء «الدبلوماسية» وخسر دعم القوّات اليمنيّة في خراسان الأمر الذي ساعد، بعد حين، على جعل انتصار «ابي مسلم» ممكنا.

بؤرة أخرى للتحرّك الهدّام تميّزت أنّها ضدّ العرب ووجدت جنوب بحر قزوين، في الديلم، وهو اقليم جبليّ كان على مرّ العصور، موئلاً للخارجين على أيّ نظام او سلطة.

إبّان الإضطرابات التي عقبت موت الوليد الثاني اخذت اضطرابات الخوارج التي ادارها الضّحاك بن قيس الشيباني والتي ضمّت آلاف من الرجال، أخذت احجاماً مهمّة بفعل المنافسات اليمنيّة والمضرية. علماً ان الخطر المشترك الآتي من جانب «الهراطقة» وحّد موقف الخصمين المذكورين دون ان يتمكّنا من ردّ الضّحاك الذي استولى على الكوفة في رجب عام /١٢٧/ نيسان ـ ايار ٧٤٥/ ومنذئذٍ صارت المدينة الكبيرة خارج السلطة الأمويّة وعاد

الضّحاك الى الجزيرة بعد نجاحه ذاك ودخل «الموصل» بدعوة من سكّانها ثمّ تغلغل في مناطق سورية الشماليّة وكانت حمص قد استسلمت بعد ان اعلن سكّانها سليمان اميراً للمؤمنين فتفرّغ مروان للضّحاك وتوجّه لملاقاته وحصلت المعركة بين «رأس العين» و «كفرطوطة»، عند منابع الخابور، وذلك اواخر عام ١٢٨/ آب - ايلول ٧٤٦/ وهناك قتل الضّحاك.

انتفاضات الشيعة كانت لها طبيعة مختلفة جدّاً لأنّها ليست من اجل مطالب اجتماعية بل منطلقها ادّعاء شرعيّة السلطة التي، بنظرهم، لا يمكن ان تخرج من يد واحد من ذرّية عليّ.. فالحركة العلويّة، اذن، ليست بالأصل، حركة دينية، بل سياسيّة.. وعلينا ان لا ننسى ان الحركة، اياها، نمت في العراق الأسفل حيث الأراضي التي حصل عليها عليّ اقطاعاً إبّان الفتح. والكوفة التي بنيت عام /٦٣٨/١٧/ من قبل سعد بن ابي وقّاص، صارت عاصمة الخليفة الرابع.. ولنتذكّر، ايضاً أنّه، لدى موت معاوية، عام /٦٨٠/٦١/ تفجّرت ثورة علويّة في الكوفة بقيادة مسلم بن عقيل وانتهت بمذبحة الحسين، الإبن الثاني لعليّ وأنصاره في كربلاء. - عام /٦٨٦/٦٦/ قامت ثورة جديدة في العراق وفي خوزستان المجاور بقيادة المغامر الشيعي «مختار بن ابي عُبيد» الذي وضع نفسه موضع المؤسّس لسلطة «محمّد بن الحنفيّة» ابن عليّ الذي سلك الطريق المعاكسة لنهج «الاشراف» متحيّزاً للتيّار الذي جمع الموالي (المعتزلة) واستولى مختار ليس على الكوفة فحسب بل على بلاد ما بين النهرين والمناطق المجاورة لها.. تلك ثورة جمعت اناساً من كلّ الطبقات المدنيّة والريفيّة وقد قمعت عام /٦٨٧/٦٧/ من قبل مصعب بن الزبير الذي ظلّ حاكماً للبصرة وأدخل في جيشه العديد من «الأشراف» وقتل مختاراً إلا أن الذي انتصر عليه كان ضد الأمويّين فقتل بدوره على يد الحجّاج عام /٦٩١/٧٢/.

عام /٧٠١/٨٢/ تفجّرت انتفاضة جديدة في البصرة والكوفة

فاجتاحهما الحجاج (الذي حكم العراق من عام /٧٥/ ٦٩٤ الى /٩٥/٧١٤) اجتاحهما الى عام كامل رغم شراسته وطغيانه، حتى اعاد النظام الى نصابه. ـ بعد موت عمر الثاني ابن عبد العزيز، اي بعد عام /٧٢٠/ اتسعت وقويت الدعوة المضادة للأمويّين وازدادت المعارضة قوّة، وأصبحت القوّات الأمويّة في العراق معزولة في «واسط» التي بناها الحجّاج بين البصرة والكوفة. ـ وكانت العاصفة على وشك الهبوب في الشرق؛ وفي كلّ مكان صار السكّان يظهرون نقمتهم على الأمويّين. وعلى رأس هذا التحرك كان علويّون، وعبّاسيون ظهروا ـ بدورهم ـ مدافعين عن «مصالح وحقوق» ذرّيّة «العبّاس» عمّ النبي فصّوروا الأمويّين غاصبين جرّدوا آل النبي من حقوقهم في السلطة، وكان العراق كثير التقلّب والمغرب كان بعيداً جدّاً. وبقيت خراسان حيث العرب اقلّ عددا والعصابات المسلّحة فيها، المنتقاة عادة من بين البدو، كانت دائماً مهيّأة، مستعدّة، لأن تقاتل مع من يدفع لها، اكثر. اذن، في خراسان، وفي ما وراء النهر، وجدت الدعوة ضد الأمويّين الآذان الصاغية وهناك عمل العبّاسيون على كسب القبائل إلى صفّهم وفي البداية، وبشكل اجمالي، بقي الموالي مخلصين لـ «رعاتهم» الأمويّين وأوّل مولى ربحته الدعوة ضد الأمويّين كان «ابو مسلم». ـ نصر بن سيّار » شرح الموقف للخليفة وطلب منه مدداً عسكريّا ولكنّ مروان لم يستجب. ـ ان قائد الحركة «ابو مسلم» كان ايرانياً موهوبا، وهو عبد سابق، همّه تحقيق الاستقلال السياسي وتحسين شروط حياة العاملين، فقبلت العامّة سلطته ولكنّ الدهاقنة، ملاّكي الأراضي، كانوا يخشون جانبه.

تفجّرت الثورة في رمضان عام /١٢٩/ حزيران /٧٤٧/ وذلك في واحة «مرو»، بناء على دعوة «ابو مسلم» وتمّ فتح خراسان وفارس بسرعة كما احتُلّ العراق عام ١٣١/٧٤٨ ـ /٧٤٩/.. لقد هزمت قوّات الخليفة الأموي على يد انصار العبّاسيّين الذين تمرّسوا

على الحرب والقتال في معاركهم ضد الأتراك والذين أحسن ابو مسلم تنظيمهم في وحدات. . وتمّ الاستيلاء على الكوفة وفي ١٢/ ربيع الثاني عام ٢٨/١٣٢ تشرين الثاني ٧٤٩/ اعلن «ابو العباس» خليفة ودخل جيش الثائرين في مناوشات مع القوّات الأمويّة على «الزاب الكبير» رافد دجلة، في جمادي الثانية عام/ ١٣٢/ كانون الثاني ٧٥٠/ وتعرّض جيش مروان الثاني الى نقص كبير في التجهيزات والوسائل فمني بهزيمة ثقيلة واستطاع الخليفة، مع شرذمة من حرسه الأوفياء، الوصول الى الأراضي السوريّة حيث حالت الضغائن السائدة ضدّه. حالت بينه وبين الانسحاب الى فلسطين. وحاول مروان حشد بعض القوّات ولكن المحاولة نفسها عجّلت باشتعال نيران الثورة فهرب مروان الى مكان قصيّ في مصر مع محاولات اعتراض للقوّات الخرسانيّة التي كانت تلاحقه. . وحتّى في مصر، موقف الأقباط والعرب المحلّيين أجبر مروان أن يجلو عن الجيزة جنوباً وأثناء محاولة متابعة السير نحو المغرب، عن طريق مصر العليا، القي عليه القبض في «بوصير» وقتل وصلب في «جيبة» في ٢٧ ذي القعدة ٧/١٣٢ تموز ٧٥٠/ .

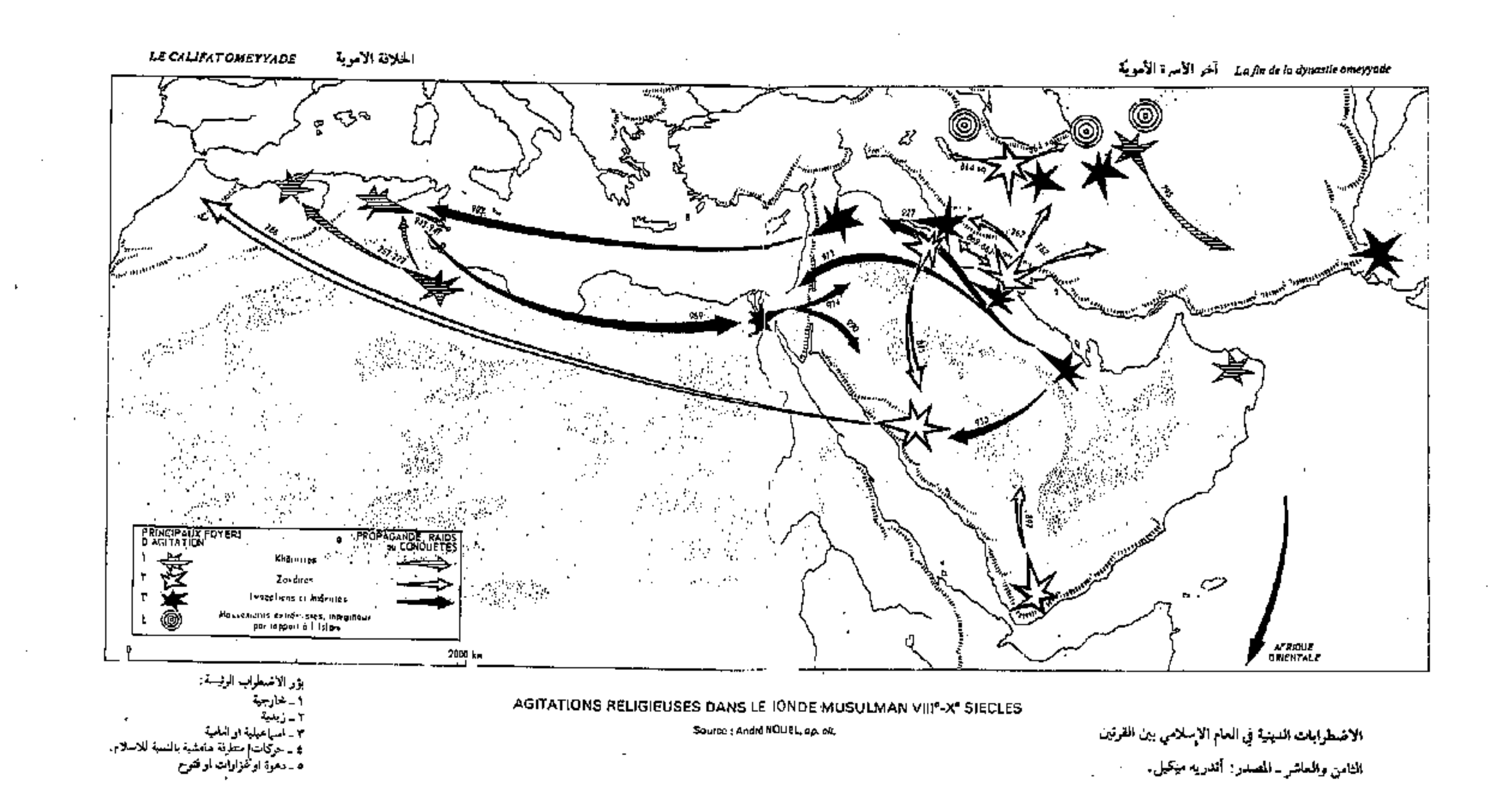
أثناء وليمة أُعدّت على ضفاف نهر «أبي فترس» نظّم العبّاس مذبحة قتل فيها ثمانين من الأمويّين وقادتهم، وبذلك قضى على أيّة امكانيّة إرتكاس جادّة سوى المحاولة التي جرت لصالح «ابو محمد السفياني» في سورية وفي المدينة ولكن المحاولة فشلت. . أحد أفراد العائلة، «عبد الرحمن بن معاوية، بن هشام» نجح في الهرب والوصول الى الأندلس حيث استطاع تكوين أرومة لأسرة أمويّة كما سيأتي الكلام عن ذلك في حينه.

صحيح ان الأمويّين ارتكبوا أخطاء وضلالات وانغمسوا في الصراعات ولعبوا على حبال التنافس القبلي القيسي - الكلبيّ معتمدين هؤلاء تارة وأولئك تارة أخرى؛ وجعلوا الإمتيازات حكراً عل العرب دون غيرهم من موالي العراق الفرس ومن «الزطّ»، ولكنّ

ما لا بدّ من الإعتراف به هو أنّ الأمويّين استحقّوا شرف تنظيم أوّل دولة عربيّة مسلمة.

خلال العصر الأموي، تطوّرت الخلافة، وجانبت البُنى الديمقراطية للمجتمع الإسلامي الأصلي وأخذت بمبدأ الخلافة الوراثيّة فتحوّلت الخلافة الى ملكيّة مستبدّة طاغية (اوتوقراطيّة) حتى أنّ الحديث عن المملكة الأمويّة طغى على أي تعبير او وصف آخر، ورغم كلّ ذلك ظلّ للدين مكانه الأسمى، وأصبح لزاماً الأخذ بعين الإعتبار للتغيّرات الإجتماعيّة التي حصلت في العهد الأموي والتي بلغت البُنى الإقطاعية لدى مختلف شعوب الامبراطوريّة. . فالارستقراطيّة العربيّة ذات العصبيات الضيّقة العشائريّة والقبليّة والقائمة على الإسترقاق تحوّلت، في البلدان المفتوحة، إلى طبقة من الإقطاعيّين لا حدود لسلطتها وقوّتها في إطار الخلافة. . كما أن العهد الأموي يمكن اعتباره عهد التغيير للمجتمع المتعدّد القوميّات في البلدان العربيّة خلال القرن الوسيط. . ففي الأمبراطوريّة الأمويّة، ومنذ القرن الثاني /الثامن/ لم يبق العرب العنصر الوحيد الناشط في الدولة بسبب النموّ الهائل لعدد الداخلين في الإسلام من غير العرب (الموالي) ومن كلّ جنس. . وخلال التوسّع الإسلامي استفادت الحضارة الجديدة من تجارب سواها في بناء الأجهزة والنظم الإداريّة، والبناء الهيكلي الحكومي الخ. . مقتبسة ـ بشكل خاصّ ـ تلك الأنماط التي توصّلت اليها كلّ من الأمبراطوريّتين السابقتين، الساسانيّة والبيزنطيّة؛ ولنذكر، بالدرجة الأولى، للعهد الأموي، جعل اللغة العربيّة عامل الإرتباط الأوّل بين بلدان وأقاليم امبراطوريّة واسعة الأرجاء. . لغة النصوص القرآنية والشعر والأدب العربيّين. . اللغة التي وُضع نظام قواعدها في الكوفة والبصرة.

في المجال الديني، أصبح الإهتمام الجوهري ينصبّ على تمحيص، وجمع «الحديث» المهدّد بالتشعّب والإختلاف نتيجة



بؤر الاضطراب الرئيسة:
١ ـ خارجية
٢ ـ زيدية
٣ ـ اسماعيلية او امامية
٤ ـ حركات متطرفة هامشية بالنسبة للاسلام.
٥ ـ دعوة او غزاوات او فتوح

AGITATIONS RELIGIEUSES DANS LE MONDE MUSULMAN VIIIe-Xe SIECLES

Source : André MIQUEL, op. cit.

الاضطرابات الدينية في العالم الإسلامي بين القرنين الثامن والعاشر ـ المصدر: أندريه ميكيل.

الترجمة.. وكذلك تفسير القرآن والخوض في اللاهوتيّات وهذه أمور رقت الى درجة نضجها في القرن الثالث /التاسع/

في المجال الأدبي، ثلاثة أسماء احتلّت الصّدارة في ميدان الشعر في العهد الأموي: - الأخطل وجرير والفرزدق وما زال تراثهم متميّزاً، موضع التقدير والإعجاب، حتى يومنا هذا.

في الميدان الإقتصادي، تجب الإشارة إلى تحسين أنظمة وشبكات الريّ والتجديد في الزراعة وتنمية الحرف وازدهار التجارة الدوليّة وفي نطاق الامبراطوريّة.

بالصدد العسكري، قمّة التحديث كانت نشوء قوّة بحريّة حربيّة عربيّة كبرى في البحر الأبيض المتوسّط ويأتي، بعدها، تطوير الجيش.. فإلى جانب القوّات القبليّة ظهرت الوحدات الدائمة ذات الملاك الدائم المؤهّل من الضّباط.. وأخيراً، خلق وحدات صغيرة سيّارة أحدث وجودها تغييراً في النظام التعبوي.

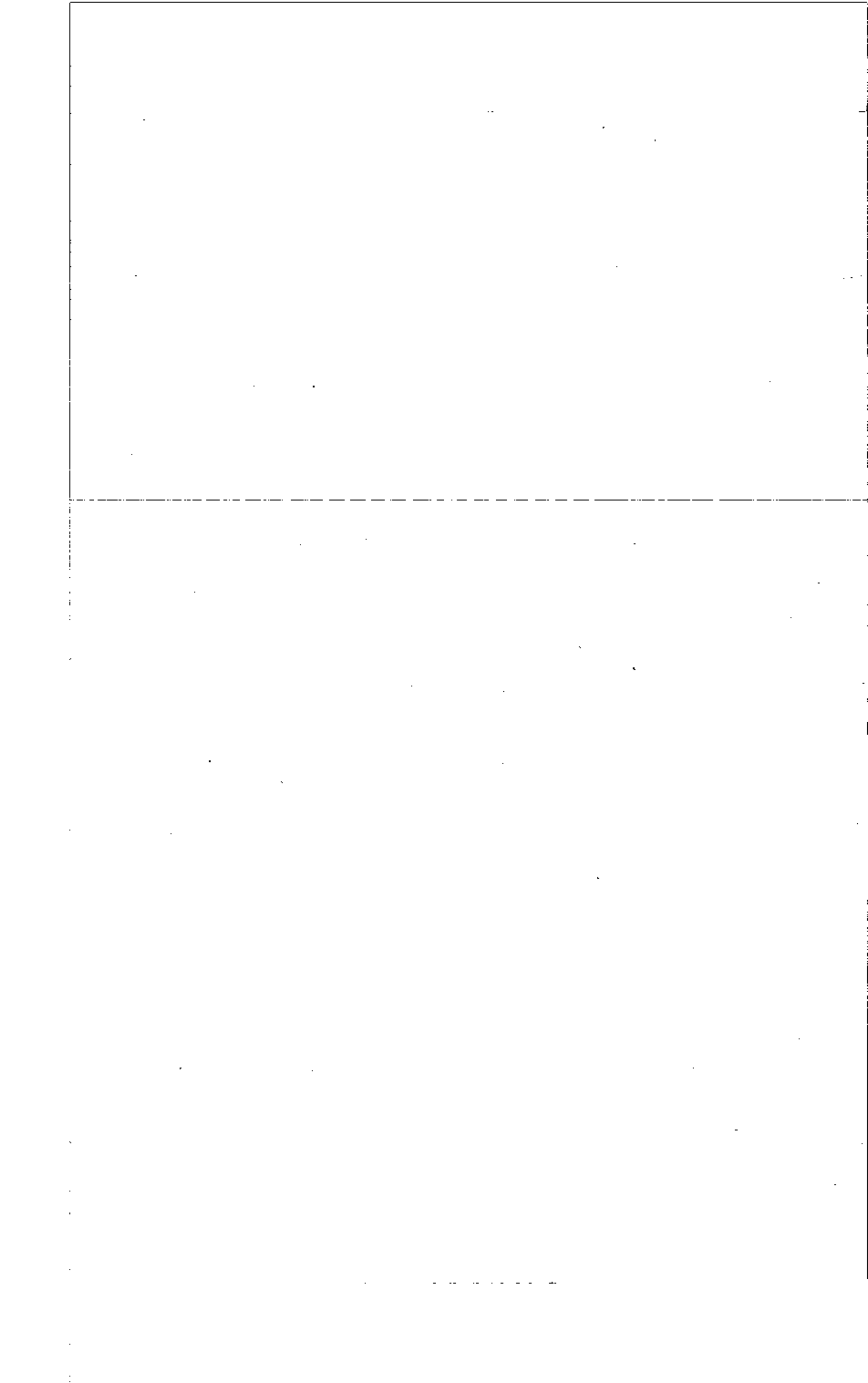
وللأمويين الفضل في روائع البناء المدهشة مثل (قبّة الصخرة - الجامع الكبير بدمشق - قصور الصحراء السّورية التي ما زالت مثار إعجاب الزائرين حتّى أيّامنا هذه) - صحيح أنّ هناك من وجّه إلى الخلفاء البُناة تهم تبديد الأموال العامّة وتكليف بيوت المال الإقليميّة مبالغ كان المقدّر لها أن تصرف داخل الأقاليم.. ذلك كان صحيحا.. والصحيح أيضاً هو أنّهم بنوا روائع خالدة بتلك الأموال.

بظهور معاوية بدأ عصر جديد امتدّ تسعين عاما بنى الأمويّون خلاله امبراطوريّة لم تقتصر على تغطية قطاع كبير من آسية بل غطّت، أيضاً، القسم الأهمّ من افريقية، ونفذت الى اوروبة.. لقد مارسوا هيمنتهم على عدد كبير من الأمم والشعوب وبزوال تلك الهيمنة تفككت الأمبراطوريّة.

الأمويّون ابتعدوا عن مبادىء الإسلام ولكن سقوطهم كان، في الأصل، نتيجة رجعة شعبيّة تريد عودة الإسلام البدائي.

بعد غياب اخر خليفة أموي عمّت الفوضى والمنافسات بين الأمراء وعمّت اضطرابات الخوارج فكانت هي السائدة في اقاليم الأمبراطوريّة الشرقيّة؛ باديء ذي بدء عمل العبّاسيّون والعلويّون متعاونين لإزالة ركائز الحضور الأموي في العراق وسورية وخراسان وما وراء النهر وقد تحمّل العلويّون اعباء العمل كلّها والمستفيدون كانوا العبّاسيّين بفضل «ابو مسلم».





الفصل الخامس

الأمبراطوريّة العبّاسيّة

● ظهور العبّاسيّين

في ظلّ أيّة شروط وصلت الأسرة العبّاسيّة إلى السلطة؟ ـ عام /١٢٩/٧٤٧/ تفجّرت ثورة في خراسان دون أن يظهر عليها ما يميّزها عن سواها؛ مع ذلك، وخلال سنوات ثلاث، زالت الأسرة الأمويّة غارقة في دمها. ـ وفي عام /١٣٢/٧٥٠/ قامت اسرة جديدة يرتبط نسبها بالعبّاس، عمّ النبي، وصارت هي المسيطرة على الخلافة.. ولا تقتصر المسألة على استبدال أسرة بسواها في قمّة حكم المجتمع الإسلامي؛ بل كانت المسألة أبعد مرمى وأكثر خطورة: ـ لم تكن ثورة فقط بل كانت عمليّة بتر وقطيعة.

الأمويّون بنوا دولة متوسّطيّة (نسبة إلى البحر الأبيض المتوسّط) مطبوعة بالتأثيرات اليونانيّة وأقرب إلى العالم البيزنطي وحضارته منها إلى ساميّي شبه الجزيرة العربيّة. والجناح الغربي من امبراطوريّتهم أصبح على وشك الزوال والتلاشي على يد سلطة جديدة ظهرت في المشرق واعتمدت الإيرانيّين بادىء ذي بدء لتخضع، في المستقبل، إلى نفوذ الأتراك، وعلى عكس الأمبراطوريّة الأمويّة التي كانت تتجّه نحو البحر، فالامبراطوريّة العبّاسيّة اتجهت نحو مطلع الشمس؛ والأسباب الأصليّة لثورة عام /١٢٩/٧٤٧/ التي مهّدت الفرص للعبّاسيّين، عام /١٣٢/٧٥٠/ للوصول إلى السلطة، لم تكن محصورة، فقط، في مشاعر

الجماعات الشعبيّة.. وإنّما شملت مشاعر الارستقراطيّة والقادة العسكريّين، وكبار ملّاكي الأراضي، الذين قدّموا دعمهم للحركة.. فالوضع العام أصبح بالغ السّوء من جرّاء حروب الاستنزاف ضد بيزنطية. ومن الوجهة العمليّة وُلدت الحركة في نفس اليوم الذي فيه بسطت الجيوش الإسلاميّة سلطانها على العراق في القرن السابع.

المعارضة ضد الأمويّين تبلورت حول قطبين: - من جانب روح البغضاء والثأر ضد العرب، ومطلب مساواة المسلمين أمام الإيمان مع حاجة الى اصلاحات إجتماعيّة واقتصاديّة.. والواقفون في هذا الجانب قريبون من الخوارج. - ومن جانب آخر، التمسّك بأسرة علي، تمسّكاً ذا خلقيّة سياسيّة ولا شك، بالإضافة الى انعكاسات وتأثيرات المصير المأساوي الذي لاقته الأسرة المذكورة والذي يفوق، تاريخيّاً، مصير أسرة «آترية» اليونانيّة (الميثولوجيا اليونانيّة - المصير المأساوي للآتريّين وأبرزهم آغاممنون ومينيلاس). - الإسلام الأصليّ الذي لم يكتمل بعد وضع صياغاته وقواعده التطبيقيّة لا يمكن ان يهاون الإضطرابات الفكريّة التي احتضنتها الأحلام والتطلّعات الخفيّة الملتقية لا مباشرة مع تلك المتعلّقة بمجيء المسيح المنتظر.. والتي كوّنت حول مأساة أسرة علي ومنها ذهنيّة خاصّة أعطت الشيعة، فيما بعد، خاصّيّة دينيّة لم تكن موجودة اطلاقاً في أصول الشيعة، إيّاها.

مفهومان للسلطان جابه أحدهما الآخر في أواخر القرن الأوّل /منتصف القرن الثامن/: - أوّلهما مفهوم الخلافة (الخليفة هو القائم مقام النبي والمفوّض عن الجماعة) وهو الإمام المنتخب حسب المباديء الديمقراطيّة للإسلام الأصلي (الشورى).

والثاني هو الملكيّة المطلقة التي تستمدّ سلطانها من الله وهي المنظور المثالي المطابق للنظرة الفارسيّة الى الطبيعة المقدّسة

للملكيّة المطلقة في عهد الأسرتين (الإخميديّة - داريوس) (والساسانيّة - الكروية). . وفكرة التقديس تلك ذات المسحة الدينيّة هي التي طبقت بشكل متميّز، الدعوة العلويّة والعبّاسيّة وبالتالي الخلافة التي جاءت بديلا للخلافة الأمويّة.

— في طرفي حدود الامبراطوريّة حرّكت الهزّة السكان ضد الأمويّين:

— في المغرب دامت الثورة البربريّة من عام /٧٣٩/ إلى /٧٤٢/ في حين أنّه، في المشرق، في خراسان، عمل الشيعيّون والعبّاسيّون معاً، وتحالفهما كان ممكناً ومنتظراً بعد تأكيدات العباسيين أنّ السلطة يجب أن تعود إلى عضو من أسرة الرسول. . وعندما سأل الشيعيّون العبّاسيينّ من هو مرشّحهم؟ راوغوا في الإجابة بإرجائهم الأمر إلى ما بعد تحقيق الإنتصار. . ومشيئة الله، آنئذٍ، هي النافذة! - وهذا جواب لا يتناقض مع ما روّجت له الدعوة العلويّة من قرب ظهور «الإمام» المنتظر وهو «امام الزمان» الذي يكون حتماً، من أسرة النبي ومن هناك نشأ الإلتباس بين علويّين وعبّاسيّين. . التباس أداته اللّعب بالألفاظ بين «أهل البيت» و«آل النبي» أي أسرة النبي وتضمّ أبناء وأحفاد فاطمة من العلويّين.

سند حزب عليّ دعوى ورثته من فاطمة في حين ساند فريق آخر ذرّية علي من خولة الحنفيّة - وكذلك كان الأمر بالنسبة لذرّية جعفر أخي علي. أمّا العبّاسيّون فقد عادوا بأصل العائلة إلى الجدّ المشترك. . إلى هاشم وإلى عمّ النبي عبّاس بن عبد المطّلب أي إلى الذكور دون الإناث إلاّ أنّ العباس كان أخاً غير شقيق لوالد محمّد، ومن أمّه. . أضف إلى ذلك، قبل أن مات مسموماً على يد سليمان عام ٧١٦، تنازل أبو هاشم عن حقوقه الإرثيّة إلى إبن عمّه القاصي محمّد بن علي من ذرّيّة عبّاس فاتّسعت، بذلك، صفوف العبّاسيّين.

أما «الهاشميّة» فاسم استعمل ليشمل جميع أعضاء عائلة النبي مقابل الفرع الآخر من قريش الذي منه كانت ذرّيّة أميّة.. وفي الاطار الهاشمي، الجميع أقرباء النبي على قدم المساواة علويّين وعبّاسيّين وهم، في هذا الإطار ذوو فرص متكافئة.

منذ الربع الثاني من القرن الثامن، نظّم العبّاسيّون حركتهم الثوريّة السرّيّة ومقرّها العام كان الكوفة. إلاّ أنّ العمل نما في خراسان وأوّل مُرسل من قبلهم إلى خراسان كان «خدعش» الذي أقام في «مرو» واعتنق مذهب «الخرّميّة» الذي قال بالمساواة الإجتماعيّة والملكيّة المشتركة وانتشر انتشاراً واسعاً في أوساط الفلاّحين والحرفيّين في الإقليم.. وعلى المثال ذاته استندت بدعة إلحاديّة ظهرت في القرن السابع تلتقي مع المانويّة بالأخذ بمبدئي الخير والشرّ، رافضة «العهد القديم» ومنتسبة إلى القديس بولص (بولصيّة) ـ المذهب البولصي انتشر في أرمينية وقال بالمساواة الإجتماعيّة وعمل لتحقيق هذه المساواة بصرف النظر عن الأحساب والأنساب.. واستطاع الخوارج أن يجدوا لهم أنصاراً بين أتباع المذهب المذكور. وفي القرن التاسع اتسعت دعوة هذا المذهب ولكنّه أُبطل على يد المسلمين والبيزنطيّين في التقائهم غير المباشر على مكافحته.

العبّاسيّون كانوا على صلة مع «المعتزلة» الذين نُسبوا الى مذهب «القدريّة». أما «خدعش» فقد أزعج السلطة الأمويّة ولم يُرض العبّاسيّين فسُجن وعُذّب وقتل عام /١١٩/٧٣٦/.

نظّمت الحركة العبّاسيّة الثورة السرّيّة عام /١٠٥/٧٢٤/ وأوكلت إدارتها إلى تاجر سابق من السند نشأ في سجستان «بوخير بن ماهان» الذي وضع ثروته في خدمة القضيّة المعادية للأمويّين. وفي عام /١٢٤/٧٤١/ ألقي القبض على بوخير بتهمة عقد إجتماعات سياسيّة سرّيّة وأدخل السجن؛ وبعد عامين اعتقل للمرّة

الثانية (في الكوفة هذه المرّة) وفي سجنه، هناك، التقى بالفتى الفارسيّ الأصل «ابو مسلم».

ترك أبو مسلم أثراً في نفس ابو خير، بذكائه الخارق ومقدرته المنقطعة النظير وحال خروجه من السجن (ابو خير) أطلع على خبره الإمام إبراهيم ابن محمد بن علي أحد قادة الدعوة السرّيّة ضـد الأمويّين. . وإبـراهيم، زعيم العبّاسيّين قبض عليـه رجال لمروان الثاني واقتادوه الى «حرّان» وهناك مات. ـ لدى موت «ابو خير» (٧٤٤)، «أبو سَلَمَة حفص بن سليمان» (وهـو عبد معتق أصبح صرّافا) تولّى قيادة الحركة ووضع مبالغ كبيرة تحت تصرّف «ابو مسلم» الذي أمر بذبحـه بسبب ميولـه العلويّة. . ـ حشـد المتآمرون قواهم في خراسـان وما وراء النهـر ووعدوا المـوالي بالمساواة بين العرب والإيرانيّين وتكافؤ الفرص في الوظائف العامّة على اختلافها. . وزرعوا في نفوس الفلاّحين والحرفيّين الأمـل بتخفيف الغرامة ورفع عمل السخرة. . وتكتّلت المعارضـة وراء العبّـاسيّين على اختلاف أصـولها واتّجاهـاتهـا وظهـرت آنـذاك «المزدكيّة» بأفكارهـا الإجتماعيّـة المتقدّمـة ثمّ «الخرّميّـة» أنصار المساواة الإجتماعيّة والملكيّة المشتركة.

● **ثورة ابو مسلم:**

بعـد تلقّي ثقافتـه التقنيّـة الـلازمـة انتقـل أبـو مسلم عـام ١٢٦/ ٧٤٥/ إلى خراسان لتأجيج نار الثـورة فيهـا. . وتطبيقـاً لتعاليم الإمام إبراهيم كان عليه التوفيق بين الحماس الصلب للدّين وبين الدّهاء السياسيّ والتوصّل، بنجاح، إلى إيحاء الثقة التّـامّة الى أنصاره. ـ نصر بن سيّار هو حاكم خراسان ونصر من قبيلة «كنانة» وكان يتمتّع ببعض الإستقلال تجاه دمشق وعليه أن يواجه، في اقليمه، مصاعب إداريّة وقضايا ماليّة ضريبيّة. . وفي نفس الوقت مجابهة اليمنيّة المتمركزة هناك وسبق أن ثارت ضد السلطة الأمويّة.

وذهب الظنّ بنصر إلى أنّ هناك ثمّة حركة ضدّ العرب وحذّر الخليفة مروان من مذبحة عامّة في الإقليم الشّرقي؛ ولكنّ المسألة كانت خلاف ذلك تماماً: ـ حركة أبو مسلم لم تكن موجّهة ضد العرب كما فهمها نصر بل ضد الهيمنة السياسيّة والإجتماعيّة للموظّفين الآتين من سورية.. في ذلك المناخ السائد وصل أبو مسلم إلى واحة «مرو» واختار جوار «صافيزانج» (صيقادنخ) مكاناً لإقامة قيادته العامّة حيث استطاع أن يحشد، علناً، قوّات كافية موالية للعبّاسيّين وما إن تأكّد من امتلاكه زمام المبادرة حتى انطلق في العمليّة تسانده اليمنيّة الثائرة؛ وتألّفت قوّاته من مقاتلين كوفيّين انصاعوا للدعوة ضد الأمويّين والأفكار الشيعيّة.. ـ في ٢٥/ رمضان ١٢٩/ ٩ حزيران ٧٤٧/ السابق لليلة القدر، أضرمت النيران حول صافيزانج وتلك كانت إشارة الثورة التي وصف أطوارها كلّ من الطبري والديناواري فقالا أنّ مئة ألف نصير وصلوا إلى ميدان المعركة يركبون الخيل والبغال والحمير ويحملون الأسلحة التي استطاعوا الحصول عليها وهم من الملاّكين القرويّين، والحرفيّين سكان المدن، والموالي، وحتّى الدهاقنة.

ولدى اكتمال الجمع، يوم الجمعة، الأوّل من شوّال/ ١٥ حزيران ٧٤٧/ يوم عيد الفطر (العيد الصغير) ألقى أبو مسلم، في الجامع الكبير، الخطبة باسم «الامام المنتظر» وقد نشر على اسفل المنبر علمين اسودين ارسلهما الإمام إبراهيم كرمزين لقيام من ينتظره الناس لبناء نظام جديد ام تصحيح نظام قائم.. ومنذئذ صار الأسود لون راية تلك الثورة. ـ وركّز أبو مسلم على قرية «ماخوان» لتبدأ فيها العمليّات ضد الحاكم الأموي نصر بن سيّار لأنّ فيها شرطته، وحرسه الخاص وديوان الجيش الذي يدفع للمقاتلين مرتّباً مؤلّفاً من ثلاثة إلى خمسة دراهم كلّ شهر. ـ أثناء ذلك، جاء ممثلون للعبيد يؤكّدون لأبي مسلم تأييدهم ودعمهم كما أنّ عدداً منهم انضم الى معسكره فشكا الدهاقنة قلّة اليد العاملة وصاروا يخشون الأخطر: ـ أن يطلب العبيد إعتاقهم.. ونظراً إلى البنية

الإجتماعيّة الراهنة سيكون ذلك، على الصعيد الإقتصادي، كارثة تحلّ على الجميع. ومن أجل هذا دعا أبو مسلم العبيد إلى العودة لأعمالهم كلٌّ في مكانه، وعندما رفضوا جمعهم في معسكر معزول وعيّن لهم قائداً وهو ينوي عدم استعمالهم.

وفي حين كان أبو مسلم يستولي على خراسان، كانت الأسرة الأمويّة تتخبّط في متاعبها وكلّ همّ الخليفة مروان الثاني أن يبقي يقظاً وسط الخصومات بين القيسيّة وبين الكلبيّة اليمنيّة.

في جيش ابو مسلم برز قائدان من حزب العبّاسيّين: العربي «قحطبة بن شبيب» من عشيرة «طيّء» والفارسي «خالد بن برمك» وهذا الأخير سليل عائلة مشهورة من الدهاقنة وكان مكلفاً باعادة توزيع الغنائم وهو جدّ العائلة البرمكيّة التي لعبت دوراً كبيراً في عهد الخلافة العبّاسيّة. ـ وقلق ابراهيم، الإمام العبّاسي، للأهميّة التي نالها أبو مسلم وذهب به الظنّ إلى أنّ ممثله شديد الميل الى دعم المطالب الشعبيّة فأبقى أبو مسلم حاكماً على خراسان وعيّن قحطبة قائداً للجيش.

في صيف /٧٤٨/ هزم الجيش الأموي قرب «ثوس» وفي الخريف احتلّ الثوّار «نيسابور» القليلة الأهميّة آنذاك (ولم تصبح ذات شأن الاّ في القرن الثالث/ التاسع/)

واقترب أبو مسلم من مرو وهناك هزم نصر فترك مرو في تشرين الثاني /٧٤٨/ وهرب من خراسان ومات في همذان في الخامسة والثمانين من عمره، عام /١٣١/٧٤٨/. ـ وفي مطلع عام /٧٤٩/ أخلى السوريّون أصفهان. وفي حزيران ـ تمّوز تمّ الإستيلاء على ملتقى الطرق الهام «نهاوند» حيث مني جيش السلطة بهزيمة ساحقة وأصبح طريق العراق مفتوحاً. ـ قبل قرن بالضبط، وفي نفس المكان، اجتاز الأمويّون عتبة إيران بالإتجاه المعاكس.

وصل الجيش المتمرّد الفرات حيث استطاع الحاكم الأموي

«ابن هَبيرة» المقاومة بعض الوقت. في آب /٧٤٩/ محرم ١٣٢/ اعتبر قحطبة مفقوداً في المعركة؟ وكان قد بـدأ يلعب دوراً ذا أهميّة.. وبعد مدّة قصيرة استسلمت الكوفة على يد قوّات مسلّحة يمنيّة لجيش يقوده الحسن بن قحطبة. يوم الجمعة/ ٢٨ تشرين الثاني ١٢/٧٤٩ ربيع الثاني ١٣٢ كشف «الإمام المنتظر» القناع عن وجهه تحت حماية الجيش القادم من خراسان واذا هو «أبو العبّاس عبد الله بن محمد بن علي» أحد الأخوين لإبراهيم الذي مات في أحد سجون الأمويّين.. والأخ الثاني هو الذي أصبح فيما بعد الخليفة المنصور.

أعلن «ابو العبّاس» خليفة في الجامع الكبير بالكوفة أحد اقدم الجوامع الإسلاميّة وغلب عليه لقب «السفّاح» الذي يمكن ان يعني الكريم أو الطاغية سافح الدماء.. وانتقلت عاصمة الإسلام من سورية الى العراق وقامت سلالة مالكة جديدة في المدينة التي فيها صار عليّ خليفة، وفيها مات قبل قرن من الزمن.

وقامت موجة قمع منظّمة، شاملة لمحو وازالة كلّ ما يذكّر بالأمويّين حتّى القبور.. أي ان السلطة الجديدة بدأت في مناخ من الجبن والخيانة والإرهاب الدموي النادر المثال حتى في آسية. ولم يطل الأمر بالعبّاسيّين حتى قضوا على الذين ساعدوهم: ابو سلمة سليمان بن كثير ـ وحتى ابو مسلم..

منذ الأيّام الأولى، رفضت الوعود السابقة بتخفيض الضرائب وأسفـرت السلطة العبّـاسيّة عن وجهها وطبيعتهـا الإستبـداديّـة (اللاديمقراطية) وانقلبت الجماهير المسحوقة سريعاً ضدّ السـادة الجدد، ولم ينل العلويّون أيّ مركز في السلطة فأدركوا آنئذ أنّ اللعبة مرّت على حسابهم فتحفّزوا للثورة ومنذ عام /٧٥٠/ تولّى أبو مسلم مهمّة قمعهم.

الثورة العبّاسيّة كانت أشبه ما تكون باستبدال «الميروفانجيان» بـ «الكـارولانجيان» في نفس الحقبـة: (عام/٧٥١/، مؤسسهـا

«بيبان لوبريف» الذي أحي امبراطوريّة الغرب الأوروبي فحكمت الأسرة ألمانية حتى عام /٩١١/ وحكمت فرنسة حتى عام /٩٨٧/ والنهضة الثقافيّة كانت السمة البارزة لحكم الأسرة) ـ إلّا أن التفسير المعتاد للثورة العبّاسيّة اعتمد ثلاثة أسباب أساسيّة هي التّالية: ـ النزاع بين التصوّر النظري للدولة وبين المثل الفرديّة، وبالأصحّ، القبليّة. ـ النزاع بين حكم الفرد المطلق وبين الحكم الذي يدّعي أنّه يستمدّ سلطة مباشرة من الله (تيوقراطيّة) ـ النزاع بين الفكر السامي المتمثّل في العرب والفكر الآري المتمثل في الإيرانيّين.

استبدال الأمويّين بالعبّاسيّين كان ثورة حقيقيّة اذ كان محصّلة عمل مهّدت له دعوة واسعة وعبّر عن نقمة عامّة الناس اذ كانت موجودة فعلا، شرقي سورية، مجموعة مصالح متضاربة فيما بينها ولكنّها ملتقية في الرغبة المشتركة بقلب النظام الذي اقامه احتلال عسكري اموي. ـ والأزمة التي أدّت إلى تغيير الأسرة «المالكة» لم تكن محصّلة معارضة أجناس وأعراق، صراع بين عرب وفرس، ما دام المنتصرون عرباً ثاروا ضد عرب.. بل كانت نزاعاً بين منظورين حياتيّين ـ منظور منفتح على الغرب.. على عالم البحر الأبيض المتوسّط وينطلق دائما من سورية ومن مصر؛ ومنظور «شرقي» التفت نحو هضاب ايران وآسية الوسطى ومعرفته بالبحر لا تتعدّى أبعاد الخليج العربي ـ الفارسي.. وهو منظور العراق وايران.. وهذه المعارضة ستبقى طوال القرون المقبلة ورموزها تتجسّد بالنيل ودجلة المتعاكسي المجرى. ـ ولا بدّ من الإشارة، أيضاً، إلى تطوّر إجتماعي هام بدأ فعلاً وحتّى قبل العبّاسيّين: فالحكّام الأمويّون وكبار الموظفين أصبحوا، بغالبيّتهم، من كبار ملّاكي الأراضي وبعضهم ساهم بعمليّات تجاريّة كما أنّ العديد من رؤساء القبائل تحوّلوا، أيضاً، إلى ملّاكي أراضي وكثيرون منهم امتلكوا عقارات وأبنية وأرزاقاً في المدن وقد نسوا أخلاق

البادية وطباعها. تلك ارستقراطيّة قامت على اقتصاد، يده العاملة من الرقيق والعبيد وعمل السخرة فيه لعب أيضاً دوراً هامّاً.

إنّ تجميع الملكيّات العقاريّة الكبيرة بين أيدي الحكّام الأمويّين أو أعضاء عائلة الخلافة، استبطنت أخطار التمرّد على السلطة المركزيّة وهي النذير لإشاعة الإنتفاضات والثورات. - صحيح أنّ المعارضات العرقيّة لعبت دوراً لا يجوز إغفاله ولكنّ المحرّك الرئيسيّ كان النقمة الناجمة عن عدم المساواة في الحقوق السياسيّة والإجتماعيّة والإقتصاديّة بين المسلمين غير العرب وبين العرب المسلمين.

على أيّة حال، نرتكب خطأً فادحاً - كما فعل كثيرون آخرون - اذا ترجمنا ثورة عام /٧٥٠/ فلا نرى فيها سوى انتصار الإيرانيّين على العرب.. في الواقع، إنّ تفوّق العرق العربي وسيادته قد استؤصلت شأفتهما في المشرق وتدرّج الموالي، على مراحل، إلى مراقي المساواة مع العرب المسلمين وحتى الجيش لم يعد حكراً على قيادة وسيطرة العنصر العربي البدوي؛ بل فسح المجال واسعاً لأبناء آسية الوسطى بدءاً من وحدات المتطوّعين المرتزقة. أمّا «المدن - المعسكرات» (الأمصار) وبخاصة الكوفة والبصرة، فقد تخلّت عن مركزها لبغداد.. ومراقبو تبدّل الأوضاع خيّل إليهم أنّ المحاربين البداة الذين فتحوا نصف العالم المتمدن قذف بهم، من جديد، نحو الصحاري التي منها جاء آباؤهم.

ورغم ذلك كلّه، احتفظ العربي بالسبق والأولويّة في المجال الديني فلغته هي لغة الوحي وهي التي استعملها جبريل لنقل الرسالة الإلّهيّة.. واللغات واللهجات المحلّية كانت أعجز من أن تلغي لغة القرآن بل العكس هو الذي حصل: اللغة العربيّة حلّت محلّ تلك اللهجات واللغات.

الأسرة العبّاسيّة كانت عربيّة، أصولها في شبه الجزيرة العربيّة، تماماً مثل الأسرة الأمويّة إذ كلاهما من قريش.

والعبّاسيّون مدينون بنجاحهم إلى الدعم الشعبي، وأبو العبّاس كان يعرف ذلك وهو الذي ألقى، في الكوفة، يوم مبايعته، خطاباً دهماويّاً غوغائيّاً (ديماغوجيّا).. إلاّ أنّ العبّاسيّين، في قرارة نفوسهم، كانوا الممثّلين للأرستقراطيّة العربيّة ولا شيء مشتركاً يشدّهم إلى الجماهير الشعبيّة التي لم يرفضوا عونها ما دام يسهّل لهم الوصول إلى السلطة؛ وبعد ذلك، كم خدعوا هذه الجماهير.. وكم خانوها!!

لم يحمل وصول العبّاسيّين إلى السلطة إلاّ حلاً مؤقّتاً واحداً لأزمة عميقة وخطيرة على كلّ صعيد سياسي واقتصادي وديني. - «برنارد ليفيس»، في كتابه «العرب في التاريخ» أشار إلى أنّ «يجب البحث عن محرّك الثورة في النقمة الإجتماعيّة والإقتصاديّة لسكان المدن المحرومين من الإمتيازات والحظوة وبخاصّة بين التجّار والحرفيّين والموالي للمدن التي كانت مواقع وقواعد للحاميات العسكريّة.» - إنّ توقف حروب الفتوحات، وهي النشاط الإنتاجي الوحيد للأرستقراطيّة العسكريّة، أي الطبقة القائدة أيام الأمويّين، ذلك التوقّف جعل الطبقة إيّاها طفيليّة تاريخياً فالسبل انفتحت لنظام اجتماعي جديد قائم على اقتصاد السلم وهو اقتصاد بنيته زراعيّة وتجاريّة والطبقة القائدة أصبحت، منذئذٍ، مؤلّفة من الموظفين والتجار وأصحاب الدكاكين وملاّكي الأراضي ورجال الدين (العلماء) ونستطيع أن نضيف الى هذا كلّه أمراً صار مشهوداً وهو تكوّن طبقة جديدة هي «البورجوازيّة».. إن الحكم الجديد (الدولة) قام على أساس هو الدين وليس العرق فالخليفة أصبح «ظلّ الله على الأرض».. وفي ألقابهم اضافوا الى أسمائهم عناوين وصفات معبّرة، دينيّة وأخلاقيّة: - «المهدي» (الذي يستمد الهداية من الله) - « الرشيد» (السائر على الطريق القويم) الخ..

الخلافة بقيت كمؤسسة.. ولكن هذه المؤسّسة تغيّرت بسماتها وروحها وفكرها.. وقد فرضت التقاليد الإيرانيّة تأثيرها

ونفوذها الكبيرين على تطوير الدولة الإسلاميّة حتّى جاء الأتراك ولعبوا دورهم الخاصّ المعروف.

«كلود كاهين» يذكّرنا أنّ تاريخ الحقبة العبّاسيّة - رغماً عن إشعاعاته كلّها - بقي، من جوانب كثيرة، غير مدروس دراسة كافية والصورة المعروفة عنه سيّئة جدّاً.

● الخلفاء العبّاسيّون الأول

عام /١٣٢/٧٥٠/ خلصت الخلافة لعبد الله أبي العبّاس «السفّاح» بعد تخلّصه من الأمويّين. وانتقل مركز العالم الإسلامي شرقاً: - من سورية الى العراق الأسفل. - في خطابه الرسمي الأوّل، وعد السفّاح أن يتّخذ الكوفة مقرّاً لـه بين أنصاره وفي عدادهم قوات خراسانيّة قريبة العهد في المدينة. صحيح أنّه، من أجـل امبراطـوريّة ممتـدّة من البحر الأبيض المتـوسّط إلى بحر «آرال»، يجب أن يكون موقع العاصمة متوسطاً أكثر من دمشق أو «حرّان» وبذلك يسهل أكثر احتواء وإدارة الأقاليم ومراقبتها..

والكوفة (الكلمة عربيّـة تعني تلّة دائريّة من الرمل الأحمر) مبنيّة على تلّ على الضفة الغربيّة من الفرات وسكّانها شـديدو التهيّج بفعل النزاعات والمنافسات القبليّة - وخوفاً من أن تقوم المعارضة من خوارج وعلويّين بإحياء الاضطرابات، كثيراً ما كان الخليفة الجديد ينقل مقرّه إلى «الهاشميّة» شمالاً، على الضفة الشرقيّة للفرات ولكن الكوفة تبقى هي العاصمة الإداريّة.

عام /١٣٤/٧٥٢/ غيّر الخليفة مقرّه وأقام في «الأنبار» على بُعد مئة كيلومترا صعوداً شمال الكوفة وعلى بعد خمسين كيلومترا من القرية التي بنيت فيهـا بغداد بعـد سنوات عشـر. - الأنبار (والتسمية فارسيّة معناها مستودع ومخزن المواد التموينيّة) كانت، في أيّام الساسانيّين، المدينة الثانية في ما بين النهرين بعد المدائن (ستيسيفون) وموقع الأنبار في أعلى القناة الكبرى الأولى الصالحة

للملاحة (نهر عيسى) وبه يلتقي الفرات بدجلة وهو في القمّة من نظام ريِّ واسع يعود إلى عهد البابليّين ويروي سهلاً خصباً جدّاً وكلّ هذا يعطي المدينة أهميّة ستراتيجيّة واقتصاديّة أكيدة. - أنصار العبّاسيّين القدامى والجدد سارعوا باللحاق بالخليفة حتى لا يفوتهم الحصول على مراكز مناسبة سواء في البلاط أو الإدارة أو الجيش.

إضافة إلى إزالة الأمويّين من الوجود، واضطهاد العلويّين، الحدث الرئيسي في عهد السفّاح المعاصر لـ «بيبان لوبريف» كانت المعركة المسمّاة «معركة الطلعاس».. ففي ذي الحجّة من عام ‎/١٣٣‏/ تموز ‎٧٥١‏/ اجتاز جيش مسلم بقيادة «زياد بن صالح»، قادم من خراسان، اجتاز المجرى الرئيسي لنهر «أمو - داريا» وقطع اقليم ما وراء النهر مروراً في «سير - دازيا» نافذاً الى «فرغانة» المعروفة اليوم بـ «أوزبكستان» ودخل هناك في مجابهة مباشرة مع الجيوش الصينيّة في سفح الجبال قرب نهر «طلعاس» حيث كان يوجد، في القرن السابع، مركز تجاري هام يرتاده الصينيّون منذ القرن الثاني قبل الميلاد واليه جلبوا صناعة الحديد وتقنيّة زراعة العنب. وفي المعركة مال ميزان القوى لصالح المسلمين بفضل الدعم الذي قدّمته لهم قبيلة تركمانيّة من آسية الوسطى استوطنت فرغانة ولم تكن قد دخلت الإسلام بعد وهي قبيلة «الخزلّق». - تراجع الصينيّون، وقاتلوا في خطوطهم الدفاعيّة إلاّ أنّ الجيش العبّاسي سيطر على منطقة شكّلت إقليماً حدوديّاً بين العالم الإسلامي والعالم الصيني وعرفت آسية الوسطى، منذئذٍ، انتشار الإسلام فيها.

أبو العباس السفّاح مات بالجدري وهو في الثلاثين من عمره وكان في الأنبار (ذو الحجة ‎١٣٦‏/ حزيران ‎٧٥٤‏/ وكانت الحركة العبّاسيّة قد انتقلت من مرحلة الحركة السريّة الثوريّة، إلى مرحلة الشرعيّة والترسّخ. والخليفة لم يعد، فقط، قائد الفاتحين والأمير البدوي الوثيق العرى بالصحراء بل أصبح أميراً حضريّاً.. إنّه

«أمير المؤمنين» في هذه «الأمّة» التي أصبح العرب فيها أقلّية عدديّة وأخلوا مكاناً واسعاً للمستعربين من المسلمين. ووصول العبّاسيّين إلى الخلافة لم يحلّ أزمة الإسلام في القرن الثامن.. فهي أزمة عالم جديد يولد، عالم اقطاعي يقوم على أنقاض عالم سبقه ساده اقتصاد مجتمع الإسترقاق.

والأزمة، أيضاً، فكريّة وروحيّة.. عالم الشرق المسيحي مزّقته البدع والهرطقات.. وعالم الإسلام الذي لم يكن بعد قد تبلور منهجه الديني لأنّ مدارس المذاهب كانت في طور التأسيس في بغداد والمدينة.

على الصعيد الإجتماعي، كان العبّاسيّون، ممثلوا الأرستقراطيّة العربيّة، في فارق طبقي كبير بينهم وبين عامّة الناس الذين ساعدوهم على الوصول الى السلطان.. وما ان امتلكوا هذا السلطان حتى اسفروا - كما قلنا - عن وجههم الحقيقي وعن طبيعتهم الإستبداديّة؛ ومن أجل ذلك كثر عدد الثورات الشعبيّة في عهد العبّاسيّين.

على الصعيد الإقتصادي أصبح محور المصالح آسيويًا وليس متوسّطيًا وكانت الحملات الكبرى لفتح الأراضي: -«إبن فضلان» الذي بدأ أمين سرّ إحدى البعثات اتّجه نحو «الفولغا». - و«ابودُلف» توغّل في الصين. - و«سليمان التاجر» قاد حملة بحريّة عبر الخليج والمحيط الهندي إلى الشرق الأقصى وكان المثال لشخصيّة السندباد.

● **الخليفة المنصور.**

قبل أن يموت السفّاح عيّن خلفاً له (وليًا للعهد) أخاه «أبو جعفر» حاكم ارمينية وأذربيجان وما بين النهرين وأمّه رقيقة بربريّة. وقد تسنّم «العرش» في ذي الحجّة عام /١٣٦/ حزيران ٧٥٤/ واتّخذ لنفسه لقب «المنصور بالله» وأصبح معروفاً بهذا الإسم بشكل عام. ومنذ اليوم الأوّل من حكمه انفجرت أزمة داخل

الأسرة أثارها عبد الله بن علي وهو حاكم سورية آنذاك، إذ رفض الإعتراف بتولية ابن أخيه وهذا النوع من التنافس بين أعضاء الأسرة العباسية أصبح أحد جراحها الدائمة.. لقد ثار عبد الله معتمداً على العناصر السورية في الجيش فاستدعى الخليفة أبا مسلم وأوكل إليه «إعادة عمّه إلى الصّواب». ـ وفي جمادى الثانية عام ١٣٧/ تشرين الثاني ٧٥٤/ تغلّب أبو مسلم على الثائر قرب «نصيبين» إحدى مدن ما بين النهرين التي تردّد ذكرها في النصوص الآشوريّة وكانت المركز الروحي للمذهب النسطوري وأصحابه منذ القرن الخامس ولجأ عبد الله إلى أخيه في البصرة حيث اعتقل وبقي سبعة أعوام في السجن ومات عام /١٤٧/٧٦٤/ تحت أنقاض بيته الذي قوّض عن قصد.. نجاحات أبو مسلم وشعبيّته كانت تزعج المنصور الذي ركّز كلّ همّه على تقوية سلطانه الشخصي وكان قائد الجيش يتمتع بنفوذ معنوي كبير بين السكّان ويمتلك موارد ضخمة في خراسان وأصبحت الأسرة العبّاسية مديونة له مرّتين واضعة مصيرها تحت رحمته فبدأ الخليفة يعمل على التخلّص من الرّجل الذي استطاع إنقاذ تاج المنصور؛ فباستطاعته، إذن، الإطاحة بهذا التاجر؟! وأبو مسلم الذي جمع حوله حشوداً كبيرة ليس إسلامها عميقاً ولا صادقاً، يسهل عليه تفجير ثورة شعبيّة لمجرّد المطالبة بالوعود المكذوبة التي كالها العبّاسيّون وبخاصة الوعد بتخفيض الضرائب.

بدأ المنصور بابعاد «خادمه» المربك فسمّاه حاكماً على سورية ومصر ولكن أبا مسلم رفض الإستجابة لمشيئة الخليفة الذي راح يبحث عن حلّ آخر.. وفي عام /١٣٧/٧٥٥/ قرّر أبو مسلم اداء فريضة الحجّ إلى مكّة وكان عليه أن يمرّ بالعراق ورغم حذره وشكوكه خُدع بالإستقبال الحسن الذي لقيه من المنصور حتى اطمأنّ وبات في مأمن فأعطى الخليفة الأمر بذبحه. ـ في العام الثاني أمر بقتل كاتم سرّه «ابن المقفّع» مقتبس كتاب «كليلة ودمنة» الذي دافع بحرارة عن قضيّة عبد الله بن علي العمّ الثائر

للخليفة.. وأصبح هذا النوع من القتل سابقة متّبعة لدى العبّاسيّين ولدى آخرين من أجل التخلّص من الشخصيّات المزعجة أو المربكة.

دام حكم المنصور من عام /٧٥٤/ الى /٧٧٥/ أي عشرين عاما وهي مدّة طويلة ملحوظة لأيّ ملك حتّى خارج الشرق.. وفي محاولاته إلغاء المنافسات الخطرة عمد المنصور إلى ملاحقة العلويّين وبدأ يبني إدارة الدولة العبّاسيّة والترجمة العمليّة للبناء المذكور كانت قمع الثّورات التي كانت انعكاساً لموت أبو مسلم وبعض الحركات العلويّة وتقريب البرامكة والعهد إليهم بالوزارة وبناء بغداد «مدينة السلام» المدينة الدائريّة الشكل ذات السّورين:

١ ـ قمع الثورات

القرن الثامن، في الشرق الإسلامي، تميّز بأن كان أرضاً خصبة للثورات الشعبيّة ضد السلطة العبّاسيّة؛ فكلّما قامت جموع الفلاّحين ضدّ العربيّ المحتلّ أو ضدّ كبار الملاّكين حلفاء العبّاسيّين ألبست الحركة ـ إيّاها ـ حججاً ذات سمات دينيّة في حين انها ليست ـ في الأساس ـ سوى انتفاضات إمّا اجتماعيّة، وإمّا عرقيّة.

موت ابو مسلم كان الإشارة للثّورة فتفجرّت الإنتفاضات عام /١٣٨/٧٥٥ ـ ٧٥٦/ في مدينتي نيسابور والرّيّ، يديرها زعيم مزدكي (مجوسي) يُدعى «سُنباذ»، كان ذا نفوذ واسع في الأوساط الشعبيّة وقد وجهت تلك الإنتفاضة ضد العبّاسيّين وضدّ مذهب السنّة: ـ «أبو مسلم لم يمت.. يجب أن يظهر يوماً ويحكم العالم..» تلك كانت مقولة أصحابه المعتمدة على الإيمان بظهور «المهدي» و «الإمام المحتجب». ـ ونجحت المحاولة الثوريّة في بدئها فمناطق نيسابور والريّ سقطتا في أيدي الثوّار الذين عثروا هناك على المال المكنوز من قبل ابو مسلم.. ومن أجل إخضاع

الإنتفاضة، أرسل المنصور جيشاً عرمرما دحر المتمّردين وفرّق شملهم بين همذان والريّ وأقلّ من نصفهم فقط نجوا من الموت بالفرار، ونجح «سنباذ» بالّلجوء شمالاً في «طبارستان» الإقليم الجبلي ذي الحكم الذاتي تقريباً والذي ظلّ قليل التأثّر بالإسلام وعندما دخله سنباذ مهزوماً مطارداً، وجد أمير البلاد من صميم مصلحته الشخصيّة القضاء عليه وتلك كانت النهاية لثورة دامت سبعين يوما. . ولكنّ الأفكار لم تقتل مع الرّجال لا في خراسان ولا في آسية الوسطى وبقي هناك من تابعوا التبشير بالعودة القريبة لأبو مسلم. . وفي عام /٧٥٨/ أمر المنصور بالقتل الجماعي لجماعة «الرّاونديّة» بتهمة أنّهم يعتقدون أنّ الله تجسّد في أبو مسلم. .

والنقمة العلويّة، من جانبها، لم تضعف، وانتفاضات أنصار علي تضاعفت رغم القمع وقد انفجرت أهمّ تلك الحركات في الحجاز عام ١٤٤/ ٧٦٢/:

أخوان. . آخر حفيدين للحسن، الإبن البكر لعلي، نهضا بالمعارضة واعتبرا العبّاسيّين غاصبين؛ وقبائل شبه الجزيرة العربّية التي كان يسودها شعور أنّها مضطهدة مهملة كانت على استعداد لمساندة أيّ خصم للعبّاسيّين، ونظراً لكبر عدد أنصار قائدي المعارضة المذكورين شعر الخليفة بخطرهما الماثل. ـ كبير الأخوين، محمّد بن عبد الله الملقّب بـ «النفس الزكيّة»، ثار في المدينة التي لجأ اليها تخلّصاً من ملاحقات السلطة. و «مالك بن انس» مؤسّس المذهب المالكي وامام المدينة، أعطى محمد بن عبد الله فتوى تحلّه من بيعته للعبّاسيّين فالبيعة لاغية لأنّها انتزعت بالقوّة، وهذا ما تمّ اعلانه ونشره. . وفي/ ١٤ رمضان ١٤٥/٦ كانون الأوّل ٧٦٢/ أخضعت قوّات الخليفة الثائرين في المدينة وقتل محمد وأرسل رأسه إلى الخليفة. . ـ اخوه الأصغر، إبراهيم، أخذ مكانه وأضرم الثورة في اقليم البصرة بالعراق، حصن الخوارج

والعلويّين، واستولى على موجودات بيت المال فوقف إلى جانبه اقليم خوزستان تدعمه الشيعة. وتنفتح امامه سبـل التغلغل في فارس حتّى أصبحت الكوفة مهدّدة، وعندئذٍ رحبت القوّات التي كانت في المدينة وبدوره سُحق ابراهيم وأنصاره قرب الكوفة في شهر ذي القعدة ١٤٥/ شباط ٧٦٣/ وحسب العادة المتّبعة أرسل رأس إبراهيم إلى الخليفة المنصور الذي يقال أنّه بنى في قصره حجرة مخصّصة لجمع رؤوس العلويّين المغلوبين وهكذا حافظت الأسرة العبّاسيّة على تماسكها فوق جثث ودمـاء الضحايـا ذلك التماسك الذي دام، بعد موت المنصور، ثلاثين عاماً.

● ترقية البرامكة وسطوع نجمهم

من بين ممثّلي الأرستقراطيّة الإيرانيّة الذين دعموا العبّاسيّين بخبراتهم الإداريّة كانت تلك العائلة القويّة المعروفة بـ «آل برمك» أو «البرامكة» التي استطاعت أن تحتلّ مكاناً مرموقاً. ـ والبرامكة الذين كانوا يحسبون، عادةً، على الفرس يعودون، في أصولهم، إلى «نجتريان ـ بلخ» أي أفغانستان الشماليّة الآن ولا شيء مشتركا بينهم وبين المتمرّدين الخراسانيّين أو الزردشتيّة.. فالعائلة، قبل إسلامها، كانت بوذيّة وتنتسب إلى برمك والد خـالد وسليمـان والحسن.. ـ وبرمك، في الأصل، ليس إسماً بل لقب لاهوتي يستحقه الكاهن البوذي الكبير وليس الزردشتي.. وهذا ما أجمع على قوله المؤرّخون العرب والغربيّون.

وخالد بن بـرمك الـذي أثبت وجوده في صفـوف الحركـة الهاشميّة بدأ ليكون «كاتباً» للسفّاح ومنذ بدء الخلافة العبّاسيّة تولّى وظيفتي «ديوان الجند» ومصلحة الضرائب العقاريّة (الخراج) ثمّ خضعت لإشرافه جميع الدواوين الأخرى ولعب دور الوزير الأوّل. ـ وفي عهد المنصور احتفظ، إلى حين، بوظائفه العالية ثمّ انتزعت منه من قبل أحد المنافسين وأبعد بأن أرسل حاكماً على فارس؛

وعاد بعد عامين إلى بغداد. - عام /١٤٨/٧٦٥/ وجدناه حاكماً لطبرستان الإقليم الجبلي والخصب جنوب بحر قزوين وبقي هناك سبع سنوات يجبي الضرائب ويغذّي بيت مال المنصور مقتطعاً راتباً له العشرة بالمئة المخصّصة للحكّام من قبل الخليفة؛ وهكذا استطاع أن يبني ثروة العائلة وكان نجاحه مصدر قلق الخليفة وغيظه وكان الخليفة بحاجة ماسّة إلى مزيد من المال ففرض على خالد غرامة باهظة إلاّ أنّ الوزير السابق لم يكتفِ بدفع المبلغ والفوز بعفو الخليفة، بل نجح أيضاً في أن «يشتري» (بالمعنى الحرفي للكلمة) من الخليفة، التكليف الهام بحاكميّة الموصل وتعيين ابنه يحيى حاكماً لأذربيجان.. وهذا الأخير أصبح، في عهد الخليفة المهدي، (١٦١/٧٧٧/ المربّي للفتى هارون - هارون الرشيد فيما بعد - ثمّ وفي عام/ ١٦٣/٧٧٩/ أصبح رئيساً لديوان الرسائل وسمّي حاكماً لبلدان المغرب وابنه الفضل أصبح «أخاً بالرضاع» لهارون.

٣ - بناء بغداد

منذ بداية ملكهم، ركّز العبّاسيّون على قطع الصلة بالماضي، ومن هنا جاء تفكيرهم بتأسيس وبناء عاصمة جديدة لهم.. وفي امبراطوريّة امتدّت من الأطلسي إلى بحر آرال لا بدّ من عاصمة متوسّطة أكثر من دمشق؛ وقبل وقوع الإختيار النهائي على بغداد غيّر كلّ من الخليفة الأوّل والثاني مقرّهما مرارا. فالسفّاح فعل ذلك للتخلّص من بعض الأنصار المشكوك بولائهم، وهذا، بالتأكيد، سبب ابتعاده عن الكوفة التي ظلّت زمناً طويلا المخبأ لذرّيّة عمّ النبي؛ وأقام في الأنبار على الضفة الشرقيّة من الفرات وعلى بعد ستين كيلومترا غربي قرية بغداد التي كان معظم سكّانها مسيحيّين وفيها مطران يعقوبي ومطران نسطوري مع طائفة يهوديّة ذات شأن. - وبعد موت السفّاح عاد أخوه وخليفته المنصور إلى إقليم الكوفة وأقام في الهاشميّة.

الغموض الذي اكتنف تحديد مكان قرية بغداد وزمن بنائها وأسبابه، يعود إلى وجود اكثر من زكم حمل هذا الإسم الذي كان يطلق على كلّ مكان كان يختاره الخليفة لبناء مقرّه فقد قدّر المنصور أنّ الأماكن المجاورة للكوفة (المدينة الباقية على تشيّعها العلوي) ليست مناسبة خوفاً من مؤثّرات المحيط على الجيش. وحتّى الهاشميّة ليست المكان الآمن (أو لم يُهاجم فيها من قبل ثوار الراوندية؟) - لقد أقام أحياناً في المدائن على بعد ثلاثين كيلومتراً جنوب شرق بغداد الحاليّة؛ ولكنّه استمرّ في البحث عن مقرّ ستراتيجي أكثر ملاءمة.. وأخيراً، لأسباب عسكرية واقتصادية اختار قرية بغداد التي لم تكن آنذاك أكثر من تجمّع سكني ريفي قائم وسط ما بين النهرين في المكان الذي لا يبعد فيه دجلة عن الفرات أكثر من أربعين كيلومترا وفيه يرتبط النهران بقناة نهر عيسى.. وصحيح أنّه لا يوجد عامل ثابت يفسّر اختيار بغداد كما هي، مثلا، الغوطة بالنسبة لدمشق، ورأس الدلتا بالنسبة للقاهرة..

فقرية بغداد كانت موجودة في سهل خصب صالح للزراعة على ضفتي النهر وفيها يمرّ طريق خراسان الموصل إلى نيصابور، ثمّ إلى «عفرازياد - سمرقند» وهي، كذلك، في ملتقى طرق القوافل المطروقة عند معابر الأنهار في العراق الأوسط.. فالمكان المواجه للفرات يفتح الطريق باتّجاه الشمال، والسفن والزوارق النهريّة تستطيع صعود دجلة من البصرة و «ابو الله» حتّى بغداد وبعدها الموصل. ولا بدّ أنّ بغداد استفادت من مركزها هذا.. بعد بابل الباقية آثارها والموجودة على بعد تسعين كيلومترا جنوبي عاصمة الإشتاء السابقة للساسانيين (Etésiphon) - ومناخ بغداد ليس ضاراً، ولا موبوءاً وهو أفضل من مناخ السواد لأنّه أبعد عن البحر، فهو جافّ والإقليم يخلو من المستنقعات ولذلك كان نظيفاً من البعوض وهناك شبكة أقنية نظّمت من أجل الريّ تشكّل، في نفس الوقت، نظاماً دفاعيّاً مثاليّاً عن المدينة.

غربيّ دجلة، وشمال قناة السراط (SARAT) أقام المنصور معسكره الذي يحمي بلاط الخلافة والمصالح الإداريّة والأنشطة التجاريّة. . كان لا بدّ من إنشاء عاصمة حقيقيّة مع الابتعاد الكافي عن أحياء السكّان وصخبها وهياجها. .

بناء مدينة بغداد من قبل الخليفة العبّاسي الثاني، المنصور، في عام /١٤٥/٧٦٢/، أعتبر واحداً من أهمّ الأحداث في تاريخ الإسلام. . واختيار القرية، إيّاها، يمكن أن يُعزى إلى عوامل سياسيّة، منها رغبة المنصور بإعادة توثيق العُرى مع التقليد السّاساني بدليل أخذ الخليفة بالخبرات الساسانيّة لدى تنظيم إدارته؛ وواقع الأمر هو أنّ الإعتبار الأوّل أعطي لموضوع وجود مدينة في مستوى العاصمة الامبراطوريّة يتحتّم أن تنشأ حولها، مدينة دون تخطيط مسبق ويتغيّر طابعها، أو يتطوّر، عبر العصور المقبلة. . مخطّطات المقرّ المحصّن وضعت منذ عام /١٤١/٧٥٨/ وبعد أربع سنوات أطلق المنصور على مؤسّسته اسم «مدينة السّلام». . وترمز إلى العبارة الواردة في القرآن الخاصّة بالجنّة؛ وقد عُثر على هذا الإسم على جميع المستندات والوثائق التاريخيّة الرّسمية العائدة إلى الخلافة، وبخاصّة قطع العملة وإنّه تعبير مادّي عن وضع اجتماعيّ، وعن حضارة وثقافة كما تكون كلّ مدينة. . وقد جمعت بغداد بين (المدينة ـ المعسكر) و (مدينة البذخ الارستقراطي) و(المركز الفكري والديني). ـ المدينة دائريّة الشكل بنيت وفق مخطط «راديو سنتريك» (يتوسّع حول محور دائري مركزي) وهو التخطيط الهندسي المعروف في بلاد ما بين النهرين منذ القديم. . والجزء المسوّر دائريّ طول قطره كيلومتران ونصف محاط بخندق وله أربع بوّابات على أطراف محورين مستقيمين متقاطعين: ـ باب الكوفة جنوب غرب ـ باب البصرة جنوب شرق ـ باب خراسان شمال شرق ـ باب دمشق (باب الشام) شمال غرب ـ وفي نقطة تقاطع المحورين اقيمت «دار الذهب»

حيث يعيش الخليفة، يحميه حرسه الخراساني؛ و «القبة الخضراء» للاستقبالات.. والجامع الكبير.. والدواوين.. ومساكن الأمراء والخاصّة.. والمطابخ..

وكما بنيت جدران السور بالآجر غير المشوي، كذلك كانت الأبنية الأخرى.. ولذلك لم تصمد المدينة لغارات وهجمات المهاجمين ولا لعاديات الزمن نفسه؛ أمّا جدران القصور فقد بنيت بالرخام وبالحجارة ولذلك صمدت ولم تتهدّم إلاّ عام/ ١٢٥٥/٦٥٣/ نتيجة فيضان اجتاحها.. وقد تغيّرت عدّة مرّات أماكن ومواقع مختلف المؤسّسات والأبنية.

حول المدينة الدائريّة، نمت واتّسعت الأحياء السكنيّة الشعبيّة؛ ففي الشمال استوطنت وحدات القوّات المسلّحة الخراسانيّة التي يتألّف منها الحرس الخاصّ كما ذكر آنفاً وسمّي المكان «حيّ الحربيّة». - وفي الجنوب، على حافّتي نهر السرات ونهر عيسى امتدّت الضاحية الكبرى للأسواق التجاريّة «الكرخ» وهناك استوطنت الطائفة اليهوديّة وقد جذبها الرّبح من مختلف مناطق ما بين النهرين.

عام /٧٧٥/١٥٨/ بني المنصور، في أواخر أيّام حكمه، بني حافّتي دجلة، وعلى الحافّة اليمنى، شرقيّ المدينة، بنى قصراً جديداً سمّاه «قصر الخلد»، ومنذ عام /٧٦٥/١٤٨/ بدأ توسّع المدينة وراء الحافّة الشّرقيّة لنهر دجلة حيث بنى الأمير وليّ العهد (المهدي في المستقبل) معسكراً محصّناً محاطاً بخندق وقصراً، وجامعاً، وأسواقا.. وهذا المعسكر «الأشقر المهدي» أصبح النواة للضاحية التي أصبح اسمها «الرصافة». وبعد موت المنصور اتّسعت المدينة الدائريّة اتّساعاً كبيراً شرقيّ دجلة وأقيمت، فوق النهر، ثلاثة جسور صالحة لأن تمرّ المراكب تحتها.. وبلغت الحياة الإداريّة اوج رقيّها واتّساعها؛ فبعد نصف قرن فقط، من بناء قصر الخلافة، أي منذ عام/ ٨١٤/١٩٨/ لم يعد مقرّا

رسميًّا. . والمدينة التي نمت واتّسعت على الضّفة الشرقيّة سوّرت على شكل مستطيل وشكل النهر أهمّ اضلاع هذا الشكل. ـ وكان على المنصور أن يتصدّى لإدارة امبراطوريّة فتيّة، وتدبير مؤسّساتها المالية وتنمية وتوسيع شبكة الإعلام والاستخبارات الّلازمة لاحباط كل تواطؤ وتآمر. وكانت موارد الدولة تؤمّن، بشكل رئيسي، من القطّاع الزراعي الذي أصبح موضع عناية واهتمام، فيما يخصّ السّواد. . في حين أنّ سورية التي بلغت أوج ازدهارها الزراعي في عهد الأمويّين، أصبحت مهملة. ـ أمّا تسعير الضرائب والفرائض على الصفقات والمبادلات التجاريّة فقد تناولته، وتناوبت عليه ايدي عدد كبير من الوسطاء وظلّ يشكّل دعامة هامّة لبيت المال.

وفي عهد الخليفة المنصور، أصبحت اسبانية امارة مستقلّة خارج نطاق الوصاية العبّاسيّة تماماً كما أصبح حال المناطق الغربيّة في «المغرب» نتيجة الهزّات الناجمة عن حركات التمرّد البربريّة.

وقبل موته، عزم المنصور على تأمين الإعتراف بابنه محمد وريثاً له والوصول الى ذلك يتطلّب تنازلاً من ابن عمّه «عيسى بن موسى» الذي عيّنه السفّاح وارثاً للخلافة بعد المنصور. . واغتنمها المنصور فرصة لحمل الناس على مبايعة الوريث المعيّن من قبله وصارت سابقة، منذئذٍ، لتوريث السلطة للقريب المباشر.

● خلافة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩/ ٧٧٥ ـ ٧٨٥/)

مات المنصور، الخليفة الكفؤ، الذكي، القادر، القاسي القلب، مات اثناء ذهابه للحجّ إلى مكّة وخلفه ابنه ووريثه «المعيّن»، محمد المهدي، على «العرش» في ذي الحجّة عام /١٥٨/ تشرين الأول ٧٧٥/ ودامت خلافة المهدي عشرة أعوام أي الى /١٦٩/ ٧٨٥/ وقد تميز عهد المهدي بالإهتمام بالدفاع على الحدود (وهو اهتمام استتبع استئناف الحرب ضدّ بيزنطية في

الغرب.. أمّا في الشرق فكان المطلوب مجابهة ثورة «المقنع» في ما وراء النهر). هذا، مع إظهار الرغبة بالتهدئة الداخليّة وهي رغبة استحوذت على فكر هذا الخليفة الذي خلُصت نيّته لحلّ المشكلة العلويّة حلاً سلميّاً؛ وقدّم البرهان العملي على ذلك بأن قلّد الوزارة لعلويّ كان رهن الإعتقال السياسي هو «يعقوب بن داود» الذي حلّ مكان «أبو عبد الله» عام/ ١٦١/ ٧٧٨/.. تلك الوزارة التي جاءت لعوامل ومرامي سياسيّة آلت الى الفشل وانتهت عام/ ١٦٦/ ٧٨٢ - ٧٨٣/. - وخلال خلافة المهدي ازدهرت التجارة والصناعة اذ سايرتا أذواق البذخ والفخفخة التي سادت البلاط. وعلى الصعيد الداخلي، ايضاً، لا بدّ من الإشارة الى نمّو وتصاعد المركزيّة في الإدارة ووضوح الاتجاه إلى الإستبداديّة المطلقة.

١ - استئناف الحرب البيزنطية

منذ زال الأمويّون، أصبح الحديث عن هذه الحرب قليلا، بل نادراً، وان كان المنصور قد أعارها فكره واهتمامه. - اعاد ترميم اسوار ومعاقل «ميسيس» (موبسويت وماميسترا) في صقليّة.. ورمّم «ملاطية» في أعلى وادي الفرات وهي مفترق طرق لعبت دوراً هامّاً في الحملات ضدّ الأناضول البيزنطي (بلاد الروم) وتمّت العودة، مع الفارق، إلى «الصائفة» أي حملة الصيف التي تتيح فرصة مقاتلة المشركين في عقر دارهم وترعى وتنميّ مشاعر الجهاد و(الحرب المقدّسة) وتضع القوّات المسلّحة في حالة استنفار دائمة. ودارت الغارات المتبادلة سجالا وفيها يلحق الفريق المغير بالآخر أقصى ما يستطيع من الأضرار وإتلاف المزروعات ونهب القرى وكسب الماشية دون أن يتحوّل ذلك إطلاقاً الى فتح بالمعنى الحقيقي أو إحتلال دائم نظراً لقلّة الوسائل أو إنعدامها.

عام/ ١٦٢/ ٧٧٨/، وردًا على غارة تغلغل فيها المسلمون حتى بلغوا أنقرة، نفذ البيزنطيّون إلى عمق الأراضي السوريّة فعزم

المهدي على الردّ والوزير الشيعي يعقوب بن داود هو الذي وضع البرنامج الدفاعي عن الثغور (العواصم) في حين وجّه الخليفة الجهود إلى بناء الحصون وإعادة تنظيم الجيش وتقوية الحاميات الحدوديّة.. وسيّر نحو الغرب وحدات من القوّات المسلّحة عاقداً لولده الفتى هارون القيادة العليا لتلك القوّات.. وقد توصّل الجيش العباسي المذكور، في النهاية الى التمركز في «الشاطيء الذهبي» للبوسفور، عام/ ١٦٥/ ٧٨٢/.

عندئذٍ طلبت الأمبراطورة «إيرين» هدنة مدّتها ثلاث سنوات فأجيب طلبها لقاء دفع غرامة سنويّة ثقيلة. إلّا أنّ وضع الامبراطورة الداخلي، كزعيمة للكنيسة، كان صعبا فهي النصيرة والمحبّة للتقاليد الكنيسيّة في حين كان اعداء هذه التقاليد يتسنّمون أعلى المراتب وأكثرها حساسية وقد احتاجت الى جهود خمسة اعوام مستمرة حتّى توصلت إلى إلغاء قوانين محاربة الإيقونات والتقاليد المذكورة؛ وفي عام /١٦٨/ ٧٨٥/ نقض البيزنطيّون الهدنة واستأنفوا عمليّاتهم العدوانيّة ولكن دون تحقيق أيّة نتائج إيجابيّة لصالحهم.

٢ ـ ثورتا «المقنّع» والمحمّرة

عام/ ١٦٠/ ٧٧٦/، العام الذي فيه قاد المهدي الحجّ بشخصه، قام رجل يدعى «هاشم بن حكيم» معروف بلقب «المقنّع»، قام باثارة حركة تمرّد في الأقاليم الشرقيّة (ما وراء النهر) من الامبراطوريّة.. وترجمة حياة هذا الرجل غامضة.. فكلّ ما يُعرف عنه أنه من عائلة تقطن منطقة مرو وما نعرفه عنه أنّه، في ثورة «عبد الجبّار» في مرو، عام/ ٧٥٩/، ساهم المقنّع في الحركة واعتقل ونقل الى بغداد وهناك استطاع الهرب والعودة الى مرو والعمل مع أصحابه على تنظيم ثورة جديدة؛ وكتابع مؤيد لأفكار انصار «ابو مسلم» فقد انتمى، قبل ذلك، الى حركة «الراونديّة»

وانتهى المطاف بهذا الرجل الى التبشير بانتقال الأرواح (التقمّص) والتجسّد المتتابع للإلّه المعبود وقدّم نفسه على أنّه تجسيد الله في جيله بعد آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وابو مسلم.. (ثمّة افكار مشابهة عادت للظهور أيّام «الحاكم» سنة الألف وتلك الأفكار احتضنها الدروز ودافعوا عنها..)

لقد ظهرت امرأة عالمة كانت تساعد المقنّع على كسب الأنصار في الأوساط الشعبيّة.. أما مسألة قناعه؟!: ـ لقد كان يخفي وجهه وراء خمار من ذهب وقيل قناع من ذهب اذ يجب الا يرى احد وجهه (وتلك مقولة مريديه) حتى لا تبهر طلعته البهيّة الناظرين اليه.. أمّا مقوله اخصامه فهي أنّه استعمل القناع لستر عينه العوراء ووجهه البشع المنفّر (وهنا تتكرّر حكاية الأعور بوليفام POLIVAME وهانيبال HANNIBAL).

وكمشعوذ ماهر استطاع ايهام البسطاء بأنّه هو الله ومن جانب آخر كان ينظّم تابعيه في جمعيّات سرّيّة متقدّمة تدريباً وتلقيناً.. وهو نهج أحرز بعض النجاح..

ثورة «لابسي الأبيض» انفجرت قرب «نقشب» بين «بخارى» و«بلخ» وما وراء النهر وبدأ المهدي قمع كلّ ذلك بقوّة السلاح؛ فاستنجد «المقنّع» بالقبائل التركيّة التي انضمّت لحركته وهاجمت أراضي وممتلكات المسلمين ومنهم المقنّع الذي عجز عن دفع مرتّبات قوّاته فأباح النهب وأعلن أنّه مشروع.. ـ جبريل بن يحيى تولّى عمليّات القمع باسم المهدي وحاصر «نقشب» مدّة اربعة أشهر فقوّض.. ونقب..وقصف بالمنجنيق حتّى فتح المدينة ولكنّه فوجيء باختفاء المقنّع الذي نجح في الهرب.. واستمرّ القمع وأسندت قيادة الجيش الى «معاذ بن مسلم» الذي دحر قوّات المقنّع مرّة جديدة عام /١٦١/٧٧٧/. وكانت حربا طويلة وصعبة لأنّ الثورة امتدّت إلى سمرقند وبخارى عام /١٦٥/٧٨١/ وتحصّن المتمرّدون في قلاعهم لا يبرحونها وحتّى المقنّع لجأ إلى إحدى تلك

القلاع في «كيشش» بين سمرقند وبلخ وهناك في عام /١٦٦/٧٨٢ أو /٧٨٣/ سدّت بوجهه السبل كلّها وضيّق عليه الخناق فسمم زوجاته واستمرّ يلعب دوره إذ ألقى بنفسه في تنور. . ولكنّ المؤرّخ الطبري قال غير ذلك: ـ المقنّع تناول السمّ لوحده وقطع رأسه وأرسل إلى المهدي. . أمّا طائفة لابسي البياض (المقنعة) الواقعة تحت تأثير المزدكيّة والرافضة لنواهي الشريعة فقد عاشت طويلا بعد مؤسّسها حتّى ذابت في مختلف تيّارات الهرطقة الإسلاميّة.

وثورة أخرى قامت بها جماعة «المحمرّية» (الحمر) والتي تتصّل هرطقتها الإسلاميّة بالخرّميّة واندلعت في جرجان جنوب شرق بحر قزوين في المنطقة الحدوديّة المحاذية للقبائل البدويّة الآتية من خوارزم وقد قمعت الثورة من قبل القوّات القادمة من طبرستان ولكن الحركة نفسها استيقظت مرّة أخرى عام/٧٩٦/.

على الصعيد الداخلي بالغ المهدي في اضطهاد المانويّة التي مارست بعض التأثير على المسلمين علماً أنّ «علم اللاهوت» الإسلامي نما وتعمّق في الأصل، لمجابهة علماء المانويّة الذين وقفوا دائماً، موقف الرفض لاعتبارهم ذمّيين وما يترتّب على ذلك. .

في بلاط خليفة بغداد، تفاقمت، في آخر القرن الثامن، الصّراعات «السلاليّة» وارتفع عدد النساء اللّواتي صرن يلعبن دوراً نشطاً في الصّراع المذكور. . واحدة من زوجات الخليفة المهدي، الأمة البربريّة المعتقة «الخيزران» كانت تتدخّل، دوماً لصالح هارون الإبن الأصغر للخليفة الذي عيّن، عام/١٦٠/٧٧٦/ ابنه البكر «موسى» وليًّا للعهد ووارثاً مع لقب «الهادي الى الحقّ»؛ ثمّ، وفي عام/١٦٦/ ٧٨٢/ عيّن هارون وارثاً لأخيه الأمر الذي لم يكن كافياً لإرضاء «الملكة الوالدة» الخيزران التي أغرت البرامكة بالدخول معها في لعبتها واشتدّ ضغط الحاشية على المهدي فعدّل أمريه السابقين وأعطى الأولويّة لهارون فرفض الهادي القبول بالتغيير الطاريء (وكان حاكماً لإقليم «جورجان» بعيداً عن بغداد) ولكنّ

والده قرّر الإنتقال بنفسه إليه لإقناعه، تجنّباً للشّقاق ومضاعفاته، وأثناء مسيرته إلى جورجان مات الخليفة ميتة فظيعة في /٢٢ محرّم ١٦٩/ آب ٧٨٥/ ولم يستطع أحد اطلاقاً أن يعلم اذا كان قد ذبح، أو قتل بالسمّ، أو ذهب ضحيّة حادث صيد؟!

موسى الهادي الى الحقّ، القويّ بحقّه في الخلافة، استلم السلطة وهدّأ قوّات حرس الخلافة التي طالبت، بعنف بدفع مرتّباتها.. وكان مُلك الهادي قصيراً متميّزاً بصراعات «القصر» العنيفة ردّاً على الإجراءات المتطرّفة التي اتخذها حال استلامه السلطة، فوضع أخاه هارون في السجن وعزل أمّه الخيزران، ومنعها من التدخّل في أيّ شأن من الشؤون وخلع الوزير البرمكي يحيى بن خالد نصير هارون وأنحى باللّوم والتأنيب على الخليفة بالنسبة لسلوكه العام وبخاصّة حرمان هارون من ولاية العهد لصالح جعفر ابن الهادي واتخذ الخليفة وزيراً له الحاجب «الرّبيع بن يونس» الذي لعب ابنه دوراً هامًّا في مستقبل الأيّام.

السياسة ضد علويّي بغداد اشتدّت صلابة وقسوة وفي عام /١١/١٦٩ حزيران ٧٨٦/ قمعت بسرعة، ثورة قام بها الحسين بن علي بن الحسن لم يكن الاعداد لها في المستوى المطلوب فبدأت في المدينة وانتهت بمذبحة أصبحت يوم حداد تحيي الشيعة ذكراه كلّ عام باسم (يوم فخخ).. وتلك ثورة وثيقة الإرتباط بسابقتها عام /٧٦٢/١٤٥/ نظراً لوشائج القربى بين الضحايا ونوازع حقوق الثأر وقد سلم من المذبحة ادريس بن عبد الله بن الحسن وهرب إلى مصر ومن هناك إلى المغرب حيث أسّس أوّل إمارة «زيديّة» في «وليلة» (فولوبيليس القدعيرة).

وهناك تأسّست أول أسرة مالكة كبيرة مرّاكشية إدريسيّة وقد مات إدريس مسموماً عام /١٧٥/ ٧٩١/ ويقال أنّه سمّم بأمر من هارون الرشيد.

بعد عام فقط من تولّيه السلطة، مات الهادي ميتة شنيعة أيضاً

ويقال أن أمّه ـ في حالة غيظها وسخطها ـ هي التي سلّحت اليد القاتلة؟ وحال موته تمّ الافراج عن هارون ويحيى البرمكي.

خلافة هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣/٧٨٦ ـ ٨٠٩)

هارون الرشيد كان الخليفة الأكثر شهرة في العائلة العباسيّة وحول شخصه تشكّلت هالة (فولكلوريّة) حوّلته إلى شخصيّة شعبيّة (بواسطة مؤلّف «ألف ليلة وليلة») جسّدت العطاء والسخاء الشرقيّين.. هذا علماً أنّه كان ابعد ما يكون عن العاهل المتميّز.. فهو مدين بسمعته وشهرته للكتّاب روّاد بلاطه وللبرامكة الذين عرف كيف يستفيد من مزاياهم ومؤهّلاتهم. أما في الغرب فقد عرفوه عبر العلاقات التي أقامها مع «كارلس الأوّل الكبير» ملك الفرنجة وامبراطور غربي اوروبة [Charlemagne]؛ ورغم جدار الصمت الذي أقامته المصادر العربيّة دون العلاقات المذكورة وكذلك العلاقات الأخرى التي أقيمت مع امبراطور «الأغالبة» الافريقي فهناك حقيقة ستبقى بارزة وهي بحث العبّاسيّين، في تلك الحقبة، عن حلفاء لهم ضدّ الأمويّين في أسبانية..

عهد هارون تميّز بانفصال افريقية وتصاعد الحرب البيزنطيّة وبلوغ البرامكة أوج مجدهم وقوّتهم ثمّ ازالتهم من الوجود بالأسلوب الفظيع المعروف.. لقد بادأ هارون الرشيد العلويّين باللين والمهادنة وما عتم أن استأنف مراقبتهم وتشديد الخناق عليهم، وبخاصّة يحيى بن عبد الله أحد أعمام مؤسّس الأسرة الادريسيّة وقد نجا، هو أيضاً، من مذبحة «فخخ» وقد حدّد هارون الرشيد مبلغاً طائلاً ثمناً لرأس يحيى المذكور ولكن أيّة يد او عين عجزت ان تصل اليه فالتعاطف الشعبي الواسع معه حماه وتستّر على مكان وجوده.. وفي عام /١٧٥/٧٩٢/ أعلن يحيى، من الديلم، دعوته الى الثورة فحرّك هارون قوى كبرى لحسم الموقف معه إلّا أنّ الفضل البرمكي استطاع تحقيق «خضوع مشرّف» من قبل يحيى بالطرق السلميّة

واعتزل السياسة في المدينة قرب العلويّين القاعدين هناك. إلاّ أنّه مات ميتة غامضة ظلّت سرًا من الأسرار وهذا غير مستغرب بالنسبة لشخصيّة شيعيّة مهمّة؟!

«ملك» هارون دام /١٢/ عاما ـ وعام /٧٨٧/١٨١ اندلعت ضدّ السلطة العبّاسيّة ثورة في القيروان وأعيد النظام الى نصابه من قبل «ابراهيم بن الأغلب» جدّ الأغالبة الذين ظلّوا، زهاء قرن كامل، سادة افريقية. ـ في عام /٨٠٠/١٨٤/ نجح إبراهيم المذكور بالحصول على تعيينه حاكماً لافريقية وعملا بنصائح «حرثمة» اقطعه هارون الاقليم المذكور فمارس ابراهيم فيه حكماً ذاتيًا أقرب ما يكون ـ عمليًا ـ الى الإستقلال وذلك لقاء أجر (غرامة؟) سنوي يبلغ أربعين الف دينار تدفع لبغداد اضافة الى ترك الاعانة السنوية التي تدفعها مصر. ـ وهذا «العاهل» الجديد أسّس مدينة اداريّة جديدة سمّاها «العبّاسيّة» فيها بنى مقرّه وهي على بعد ثلاثة كيلومترات جنوب شرق القيروان وهناك احاط نفسه بحرس قوي من العبيد السود ومن عناصر مأمونة الجانب من جنده. ـ وفي نفس العام/ ٧٩٧/١٨١ ـ ٩٨/ سئمت الامبراطورة «ايرين» الغزوات الصيفيّة (حرب الإستنزاف الدوريّة) وهي الغارقة في شاغل اضطرابات بيزنطية الداخلية والمحتاجة الى الهدوء على الحدود الشرقيّة لامبراطوريّتها؛ فوقّعت، مرّة جديدة اتفاقية مهادنة مع العبّاسيّين لقاء دفع غرامة محدّدة لهم. وكان لهارون مصلحة في فترة راحة ينصرف خلالها الى اعادة تنظيم جيوشه على الحدود الشماليّة وراء خطّ المواقع المتقدّمة المحصّنة (ثغور الاسلام) شمال انطاكية وحلب في اقليم «العواصم» الذي يمتدّ ـ في تلك الحقبة ـ من الجزيرة الى البحر الأبيض المتوسّط وهي القواعد المستخدمة في الحملات الموسميّة بين انطاكية ومنبج وفصل الخليفة، منذئذٍ عن «الجند» عدّة مراكز مثل (منبج ـ دلق ـ رعبان ـ قورس ـ تيزين) التي شكّلت خطاً دفاعيًا ثانيا هو «خط العواصم»

في شوّال/١٨٦/٣١ تشرين الأول ٨٠٢/ اصبح «نيسيفور فوكاس» امبراطوراً لبيزنطية فرفض الإستمرار بدفع الغرامة التي قبلت بها «إيرين» وكان امام هارون مجال للثأر فاختار قبرص هذه المرّة: ـ كان لديه أسطول مهم في ترسانة صور وشغل السفن الحربيّة فيها فانطلق الاسطول، اياه، من الشاطيء السوري وقام بعملية نهب الجزيرة الكبيرة وبدأ منذئذٍ الصراع على الإنفراد بالهيمنة على البحر الأبيض المتوسط.. وكذلك على احتكار العلاقات التجاريّة مع الغرب من جهة، ومع سورية ومصر وافريقية؛ علماً ان الموقع الجغرافي لقبرص اعطاها ـ في اطار شبلة ونظام المواصلات ـ اهميّة اساسيّة لا تضاهى..

عام /٨٠٠/ ومنذ بدأ الخليفة تنظيم الحدود الشماليّة نقل مقرّه الى الرقّة التي اخذ سورها شكل حذوة حصان (وهو من منجزات المنصور) وتنفتح على الضفة اليساريّة للفرات مقابل صفّين.. والمكان اقرب الى ارض العدو وأسهل لجهة قيادة الجهاد (الحرب المقدّسة).. ففي كلّ صيف من كلّ عام كانت تنطلق القوّات وتنهب الأراضي البيزنطيّة. ـ ومن جانب آخر شعر الخليفة، في الرقة، بحرّيّة أكبر بعيداً عن بغداد، وسكانها المهيئين للتمرّد والثورة وعن البرامكة وتصرّفاتهم وكأنّهم هم سادة البلد..

١ ـ البرامكة: الأوج والسقوط

منذ بدء العهد العبّاسي لعبت العائلة البرمكيّة دوراً من أعلى مستوى في البلاط.. وسبق أن علمنا أنّ البرمكيّ «يحيى بن خالد» لم يخف تعاطفه مع هارون بعد موت الخليفة المهدي؛ ولهذا السبب سُجن طوال المدّة القصيرة لحكم الهادي، ونجا من المصير المعدّ له بفضل موت الهادي المفاجيء. ـ إنّ وصول هارون الرشيد إلى السلطة، عام/ ١٧٠/٧٨٦/ تميّز بامتلاك البرامكة لهذه السلطة فدامت وزارتهم /١٧/ عاماً:

تولى يحيى إدارة شؤون الدولة طوال ثلاثة أعـوام تدعمـه وتسانده في ذلك، «الملكة» الأم الخيزران فوجد نفسه يضطلع بسلطة لا محدودة دون أن يشغل، في الـواقع العملي، سـوى وظائف إداريّة أو حكوميّة.. إنّـه «الوزيـر» ويشاركـه في مهامّـه الوظيفيّة إثنان من أبنائه هما الفضل وجعفر. ـ تلك حقبة عبّر عنها المؤرّخون والمؤلّفون العرب مستعملين عبارة «سلطان آل برمك». و«الأخبار البرمكيّة» شكّلت مادّة أدبيّة وروائيّة منقطعة النظير؛ وإذا كان الرشيد، في بدء خلافته، قليل الاهتمام بإدارة الأعمال، فقد تصاعد اهتمامه تدريجياً ومنذ فتح أذنيه لغشّ وخداع أعداء البرامكة وحتى انتهى به المطاف إلى طرد هؤلاء وتصفيتهم.

صديق حميم قديم للرشيد، وخصم للبرامكة في آن، (الفضل بن الربيع صاحب المنصور) كان على رأس المحرّضين ضدّهم حتّى لم يعد الخليفة قادراً على إخفاء موجدته وحقده الذين بدأت رياحهما تلفح حياة البـرامكة؛ ومـع ذلك عـرف هؤلاء ـ على الصعيد العام للحكم وإدارة الدولة ـ كيف يستمرّون في كسب النفوذ والحفاظ عليه سالكين نهجاً سياسيّاً منزّهاً عن أهواء الموالين والأنصار، وهو موقف نادر الوجود بالنسبة لأيّ زمان.. إنّ روح التساهل وحسن الإحتمال ظاهرة أصيلة فيهم ولذلك كان اهتمامهم ينصرف دائماً إلى الخير العام المشترك، وخير شاهد على ذلك، الطريقة التي اختـارها الفضـل البـرمكي في إقـرار الصلح بين العباسيّين والعلويّين فتوصّل ـ دون إراقة دماء ـ لانتزاع ولاء «يحيى بن عبد الله» للخليفة.

عام /١٨٦/٨٠٢/، بعد الحجّ الذي قام به إلى مكّة، ومعه يحيى والأميران الوارثان الأمين والمأمون، وفي ليلة الأوّل من صفر /١٨٧/ ٢٨ ـ ٢٩ كانون الثاني ٨٠٣/ أمر هارون الرشيد بقطع رأس جعفر واعتقال الفضل بن يحيى وأخويه موسى ومحمّد (أخلي سبيل هذا الأخير سريعا) ووضع أبيهم يحيى في الإقامة المراقبة

ونقل السجناء البرامكة جميعاً إلى الرقّة بعيداً عن أصدقائهم وعملائهم وتابعيهم، وصودرت أملاكهم ـ وكان معظمها عقارات وأراضي ـ ومات يحيى عام /١٩٠/٨٠٥/ وولده الفضل اختفى عام /١٩٣/٨٠٨/. ـ أمّا، ماذا كانت أسباب تلك النكبة؟

خُلُق هارون تطوّر خلال سبعة عشر عاما فأصبح أشدّ غيرة من سلطة البرامكة وهيمنتهم وهم الذين أصبح لهم منهجهم السّياسيّ الخاصّ، واهتماماتهم بمختلف الحركات الفلسفيّة مع تأمين النقاش الحرّ بينها وحولها هذا ما لم يكن يستسيغه المسلمون السنّة. وكان الخليفة يعاني من ضغوط الأوساط الدينيّة الورعة ويتوجب عليه الإلتزام الدقيق والصادم بالنهج السنّي «المستقيم» فكان يقود الحجّ عاماً وينهض للجهاد عاماً وهكذا.. فأصبح البرامكة ـ والحالة هذه ـ مصدر إزعاج وإقلاق وإغاظة له؛ فلامهم وأنّبهم على ممارسة دكتاتوريّة حقيقيّة مدفوعاً إلى ذلك بروح الحسد لهم على ثرواتهم التي بلغت مقادير خياليّة.. وثمّة اعتراضات وشكاوى أخرى: ـ وزّع البرامكة في كلّ مكان ذوي قرباهم وعملاءهم وتابعيهم حتى أصبح يصحّ فيهم القول أنّهم دولة داخل الدولة وهذا ما يصعب قبوله من قبل أيّ عاهل يمارس السلطة المطلقة.

كلّ هذه العيوب، مجتمعة، جلبت الدمار لذرّية خالد بن برمك وانتقل منصب الوزير إلى الفضل بن الربيع السوريّ النسب وممثّل الإتّجاه العربي المجابه للإيرانيّين..

واضطهد العلويون والمعتزلة فاعتبروا خارجين على القانون ودخلوا مرحلة العمل السرّي وتضاعف التشدّد في تطبيق «الذمّية» على المسيحيّين واليهود مع تجديد إجراءات التميز العرقي..

٢ ـ ثورة في خراسان

في حين أصبح هارون يتولّى، بشخصه، شؤون الحكم، مع

مستشاره الفضل بن الربّيع، عُيّن لخراسان حاكم جديد هو «علي بن عيسى بن ماهان» ـ وفي خراسان، منذ عام /١٧٩/ ٧٩٥/ ثورة خارجيّة أخذت طابع الإستيطان والإستمرار يتزعمها ويديرها «حمزة بن ادراك» ـ وقد قمعت نهائيًا في عهد خلافة المأمون عام /٢٠٣/ ٨٢٨/.

لقد سلك الحاكم الجديد سبيل الضراوة الكاسرة والأطماع الجشعة، واستغلّ السكّان استغلالاً لا حدّ له، فارتفعت الشكاوى والإحتجاجات حتى وصلت إلى بغداد في نفس الوقت الذي فيه كان الخليفة يتلقّى هدايا علي بن عيسى.. وفي النهاية ذهب هارون، بشخصه، إلى الريّ فنجح علي بن عيسى في خداعه للخليفة الذي ثبّته في مهّمته، فاشتعلت، عندئذٍ ثورة في سمرقند /١٨٩/ ٨٠٥/ قادها «رافع بن ليث» سليل حاكم أموي سابق تمّت تصفيته على يد أبو مسلم؛ وتمكّن رافع من سرعة الإستيلاء على ما وراء النهر وبسط سيادته على الاقليم المذكور، فقرّر هارون التدخّل شخصياً لإنقاذ إقليم غنيّ، مزدهر، كانت علاقاته جيّدة مع السلطة المركزيّة لجهة دفع الضرائب والغرامات. فأعطى الخليفة أمره بالتدخّل إلى ولده الأصغر «عبد الله» (المأمون في المستقبل) وكان موجوداً في «مرو» بخراسان.. أمّا الخليفة فقد استكمل إجراءاته وتجهيزاته الميدانيّة اللاّزمة لوجوده بالذات في عمليّة القمع ولكنّه لم يستطع الوصول إلى أبعد من «ثوس»: ـ لقد مرض في هذه المدينة وفيها مات في الثالث من جمادي الثانية /١٩٣/ ٢٤ آذار ٨٠٩/.

وسورية التي سبق أن نشبت فيها ثورة عنيفة عام /٧٩٠/ وتمّ قمعها عام /٧٩٦/ من قبل جعفر البرمكي؛ تجدّدت فيها الإضطرابات التي أجّجت نارها المشاحنات بين الكلبيّة والقيسيّة.

في مصر، استدعي الحاكم الذي ساند الميول الإستقلاليّة، والمغرب انفصل تماماً عن الامبراطوريّة، وإدريس الذي نجا من

مذبحة «فخخ» أصبح - منذ عام - ٧٨٨ - كما سبق ورأينا - رأس المملكـة الإدريسيّة في «فـولوبـوليس»، وقامت بجـواره المملكة الرسميّة وعاصمتها «الطاهرة».

قبيل نكبة البرامكة أعدّ هارون وصيّة سياسيّـة عالجت أمـر الخلافة وأعدّت التقسيم الفعلي للأمبراطوريّة؛ الأمر الذي أطلق العنان للكثير من الأطماع وحرّض على التجزئة إلى إمارات تفاوتت درجات الحكم الذاتي فيها.. ومن بين أبنائه الأكبر سنّاً اختار هارون وريثا له محمّداً ابن زبيدة الهاشميّ الجدّين فأسند إليه ولاية البلدان العربيّة مع لقب خليفة وكنية «الأمين». - أمّا عبد الله، البكر، ابن السرية الإيرانيّة فقد عيّن وريثاً، بعد الأمين، وإليه أسندت ولاية خراسـان والاقاليم الشـرقيّة وقيـادة عدد من الجيوش مع صلاحيّات حكم ذاتي واسعة جدّاً جاعلاً مقرّه في «مرو». - والإبن الثالث، القاسم، قلّد مسؤوليّات التخوم العربيّة - البيزنطيّة وأقام في سورية الشماليّة (منطقة قنّسرين).. وحتى يعطي الضّمانة المطلقة لإلتزاماته أودع الخليفة، في الكعبة، أثناء حجّة عام /١٨٦/٨٠٢/ نصّ الوثائق المسمّاة «مـراسيم مكّة» (قـرار هارون وموقفه اعتبرا من قبل كثيرين من علماء الفقه لا يتطابقان مع الشريعة).

● **الخليفة الأمين (١٩٣ - ١٩٨/ ٨٠٩ - ٨١٣)**

لدى موت هارون، «تسنّم العرش» - دون معارضة - محمّد الأمين (الإبن البكر لزبيدة حفيدة الخليفة المنصور) وتولّى الوزير الفضل بن الربيع إجراءات البيعة للأمين وأعاد جيش الخليفة من «ثوس» إلى بغداد، وفيها بدأت إدارة شؤون الدولة؛ وكان حكم المؤرّخين العرب على الأمين أنّه شخصيّة ضعيفة، طائشة، تافهة.

عام /١٩٤/٨١٠/ وبتحريض من الفضل بن الربيع، حرّك الأمين مسألة إعادة النظر بقرار الخلافة الموضوع من قبل هارون

الرشيد، فأضاف، في الخطبة، إسم ولده «موسى» بعد اسم عبد الله المأمون وانتهى به الأمر، أخيراً، إلى الإلغاء التام لإسم أخيه غير الشقيق.. ممّا حدا بالمأمون أن يقطع العلاقات بين مرو وبغداد وأن يعلن خلع الأمين... بالمقابل أعلن الخليفة أخاه غير الشقيق متمرّداً ووجّه ضدّه ـ في جمادى الثانية /١٩٥/ اذار ٨١١/ ـ قوّات يقودها علي بن عيسى بن ماهان، الحاكم السّابق لخراسان، وباشر المأمون، من جانبه، العمل، وبدأت العمليّات العدوانيّة في عام /١٩٥/٨١١/ حيث قامت بين الأخوين العدوّين حرب حقيقيّة دامت عامين ـ جيش خراسان المؤلّف، على الغالب، من عناصر إيرانيّة، كان بقيادة «حرثمة بن أعيان» الخراساني المنشأ، الرجل العميق التجربة، الحاكم السابق لفلسطين، ثمّ افريقية، وقائد الجيش في عهد هارون. ومساعده في القيادة الجديدة ضابط فتى خراساني يدعى «طاهر بن الحسين». ـ وتحرّك جيش الشرق باتّجاه بغداد: ثلاث مرّات متتابعة أرسل فيها الأمين قوّات لإعتراض الجيش الزاحف وثلاث مرات هزمت القوات المذكورة حتى احتل جيش حرثمة منطقة جبال شرقيّ دجلة.

في تلك الأثناء، ثارت سورية، من جانبها، ضدّ الأمين وحاربت تحت رايات المأمون الذي حفظ لسورية هذه البادرة فقام في بدء خلافته بزيارة لدمشق تغنّى بها أطنب في وصفها شعراء البلاط الرسميّون.

لقد حوصرت بغداد بدءاً من ذي الحجّة /١٩٦/ آب ٨١٢/ ودام الحصار عاماً كاملا.. وفي محرّم عام /١٩٨/ ايلول ٨١٣/ دخل حرثمة المدينة التي تصاعد الإضطراب داخلها إذ تخلّى الجميع عن الأمين فاستسلم لحرثمة لقاء وعد بالحفاظ على حياته وعبثاً حاول القائد إنجاز وعده وتخليص الأمين الذي حاول الهرب في سفينة.. ولكنّ رجال طاهر قبضوا عليه، وقتلوه. ـ «هنري

لاوست» حاول تصوير النزاع بين الأخوين على أنّه صراع بين جنسيّتين وبين تيّارين لا يلتقيان في إطار الدين الواحد: فالأمين ووزيره الفضل بن الربيع يمثّلان العروبة والسنّة؛ والمأمون ووزيره الفضل بن سهل يجسّدان القضيّة الإيرانيّة والشيعة.

إنّ تخطيطاً كهذا يعطي تنافس المطامع والمطامح معنىً لا نصيب له من الصحّة في الواقع العملي.. والأحداث كذّبت دائماً، هذه الأحكام المطلقة التي أعطت العروبة هويّة سنيّة والإيرانية هويّة شيعيّة.. (هـ. لاوست ـ «الشيعة» ص ٨٣) ـ فالأقرب إلى الصواب والصحّة، هو البحث عن الأرضيّة الفكريّة للنزاع إيّاه: ـ الأفكار الليبراليّة التقدّمية التي شجّعها البرامكة.. والأفكار المحافظة التي دافع عنها المتمسّكون بالإسلام التقليدي.

● **خلافة المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨/ ٨١٣ ـ ٨٣٣/)**

الإجماع على الإعتراف بالمأمون أعطاه قوّة «السيّد المطلق» وتولّيه الخلافة أعاد للأمبراطوريّة الكبيرة وحدتها وهي الممتدّة من بحر «آرال» إلى البحر الأبيض المتوسّط. ومع كونه أصبح الخليفة أبقى المأمون على مقرّه في «مرو» ستّ سنوات (٨١٣ ـ ٨١٩) وأوكل مهام إدارة الأقاليم الشرقيّة إلى وزيره الفضل بن سهل (وهو من أصل إيراني والده زردشتي دخل في الإسلام)؛ ذلك في حين أوكل المأمون إدارة ما بين النهرين إلى الحسن بن سهل شقيق الوزير. وكان على المأمون أن يواجه، في بغداد، انتفاضات علويّة، ونقمة السكّان الذين لا يستسيغون غياب الخليفة عن مدينتهم.. وباعتباره المستشار للمأمون حدّد الفضل الخطوط العريضة لسياسة الخليفة للدولة آخذاً في حسابه قوى المعتزلة التي تصاعد وقوي نفوذها في بطانة الخليفة وحاشيته. ومنذ قدوم المأمون احتلّت بغداد من قبل قوّات خراسانيّة يقودها طاهر بن الحسين الذي بدأ يلمع نجمه في عهد هارون الرشيد وأحاطه

النصر الأخير بظلّ من شكوك الخليفة، فعمد إلى ابعاده عن بغداد بأن أوكل إليه قيادة جند العواصم في مواجهة البيزنطيّين وسمّاه حاكماً للجزيرة وقائداً لقوّات سورية وصارت الرقّة المقرّ الدائم تقريباً لطاهر.

على الصعيد السياسي سلك المأمون، في البدء، سياسة إيجابيّة مع العلويّين ثمّ آثر المعتزلة وفضّلها عليهم، وفي عهده ظهرت العلامات الأولى لإستقلال خراسان وتوضّح فيها القلق الإجتماعي من خلال ثورة «بَبَك» BABAK.

واستؤنفت الحرب البيزنطيّة مع تغيير في بنية الجيش الذي أصبحت صفوفه تضمّ عدداً أكبر من المرتزقة الأتراك ومن الفرسان التركمان البداة.

عام /٢٠١/٨١٦/ دخل في تصوّر المأمون مشروع تحويل الخلافة إلى علويّ؛ وفي مرو منح - بمراسم احتفاليّة - وثيقة، مع وعد بالخلافة، إلى «علي الرضا» الذي بايعته بطانة الخليفة.. و «علي الرضا» (أمّه نوبيّة) لم يسبق له الإهتمام بالسياسة قبل استدعائه إلى مرو؛ وأصبح يعتبر الإمام الثامن من قبل الشيعة (الاثني عشريّة)

.. من الجانب الآخر، وترسيخاً للتحالف، قام المأمون، حسب التقليد، بتزويج علي الرضا من إحدى بناته ولم يقف عند هذا الحدّ، بل تجاوزه إلى استبدال اللون الأسود للرّاية العبّاسيّة باللّون الأخضر للراية العلويّة والسؤال: - لماذا قام المأمون بتلك الإجراءات كلّها؟ - هل كان يأمل بذلك، وضع حدّ للصراع مع العلويّين والحيلولة دون أيّ تمرّد شيعي مرتقب؟ - من الوجهة النظريّة، قد يرضي موقف المأمون جميع المسلمين.. إلاّ أنّ العراق بدأ تمرّده حالما انتشر نبأ إجراءات المأمون.. والموظّفون كانوا وراء التمرّد لأنّهم خافوا من ضياع مناصبهم في حال تحقّق تغيير سياسي على هذا المستوى لا بدّ أن يترافق بتغيير مماثل في

الملاك الأعلى للموظفين.. وأعلن في بغداد خلع المأمون وتنصيب عمّ له وأخ لهارون، خليفة وهو «ابراهيم بن المهدي» (محرّم ٢٠٢/ تمّوز ٨١٧/) - وحتّى في مرو ساد الإستياء حاشية المأمون من السياسة التي انتهجها بموافقة من الفضل بن سهل والقائد حرثمة الذي اقلقت الخليفة نجاحاته العسكريّة السابقة وعمليّاته المنتصرة ضدّ العلويّين فدفع حياته ثمناً لموقفه العدواني؛ وأدرك المأمون، بالنهاية، أنّ عليه إدخال التغيير على سياسته والعزوف عن حكم الامبراطوريّة كلّها من مقرّه في مرو.. واختار أسلوب المرحلة منهاجاً له في التصرّف لبلوغ الأهداف وأوّل ما رأى أنّ عليه عمله هو التخلّص من شخصيّتين أصبح يشعر بمضايقتهما له: الفضل بن سهل وعلي الرضا. - أثناء سفرة العودة الى بغداد، (في شعبان /٢٠٢/ شباط ٨١٨/) مات الفضل في مدينة «صرخص» سقط رأسه.. مات في حمّام وراجت مقولة أنّ عناصر نزعتهم عربيّة زادوا حرارة الحمّام؟.. وكثيرة هي الحوادث المماثلة التي أدّت إلى موت العديد من الشخصيّات السياسيّة!

بعد قليل، في صفر /٢٠٣/ ايلول ٨١٨/ - والمأمون يغادر «ثوس» مات علي الرّضا، بدوره، بعد أن شرب عصير الرمّان المسموم... ودفن في نفس المكان فتحوّل قبره في ضاحية ثوس الى مكان اسمه «المشهد» يحجّ اليه الشيعة.

في صفر /٢٠٤/ آب ٨١٩/ وصل المأمون بغداد دون «عقبة علويّة» واضطرّ ابراهيم بن المهدي إلى المغادرة توّاً وعاد الهدوء إلى العاصمة. وعودة الخليفة، تلك، شكلت نهاية حقبة حاول، خلالها، رأب الصدوع التي مزّقت الإسلام من الداخل.. واستقرّ الخليفة على ضفاف دجلة وهو يشعر بالحاجة إلى حاكم لخراسان التي عادت إليها الإضطرابات حالما غادرها.. واستدعى المأمون طاهر بن الحسين الذي سبق لبغداد أن استسلمت على يده.. استدعاه عام /٨٢١/٢٠٥/ وولّاه حكم الأقاليم الشرقيّة.. ومنذئذ

تحوّلت خراسان إلى إقليم يتمتّع، عمليّاً، بالحكم الذاتي، وتداولت هذا الحكم أسرة خراسانيّة؛ فعبد الله بنّ طاهر سمّي حاكماً لديار ربيعة في الجزيرة؛ وفي عام /٢٠٧/٨٢٢/ رفض طاهر الذي يقود أقوى جيوش الامبراطوريّة وأكثرها عددا، رفض التزامات الطاعة للخليفة وأوّل مظاهر هذا الرفض كان إغفال ذكر الخليفة في خطبة الجمعة.. ومات طاهر بعد قليل ولكنّ الخليفة المأمون لم يتجرّأ على انتزاع الإقليم من «طلحة» الذي خلف اباه.. لقد أصبحت (الأسرة الطاهرية المالكة) أمراً واقعاً فلا خراسان تقبل الخضوع لبغداد ولا بغداد راضية بالوضع المستجدّ في خراسان التي انفصلت عن الامبراطوريّة العبّاسيّة فخسرت، بذلك، أوسع وأغنى أقاليمها..

عام /٢١٧/٨٣٢/ زار المأمون سورية، ثمّ مصر، ومنذ عام /١٨٢/ ٧٩٨/ شكّل اللّاجئون الآتون من قرطبة (الأندلس)، شكّلوا مركز قوّة تفاقم خطره تدريجيّاً.. وللبرهان على أنّ الهيمنة العبّاسية على مصر لم تكن نظريّة جاء الخليفة بشخصه لوضع حدّ لثورة هامّة قام بها أقباط الدلتا. - ثلاث ثورات هامّة أثّرت على عهد المأمون: - ثورة «ابو السرايا الشيباني». - ثورة «حمزة بن ادراك». - ثورة «باباك»:

١ - ثورة ابو السرايا الشيباني

بعد استلام المأمون السلطة بمدة قليلة، انفجرت ثورة زيديّة في الكوفة والبصرة في جمادي الثانية /١٩٩/ كانون الثاني ٨١٥/ بزعامة «أبو السرايا» المدعوم من مكّة.

انطلقت الدعوة للثورة من المسجد الكبير واستجابت لها أعداد كبرى من شيعة المدينة وبدو الضواحي وقد وضع على رأس الثوّار أحد أحفاد الحسن بن علي «محمد بن ابراهيم طبا طبائي» الذي كان يقيم في الرقّة. وقد دحرت القوّات التي أرسلها الحسن بن

سهل لقمع الحركة ولكن الطبا طبائي مات في اليوم الثاني واستنجد حاكم السواد بحرثمة الذي قدم من خراسان وحوصرت الكوفة ثمّ فتحت وهرب أبو السرايا باتّجاه «سوس» في خوزستان ومن هناك حاول الوصول إلى الجزيرة مسقط رأسه فاعتقل وقتل في تشرين الأوّل ٨١٥ وعرض جسده المقطوع الرأس في ساحة المشنقة ببغداد.

٢ - ثورة حمزة بن ادراك (١٧٩ - ٢٠٥/ ٧٩٥ - ٨٢٠)

إنّها ثورة خارجيّة قادها حمزة بن ادراك، انفجرت في خراسان وذلك في ظلّ حكم هارون الرّشيد.. ودامت الثورة ربع قرن، وموضوعها كان الإلتزام بالثورة ضدّ الخليفة والذين يعترفون به.. وشكّل الثوّار جيشاً حقيقيّاً وهيئة خاصّة بالدعوة السياسيّة والدينيّة؛ ومن باب المناورة المرنة (التكتيك) عامل حمزة الذين لا يحاربونه معاملة الحلفاء الأمر الذي أتاح قيام علاقات جيّدة مع السكّان المدنيّين للمناطق التي يسيطر عليها، وبذلك لا يبقي عليه إلّا أن يقاتل ضدّ قوّات الخليفة وأنصار تلك القوّات الناشطين فعلاً..

هاجم الثوّار مدينة «حارات» (أفغانستان) دون جدوى فانكفأوا جنوباً في سجستان وعادوا للظهور في الشمال. وكلّف الخليفة المأمون طاهراً بوضع نهاية للحركة عام /٢٠٥/ ٨٢٠/ ولكن سكان نيصابور انفسهم هم الذين جعلوا من أنصار حمزة قوّة غير مؤثّرة وذلك بعد ثمانية أعوام.

٣ - ثورة «بابك»

ما إن أخمدت ثورة «أبو السّرايا» في العراق حتّى تفجّرت انتفاضة فلّاحيّة هامّة في أذربيجان دامت طوال عهد المأمون ودون أن يتمكّن من كسر شوكتها.. فكانت بين عامي (٨١٦ - ٨٣٧) عامل تحريض وتحريك القلاقل في الأقاليم الشرقيّة للامبراطوريّة.

ورئيس تلك الثورة «الإجتماعية ـ الدينيّة» كان يدعى «باباك» واعتبره انصاره تجسيداً لروح الله وهو رجل مغمور، بسيط المنشأ، تمّ «اكتشافه» على يد احد زعماء «الخرّميّة» في «عرّان» شمالي إيران.

إن استطلاع العقل المتجسّد ووليّ الأمر المنتظر موضوع «فولكلوري» كان سائداً آنذاك.. وثمّة إنعطاف آخر في الموضوع هو مسألة العزلة المؤقّتة (الإحتجاب) إذا احتجب الرجل، كما يقال، في دير اتخذته الخرّميّة مقرّاً لها وذلك قبل ان يصبح هو نفسه رئيساً للخرّميّة الذين شكّلوا مذهباً تأسّس عام /١٣٦/٧٥٤/ بعد موت ابو مسلم وذلك في «خرّم» من منطقة «إربيل» شمال شرق بغداد وزعموا أنّهم العاملون لنشر العدالة في العالم.. ويقول مؤرّخ الأديان في القرن الثاني عشر «الشهر ستاني» أنّ عقيدة هؤلاء امتداد للمزدكيّة؛ وكلاهما وقع تحت تأثير «المانويّة» القائلة بالازدواج والثنائيّة ووجود قوّتين متعارضتين متنازعتين في كلّ مكان وزمان: النور والظلمة.. الخير والشرّ.. الله الرحمن الرحيم والشيطان الرجيم.. الخ..

ومجتمع تلك الحقبة، ببنيته القائمة على الفوارق وعدم المساواة ظهر لهم وكأنّه من عمل الشيطان، أو هذا ما زعموه لأنّهم تحت هذا الغطاء الديني، دفعوا الناس إلى الثورة الإجتماعية وهاجموا، بعنف، الملكيّة الخاصّة داعين إلى الملكيّة الجماعيّة (المزارع الجماعيّة) وقالوا بتحرير الفلاّحين من قبضة ملاّكي الأرض وإبطال أعمال السخرة، والأعمال المرهقة، التي تفرضها الدولة وذهبوا حتّى إلى إبطال التكاليف الشرعيّة وتحويل الدين إلى الطاعة لرجل (والطاعة عبادة).. وبرنامجهم المغري هذا مهّد لهم في الرّيف بشكل واسع..

وخطّط باباك لعمل إرهابي منظّم منذ ولّوه رئاسة الحركة واتّسم الإرهاب بعنف ندر مثيله: ـ يذبحون الذين يقاومون ويحرقون القرى، ويستولون على أراضي الملاّكين المسلمين وكما في الحرب

الشاملة الهمجيّة يقطعون الأشجار ويحرقون المواسم.. وتمّت الحركة وتدرّجت من نجاح إلى آخر فاعتصم أصحابها في الجبال وصدّت البابَاكيّة طويلاً، الهجمات الحكوميّة، كما فشل هجوم جديد شنّه الجيشُ بقيادة عبد الله بن طاهر وزاد من إرباك قوّات الخلافة استئناف الحرب البيزنطية ويبدو أنّ العاهل البيزنطي «تيوفيل» قدّم الدّعم إلى الحركة البابَاكيّة.

بعد موت المأمون، أمكن إخماد الحركة وذلك في عام /٢٢٠/٨٣٥/ لمّا اسندت قيادة العمليّات إلى قائد من أصل تركي يحمل لقب «الإفشين» وهو لقب سابق للاسلام كان يحمله امراء اقليم سمرقند.

تلك الحقبة تميّزت بتكتّل القوى، والتسلّل إلى داخل منظمات الخصم وتقويضها من داخل، وشراء الضمائر والتجسّس على الغير وتعبئة كلّ الوسائل المماثلة واستعمالها. ومنذ نهاية عام /٨٣٥/ توصّل الإفشين إلى محاصرة «باذ» مقرّ باباك وعام /٢٢٢/٨٣٧ استسلم الموقع ولكن باباك نجح بالفرار الى إرمينية وهناك غُدِر به وسُلّم للسلطة فجيء به الى «سامرّاء» في حضرة الخليفة المعتصم الخليفة والأخ للمأمون فقتل وعلّق على المشنقة وتلك كانت طريقة عرض خونة السلطة.

على الصعيد الفكري والديني، كانت خلافة العشرين عاماً للمأمون بالغة الأهميّة؛ فقد اتّخذ لقب الإمام وقام بدوره الرئاسي الديني وأعطى دعمه الكامل للمعتزلة الذين فتنه اتّجاههم العقلاني حتّى عزم، جادّاً، عام /٢١٢/ ٨٢٧ على اعتبار عقيدتهم المذهب الرسمي للدولة وبذلك اقنعه القاضي «أحمد بن علي DU'ASH»، وخلافاً لمذهب السنّة دعم مبدأ «أنّ القرآن مخلوق».. لقد بدأ المعتزلة يلعبون دورهم المؤثّر منذ هارون الرشيد فقد كان يحدوهم همّ وحدة الإسلام وتصدّوا لوضع الحلول للمشاكل السياسيّة وقالوا بتوسيع دور أمير الجماعة ورئيسها وهذا لا يغيظ الخليفة لأنّه ليس مضادّاً ولا مناوئاً له.. بل يغيظ بطانته والذين يزعمون «تمثيل

الأمّة» فالمعتزلة دافعوا عن الإسلام ضدّ غير المسلمين وبخاصّة المانّيين وضدّ المعتزلة وقف «العلماء» والمحافظون على التقاليد. .
ان نظرية «القرآن المخلوق» المتعارضة مع نظرة السنّة الى القرآن أنّه كلام الله أملاه بواسطة رئيس الملائكة جبريل على النبيّ محمد. .
تلك النظريّة نالت موافقة المأمون المطلقة في عام /٢١٢/٨٣٣/ : عندئذ أعلن أنّ عليّاً اعلى مكانة من اصحابه. . وفي عام /٢١٨/٨٣٣ فتح ضدّ القضاة وفقهاء السنّة تحقيقاً وتفتيشاً جنائيين وفق مبادىء مذهب المعتزلة وقد سمّوها آنئذٍ «المحنة الأولى» غير أنّ خلافة المأمون تميّزت بالتوافق مع أوج النمو الذي أسهم في تحقيقه كلّ من «أبو حنيفة، ومالك بن أنس، والإمام الشافعي الذي مات عام /٢٠٥/٨٢٠. ـ وقد منح المأمون دفعاً كبيراً جديداً الى «بيت الحكمة» الذي فيه كانت تتمّ ترجمة الآثار العلميّة والفلسفيّة الأجنبية سواء الفارسيّة ـ السنسكريتيّة ـ واليونانيّة بواسطة الترجمات السريانيّة. . وفي عهد المأمون أنجز البخاري مؤلّفه الخاص بتصحيح الحديث (صحيح البخاري). . لقد كان عهد المأمون عهد الهموم الفكريّة وفيه انطلق المفكّرون المسلمون في تساؤلاتهم حول مشكلة العلاقة بين العقل والدين؛ وواحد من أقوى شخصيّات الإسلام آنئذٍ استطاع تأسيس المذهب الرابع (المدرسة الحنبليّة) ـ هو أحمد بن حنبل الذي تصدّي للدفاع عن المبادىء الدقيقة الصارمة للسنّة ومن أجل ذلك اضطهد واعتقل مثل جميع السنّيين المتزمّتين الذين رفضوا مجاراة الخليفة في أفكاره.

وإذا كان المأمون قد عجز عن حسم الحرب ضد بابك، فقد استطاع بالمقابل، متابعة الحرب ضدّ بيزنطية. وفي عام /٢١٥/٨٣٠ تغلغل بعيداً في آسية الصغرى يرافقه ابنه العبّاس فخرّب ونهب أنقرة واحتل عمّوريّة (عموريوم)؛ وفي شمال سورية صعّد اعمال الجهاد وضاعف الغارات التي استمرّت خارج فصل الصيف طوال عامين متتاليين وحقّقت نجاحات كبيرة.

في عام /٢١٧/ ٨٣٢ طلب الامبراطور «تيوفيل» الصلح بعد أن سقطت بيد المسلمين قلعة اللؤلؤة قرب «ترس» في سفح طوروس.. ورفض المأمون الطلب.. وفي رجب / ٢١٨/ آب ٨٣٣/ خلال غارة جديدة في المنطقة المذكورة، مات الخليفة عقب مرض اصابه وكان قد عيّن خليفة له أخاه القاسم الذي اخذ لقب «المعتصم بالله» (طالب الحماية من الله وصاحب العصمة بفضل من الله) ولم يحدث موت الخليفة أيّ تغيير في الأوضاع لأنّ المأمون اوصى أخاه ووريثه المعتصم بمتابعة نهجه السّياسي الذي كان يبدو له أنّه يُرضي الأكثرية.

● خلافة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧/ ٨٣٣ - ٨٤٢/

خلافة المعتصم تميّزت، على الصعيد الإجتماعي - الديني بانتفاضة «الزّطّ» وحركة «مزيار» والقضاء على ثورة باباك. وتميّزت، على الخصوص، بإعادة تنظيم القوّات المسلّحة، وبناء عاصمة جديدة: «سامرّاء».

قبيلة «الزّط» الغجريّة»، ذات الجذور الهنديّة، استوطنت قبل الإسلام، في جنوب ما بين النهرين جاعلة من السّواد مسرح أعمالها الإستثماريّة التي تطوّرت إلى ممارسة التجارة بين البصرة وبغداد وذلك قبل أعوام من انتفاضتها سنة /٨٣٤/ واحتاج المعتصم إلى عام كامل حتى أخضعهم واستعمل في الحرب ضدّهم فئة من ثوّار دلتا النيل وكانوا يتقنون العمليّات الحربية في أراضي المستنقعات.. إنّهم الذين ظلّوا أحياء وهجّروا إلى سورية قرب بحيرة انطاكية ومن هناك جلبهم المعتصم لمحاربة الزطّ.

في طبرستان اندلعت الثورة من جديد عام /٢٢٤/ ٨٣٩/ بقيادة رجل إيراني كان وثيق الصلة مع «باباك» ويدعى «مَزيار». لقد وُجّه الإضطراب ضدّ الحاكم عبد الله بن طاهر الذي اصبح مستقلاً؛ وقد رفض المتمرّدون أن يدفعوا له الزكاة التي زعم أنّه تهيّأ لدفعها للخليفة؟

ولكن مزيار جاهر بعداوته حتّى للخليفة فأجبر على الإستسلام وقتل. وكان الإفشين هو الضحيّة الحقيقيّة لثورة مزيار: لقد كان في أوج تألّقه ويتطلّع إلى حكم خراسان ولكنّ الشبهات أحاقت به بأنّه كان المحرّض لمزيار على الثورة ضد الأسرة الطاهريّة . . واضطرّ الإفشين إلى الهرب شمالا إلى بلاد «الخزر» حيث ألقي القبض عليه عام /٢٢٥/٨٤٠/ ومثل أمام المحكمة العليا بتهمة مساندة مزيار وأدين بالزندقة وترك يموت جوعاً في احدى زنزانات سجن سامرّاء، في شعبان عام/٢٢٦/ حزيران /٨٤١.

منذ موت المأمون، بدأت مرحلة انحلال الأمبراطوريّة العبّاسيّة وانحسار سلطة الخليفة؛ ففي كلّ مكان قامت وتفاقمت الحركات الشعبيّة ضدّ العبّاسيّين؛ صحيح أنّ الإدارة حاولت تخفيف الأعباء الضريبيّة (ومنها الخراج الذي كان يمثّل نصف الحاصلات فأنقص إلى الخمسين [٢/٥])ولكن ذلك لم يكن كافياً لتهدئة سكّان الأرياف. - ظلّ اسم الخليفة يذكر في الخطبة، ويرسم على قطع العملة، وذلك كان اعترافاً إسمياً فقط لأنّ التصدّع هدّد البناء كلّه وحتى الجيش لم يعد مأمون الجانب وليس ضمانة كافية . . ونمط التطويع والإجتذاب للخدمة العسكريّة تغيّر عمّا كان عليه أيّام الأمويّين حيث كانت بنيته قبليّة أو شبه قبليّة. ومنذ عهد آخر خليفة أموي (مروان) قامت، إلى جانب الوحدات العربيّة وحدات مماثلة من الموالي ومن الداخلين الجدد في الإسلام يقودهم ضبّاط منهم. . فقد تخلّى العباسيّون عن التنظيم القبلي للجيش لأنّ تحضّر عدّة قبائل عربيّة والتحويل التقدّمي للمجتمع العربي كسرا الروابط والعلاقات القبليّة القديمة فأصبح مستحيلا الحفاظ على المبادىء الأولى للتنظيم العسكري. . ولم تعد القوّات من العرب حصراً فالمزارعون العرب تمدنوا وما عادوا يشكّلون القاعدة للعناصر العسكرية. . والموالي الذين شكلوا - باديء ذي بدء - جمهرة الزُبُن والعملاء والتّابعين؛ دخلوا في الإسلام وصاروا يخدمون في الجيش على قدم المساواة مع العرب والأسرة العبّاسيّة لم تكن تثق لا بالوحدات

العربيّة، ولا بتلك المتكوّنة من أبناء الأقاليم فتوجّه الخلفاء إلى أن يبنوا لأنفسهم جيشاً من المرتزقة الذين لا دخل لهم بالصراعات القبليّة العربيّة. . ذلك الجيش خدم بفعاليّة كبيرة في قمع الثورات الداخليّة وكذلك في العمليّات خارج الأراضي الإسلاميّة.

الوحدات المأمونة الجانب لدى الخليفة هي حرسه الخاصّ المجهّز تجهيزاً حسناً ويتلقّى المرتّبات العالية: ـ ففي عهد الخلفاء العبّاسيّين الأول كان الجندي المشاة يتقاضى /٩٦٠/ درهماً في العام ما عدا الجرايات؛ والفارس يتقاضى ضعف المبلغ المذكور. وفي ذلك الزمن كان عامل البناء في بغداد يتقاضى ثلث الدرهم في اليوم اي /١٢٠/ درهماً في العام اي ثماني مرّات أقلّ من الجندي المشاة. . ومنذ عهد المعتصم لم يعد يقبل تطوّع العربي في الحرس الخاص الذي أصبح حكراً على الإيرانيّين الذين اسلموا من خراسان او فرغانة. . ثمّ على أتراك آسية الوسطى. . ذلك الحرس حمى العاهل في السلم وفي الحرب. . فالمأمون استند على الجيش الخراساني الجديد ـ أما القاسم (المعتصم) الذي كان حاكماً لاقليم العواصم، فقد طوّع قرابة أربعة آلاف تركيّ من الفرسان الممتازين ورماة السّهام المهرة وذلك من أجل حربه مع البيزنطيّين. . أمّا العناصر الخراسانيّة التي كانت في عهد العبّاسيّين الأوّل تشكّل نواة الجيوش الإسلاميّة فقد كانت من الجنود الحقيقيّين المحترفين. .

خراسان التي أصبحت ذات حكم ذاتي في عهد الأسرة الطاهريّة احتاجت الى جيش كبير العدد ولذلك قلّ عدد الخراسانيّين في جيش الخليفة رغم استبقاء بعض الطاهريّين للمحافظة على النظام في بغداد. وثمّة ظاهرة أخرى: ـ صار الحرب يتكّون من الفتيان: ـ عبيد وأحباش، وسلافيّون من أوروبة الشرقيّة، ومرتزقة تركمان وأتراك. . وكان الحرس حسن التنظيم، يعي قوّته فتصاعدت أهميّة الدور الذي صار يلعبه في بلاط الخليفة. . وبعد المعتصم لم يعد أيّ خليفة عبّاسي قادراً أن يكون الآمر للحرس التركي الذي حافظ على تماسكه الداخلي وإخلاصه

لقادته الأتراك الذين أصبح رئيسهم يحمل لقب «أمير الأمراء» وصاروا في النهاية، سادة الموقف، يولّون الخلفاء ويعزلونهم وكأنّهم دمى بين أيديهم..

الى جانب قوّات الحرس الخاص كان يوجد جيش نظامي تمّ تطويع عناصره على يد الحكام من ابناء البلاد المحلّيّين.. والدولة كانت تقدّم للجيش المؤن والأعلاف، أمّا السلاح والكسوة فهما ملك المحارب وفي سرايا الفرسان كان يخدم، عادة، الملاّكون الكبار والمتوسّطون في حين أنّ وحدات المشاة تتألّف من الفلاّحين.

الوحدات الخراسانيّة والإيرانيّة الأخرى كانت متفوّقة على العرب بمؤهّلاتها التقنيّة سواء في استعمال النبال، وحرب الحصار، واستخدام النفط؛ ـ والجيش العبّاسي، خلافاً لما كان عليه جيش الخلفاء الأول، امتلك تقنيّة عسكريّة جيّدة، كما امتلك الأدوات اللازمة لعمليّات الحصار؛ مثل العرّادات والمنجنيق الخ.. ولا بدّ من الإشارة إلى عدم وجود قوّات بحريّة عبّاسيّة، في حين أنّ الفاطميّين امتلكوا اسطولا حربيّاً في البحر الأبيض المتوسط.

إلى جانب أعضاء الجيش النظامي المسّجلين في ديوان الجيش ويتقاضون راتباً دائماً؛ كان يوجد وحدات متطوّعة من البداة، ومن الفلاّحين، الذين فقدوا أرضهم أو المدنيّين الذين يتعرّضون للفاقة.. وهؤلاء لا يتقاضون أجراً إلا خلال العمليّات الحربيّة أو الغزوات او عندما يشاركون في الجهاد ويرسلون لتعزيز حرس الحدود (الثغور).. وأجرهم يستحقّ على الإقليم الذي فيه حاربوا ويأخذون حصّتهم المستحقّة من الغنائم.

نموّ سلطة المرتزقة الأتراك في البلاط وموقفهم العدواني ضد المدينة لم يرق لسكّان بغداد؛ لذلك، وتجنّباً للمضاعفات، قرّر الخليفة تغيير مقرّه فاختار موقعاً على مسيرة ثلاثة أيّام (٩٠ كيلومترا) صعوداً من بغداد على يسار دجلة وهناك أسّس وبنى «سامرّاء»، عام /٢٢١ / ٨٣٦/ فأقام العديد من الأبنية، منها القصر، والمسجد الكبير

للعاهل وبلاطه، وأصحاب المقام وكبار الموظفين ومصالح الإدارة . .
ولم يبن سوراً للمدينة فالقوّات في ثكناتها موزّعة حسب بيئتها الأصليّة وتعيش خارج أيّ احتكاك مع السّكان . ـ إن الخرائب والأطلال الحاليّة (وامتدادها يزيد على ثلاثين كيلومترا) تشهد على أهميّة تلك المدينة . .
لقد غرق الخليفة، تدريجياً في نهج الحكم الاستبدادي واتّسعت الهوّة بينه وبين الحقائق الإجتماعيّة الواقعيّة إذ وقف حرسه التركي جداراً حاجباً بينه وبين الشعب.

في ربيع الأوّل عام/ ٢٢٧/ كانون الثاني ٨٤٢/ بعد موت والده في سامرّاء، تولّى «هارون الواثق» الخلافة ودامت خمس سنوات . .
وفي عهده قمعت ثورة في دمشق كما أدخلت تحسينات جديدة على المهن والحرف الأمر الذي قاد الى ثورة ضدّ المعتزلة في بغداد قادها احمد بن نصر الخزاعي الذي ألقي القبض عليه ولمّا أصرّ على رفض المباديء الجديدة، أعدم وعرض جثمانه في المشنقة في شعبان / ٢٣١/ نيسان ٨٤٦.

● خلافة المتوكّل (٢٣٢ ـ ٢٤٧/ ٨٤٧ ـ ٨٦١/)

المتوكّل، شقيق الواثق، تسنّم العرش عام /٢٣٢/ /٨٤٧/ حيث بدأت مرحلة جديدة في حياة الأسرة العبّاسيّة. ـ والهمّ الأوّل للخليفة الجديد كان ان يتخلّص من الذين ساعدوه على الوصول إلى السلطة . .
والطابع الآخر المميّز لعهده ـ على الصعيد الديني ـ هو الرجعة السنيّة العنيفة التي وقف معها موقفاً متزمّتاً فحرّم المناقشات حول القرآن وأدان أيّ كلام أو بحث لاهوتي عقائدي وأفرج عن أولئك الّذين اعتقلوا بتأثير من المعتزلة وعلى رأس المفرج عنها كان أحمد بن حنبل. ـ وعام /٨٥٠ ـ ٨٥٣/ شنّ حملة ضدّ اليهود والمسيحيّين وأعاد تطبيق إجراءات التمييز العرقي التي كثيراً ما صرف النظر عنها نهائيًا . . وطهّر الإدارة من العناصر «الذميّة» ؛ ولكن مراقبة الأقنية ظلّت مسندة إلى تقني مسيحي . . والعلويّون أيضاً شملتهم الموجة التي بلغت بالنسبة لهؤلاء

هدم ضريح الحسين في كربلاء عام /٨٥١/٢٣٦/.

وقبل نهاية حكمه ببضعة شهور نقل المتوكل مقرّه إلى دمشق (صفر/ ٢٤٤/ ايار ـ حزيران ٨٥٨/) بحجّة التمكّن، بشكل أفضل. من توجيه العمليّات الحربيّة ضدّ بيزنطية؛ ولكنّها، في الحقيقة، محاولة استرضاء السكّان السوريّين. . وعاد إلى عاصمته سامرّاء والأثر الباقي، من عهده، هو الجامع الكبير و «الملويّة» وهي مئذنة مروحيّة الشكل ارتفاعها خمسون متراً وعرض قاعدتها ثلاثون مترا، وفي أواخر أيّام حكمه ترك الأبنية القديمة إلى أبنية وقصور جديدة بناها في الشمال مع ثكنات وجامع كبير جديد وفي الجنوب بني مقرّات لأولاده. . وأصدر المتوكّل أمر تعيين الخلف: ـ فعيّن «المنتصر» وبعده تولّى، بالتعاقب، ولداه «المعتز» و «إبراهيم المؤيّد» وقد حابى المعتزّ وأعطاه أفضليّة فعاد الى البلاط مناخ المؤامرات وتدخّل المنتصر ونظّم خطّة قتل والده على يد الأمراء الأتراك في / شوّال ٢٤٧/ كانون الأوّل ٨٦١/ «وتلك سابقة خطيرة حتّى بالنسبة لعبّاسي» (كما قال المؤرّخ الألماني أوغست مولّلر) وبدأت على صعيد الامبراطوريّة أزمة بالغة الخطورة.

خلقت المنافسات الأسريّة، في الأعوام التي تلت الحادث المذكور، اضطرابات داخليّة: ـ كلّ زمرة (عصبة) من الحرس التركي أرادت أن يكون لها خليفتها. . وتبعية الخليفة للحرس او العكس اصبحت سجالا. . ومن الخلفاء الأربعة المتعاقبين ثلاثة قتلوا على يد الأتراك وقاتل أبيه، المنتصر، (وهو الأداة بين يدي الوزير والأمراء الأتراك) مات بعد ستّة أشهر من حكمه وبعد إظهار الحظوة للعلويّين.

الخليفة «المستعين» عيّنه القادة الأتراك أنصار أخويه المنتصر والمعتزّ وذلك عام /٨٦٦/٢٥٢/ وعمل على تصفية أخيه المؤيّد وثارت قوّاته اثر تأخّره عن دفع المرتّبات فخلع عام /٢٥٥/ ٨٦٩/ ووضع في السجن ومات جوعاً وهو في الرابعة والعشرين من عمره.

آخر خليفة أقام في سامرّاء كان «المعتمد» وهو ابن آخر للمتوكّل

جيء به إلى الخلافة بدل «المهتدي» المعروف بتقواه ورغبته باعادة بناء قوّة وسلطة أمير المؤمنين.

بقي المعتمد، الخليفة الصوري تحت سوط أخيه «طلحة الموفّق» الذي ظلّ /٢٢/ عاما (٨٧٠ ـ ٨٩١) صاحب السلطة الحقيقي على الجيش وشؤون الخلافة. . وكان حاكم الأقاليم الشرقيّة وعليه ان يدافع عن النظام ضد أخصامه الكثر فعادت بغداد لتكون هي العاصمة كما عادت التقاليد إلى سابق عهدها وقد تميّز هذا الحكم الطويل أن تخلّلته ثورة «الزنج» التي دمّرت اقتصاد البلاد؛ وكذلك بظهور «الصفّريّة» في سجستان ونشاط القرامطة وإعلان أحمد بن طولون استقلاله في حكم مصر. .

١ ـ ثورة الزنج

بعد انتفاضة الزطّ بخمسة وثلاثين عاما تفجرّت في اقليم السواد ثورة الزنج التي تحوّلت إلى حرب أهليّة حقيقيّة دامت /١٤/ عاما وهي تشكّل تهديداً مباشراً للخلافة.

كان «الزنج» العبيد السود المورّدين من افريقية الشرقيّة وزنجبار وبلاد الزنج ومنهم تكوّنت اليد العاملة الرخيصة الأجر في كحت وتنظيف الأرض وتجفيف السباخ (أراضي الملوحة والنزّ) في شطّ العرب وهي المنطقة ذات المناخ غير الصحّي وفيها تلتقي مياه دجلة والفرات. . علماً أنّ استصلاح تلك الأراضي لمصلحة الدولة أتاح زراعة مربحة لقصب السكّر. . وحول انتفاضة الزنج ذات المظهر الصّارم نجد التفاصيل في مؤلّفات مؤرّخ زامن الثورة هو «الطبري». ـ لقد انطلقت الدعوة الى الثورة عام /٨٦٩/٢٥٥/ من قبل رجل كان يجهر بآراء تدعو إلى العدالة والمساواة وهو خارجيّ أصوله فارسيّة (علي بن محمد العلوي الزنجي البرقعي المشهور باسم صاحب الزنج). . وكان يدّعي أنّه علويّ. . والثورة لم تكن ضدّ أفراد ملّاكين بل ضدّ الدولة وهذا هو الجديد فيها والتقى في إطار الحركة الفلّاحون والبداة في المنطقة؛ وطوال خمسة عشر عاما (٢٥٥ ـ ٨٦٩/٢٧٠ ـ ٨٨٣/) لم

تكتف الحركة بزرع الإرهاب بل برهنت على مكانة العبيد في اقتصاد تلك الحقبة.. إنها انعطاف تاريخي في الاسلام إذ ارتفع العبيد «المحرومون من المسكن والأمل» الى درجة الوعي أنهم يملكون الحقّ في حدّ أدنى من العدالة وقادة الثورة حرّكوا جمهورها بشعارات دينيّة - أخلاقيّة.

استولى الثوّار على «العُبُلّله - عبدان - الأهواز - واستولوا على البصرة ووصلوا الى ضواحي بغداد فشلّوا، وعطّلوا التجارة البحريّة مع الشرق الأقصى، والصين، وماليزيا، فتأثّرت بشكل خطير موارد الخزينة العبّاسيّة. وشبكة اقنية الريّ كانت تعوّق أيّة عمليّة عسكريّة من النمط الكلاسيكي.

تدريجياً تحوّل قادة الزنج إلى ملاّكي أراضي؛ ودفعتهم شهوة السلطة إلى الإستئثار بالموارد وانتهى بهم المطاف إلى استرقاق السكّان الخاضعين لقياداتهم.. فقلب الفلاحون لهم ظهر المجنّ وكذلك فعل البداة فوجدوا أنفسهم في عزلة كاملة وأرسل طلحة الموفّق - بأسم أخيه الخليفة المعتمد - جيشاً وأسطولا نهرياً قوياً وفي عام / ٢٧٠ / ٨٨٣/ تمّ الإستيلاء على قلعة «المنيعة» جنوب البصرة وأخمدت الثورة فكانت مجازر الزنج وألقي القبض على رئيسهم علي البرقعي وقتل وحمل رأسه الى بغداد. لقد اعيد النظام ولكن المذبحة لم تكن الحلّ للمشكلة الإجتماعية وكانت درساً تعلّمه الملاّكون: - عدم جمع عدد كبير من العبيد في موقع واحد، وإلغاء عمل السخرة، فلا عمل دون مكافأة بأجر.

٢ - الصفّريّة.

كان على الموفّق أن يقاتل الزنج والصفّريّة في آن واحد ولو كان هناك ثمّة تحالف بين الحركتين لقلب النظام العبّاسي حتما..

بتحريض من الخوارج تتالت الثورات في اقليم « سيجستان» الخصب القائم جنوب خراسان وأفغانستان.. وضدّ العصابات الثائرة

استعمل الخليفة مقاتلين متطوّعين «الغازيّة» وكانت احدى وحداتها بقيادة «يعقوب بن ليث الصَّفّار» (صانع الشبه وهو مزيج من النحاس والزنك يُصهر وتصنع منه اشياء). . ويعقوب هذا نظّم، مع أخيه عمر، فيلقاً حرّاً مهّمته الدفاع الذاتي المديني (الحضري) ضدّ حركات الخوارج وأجّر خدماته للخليفة عام /٨٦١/٢٤٧/ وتوصّل إلى اقرار النظام في سيجستان وما ان تأكدّ أنّه أصبح الأقوى، في عام /٢٥٣/ ٨٦٧/ أعلن نفسه «أميراً» وأمسك بزمام السلطة التي كان لا يزال يتعاقب عليها أحفاد «طاهر» الذين تلقّوا ضربة ساحقة قاضية من قوّات يعقوب جارهم وهي قوّات متفوقّة عدداً وتنظيماً. . ذلك القائد «الموهوب» هاجم فارس واستولى على «حارات» وحاصر «نيسابور» ودخلها عام /٨٧٣/ وكانت مقرّ آخر الطاهريّين محمدّ الأمير الفاسق الطاغية.

واستفاد يعقوب من الإنشغال بحرب الزنج في العراق ففتح تباعاً، كرمان وشيراز العاصمة وما ان رفض الخليفة توليته على الأقاليم الشرقيّة، التي بسط سلطته عليها، حتّى قرّر مهاجمة بغداد مدّعياً أنّه، بذلك، يقصد الإعتراف بسلطته ، وفي عام/٨٧٦/٢٦٣/ مني بهزيمة ثقيلة الوطأة وعقبت ذلك تسوية فيها اعتراف بسلطته باعتباره قائد قوّة من الحرس الخاصّ ولكنّه مات عقب ذلك بقليل، أي في نهاية عام /٢٦٥/ حزيران ٨٧٩/. . وخلفه أخوه عَمرٌ بتعيين من قبل الجيش؛ واجتناباً لعمل عدواني جديد، ولاّه الخليفة على الإمارة الطاهريّة السابقة، مع حقوق محدّدة تشمل خراسان وجبال (العراق العجمي)، وفارس، وسيجستان، وكرمان. . ثمّ، وفي عام /٨٩٨/٢٨٥/ شملت سلطته إقليم ما وراء النهر كلّه. . وتلك مناورة قصد الخليفة من ورائها مجابهة « السمّنيّة» بالصفّريّة وقد وطّدت السمّنيّة المذكورة سيادتها على «بخاري» وحصلت مجابهة قرب «بلخ» عام /٩٠٠/٢٣٧/ هزم فيها الأمير الصفّري فدمج اسماعيل السمّني خراسان بمملكته وأرسل عمر مخفوراً إلى بغداد حيث سجن وقتل في العام التالي. . بعد بضعة اعوام احتلّ السمّنيّة سيجستان وتبوأ السلطة من /٩١٠/ الى /٩٩٩/.

٣ ـ الحركة القرمطيّة.

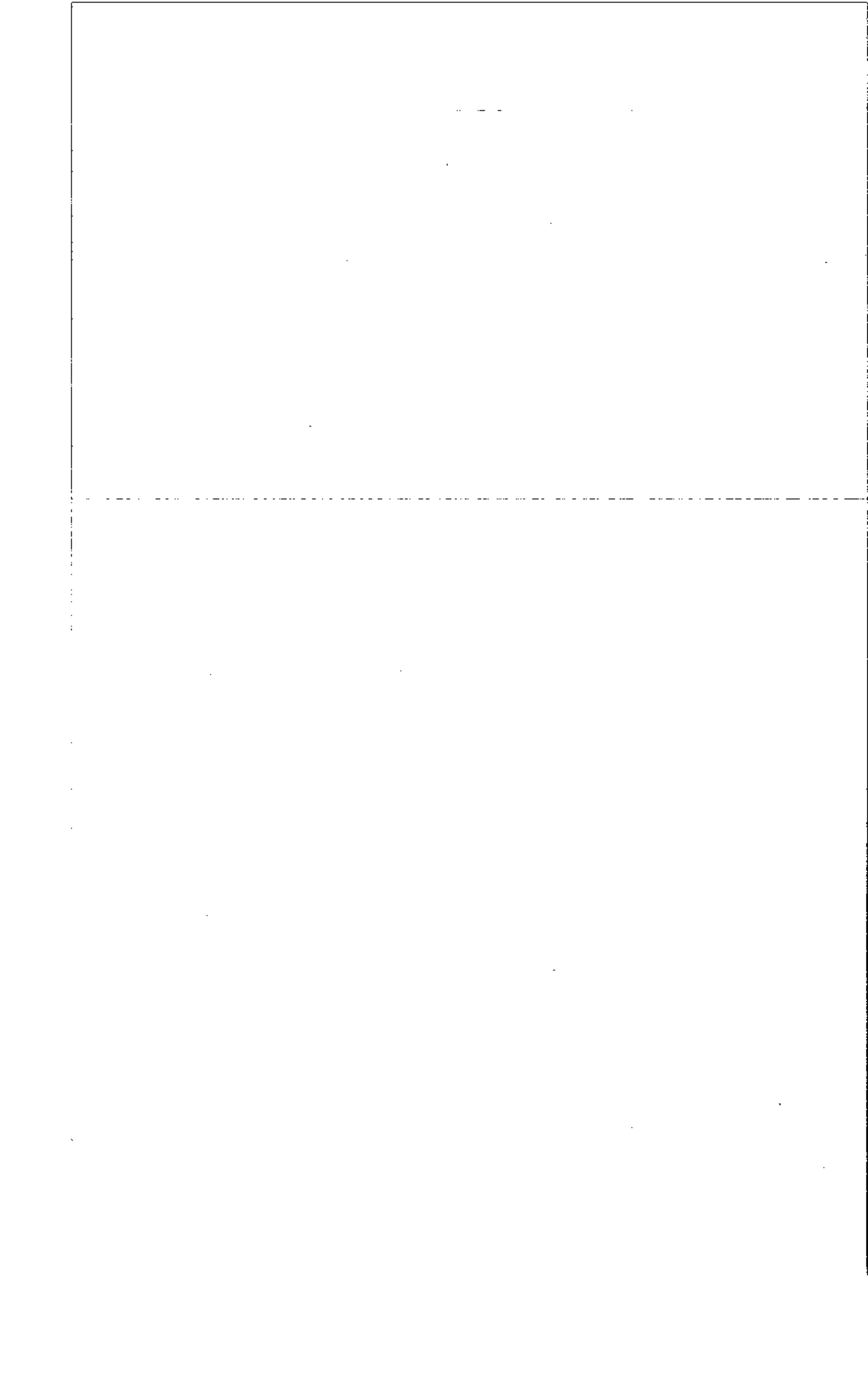
بعد سحق ثورة الزنج، لم يحقّق تحسين شروط عمل العبيد الحلول المطلوبة للقلق الإجتماعي في الامبراطوريّة العبّاسيّة؛ ومنذ عام /٢٦٢/٨٧٥/ انتشرت في الأوساط الريفيّة والبدويّة دعوة (لها صلة المشابهة مع مقولة المسيح المنتظر)؛ وأعلنت الدعوة ـ إيّاها ـ قرب ظهور الإمام «المهدي». ولم تكن الدعوة مغايرة كثيراً لمذهب الاسماعيلية.. والقاسم المشترك للدعوة التي حملها الرسل (الدعاة) هو المطالبة بالمساواة الاجتماعية (مع استبعاد العبيد من المساواة) وبالملكيّة المشتركة للثروات.

عام /٢٨٦/٨٩٩ تفجّرت ازمة عقائديّة لدى الإسماعيليّة فرفض فريق منهم اقرار ما ادّعاه عبيد الله من حقّ بالإمامة، وهكذا نشأت، في السواد، الحركة القرمطيّة برئاسة «حمدان قرمط ابن الأشعث» يساعده صهره «عبدان».

عام /٢٨٩/٩٠٢/ هاجم القرامطة بقيادة «زكرويه»، الإسماعيليّين في السلميّة (سورية) ثمّ حاصروا (دون نتيجة) دمشق وحلب ولكنّهم نجحوا باحتلال حمص وحماه ومعرّة النعمان وبعلبك والسلميّة وقد أخلوا هذه الحواضر بعد عامين اي بعد ان تغلّبت عليهم قوّات بغداد.

استطاع القرامطة الإحتفاظ بمعاقل قويّة لهم في البحرين التي ارسل اليها، عام /٢٨٧/٨٨٦/ الداعي «أبو سعيد الجنابي». ـ وفي عام /٢٨٧/ ٩٠٠/ ركّز القرامطة هجماتهم على البصرة، وهزموا جيشاً أرسله الخليفة المعتضد. وبعد عام (٢٩٠/٩٠٣/) احتلّ أبو سعيد اليمامة واجتاح اليمن... وقتل عام /٣٠١/٩١٣/ فخلفه واحد من اولاد «أبو طاهر» الذي ظلّ رئيساً لدولة البحرين ثلاثين عاما... وبعد مهادنة دامت عشر سنوات استأنف ابو طاهر حملاته العسكرية المدمّرة ضدّ جنوب العراق مع هجمات ضدّ قوافل الحجّاج العراقيّين المتوجّهة إلى مكّة او العائدة منها.. وعام /٣١٥/ ٩٢٧ ـ ٢٨/ هدّد بغداد وتوغّل

في الجزيرة ونهبها؛ وبعد عامين قام بحملة عسكريّة ضدّ مكّة فذبح الحجيج ونهب المدينة وانتزع الحجر الأسود من مكانه وحمله معه الى البحرين. . وبعد عام /٣٣٢/٩٤٤ أي بعد موت «ابو طاهر»، وبعد أن رفض قرامطة البحرين العروض المتتالية (عبّاسيّة وفاطميّة) قبلوا باعادة الحجر الأسود الى الكعبة لقاء امتيازات هامّة ومبلغ كبير من المال دفعه العبّاسيّون. . وظلّت دولة البحرين القرمطيّة خطراً دائماً على الخلافة العبّاسيّة وطرق مواصلاتها مع الجنوب طوال فترة استقلال تلك الدولة؛ اي الى عام /٤٦٧/ ١٠٧٥/ أمّا الحركة بالذات، فلم تختفِ الّا في القرن السادس (الثاني عشر). . ونلاحظ، في القرنين التاسع والعاشر أنّ الامبراطوريّة العبّاسيّة قد تفكّكت ولكنّ القضايا الإجتماعيّة بقيت مستمرّة. . ففي الأرياف أرهق الملاّكون الجدد الفلاّحين ونمت العلاقات التجاريّة مع الشرق وتحوّلت المدن الى تكتّلات كبيرة وهامّة فيها الطبقة العاملة الناشطة، وفيها البورجوازيّة التجاريّة، وبينهما أخذت جماعات الحرفيّين مكانها. إنّ بتر وتجزئة الوحدة السياسيّة لم يحمل معه الإضرار بانطلاقة الحضارة الإسلامية وازدهارها وظلّت هناك وشائج وحدويّة جدّ قويّة: ـ فالعالم الإسلامي «دار السلام» لم يعترف بحدود سوى تلك التي تفصل بينه وبين «دار الحرب». و «الأمّة» حافظت على روابطها الوثيقة يضاف الى كلّ هذا أنّ الإسلام حفظ تواصل وتلاحم بين العناصر المختلفة في الامبراطوريّة. كلّما شعر الخليفة بعجز ما نتيجة تمزّق القوى وتجزئتها كانت الخلافة تجد في أوساط السنّة نفسها من يحميها وينقذ الموقف. ـ حتّى «الغزنويّون» في أقاصي افغانستان كان يحدوهم الأمل بالتوصّل الى تحرير الخلافة. . ولكنّهم اضطرّوا الى اخلاء الساحة للترك القادمين من منغوليا. . والسلاجقة الذين كان قدومهم الى بغداد قميناً بتغيير مجرى الأشياء والأحداث في الشرق الأدنى، قد بدأت بهم ـ في تاريخ الشرق ـ حقبة السيطرة التركيّة على آسية الوسطى.



الفصل السّادس

مظاهر الدولة العبّاسيّة

نعرض في هذا الفصل، مؤسّسات الخلافة، والوزارة، والمصالح الاداريّة الكبرى المركزيّة والإقليمية والمشاكل الماليّة العامّة والنظام النقدي والتجارة في الدولة العباسيّة.

لقد حافظ الأمويُّون على انتمائهم العربيّ وتشدَّد بعضهم في ذلك حتّى الفظاظة معتبرين التزامهم به مسألة جوهريّة.. وطوال حكمهم الذي دام قرناً كاملاً لم يتخلّوا قطّ عن مشاركاتهم في المنازعات القبليّة.. وحتّى التقاليد البدويّة ظلَّ تعلّقهم بها ظاهراً جاعلين من إقامتهم الدوريّة السنويّة في الصحراء ملاذاً لتعلّقهم هذا ووقاية له: ففي كلّ ربيع كان البلاط الأمويّ ينتقل إلى البادية.. إلى العيش في وسط البداة لدى العودة بقطعانهم من العربيّة نحو البادية السوريّة حيث يقطنون.. وهو نفس الفصل الذي فيه تجتاح المدن الأوبئة الموسميّة المستوطنة مثل حمّى التيفوئيد والملاريا فيجدِّد العاهل الأموي صلته المباشرة بالتقاليد، وفي مجلسه سواء في بيت الشعر أم في القصر، تنعقد الندوات وتقوم المناظرات، وتتلى القصائد الطويلة وملاحم البطولة عن أيّام العرب، وتجري نزهات الصيد.. وبين ذلك كلّه تجبى الزكاة والضرائب الأخرى...

أما في ظلّ حكم العبّاسيّين فالأمر يختلف تماماً: ـ السلطة تتولّاها أسرة مالكة متمدنة ركائزها أقوام من المدن.. أسرة مالكة اتّجهت نحو خلق وبناء دولة إسلاميّة حقيقيّة.. دولة دامت قروناً توصلت، عبرها، إلى إعداد وتكوين مؤسسات أصبحت في حدّ ذاتها تمثّل ما يمثّله الرجال.

مؤسّسة الخلافة

لتكوين فكرة عن تنظيم الخلافة العبّاسيّة يجدر بنا الرجوع إلى «الماوردي» القاضي المشهور، والمعلّم المرموق، الذي مات في بغداد عام ٤٥٠/ ١٠٥٨ والذي دعاه الخليفة القادر (٤٢٢/ ١٠٣١ أي قبل مجيء الأتراك السلجوقيّين بقرابة ربع قرن) دعاه الى تأليف كتاب وجيز يشرح فيه نظرة المذهب الشافعي السياسيّة وأوفده الخليفة القائم عدّة مرّات في مهام دبلوماسيّة منها إجراء مفاوضات مع السلجوقي «طغرل بك» عام /١٠٥٥/.

الماوردي هو مؤلف عدد من الكتب أهمُّها، بالنسبة لنا هنا، المخطوطة المنسوبة إليه والتي عنوانها « الأحكام السلطانيّة» . وهذا المؤلّف يشرح الأسس التي عليها تقوم السلطة العليا وحدودها والهيئات التي تتصرّف بها والأحكام التي تعمل بموجبها أو تصدر عنها والوسائل التي إليها تلتجيء.. ويعتمد المؤلف في بحثه على الدعائم الأربع (الأصول) للتشريع الإسلامي:

[ـ القرآن ـ الحديث ـ الإجماع ـ القياس]

وقد قال المؤلف أنّ كتابه هذا موجّه إلى القائمين بأمور الإدارة.

والعامل الجوهري الذي دخل على الدولة الإسلامية هو تحوُّل الخلافة من زعامة أصولها قبليّة إلى سلطة مطلقة (أوتوقراطيّة) مستمدّة من الله، تنتقل بموجب نظام التفويض بتوليه العهد على أساس الإرث والتعاقب؛ شرط أن تتوفّر لدى من يلي العهد، بتفويض ممّن سبقه وكان له خلفاً، شروط أوّلها الإيمان، وطاعة الله، وإداء الفرائض، والإلتزام بالنواهي، . . وكأمير للمؤمنين فإنّ أوّل واجباته تجاههم إظهار الحقيقة والحقّ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحماية الدين من البدع.

الخليفة الأموي كان يكون سيِّد العشيرة باديء ذي بدء أي كان عاهلاً عربيًّا ـ وهذا قبل المروانيِّين بخاصة ـ أما في ظلِّ حكم آل مروان فقد طبعت المراسيم الإحتفالية بطابع بيزنطي واضح الأثر والمعالم. . ـ أمّا في عهد العبّاسيِّين فقد كان الإنتقال مباشراً من العشيرة إلى الدولة. .

أي إنّه منذئذٍ، أصبح الخليفة، قبل كلّ شيء، خلفاً للنبي محافظاً دائماً على هذه السمة فهو ـ حقاً ـ «أمير المؤمنين» وهو بالتالي «الإمام». . ألقاب محفوظة في المراسيم. ولإمارة المؤمنين معنىً ديني يختلف عمّا قصده عمر بن الخطّاب (وهو أوّل من اختار لقب أمير المؤمنين) بمعنى أنّ سلطة العاهل العبّاسيّ تشمل، مبدئيًّا، سلطتي الإمامة والإمارة بطبيعتيهما الدينيّة والدنيويّة رغم أنّه، في الإسلام، يقتصر العهد، في السلطة، على الأمور ذات الطبيعة الدنيويّة فقط وهذه نقطة رئيسة حولها دار الجدل ومنها انبثق الشقاق وعلى أساسها جاء تفسير معنى الوزارة والدور الوظيفي للوزير ثمّ أمير الأمراء ثمّ «السلطان» بعد زمن. . وقد قلّد الخليفة العبّاسي عادات وأعراف البلاط السّاساني الخاصّة بنظام الحجاب، وقطع أيّة صلة مباشرة بين الخليفة والناس باستثناء هارون الرشيد الذي قالت الأسطورة أنّه كان يظهر مع وزيره جعفر ويجوب ليلاً شوارع بغداد. ـ أما المراجع الأخرى، فتؤكد أنّ الخليفة يعيش داخل قصره تحيط به حاشية البلاط فلا تقع عليه الابصار إلاّ يوم الجمعة في المسجد. . وموقف كهذا يفسّر لماذا أعرض السكّان عن الإهتمام بالمشاحنات التي كانت تنشب حول هذا المنصب ولماذا انقطعت الصّلة بين الناس وبين شخص أمير المؤمنين.

كان الخليفة يعيش معزولاً، وحوله بلاط يتألف من الأمراء من بيته وذوي قرباه الأدنين والأباعد؛ وخدمات «دار الخلافة» مؤمّنة بواسطة العبيد المعتقين وقدامى العبيد (ومعظمهم من البيض) الذين، من بينهم، يتم انتقاء الحجّاب ومن في إمرتهم. والحماية يتكفّل بها حرس من المرتزقة الخيّالة والنبّالة الأجانب المنتقين بعناية وهذا النوع من الحرس هو الذي توصّل، مع الزمن، إلى وضع الخلافة تحت رحمته.

ملاك موظفي القصر الوظيفي يتكوّن من أمناء إدارة خاصّين، وقرأة الكتاب، والمؤذنين، والفلكيّين، وضابطي الوقت (الساعاتيون). . وهو ملاك دينيٌّ إجمالاً. ـ ثمّ يأتي صاغة الجواهر والهدايا، والخدم، والطبّاخون، والأطبّاء ومعظم هؤلاء، عادة، من المسيحيّين أو اليهود.

ومن الضروري، هنا، التذكير بوجود «الحريم» والخصيان. .

ويأتي أخيراً عدد لا حصر له من الندماء المدنيِّين والعسكريِّين ورجال الأدب والعلماء والشعراء والموسيقيِّين الذين بهم يتضخم ويتضاعف عدد الجلساء وكذلك عدد الممالقين. . (كتاب «التاج» للجاحظ يعطي فكرة واقعيَّة عن البلاط العبَّاسي وقد ترجمه إلى الفرنسيَّة «شارل بيلاَّت» ونشر في باريس عام /١٩٥٤/ عن طريق اليونسكو).

ما هي شروط الوصول إلى الخلافة وشروط تعيينه وتعهُّدات الإمام والشارات الخارجيَّة وعلامات التعظيم للخليفة ومراسم سيادته؟

ذكر الماوردي في مقدِّمة مؤلَّفه «الأحكام السلطانيَّة والولايات الدينيَّة»: ـ «إنَّ الله جلَّت قدرته ندب للأمة زعيماً خلف به النبوَّة، وحاط به الملَّة، وفوَّض إليه السياسة، ليصدر التدبير عن دين مشروع، وتجتمع الكلمة على رأي متبوع، فكانت الإمامة أصلاً عليه استقرَّت قواعد الملَّة، وانتظمت به مصالح الأمَّة، حتى استثبتت بها الأمور العامَّة وصدرت عنها الولايات الخاصَّة، فلزم تقديم حكمها على كلِّ حكم سلطاني ووجب ذكر ما اختص بنظرها على كلِّ نظر ديني لترتيب أحكام الولايات على نسق متناسب الأقسام، متشاكل الأحكام. .» (شروط الإمامة بنظر الماوردي سبعة: ـ العدالة ـ العلم ـ سلامة الحواس ـ سلامة الأعضاء ـ الرأي ـ الشجاعة ـ النجدة ـ النسب. المترجم).

الشروط المؤهَّلة للخلافة

الشروط الأوليَّة التي تؤهِّل شخصاً ما للخلافة هي أنَّه «يجب أن يكون مسلماً، ذكراً، بالغاً رشده، (سنّ البلوغ) وهو سنّ غير محدَّد ففي الشرع الإسلامي يقبلون، غالباً، أن يتراوح بين /١٣ و ١٥/ عاماً (كما كانت حالة لويس الرابع عشر) وهذا شرط مبدئي لا يجوز خرقه.

ويعدِّد الماوردي الشروط السبعة الواجب توفُّرها في المرشَّح للخلافة: ـ سبع مزايا يجب أن يملكها حتى يستطيع الإضطلاع بالإمامة

(الشروط المعتبرة لدى أهل الإمامة في حين اكتفى أهل الإختيار بثلاثة:
ـ العدالة ـ العلم ـ الرأي والحكمة. المترجم):

«.. أحدها العدالة على شروطها.. والثاني العلم المؤدّي إلى الإجتهاد في النوازل والأحكام. ـ والثالث سلامة الحواسّ من السمع والبصر واللّسان ليصح معها مباشرة ما يدرك بها. ـ والرابع سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض. ـ والخامس الرأي المفضي إلى سياسة الرّعيّة وتدبير المصالح. ـ والسادس الشجاعة والنجدة المؤديّة إلى حماية البيضة وجهاد العدوّ. ـ والسابع النسب وهو أن يكون من قريش لورود النصّ فيه وانعقاد الإجماع عليه..»

هذه المزيّة الأخيرة المحدَّدة كبيرة الأهميّة وحولها قام الإختلاف على قدم وساق.. والمناظرون الذين نسبوا إلى النبي قراراً أنَّ الخلافة لقريش حصراً اعتمدوا دائماً قول أبي بكر في حديث يوم السقيفة حيث أشار إلى ضرورة سياسيّة تجعل من «وضع الإمارة في قريش عامل توحيد للعرب أكثر ممَّا لو وضعت الإمارة في غير قريش وقال: ـ نحن أوسط العرب انساباً ليست قبيلة من قبائل العرب إلاَّ ولقريش فيها ولادة..» واستشهد بقول النبيِّ: ـ «قدِّموا قريشاً ولا تتقدَّموها..» ـ وقريش هي التي أعطت الإسلام نبيَّه ولسانه ومن كانوا أوَّل الناس إسلاماً هم من عشيرة رسول الله.. وهذا الشرط الأخير المحـدد يتضمَّن، ويستتبع ـ من ناحية أخرى ـ معرفة الإمام (الخليفة) الكاملة باللّغة العربيّة وهي معرفة لا بد منها لفهم واستيعاب القرآن والسنّة وهنا الأساس والمنطلق لمبدأ شرعيّة اختيار الخليفة في البدء، ثم قيام الأسر التي تعاقب أفرادها على تولّي الخلافة وفق النظم الإرثية الملكيّة. ـ إنَّ أصول عمود النسب لدى قريش محدَّدة ومحصورة بالأب.. وهذا الشرط طرأت عليه تعديلات بعد زمن طويل عندما كانوا لا يجدون القرشي الذي اكتملت لديه الشروط المطلوبة كانوا يختارون واحداً من قبيلة كنانة وإلاَّ فمن ذرِّيَّة إسماعيل حتّى ولو كان ـ في نهاية المطاف ـ غير عربيٍّ؟ ـ ولكنَّ الأتراك

الذين قهروا العبَّاسيِّين لم يتجرأوا إطلاقاً أن يدَّعوا الخلافة ويستولوا على هذا اللَّقب أيضاً. . وظلَّت تلك حالهم إلى أن انتهى آخر الأمويين فاعتمدوا عمود نسب آخر هو الأم - يشترط في أمِّ الخليفة أن تكون حرَّة - وتلك كانت نقلة ورجعــة إلى الشريعة، الدينيّة اليهوديّـة؛ فبموجبها اليهودي هو من كانت أمُّه يهوديَّة. . وحتّى يومنا هذا كلُّ من يولد من أب يهودي وأم غير يهوديَّة لا يعترف به يهوديًّا. .

في ظلِّ العبَّاسيِّين، أصول عمود النسب المحصور بالأم لم تلعب دورها إطلاقاً. . ففي الواقع، الخلفاء الثلاثة الأول وجدهم (السفَّاح - المنصور - المهدي) كانت أمهَّاتهم من «الحرائر». . إنَّ ضرورة النسب القرشي أمَّنت دون انقطاع الدفاع عن الإسلام من قبل العائلة التي فيها نزل الوحي ومنها كان السابقون إلى نشره. . ومن هنا انطلقت العائلة - إيَّاها - في زعمها الحتميَّة الدائمة أن يوجد بين القرشيِّين الرجل الكفؤ الذي استكمل المزايا والشروط المطلوبة فتجعله جديراً بالخلافة عن طريق الانتخاب.

تلك كانت، فعلا، الشروط المثاليَّة لأصحاب الرسول الذين اضطلعوا بمهامِّ الخلافة (أبو بكر - عمر - عثمان) واستطاع أن ينهض بها بعدهم كلٌّ من معاوية وعمر بن عبد العزيز.

ويتوجَّب أن تضاف إلى الشروط والمزايا المثاليَّة تلك مزايا التفاني وإنكار الذات والتقشُّف والزهد والكفاءات العسكريَّة والحسّ السياسي لدى الأمير. - وعلى مدى التاريخ حاول الأمراء دائماً أن يكونوا - بنظر أتباعهم - مالكين لجميع هذه الفضائل والمزايا التي حددها المنطلق النظري السنِّي. . . ونشير هنا إلى المراسم الإحتفالية - لأيِّ عاهل أو أمير - المدوَّنة في المنقوشات الكتابيَّة لفهرس آثار تسلسل الأحداث التاريخية العربيّة فهي ملأى بالعديد من النعوت والصفات المجسِّدة للفضائل والمزايا الرئيسة إيَّاها.

ولمَّا كان الكمال لا يمكن وجوده أو بلوغه في هذا العالم فكم من علاَّمة وحكيم أطرى روابط الألفة والتعاون بين العلماء المودعة عندهم

خزائن الشرائع والقوانين، وبين الأمراء مالكي زمام السلطة الضروريَّة للتطبيق العملي للشرائع والقوانين المذكورة على أساس أنَّها روابط واجبة الوجود مادامت تجعل السير الجيِّد لأعمال الدولة ممكناً وسهلاً (وهذه وجهة نظر ما زال يؤخذ بها حتى أيامنا هذه في بعض الأوساط الصارمة المتشددة تبريراً منها للنظام النيابي ـ البرلماني).

اختيار الإمام

أصحاب مذهب الإمامة قالوا أنَّ الإنسان «مدني اجتماعي بالطبيعة والجبلة ويحتاج إلى النظام والعدل وأن الأمَّة واجب عليها الإنقياد لإمام عادل يقيم فيهم أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة..» [٣٢]

ويؤكد «الماوردي» أنَّ «الإمامة موضوعة لخلافة النبوَّة في حراسة الدين وسياسة الدنيا» ـ وإلى جانب الإمام، الورثة الحقيقيُّون للنبي هم علماء الشريعة أصحاب الدور الرئيسي في إحياء السنَّة في القرن الثاني عشر[٣٣] وقد جاء الشرع في تفويض الأمور إلى وليِّه في النصِّ القرآني: ـ «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم.» ـ وأولو الأمر هم الأئمة المتآمرون.. فوجود الإمامة يشكل، إذن، فرض كفاية تماماً مثل الجهاد وطلب العلم. ـ والسنَّة تقول بوجوب وجود إمام قائم على رأس الأمَّة وهذا رفض لمقولة الشيعة حول انتظار «المهدي» ـ ولمَّا كانت الإمامة المنظورة قد قامت فعلا وتحدَّدت أسسها فقد بقيت مشكلة طريقة الإختيار ويطرح هنا احتمالان: ـ إمَّا الإختيار وفق ما جاء به نصّ (وحي أو حديث).. وإمَّا بعهد الإمام من قبل، والاختيار الحر واجب في الحالين. والإمامية من الشيعة فسّروا الاختيار أنَّه محصور في ذرّية علي وفاطمة فخالفوا جميع الفئات الأخرى ممَّن قالوا بوجوب حكم الإمامة ونصب الإمام على الجماعة المكلَّفة.. خالفوا ذلك وقالوا بالنصّ والتعيين ووجوبها على الله فليس للبشر سبيل أو إختصاص في هذا المقام ولذلك أمكن

لأئمة الشيعة أن يكونوا «مختفين» أو «منتظرين» (المهدي). ـ ونصب الإمام بالإختيار الحرّ من قبل الجماعة المكلّفة منطلق أيّدته جميع فئات السنّة والمعتزلة. فهو، ضمناً، الانتخاب، بل انتقاء الأفضل وإن كان هذا المنطلق قد ظلّ، غالباً، نظريًا لم يطبّق في الواقع العملي: - «الأئمّة من قريش» ـ كلام نسب إلى النبي فحدّد إطار الإختيار وخلق ضرورة البحث دائماً عن رجل من أبناء هذه العشيرة اجتمعت فيه الصفات والمزايا المطلوبة فاستحقّ ان ينصّب خليفة.. والذين قالوا أنّ «الإمامة بالنصّ» اعتمدوا ما رواه أصحاب الحديث واستشهدوا بخلافة أبي بكر أنّها كانت بالنص من النبي وذلك بناءً على قياسهم الخلافة على إمامة الصلاة التي قدّمه الرسول فيها قبل وفاته.. أو بناء على حديث منقول: ـ «اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر» وتطوّر الآخذون بهذا المنحى حتّى صار الإمام القائم يعين «ولي عهده» على النمط الإرثي التعاقبي لدى أباطرة بيزنطية. ـ أمّا طريق الإختيار في تمييز الإمام ونصبه فمن بين الذين رسموا الطريق العمليّة لتطبيقها كان الأشعري الذي رأى أن مجتهداً واحداً يكفي لأن يبدأ عقد البيعة لإمام.. ـ وقال آخرون: ـ «لا تنعقد إلاّ بجمهور أهل العقد والحلّ من كلّ بلد ليكون الرضاء به عامًّا والتسليم لإمامته إجماعاً». ـ وآخرون قالوا بالإكتفاء باختيار من حضرها دون الغائب عنها.. وظلّت على العموم ـ في إطار اجتماع «أهل الحلّ والعقد» يقدّمون للبيعة منهم أكثرهم فضلا وأكملهم شروطاً.

أمّا تأليف من تنعقد بهم الإمامة فهناك من أستدلّ ببيعة عمر بن الخطّاب الذي جعل الشورى في ستّة ليعقد لأحدهم برضا الخمسة وهذه طريقة تترك المجال واسعاً للخليفة في نقل السلطة.. ومفهوم أو فكرة الإنتخاب تبقى غامضة ما دام لا يوجد أي نص يحدّد، بدقة، طبيعة أو عدد الناخبين وكثيراً ما اكتفى باختيار واحد عندما يكون هذا الرجل الواحد شخصيّة مطاعة وقويّة فيسند إليه، ضمناً إجراء تعيين من يلي العهد اجتهاداً بأنّ الإمامة هدفها الحفاظ على وحدة الأمّة

والعهد لرجل قويٍّ يستتبع رضا أكثريّة الناس فيما بعد.

ـ وتجدر الإشارة إلى أنّ «الخلافة العلمانيّة» ظلّت على مدى تاريخ الإسلام غير معقولة لأنّ التمسّك بالخلافة والإلتزام بالولاء لها ظلّاً دائماً عقد إيمان ودين. ـ والخلافة، سواء انعقدت باختيار أم بعهد ووصيَّة يجب أن تقرها الجماعة ممثّلة، على الأقل، بأهل الحل والعقد أي بالبيعة التي حدّدها «أميل تيّان (الموسوعة الإسلامية ص ١١٤٦ ـ ٧) بأنّها: عقد يعترف بموجبه عدد من الأشخاص ـ فرادي أو مجتمعين ـ بسلطة شخص آخر عليهم. ـ إنّها عهد ملزم بالولاء والطاعة تبرمه الجماعة للإمام المختار بعد مشاورة.. وهو، من ثمّ، عهد مزدوج وعقد ملزم لكلٍّ من العاهل والجماعة والهدف هو الارادة المشتركة لدى الذين آمنوا ليطيعوا الله ورسوله. ـ والبيعة إقرار بأنّ الخليفة هو رئيس الدولة الإسلامية، عليه احترام الشريعة وهو صاحب السلطة وقدرة الجماعة التي أيدته.. على الذين اختاروه واجب الطاعة والسمع له في كلّ ما وافق الحقّ وما هو حسن وبرّ وخير.. وعندما يتحقّق الإجماع فيد الله تكون هي التي نصّبت الخليفة لأنّ الله مع الجماعة ولأنّ الأمّة لا تجتمع على باطل أو ضلال؛ وعلى التحديد فالمبايعة يمكن تصوّرها بمثابة مصادقة شعبيّة أي استفتاء.

والمبايعة تترجم، مثل أي عقد، من زاوية مردودها لمصلحة كلّ من الطرفين إذ تؤمّن للجميع النجاح المؤمل كمحصّلة لطاعة الله ووليّ الأمر.. منها تستمد السلطة القوّة والديمومة.. السلطة التي لا يمكن أن تقوم على القوّة وحدها.. القوّة اللامحدودة.. أمّا الخاضعون لها فهي أمينة بأن تجلب لهم الأمن الإجتماعي والضمانات «الدستوريّة» المشروعة.

التنصيب والخلع

بعض أصحاب الحلّ والعقد قبلوا شرعيّة أن يعينّ الخليفة من يلي الأمر بعده وأن يورث عهده مرشّحاً اجتمعت فيه الشروط المطلوبة

شرط المصادقة اللاحقة بالبيعة.. وفي حال خلوّ السلطة يكون الإنتخاب هو السبيل إلى تنصيب الإمام.

بعض الخلفاء فرضوا أنفسهم بالقوة وثبّتوا خلافتهم بالبيعة من قبل العلماء مسخّرين قانون «الضرورات» لمصلحتهم وإن كان ثبوت وجود الضرورات هذه ظلّ نسبيًّا؟

إذن، وفي جميع الأحوال، ظلّ تنصيب الخليفة أو من يلي الأمر بعده خاضعاً لقبول ذوي الحلّ والعقد والعلماء؛ وحشر عامل الضرورة في المسألة إنّما كان يجيء لاجتناب الفتنة والشقاق ودفع البدعة لأنّ أعظم خلاف بين الأمّة مزّق وحدتها كان ناجماً عن الإمامة والخلافة عندما تؤخذ اغتصاباً أو باجتهادات موضع جدل واختلاف.

الواقع الذي حصل تمثّل في شكلين رئيسين من أشكال الخلافة:
- الأوّل جاء بقرار من كبار العاقدين اختاروا الأكثر جدارة من المرشّحين فجاءت الطاعة إراديّة. - والثاني جاء عن اغتصاب من قبل خليفة تسانده عشيرة فلم ينصّبه أصحاب الحل والعقد وبالقوّة أيضاً انتزع الطاعة له وفرضها فرضاً وحتى السلطة التي فرضت بطريق العنف هذا ظلّت أفضل من الفوضى ولا يعني هذا الكلام التخلّي عن البحث عن حدّ يوضع للطغيان.

● وللأمّة حقّ خلع الخليفة فيخرج به عن الإمامة شيئان:

أحدهما جرح في عدالته والثاني نقص في بدنه.. وتمثّل الأوّل في ضربين: - متابعة الشهوة بأفعال الجوارح وارتكاب المحظورات والمنكرات والانقياد للهوى والإعتقاد المتأول لشبهة تعترض فيتأول لها خلاف الحقّ. - أمّا النقص في البدن فيتناول الحواسّ أو الأعضاء أو التصرّف (الارادة).. [زوال العقل - ذهاب البصر - الجنون - الخبل - الصمم - الخرس - فقد الذوق - ذهاب اليدين أو الرجلين أو جهاز التناسل وجدع الأنف، وسمل العين الخ..] - وقد اختلف العلماء والمجتهدون في حالات منعه من إستدامة الإمامة والعكس..

ـ أمّا نقص التصرُّف فضربان: - حجر وقهر والحجر هو أن

يستولي على الخليفة من أعوانه من يستبدّ بتنفيذ الأمور من غير تظاهر بمعصية ولا مجاهرة بمشاقّة فلا يمنع ذلك من إمامته إذا كانت أفعال من استولى على أموره جارية على أحكام الدين ومقتضى العدل؛ وإن كان العكس لم يجز إقراره عليها ولزمه أن يستنصر من يقبض يد المتجاوز ويزيل تغلّبه. ـ والقهر هو أن يصير مأسوراً في يد عدو قاهر لا يقدر على الخلاص منه ولهذه الحالة أحكام ثبّتها الماوردي في «الأحكام السلطانيّة». وواجب أصحاب الحلّ والعقد مقاومة الظلم والطغيان والعمل لخلاصه بفكاك أو قتال ولهم الخيار في سلوك السبيل إلى «أهون الشرّين» حسب اجتهاد بعضهم. ـ ومثال على ذلك ما جرى في القرن الحادي عشر لمّا حلّ السلجوقيّون مكان البويهيّين.. وفي القرن الثاني عشر لمّا حاول خليفة بغداد التحرّر من قبضة السلجوقيّين.

في الواقع، وبدءاً من القرن التاسع، بدأ أصحاب الحلّ والعقد (الناخبون) يتصرّفون بشكل يضع الخليفة دائماً في دائرة نفوذهم وذلك في إطار احترام الأحكام الشرعيّة للتولية وبحيث لا يملك الخليفة إرادته المستقلّة ويظلّ مديناً لهم بالمنصب.

واجبات وسلطات الإمام

تقول الشيعة أنّ الإمام يجب أن يكون معصوماً، منفرداً بصفته إماماً تثبت ولايته وتنعقد إمامته وتحمل الأمّة على طاعته دون أن يعقدها أهل الأختيار إذ كيف يمارس من يملك هذه الصفات السلطة بتفويض وعقد ممّن لا يملكون مثلها؟

أمّا جمهور علماء السنّة فقد حدّدوا الذي يلزم الإمام من الأمور العامّة (الواجبات) وقد ثبّتها الماوردي في الأحكام السلطانيّة وهي عشرة أشياء:

١ ـ حفظ الدين على أصوله المستقرّة وما أجمع عليه سلف الأمّة

فإن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجّة وبيّن له الصواب وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ليكون الدين محروساً من خلل والأمّة ممنوعة من زلل.

٢ ـ تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بين المتنازعين، حتى تعمّ النصفة فلا يتعدّى ظالم ولا يضعف مظلوم.

٣ ـ حماية البيضة والذبّ عن الحريم ليتصرّف الناس في المعايش وينتشروا في الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال.

٤ ـ إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الإنتهاك وتحفظ حقوق عبادة عن إتلاف واستهلاك.

٥ ـ تحصين الثغور بالعدّة المانعة والقوّة الدافعة حتى لا تظفر الأعداء بغرّة ينتهكون فيها محرماً أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دما.

٦ ـ جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمّة ليقام بحقّ الله تعالى في إظهاره على الدين كلّه.

٧ ـ جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصّاً واجتهاداً من غير خوف ولا عسف.

٨ ـ تقدير العطايا وما يستحقّ في بيت المال من غير سرف ولا تقتير ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

٩ ـ استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوّض إليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأموال لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمناء محفوظة.

١٠ ـ أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفّح الأحوال لينهض لسياسة الأمّة وحراسة الملّة ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذّة أو عبادة فقد يخون الأمين ويغشّ الناصح؟.»

من صفات الخلافة تفرّد الخليفة وحده بالسلطة فهو وحده عامل وحدة الأمّة الواحدة التي لا تتجزأ والتي يديرها وهذا المبدأ تحقّق في عهد الأمويّين؛ أمّا في عهد العبّاسيّين فقد برزت الظواهر الأولى للتفتّت والتجزئة في الأمبراطوريّة لصالح أمراء تفاوتت درجات استقلالهم. فإذا

ما استولى أمير على السلطة في إقليم تابع لسلطة الخليفة أو إقليم آخر جديد لا بدّ من البحث عن تسوية تلائم مصلحة الفريقين ومصلحة الأمّة في نفس الوقت فالخليفة يعترف بالواقع أي بسلطة الأمير وهذا، بدوره، يعترف بسلطة الخليفة محققًا بذلك الشرعيّة لسلطته الخاصّة. ـ وهذا المبدأ في الإستقلال ـ منذ عهد هارون لا يبقي للخلافة إلا وحدتها الإسمية: ـ يذكر الخليفة في الخطبة وتكون التولية من قبل الخليفة، فتبقى ـ بذلك ـ المظاهر الوهميّة لسلطة مركزيّة في حين يتمتّع الإقليم باستقلال حقيقي.. وهكذا تحوّلت الأمبراطورية العباسيّة إلى دولة من النوع الكونفيدرالي خليفتها ـ كما يقول «هنري لاووست» ـ متحالف مع العائلات المالكة المحليّة لقاء اعترافها بمكانته الرفيعة.

خاصّة أخرى للخليفة هي الطبيعة الشخصيّة لحكمه.. فالإمام، مصدر كلّ شرعيّة، يجمع بين يديه سلطات الدولة الإسلاميّة جميعها ومختلف أجهزة الحكم والإدارة والقضاء التي تمارس صلاحيّاتها باسم ولايات تصدر عن سلطة الخلافة.. فأجهزة الحكم والادارة تعمل لقاء ما يعيّنه له الخليفة الذي أصبح يتصرّف ـ منذ بدء العهد العبّاسي ـ بمصدر مالي خاص يدعى «بيت المال الخاص ـ الذي كانت الجزية مصدر تمويله واعتبر ملكيّة خاصّة للخليفة الذي يملك أيضاً عقارات مفروزة من الملك العام ولها إدارتها الخاصّة.

والإمام خاضع للرقابة في حسن تدبيره لأمور الأمّة في ظلّ نظام عرضة لمنزلقات التعسف والزيغ والاستبداد دون أن يكون الخليفة، في ظله ملكاً مطلق اليد مستبداً بالمعنى التقليدي المعروف في النظم الملكيّة.. فلا يحق للخليفة الإنفراد بتفسير الشريعة وتطبيقها لأنّ هذا من اختصاص القضاء أو الإفتاء والخليفة ملتزم بالتقيّد بأحكام القرآن والسنّة وقدوة الخلفاء الراشدين.. ملتزم بالمشاورة والأخذ بالمشورة وهذا واجب رئيسي من واجباته في المسائل التي لم يأت فيها، مباشرة، نص أو حديث أو قرار إجماع سبق.. خصوصاً إذا كانت هذه المسائل ذات طبيعة سياسيّة أو عسكريّة تمسّ الصالح العام.

ومسألة تنظيم مجلس شورى يلجم استبداد الخليفة ويحدّ من تفرُّده لم يسبق أن تمَّ شيء من هذا في عهد النبي فظلَّت عرضة للتبدّل والتغيير مع تبدّل الشروط الإجتماعيَّة عبر الحقب المختلفة.. وقد حُصرت الشورى بأصحاب الحلّ والعقد والعلماء الموجودين في الحاضرة دون أن تكون هناك بنية قائمة ومحدَّدة لمجلس الشورى إيَّاه ومثله في ذلك أشبه ما يكون بالمجمع (سينودس) الكنسي الشرقي جامع رجال الدين والعلمانيِّين. ـ وظلَّ باب الإجتهاد مفتوحاً في أغلب الأحيان في معالجة القضايا السياسيّة والشرعيّة والوصول فيها إلى قرار..

مؤرخون مسلمون نفوا أن يكون للخليفة سلطان مطلق، وهذا صحيح مبدئيًّا، فليس المالك للأرض ولا لرقاب العباد وثروات الدولة ليست ملكه الخاص.. إنَّها ملك الله ربِّ العالمين وهو ليس خليفة الله في أرضه. ـ أمَّا في الواقع العملي ونظراً للطبيعة التيوقراطيَّة المعطاة للخلافة أيَّام العبَّاسيِّين فقد امتلك الخليفة ـ تجاوزاً ـ سلطات خرق فيها المبادىء وعطَّلها وكثيراً ما صارت إرادة الخليفة هي القانون والشريعة المطلقة فكان نظامٌ كثيراً ما ساده الإستبداد والطغيان وتحكَّمت فيه الأهواء.. وكبش المحرقة في ذلك كان الموظف الذي يملك الخليفة ـ عمليًّا ـ التصرف بمصيره كلِّه: منصبه.. ثروته.. حرِّيته.. حياته نفسها. وكلَّما علا ملاكه زاد قربه من السلطان والتصاقه به وتضاعفت بذلك المخاطر والأهوال المحدقة بقدره ومصيره. والمثال الصارخ يظلّ قائماً في حالة البرامكة مع هارون الرشيد.. كل هذا جعل كبار الموظفين (ولاة المصالح) على يقين أنَّ مجالهم قصير فصار همَّهم أن يجمعوا ما يستطيعون من أموال في شهور معدودة.. الأمر الذي كان يحرِّك أطماع الخليفة؛ ففي عهد العبَّاسيِّين كان الخلع والإقالة نهجاً يملأ صناديق بيت المال وذلك بفضل المصادرات!

العامل الواقي من الإستبداديَّة كان الأمان والوعد بالحماية وهذا ما كان يسعى إليه ولاة المصالح جهدهم.. ومتى نالوه أصبح لا يمسُّهم سوء من جانب، ومن جانب آخر في الأمان ظاهرة استبداديَّة ما دام

الخليفة نفسه هو الذي يمنحه فيقترن بالحذر من إطالة السلطة واتِّساعها وفي ذلك ما فيه من دواعي الشكوك.

علامتان ملحوظتان في نظام الخلافة هما غياب مجلس عموم دستوري وجهاز تشريعي ففيما عدا حقلي التنصيب والخلع لا يوجد في الدولة الإسلامية هيئة جماعيَّة مشاركة في السلطة.. فالشورى، وحدها، التي سبق الكلام عنها، هي التي تشكِّل، عند الإقتضاء؛ مجلسها المقيَّد بشروط ومهامّ محدَّدة.

نعم، لا يوجد في الإسلام مجلس تشريعي وليس من مسؤوليات الخليفة تكوين مثل هذا المجلس فهو الذي يصدر المراسيم ويجيزها مبنيَّة على مصدر التشريع: ـ القرآن والسنَّة (وهذه قاعدة تاريخيَّة)، ثم يأتي الإجماع (وهو مبدأ عقدي أي من أركان العقيدة) والقياس (مبدأ عقلي منطقي) وهما مبدآن تعليليَّان مساعدان حسب المذهب الشافعي.

والسمات الخارجيَّة، السياسيَّة والدينيَّة لسلطة الخلافة هما: ـ آ ـ الخطبة ويلقيها الخطيب واقفاً من على منبر الجامع الكبير قبل صلاة الجمعة منوِّها فيها بالإقرار بولاية الخليفة وطاعة وليِّ الأمر وفي نهاية الموعظة يأتي الدعاء وفيه بليغ الكلام العميق المضمون الواضح الدلالة.

ب ـ «السكَّة» (سكة الدراهم هي المنقوشة) ومعناها حقٌّ ضرب العملة الذهبية وهو ـ كما لدى الأمبراطوريَّات الأخرى ـ حقّ ملكي (حق رأس الدولة الذي به تتجسد سيادتها) وبمقتضى هذا الحقِّ يثبِّت إسم صاحب السلطة على قطع العملة وفي ذلك تأكيد عام على سلطته (انظر: لافوا ـ ج. والكر ـ جورج ميلس ـ بالوك ـ اندريه آهرنكروتز) وكلَّما أراد عاهل أو أمير إعلان استقلاله بادر إلى سك العملة بإسمه وإلى حذف أو إهمال إسم الخليفة في الخطبة.

علامات وشارات تجزيل وتعظيم الخليفة

الخلفاء المسلمون العبّاسيّون، وبعدهم أصحاب السلطة في «الممالك» المستقلّة تبنّوا علامات وشارات التجزيل والتعظيم التي استعملت لدى دول العصر الملكيّة فأحاطوا انفسهم بهالة من الفخامة والجلال ففي عهد العبّاسيّين لم يُترك مجال لمستزيد من الأبّهة والبذخ وفي تقاليد حفلات البلاط منذ العهد الأموي لم يعد الخليفة يظهر أمام الأشخاص أصحاب الخطوة وحتى في الجامع الكبير اصبح مفصولاً عن المؤمنين في مقصورته الخاصّة وفيها مكانه لإداء الصلاة.. وحتى في القصر يكون مفصولاً عن الزوّار ليستر او ستارة تدعى ايضا «الحجاب».. فظهر عنصر جديد بين ولاة المصالح هو «صاحب الستارة» المكلّف بالحجاب، وهو شخصيّة هامّة، من حقّه أن يعهد بوظيفته لسواه.

عدد شارات التعظيم، في عهد الأمويّين، كان اربعا وزاد إلى ست شارات في أيّام العبّاسيّين:

١ ـ العرش، أو الكرسي، أو السرير، ويقول ابن خلدون أنّ معاوية كان أوّل من أقرّه.

٢ ـ التاج وهو من الذهب المرصّع بالجواهر يكلّل جبهة العاهل وقد أخذ عن الساسانيّين.. وهناك تيجان أخرى أقلّ كلفة كان الخليفة يمنحها لشخصيّات متميّزة: ـ «الأوفشين» بعد قمعة الثورة البابكيّة أنعم عليه الخليفة بواحد منها.. وفي الزخرف الفسيفسائي لقبّة الصخرة بالقدس نستطيع رؤ ية عدّة نماذج من هذه التيجان.

٣ ـ الخاتم وقد نقش على قفص الفصّ اسم الخليفة مالك هذا الخاتم.. وفي حديث رواه البعض أنّ النبيّ كان يملك خاتماً انتقل بعده إلى خليفتيه الأوّل والثاني.. وأنّ عثمان أضاعه ومنذئذ أصبح كلّ خليفة يستصنع له خاتماً كتبت عليه عبارة هي الشعار الذي اختاره له صاحب الخاتم. ـ وأنشيء «ديوان الخاتم» كما استحدثت وظيفة المؤتمن عليه الموكول إليه استعماله في ختم المراسلات

الرسميّة. وقد أصبح الخاتم، أيضاً، رمزاً لسلطة أي أمير أعلن استقلاله في إقليمه وهو يذكّر بخاتم آخر اشتهر في التاريخ وورد ذكره في القرآن (خاتم سليمان المنقوش باسم الله والمندرج في التمائم والذي أذن لوزير سليمان وحده باستعماله).

٤ ـ الصولجان. . القضيب. . أو العصا ويذكّر بعصا النبي التي كان يستند اليها عندما يحدّث جماعته، والكلمة المرادفة للقضيب هي العصا التي كانت لدى قدماء العرب تلازم راعي الإبل والماشية وهي في القرآن عصا كلّ من سحرة المصريّين وعصا موسى السحريّة.

ـ الخاتم والصولجان (العصا) رمزان للسلطة مقتبسان من التقاليد السّاميّة السابقة للإسلام. . فبعد موت الخليفة يسلّمان إلى من يخلفه الذي قد يكون بعيداً عن مكان حصول الوفاة وعندما يصله الرسول حامل الشارتين المذكورتين يصبح مطمئناً إلى ثبوت خلافته. ـ **وهناك علامتان استحدثهما العباسيّون:**

٥ ـ «البردة» المنسوجة من الصوف وكانت تستعمل قبل الإسلام كعباءة في النهار وغطاء في الّليل. وقد اعتاد النبيّ لبسها مطروحة على كتفيه وقد صارت الرمز الثالث المميّز للعاهل وقد ظلّت عباءة النبيّ في بيت مال الخلافة حتّى جاء المغول إلى بغداد في القرن الثالث عشر. . وهذه رواية داخلتها أساطير كثيرة مختلفة. . فيقال أنّ البردة الحقيقيّة محفوظة إلى أيّامنا هذه في «توب ـ كابي» باسطنبول.

٦ ـ والشارة الثانية المستحدثة هي «العَنَزَة» أو «الحربة» (العنزة بفتحتين وهي أطول من العصا وأقصر من الرمح وفيها زجّ كزجّ الرمح ـ المترجم) ـ وقد ظهرت هذه الشارة منذ خلافة المتوكّل وبدا أنّ استعمالها متكامل مع استعمال الصولجان (القضيب) وكانت تُحمل أمام الخليفة في المواكب الإحتفاليّة الدينيّة، ويحملها قائد الشرطة وزعم المتوكّل، بذلك، إحياء شعيرة اسلاميّة: ـ محمّد،

في أوّل احتفال بعيد الفطر جعل بلالا قدّامه يحمل الحربة وأثناء الصلاة القيت الحربة إيّاها أرضاً باتّجاه يدلّ على القبلة وجرى مثل هذا تماماً في عيد الأضحى.

ويجدر بنا هنا أن نذكر آخر رمز او شعار اختصّ به الخلفاء العبّاسيّون: ـ اللّون الأسود. ـ واستعمال هـذا اللّون يعود إلى الإنتفاضة ضدّ الأمويّين حيث تميّز أنصار العبّاسيّين بارتداء الثياب السوداء ورفع أعـلام من نفس اللّون.. وتقول بعض الأسـاطير المرويّة أنّ العرب كانوا يرتدون العمامة السوداء في حالات وجود ثأر ينهضون طالبين أخذه. ـ وهذا تفسير لا يقنع كثيراً إذ قامت ثورات عربيّة كثيرة وراءها ثارات ولم ترفع فيها الرايات السوداء.. فلماذا لا يكون الأصل مأخوذاً من العادات الإيرانيّة؟

ففي إيران، لُبْس السّواد هو علامة الحداد وأخيراً فقد كوّن السواد معناه المتّصل بالحداد والثأر ليصبح شعار وراية السلالة العبّاسيّة.

أعداء هذه العائلة من علويّين وفاطميّين وقرامطة عادوا لأخذ اللّون الأبيض شعاراً؛ وهو اللّون الذي ـ حسب قول المقري ـ كان علامة الحداد في الغرب الإسلامي.

الوزارة

تأتي الوزارة في طليعة الأجهزة المتميّزة في العهد العبّاسي وقد تطوّرت مثل الأجهزة الأخرى خلال القرون.. فنفوذ شخص الوزير تنامى وسما فمن «كاتب» (أمين سرّ)، وممارس لنفس مهامّ الحاجب (بعد إحداثه) بلغ صاحب الوزارة قمّة السلطة فأصبح رئيس السلطة المدنيّة أي «الرجل الثاني بعد الخليفة».. واللّقب نفسه لا يبدو أنّه أخذ عن الفارسيّة كما زعم الكثيرون فأصل الكلمة يتطابق مع أصول علم الإشتقاق اللّغوي العربي.. وتردّد ذكر العبارة في القرآن (ومعناها هنا الذي يحمل عن الخليفة أعباءه أو بعضها). ـ والدور

الإداري للوزير حدّد في مطلع القرن الحادي عشر من قبل الماوردي في كتابه «الأحكام السلطانيّة» المترجم من قبل «فاغنان» والمنشور في الجزائر عام ١٩١٥. ـ والدور التاريخي للوزير حتّى عام/٩٣٦/ سُلّطت عليه الأنوار من قبل «د. سوردي» في اطروحته عن الوزارة العبّاسيّة بين /٧٤٩ و٩٣٦/ التي نشرت في جزئين عام ١٩٦٠.

ظهور المنصب بقي تاريخه غامضاً؛ فالوظيفة ـ كما سبق وقلنا ـ هي وظيفة الكاتب التي أخذت كامل أهمّيتها يوم تولاّها خالد بن برمك المكلّف بديوان الجيش والجند والّذي حظي بثقة الخليفة.

وفي عهد المهدي أصبح الوزير اقرب اعوان العاهل إليه دون ان تصبح له اليد العليا على جميع المصالح بمعنى أنّ وزارته كانت لا تزال تنفيذيّة وليست وزارة تفويض. ومنذ هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) استكملت الوظيفة أهمّيتها الحقيقيّة فالوزير هو المعاون الإداري المفوّض اليه تدبير الأمور (وزارة تفويض) المسؤول أمام العاهل عن حسن سير أهمّ الدواوين.. وللإمام أن «يتصفّح أفعال الوزير ليقرّ منها ما وافق الصواب ويستدرك ما خالفه وبخاصّة فيما يتعلّق بقيادة الحرب وتسمية حكّام الأقاليم.. ولا تقتصر مهامّ الوزير على امتلاك المواهب السياسيّة بل يجب أن يمتلك، أيضاً، مواهب فكريّة وثقافيّة فيقدر، بذكائه، أن يروّح عن نفس الخليفة وأن يقاسمه مسرّاته النهاريّة والّليليّة.

الوزير المفوّض المطلق الصلاحيّة في تسمية وإقالة الموظّفين عليه دائماً أن يتدرّع بالإحتراس والحذر.. ففي بلاط الخليفة الدسائس والمؤامرات المتواصلة والتي طالما حبكها الأصدقاء المقرّبون والأقرباء الأدنون للخليفة وأمراء الأقاليم وقادة الجيش.. فسلطة الوزير لا حدود لها ما دام يتمتّع بحظوة الخليفة، وبالمقابل، غالباً ما يحدث أنّ أملاك الوزير ـ لدى زوال الحظوة عنه أو لدى تصفيته جسديًا بأمر من الخليفة ـ تنتقل إلى خزائن الخليفة الخاصّة مثلها مثل ممتلكات الموظّف المعزول المنتقلة لحساب الوزير. ـ

في ظلّ سلطان الخلفاء العبّاسيّين الأوّل، ولمدّة نصف قرن تقريباً ـ تعاقب على منصب الوزارة ورثة خالد بن برمك (البرامكة)؛ وبعد سقوطهم عام /٨٠٦/ تولّى المنصب إيرانيّون على الأغلب. . دون أن تبلغ أيّة عائلة ما بلغته عائلة البرامكة من استمرار الإحتفاظ بالمنصب. . فكلّما اشتدّ الهجوم ضد الوزير استردّ الإمام التفويض بالسلطة الذي منحه إيّاه. . وفي أكثر من مرّة قطع رأس الوزير عند قاعدة عرش أمير المؤمنين؛ أمّا في أيّام وَهَن وضعف السلطة الشخصيّة للخليفة فقد أصبح الوزير هو رئيس الحكومة وامتلك سلطاتها الدنيويّة الجوهريّة كلّها مبقياً للخليفة إمامته فقط وهي إمامة مقيّدة مغلولة استبقت لنفسها سلطانها الديني الإسمي المقصور على الصلاة والتوليات.

تقليد الوزارة

للوزير، إذن، مكانته المتميّزة في الإدارة المركزيّة فهو المؤتمن على الأسرار، الكفؤ الناهض بالمهمّات. . قادر على تدبير الأمور برأيه واجتهاده ذو خبرة ومعرفة بشؤون المال، متمكّن من اللّغة العربيّة وآدابها وفنون الكتابة والإنشاء والتأليف. . ومدّة التمرّن على الوزارة والتدرّج فيها تمر في خمس مصالح كبرى للدولة (دواوين) هي: (الرسائل ـ الخراج ـ الجند ـ الشرطة ـ العدليّة) وبهذا تكتمل كفاءاته وبخاصّة ما اتّصل منها بالمال والدين والشريعة. ـ ولأنّ الكثيرين من الوزراء ينتمون إلى عائلات الموالي أي غير العرب فهذا لم يكن يمنع هؤلاء أن يكونوا على جانب كبير من فصاحة اللّسان وحسن البيان إلى جانب التضلّع بإحدى اللغات الفارسيّة أو التركيّة الخ. . وهذه ميّزة مطلوبة من أجل العلاقات مع الأقاليم المفتوحة المُدارة.

مهامّ الوزير الإداريّة

نظراً لإشراف الوزير (وزير التفويض) على مختلف الدواوين، فهو المسؤول عن أعمالها وينظر، مباشرة، في كلّ ما يصدر عن ديوان الرسائل وينظّم، عملياً، وسائل الإعلام وعلى صعيد الحكم يتحمّل ثلاث مهامّ هي: ـ تطبيق الأحكام الشرعيّة المتعلّقة بشؤون المال. ـ وحلّ المشاكل التقنيّة المتعلقة بالمظالم ومسبّباتها. ـ وحسن تنفيذ مشيئة الخليفة فيما يتعلّق بالأحكام الشرعيّة.

في الشؤون الماليّة يراقب الوزير الحسابات، ويؤمّن توزيع المصروفات (يقبض ما يستحقّ له ويدفع ما يجب عليه) ويسهر على توازن الميزانيّة ويتصرّف في اموال بيت المال ويزيد المرتّبات أو ينقصها.. يعيّن الرواتب أو يلغيها وتعديل مخصّصاته الخاصّة.. وفي الربع الثاني من القرن العاشر ـ بدءاً من خلافة الراضي ـ بدأت مرحلة انحطاط الخلافة وتأكّدت قوّة مؤسّسة مستجدّة هي منصب «امير الأمراء» القائد العام للجيوش.

منذ عام ٩٣٤ ـ ٩٣٥ عاش الخليفة الراضي افلات مزق الامبراطوريّة من يده حتّى اقتصرت سلطته على بغداد وضواحيها فاستنجد بأمير ثغري واسط والبصرة عام /٣٢٤/ ٩٣٦/ وسمّاه «أمير الأمراء» وفوّض اليه رسميًّا ادارة شؤون الدولة وقلّده ـ اضافة الى ذلك ـ حقّ ذكر اسمه بعد إسم الخليفة في الخطبة. ومنذئذ استحدث منصب نائب الخليفة وعلى هذا الأساس نمت واتّسعت السلطة العامّة في الإسلام. ـ قيادة الجيش أصبحت منوطة بالمنصب المستحدث ولكن الجوهري هو الإدارة العامة للحكم فقد أنيط بأمير الأمراء: ـ الأراضي ـ الضرائب ـ الزكاة ـ تقليد الولاة ـ والشرط الوحيد هو أن توقّع القرارات بخاتم الخليفة.

هذا الوضع حدّ من سلطة الوزير ومن أهميّته وان كان امير الأمراء لم يأخذ مكانه الذي أصبح لا يتعدّى وزارة التنفيذ في حين تحوّل منصب «أمير الأمراء» الى «سلطنة».

الإدارة ـ المصالح المركزيّة

منذ خلافة المنصور /١٥٨/٧٧٥/ كانت البداية التنظيميّة للسلطة المركزيّة وأخذت الإدارة، سريعاً، أهميّتها الكبرى واحتاجت إلى جهاز واسع ومؤهّل بالثقافة والكفاءات. . ـ كوادر الإدارة والمصالح العامّة المستعارون من النظام الفارسي الساساني القديم شكّلوا باديء ذي بدء ركيزة صلبة من ركائز تنظيم الدولة. . ثمّ صار يتمّ تقليد الوظائف إلى المؤهّلين من بين الموالي أي غير العرب الذين انصهروا تدريجياً، بالمجتمع الإسلامي الناشيء. وإن ظلّ معظمهم متمسّكاً بثقافته الأصليّة حاملاً لها الولاء. . فكانوا النواة التي مثّلت الثقافة والحضارة «العربيّة ـ الإسلاميّة» التي تسرّب اليها النفوذ الإيراني من جانب والنفوذ اليوناني عن طريق النساطرة من جانب آخر.

وأخذت الإدارة العباسيّة طابعها البيروقراطي بتقاليده الثابتة المحافظ عليها. والإدارة، بطبيعتها، محافظة تكره التجديد. . لقد كثرت السجلّات والكتابة أصبحت غزيرة. . سهّلت ذلك صناعة الورق المأخوذة عن الصينيّين منذ نهاية القرن الثامن؛ والورق المستعمل للكتابة أخذ أحجاماً وأشكالاً معيّنة عديدة: ـ الربع ـ الثلث ـ النصف ـ والورقة الكاملة وذلك وفق أهميّة الرسالة والجهة المخاطبة.

وتألّفت الإدارة من عدد معيّن من الدواوين ويتألّف الديوان من عدّة مكاتب (مجالس) ودخل نظام الأقاليم مرحلة التطبيق في الأمبراطوريّة العبّاسيّة. . فكلّ إقليم صار له ديوانه الخاصّ به في بغداد ويتألّف من فرعين: ـ «الأصل» أو فرع الادارة العامّة. ـ و «الزمام» ويضمّ مصالح المحاسبة والمكاتب الماليّة وفيها حساب المصروفات ودخول الإقليم.

لقد طرأ، في الحقيقة، اصلاح اكيد ومتعدّد الجوانب ودواوين تغيّر اختصاصها وتطوّر. . ورغم هذا ظلّت للنظام ديمومته وإن كانت

المعلومات الدقيقة عن سير عمل أجهزته ومؤسّساته قليلة وغير دقيقة.

ديوان «الجند» كان أوّل ديوان أنشيء منذ بدء الفتوحات وفيه كانت تتمّ الإحصاءات وتمسك سجلّات المحاسبة وكشوف العمليّات الحربيّة وقد أنشئت هذه المصلحة في دمشق من قبل الأمويّين.

وديوان الضياع (الممتلكات) وفيه تعالج شؤون املاك الدولة وكذلك الأراضي المصادرة او المغبوطة.. فيه كانت السجلّات الأصليّة (المركزيّة) للمبالغ الحاصلة من ضريبة العشر ويرجع نشوء هذه المصلحة إلى عهد السفّاح أي الأعوام الأولى للعهد العبّاسي.

بيت المال (خزينة الدولة) ارتبط به ديوان النفقات (المصروفات) ومهامّ هذه المصلحة دفع رواتب الموظّفين والجهاز «المرتّب» في البلاط كما كان يوزّع النفقات التموينيّة ويتعهدّ شؤون الأبنية الحكوميّة.

كانت توجد مصالح أخرى ذات طبيعة إداريّة مثل «ديوان الرسائل» (ديوان الإنشاء) ويعود نشوؤه الى معاوية وهو ما يعرف اليوم بمكتب رئاسة الدولة (وتختلف تسميته باختلاف النظام) - وهو جهاز تنفيذي فيه توثّق العقود وتسجّل القرارات الرسميّة وتنشأ الرسائل وتنشر البراءات ويتمتّع جهازها بكفاءات أدبية وثقافية وفنية وفقهيّة ذات مستوى جيّد وفيه الخطّاطون الأكفّاء.. ويلحق بهذه المصلحة الرئيسة «ديوان الفضّ» الموكول إليه فتح الرسائل وهذه كانت قبلا مهمّة المؤتمن على الخاتم. ويلحق بها أيضاً «ديوان الخاتم» وهما مصلحتان كانتا خاصّتين بالخليفة قبل إحداث منصب «وزير التفويض».

وأخيراً لا بدّ من ذكر «ديوان التوقيع» (مكتب الحاشية) المكلّف بالمراسيم والمذكّرات المختصرة ويتولّى - حصراً - حسابات امراء الأقاليم (الحكّام) وتوزيع البريد على الدواوين المختصّة.

وقد أنشأ العبّاسيّون مصالح آخرى منها «مصلحة الشرطة» المكلّفة ليس فقط بمراقبة السكّان وحفظ النظام، وإنّما ايضاً (بأمن الخليفة في جميع تحرّكاته. و «صاحب الشرطة» (القائد) مفوّض بالتبليغ عن الجرائم المشهودة وبقصاص المجرمين والمذنبين.. وفي حقب معيّنة أصبح صاحب الشرطة شخصيّة تُعامل في البروتوكولات الرسميّة على قدم المساواة مع الوزير. - في المدن، معاون صاحب الشرطة، «المحتسب» المكلّف بالسهر على نظام الأسواق والأخلاق العامّة كانت تحصر به شؤون الموازين والمكاييل والمقاييس كما كان يسهر على تطبيق الأحكام الشرعيّة وعدم بيع الموادّ المحرّمة مثل الخمر وكذلك منع الألعاب المحرّمة مثل «الزهر».

ادارة الأقاليم

السلطة الإقليميّة، في العهدين الأموي والعبّاسي تعود إلى الولاة الذين يقلّدهم على عملهم الخليفة مباشرة. وتقسيم الامبراطوريّة الى أقاليم نظام ورثة الأمويّون عن البيزنطيّين وإيران الساسانيّة وقد أبقى العبّاسيّون على معظمه. - وأهمّ الأقاليم كانت: - افريقية الغربيّة (المغرب) - افريقية - مصر - سورية (الشام) - فلسطين (الأردن) - الحجاز - اليمامة - اليمن - البحرين - عُمان - العراق - اذربيجان - خوزستان - فارس - كرمان - مقران - ارمينية - طبرستان - خراسان - خوارزم - السخد SUGHD - فرغانة - .. وذلك دون ان تكون هناك قاعدة جغرافيّة إداريّة محدّدة.. وكلّ اقليم كان له ديوانه المركزي الخاص في بغداد. - وعلى النطاق المحلّي، في كلّ ناحية من نواحي الإقليم كانت تنظّم المصالح على صورة ومثال مصالح العاصمة وتوزّع المصالح إيّاها بين ستّة شخصيّات أهمّهم «القاضي» الذي - في المدن الكبرى - يصبح أكثر من واحد أي قاضي واحد لكلّ مذهب. - و «العامل» (جابي وجامع الضرائب) وهو الذي يتولّى الإدارة الماليّة في الإقليم ويأتي تقليده من بغداد مباشرة فيتعدّى دوره جباية الخراج

والجزية والموارد الأخرى إلى تقلّد أمور ومسؤ وليّات مصروفات الإدارة ورواتب الجيش. ـ وهكذا تكون الحركة الماليّة، مبدئياً، متروكة لبغداد المركز وبعد تصفية المصاريف المحليّة ترسل البقيّة الى العاصمة ويضاف اليها ـ عادة ـ محصّلة عمليّات الإبتزاز والعمولات بعد الإقطاعات المحلّية منها.

المهام الأربع المتميّزة الأخرى كانت: ـ امير الجيش ـ صاحب البريد ـ نائب صاحب الشرطة ـ مدير (أو أمين) الأملاك العامّة (الضياع). ـ وهذه الأجهزة كلّها خاضعة لسلطة وليّ امر الإقليم (الحاكم) الذي يتمّ تقليده من قبل امير المؤمنين (الخليفة) مباشرة. ـ كما أنّ تفويض الوالي بامامة الصلاة يتمّ بتقليد من قبل الخليفة أي أنّ وليّ الأمر الإقليمي ليس دائماً صاحب السلطة المطلقة الشاملة لجميع المصالح فهو حيناً، يتقلّد جميع السلطات المدنيّة والدينيّة والعسكريّة للإقليم: ـ وعندها يكون هو قائد القوّات المسلّحة في اقليمه وهو الموكولة إليه مسؤ وليّة الضرائب والساهر على تطبيق العدالة. . ـ وفي حالة اخرى يكون مكّلفاً لشؤ ون المال فقط ويكون زمام السلطة الحقيقيّة بيد من يقود القوّات المسلّحة. . وبالأساس هذا المنصب الإداري قد يكون له تصوّر نظري وله لدى التطبيق طبيعة مهتّزة متّموجة. .

وليّ الأمر، هذا، يكون، عادة، من عائلة كبيرة. . أمير من عليّة القوم، لعبت الدسائس دورها في تعيينه بمنصبه ويعلم اذن أن المنصب غير موقوت والطغمة التي أوصلته الى المنصب تقابلها مراكز قوى مضادّة قد تستطيع إسقاطه. . فالتقليد إذن دائماً غير مستقرّ؛ فهناك، والحالة هذه، حلاّن واحتمالان: ـ من هم أقدر على المبادرة والمغامرة يدعمون مركزهم عن طريق كسب دعم ذوي النفوذ، أو بعضهم، في البلاط. . او عن طريق اعلان استقلال اقليمهم ولهذا الإحتمال الأخير مخاطره المحسوبة طبعاً. . أمّا المتردّدون القاصرون عن سلوك احد السبيلين الأنفي الذكر فيكتفون بالإثراء السريع.

في حالات معيّنة انتقل المنصب إرثاً من الأب إلى الإبن والسلطة المركزيّة لم تكن تتدخّل في ادارة الإقليم إلاّ عندما تكثر حالات الشكوى والتظلّم أو عندما تتفجّر في الإقليم ثورة شعبيّة ما.

في النصف الأول من القرن التاسع حافظت الخلافة العبّاسيّة على مظاهر الوحدة. وأمراء الأقاليم (حتّى الذين منهم كانوا ينقلون منصبهم الى أبنائهم إرثاً) ظلّوا يعتبرون الممثلين لأمير المؤمنين وظلّت الخطبة باسم الخليفة وحده؛ اما في مرو وسمرقند المدينتين البعيدتين عن بغداد فكانت تضرب النقود فيهما دون ذكر اسم وليّ الأمر الإقليمي إلاّ على القطع النحاسيّة (الفلوس). - في منتصف القرن التاسع أظهر امراء الأقاليم استقلاليّة أوسع فأمروا بذكر اسم كلّ منهم في الخطبة بعد اسم الخليفة.. وبكتابة اسمهم على النقود. - هكذا فعل الطولونيّون في مصر وسورية. والصفّريّون في إيران الشرقيّة بعد عام /٢٧٢/٨٨٥/ فأمير الإقليم الكبير لم يعد حاكماً وحسب بل أصبح؛ فعلاً العاهل الذي يعترف فقط ان الخليفة «سيّده ومولاه» تغطيةً لسلطانه فقط.

البريـد

بعد المالية وفي مستواها، أهمّ المصالح الاداريّة الإقليميّة كان «ديوان البريد». - قال الجاحظ ما معناه: ان من قواعد سلوك الملك الصالح العمل على معرفة خفايا صدور الحاشية والبطانة وذوي القربى وبث العيون بينهم وفي أوساط الشعب ليكون على علم كامل في كلّ ما يجري ويحدث وأن يعيّن برفقة كلّ قائد جيش وكلّ حاكم ولاية عامل استخبارات.. فالوضع العام في الامبراطوريّة العبّاسيّة أجبر السلطة على التمييز بين الصديق والعدو والنصير والمنافق ومن أجل تقصّي حقيقة الرأي العام لجأ الخليفة الى مصلحة «صاحب البريد» وهي مصلحة نشأت وقامت بدورها في عهد الامبراطوريّة البيزنطيّة واسمها مستخلص، كما يبدو، من الإسم اللاّتيني VEREDUS(أو اليوناني BEREDOS(ومعناه «حصان البريد» وقد استعمل الأمويّون

هذه المصلحة التي طوّرها ونمّاها العبّاسيون بعدهم فعرفنا تنظيم أهمّ طرق البريد (شبكة المواصلات) في القرن التاسع عن طريق احد مدراء البريد «ابن خرداذبي» : ـ طريق من بغداد الى خراسان مروراً بهمذان ـ الري ـ نيسابور ـ مرو ـ بخاري ـ سمرقند ـ حتّى يبلغ الصين . ـ طريق بغداد ـ عبر دجلة ـ البصرة ـ خوزستان ـ فارس ـ . ـ طريق بغداد ـ مكة ـ عبر الكوفة ـ البصرة .

السفراء، والرسل، وحَمَلة البريد الرسمي كانوا يستعملون مصلحة محطّات المراحل السريعة عبر الطرق الموجّهة المأمونة المجهّزة بمراكز التموين وتبديل وسائل النقل الخ . . وعلى هذه الطرق نفسها كان يتنقّل الحجّاج وقوى الاستطلاع العسكريّة والقوافل وعناصر مصلحة الإستخبارات الذي أصبح اختيارهم يتمّ ـ منذ خلافة المنصور ـ من بين التجار وأصحاب الأسفار.

كان البريد مقصوراً على المواصلات الرسميّة أمّا المواصلات الخاصّة ـ خاصّة التّجار مثلا ـ فكان يتمّ تبادلها عن طريق الأصدقاء والمعارف المتنقّلين . ـ وصاحب البريد الإقليمي كان أهمّ الموظفين وأرهبهم جانبا اذ كان يلعب دوراً سياسيّاً من اعلى مستوى واتّصاله مباشر بالسلطة المركزيّة ولا علاقة له بأيّ مرجع سوى بغداد فهو صلة الوصل بين السلطة المركزيّة والإقليم كما تدخل في صلاحيّاته اعطاء المعلومات عن عناصر الجهاز الوظيفي المدني والعسكري وتقديم التقارير عن التّجار والمتنقلين والأجانب ابناء السبيل، وإرضاء اهتمامات ورغائب الخليفة السياسيّة والإقتصادية . . فهو ـ والحالة هذه ـ المدير الفعلي لمصلحة الاستخبارات العامّة والرقابة العامّة.

في ظلّ هارون الرشيد والمأمون عرفت المصلحة اياها نشاطا كبيراً جدًّا جعلنا نلمس أثرها في كلّ ما سجّله التاريخ من احداث تلك الحقبة . ـ وبعد معرفة جوهر وحقيقة المدوّنات الإداريّة أدركنا، للأسف الشديد، أننا لا نملك الا القليل من التفاصيل الموثوقة عن أجهزة المؤسّسات والمصالح لعدم وجود الوثائق . . وكلّ ما استوثقنا من صحته

هو أن الوظائف الماليّة والعسكريّة في مصالح الدولة كانت تحتلّ المكان الأعلى اهميّة.

الماليّـة

في بداية حكم الأمويّين كانت موارد تمويل بيت المال هي: - الغنائم - الفيء - الصدقات.

وتقسم الغنائم الى خمس حصص.. أربع توزّع على المقاتلين الذين غنموها في معاركهم مع العدّو والخمس الباقي يورّد الى بيت المال ليصرف في الصالح العام. - «والفيء» هو مجمل الأموال والثروات المنتزعة من الكفّار والمترتّبة عليهم خارج المعركة (الخراج والغنيمة) والثروات التي ليس لها مالك معيّن والثروات التي غاب وارثها والصدقة (وهي طوعيّة متروك تحديدها للمتصدّق وغالباً ما اعتبرت مرادفة للزكاة.. الصدقة المشروعة وهي نوع من الضريبة التضامنيّة التي حدّدت الشريعة نسبتها)

وبعد أن بلغت الفتوحات مدىً توقّفت عنده نقصت الغنائم ومعها مكاسب الحرب فأصبح لزاماً البحث عن موارد بديلة لها ودخلت البلاد مرحلة تنظيمها المالي الذي أقرّ النظام السابق للفتوحات وأعطاه قوّة الإستمرار وبدأ تطبيق ضريبة الجزية (التي سيأتي الكلام عنها). في الواقع إبّان الحكم البيزنطي السابق كان غير المسيحيّين يدفعون رسم رضوخ (EPIKEPHALION) فلا عجب والحالة هذه ان يفرض المسلمون داخل الأراضي التي فتحوها على كلّ رأس مسيحي نفس الضريبة المذكورة. - ولحسابات الضرائب، وحركة الأوامر، والمستندات، واجتماع مأموري السلطة وجدت في العهد العبّاسي تجهيزات إداريّة بالغة التعقيد وقد وجد في بلاد الإسلام صنفان من دافعي الضريبة: - المسلمون المكلّفون بالزكاة والعشر وحتى الخراج (في زمن متأخّر) وغير المسلمين دافعو الجزية والخراج.

الموارد

اعتمد اقتصاد الأمبراطوريَّة العبَّاسيّة على الزراعة بشكل رئيسي. وموارد الدولة الأساسيَّة كانت تتمثّل في الضرائب المفروضة على الأراضي وحاصلاتها. ـ ومن هنا جاءت أهميَّة الأنظمة والتشريعات الخاصَّة بالثروة العقاريَّة والتي طرأت عليها سلسلة أحكام وتطبيقات عبر الزمن.

مصلحتان مرتبطتان بمكاتب دواوين الماليَّة والزراعة لعبتا دوراً هامًّا: ـ «التقويم» (CADASTRE) الموكولة إليه عمليات تدقيق البيانات والكشوف المعتمدة في التخمينات الضريبيَّة. ـ و«ديوان الماء» الذي كان يسهر على تنظيم الريّ وإقامة السدود وإنشاء الأقنية ومراقبة التوزيع بين المنتفعين انطلاقاً من مبدأ مساعدة المزارعين حفاظاً على مورد هام من موارد الدولة.

حكم القرآن واضح في الأرض فهي أرض الله.. ولم يمنع ذلك من تقسيم الأرض إلى صنفين رئيسين: أرض العشر.. وأرض الخراج. ـ فأرض العشر هي أراضي نواحي العربيَّة المملوكة من المسلمين والأراضي الموروثة من الأمبراطوريّتين البيزنطيَّة والساسانيَّة وكذلك الأراضي التي تركها مالكوها فأعيد توزيعها على المسلمين. والعشر واحد من عشرة يدفع عيناً أو ذهباً حسب نوع أرض العشر وطبيعة تربتها وإنتاجها ويشمل كلّ ما تنتجه الأرض.. والعشر متّصل بالزكاة الواجبة على كلّ مؤمن وزكاة الحاصلات الزراعيَّة تحوَّلت مع الزمن إلى ضريبة حقيقيَّة دوريَّة تصرف لسدّ الحاجات العامَّة.

وأرض الخراج هي أراضي البلدان المفتوحة بالقوَّة وقد بقي أهلها فيها مستمرين في استثمارها. وكانت أراضي الخراج ـ من الناحية النظريّة ـ ملكاً للأمَّة ولكنَّها تركت بتصرّف قاطنيها من غير المسلمين لقاء دفع الخراج وهو نوع من الأجر العيني أو ضريبة العقار البالغة خمسة أضعاف الزكاة أي نصف المحصول.. وعندما اتَّسع وتضاعف عدد الداخلين في الإسلام نقص مورد الجزية نقصاً كبيراً فتقرَّر الإبقاء على

الخراج على الأراضي المفتوحة سواء أسلم مالكوها أم لم يسلموا بمعني أنَّ أرض الخراج استمرَّت بدفع هذه الضريبة. وحساب الضريبة المتأتِّية من أرض الخراج كان يتم حسب المناطق والمواسم والحقب التاريخيّة التي فيها تطوَّرت الأنظمة وسبل ووسائل تطبيقها. . فأمَّا أن تحدَّد الضريبة حسب مسائح الأرض معتبراً بالسنة الهلاليَّة وأن تحدَّد على مسائح الزرع معتبراً بالسنة الشمسيَّة. . وإن جعل ذلك مقاسمة اعتبر كمال الزرع وتصفيته. . وقد وضع في الحساب المساحة الحقيقيَّة المزروعة. . ونوع الأرض. . وطبيعة الحاصلات (تفاوت أثمانها). . ونوع السقاية كالسقاية بغير آلة (السيوح من العيون والأنهار) والسقاية بآلة من نواضح ودواليب أو دوالي. . وتفاوت المؤونة وشقاء العمل. . وسقاية العذي (ما سقته السماء بمطر أو ثلج أو طلّ) - والأخير يشرب الزرع بعروقه ويسمَّى البعل - ثمَّ بُعد الأرض أو قربها من الأسواق وتأثير ذلك على الأسعار.

في نهاية خلافة المنصور وبدء خلافة المهدي طبِّق نظام «المقاسمة» المقتبس من الفرس المتمثِّل في الدفع العيني المتناسب مع الريع الحقيقي واختلفت النسبة المئوية بين ٢٥٪ الى ٥٠٪ وجاز أن تتناسب الضريبة مع المساحة المحدَّدة وتدفع نقداً والمساحة أساسها «الذراع» وقد اختلف طوله حسب الأقاليم وثبتت الأطوال بدقَّة كبيرة. . ونظام المقاسمة ظلَّ المفضَّل لأنَّ النظام الآخر يتطلَّب بيع الريع بسرعة للحصول على الدراهم فتلعب المضاربة دورها وتؤثر على الأسعار. - وإذا جاء حساب الخراج باهضا صعب التسديد فالجباية تصبح صعبة كذلك لأنَّ جباية الضرائب كانت موكولة إلى القائمين على أمور الخزينة المحليَّة ويرأسهم «العامل» مساعد وليِّ أمر الإقليم، وعندما كانت الخزينة (بيت المال) تعاني المصاعب كان يتمّ اللُّجوء إلى (الأكَّار أو الضامن) الذي يدفع إلى الديوان، مسبقاً، مبلغاً محدَّداً يقلّ قليلاً عن الضريبة التي يستوفيها لقاء السلفة والفارق هو ربحه؛ ولأنَّه، عادة، من الأغنياء ذوي النفوذ فالمجال كان يتّسع له لظلم السكَّان وابتزاز الأرباح

الكبيرة منهم وتلك بدايات دخلت بين عوامل أدّت إلى خراب البلاد.

ولا بدّ من الملاحظة هنا أنّ الخزينة (بيت المال) كانت دائمة التعرض لمصاعب جادّة. . ومن عوامل ذلك عدم التطابق بين تقويم السّنة الهلاليّة الإسلامي وتقويم السنة الشمسيّة الوحيد المأخوذ به في الزراعة. . فالجزية ظلّت تجبى حسب التقويم الهلالي في حين أنّ كلّ ما له صلة بالأرض ارتبط بالتقويم الشمسي الفارسي وهو أيضاً عرضة للخلل ومن أجل ذلك قرّر الخليفة، في النهاية، عام /٢٨١/ ٨٩٤/ تثبيت بداية للعام المالي هي بداية الحصاد في الصيف وهي في تموز. - في حالات الدفع العيني كان الجباة يقومون بعمليّات الفرز ونقل وبيع الحاصلات المجتباة. وفي حالات الدفع النقدي كان العامل يتوّجه إلى «الجهبذ» وهو موظّف في الحكومة يقوم بدور الصرّاف الرسمي وهو عمليًّا دور المحصّل لأموال الخزينة.

وفي أمبراطوريّة نظامها النقدي قائم على معدني الذهب والفضّة معاً لا بدّ من أن تقوم المشاكل وتتعقد فالضرائب المحسوبة أو المحصيّة أو المخمّنة في بغداد كانت تحسب بالدينار أي على أساس الذهب إلّا أنّ دفعها الفعلي في الأراضي التي كانت داخلة في الأمبراطوريّة الساسانيّة كان يتمّ بالدرهم أي على أساس الفضّة والصرف خاضع للإختلاف. . فلقاء كلّ دينار كان يُدفع /١٠ الى ١٢/ درهماً إضافة إلى وجوب وزن القطع وتحديد مواصفاتها (المعدّل - الدرجة - العيار) وكلّها عمليّات ضاعفت أهميّة دور الجهبذ ونفوذه فكثيراً ما أصبح هو المسؤول الإقليمي لبيت المال وعليه تحمّل مصاريف النقل والمحاسبة ومسك الدفاتر والسجلات والجرائد (قوائم الجرد). - في القرن الرابع عشر أصبح هذا الخبير بالشؤون النقديّة هو صيرفيّ البلاط.

كان الخراج يحقّق مصدراً هامًّا من مصادر الدخول هو المواشي - وبخاصّة مواشي البادية - فأهل البادية المسلمون كانوا يطبّقون على ماشيتهم الزكاة وهي عينيّة نظريًّا ولكنّها على صعيد التطبيق العملي كثيراً ما كانت تحسب أثمانها وتدفع نقداً ممّا جعل جباية الزكاة من التعقيد بمكان.

الإقطاع العبَّاسي

إحدى أهمّ مشاكل البنية الإقتصادية في الإسلام، مشكلة ترجع إلى يوم كافأ فيه النبيّ بلالا فوهبه مسكناً ولم يلزمه بشيء لقاء ذلك سوى العشر (الزكاة) وهذا ما سُمِّي«إقطاعاً» ومعناه الإمتياز المحدَّد المؤجل على أرض أو عقار من الأملاك العامَّة ويخضع ريعها لضريبة العشر. - والمالك الذي يكون عادةً من كبار رجال الدولة، كان من سكَّان المدن؛ ولمَّا كان هذا الإمتياز (الإقطاع) قد خلق الإلتزام بزرع الأرض لزيادة إنتاجها وبالتالي تنمية موارد الدولة فإنَّ المستفيد صاحب الإمتياز كان يوكل استثمار العقار إلى «مزارع» يراقب اليد الغاملة التي غالباً ما كانت من العبيد. ـ ونشوء الإقطاع (تخصيص «قطيعة» أي طائفة من أرض الخراج) تطوَّر كثيراً وهذا التطوُّر كان موضوع عدَّة أبحاث لـ «كلود كاهين» الذي أكَّد بالبرهان أنَّ ترجمة العبارة «إقطاع» و«قطيعة» إلى «إقطاعة ـ منطقة نفوذ» كانت بعيدة عن الصواب؛ فالمنشأة إيَّاها لا تمتّ بأيَّة صلة إلى النظام الإقطاعي بل هي أقرب ما تكون (حسب رأي كاهين) إلى النظام القديم للإيجار طويل الأمد الذي أعطى المستأجر حقوق الرهن العقاري [EMPHYTHEOSE].. غير أنَّ الإمتيازات تلك، التي أعطي بعضها على شكل وراثي ظلَّت قابلة للمصادرة أو عرضة لها من قبل الخليفة الذي كثيراً ما أساء استعمال حقّه وبخاصَّة في الأزمات الصعبة.

إضافة إلى الضرائب التي سبق الكلام عنها، كان بيت المال يستفيد من موارد مختلفة أخرى مثل «المكوس» (الحقوق الجمركيَّة المجتباة) التي وضعها المشرِّعون على اللافتات (العناوين العامَّة للتجارة) وتبلغ ١٠٪ من ريع البضائع. ـ والعشر المفروض على ريع بضائع التجَّار الغرباء الذين يسوّقون بضائعهم في بلاد الإسلام. - والخمس (ضعف العشر) على المنتجات المعدنيَّة والسفن ومشحوناتها والأشياء الثمينة المكنوزة ومكوس الجسور والطرق الخاصَّة. -

والمصادرات والمحجوزات أيضاً لم تكن مورداً قليلا وكذلك الثروات والموروثات التي غاب مستحقوها فأصبحت ملكاً للدولة.

يستحيل تعداد وإحصاء جميع المكوس والرسوم غير الشرعيَّة والضرائب الطارئة.. وكلُّ هذا التنوّع في الموارد كان يتطلّب مصالح معقّدة وأجهزة وخبرات عديدة منوّعة ومحاسبين وكتّاباً وناسخين ملحقين بديوان الخراج وديوان النفقات.

المصروفات

المبالغ المجتباة لا ترد كاملة إلى دواوين الحكومة المركزيَّة، فالأقاليم تقتطع منها الضروري لمصروفات الإدارة ونفقات الجيوش ونفقات أقنية وسدود أراضي الأملاك الواسعة العامَّة ومنشآت المرافيء؛ والرصيد كان يرسل إلى بغداد.. وهذا الدخل الصافي كان معدًّا لتغطية حاجات العاصمة والعراق إذ يدخل في حساب الميزانيَّة حاجات البلاط والموظَّفون العراقيُّون وجيش العراق.

ففي البلاط، الجانب الأساسي من المصروفات كان مخصَّصاً لأعضاء عائلة الخليفة وجلساء الخليفة والندماء والشعراء ورجال الأدب والفن والموسيقيِّين والمهرجين وجميع الذين استحقوا راتباً اعتباراً من الطبَّاخين وحتّى الحجّاب مروراً بكتّاب المصالح والمرافقين والأعيان والسقَّائين.. تضاف إلى كلِّ هذا النفقات الطارئة في مناسبات الاهداء والعطاءات ومستلزمات الترف والبذخ والتفاخر في حياة الخليفة. - ويدخل في ملاك الموظَّفين جهاز الإدارة في حدّ ذاته وجهاز الوزارة، والقضاء، وقاضي القضاة، والعلماء، والفقهاء الرسميّون، وأخيراً قادة وعناصر الشرطة.. وكان الجيش يشكِّل جانباً ثقيلاً في الميزانيَّة لأنَّ بنيته كانت من العبيد تشتريهم الدولة، والمرتزقة (متطوِّعة) تدفع رواتبهم من قبل الحكومة المركزيَّة وكثيراً ما كان يتأخر صرفها مدداً متفاوتة فيتسبَّب ذلك بحركات تمرّد وثورة داخل القوَّات.

العملة والإعتماد النقدي

● كان النظام النقدي قائماً على أساس معدنين إثنين:

في أقاليم الأمبراطوريّة الساسانية القديمة كان كل شيء يقوم على أساس الفضّة. في حين أنّ الأقاليم والأراضي المحرَّرة من البيزنطيّين كانت تعتمد الذهب. وفي ظل الإمبراطوريّة العبّاسيّة ثمّة مصاعب كانت تنجم عن عدم تساوي نسب المعدنين.. فمن حيث الوزن كانت وزنة الذهب تساوي عشرة أمثالها من الفضّة.. هكذا، وبشكل تدريجي، صار الذهب هو الأساس لحساب الضرائب. وكان يوجد في العاصمة، وفي بعض المدن الإقليمية «دار لضرب العملة» مهمّتها تقديم أنواع النقود التي تفي بحاجات الدولة والجمهور.. وفي حال تبديل العملة ففي دار الصناعة النقديّة تبدّل النقود الملغاة..

في عهد هارون الرّشيد استُحدث تكليف «ناظر السكّة» (المفتّش النقدي) وهذا يعني تخلّي الخليفة عن سلطته المباشرة على مشاغل دور الضرب لأنّ نظام الضرب المركزي في العاصمة، الذي كان في البدء، هذا النظام قد تطوّر إلى تعدّد المشاغل المرافق لاتساع النشاطات التجاريّة ونموّ الحاجة إلى السيولة النقديّة.. في كلّ مشغلٍ كان يعمل «السبّاكون» و«الضرّابون» وكذلك «النقّاش» المُكلّف بنقش إسم الخليفة ومكان وتاريخ الضرب.. ومعايير القطع كانت من الآنية الزجاجيّة على نمط «الأكزاجيوم [EXAGIOM] البيزنطي».

ضرب العملة الذهبيّة والفضّية كان يتمّ انطلاقاً من سبائك وزنها ومعيارها مكفولان وتطرق السكّة وهي حامية كي تترك العلامة على الوجه والإطار؛ أمّا النحاس فكانوا يصبّون في دسوت ماء أقراص المزيج التي تضرب باردة بعد ذلك.. والقطع المصنّعة في هذه المشاغل هي من الأصناف الثلاثة: ـ الذهب ـ الفضّة ـ النحاس.

قطعة الذهب «الدينار» (واسمها مأخوذ من «ديناريون» البيزنطي ـ «ديناريوس» اللاتيني) المماثل لـ «السوليدوس» الذهب الروماني، الوحدة النقديّة الإسلاميّة في القرن الوسيط. ـ وقد سمّاها «روبرت لوبيز» (دينار القرن الوسيط).

هذه القطعة النقديّة كانت صالحة لدفع المبالغ الكبيرة مثل الجزية والضرائب الأخرى في الأقاليم كما كانت وحدة حسابات الإدّخار (الإكتناز) ولم يكن للدينار نموذج محدّد وموحّد لأنّ الضرب كان يتمّ في عدّة أماكن ومعيار الذهب كان يختلف بين/٩٥ و٩٨/٪ كما أنّ الحجم والشكل تغيّر مع تتابع القرون: ـ فالدينار الذي قطر دائرته /٢٥ الى ٣٠ مم/ كان وزنه الأصلي/٤,٥٥ غ/ في حين أنّ الإصلاح النقدي في عهد عبد الملك /٦٩٨/٧٧/ جعل وزن القطعة/٤,٢٥غ/ بمعدّل ٢٤ فرنكاً الغرام الذهب أي /١٠٢/ فرنكاً في نيسان ١٩٧٧. ولم يبق الوزن المذكور موحّداً وثابتاً ففي عهد الصليبيّين/القرن الثاني عشر/عدّل في سورية إلى أقلّ من ثلاثة غرامات. وفي الواقع، ديوان المحاسبات كان يعتبر وزن الدينار دون قيمته الإسميّة الأمر الذي فسح للصرّافين مجال لعب دور كبير في الإقتصاد. وجعل عملهم في حدّ ذاته معقّداً لصعوبة وجود قطع التجزئة: (نصف وثلث وربع الدينار).

وحدة النقد الفضّي، الدرهم، كانت تستعمل في المبادلات التجاريّة والدفع للموظفين المدنيين والعسكريّين؛ ووزنها الأصلي كان /٤,١١غ/ ثمّ استقرّ عند /٢,٩٧غ/ أي ما يمثّل ٧/١٠ وزن الدينار. وتحوّلت قيمته من واحد على عشرة من قيمة الدينار إلى ١٣ درهماً (معيار ١/٣ فضّة صافية) الدينار الواحد ولكن الأسواق كانت تتلاعب بالأسعار فتتراوح بين /١ من ١٤ و١ من ٢٠/.

أخيراً العملة النحاسيّة (الفلس ـ فلوس) وجاء اسمها من «فولّيس» البيزنطيّة وكانت العملة الدارجة المستعملة في العمليّات

التجاريّة اليوميّة واصدارها كان متروكاً لإرادة وتقدير الحكّام كما انّ وزنها وحجمها وتداولها كانت تحدّد في مناطق الإصدار والتداول نفسها. . وبين القرن الثالث وحتّى التاسع كان وجودها يتناقص ليصبح نادراً في عدّة قرون وتفسير ذلك هو حدوث فترات تضخم.

الضـرائب النقديّـة نمّت نشوء البنـوك (المصارف) وتجمّـع الرساميل لدى طبقة الصيارفة المغلقة المتحكّمة التي شكّلت في بغداد وفي فروعها الإقليميّة مصدر تموين الدولة بالمعادن الداخلة في تصنيع النقد وتأمين التشغيل الدائم لمشاغل التصنيع في المدن مع منح القروض الزراعيّة. . ومركز نشاط هذه الطبقة كان سوق الصاغة والقيصريّات أي أسواق الجواهر والأقمشة الثمينة. ونشأت أيضاً جماعات مؤجّري المتاجـر ووسائـل النقل والمـواصلات الـذين استطاعوا تنظيم القوافل المنتظمة بين المدن الكبرى عبر الصحراء وكذلك تجهيز وادارة الرحلات والحملات التجاريّة البحريّة انطلاقاً من الخليج العربي - الفارسي لغزو منـاطق العبيد في افـريقية والحصول على السلع الغذائيّة والحاصلات الزراعيّة والتوابل الثمينة من الهند والصين وأصبحت الجماعات المذكورة تصل إلى القدرة على إرسال حملات التنقيب المعدنيّة.

وازدواج معدن نقد الأمبراطوريّة العبّاسيّة أتاح للصيارفة لعب دور القيام بعمليّات البيع والشراء بموجب كمبيالات في حين ظلّت الأقاليم الغربيّة متمسّكة بالذهب أساساً وحيداً للنقد المتداول فيها بخلاف المناطق الشرقيّة التي بقيت تعطي الفضة دورها الموازي. . وتنقص المؤرّخ الدراسات المطلوبة الموثوق بها التي تتيح معرفة حجم الإنتاج (الإصدار) النقدي الذهبي والفضّي وكذلك الإختلاف في المعايير.

نموّ التجارة خلق ضرورة الإتقان الكامل لنظام التعامل المعتمد للدين والقروض فازدهار الأمبراطوريّة الإقتصادي حفز الصيارفة إلى تحسين تقنيّتهم فاجتناباً لتصدير النقود العينيّة وما يترتّب على ذلك

من أخطار ومحاذير دخلت العمليّات التجاريّة نظام الحوالات (كمبيالة)، و«السفتجة» (الحوالة البريدية أو الإعتماد) و«الصكّ» (كلمة «شك» اقتبسها الإنكليز من العبارة الهنديّة ـ الفارسيّة «تشيك» المشتقّة من الأصل «صكّ») ومعناها «سند لأمر..». ـ والوسائل الثلاث المذكورة شكّلت الأشكال المختلفة للتعهّد بالدفع وقد درج استعمالها في جميع أسواق الشرق التجاريّة وفي المرافىء الكبيرة كانت عمليّات الدفع بين التجّار كانت تتمّ على أساس مبدأ «المقاصّة» (اتفاق بين بلدين أو طرفين تسدّد فيه قيمة المستوردات من الصادرات) وبذلك لم يعد تحويل الرساميل النقديّة وارداً وهذا نظام ألغته أوروبة في أيّامنا لأنه يتيح التهرّب من الضرائب والرسوم الجمركيّة. وكانت الدولة العبّاسيّة تتقاضى حقوقاً جمركيّة تبلغ ١٠٪ على المسلمين و ٢٠٪ أو الخمس على سواهم.

التجارة في العهد العبّاسي.

من آثار تدمير العاصمة الساسانيّة وخرابها (المدائن) من قبل العرب إبّان الفتح، زوال مركز مديني هام وبزواله تعطّلت الحركة التجاريّة زمناً غير قصير خصوصاً وأنّ كلّاً من الكوفة والبصرة وواسط شكّلت بؤرة إضطرابات إجتماعيّة وانتفاضات سياسيّة ممّا جعل العراق لم يعد ليكوّن الملتقى التجاري الدولي الهامّ إلّا بعد بناء بغداد وإقامة الخليفة في عاصمته الجديدة. إنّ جاذبيّة هذه المدينة أعطت التجارة في الشرق مدّاً جديداً أتاح للأمبراطوريّة العبّاسيّة أن تعرف نموّاً إقتصادياً ملحوظاً. ففي وسط الأمبراطوريّة تماماً جاء الموقع الجغرافي للمدينة المستديرة (مدينة السلام) فأصبحت فعلاً المحور للعلاقات الإقتصاديّة والتجاريّة.. والإستيراد بطريق البحر بلغ في القرن التاسع ومطلع القرن العاشر حجماً ضخماً، ثم أغلق هذا الباب بفعل الفوضى وانعدام الأمن اللذين سادا إقليم «السواد» (سواد الناس عوامّهم ـ وسواد البصرة والكوفة قراهما ـ والأسودان التمر والماء).

وتاريخ التجارة في العهد الإسلامي لم يكتب بعد وما نعرفه عن أعرافه قليل وغير دقيق.. فالتعامل والصفقات والاتفاقات والتسويق والصرف تطرح مشاكل وثيقة الصلة بتحريم الرّبا أمّا موقف الإسلام من التجارة على الصعيد الديني فقد كان مدروساً معلوماً وكذلك الجانب القانوني القضائي منه. وطرق المواصلات التجاريّة التي لعبت الدور الأهمّ في تموين حركة التجارة بالمواد الأساسيّة كانت ثلاثة أنواع: نهريّة - بحريّة - برّيّة.

المواصلات النهريّة:

استخدمت التجارة أنهار الفرات ودجلة والنيل والفولغا. والشريانان الأساسيّان للدولة العبّاسيّة هما دجلة والفرات وقد ربط أحدهما بالآخر في (خط عرض) بغداد بأقنية تقع نقطة ارتباطها بالفرات قرب الأنبار. وكانت الملاحة ممكنة على دجلة حتى أسفل مدينة الموصل ولكن حركة التجارة عليه لم تصل إلى أبعد من بغداد لأنّ هذه الحركة كانت، عند بغداد، تأخذ نهر عيسى باتجاه الفرات وفيه تصعد شمالاً فتجتاز الرقّة وتتوقّف عند (باليس) اسكي مسكنة حالياً - وهي أقرب نقطة إلى حلب ففيها كانت تفرّغ المشحونات والبضائع وتنقلها قوافل الجمال التي تحتاج إلى مسيرة يومين للوصول إلى عاصمة شمال سورية ومن حلب كان ينقل جانب من البضائع إلى انطاكية والبحر الأبيض المتوسّط. ومن اللاذقيّة كانت الحركة التجاريّة تمتدّ إلى مصر وهذا الطريق المائي لنهري دجلة والفرات استعمل قديماً من قبل تجارة الرومان وخاصّة في عمليّات الحصول على الحرير وأنسجته.

ويبدو أنّ المسار من الشمال إلى الجنوب كان يتمّ بطريق الماء، أما المسار من الجنوب إلى الشمال فكان يتمّ بطريق البرّ فيسلك «درب السلطاني» فوق «الرحبة» على الفرات وعند أسفل بغداد كانت المراكب تنحدر مع دجلة حتّى واسط في حين أنّ

المراكب التي تأخذ الفرات تجتاز الكوفة. في السواد (منخفض العراق) يلتقي النهران في مجرى واحد تتشعّب منه عدّة أقنية تعود فتلتقي لتشكّل «شطّ العرب» وفي مسارها نحو البحر تصل إلى البصرة على بُعد /٤٢٠/ كيلو مترا جنوب ـ شرق بغداد وتبلغ بعدها «إبلّي».

والبصرة مدينة نمت منذ إقامة المعسكر عام ٦٣٨/١٧/ على مسافة /١٥/ كيلو مترا/ من شطّ العرب وقد أقامه «عتبة بن غزوان» بأمر من الخليفة عمر بن الخطّاب؛ وسرعان ما تحوّل المعسكر إلى مدينة وبني فيها جامع كبير. ثمّ، في عام /٥٠/٦٧٠/ أصبحت مقرّ زياد بن أبي سفيان الذي ولي أمر العراق من قبل معاوية.. وبعد قرن أحيطت البصرة بسور.. ورغم مناخها القاسي ظلّت المدينة تنمو وتزدهر وبلغت أوج تقدّمها في القرن /الثاني/الثامن/ و/الثالث/التاسع/ فصارت أحد المراكز التجاريّة الرئيسيّة في الشرق والبصرة كانت محطّة القوافل وفيها «المربد» الواسع ومرفأ نهري «القلّاع» وهي مركز مالي لكثرة العناصر اليهوديّة والمسيحيّة و(البورجوازيّة) غير العربيّة.. وأصبحت مدينة صناعيّة ومركز ثقافة وعلم إسلاميّين وكانت، على الأخصّ، «بوّابة الشرق الأقصى».

شرقيّ البصرة قليلاً يتمّ الوصول بواسطة قناة عريضة إلى «إبلّي» التي كانت، قبل إنشاء البصرة، المرفأ البحري الوحيد عند مصبّ نهر دجلة.. ومنارة مضاءة (معلم) تدلّ على موضعها.. وإنّ بساتين الشبق التي تطاول النهر جعلت من إبلّي مع دمشق وسمرقند ثالثة ثلاث مدن إستحقّت كلّ منها آنذاك إسم الفردوس الأرضي. لقد مرّت المدينة بمحنة كبرى في ثورة الزنج ثم ثورة القرامطة (آخر القرن التاسع ـ مطلع القرن العاشر) ومع ذلك ظلّت هي البوّابة والسوق لأقاليم ما بين النهرين حتى كان زوالها في القرن الثالث عشر إبّان التقهقر والإنحطاط العامّين الّذين أصابا المنطقة كلّها بسبب غزو المغول.

بواسطة النصوص الجغرافيّة العربيّة يمكن، بسهولـة، إعادة تعيين شبكة المواصلات التي ـ قبل عام الألف (نهاية القرن التاسع) أمّنت المواصلات والخدمات للأمبراطوريّة العبّاسيّة وبخاصّة مدن الخليج العربيّة منها والفارسيّة.. وهي شبكة طبيعيّة للمبـادلات التجاريّة بين بلدان العالم الإسلامي. وقلبها كان العاصمة العبّاسيّة ثمّ البلدان المطلّة على البحر الهندي.

المواصلات البحريّة

● من «إبلّي» كان منطلق السفر بحراً، فالمراكب تحـاذي السواحل و«سيراف» على الشاطىء الشمالي للخليج العـربي ـ الفارسي على بُعد /٦٠٠/ كيلومترا جنوب شرق البصرة ـ كانت مرفأ مهمّاً فهو مركز الصّرافة ومعـرض السلع لبلدان المحيط الهندي ويتّصل برّاً بسهل ساحلي ضيّق ودون ماء يربطه طريق برّي بشيراز عاصمة الفرس.. وهذا هو المنطلق أو محط الرحال للمـلاحة الحقيقيّة في المنطقة التي بدأت تتعرّض للقرصنة وأخطارها. وإلى المرفأ ـ إيّاه ـ وصلت في القرن السابع وبداية الثامن ـ السفن الصينيّة التي عرفنا بيان رحلاتها من «كانتون» إلى الخليج.. تلك السفن أصبحت نادرة جدّاً منذ صار المسلمون (التجّار السيرافيّون بادىء ذي بدء) يذهبون هم أنفسهم إلى الشرق الأقصى.. ولغة التجارة آنئذٍ كانت الفارسيّة.

من سيراف كانت السفن تصل إلى مرفأ آخر هو «هرمز» مارّة من أمام جزيرة «قيس» وهرمز كان المنفذ والسوق لاقليم «كهرمان». وملتقى القوافل فيه كان «سيرجان» مقابل هرمز على الساحل الشرقي لعمان.. وفي مرسى جيّد من الجهة الشماليّة الشرقيّة توجد «سوهار» وتجّارها وملاّحوها هم المنافسون والمزاحمون لزملائهم في سيراف على التجارة وحركة المواصلات مع اليمن والصّين. وقد تحمّلت المدينة عواقب ثورة القرامطة وتوقّف نشاطها في القرن الثاني عشر

فحوّل اليمنيّون نشاطهم إلى الخليج . في الدرجة الثانية من الأهميّة بالنسبة للتجارة مع الصين تأتي المحطّة والسوق التجاري «مالابار» التي كان الوصول إليها ميسوراً بالسير في محاذاة الشاطىء الإيراني حتى مصبّ نهر «الهندوس» ثمّ يستمرّ الإنحدار تجاه الشاطىء حيث تتناثر مراكز الصرافة ومعارض السلع التجاريّة في «غديرات» حيث بنى المسلمون العديد من المساجد. وكان الوصول إلى جنوب الهند في «غلام - مالي»، ومتابعة السير من هناك - دون توقّف - إلى «سوهاج» ثمّ، وعبر «سيلان - ماليزيا - بحر شامنا» كان يتمّ الوصول إلى مرفأ «كانتون» (خانغو).

منذ عام /٧٠٠/ بدأ العرب يتردّدون على هذا المرفأ بتشجيع من الحكومة التي كانت تحقّق وارداً يومياً يصل إلى/٥٠٠٠٠/ دينار.

عام /٧٩٥/، وعلى أثر إجراءات اتخذت ضد الأجانب من قبل السلطات الصينيّة، حوّل العرب والهندوس نشاطهم إلى «كوشنشين» حيث كانت المكوس أقلّ في «لوكين أهانوي».

كمنافس للخليج وُجد طريق بحري آخر هو البحر الأحمر حيث تزايد نشاط السفن الشراعيّة اعتباراً من نهاية القرن العاشر. والمرفأ الكبير كان «عدن» في الزاوية الجنوبيّة - الغربيّة من العربيّة.. وكانت تصل إلى هناك مراكب الهند وجونكات الصين (Jonque - سفن شراعيّة عرفت في الشرق الأقصى) فتقوم بتسليم شحناتها إلى سفن عربيّة كانت وحدها تملك حقّ الإبحار في البحر الأحمر عبر باب المندب.. وكانت تتوقّف في «جدّة» مرفأ «مكّة» وفي «ينبع» مرفأ «المدينة» ثمّ تصعد إلى «كلثوم» حيث تصل القناة التي تربط النيل بالبحر الأحمر. وبواسطتها تأخذ البضائع طريقها إلى القاهرة بعد نشوئها وبخاصّة بعد الإسكندريّة حيث يتموّن ويتزوّد تجّار إيطالية في القرن الثاني عشر؛ في الواقع، الرياح والحشفات

(الصخور البحريّة) جعلت شمال البحر الأحمر خطراً ولذلك كانوا كثيراً ما يفرّغون شحناتهم في «عيذاب» المواجهة لجدّة وتنقلها القوافل برّاً (١٥ الى ١٧ يوماً حتى تصل إلى أسوان) إلى «أسوان» أو «كوس» ومن هناك تشحن في النيل حتى البحر الأبيض المتوسط.

المواصلات البرّية.

في البرّ كانت توجد شبكة لدروب القوافل، فالتضاريس وغياب الطرق المشقوقة.. كلّ هذا، جعل السفر والتنقّل محفوفين بالمصاعب في الشرق الأدنى.. فمن بغداد لا يوجد طريق مشقوق مباشر نحو الغرب عبر الصحراء.. وبعد أن يصل المسافر الأنبار يأخذ وجهة الشمال الغربي بمحاذاة وادي الفرات حتّى «الرحبة - الميادين» عند التقاء الخابور بالفرات وهناك يصبح أمام المسافر دربان - الأوّل سبق وذكرناه وهو المتابعة مع النهر جنّى الرقّة ثمّ حلب.. والثاني يخترق الصحراء باتّجاه شمالي - غربي نحو «جبل البشري» - «قصر الحير الشرقي» - وهناك يتفرّع: درب نحو تدمر غرباً وآخر نحو الرصافة شمالاً ويجتاز طوقاً حتى يصل الى «الطيّبة - قوم». - ومن الرصافة يصعد الدرب الهضبة نحو «بالس» ثم «حلب» ومنها نحو انطاكية والأراضي البيزنطية.. أو جنوباً غرباً نحو اللاذقية بمحاذاة شاطيء البحر الأبيض المتوسّط.. ومن تدمر درب يتّجه إلى حمص وآخر إلى دمشق عبر قصر الحير الغربي.. ومن دمشق يمكن الوصول إلى مصر برّاً. من بغداد، جنوباً، تستعمل الدروب التي تشكّل، متكاملة، طريق الحجّ (درب الحجيج) الذي يمرّ بالكوفة على الضفة اليمنى للفرات ويدخل الصحراء حتى واحة «حايل» عبر «جبل شمّر» و«وادي الرمّة» ومن «الخناقيّة» يصل إلى المدينة ثمّ مكّة.

درب آخر ينطلق من البصرة جنوباً في وادي الباطن إلى واحة عُنيزة ومنها غرباً في وادي الرقّة حتى يلتقي مع الدرب السابق ذكره

عند الخناقيّة. أمّا نحو الشرق، ـ حيث حركة التجارة الأكثر نشاطاً ـ، فالطريق ينطلق من بغداد في وادي ديالة وخانقين وإقليم الجبال وصولاً إلى كرمنشاه لاجتياز جبال «زغرس» ـ ونحو الشمال درب يوصل إلى تبريز ويجتاز أرمينية حتى [تريبيزوند ـ TREBIZONDE] على البحر الأسود. ومن هذا المرفأ تنشط حركة تجارة مهمّة مع بيزنطية والسوق هناك يرتاده اليونانيّون والأرمن والعرب والإيرانيّون. ـ من كرمنشاه شرقاً يسير الطريق إلى همذان ثمّ الريّ بطريق قم.. وجنوب الريّ يساير الطريق هضاب «البورز» مارّاً في «دمخان» ثمّ خراسان حتى نيسابور ـ طوس مشهد ـ صَرَخ ـ مرو. ومرو ونيسابور كانتا مركزين تجاريّين هامّين يسوّق فيهما الحرير المجلوب من جورجان وطبرستان وهما إقليمان جنوب شرقي بحر قزوين ازدهرت فيهما تربية دود القزّ وزراعة شجر التوت. في القرن العاشر كانوا يقصدون مرو لشراء بيوض دودة القز ومن مرو باتجاه الشمال عبر سهب خراسان كان الوصول إلى «أمّ داريا» ومنها إلى ما وراء النهر.. وفي ذلك الإقليم يمرّ الدرب في بخارى وسمرقند وشاس حيث تعرض الأسواق بضائع الصين المجلوبة من قشقار.

الإتّجار والتكسّب مع الشرق الأقصى بواسطة الطرق البرّيّة كان أقلّ أهميّة منه بالطرق البحريّة ومع ذلك فالقوافل كانت تسير عبر إقليم سجستان حتى مصبّ نهر الهندوس في «ديبال ـ دايبول» والقوافل المنطلقة من البنجاب كانت تحمل البضائع قاطعة هضاب أفغانستان العالية، عند كابول وخزنة نقطتي التقاء القوافل وتبادل الأحمال ومن هناك كانت تنقل البهارات والتوابل والعطور باتّجاه خراسان وبخارى حيث تجد البضائع الآتية من الصين عبر آسية الوسطى.

دربان يوصلان إلى الشرق الأقصى: درب يجتاز ما وراء النهر نحو شمال الصين ملتفاً حول التيبت عند التخوم الجنوبيّة للأحراج

السيبيريّة الكبرى ودرب آخر يجتاز سجستان نحو جنوبيّ الصين مطاولاً الهضاب الجنوبيّة عند أقدام جبال حمالايا.

أمّا في الأقاليم الشماليّة فالانطلاق كان يتمّ من بخارى عبر خوارزم (مؤلفات تولستوف أثبتت قبل ربع قرن أهميّة هذا الاقليم بالنسبة للحضارة الاسلامية) وتصل إلى شمال بحر قزوين ثمّ «إيتيل» (اصطراخان) عاصمة الخزر التي كانت تتعامل تجاريّاً مع بيزنطية. في القرن العاشر شُقّ طريق يمرّ بقزوين واردبيل مطاولاً الشاطىء الغربي للبحر (قزوين) والهضاب الشرقيّة للقفقاز مارّاً في باكو حتى سوق دارباند الكبير واصطرخان وكان التجّار المسلمون يذهبون بعيداً بمحاذاة مجرى الفولغا لشراء الفراء متوغّلين حتى [كاما - فياتكا - بلجار - أي قازان] حيث منطلق طريق «بليتري». ولدينا نصوص رحلة «إبن فضلان» الذي انطلق بواسطة الفولغا عام /٩٢٠/. - هذا النشاط التجاري الواسع ترك آثاره الماديّة: الطريق الطويل الموصل إلى سكاندينافيا كثرت فيه الكنوز من العملات العربيّة حيث عثر على مخزونات من القطع الفضيّة والدراهم تعود تواريخها إلى القرنين السابع والحادي عشر.. وحتّى في السويد والنرويج والدانمارك وُجدت هذه العملات المضروبة في بغداد أو في ما وراء النهر نقلها تجّار يبيعون في قازان منتجات سكاندينافيا ويعودون إلى مواطنهم حاملين عملات البلدان المذكورة.. ويبدو أنّ سكاندينافيا ظلّت تتعامل بالنقود العربيّة حتّى القرن الحادي عشر حيث بدأ ضرب العملة المحلّية هناك.

من جهة أخرى، يبدو، اعتماداً على ما رواه «ابن خرداذبي» و«قسطنطين بورفيروجينيت» أنّ الروس جاؤوا حتّى سورية منذ القرنين التاسع والعاشر.

«موريس لومبارد» يؤكّد أنّ وسطاء التجارة في العهد العبّاسي كانوا يهودا ومسيحيّين ومسلمين. وغالباً ما كانوا من الخوارج.. وبسبب تشتّت اليهود استوطنوا حتى استطاعوا السيطرة على طرق

التجارة الكبيرة اعتباراً من بلاد ما بين النهرين الساسانيّة حتّى أرمينيا والقفقاز وإيران وخراسان وما وراء النهر ثمّ سورية ومصر البيزنطيّة ومن شمال شبه الجزيرة العربية وجنوب شرق اليمن ذهبوا إلى أثيوبية وأقاليم البحر الأحمر وواحات خط الكسور من مصر الى جنوب مرّاكش على التخوم الشماليّة للصحراء. . وفي مرحلة ثالثة وصلوا الى البحر الأسود وروسية الجنوبيّة ثمّ إيطالية وجنوب اسبانية. . لقد تغلغل اليهود في الغرب المتخلّف ويقول موريس لومبارد في كتابه «الإسلام في مرحلة عظمته الأولى» (القرن الثامن ـ الحادي عشر) أنّ ازدهار تجارة اليهود تحقّق في ظل الأمبراطوريّة العبّاسيّة وبعد نشوء شبكات المواصلات التجاريّة.

منتجات وموارد التجارة

منتجات وموارد التجارة بين الشرق والغرب في العهد العبّاسي كانت موضوع دراسة مؤلّفين إثنين إتّخذناهما مرجعاً وهما:

«و. هيد» الذي قام بدراسة تاريخيّة هامّة للموضوع منذ مئة عام تقريباً. «موريس لومبارد» الذي شملت دراساته في كتابه «الإسلام» النباتات الغذائيّة ومنتجات التربية الحيوانيّة والخشب والمنتجات الحراجيّة والمعادن والأسلحة والصناعات النسيجيّة والمنسوجات ومنتجات الصخور والتراب ومنتجات البحر واستعمالات الكتابة والبردى وأنواع المخطوطات والورق والرقّ والمنتجات الطبيّة والعبيد.

وحتّى تكون التجارة ذات مردود على أوسع نطاق كانت تركّز على المواد الخام الضروريّة من الدرجة الأولى وعلى منتجات الترف والكماليّات فيستوردون عادة ما هو أقلّ حجماً ووزناً وأكثر أرباحاً. . ومن بين المنتجات الضروريّة من الدرجة الأولى كانت حبوب القمح والشعير. . منتجات ثلاثة أقاليم مصدّرة لها: افريقية الشماليّة ومصر وسورية. والإقليمان الأخيران كانا يموّنان العربيّة والعراق. زيت

الزيتون كان يصدّر من سورية إلى العراق والعربيّة ومصر. . ومصر هذه كانت تستورد هذه المادّة من افريقية؛ وتمّت أقلمة قصب السكّر الهندي في خوزستان حيث اكتشفت طريقة لصناعة السكّر على أساس كيماوي في القرن الثامن ويعود إلى العرب فضل نشر فنّ تنقية السكّر وصناعته في العالم كلّه. . وفي القرن الوسيط صارت مصر المركز الأكبر لصناعة السكّر في حوض البحر الأبيض المتوسط وكان السكّر محصوراً بالدولة ويدرّ موارد دائمة كبرى على بيت المال.

أقاليم الحراج كانت محدودة جدّاً في العالم الإسلامي، وهذا ما يشير إليه لومبارد، رغم الحاجة إلى الخشب اللّازم لبناء السفن والمساكن والتزوّد بالوقود للتدفئة، وللصناعات المعروفة. . فأخشاب أرمينية كانت تشحن تعويماً في دجلة حتى بغداد في حين أنّ خشب «التاك» الهندي كان يشحن بحراً ومعه أخشاب الهند الأخرى العطريّة مثل خشب الصبر والصندل (الصبر يستخرج من صمغ أوراق هذا الشجر ـ من الصندل صناعة الأثاث الدقيق واستخراج مواد عطرية. ـ المترجم).

ومن مصر كان يصدّر نحو الغرب صمغ شجرة البلسم والعنبر الأصفر الذهبي نتاج مطلوب جدّاً كانوا يجدونه في بلدان المحيط الهندي. . وعن طريق مرافىء الخليج وشواطىء جنوبي شبه الجزيرة العربيّة كان يجري تموين العطّارين وصانعي العقاقير منه في بغداد والبصرة وسواها. واختلفت الآراء حول أصل العنبر:ـ البعض كانوا يقولون أنّه ينبع من أعماق البحر مثل النفط (البترول) والبعض يقولون أنّه مادّة نباتيّة أو هو زبد بحر تبلور. . وفي الواقع هو المادّة المتصلّبة من إفرازات نوع من الحيتان يختلف عنها أنّ أسنانه في الفك الأسفل وهذا النوع يحتمل إسم العنبر. . إذن فالعنبر مادّة حيوانيّة صفراء صمغيّة (صمغ احفور). ـ والمرجان الأحمر نتاج البحر الأبيض المتوسط يتبع السبيل المعاكس لسبيل العنبر الرمادي.

تجارة الحجارة الكريمة ونصف الكريمة، كانت، في القرن الوسيط، تجارة إسلاميّة حصراً فمصر العليا كانت تزوّد السوق بالزمرّد والزبرجد والياقوت الأحمر واللازورد. وآسية الوسطى كانت مشهورة بالفيروز والياقوت الأحمر واللازورد ومن الهند كان يؤتى باللاّزورد والماس بخاصّة. والمنتجات القابلة للإستعمال في الأغراض الطبيّة مثل الرشاد (الحرف) ـ الإهليلج ـ جوزة الطيب ـ الراوند ـ الاسقمونيا (المحموده)ـ الخ. . ـ ثمّ التوابل والعطريات والأفاوية والعقاقير مثل القرفة ـ كبوش القرنفل ـ الزنجبيل ـ الفلفل ـ والعطريات مثل البخور ـ لبّان العربيّة ـ مسك التيبت ـ الخ. .

كلّ هذا كان يشكلّ سلعاً ذات دخل جيّد في التجارة الدوليّة التي لعبت دوراً هامّاً في تنمية وتقدّم المدن الكبيرة في الامبراطوريّة العبّاسيّة. . لقد نما في ذلك العهد حجم المبادلات التجاريّة مع الشرق الأقصى ونمت بموازاته الأرباح.

التقنيّة التجاريّة (علم وفنّ التجارة)

التجارة البحريّة كانت تتوقف على نظام الرياح وتخضع له، وبخاصّة الرياح الموسميّة بالنسبة للأسفار نحو الهند والصين. . هذه التبعيّة استتبعت توقيت الإقلاع: ـ في كانون الثاني. . السفر نحو الهند. ـ في تمّوز. . العودة إلى الخليج. الخ. . والتّجار المزوّدون بأوراق الجواز كانوا يسافرون وحدهم إطلاقاً. . فكلّ سفينة كانت تحمل عدداً من الوسطاء؛ ونوعيّة التاجر الذي يركب المخاطر والأسفار البعيدة لاستثمار أمواله أصبحت معروفة شعبيّاً عن طريق حكايات «ألف ليلة وليلة» وقصص «السندباد» وقد صنّف «ابو الفضل الدمشقي» التجّار في عدّة طبقات: ـ التاجر«الخزّان»الذي يجهد في الاستحصال على بضائعه بأنسب الشروط والأسعار ويخزنها حتى يصبح وجودها نادراً وعند ذاك يبيعها بأسعار مرتفعة وهذا لا يستطيع الإتّجار بالمواد الغذائيّة الممنوع احتكارها وخزنها ويجب أن يكون

متمكّناً من معرفة مجرى أحوال السوق في مختلف المناطق وكذلك أحوال أمن الطرق.

«التاجر الركّاض» (الدائم السفر والحركة سريعهما) وعليه الإنتباه إلى ما يشتري وأن يكون ذا خبرة بالأسعار والأصناف (شراءً وبيعاً) وأن يكون له في كلّ مكان يقصده معتمد الرسائل متواصلة بينهما وهو محلّ ثقة وأمانة.. وكذلك مستودعات ومخازن موافقة.

والتاجر «المجهّز» المتعامل بواسطة وكالات وله رجل ثقة في كلّ مكان يصدر إليه فيبيع البضاعة ويشتري سواها ويتقاسم مع شريكه الأرباح.

و «خصّص الله..» التاجر بالحكمة وحسن الحيطة من النصّابين والغشّاشين والكذّابين وبمناقشة وفهم الأسعار والمبدأ السائد في التجارة في ذلك العهد لم يكن مبدأ **المنافسة والمزاحمة**، بل مبدأ **التعاون**.. وإذا حكمنا عليه على ضوء «كتب البيوع أو التجارة» فالتاجر في تلك الحقبة لم يكن يسيّر أعماله برأسماله وحده بل وُجدت إتّفاقات الشركات آنذاك وقد قامت على أساس العرض والطلب: . «شروط تأسيس الشركة هي القدرة على إعطاء السند الإذني والوكالة (العمولة) والإلتزام بذلك إضافة إلى امتلاك النقد أو سلع المقايضة [HEFFENING E.L. TV 393]». ـ الشركة هي شركة إنتاجيّة تقسم أرباحها بالتساوي أو حسب أسهم المشاركين.

«إبن قُدامة» يعطينا أربعة أنماط إتّفاقات متميّزة للشركات: [PRECIS DE DROIT PP 108 — 109]

الشركة المحدودة (عينان) بين طرفين يقدّم كلّ منهما الرأسمال والجهد.

«شركة الوجوه» وفيها يشترك الطرفان بعمليّة تجاريّة اعتماداً على ثقة الناس بهما.

«شركة المضاربة» وفيها يقدّم أحد الطرفين الرأسمال والثاني يقدّم جهده في تثميره ويتقاسم الطرفان الربح.

وأخيراً «شركة الأبدان» (العمل)«وفيها يشترك الطرفان في تقديم جهدهما العضلي ويتقاسمان الأرباح إذا كانت حلالاً وجائزة..»

والأرباح يمكن أن تكون سلعاً مختلفة، وفي جميع الحالات يلتزم الشركاء بالشروط المبيّنة في الإتّفاق المعقود والخسائر يتحمّلها الطرفان كلّ حسب حصّته في الرأسمال وليس لأيّ منهما الحقّ في مبلغ محدّد مسبقاً أو في ربح خاص سبق تحديده فتقاسم الخسارة يقتطع من الأرباح وليس لأيّ من الطرفين الحقّ في تنفيذ عمليّة منفصلة لحساب سهمه الخاصّ أو اقتطاع جزء من الربح دون تفويض من الشريك الآخر.

شركة (الرأسمال ـ العمل) أو شركة التوصية (قِراض) كانت دارجة ـ ولكن من أين كانت تأتي رساميلها؟ ـ من الموظفين ـ السماسرة ـ ملّاكي العقارات ـ القادة العسكريّين ـ. . كلّ هؤلاء كانوا يوظفون أموالهم في التجارة. . والتجّار، من جانبهم، كانوا يضعون أرباحهم في عمليّات شراء وامتلاك الأموال غير المنقولة. وثمّة أخطار ومحاذير كان لا بدّ من وضعها في الحساب ولكن المضاربة تغري دائماً ما دامت مجزية فتوقظ روح المغامرة. . والأرباح كانت تبلغ أحياناً ٥٠٠٪ وأحياناً أكثر! ـ تجارة المقايضة أشرفت على الزوال وقد استمرّت فقط في أفريقية وفي آسية الوسطى.

الفصل السّابع

إنحلال الخلافة العبّاسيّة
[القرن التاسع ـ الحادي عشر]

● الحالة السياسيّة في الشطر الشرقي من الخلافة

إنحلال الأمبراطوريّة العبّاسيّة في القرنين التاسع والعاشر تطابق مع انطلاقة سلطان الأتراك: ـ لم يعد الأتراك أعواناً مرتزقة في حرس الخلافة، بل شكّلوا سلالات مالكة حكمت ليس فقط في ما وراء النهر وخراسان بل في بغداد نفسها وكذلك في سورية ومصر.

● قدوم الأسر المالكة التركيّة إلى الشرق الإسلامي

«جان سوفاجيه» في كتابه («مدخل الى تاريخ العالم الإسلامي» ص١٤٠) قال: ـ «إنَّ تاريخ الأتراك مغامرة عجيبة وفتّانة مثل أسطورة.. إنّهم المضيّعون القادمون لتوّهم من السهوب الآسيويّة ويفرضون سلطانهم على الشرق الأدنى كلّه بعد إنتزاع الملك من العرب وإبعادهم عن المسرح السياسي والرمي بالصليبيّين في البحر...»

فعلاً.. إنّ النفوذ التركي إلى آسية الغربيّة كان حدثاً بالغ الأهميّة في تاريخ العالم ومع ذلك، فخارج مؤلّفات «ف.ف. بارتولد» لا نملك سوى الدراسات النادرة العميقة عن تاريخ تركية في القرن الوسيط. والأتراك ما كانوا نكرة في الشرق الأدنى لمّا ظهر الفرسان السلجوقيّون أوّل مرّة على ضفاف دجلة في القرن الحادي

عشر. ـ فمنذ القرن التاسع كانت مألوفة رؤية الأتراك في كلّ مكان: ـ غلمان. . متطوّعون في جيش هذا الأمير أو ذاك. . مرتزقة أحرار. . أو، كذلك، غزاة في سرايا الثغور العاملة في الإقليم العسكري للعواصم شمال خطّ يمتدّ بين إنطاكية ومرعش وملاطية.

وحتى في بيزنطية جاء ذكر وجود عناصر تركيّة في عهد الأباطرة: تيوفيل (٨٢٩ ـ ٨٤٢) ـ وميشيل الثالث (٨٤٢ ـ ٩٠٧) ـ قسطنطين السابع بورفير وجينيت الأمبراطور الكاتب في مطلع القرن العاشر. . عناصر تركيّة في الجيش البيزنطي يشكّلون فيلقاً دائماً من الفرعانيّين.

في مصر، حاكم من أصل تركي، أحمد بن طولون، نشأ في بخارى، عرف كيف ينتهز فرصة المصاعب التي يعاني منها الخليفة العبّاسي فأعلن استقلاله في القاهرة وأسّس على ضفاف النيل أوّل أسرة من الحكّام المستقلّين في مصر. أسرة الطولونيّين التي ضمّت إلى حكمها، بعض الوقت، فلسطين وسورية وليست تلك المرّة الأولى التي فيها الحقت القاهرة دمشق بإمرتها. .

في القاهرة، منذ القرن التاسع، نشب التنافس بين المليشيات التركيّة والبربريّة والسودانيّة ولعب الأتراك دوراً هامّاً طوال عهد الفاطميّين الّذين حلّوا محلّ الإخشيديّين.

في بغداد وسامرّاء طال وجود الحرس التركي في خدمة الخليفة حتّى جاء يومَ أصبح فيه هذا الخليفة رهينة في أيدي قادة حرسه! والبداية كانت زمن المعتصم منتصف القرن التاسع.

وأخيراً، ما وراء النهر، السلاجقة أنفسهم انقسموا فكان فريق منهم عملاء السمّنيّة. . والفريق الآخر مرتزقة في قوّات أمراء الغزنويّة. . ـ أمّا كيف وصل الأتراك حتّى ما وراء النهر؟ ـ إنّ ما وراء النهر، الإقليم البوّابة بين عالم الصين والعالم الأوروبي ـ الآسيوي، هو الذي شكّل، مع امتداداته، مونغوليا شرقاً وسهول روسية وإقليم

الدانوب غربا ـ إقليم سهبيّ واسع طبيعته أقرب إلى بيئة البداوة وقد وجد البدو فيه نفس شروط الحياة والإنتهاء التي نشأوا عليها. . نفس التقاليد والثقافة. . ـ فعلى مدى الأجيال، تتابعت موجات بشريّة وحلّ لاحقها مكان سابقها في آسية الوسطى. . موجات كان محور تمركزها جنوب بحيرة «بايكال» في سيبيريا، في وادي «الأرخون» وبعضها اجتاحت خراسان وتدفّقت على الجزيرة وتوقفت عند أطراف عالم البحر الأبيض المتوسّط. . تلك الهجرات القبليّة الجماعيّة لم تمرّ دون أن تترك آثاراً أو رواسباً. . وهكذا كنّا نجد منذ الأزمنة القديمة، محاور تركيّة في تركستان وجنوب سيبيريا وما وراء النهر وخراسان. . وتدفّق تلك الموجات المتتابع بدأ باكراً جدّاً أي في القرن الثاني قبل الميلاد: ـ «الهون» أسّسوا دولة قويّة على الحدود الشماليّة للصين بعد أن طردوا «اليو ـ تشني» من منغوليا ثمّ وصلوا إلى «صوغديان» وفيها تحالفوا مع شعب سيتشّي الأصل «الساكاس» لفتح المملكة الإغريقية ـ الباكتريّة حيث أسسوا أسرة ملوك «الكوشان».

في القرن الثاني للميلاد أي في أواخر أيّام الأسرة الصينيّة «هان» (٢٠٠ قبل الميلاد ـ ٢٠٠ بعد الميلاد) ثمّ طرد «الهون» بدورهم من قبل «هسيان بي» القادمين من تخوم منشورية ومنغولية.

في القرن الرابع ظهرت قبائل جديدة فأزالت الهسيان بي من الوجود على يد عشيرة «تو ـ با» التركيّة الأصل على الأرجح وعقبت ذلك موجة جديدة كنست «التو ـ با» المذكورين وهي موجة «جوان ـ جوان». في القرن الخامس والنصف الأول من القرن السادس تقدّم المذكورون نحو الغرب حتّى بلغوا «أمّ داريا» والتقوا مع «الهون» ـ والهون الهفتاليّون تحرّكوا نحو الجنوب وهزموا الساسانيّين. ـ هون آخرون وجدوا جنوب بحر آرال ومن هناك أجبرتهم الضغوط المتتابعة عليهم على اجتياز الفولغا أواخر القرن الرابع واحتلّوا سهول روسية الجنوبيّة. . وذلك العبور للفولغا ترك آثاراً حيّة: التشوفاش الحاليّون في الإتحاد السوفييتي المستوطنون

في إقليم قازان هم أحفاد القبائل التي شكّلت إمارة البلخار التي زارها في القرن التاسع الرحّالة العربي «ابن فضلان» وبعد زمن تدفّقوا على أوروبة بقيادة «أتّيلا» الذي أوقف زحفه «آكيوس» عام /٤٥١/ قرب «ترواى» منطقة شمبانيا في حقول قطلونية الفخمة.

إسم«تُرك» (اللفظة تعني القوّة والسلطة) لم يظهر سوى في منتصف القـرن السـادس ونجـده لـدى المؤلّفين البيـزنـطيّين «توبكوي».. ولدى الصينيّين «تيو ـ كيو» والعبارة تعني تجمّعاً سكّانيّاً أقام في منغوليا الوسطى وخضع للجوان ـ جوان والتجمّع السكّاني إيّاه كان متخصّصاً بالصناعات المعدنيّة وكان الصينيّون يسمّونهم «الحدّادين» ومركزهم كان وادي الأرخون حيث عثر على نقوش وتسجيلات قيّمة من القرن الثامن تشكّل أقدم آثار اللّغة التركيّة.

عام /٥٤٦/ ..«بومين» (زعيم تركي) طلب يد أميرة من الجوان ـ جوان فرفضته وأشعل ثورة انتهت بهزم الجوان ـ جوان عام /٥٥٢/ ـ وفي عام /٥٨٢/ حصلت القطيعة بين «التيو ـ كيو» الغربيّين فكان ذلك سبباً لهجرات قبليّة جديدة توصّلت لأن تؤسّس في آسية الوسطى أمبراطوريّة تركيّة برئاسة محمود الغزنوي.. ثمّ الأمبراطوريّة السلجوقيّة في آسية الأماميّة.. ومن النتائج البعيدة لتلك التحرّكات بعض الحملات الصليبيّة ثمّ إستيلاء الأتراك على القسطنطينيّة عام ١٤٥٣.

التيو ـ كيو عُرفوا لدى المؤرخين العرب تحت إسم [«الغُـوج» GHUZZ] وسمّوا أيضاً القبائل التسع ـ وهؤلاء، بعد أن أخضعوا بعض قبائل الجوان ـ جوان احتلّوا جزءاً من منغوليا وتركستان وأفغانستان وبسطوا سيطرتهم من الصين إلى بحر قزوين مهيمنين بذلك على الطريق الهام لتجارة الحرير. وعلى التخوم كلّها للأمبراطوريّة الجديدة استوطنت قبائل تركيّة وشرعت ببناء امبراطورية

فيدراليّة قبليّة حقيقيّة: فالاويغور استوطنوا وسيطروا على سيلينغا وأورخون جنوبي بايكال. والكيرغيز سيطروا على إقليم مينوسينك. ـ والخارليك على جنوبي آلتاي على إيرتيخ. وأخيراً، الباسميل سيطروا على تركستان الصينيّة الحاليّة.

في القرن الثامن دمّرت امبراطوريّة القبائل المذكورة في هجمة قام بها الأويغور الذين ـ عام ٧٤٥ ـ أسّسوا، جنوبي بحيرة بايكال، دولة كانت ـ رسميًا مانويّة (زنديقيّة). ـ وبعد قرن ـ عام ٨٤٠ ـ انهارت دولة أويغور بدورها تحت ضغط جيرانها الكيرخيز والكارليك الذين عقدوا تحالفاً اقتضاه الظرف. ـ في القرن العاشر قام الخيتان أو الخيتاي بطرد الكيرخيز وقام فرسان المونغول هؤلاء بمهاجمة الصين نفسها. . وهكذا منذ القرن العاشر، انتفى، عمليًّا، وجود الترك في منغوليا فقد عادوا للانقسام من جديد إلى عدّة تجمّعات: ـ تجمّع شرقي شكّلته القبائل السبع واستوطن من حدود الصين إلى تركستان الصينيّة وتجمّع الغرب المنقسم بدوره إلى شطرين: ـ قبائل الخارليك المرتحلة داخل تركستان حتى وادي «سير ـ داريا»؛ والغوج الذين استوطنوا بين سير ـ داريا وبحر قزوين ومن هؤلاء ظهر السلجوقيّون.

جميع التحرّكات القبليّة السابق ذكرها نجمت عن ضغوط ظرفيّة إقتصادية. . قبائل تحارب من أجل العيش والبقاء فهي بدويّة تحتاج إلى الكلأ لقطعانها وإلى الغذاء لها فنموّ قطعان المواشي وتبدّل أحوال المراعي والكلأ يفرضان شروط التحرّك وطبيعته: ـ كلّ يطرد جاره لاحتلال مكانه وجعله مدى حيويّاً للجماعة كلّها في ظلّ نظام قبلي لم يعرف قطّ الملكيّة الفرديّة للأراضي. . نظام تعوّد على المدى الواسع فلا يعرف تخوما ولا حدوداً ولا حقولاً تحدّدها الشواخص والأوتاد.

على الصعيد الديني، كانت هذه القبائل التركيّة على إتّصال مع

عقائد مختلفة وكانت لها عقيدتها الخاصّة بها المتّصلة بطريقة «شامان ـ جامع» المجوسيّة الثلاثيّة في جوهرها المبدئي وطقوسها العمليّة وهي التعبّد للسماء والأرض والماء إلى جانب الإيمان بالأرواح التي تحمي الكائن البشري.. والزعماء الحقيقيّون هم «الخامان» المالكون للحكمة والسحر وسلطة القضاء.. وبعد الإحتكاك الطويل مع البوذيّة عن طريق رهبان وتجّار جاؤوا من الهند وبشّروا بدينهم في الأوساط المدنيّة والريفيّة فاتحين آفاقاً غيبيّة جديدة جذبت اليهم العديد من التابعين المؤيّدين.. علماً أنّ البوذيّين كانوا رجال تنقّل وأسفار بعكس البراهمة والسيخ وسواهم.

في إيران نشأت الزدشتيّة التي تبعها وأيّدها أبناء الطبقة الأرستقراطيّة المتبحّرون في مجموعة الكتب المقدّسة [المزدكيّة AVESTA] ـ في حين كانت العامّة مفتونة بالديانة الثنائيّة المعروفة بالمانويّة التي انتشرت في الصين منذ القرن السابع. وفي القرن الذي يليه اعتنقها الأويغور وجعلوها دين الدولة الرسمي.

والمسيحيّة النسطوريّة نفذت، هي أيضاً، إلى آسية الوسطى على يد المنفيّين ضحايا الإضطهاد البيزنطي، فاعتنقتها قبائل من أصل منغولي.

والحديث الرئيسي كان التقاء الترك مع الإسلام. أو، بعبارة أدقّ، إعتناقهم الدين الإسلامي. فاحتكاك القبائل التركيّة مع هذا الدين بدأ منذ الفتح العربي (٧٠٥ ـ ٧١٥).. منذ أصبح قتيبة بن مسلم وليّ أمر خراسان واتّسعت حدود العالم الإسلامي حتى ما وراء النهر، الإقليم الذي فيه تقع الحدود العرقيّة بين العالم الإيراني والعالم التركي.. وفيه تتجاور المناطق الزراعيّة مع سهوب الرّعي. والأتراك الّذين وجدوا في مناطق تعايش فيها عدد من الأديان والمذاهب لم يكونوا يظهرون الكثير من الإهتمام أو الحماس لأيّ دين.. فالتجّار والمسافرون، ومعهم الفقهاء في الدين هم، عادة، حملة «الذكر الحكيم» إلى المناطق التي يرتادونها أمّا بالنسبة للترك

بخاصّة فقد عرّفوهم بإسلام شعبيّ غاية في البساطة، أقرب إلى الهرطقة، لعبت جهنّم والسيّئات فيه الأدوار الأولى.. ثمّ جاء دور «الغزاة» وهم «المجاهدون أبدا» والدعاة المتطوّعون للقتال أبداً في سبيل الإسلام فأعطوا الأتراك وجهاً آخر للإسلام.. وجهاً مغرياً بالنسبة لأناس لا تهمّهم المسائل الإلّهيّة بمقدار ما تتحرّك فيهم نزعة القتال وحبّ الغزو وهي نزعة وجدت في الجهاد خير مبرّر لها.

السمّنيّة

في مواجهة الترك استولى على زمام طلائع الجيش الإسلامي في الشرق، في القرن العاشر، سلالة إيرانيّة؟ الأصل (يقول د. محمد عمارة في كتابه الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية ص ٢٦٩ أن السمّنية فرقة هنديّة تنكر الدين والرسالة - المترجم) هي «السمّنيّة». لقد بدأوا حكّاماً لما وراء النهر تابعين لولاة الأمر في خراسان ثمّ انتزعوا استقلالهم عام /٢٦١/٨٧٤/ وظلّوا سادة إقليمهم حتى/٣٩٠/٩٩٩/.- وتقول بعض الروايات أنّ جدّ العائلة كان دهقاناً من إقليم «بلخ» (سامان خوضاة) (سيّد سامان) وأنّ أصوله تصل إلى الساسانيّة الزردشتيّة وأنّه أعلن إسلامه وأقام في خراسان في بداية القرن الثامن مظهراً مناصرته المتحمّسة للخليفة السنّي.- نحن لا نعرف شيئاً عن إبنه وبالمقابل نعرف الكثير عن أحفاده. ففي عام /٢٠٤/٨١٩/، بعد عودة الخليفة المأمون إلى بغداد، شاء أن يكافىء المذكورين على مساندتهم عام /٨١١/ للقائد حرثمة ضد الخارج على الخلافة رافع بن ليث فطلب المأمون إلى واليه في خراسان، غسّان بن عبّاد، أن يسند إليهم مراكز مناسبة:- نوح بن أسد أصبح وليّ أمر سمرقند.. وأحمد تولّى أمر إقليم فرغانة الغني؛ في حين تولّى الياس أمر حيرات ويحيى شاس (طشقند). ولمّا تولّى طاهر أمر خراسان صادق على التعيينات المذكورة وأصبح السمّنيّة ولاة تابعين للطاهريّين. والحدث الهام في تلك الحقبة هو دخول هذا الإقليم في الإسلام برعاية وتأييد من

بغداد :ـ الياس مات دون عقب. وحيرات خرج من حكم العائلة. نوح البكر مات دون وريث. وأحمد أصبح رئيس العائلة ومات بدوره عام ٨٦٤/٢٤٩ مخلّفاً سبعة أبناء .ـ ولمّا بدأ نجم الطاهريّين بالأفول تلقّى كبير السمّنيّة نصر بن أحمد عام /٨٧٤/٢٦١/ تقليد الولاية على ما وراء النهر كلّه من الخليفة المعتمد .ـ وفي عام /٨٨٨/ ثار إسماعيل ضدّ أخيه ثمّ سوّيت الأمور بينهما على أساس تسمية إسماعيل نائباً لأخيه البكر الذي مات عام /٨٩٢/٢٧٩/ فاستلم إسماعيل الحكم في بخارى حيث لا يزال قبره إلى اليوم موضع تعظيم.

واجه إسماعيل مصاعب داخليّة مع ملاّكي الأراضي وأفراد العائلة فبدأ البهائيّون ـ على الحدود الشرقيّة ـ يثبتون وجودهم فالتفّت السمّنيّة شمالاً على حدود ما وراء النهر وفرغانة ودخلوا في صراع مع جيرانهم الكرخانيّين (ايلك خان).

عام /٨٩٣/٢٨٠/ احتلّت قوّات إسماعيل مركز تاراز التجاري الهام ويعتبر إسماعيل المؤسّس الحقيقي للأسرة المالكة السمّنيّة التي بلغت أوج قوّتها في عهد حفيد إسماعيل (نصر بن أحمد بن إسماعيل) ـ ٩١٣/٣٠١ ـ ٩٤٣/٣٣١ ـ ودخل هذا الأمير في مذهب الإسماعيليّة في آخر أيام حكمه وتلك حقبة تزامنت مع نموّ قوّة الشيعة وظهور الفاطميّين في أفريقية.

ملك السمّنيّة توسّع كثيراً وراء حدود إقليمي خراسان وما وراء النهر ليشمل سجستان ـ كرمان ـ جورجان ـ الري ـ طبرستان ـ وفيها مراكز فكريّة كبرى مثل بخارى عاصمة سمرقند ومرو ونيسابور وبعد كسوف الفارسيّة طوال ثلاثة قرون ازاء العربيّة لغة الإسلام، عرفت الفارسيّة بعض الإنتعاش في ظلّ السمّنيّة ولكن هذا الإنبعاث جاء بفارسيّة جديدة كتبت بالحرف العربي!

الأسرة السمّنيّة اعتمدت على ركيزتي الارستقراطية العقاريّة

والبورجوازيّة التاجرة ونجحت في الإدارة فأعطت أقاليمها ازدهاراً إقتصادياً حتى القرن العاشر مع حرص خاص أن تصرف رواتب العسكريّين في أوقاتها لأنّ الجيش كان موضع اهتمام خاصّ واعتمد النظام الربعيّ (كلّ/٣/ أشهر) في صرف الرواتب المترافق مع احتفالات خاصّة:-ضابط مختصّ (العارض) يرأس إجتماع القوّات جالساً فوق منصّة وأمامه أكياس النقود.. معاون العارض يمسك القائمة الرسميّة وينادي العناصر بأسمائهم فيفتّش العارض الجواد والأجهزة ثمّ يصرف المبلغ المستحقّ.وفي البلاط السمّني برزت مهنة الغلمان التي أحسن وصفها «نظام الملك» في «سياسة نامه».

ولم يفت السمّنيّة أن تلعب دور نشر الإسلام فبعثوا برسلهم إلى البلدان المجاورة واستطاع هؤلاء بوسائل الترغيب السلميّة اقناع الترك بدخول الإسلام ومنذ أصبح هؤلاء مسلمين لم يعد ممكناً خوض حرب ضدّهم فدعمّ السمّنيّة ملكهم بحرس تركي بقيادة «غلام آلب تاكن» الذي يقال أنّه كانّ أصل الأسرة الغزنويّة المالكة التي تأسّست عام /٩٩٩/٣٨٩/ وزالت عام/١٠٠٤/٣٩٤/.. وبالتدريج بدأت السمّنيّة تعاني من ضغوط الترك الآتين من آسية الوسطى وبخاصّة «الكرخانيّين» منهم الّذين كان قدومهم سبباً في تحوّل ما وراء النهر من إقليم إيراني إلى إقليم تركي.

الكرناخيّون

«الدولة الكرخانيّة هي التجربة الأولى لدولة كانت مسلمة من جانب، ومن جانب آخر ظلّت تعتمد على شعب حافظ على الجوهري من تقاليده الأولى» هذا ما قاله «كلود كاهين»..

في هذه الدولة المجزّأة إلى عدّة إمارات متنافسة غالباً كانت قبائل تركيّة منسوبة إلى فريق الكارلوك تتنقلّ في وادي «تشو» من إقليم «سامريتشيا ومعسكر الخان الأكبر (الرأس) أقيم في «بالاساغون» في حوض بحيرة بلكاخ ونائب الخان المسؤول عن

الأقاليم الغربيّة اتّخذ مقرّه في قشقار (تركستان الصينيّة). وبنية الدولة الكرخانيّة التي احتلّت سفوح «آلتاي» كانت قَبَلِيّة ونظام الزعامة فيها عائلي حسب مبدأ حقّ البكر بالإرث وبالقيادة فهو الآمر الناهي عموماً ولقبه خان أوخاقان فهو الذي يُقطع أمراء العائلة وفق مراتب تدرّجيّة دقيقة وكلّما مات عضو من العائلة أعيد النظر بالترقيات والإقطاعات والألقاب وقد يختصّ شخص واحد بعدّة ألقاب متعاقبة إرثاً.. الأمر الذي يجعل تثبيت هويّته في النصوص أمراً معقداً ودقيقاً.

هذه القبائل التركيّة دخلت في الإسلام نحو عام /٣٤٠/٩٥٠/ في عهد شخصيّة شبه اسطوريّة «ساتوك» الذي كان يحمل لقب «بوخرا ـ خان» واتخذ بعد إسلامه إسم «عبد الكريم»/٣٤٤/٩٥٥/ وملكت سلالته تركستان من القرن /٤/١٠ الى ١٣/٧/ وكانت أوّل دولة تركيّة إسلاميّة فعلا.ـ وإذا كانت الفتوحات الكرخانيّة - في الشمال والشمال الغربي ـ قد تمّت على حساب القبائل التركيّة، فقد تطلّع هؤلاء، من ناحية الجنوب، إلى الأراضي الخصبة لحوض «سير داريا» (جاكسارث) فهاجموا في أواخر القرن /الرابع/ العاشر/ الدولة السمّنيّة في عهد نوح ابن أسد الذي كان يتخبّط في متاعبه الداخليّة.. فكان فريسة سهلة.

وفي عام /٣٨٢/٩٩٢/ انطلق هارون بن موسى حفيد عبد الكريم انطلق من بالاساخون لإكمال فتح ما وراء النهر فسقطت سمرقند (وبخارى احتلّت بعض الوقت..) فالقائد مرض ومات وتراجعت قوّاته مكتفية بالغنائم ولم يعيدوا الكرّة إلا بعد سبع سنين/٣٨٩/٩٩٩/.

عام /٣٩٣/١٠٠٣/ سحقت انتفاضة سمّنيّة، وفي العام الثاني تحوّل إقليم ما وراء النهر الإيراني إلى إقليم تركي في قبضة الكرخانيين الّذين اقتسموا آنئذٍ المناطق السمّنيّة بينهم وبين محمود الغزنوي وبسبب

عدم اعترافهم بام داريا خطّاً حدوديّاً هاجم الكرخانيّون خراسان في حين كان محمود متوغلاً في حربه داخل الهند /١٠٠٦/٣٩٦/ ولكنّه عاد سريعاً وأعاد الأمور إلى نصابها. وكان الكرخانيّون على المذهب الحنفي معترفين بالخليفة العبّاسي في بغداد مولى إسميّاً لهم وفي تلك الحقبة اختار الترك الكتابة العربيّة لتدوين لغة تخاطبهم.

وظهر خصم وعدوّ مشترك للكرخانيّين والغزنويّين وذلك في مطلع القرن /الخامس /الحادي عشر/ :- إنّه «علي تاكن» الذي قاد القبائل التركيّة الموضوعة بإمرة القادة السلاجقة (أرسلان إسرائيل - طوغرل - شانغري) واستولى على سمرقند وبخارى حتى /١٠٣٤/٤٢٥/ وفي نهاية القرن الحادي عشر، عام /١٠٨٩/ ابتلعت الكرخانيّين امبراطوريّة فتيّة مليئة بالحيويّة هي الامبراطوريّة السلجوقيّة التي جعلت من الكرخانيّين مُقطعين تابعين لها قبل طردهم نهائيّاً في القرن الثاني عشر من قبل تجمّع قبلي يقال أنّ أصوله منغوليّة أقام بعدئذٍ في بالاساغون.. إنّه تجمّع الكارا - خيتاي.

الغزنويّة

من بين المرتزقة الترك الذين استأجرتهم السمّنيّة واحد وصل إلى أعلى المراتب هو «آلب تاكن» وهو عبد رقّ اشتروه وعيّنوه - كغلام - في الحرس السمّني فوصل إلى رتبة «حاجب الحجّاب» ومارس سلطة فعّالة في فترة ملك الفتى «عبد الملك الأوّل» ولذلك قلّده العاهل المذكور ولاية أمر خراسان وذلك بهدف إبعاده عن العاصمة. وعام /٩٦١/٣٥٠/ أقيل آلب تاكن من قبل منصور بن نوح السمّني لأنّ تاكن انتقد رفع هذا الأخير إلى سدّة الملك فثار تاكن ولجأ إلى بلخ وفي العام الثاني هزم جيشاً سمّنيّاً أرسل لقتاله وانطلاقاً من تطلّعاته السابقة إلى الإستقلال استولى على أراضٍ واقعة خارج حدود الدولة السمّنيّة واعتصم في الجبال جنوب غربٍ

كابول على طريق قند هار إلى غزنة. . والمدينة الأخيرة هذه هي التي اختارها عاصمة له بعد طرد الأسرة الحاكمة المحلّية.

آلب تاكن مات عام /٩٦٣/٣٥٢/ وخلفه ابنه أبو إسحق إبراهيم الذي عجز عن تثبيت أقدامه في السلطة والوقوف بوجه العاهل المخلوع من قبل والده بدون دعم من السمّنيّة وبذلك تحوّلت الحكومة الغزنويّة إلى إقطاعة تابعة لهم. . ومات إبراهيم دون عقب فخضعت البلاد إلى نظام عسكري من النمط المملوكي بحيث يتولّى الجيش اختيار قادته مع الإعتراف الإسمي بالسيادة السمّنيّة. . ـ وفي عام/ ٩٦٦/٣٥٥/ اختير آمر الحرس رئيساً ويدعى «يبلغا تاكن» . ـ وفي عام /٩٧٤/٣٦٤/ أصبح «نيري تاكن». . وعام /٩٧٧/٣٦٧/ أسند الأمر إلى «سبوك ـ تاكن» الضابط السابق من الرتب العالية في الجيش السمّني وصهر آلب ـ تاكن وهو الّذي، قبل زمن، تولّى سحق إنتفاضة قام بها أنصار العاهل السابق. ـ سبوك ـ تاكن المذكور كان المؤسّس لأسرة اتخذت من إسم العاصمة كنية لها «غزنة» ودام حكمها أكثر من قرنين في شرقيّ إيران وأفغانستان. . فتحالف مع الكرخانيّين وقطع علاقاته مع السمّنيّة واحتفظ لنفسه بخراسان وأقطع قادته العسكريّين المناطق الباقية. . وما عتّم أن تجاوز حدوده وقام بهجوم ناجح على تخوم الهند الأفغانيّة حيث استولى على العديد من القلاع وتلك كانت أولى الفتوحات الإسلامية داخل الهند؛ فالغزنـويّة ـ الأتراك أصلاً ـ أخضعوا لسلطانهم شعوباً غير تركيّة لأنّ عمليّات تهجير السكّان وإعادة توطينهم بالشكل الحقيقي الذي عرف من قبل لم تعد ممكنة. . وحتّى العائلة المالكة الجديدة لم يمض عليها وقتاً طويلاً حتّى انصهرت ببوتقة الثقافة الإيرانية. ـ وعظمة غزنة الحقيقية تجلّت في عهد محمود بن سبوك ـ تكن «أحد مشاهير الفاتحين المسلمين» فقد أبطل تعيين أخيه إسماعيل خلفاً لأبيه بعد موته بعامين واستلم السلطة عام /٩٩٩/ وهو من مواليد /٩٦٩/ ومن أمّ أفغانيّة (وهذا

عامل قوّة شعبيّة له) ـ في عام /٩٩٤/ كان قائمقاماً لدى أبيه لمّا قلّد أمر نيسابور من قبل نوح صاحب بخارى وقد أصبحت الدولة الناشئة سيّدة الموقف في سلسلة الجبال التي تفصل إيران الشرقيّة عن حوض الهندوس.

لقد مات محمود في ربيع الثاني عام /٤٢١/ نيسان /١٠٣٠/ وهو في الثالثة والستّين من عمره وقد قضى معظم أيّام ملكه الذي دام ثلاثين عاما.. قضاها في حملاته العسكريّة؛ ففي الغرب استولى عام /٩٩٩/٣٨٩/على سجستان وولّى عليها واحداً من أخوته.. وتدخّل في الصراعات البويهيّة الداخليّة وسيطر على خوارزم واستولى على الريّ ـ همذان ـ اصفهان ـ وأعلن محمود أنّه لا يعترف سوى بسلطة خليفة بغداد القادر بالله وواجه حماة الشيعة بإعلان آخر هو تكريس نفسه للدفاع عن السنّة وكافأه الخليفة على موقفه هذا بأن أقرّه على فتوحاته كلّها وقلّده لقب «أمين الملّة» وأتبعه بلقب آخر «يمين الدولة» أي اليد اليمنى للأمبراطوريّة.

غارات محمود على الهند كانت أكثر أهميّة من عمليّاته الحربيّة الغربيّة المذكورة :ـ في البنجاب وما ورائها.. في وادي أعالي الغانج.. لقد كان محمود يجدّد نذره وأمنيته، كلّ عام، باجتياح الهند ولتحقيق هدفه هذا كرّر المحاولة /١٧/ مرّة خلال /٣٠/ عاما وهي الحملات التي شكّلت بداية نفوذ الإسلام إلى قلب شبه القارّة الهنديّة وهي الأساس لتكوّن باكستان الحاليّة. وقد انتهز فرص تمزّق وتجزئة الهند في الشمال فكان ينهب المدن والهياكل ويسوق أعداداً كبيرة من الأسرى إلى حياة الرقّ وفي عام /١٠٠٠/٣٩٠/ استولى على البنجاب وفاز بلقب «غازي» الذي يمنح للمتميّزين في حرب ضدّ الكفّار. وفي عام /١٠٠٣/ استولى على سجستان وحمل منذئذٍ لقب «سلطان» وكان أوّل عاهل تلقّى هذا اللقب كما أنّ حملاته الكثيفة العدد كانت تأتيه، كلّ مرة، بغنائم هامّة. في عام /١٠٠٨/ اضطرّ محمود إلى مواجهة إتّحاد ألّفه أمراء هنود فأحرز

عليهم نصراً محكماً بعد نجاحه في اجتياز نهر الهندوس عند[هند UND] واستولى على غنائم عظيمة في معبد ناغاركو ومنذئذٍ ركّزت الغزنويّة على المعابد الكبيرة الغنيّة البرهميّة فغنمت ما فيها. وبعد الحملة المنتصرة التي قام بها عام /١٠١٩/ متوغلاً حتّى الغانج عاد بغنائم كبرى استخدم جانباً منها في بناء جامع غزنة الكبير. ـ إلاّ أنّ أشهر الحملات في الهند تبقى تلك التي تمّت عام /١٠٢٥/ وفيها دمّر المركز البرهمي الغني «سمنات» وعلى طريق العودة تعرّض لمهاجمة من قبل «الجاتز» فجهّز حملة خاصّة عام /١٠٢٧/ استخدم فيها اسطولاً في نهر الهندوس وهزم هؤلاء.

صحيح أنّ محمود كان يحتلّ المدن ويحمل الناس على الدخول في الإسلام ولكن الدعوة إلى الإيمان لم تكن هدفه الوحيد إذ كانت لديه مشكلتان رئيستان عليه حلّها .:ـ مشكلة تأمين الموارد لبيت المال ومشكلة أخرى إجتماعيّة.. و/١٧/ حملة ضد الأراضي الهنديّة لم تحقّق سوى الحلول المؤقّتة..

أما فتوحات محمود البعيدة فقد أعدّ لها جيشاً من مستواها وأسطولاً نهريّاً واستخدم الفيلة أيضاً ونواة هذا الجيش كانت تتألّف من «الغلمان» أو المماليك الخاضعين لنظام دقيق.. وعرف محمود كيف يجمع بين الغلمان والغزاة كما عرف كيف يعزل القادرين على تحريك الشعب وقيادته في انتفاضات ثوريّة وتعبئة الطاقات كلّها باتجاه الفتوحات مغرياً المقاتلين بالعائدات الكبيرة التي تنالهم من الغنائم في حين أنّ جماهير الفلاّحين وعمّال المدن لم يكن يطالها سوى «فتات تلك الموائد..» أي فضلات ما يستهلكه الجيش ويصرف على البلاط .ـ وتلك أوضاع حرّكت الجشع في نفوس الموظفين (العمّال) فانتشر سوء الإستعمال ورفعت الضرائب «الاستثنائية» وتعدّدت، فهجر الفلاّحون الأرض وساد التسيّب فأصبح مستحيلاً استثمار الحقول بالشكل السويّ فعادت البلاد للوقوع في الضيق ومهاوي القنوط. ـ أمّا العاطمة غزنة. القرية المغمورة قبلاً ـ

فقد ازدهرت ولمع نجمها وشهقت فيها القصور الفخمة والجوامع الجميلة ونمت واتسعت الحرف لتلبية حاجات البلاط وحول غزنة، عبر أفغانستان ما زالت قائمة الآثار المشهودة للمنشآت الرائعة المدهشة لذلك العهد مثل - على سبيل المثال - «معسكر محمود» قرب «بوست» في سوق الأشقري (لاشقري بازار) المدينة التي اختارها مسعود الأوّل مقرّاً له. - وقصر السلطان كان ملتقى رجال الفكر جذب إليه الشعراء مثل الفردوسي الشاعر الإيراني وصاحب المؤلّفات الكلاسيكيّة العالميّة العظيمة (الشاهنامة - كتاب الملوك) الكتاب الذي حفظ للفارسيّة الجديدة مكانتها كلغة ثقافة إسلاميّة إلى جانب العربيّة لغة القرآن. وقد رعى العاهل الغزنوي أيضاً العالم البيروني الذي مات عام /١٠٤٨/ - إلاّ أنّه، وراء الواجهة المشعّة البرّاقة تلك، كمن القلق والإستياء الإجتماعي العميق فظهر بعد موت محمود، في عهد مسعود [٤٢١/١٠٣٠ - ٤٣٢/١٠٤٠].

عقب موت محمود نشب نزاع قصير الأمد بين الإبنين التوأمين محمد ومسعود انتهى لصالح هذا الأخير المدعوم من الجيش /٤٢١/١٠٣٠/ وقد كان جنديّاً باسلاً يدمن الشراب ومزاجه متقلّب وقد حاول جاهداً أن يكمّل ما بدأه أبوه ولكن الإدارة في عهده أصبحت في أيدي موظفين مرتشين يمكن شراؤهم أفسدوا الجهاز الحكومي وفكّكوه فقادوا الدولة إلى الهاوية.

والحملات العسكرية العديدة أدّت إلى تدهور الحالة الإقتصاديّة ووقوع الزراعة في أزمة خطيرة انعكست آثارها على المدن وتجارتها ومهنيّيها. فأشعلت الطبقة الارستقراطيّة الثورة ضد الأمير الغزنوي بعد أن طلبوا دعماً من أتراك آسية الوسطى فتلقّوا من هؤلاء دعماً فعّالاً تمثّل بجماعة الدراويش الصوفيّة الذين قاموا بدعاية نشطة ضد الغزنويّين وخدموا كعناصر ارتباط مع الترك. - لقد تميّز عهد مسعود بغياب الشرعيّة واذا كانت العمليّات الموجّهة نحو الهند قد استمرّت فالأمر كان على العكس في الشمال إذ سحب مسعود قوّاته كلّها التي

كانت تغطي تخوم خراسان فسنحت الفرصة للتركمان كي يتسلّلوا طالبين الكلأ ومن بين هؤلاء برزت عائلة علا شأنها هي عائلة السلجوقيّين.

«مودود»، بعد مصاعب مع عمّه محمد، أمسك زمام السلطة وقتل غريمه عام /٤٣٤/١٠٤٢/ فحاول العاهل الشاب الصمود أمام ضغط السلاجقة فانفصلت الأقاليم الإيرانيّة عن دولته وحافظ بدوره على أهمّ أراضيه مع السلطة على الهند كما تلقّى الولاء من «الغوريّين».. ومات في رجب /٤٤٠/ كانون الأول ١٠٤٨/ فنشب الصراع من جديد داخل العائلة دون أن يحدث ذلك تغييراً في الحدود مع السلجوقيين سوى الإعتراف بسيادتهم العليا ودفع الغرامة لهم.. المصاعب والأزمات الداخليّة ـ إضافة إلى تفكّك وانحلال الجهاز الحكومي وانفصال بعض الإقطاعات وبالتالي ضعف القوّة العسكريّة.. هذا كلّه شكّل العوامل المتكاملة التي فتحت أمام السلجوقيين فرص النجاح.

البويهيّون ـ وأمير الأمراء

في الأعوام الأولى من القرن العاشر لم يبق للخليفة العبّاسي ـ وقد أحدق به حرسه التركي ـ سوى العراق وما بين النهرين. ففي عام /٩٠٨/ كان الأمير التركي الحضي «مؤنس» القائد الأكثر نفوذاً وظلّ كذلك من عام /٢٩٦/٩٠٨/ إلى عام/٣٢١/٩٩٣/ وهو الذي أوصل المقتدر إلى السلطة في الثالثة عشرة من سني عمره وهي بدء البلوغ شرعاً.. ودام «ملك» العاهل الشاب /٢٤/ عاماً فمنح حاميه لقب«أمير الأمراء» وقام هذا، بادىء ذي بدء، بتعيين القائد العام للجيش وهي الخطوة الأولى التي اعتبرها من حقّه وضمن صلاحيّاته مستغلاً ضعف الخليفة، وفي الثانية استولى على الإدارة المدنيّة وانتهى بأن أصبح العاهل الفعلي.

تاريخ هذا الحدث الجديد يجب أن يحفظ لأنّ ترقية رئيس

الحرس التركي كانت، بالضبط والدقّة، استيلاء العنصر العسكري على البلاط ومؤشّر انحطاط الخلافة وانحلالها. . فالقادة العسكريّون حاملو اللّقب الآنف الذكر ، (أمير الأمراء) أصبحوا أصحاب القدرة ومالكو صلاحيّة ممارسة السلطة وتسيير الإدارة المدنيّة؛ ولم يعد الخليفة أكثر من دمية في أيدي حرسه الخاص. . في الماضي عرف الخلفاء كيفيّة درء هذا الخطر وقدروا على ذلك ورأينا بأيّة قسوة زال من على المسرح السياسي سلطان ونفوذ البرامكة. . وأبو مسلم وحريمه. . الخ. . أمّا الآن فأمير الأمراء هو المتحكّم بحياة الخليفة ومصيره. .

في بغداد أفلتت الأهواء من عقالها وانتشرت الجرائم فكانت حقبة كئيبة وصفها [as — SÛLI] وهو يروي قصّة حكم الراضي وأخيه المتّقي. . لقد أصبحت بغداد تحت رحمة اللّصوص والمبتزّين وقطّاع الطرق. . وكان الهياج الشعبي والفتنة المقترنة بالمجاعة التي كانت كالنار في هشيم. . والمثال الأخوة الثلاثة من الشيعيين «آل البريديّ» أبناء صاحب بريد البصرة الذين أصبحوا قادة عسكريّين. . هذا الثلاثي الذي أساء استعمال وظيفته بشكل مذهل فابتزّوا واختلسوا ما استطاعوا ونجحوا في تزعّم عصابات قطع الطرق حتى استقرّت لهم جباية ضرائب إقليم الأهواز، المركز المرموق لزراعة قصب السكّر. . وامتدّت سلطتهم هذه إلى السواد جاعلين من البصرة نفسها مركز نشاطهم بين /٣١٥/٩٢٧/ و /٣٣٦/٩٤٧/ أي قبل ظهور البويهيّين.

من أجل الخلاص من الترك، بلغت الميوعة بالخليفة درجة قبول وصاية عائلة ديلميّة جاءت من سواحل قزوين الجنوبيّة هي «آل بويه» الأسرة التي اشتهرت وصارت ذات ملك وسلطان على الهضبة الإيرانيّة، ثمّ العراق، مشكّلة بين السيطرة العربيّة والبدايات وبين ما سمّي «الفتح التركي» في القرن الخامس/ الحادي عشر. . مشكّلة ما سمّاه «مينورسكي» الفاصل الإيراني . . ـ لقد استمدّت اسمها من

«بُويه»الأب لثلاثة أخوة: ـ علي والحسن وأحمد الذين أسّسوا هذه الأسرة عام /٩١٣/٣٠٠/ وكان الأخوة الثلاثة، في الأصل، قادة جنود مرتزقة متواضعين ينتمون إلى سكّان الديلم الداخلين في الإسلام، مذهب الشيعة والّذين دفعهم فقر إقليمهم إلى التطوّع في جيوش حكّام الأقاليم المجاورة أو الخليفة.

واستطاع الأخوة الثلاثة أن يجمعوا حولهم العناصر الديلميّة الجبليّة المنشأ حتّى شكّلوا جماعة ذات شأن سياسي وعسكري والدولة البويهيّة التي نشأت شكّلت فاصلاً توضّع بين بغداد وبين السلطة السنّية الوحيدة آنذاك في آسية.. وهي السمّنية المسيطرة في خراسان وما وراء النهر. ـ بعد صراع ساده التشويش والإضطراب احتفظ «علي» بفارس واحتلّ «الحسن» الجبال وتغلغل «أحمد» في كرمان وخوزستان وكانت عاصمة الخلافة مطمع البويهيّين فحققوا هدفهم وفي عام /٩٤٥/٣٣٤/ دخل أحمد بغداد وفيها استقبله الخليفة «المستكفي» ودشّن فيها نظاماً جديداً استمرّ حتّى عام /١٠٥٥/٤٤٧/.

بداية الحقبة الجديدة تميّزت بتجديدات في تحديد الصلاحيّات والإختصاصات والحقوق فتلقّى كلّ من أحمد وعلي وحسن من الخليفة الألقاب التالية: «معزّ الدولة ـ عماد الدولة ـ ركن الدولة» وبهذه التسميات عرفهم التاريخ.. وألقاب دولة ذاك الزمن كانت تخفّ وتنزل تدريجيّاً فودود الدولة، إبن ركن الدولة، كان الشخصيّة الأكثر شهرة في العائلة.. وفي عام /٩٧٧/ بدأت حقبة سيطرة الشيعة على خلافة بغداد وإن كان أولئك الهراطقة المنشقّون تظاهروا وكأنّهم يعترفون بالشرعيّة الحقيقيّة للخليفة العبّاسي لقاء الحصول منه على تقليد الولاية. ـ ذلك الموقف العدواني أشعل نار الثورة والإضطراب في الإدارة ضدّ هؤلاء الّذين أعطوا الأولويّة للسياسة على الدين. ومع ذلك أقدم معزّ الدولة، عام /٩٦٣/ على الإحتفال في بغداد بأعياد الشيعة ومنذئذٍ استؤنف الحجّ إلى قبور الأئمّة فكانت سوابق تحققت

فيها الشراكة العبّاسيّة ـ الشيعية التي حلم بها المأمون ولكنّها شراكة ضد الإسماعيليّة المحافظة.

من جهة أخرى كرّس النظام إيّاه هيمنة الجيش على الحكم فبسطت السلطة العسكريّة نفوذها على كلّ شيء رغم محاولات استعمال المرتزقة الأتراك في لعبة توازن القوى وحماية السنّة عبر حماية الخليفة. -والنظام البويهي أعطى دفعاً للمارسات التي تستتبع إقطاع القادة العسكريّين أملاكاً واسعة مقتطعة بدورها كما منحوا أنفسهم حقّ تحصيل ضرائب بعض المقاطعات الضريبيّة وتخلّص من يدّعون هذه الإمتيازات من دفع العشر لخزينة الدولة بدعوى أنّه وارد عادي خاصّ لهم ووزّعوا الإقطاعات دون أيّ إلتزام مقابل ذلك.. ذلك كان في الواقع يجري مجرى الراتب وليس إقطاعاً ممنوحاً بمعنى أنّ المستفيد كان قادراً على التصرّف مدى الحياة. (أهل الجيش أحقّ الناس بجواز الإقطاع لأنّ لهم أرزاق مقدّرة تصرف اليهم مصرف الإستحقاق لأنّها تعويض عما أرصدوا نفوسهم له من حماية البيضة والذب عن الحريم فإنْ صحّ أن يكونوا في أهل الاقطاع روعي حينئذٍ مال الخراج وهو في حالين: - جزية وأجرة).

على الصعيد العام استطاع البويهيّون تأمين إدارة وتنظيم سليمين لموارد الدولة واهتمّوا بإصلاح أقنية الريّ وإنشاء أقنية جديدة وإصلاح الطرق والجسور وتشييد أبنية جديدة في المدن. - وعلى الصعيد الفكري، في ظلّ حكمهم تحقّق إنجازان عربيّان كبيران هما كتاب الأغاني لأبي الفرج وفهرست ابن النّديم. . كما عاش في تلك الحقبة كلّ من المؤرخ هلال الصابي والفيلسوف والنحوي مسكويه والعالم الجغرافي الاصطخري وهذان الأخيران إيرانيّان مستعربان.

● الحالة السياسيّة في الشطر الغربي من الخلافة

الطولونيّون:

مبدأ إنفصال مصر لم يكن جديداً فطوال القرنين الأوّلين بعد الهجرة شكّلت مصر إقليماً داخلاً في سلطة الخلافة ومحتفظاً في نفس الوقت بوحدته الاقتصادية والثقافيّة والقبائل القادمة من العربيّة شكّلت في مصر عنصراً سلاليّاً جديداً ظلّ الأقلّ تأثيراً زمناً طويلاً. .

عقب الثورات القبطيّة والعربيّة انتقل الخليفة المأمون بشخصه إلى الفسطاط عام /٢١٧/ ٨٣٢/ وركّز هناك جيشاً من الخراسانيّين لإقرار النظام. . وأعطى مصر إقطاعاً لقائده عبد الله بن طاهر الذي مارس حقّ تعيين حاكم مصر فكان الأوّل في مجموعة القادة العسكريّين حيث هيمن الترك.

عصر جديد بدأ بالنسبة لمصر لمّا أعطاها الخليفة المعتزّ إقطاعاً إلى «بايّاك بك» الذي سلّمها، بدوره، إلى صهره أحمد بن طولون عام /٢٥٤/ ٨٦٨/ فأصبحت تدار من قبل ثلاثيّ الطغاة الحقيقي المؤلّف من قائد الجيش «أحمد بن طولون» ومدير الماليّة «ابن المودابي» وصاحب البريد «شقير» وسرعان ما دخل الرجال الثلاثة في صراع انتصر فيه قائد الجيش فانفرد بحكم مصر؛ وهو ضابط عسكري نشأ من عائلة أصلها من بخارى فكان المؤسّس للعائلة المالكة الطولونيّة منذ نجح بتأليف جيش خاص به واغتنم فرصة النزاع الذي قام في بغداد بين «جعفر المفوّض» وعمّه «الموفّق» فامتنع عن إرسال خراج الأجرة للخليفة الذي لم يحرّك ساكناً لانشغاله آنذاك بثورة الزنج. . ثمّ أعلن أحمد بن طولون استقلاله عمليّاً عام /٨٧١/ وانتحل لنفسه حقّ ضرب العملة الذهبيّة ووضع إسمه إلى جانب إسم الخليفة على القطع النقديّة المضروبة مثبتاً بذلك ما توهّمه وضعاً شرعيّاً؛ ومصر التي اجتازت قبل قليل أزمة

اقتصادية حادّة استعادت في تلك الحقبة ازدهارها الناجم بالأصل عن أنّ الخراج (الأجر) المقتطع من واردات البلاد ولم يرسل إلى العراق وظّف في حقلي التجارة والصناعة، وبنى عاهل البلاد الجديد، شمال الفسطاط، مدينة جديدة مستوفية لشروط إقامته سمّيت «القطاعي» وفيها بنى، قريباً من قصره، جامعاً كبيراً ترافقه مئذنة ذات «درابزين مروحي» شبيهة بمئذنة الجامع الكبير في سامرّاء.

ولم يطل الوقت حتّى احتلّ أحمد بن طولون سورية التي له عليها حقّ التفتيش باعتباره مسؤول شؤون الدفاع عن العواصم.. ومات في ميدان القتال في شمال سورية عام /٢٧٠/٨٨٤/ فخلفه ابنه «خماراويه» وتسلّم إقطاع أبيه لمدّة ثلاثين عاماً وواجه حرباً مستمرّة ضد حكّام سوريّة والجزيرة المدعومين من بغداد؛ يضاف إلى ذلك متابعة الحرب ضدّ بيزنطية مفتخراً أنّه يقوم وحده بمهامّ الجهاد..

وفي عام /٨٩٢/ ثبّته الخليفة «المعتدد» في مركزه وزوّجه من إحدى بناته فاتّسعت رقعة الأراضي الخاضعة للسلطة الطولونيّة لتشمل - إلى جانب مصر وسورية - صقليّة وجزءاً كبيراً من الجزيرة. ومات خماراويه في دمشق عام /٢٨٣/٨٩٦/ مقتولاً من قبل أحد خدّامه عشيق زوجته المفضّلة فخلفه أخوه هارون مع أنّ قوات الجيش بايعت إبنه الفتى وهو في الرابعة عشرة من عمره.. وفي تلك الأثناء اجتاح القرامطة سورية فعمّها الدمار واختفت آثارهارون في /١٩ صفر ٢٩٢/ أول كانون الثاني ٩٠٦/ فراح ضحيّة مؤامرة، ولم تمض أسابيع حتّى وصلت قوّات الخليفة إلى الفسطاط.

الإخشيديّون:

بعد زوال الطولونيّين استعاد الخليفة الإدارة المباشرة لمصر مدّة ثلاثين عاماً وعيّن لها حاكماً عسكرياً ممّن يثق بطاعتهم لشخصه ولكنّ السادة الحقيقيّين للبلاد ظلّوا هم مديرو المال فاقترن ضعف السلطة

بأزمة إقتصاديّة وأيقظ ذلك لدى البيزنطيّين تطلّعاتهم العدوانيّة فاشتدّت وكثرت غاراتهم على الشواطىء وفي نفس الوقت كان الخليفة الفاطمي الزاحف من افريقية يواصل هجماته الهادفة للإستيلاء على مصر فامتدّ سلطانه حتّى الشمال الشرقي من ليبيا (سيرينايك) فأدرك خليفة بغداد، والحالة هذه، أنّ مواجهة الهجمة الفاطميّة تقتضي إنشاء دولة تقف سدّاً عازلاً للخطر المحدق بأمنه.. وهكذا وصل إلى ضفاف النيل عام /٩٣٥/٣٢٣/ «محمّد بن طغج» المشهور بلقب «الإخشيد». إنّ أصل عائلة المؤسّس من فرغانة، دخلت في خدمة العبّاسيّين منذ جيلين وقد ولد محمد بن طغج في بغداد وعاش شبابه في سورية حيث كان أبوه والياً على دمشق وطبريّا لحساب الطولونيّين.. وبعد سقوط هؤلاء مرّ بمأزق صعب حيث ألقي في السجن وبعد إطلاق سراحه شارك في مؤامرة فاشلة لجأ بعدها إلى سورية ثمّ نفذ إلى مصر عام /٩٠٩/٢٩٧/ ودخل هناك في حماية الحاكم «تاكن» الذي قلّده بعض المراكز انتقل في أحدها إلى دمشق وهناك انقلب على وليّ نعمته وسرعان ما بسط سلطته على سورية؛ ولدى موت «تاكن» عيّن والياً وبقي في هذا المنصب شهراً واحداً.. وظلّ ينتظر عشرة أعوام حتى قام بتصفية «المداراعي» المعيّن من قبل بغداد.

في عام /٩٣٦/٣٢٤/ هزم الهجوم الفاطمي الثالث وبعد ثلاثة أعوام أعطاه «الراضي» لقب «إخشيد» الذي حمله أجداده في فرغانة قبل الإسلام.. وواجه في سورية منافساً قويّاً هو الأمير «ابن رُحيق» الذي مات مقتولاً في بغداد عام /٩٤٢/ ودخل في حرب ضد الحمدانيّين انتهت بأن ترك لسيف الدولة المناطق الموجودة شماليّ دمشق من سورية وفي دمشق مات في ذي الحجّة /٣٣٤/ حزيران /٩٤٦/ مخلّفاً ولدين هما وريثاه من الناحية الرسميّة ولكنّ الذي مارس السلطة فعلاً طوال عشرين عاماً كان «كافور» الخصي الأسود الرقيق لدى مؤسّس الأسرة وقائد جيشه. ـ لدى موت آخر الإخشيديين

ـ عليّ ـ عام/٣٤٩/٩٦١/ أعلن كافور نفسه سيّداً لمصر فواجه، في الداخل، الدعوة الإسماعيليّة وسلسلة من الأزمات الإقتصاديّة نجمت عن تتابع المواسم السيّئة.. أمّا على الصعيد الخارجي فقد عمل على حماية المملكة الاخشيديّة من الضغوط القرمطيّة والسودانيّة والحمدانيّة وبخاصة الفاطميّة التي استطاع تأخير استيلائها نهائيّاً على مصر..

الفاطميّون:

الفاطميّون الذين استمدّوا اسمهم من فاطمة بنت النبي كانت لهم السيادة في افريقية الشماليّة وفي مصر من عام /٢٦٧/ الى /٥٦٧ ـ ٩٠٩/١١٧١/.. أي ما يزيد على قرنين ونصف قرن.ـ وأصول الحركة التي وصلت بهذه العائلة إلى السلطة قامت في العراق وكان لها ارتباط بالإسماعيليّة، المذهب الشيعي الذي ينتظر أتباعه انبعاثاً للإسلام متى انتهت غيبة «المهدي» وآن ظهوره.. وهو من ذرّية النبي لعليّ وفاطمة، وقد أطلق أنصار الفاطميّين على الأسرة الحاكمة إسم «الأسرة العبيديّة» ثم «الدولة العلويّة».. وإن كان المؤرّخون السنيون قد اعترضوا على صحّة نسبهم إلى عليّ.ـ والفاطميّون ينتمون إلى نحلة باطنيّة يحفظون في باطنهم حقيقة آرائهم ومشاعرهم ويظهرون التساهل وحسن الإحتمال تجاه السنّة وموقفهم ذاك سهّل لهم استقرارهم في مصر.

إنّ باختفاء جعفر وابنه البكر إسماعيل (والفترة بينهما بضعة شهور فقط) عام ١٤٨/٧٦٥/، حصل شقاق في صفوف العلويّين:ـ البعض اعتبروا أنّ إسماعيل لم يمت بل غاب تاركاً بعده إبنه محمد القاصر الذي وضع في عهدة «ميمون القدّاح» (طبيب العيون) الذي كثيراً ما اعتبر «المؤلّف» الحقيقي للمذهب الإسماعيلي..ـ وعاش محمد متخفّياً تجنّباً منه لاضطهاد العبّاسيّين وكان يتنقل منتحلاً شخصيّة تاجر فعرف تحت إسم «محمّد المكتوم» وشكل خلفاؤه

وأتباعه فرقة «السبعيّة» لالتحاقهم بالرجل السابع من ذرّيّة النبي.

في نفس الوقت المذكور اعترف عدد كبير من أهل الشيعة بموسى الكاظم عمّ محمّد إماماً شرعيّاً وعهد هذا بالإمامة إلى من يخلفه من ذرّيته وآخرهم كان محمّد المهدي الذي اختفى عام /٢٦٠/٨٧٤/ في سرداب قرب سامّراء عاصمة الخليفة العبّاسي آنذاك وظلّ اختفاؤه سرّاً لم يجد تفسيراً ولا كاشفاً.. والذين كانوا مع حقّ موسى وذرّيته في الإمامة اعطوا ـ بعد «غيبة» محمد المهدي ـ البداية للخلف الوارث الثاني عشر لعليّ على خطّ مستقيم وكذلك سمّيت نحلتهم «الاثني عشرية» وقد شكّلت الفريق الأهمّ في الشيعة.

إنّ أهم ما ارتكزت عليه الحركة الاسماعيلية في دعوتها كان التنبّؤ بقرب مجيء المهدي محمد بن إسماعيل الإمام السابع الذي اختتم عصر محمد وظهر في نهاية القرن (الثاني/ التاسع) في السواد جنوبيّ العراق.ـ ومؤسس هذه الحركة كان «ابن الأشعث حمدان قرمط» الذي دخل في الإسماعيلية عام ٢٦٤/٨٧٧ على يد الحسين الأهوازي ثمّ خلفه.. وصهر حمدان المذكور ـ عبدان ـ كان المنشّط الكبير للحركة وسرعان ما استقطب لها الأنصار في أوساط الريف وبين القبائل البدويّة.. ومن أصول الحركة إيّاها كان «إقامة نوع من الملكيّة المشتركة للثروة وكذلك نوع من الغوث الإجتماعي للمحتاجين في الجماعة».

وبعد ذلك التاريخ دأبت سلطة بغداد على إطلاق إسم قرمطي على العديد من الجماعات المتمرّدة ضدّها ومنذ ثورة الزنج خرج أمر الإقليم من يد سلطة بغداد ولم يعد بمقدورها اتخاذ أيّ إجراء ضد أتباع حمدان وعبدان فبثّا دعاتهما في سورية حيث أقام عبيد الله بن محمد في السلميّة عند أطراف البادية بعد أن ظلّ طويلاً يتنقّل متخفّياً من مدينة إلى أخرى.ـ عام/ ٢٨٤/ ٨٩٩ / أدخل عبيد الله

بعض التعديلات على المذهب وطالب بالإمامة لنفسه الأمر الذي أدّى إلى قطيعة بينه وبين مؤسّسي الحركة.

الدعوة الإسماعيليّة بُثّت في شبه الجزيرة العربيّة ونفذت إلى اليمن. وحتى البحرين الذي كان معقلاً خارجيّاً في القرن السابع، أصبح مركزاً هامّاً للحركة القرمطيّة التي قام أتباعها، عام /٣١٧/٩٣٠/ بعمل متميّز هو نقل الحجز الأسود من الكعبة إلى البحرين. -أمّا في اليمن (حيث للمذهب أتباعه في أيّامنا هذه) فمن بين مريدي حمدان - منصور اليماني - أعدّ رُسُلاً بعث بهم إلى إفريقية الشماليّة حيث يلجأ الكثيرون من أخصام خليفة بغداد. .ومن بين رسل الإسماعيليّة في المغرب كان اليمنيّ أبو عبد الله الشيعي الّذي - رغم كلّ ما لاقاه من معارضة عشائر «كُتامة» وانتفاضات الأغالبة [٢٨٩/٩٠٢ - ٢٩٠/٩٠٣]، نجح في إرساء أسس الأمبراطوريّة الفاطميّة في افريقية معتمداً على برابرة كتامة الذين اجتذبتهم الإسماعيليّة إليها.

أصبح عبيد الله مطلوباً من قبل السلطات العبّاسيّة وهدفاً لمعارضة وخصام أنصار القرامطة فقرّر ترك سورية وأمامه سبيلان ممكنان: - أن يلتجىء إلى اليمن أو أن ينفذ إلى افريقية الشماليّة فاختار الحلّ الثاني وغادر مع ابنه «القائم» مارّاً بفلسطين ووصل مصر عام /٢٩١/٩٠٣/ ثمّ اجتاز ليبيا ووصل افريقية. . وفي «سجلماسة» كشف أمير الأغالبة أمرهما ورمى بهما في غياهب السجن ولكنّ أسرهما لم يدم طويلاً لأنّه في رجب ٢٩٦/ آذار /٩٠٩/ هزم اليمني أبو عبد الله الشيعي الأمير الأغلبي «زيادة الله» وخلّص عبيد الله وجاء به إلى «رقّادة» وفي كانون الثاني /٩١٠/ أخذ عبيد الله لقب المهدي وأمير المؤمنين وبذلك أصبح الخليفة الفاطميّ الأوّل - الرئيس الروحي للإسماعيليّة وأسند أعلى المناصب إلى أبو عبد الله وإلى أخيه أبو العبّاس ولكن سرعان ما اختلف

معهما فأمر بقتلهما في الأوّل من ذي الحجّة عام /٢٩٨/٣١ تموز /٩١١.

وفي مطلع القرن/الرابع/العاشر/ساد الغموض أوضاع افريقية الشماليّة فعلى الصعيد المذهبي كانت المواجهة سجالاً بين السنّية المالكيّة وبين الخارجيّة العباديّة.. وعلى الصعيد السياسي كان تنافس بين جماعتين من البربر.. بين الزناتة في الغرب والصناهجة في الشرق فأدّى ذلك إلى تمزيق البلاد وتجزئتها وذلك إبّان التنازع الرئيسي على السلطة فيها بين أسرتين شيعيّتين: ـ الرسميّة الخارجيّة الطاهريّة والادريسيّة العلويّة الفاسيّة.. وفي نفس الوقت أصبح أمويّو أسبانية يبسطون سيطرتهم على جزء من المغرب.

دام حكم المهدي من عام /٩٠٩/ الى /٩٣٤/ أي ربع قرن متّخذاً الرقّادة ـ ضاحية القيروان ـ مقرّاً له. وكان هدفه الأوّل مباداة العبّاسيّين الحرب فجهّز جيشاً وبنى اسطولاً.. وورث الفاطميّون عن الأغالبة اهتمامهم بصقليّة التي حاول حاكمها الموالي للعبّاسيّين الهجوم على افريقية فوقع في الأسر وجيء به إلى عبيد الله فقتله عام /٣٠٤/٩١٦/. وقام عبيد الله بعدّة محاولات ضدّ مصر: ـ عام /٣٠٧/٩١٩ احتلّ جيشه الإسكندريّة ودمّر الدلتا ثلاث كرّات متتالية ثمّ وفي/٩٢٥/ تراجع عن عزمه على فتح مصر.

ورث العاهل الفاطمي عن الأغالبة اسطولاً قويّاً مكّنه من السيطرة على مالطة ـ سردينية ـ كورسيكة ـ وباليارسا ـ ولدى موت المهدي تولّى السلطة ابنه القائم وقد عيّنه أبوه خلفا له وملك/١٢/ عاماً وباعتباره كان قائد القوّات في زمن أبيه نهج سياسة توسّعيّة باتّجاه الغرب فاحتلّ عدّة مدن منها فاس ومرّاكش وهاجم بأسطوله الشواطىء الشماليّة للبحر الأبيض المتوسّط عام/٩٣٤/ فانتزع جنوى من الرومان واحتلّها وأسر الكثيرين من كالابرا.. وفي عام/٩٣٥/ أرسل إلى مصر قوّات احتلّت الإسكندريّة ولكنّ الجيش

الإخشيدي عاد فهزمها. . وبعد بضعة سنين اضطرّ القائم لمواجهة ثورة الخارجي أبو يزيد النقّري الملقّب (صاحب الحمار) المدعوم من أمويّي اسبانية والذي بدأ ثورته عام /٣٣٢/٩٤٣/ واستولى على عدّة مدن منها تبسة والقيروان وبعد أن دُحر وقُتل القائد الفاطمي ميسور ضرب الحصار على المهديّة العاصمة التي أسّست وبُنيت عام /٣٠٨/٩٢٠/ من قبل عبيد الله. . وحاول أبو يزيد مراراً دخول المهديّة دون جدوى فتراجع عائداً إلى القيروان. . والخليفة المنصور إسماعيل الذي خلف القائم عام/٣٣٤/٩٤٦ هو الذي فاز بالقبض على المتمرّد بعد سلسلة من المعارك وبعد أن سقط أبو يزيد مثخناً بجراحه في ٢٧ محرّم ١٩/٣٣٦ آب ٩٤٧/. وفي نفس العام أسّس الخليفة عند أبواب القيروان عاصمة جديدة ـ صبرا ـ المسمّاة أيضاً «المنصوريّة» وبعد أن استتبّ له الأمر وساد الأمن في البرّ ضاعف الخليفة القوّة البحريّة الفاطميّة وقام بهجمات ناجحة ضد البيزنطيّين في صقلّية وجنوب إيطالية لأنّهم ساندوا أمويّي إسبانية ضدّه.

في عام /٣٣٦/٩٤٨/ أرسل المنصور حاكماً على صقلّية الحسن بن علي الكلبي الذي أنجبت عائلته عدداً من الحكّام تميّزوا بتطلّعاتهم الاستقلاليّة المتنامية.

١ ـ الخليفة المعز

لدى موت المنصور في شوّال /٣٤١/ آذار /٩٥٣/ خلفه ابنه «أبو تميم معاد» الذي وُلّي العهد قبل وفاة والده ببضعة شهور فجلس على العرش واتخذ لقب «المعزّ لدين الله» ودام سلطانه/٢٢/ عاماً فكان أعظم الفاطميّين شأناً. ـ الخلفاء الثلاثة الأول بسطوا سلطانهم وتوسّعوا فيه غرباً أمّا الرابع فقد التفّ نحو المشرق وحقّق فتح مصر وفيها أي في قلب الإسلام في الشرق الأوسط أقام مركز الخلافة الشيعيّة.

كان المعزّ المعاصر لعبد الرحمن الثالث سيّد إسبانية الأموي وقد قام بعمليات عسكريّة في الغرب اقترنت بالنجاح: أخضع قبائل «زناتة» وأقام في «الطاهرة» حكومة يرأسها زعيم صنهاجة «زير بن مناد» وبذلك استقرّت له الأمور في المغرب وهذا ما كان يطلبه للتفرّغ للعمل ضدّ العبّاسيّين. وفي مطلع/٩٦٥/ قام بعدّة عمليّات عسكريّة في صقلّية ضدّ «نيسيفور فوكاس» ثمّ وقّع معاهدة معه في عام /٣٥٦/٩٦٧/ فمطمع المعزّ الرئيسي كان الزحف على مصر والاستعداد لهذا الزحف بدأ منذ /٣٥٥/٩٦٦/ ومن بين استعداداته نقب آبار الماء على طول الطريق إلى مصر.. وانتشار دعاته في الفسطاط والدلتا حيث كان السكان فريسة للجوع وضحايا التمييز العنصري الذي مارسه «السودان» حكّام البلاد آنذاك. ـ لقد مات حاكم مصر كافور الإخشيدي عام/٣٥٧/٩٦٨/ وتلك كانت إشارة التقدّم.. ففي ربيع الأوّل ٣٥٨/ شباط ٩٦٩/ سار نحو الشرق جيش عرمرم بقيادة جوهر يدعمه اسطول ضخم.

الصقلّي (أو الرومي) قال أنّ «جوهر» كان عبد رقّ من أصل أوروبي مجلوب من القيروان.. وجوهر هو فاتح مصر وصانع القوّة العسكريّة الفاطميّة. ـ أمّا الإدارة فقد استفاد المعزّ في بنائها من خبرة «يعقوب بن كلّس» وهو يهوديّ بغداديّ المنشأ دخل في الإسلام وكان في خدمة كافور وإليه ينسب النظام المالي والإداري الذي طبّق في مصر إبّان حكم الفاطميّين. ـ إبن كلّس أبطل الضريبة على عقود المزارعة بأجر وصارت تجمع مباشرة من المنتجين بموجب قوائم إسميّة فصارت موارد مصر للمصريّين لا يقتطع منها شيء لأيّ كان.

بوصول جوهر إلى الجيزة بعثر القوى التي واجهته وشتّتها في الثاني من شعبان ٣٥٨/٣٠ حزيران٩٦٩/ ودخل الفسطاط في اليوم التالي دون أن يعترض أحد طريقه.. ومنذئذٍ وقعت مصر قرنين كاملين تحت حكم سلطة شيعيّة. ـ وكان الهمّ الأوّل للقائد الفاطمي

إقرار النظام ومكافحة الجوع؛ وبعد مضيّ أسبوع واحد على مقدمه أرسى حجر الأساس لمدينة جديدة ذات سور قوي أقام فيها قوّاته ومصالحه وسمّيت «القاهرة المعزّية» لأنّ تأسيسها بدأ في طالع نجم «القاهر» الـواقي لها من كلّ نحس وسوء وتلك كانت الأصل لتسمية القاهرة. وبنـى الفاتـح أيضاً «جامـع استقطـاب هو الجامــع الأزهر». - وأوّل صـلاة حصلت في هذا المعبـد اللاّمـع كـانت في /٧ رمضان - ٣٦١/٢٢ حزيران ٩٧١/ وبـدأت تعطي فيه بادىء ذي بدء تعاليم المذهب الإسماعيلي ثمّ أصبح خلال ألف عام من عمر الزمن المركز الأوّل والأوسع في العالم الإسلامي لتدريس العربيّة والفقه وعلوم الدين.

ولم يتباطأ جوهر عن بسط السلطة الفاطمية وراء حدود مصر فأخضع مكّة والمدينة عام/ ٩٧٠/٣٥٩ - ٧١/ وقد لعب ذهب المعزّ دوراً هامّاً في تحقيق هذا الإنجاز. أمّا في سورية فالمهمّة كانت أكثر صعوبة وتعقيداً بسبب المقاومة العنيفة التي أبداها الإخشيديّون مسنودين من القرامطة وبسبب آخر هو عدم إنضباط القوّات المغربيّة المكلّفة بالعمليّات وترافق هـذا كلّه مع همـات من قبل البـدو والقرامطة والبيزنطيّين ساءت معها الحالة. وفي نهاية عام/ ٣٦٠/ آب ٩٧١/ تعرّض «جعفر بن فلاح» نائب جوهر في دمشق لهجوم القوّات القرمطيّة بقيادة «الحسن الأعصم» الذي يُعزى إليه أنّه «وراء تغيير موقف القرامطة في علاقاتهم مع الفاطميّين».

انتصار الحسن في دمشق شجّعه على الزحف إلى القاهرة ولكنّ جوهر هزمه في نهاية عام /٩٧١/ ووصلت القوات الفـاطمية، مجدّداً إلى دمشق ثمّ أخرجت منها في رمضان/٩٧٢/٣٦١/ وأعاد الحسن الكرّة بعد عامين إلاّ أنّه، منذ رمضان/٣٦٢/ حزيران٩٧٣/ استقرّ الأمر للمعزّ في القاهرة فولّى على المغرب القائد البربري «بولوكن بن زيري» وعاد إلى إستعمال الذهب الفاطمي سلاحاً لاستقطاب أعوان القرامطة من البدو حتّى انفرد بجيش القرامطة

وهزمه فاستولت قوّات المعزّ المغربيّة على دمشق ولكن السكان ضاقوا بهم ذرعاً وأخرجوهم منها بمساعدة ضابط بويهي كان قد هرب إلى بغداد هو التركي «آلب تاكن ـ الافتخين» ـ وفي شمال سورية أحرز الفاطميّون انتصارات على البيزنطيّين في عام /٣٦٤/٩٧٥/ ـ وفي عام/٣٦٥/٩٧٦/ مات المعزّ بعد أن عيّن خلفاً له أخاه «نزار» (العزيز) الذي تطلّع إلى بسط سلطته على فلسطين مع سورية فتغلّب على قوّات الأعصم والأفتخين قرب الرملة واحتلّ مرفئي بيروت وطرابلس وبذلك أصبح السلطان الفاطمي دون منازع من الأطلسي إلى البحر الأحمر والحجاز واليمن وسورية. ولم يكن سادة مصر من نوعيّة الحكّام المتمرّدين أصحاب المطامع الشخصيّة بل كانوا قادة حركة دينيّة مذهبيّة شيعيّة إسماعيلية.. وبناء على ذلك أنكروا سلطة خلفاء السنّة العبّاسيّين (وهم في نظرهم غاصبون)ـ وحتى في أيام الهيمنة البويهيّة على بغداد لم يحصل أيّ تقارب معها لأنّ البويهيّين ـ الشيعيّين هم أيضاً لا يعترفون بحقّ الفاطميّين في الإمامة العلويّة الشرعيّة وهذا العامل جعل الهدف الرئيسي لأصحاب القاهرة قلب الخلافة العبّاسيّة واحتلال بغداد.

في ظلّ الفاطميّين عرفت مصر تحوّلاً إقتصاديّاً هاماً:ـ سادة القاهرة حوّلوا نحو البحر الأحمر ـ وهم المسيطرون على ضفتيه تجارة الخليج العربي ـ الفارسي.. وإمعاناً منهم في إضعاف العراق وتقوية مصر أرسلوا البعثات والتجّار من القاهرة إلى الهند وأفغانستان لاحتكار العمليّات المصرفيّة والتجاريّة وتوجيهها. ولكنّهم فشلوا في بسط نفوذهم لأنّ الغزنويّين السنّيين والموالين لبغداد سدّوا السبل بوجه المحاولات المذكورة.

في زمن العزيز بدأت تظهر داخل الجيش التصدّعات الأولى في بناء الصرح الفاطمي فقاعدة الجيش العريضة تتكوّن من المتطوّعة البربر وفي كلّ موقع وحامية ـ من القاهرة حتّى دمشق ـ بدأ يظهر نوع من التسلّط الإفريقي الشمالي على الشرق الأدنى ـ وثمّة عناصر

أخرى متطوّعة هي المماليك من أصل أوروبي - يوناني - سلافي - أو إيطالي الخ.. ولعب العزيز اللعبة التالية:- ألّف سرايا خاصّة ائتمنها وأوكل إليها مهامّ حراسته الخاصّة وتتألّف من مماليك ترك ووحدات مشاة ديلميّة مجلوبة من الجبال المجاورة لبحر قزوين وبذلك قامت داخل الجيش كتلتان متنافستان:- المشارقة والمغاربة وأضيفت إليهما بعد زمن كتلة ميليشيات العبيد النوبيّين السود الّذين ساندوا - في البدء - المشارقة ضدّ المغاربة. ثمّ وبعد انفصال شمال افريقية وفقد هؤلاء أهمّيتهم، تحوّلت المنافسة لتكون بين الترك وبين السودان.- وفي المغرب تجمّدت العلاقات مع الخلافة الفاطميّة طوال مدّة حكم «منصور بن بُلُوكّن» من/٣٧٣/٩٨٤ - إلى/٣٨٦/٩٩٦/.

٢ - ملك الحاكم

مات العزيز في التاريخ الآنف الذكر وأعلن خليفة ابنه أبو علي المنصور المعروف بلقب «الحاكم بأمر الله» وهو من أمّ مسيحيّة وحفيد لبطريرك الاسكندريّة الملكي «أرسينيوس».- وكان العاهل فتىً في الحادية عشرة من عمره والوصي عليه الخصي السلافي برجوين وهو الذي مارس السلطة الفعليّة ممّا أثار النزاع بينه وبين ابن عمّار زعيم برابرة كتامة الذي انتهت الأمور إلى تصفيته والخلاص منه.- وقد سادت الإضطرابات الحقبة الأولى من وصاية برجويه وجرت عدّة عمليّات عسكريّة ضدّ البيزنطيّين شماليّ سورية كما ظهرت عدّة حركات مسلّحة أقام أصحابها لهم سلطات سياسيّة.

عام /٣٩٠/١٠٠٠/ ضاق الخليفة الحاكم بثقل سلطة برجويه فأمر بقتله وبدأ عهد جديد دام /١٧/ عاما وهذا الذي سمّي عادة خليفة العام الألف، تخلّى عن سياسة الّلين والمهادنة لأسلافه واختار إجراءات القمع ضدّ اليهود والمسيحيّين.. فأعاد تطبيق الّلباس المميّز للذمّيين؛ وفي عام/٤٠٠/١٠٠٩/ بلغ به الأمر إلى هدم كنيسة

القيامة في القدس التي أعيد بناؤها في عهد الظاهر. . واتخّذ إجراءات أخرى ضدّ السّنيين أعطت الشيعة مدّاً وكسباً ومارس أيضاً سياسة مدمّرة في مصر أداتها العدد الكبير من المتطوّعة الترك والسودان الذين أمر بجلبهم من الخارج حتّى أصبح هؤلاء مركز قوّة ودخلوا في منازعات لا ضابطها مع البربر. . وفي أواخر حكمه امتحن هذا الخليفة الغريب الأطوار بالدّخول تحت تأثير المذهب الإسماعيلي القائل بالتناسخ والحلول وانتهى بقبول فكرة أنّ ذات الله تجسّدت فيه وحبكت الطرف والحكايا حول هذه الشخصية الغامضة الأطوار حتّى تجمّع منها ما يضاهي طُرَف ألف ليلة وليلة! ـ في ظلّ حكمه، ثلاثة رجال لعبوا دوراً حاسماً: ـ حمزة بن علي الزوزني ـ حسن بن حيدرة الفرغاني الأخرم ـ وأنوخ تاكن الدرزي البخاري. ـ ففي عام /١٠١٧/٤٠٨/ بدأت مقولة التجسّد الموحاة من حمزة وتسولّى نشرها مساعداه اللذان يقال أنهّا كانا منافسين له. . وتقول بعض الروايات أنّ الدرزي قتل من قبل أبناء جلدته الذين ضاقوا ذرعاً بما يدعو إليه. ـ وتقول رواية أخرى أنّ الخليفة وجّهه سرّاً إلى حوران في سورية؟ أمّا الأخرم فقد هرب هو الآخر ويؤكّد البعض أنّه مات مقتولاً. وبقي الفارسّي حمزة يتمتّع بحظوة لدى الحاكم ويعتبر مؤسّس النظام المذهبي للدروز. . وهناك رواية تقول أنّه عاش متخفّياً في حوران وفيها مات عام ١٠١٩؟

إن إعلان ألوهيّة الحاكم كان حلقة في سلسلة الفتن التي من بينها، وأشهرها، حرق الفسطاط والمذبحة بين الترك والبربر. . وظلّ الغموض يكتنف نهاية الحاكم. . ففي/٢٧ شوّال ٤١١/١٣ شباط ١٠٢٠/ غاب على نحو خفيّ عجيب أثناء نزهة ليليّة خارج القاهرة وبعد عدّة أيّام وجد حماره نافقاً وثيابه ممزّقة وملطّخة بالدم على جبل المقطّم المشرف على العاصمة المصريّة وذهبت أفكار البعض إلى أنّه قتل بمؤامرة من أخته «ستّ الملك» ولكنّ أحداً لم يستطع العثور على جسده الأمر الذي رجّح الإعتقاد بـ «غيبته».

بعد غيبة الحاكم انحلّت الخلافة تدريجيّاً وأخت الحاكم، ستّ الملك، صارت الوصيّة على ابن أخيها الفتى في السادسة عشرة، الظاهر الذي في عهده عرفت مصر (عام/٤١٤ - /٤١٥/. ١٠٢٣/١٠٢٤) عرفت مجاعة قاسية حدت بالسكّان لأن يذبحوا الحيوانات المخصّصة للحراثة. ولدى موت ستّ الملك عام /٤١٥/١٠٢٤/ إنتقلت السلطة إلى يدي الوزير ابو القاسم أحمد الجرجرائي الذي حكم مصر قرابة عشرين عاماً تخلّلتها الإضطرابات نتيجة تمرّد العسكريّين وبوار التجارة وعودة شيوع الإغتصاب والإبتزاز في النظام المالي والضرائبي.

٣ ـ الخليفة المستنصر

عام/٤٢٧/١٠٣٦/، بعد موت الظاهر، خلفه طفل في السابعة ولقبه «المستنصر» وامتدّ عهده ستين عاماً وهذا رقم قياسي في الإسلام.. تولّى شؤون الحكم، أوّلا، الوزير الجرجرائي وبعده استلمت زمام الأمور أمّ الخليفة وهي من «السودان» وعبدة رقّ بالأصل وقد اعتمدت في إدارة الحكم على «ابو سعد الطستاري» الصرّاف اليهودي الداخل حديثاً في الإسلام وقد قتل عام/٤٣٩/١٠٤٧/.. وعلى القاضي «ابو محمد حسن اليازوري» الذي أصبح وزيراً في محرّم/٤٤٢/ حزيران١٠٥٠/ وبقي في مركزه ثمانية أعوام وهو آخر مدني مارس السيطرة على شؤون الدولة وبعد قتله سادت مصر إضطرابات وأزمة إقتصاديّة فانحلّت الإدارة المدنيّة واستُنفدت موجودات بيت المال واشتدّ الصراع بين الكتل العسكريّة المتنافسة فكانت مواجهات دامية بين السودان والترك كانت الغلبة فيها لهؤلاء المدعومين من قبل البربر. وانسحبت الأزمة إيّاها على الزراعة فعرفت البلاد سلسلة مجاعات رهيبة (٤٤٦/١٠٥٤/ - و٤٦٤/١٠٧٢).

في عام/٤٦٥/١٠٧٣/ وجّه المستنصر دعوة سرّية إلى حاكم

عكّا «بدر الجمالي» لزيارة القاهرة وهو أرمني دخل الإسلام ورقيق سابق لجمال الدين بن عمّال في طرابلس فقبل القائد الأرمني الدعوة بشرط أن تصطحب معه قوّاته العسكريّة الخاصّة. . وإمعاناً في الحيطة، والسرّيّة سافر بدر الجمالي عن طريق البحر وأنزل قوّاته في دمياط ودون سابق استئذان من ميليشيات المدينة دخل القاهرة في ٢٨ جمادي الأول ٤٤٦/٢٩ كانون الثاني ١٠٧٤/ واحتفظ هناك بالسلطة لنفسه طوال عشرين عاماً وفوراً أعاد النظام إلى نصابه بعد تصفية جذريّة للقادة الأتراك ومعظم كبار الموظّفين المصريّين ووفاقاً لسياسة التراحم التقليديّة المعروفة في الشرق توثّقت الأواصر بين الحاكم الجديد وبين الخليفة عن طريق تزويج إبنة البدر من أصغر أبناء المستنصر وهو أحمد (الخليفة المستعلي في المستقبل) وصار البدر سيّد مصر الحائز على اللقب المثلّث: ـ أمير الجيوش ـ هادي الدعاة ـ الوزير ـ أي القائد الفعلي للجيوش والموجّه للدعوة والمسيطر على الإدارة وبذلك يكون الخليفة قد تخلّى له عن السلطات كلّها بحيث أصبحت مصر أوتوقراطيّة عسكريّة (نظام استبدادي) تماماً مثل الوضع الذي آلت إليه الأمبراطوريّة العبّاسيّة منذ بداية حكم «أمراء الأمراء» ـ إلاّ أنّ ما قام به بدر الجمالي ـ على الصعيد الداخلي ـ أعاد الطمأنينة والأمن إلى مصر فنمت موارد الدولة بشكل محسوس وعاد النظام إلى الادارة والجيش ممّا أطال عمر الأمبراطوريّة الفاطميّة قرناً من الزمن تقريباً.

وعلى الصعيد الخارجي، ورث المستنصر الشطر الأقوى من دولة الإسلام: ـ افريقية ـ صقلّية ـ الحجاز ـ وسط سورية ـ بعض الأقسام من العراق حتّى خراسان. . ومنذ تولّي المستنصر الخلافة بدأ اهتمامه بصقلّية يضعف فرغم أنّ تعين حكام الجزيرة كان يتمّ من قبله إلاّ أنّها أصبحت خاضعة عمليّاً لسيادة الحكومة الزيريّة المغربيّة. ـ وفي الغرب دخلت الامبراطوريّة في مصاعب مع الزيريّين الّذين(عام٤٤٣/ ١٠٥١) رفضوا السيادة الفاطميّة ووالوا

العبّاسيّين. ومنذ/٤٢٧/١٠٣٦/ نبذت صقلّية حكّامها الفاطميّين فاحتلّها النورمنديّون عام/٤٦٣/١٠٧٠/ والعلاقات مع بيزنطية ظلّت زمناً علاقات صداقة وعقدت معاهدة بين المستنصر وأمبراطور بيزنطية وتبادلا السفراء لمواجهة خطر مشترك من قبل السلاجقة في سورية. ـ عام/٤٤٦/١٠٥٤/ عادت القطيعة بين القاهرة والقسطنطينيّة لأنّ تيودور أرسل حملة ضدّ اللاّذقية فتسبّبت تلك العمليّة بقيام علاقات تجاريّة مباشرة بين مصر والمدن الإيطاليّة.

في سورية التي يحكمها الظاهر تقلصت السيطرة الفاطمية عن مناطقها بالتدريج واحتلّت دمشق من قبل القائد «أنوخ تكن الدزبري» لحساب الفاطميّين عام /٤٢٩/١٠٣٨/ كما انتزع القائد المذكور حلب من المرواسيّين الذين استعادوها بعد أعوام ثلاثة وخضعوا عام/٤٥٢/١٠٦٠/ للسلطان السلجوقي «ألب أرسلان».

إضطرابات سورية حالت بين الفاطميّين وبين أيّ إجراء فعّال ضدّ سلاجقة بغداد وخاب أمل المستنصر في تحقيق حلم أسلافه بإلحاق العراق بالسلطة الفاطميّة. ـ في رمضان/٤٤٧/كانون الأول ١٠٥٥/ أعلن السلجوق طغرل بك» بإسم السنة عزمه على إنهاء الحكم الفاطمي في القاهرة ولكن الردّ المعاكس جاء في العام الثاني :ـ بعد دعوة تمهيديّة مكثّفة، نجح الأمير التركي «أرسلان البصاصيري» ببسط السيادة الفاطميّة على الموصل، ثمّ، وفي/٨/ ذي القعدة ٤٥٠/٢٧ كانون الأوّل ١٠٥٨/ إغتنم البصاصيري غياب القوّات السلجوقية المؤقّت فدخل بغداد وتمّت الخطبة للفاطميّين في مساجدها ولكن النجاح كان قصير الأمد فالقاهرة لم تدعم البصاصيري الذي قتل حال عودة قوات طغرل بك في معركة قرب الكوفة في ذي الحجّة/٤٥١/ كانون الثاني ١٠٦٠/ وعمليته تلك ضاعفت من تصميم السلاجقة على مقاومة نظام القاهرة فعمّت الإضطرابات سورية وفلسطين رغم تدخل بدر الجمالي المتكرّر. وتعاظم المدّ السنيّ. ففي عام /٤٦٢/١٠٦٩ ـ ١٠٧٠/ ألغيت

الخطبة باسم الفاطميّين في مكّة واستقرّ الأمر للعبّاسيّين في حلب؛ وبالمقابل، في اليمن، ظلّت الأسرة السليحيّة الحاكمة في صنعاء تساند الفاطميّين قرناً كاملاً (٤٢٩ ـ ٥٣٤/ ١٠٣٨ ـ ١١٣٩/). - في عام/٤٦٣ / ١٠٧١/ لبّى القائد التركماني «عزيز بن عواك» نداء الفاطميّين لإخضاع بدو فلسطين، وبحجّة أنّه لم يكافأ جيّداً احتلّ القدس لحسابه هو. . وبعد سنوات خمس استولى على دمشق؛ وفي عام /١٠٧٧/ هاجم مصر وهناك هزم فاستنجد بالسلطان السلجوقي «ملك شاه» الذي مهّد للنجدة بأن أقطع سورية أخاه «طُطُش» الذي أمر بقتل عزيز عام /١٠٧٩/ فاستعاد بدر زمام المبادرة واستطاع عام /٤٨٢/١٠٨٩/ إعادة السلطة الفاطميّة إلى شواطىء عكّا وصور وصيدا وبيروت وجبيل فاستعاد أمله بمواجهة متكافئة ضدّ السلاجقة ولكنّ الموت عاجله وبضغط من الجيش أسند مركز أمير جيوش مصر إلى ولده «الأفضل». وبعد شهور مرّت على موت المستنصر (٤٨٧/ ١٠٩٤) ثارت مشكلة من سيخلفه من المرشّحين لها ـ نزار وأحمد.

قبل موت المستنصر أقام في القاهرة «حسن بن صبّاح» الداعي الإسماعيلي القادم من بلاد فارس ثمّ عاد إلى إيران وفي عام /٤٨٣/١٠٩٠/ نجح بالإستيلاء على قلعة «علموت» وجعلها مركزاً للدعوة الإسماعيليّة. . وفي حين نجح «الأفضل» في إيصال الفتى أحمد إلى الخلافة بلقب «المستعلي بالله» ثار نزار الولد البكر ولكنّه أسر وسجن في زنزانة. ـ حسن ابن صبّاح ساند نزار فيما يدّعيه من حقّ بالإمامة ونشر الدعوة باسم نزار انطلاقاً من إقليم الديلم الجبلي ومنذئذٍ ولدت الحركة النزاريّة وأنصارها هم «الفدائيّون» الذين عرفوا في المغرب باسم «القتلة».

صار المستعلي خليفة في العشرين من سنة /٤٨٧/١٠٩٤ ـ ٤٩٥/١١٠١/ وقضى مدّة خلافته محصوراً داخل قصره. ـ إبنه موته عيّن «الأفضل» خلفاً له واحداً من أبنائه عمره

خمس سنوات وأعطاه لقب «الآمر بأحكام الله» ولمّا بلغ الخليفة أشدّه ضاق ذرعاً بوصاية وزيره ولهذا السبب اتُّهم بالتواطؤ في قتل الوزير المذكور على يد النزاريّة عام /٥١٥/١١٢١/ ـ لقد عرف الأفضل كيف يفرض الأمن طوال ربع قرن ويـنمّي واردات مصر ولكن مسلكه بعد موت المستنصر قاده إلى حتفه.

أما سياسة الفاطميّين تجاه الفرنجة في بدء الحملات الصليبيّة فالوثائق عنها تنقصنا؛ وكلّ ما نستطيع تأكيده هو تخلّي قوّات مصر عن واجباتها القتالية لدى أوّل احتلال صليبي لفلسطين. بعد«الآمر» وقعت الخلافة بين يديّ «الحافظ»/١١٣٠/١١٤٩/ وسلطاته لم تتعدّ حيطان قصره. ـ إبنه الظافر (١١٤٩/١١٥٤) شهـد سلطته تغتصب من قبل وزيره «أورتوكيد الملك العادل ابن الصلّار» الذي قتل عام ١١٥٣. وبعد ذلك التاريخ دخلت مصر أشدّ سني تاريخها ظلاماً مع خلفاء أطفال يسبحون في حمّامات الدم وآخرهم كان «العادل» الخليفة /١٤/ آخر الأسرة التي زالت على يد صلاح الدين عام /١١٧١/ بعد ملك دام قرنين ونصف قرن.

الحمدانيّون

الأسرة المالكة الحمدانيّة تتصّل بنسبها بقبيلة «تغلب» ومنها الفرعان الّـذان ملكا شمال غرب الأمبراطوريّة العبّاسيّة المنحلّة في القرنين الرابع والعاشر. الأوّل في الجزيرة جاعلاً من الموصل عاصمة له والثاني في سورية الشماليّة وعاصمته حلب. ـ وقد أخذت السلالة إسمها عن «حمدان بن حمدون بن الحارث» وقد برز بين القادة العسكريّين الذين أُلقي على كاهلهم قتـال الخوارج عـام /٢٥٤/٨٦٨/. ولكنه تحوّل إلى صفوف الخوارج بعد سنوات عشر؛ وحالما امتلك المعتضد زمام الخلافة (٢٧٩/٨٩٢) قرّر بسط سلطته على الجزيرة ونجح بالإستيلاء على ماردين بعد أن تركها حمدان. وأسر هذا الأمير وأودع السجن ثمّ تمّ العفو عنه.

إبنه الحسين، الذي نشأ خارجياً عاد إلى موالاة سلطات بغداد وساهم في القتال ضدّ الخوارج وكان له دور فعّال في الحملة المنتصرة التي جرّدت عـام /٢٩٢/٩٠٤/.. ثمّ في الحملة ضدّ الطولونيّين في ظلّ حكم الخليفة المكتفي وفي تلك الحقبة عُرض عليه منصب والي مصر فرفض العرض..

عام /٢٩٣/٩٠٥ ـ ٩٠٦/ عهدت إليه قيادة جيش مكلّف بمهمّة قمع الكلبيّين في سورية مع القرامطة المساندين لهم؛ وتتالت إنتصارات حسين العسكريّة ممّا مكّنه أن يلعب دوراً سياسيّاً إبّان تولية المكتفي الخلافة.ـ وفي عام /٢٩٥/٩٠٨/ ساهم في الحركة السرّيّة التي كان هدفها تمكين المعتزّ من الخلافة بعد التخلّص من الفتى «المقتدر».. ولكنّ أنصار هذا الأخير جعلوا كفته هي الراجحة وهرب حسين.. وطرأت تحوّلات كثيرة مختلفة مهدّت لصدور عفو الخليفة عنه وتقريبه منه ولكنّه، في عام /٣٠٢/٩١٤ ـ ٩١٥/ اشترك في مؤامرة ضدّ الوزير «علي بن عيسى» تحوّلت إلى عمليّة مسلّحة أُسر فيها في شعبان /٣٠٣/ شباط ٩١٦/ واقتيد إلى بغداد حيث قضى عامين في السجن ثمّ أُعدم بأمر من الخليفة.

ظـلّ أخـوة حسين على ولائهم للخليفـة فقلّد إبـراهيم في /٣٠٧/٩١٩/ ولاية ديار ربيعة التي انتقلت، بعد وفاته، إلى أخيه داوود في العام الثاني.. وأعظم الأخوة شهرة كان «أبو الهيجاء عبد الله» الذي قلّد ولاية الموصل عام /٣٩٣/٩٠٥/ وأخضع أكراد المنطقة وتكرّر الخصام بينه وبين بغداد.. فاعتباراً من/٣١٣/٩٢٥/ استعاد مركزه في الموصل واحتفظ به حتّى موته (عام /٣٢٧/٩٢٩/ الذي طرأ بغتةً إبّان معركة سببها مؤامرة سرّيّة نظّمها صديقه الحضي مؤنس القائد العام لجيوش الخلافة.ـ وكان ابو الهيجاء المؤسّس الفعلي للسلالة المالكة وقد خلّف إبنين كانا أشهر شخصيّتين في العائلة فحكم أحدهما إمارة الموصل وحكم الثاني إمارة حلب.

● إمارة الموصل الحمدانيّة

الحسن بن عبد الله بن حمدان لقي الكثير من العنت حتّى إستقرّت له إمارة الموصل إذ وقع في إشكال موضوعه عاصمة الجزيرة وأثاره ضدّه عمّاه نصر وسعيد ولكنّ الخليفة الراضي حلّ الإشكال في /٣٢٤/٩٣٦/ عندما قلّد الحسن ولاية الموصل ومعها أقاليم الجزيرة الثلاثة: ـ ديار بكر ـ ديار ربيعة ـ ديار مضر. ـ. وقد ضمّ الإقليمين الأوّل والأخير إلى سلطته بمساعدة أخيه علي.

أزمة الخلافة حملت «الراضي» على التخلّي عن سلطاته ووضعها في يديّ «أمير الأمراء» فنجمت عن ذلك حركات تمرّد وامتنع كلّ من أمير الموصل الحمداني و«بنو البريدي» أصحاب الأهواز ومحمّد بن رائق والي البصرة امتنعوا عن دفع حصّة بيت المال المركزي في بغداد من واردات ولاياتهم.

وتدخّل الحسن في النزاع القائم بين الخليفة وأمير الأمراء فعمل على قتل هذا الأخير واحتلّ مكانه عام /٣٣٠/٩٤٢/ فقلّده الخليفة لقب «ناصر الدولة» وقلّد أخاه علياً لقب «سيف الدولة».

وفي عام ٩٤٣ صار «ناصر الدولة» الأمر الناهي في بغداد وبدأ يرعى وينميّ نفوذ الشيعة فيها فأصبح لأتباعها أربعة مساجد في بغداد وحدها. وسرعان ما تفجّرت الثورة فانكفأ سيّد بغداد عائداً إلى الموصل وبعد معارك وصراعات مع البويهيّين تمّ خلعه ونفيه.. ومات بعد عامين إذ صادف موته في نفس العام الذي فيه استولى الفاطميّون على عاصمةمصر. وبعد موته نشب الخلاف بين ولديه: ـ ابو تغلب الفظنفر اختلف مع حمدان وبالإتّفاق مع البويهي البختيار أجبر أخاه على التخلّي عن أملاكه وحقوقه دون أن يؤثّر ذلك على علاقاته مع ابن عمّه صاحب حلب.. وانكشفت لعبة البختيار: ـ عاد فتواطأ مع حمدان وأعلن عداءه لأبو تغلب وزحف بقوّاته لفتح الموصل وانتهت المعركة إلى عقد إتفاقيّة تحسّنت العلاقات بعدها وأسدى

الأمير الحمداني دعمه للبويهي ضدّ زعماء الترك المتمرّدين. . وبحجّة أنّ أبو تغلب انضمّ إلى بني عقيل أخصام الخليفة تمّ قتله على يد «المفرّج» عام /٣٦٩/٩٧٩/ وبه انتهى فرع الموصل من العائلة الحمدانيّة والذين ظلّوا أحياء من العائلة انضمّوا إلى البويهيّين الذين صاروا سادة المدينة دون منازع. وحتى في ديار بكر زال الحمدانيّون وحلّ محلّهم «المروانيّون» وهم سلالة أسّسها الزعيم الكردي «باز» وقد لعبت هذه العائلة دوراً ثقافيّاً هاماً قبل سقوطها على يد السلاجقة عام /٤٧٨/١٠٨٥/.

● **الإمارة الحمدانيّة في حلب**

مؤسّس فرع حلب للإمارة الحمدانيّة كان «عليّ بن عبد الله بن حمدان» المعروف بإسم «سيف الدولة». - في عام/٣٣٢/٩٤٤ - ٩٤٥/ طلب الخليفة الذي كان تحت حماية أمير الأمراء الحمداني، طلب مساعدة الإخشيديّين وكانوا إذ ذاك مسيطرين على شمالي سورية ولقاء المساعدة إيّاها أقرّهم على سلطاتهم في الإقليم المذكور. . وما إن آب الإخشيديّون إلى مصر حتّى تمّ العدول عن القرار الآنف الذكر وأعلن خلع الوالي الإخشيدي ودخل سيف الدولة حلب في ربيع الثاني /٣٣٣/ تشرين الثاني /٩٤٤/ بتأييد من بني كلاب الأقوياء في الإقليم وبذلك أصبحت حلب عاصمة دولة وذلك لاوّل مرّة بعد الحثّيين(هذا ما قاله«جان سوفاجيه»)- ورغم ردود الفعل العنيفة من قبل الإخشيديّين وكذلك الصدامات العديدة، أصبح سيف الدولة سيّد سورية الشماليّة وديار مضر والجانب الأكبر من ديار ربيعة وأنشأ [دولة سوريّة ما بين نهرينيّة] تابعة نظريّاً للموصل ولكنّها، في الحقيقة والواقع، مستقلّة سواء عن صاحب الموصل وعن الخليفة وسنجد وضعاً مماثلاً تماماً بعد قرنين من الزمن في ظلّ ملك نور الدين بن زنكي.

وباعتباره المسؤول عن منطقة سيليسية الحدوديّة (أدنة ومنطقتها

على الفرات) كانت المهمّة الرئيسة للأمير الحمداني مناجزة البيزنطيّين القتال ولكنّ الواجبات العسكريّة تلك لم تكن حائلاً بين سيف الدولة وبين أن يصبح له بلاط متألّق في حلب (من /٩٤٧/٣٣٦/ الى ٩٦١/٣٥٠/).. بلاط يقصده شعراء العصر المرموقون مثل إبن عم سيف الدولة أبو فراس حاكم «منبج» والمتنبّي. ـ لقد كانت حقبة محظوظة بالنجاحات على الصعيدين الداخلي والخارجي.

أمّا الحقبة الثانية من ملكه الممتدّة من /٩٤٧/٣٥١/ إلى /٩٦٧/٣٥٦/ فقد تميّزت بالعمليّات العسكريّة المنتصرة ضدّ الإمارة الناشئة من قبل «نيسفور فوكاس» واقترنت إحداها باحتلال مؤقّت لحلب من قبل البيزنطيّين شتاء عام /٩٦٢/٣٥١/.

ولمّا خلف سعد الدولة أباه عام /٩٦٧/٣٥٦/ كان في الخامسة عشرة من عمره وبعد أن قمع ثورة قام بها عمّه أبو فراس اضطرّ أن يُخلي عاصمته تحت تهديد البيزنطيّين الذين توغّلوا في سورية عام /٩٦٨/ حتّى وصلوا إلى حمص وطرابلس.. وأصبحت حلب محور الإضطرابات الدامية التي فيها تداخلت القوى البيزنطيّة والفاطميّة والقبائل الرحّل إضافة إلى دسيسة الحاجب «كرخويه» المدبّرة في نفس حلب لخلع الأمير الشابّ ممّا سهّل «لبطرس بورجس» الإستيلاء على إنطاكية وبسط حماية بيزنطة على حلب في صفر /٣٥٩/ كانون الأول ٩٦٩/ وبذلك تحدّدت سلطة سعد الدولة داخل أقاليم سورية الشماليّة:ـ لقد إعترف بالمولويّة للبويهي «ودود الدولة» مقابل استعادة سلطته على ديار مضر في /٩٧٩/٣٦٨/. وتجدّد النزاع بينه وبين «بكجور» الذي سبق ووعده بولاية دمشق فاغتنم هذا الخصام بين حلب ودمشق مؤمّلاً الإستيلاء على عاصمة الشمال ولكنّ العون جاء سعد الدولة من بيزنطة هذه المرّة.. وفي عام /٩٨٣/٣٧٣/ استطاع جيش «النجدة»؟ البيزنطي أن يجبر صاحب حمص على رفع حصاره المضروب على حلب..

وقبيل موت سعد الدولة في شوّال /٣٨١/ كانون الأول ٩٩١/ انتصر على بكجور وقتله متابعاً لعبة الإستفادة من تناقضات البويهيّين والبيزنطيّين والفاطميّين دون أن يصدق أحداً منهم الولاء. أمّا إدارته الداخليّة فقد انطبعت بالسلب والإغتصاب والنهب ومختلف ضروب الإستبداد والتفريط، الأمر الذي نفّر منه جميع السكّان. وقد ترك لخلفه «سعيد الدولة» ملكاً ظلّ دائماً عرضة لمحاولات الفاطميّين الإستيلاء على إمارة حلب؛ والمحاولات تلك فشلت ولكن الفضل يعود إلى تدخّل البيزطيّين لصالح سعيد. . - وصرف الفاطميّون النظر مؤقّتاً - عن هدفهم المذكور مكتفين ببسط سيطرتهم على أراضي الإمارة الحمدانيّة.

في عام /٩٩٨/٣٨٨/أحرز الفاطميّون، في آفامية، نصراً على البيزنطيّين الّذين انصرفوا طوال العام الثاني إلى تدعيم تحصينات حلب وإنشاء مقرّ لحامية قويّة في شيزر وانتهى الأمر إلى عقد إتّفاقيّتين إحداهما بين البيزنطيّين والفاطميّين والثانية بين الفاطميّين والأمير الحمداني. وعقب ذلك ترك عدد كبير من الغلمان خدمة سيّد حلب واضعين أنفسهم تحت تصرّف خليفة القاهرة فتردّى وضع سعيد الدولة. وفي عام /١٠٠٣/٣٩٤/ أقدم لؤلؤ القائم بخدمة غرفة الأمير على قتله وبه انتهت العائلة الحمدانيّة المالكة التي لعب فرعاها دوراً سياسيّاً هامّاً وتميّزت بمناصرتها للآداب والفنون الجميلة.

أمّا لؤلؤ القاتل فقد قلّده الفاطميّون حاكميّة حلب حتى مات عام /١٠٠٩/٤٠٠/ فتلقّى ابنه المنصور مرتضى نفس التقليد من خليفة القاهرة وقامت ضدّه محاولة إنقلابيّة حمدانيّة ولكن صالح بن مرداس زعيم قبائل الكلبيّة هو الذي استطاع خلعه عام /١٠٢٣/٤١٤/ ومنذئذٍ سادت الفوضى حلب وصارت ميداناً للصّراعات القبليّة والعشائرية تحت سيطرة الفاطميّين النظريّة، ورقابة

البيزنطيّين المباشرة.- في عـام /٤٧٢/١٠٧٩/ تخلّى المرداسي «سابق» للأمير العقيلي «مسلم بن قريش» عن بعض المراكز الثانويّة وتقاسم وإيّاه الهيمنة على حلب فكان الأمير المذكور آخر عاهل مرموق لآخر عائلة مالكة عربيّة في آسية المتقدّمة.

في القـرنين العاشـر والحادي عشـر تضاعف تمزّق وتجـزئة الامبراطوريّة العبّاسيّة وازداد عدد العـائلات المـالكة المستجـدّة الموظّفة في خـدمة الصـراعات الـدينيّة والقبليّـة فنمت المحاور وتضاعفت وعادت إلى الظهور الثقافات واللّهجات المحلّية وإن بقيت العـربيّة لغـة الـدين والإدارة.. وحتّى اللّغـات الأعجميّـة أصبحت، إلى جـانب العربيّـة، لغة الثقـافـة في بعض أقـاليم الامبراطوريّة.. لقد انفصلت الأقاليم الغربيّة فأصبح البربر سادة المغرب واستمرّت السيادة العربيّة على وادي النيل وسورية وما بين النهرين رغم بدايات استيلاء عناصر إيرانيّة وتركيّة على الأقاليم الشرقيّة ولم يطل الوقت حتّى صار الترك هم سادة الموقف.

الفصل الثامن

السلاجقة

● ظهور السلاجقة

حضور السلاجقة في العالم الإسلامي كان حدثاً رئيساً في تاريخ الشرق.. فكان الحلقة الأولى من سلسلة أحداث تتوّجت بالإستيلاء على القسطنطينيّة عام /١٤٥٣/.

في الشطر الثاني من القرن العاشر، لمّا استطاع «الصونغ» الصينيّون إجلاء قبائل «الخيتاي» نحو مونغولية تحوّل التحرّك القبلي ذاك إلى ما يشبه الموج المتدفّق حتّى جنوب بحر آرال ملتحماً مع الخرلك وأوخوز قبيلة «كينيك»، فاستقطبه زعيم متوسّط العمر تحيط به هالة من الأساطير وحديث العهد بالإسلام إسمه «سلجوق» وقد أعطى إسمه هذا إلى الّذين خضعوا لسلطانه وكذلك إلى ذرّيّته. وحتّى أصول السلالة المالكة السلجوقيّة الواردة في نُبَذ كتاب «ملك نامه» غلب عليها التأليف الأسطوري فقالت أنّ جدّ العائلة يدعى «دُقاق» ولقبه «تيمور يالك» (القوس الحديدي) وهي فرع من «الأوخوز» الغربيّين المستوطنين في الإقليم الخاضع لنفوذ الخزر قرب بحر آرال على الطريق الرئيسي التجاري الذي يربط خوارزم بالفولغا وقد سلكه الرحّالة «إبن فضلان» عام /٩٢٠/.

وزال دُقَاق فخلفه بكر العائلة سلجوق، ثمّ وعلى أثر مكائد

نصبتها له الأميرة زوجة مليكه «اليـابغو أوغوز» أصبحت حياته غير آمنة فاختار الإعتزال بعيداً مع فريق من أتباعه الخلّص وذلك في «الجنط» وهي مدينة صغيرة وسوق في ما وراء النهر على المجرى الأسفل لسيرداريا على تخـوم الدولة السمّنيّة.

وفي نفس الحقبة نشبت النزاعات بين السمّنيّة والكرخانيّين والغزنويّين فساعد ذلك على نموّ القوّة والنفوذ السلجوقيّين.. ويبدو أنّ سلجوق لم يدخل في الإسلام إلّا بعد أن تقدّمت به السنّ إذ يقال أنّه عاش أكثر من مئة عام؛ وخلفه بعد موته أولاده الأربعة: - إسرائيل - ميخائيل - يونس - موسى - ولو صدّقنا بعض الحكماء الذين يسندون وُجهة نظرهم على الصوّر والصّيغ التوراتيّة للأسماء لاستنتجنا أنّ العائلة كانت مسيحيّة نسطوريّة إن لم ترجح مقولة أخرى أنّ العائلة إيّاها تأثّرت باليهوديّـة ذات النفوذ في البـلاط الخزري؟

لدى موت سلجوق انشطرت العائلة إلى فرعين: فرع إسرائيل وفرع أبناء ميخائيل. فإسرائيل الذي عرفه المؤرخون المسلمون باسم «أرسلان» (الأسد) أقام في ما وراء النهر حيث لقي حظوة لدى السمّنيّة.. على أمل أن تجد فيه الدعامة لمقاومة الضغوط المتنامية من قبل الكرخانيّين ولكنّ الأمل خاب.

بعد سقوط السمّنيّة عام /١٠٢٥/ وضع السلجوقيّون أنفسهم في خدمة «علي تكن» الكرخاني الذي استولى على بخارى وسنرى أنّهم، بعد زمن، فرضوا أنفسهم على الغزنويّة.. وكان الإبن الثاني ميخائيل لا يزال فتى ولقبه «خير بك» فقتل في معركة ضدّ الترك غير المسلمين وخلّف ولدين «ضغرر بك محمد - وشاغري بك داود» وقد لعبا - كما سنرى - دوراً بالغ الأهميّة. - أمّا يونس فلم يصلنا شيء عنه وكذلك موسى بالمعلومات عنه نادرة جداً.. وكلّ ما نعرفه عنه أنّـه إستوطـن في سجستان زمناً وأنّ أولاده انضمّوا إلى ابن عمّهم طغرل بك وبعد أن هزم

محمود الغزنوي على تكن انتقل ارسلان بذويه إلى خراسان بموافقة محمود واضمّ ابنا أخيه طغرل بك محمد وشاغري بك داود إلى آخرين من الأوغوز المسلمين وتحصّنوا مؤقّتاً في خوارزم الغنيّة بالمراعي وذات الشتاء الأقلّ قسوة.

وداخلت العاهل الغزنوي وساوس تجاه سلاجقة خراسان لأنّهم أشاعوا الإضطراب في مناطق زراعتها جيّدة، وفي عام/١٠٢٩/ أجلاهم محمود من مواطنهم فلجأوا إلى أذربيجان ورأى أمراؤها توجيه عدوانيّة القادمين الجدد نحو الثغور الأرمنيّة البيزنطيّة.. ولدى موت محمود اغتنم السلاجقة فرصة منازعات الورثة فظهروا من جديد في غربيّ خراسان خصوصاً وأنّ مسعود منذ استلامه السلطة، وجّه كلّ إهتمامه إلى الهند والبويهيّين وليس إلى الأوغوز. وتحرّك سلاجقة خوارزم لاحتلال خراسان الوسطى بقوّة السيف ومنذئذٍ أصبح للسلاجقة زعيمان إثنان هما طغرل بك وشاغري بك وعُرف الزعيمان بولائهما لأمير المؤمنين وإظهار إلتزامهما المطلق بمذهب السنّة.

في عام /٤٢٦/١٠٣٥/ توتّرت العلاقات بين العاهل الغزنوي مسعود وبين السلاجقة الّذين أصبحوا يملكون قطعاناً كبيرة من الماشية تحتاج إلى مراعي تتّسع لها وتكفيها الكلأ.. ومن هنا كان طلبهم منطقة مرو، وقرّر مسعود وضع حدّ لتلك التطلّعات فبادر إلى التدخّل ولكنّ قوّاته عجزت عن التمكّن من فرسان الأوخوز وخيولهم السّريعة فاقدةً الأمل بغنائم ذات أهميّة كما أنّ معنويّات تلك القوّات صارت في الحضيض.. وتلك مقدّمات الهزيمة التي حصلت فعلاً واحتلّ السلاجقة مرو؛ وفي عام /١٠٣٨/ فتحت نيسابور أبوابها لطغرل بك لأنّ سكّانها لا يكنّون أيّ ولاء للغزنويّين، وهكذا دخلها دون قتال وذكر اسمه في الخطبة ولم يقف مسعود مكتوف اليدين فقام بحملة أخرجت السلاجقة من نيسابور. وفي رمضان /٤٣١/

أيار ١٠٤٠/ حاول العاهل الغزنوي استعادة مرو بواسطة جيش كبير مجهّز بعدد كبير من الفيلة المجلوبة من الهند ولكنّ محاولته فشلت إزاء الهجوم المضادّ الذي قام به فرسان السلاجقة بقيادة طغرل بك مباشرة فألحقوا بالغزنويّين عدّة هزائم في سهل «دندنا قان» شماليّ مرو فلم يجد مسعود سوى الهرب منجاة له وفي طريقه إلى غزنة وقع في أسر أنصار أخيه محمّد الذين قتلوه في العام الثاني /١٠٤١/٤٣٣/ وبنجاحهم الآنف الذكر أصبح السلاجقة أسياد خراسان كلّها وأصبحت الهضبة الإيرانيّة مفتوحة أمامهم فاستقرّ شاغري بك في مرو وضمّ إليه خراسان ثمّ خوارزم، وبعد موته عام /١٠٥٨/ تولّى السلطة إبنه ألب أرسلان وهو الذي كان يمارسها فعلاً من قبل .- واحد من أولاد طغرل بك، «كاوورد كارا أرسلان» اقتطع لنفسه إمارة مستقلّة في كرمان وذلك عام /١٠٤١/٤٣٣/ فكسره وهزمه إبن أخيه مالك شاه ومات عام /١٠٧٤/٤٦٦/ ولكنّ أسرته استمرّت حتى آخر القرن الثاني عشر ومنذئذٍ أصبح السلاجقة فرعين مفصول أحدهما عن الآخر: ـ فرع خراسان وفرع كرمان. ـ طغرل بك الذي استخصّ بالجزء الغربي من خراسان عاش حياة مشرقة سهلة بفضل الوفاق الذي ساد بين الأخوين.

● **سلطنة طغرل بك**

لقد كان سنّياً وأوّل مطمح له كان أن ينتزع من الغزنويّين دور الريادة في الجهاد والمنازلة من أجل السنّة ورسم لنفسه هدفاً: أن يتمركز في بغداد ويحمي الخلافة في مستقرّها، ولبلوغ الهدف إيّاه طوّق العراق وفرض سيطرته على الطرق المؤدّية إلى العاصمة العبّاسيّة وأرمينية وآسية الصغرى البيزنطيّة وعمل على إشاعة الإضطرابات في الأقاليم المحيطة بالعاصمة وهو يعلم أنّهم سيستنجدون به لإقرار الأمن ومنع النهب والظهور في بغداد بمظهر المنقذ؟!

في غربيّ إيران، ما من قوّة كانت تستطيع مجابهة السرايا التركمانيّة وبهذا الإتّجاه بالذات انطلق السلاجقة في تقدّمهم. ففي/١٠٤١/ خضعت لهم طبرستان جنوب شرق بحر قزوين ودفعت لهم غرامة. وفي عام /١٠٤٢/ اعترفت خوارزم بسلطتهم كما سبق وقلنا وفي نفس العام استولى «إبراهيم أنعال»، الأخ غير الشقيق لطغرل بك، على الريّ وأطلق قوّاته في عمليّة نهب منظّمة، وتدخّل طغرل لإعادة النظام؟ فكانت مسرحيّة محكمة الإخراج. بين عام /١٠٤٠/ و/١٠٤٤/ نهج طغرل نفس النهج السابق الذكر: - إبراهيم ينفّذ العمليّات الهجوميّة الأولى ويتدخّل هو بعدئذٍ.

عام /٤٣٥/١٠٤٣/، بعد أن احتلّ إبراهيم تخوم أذربيجان انطلق في حملة فتك بالسكّان في كردستان وعاث فيها فساداً وانطلق من هناك زاحفاً باتّجاه بغداد وتظاهر طغرل بالغضب وعدم الرضى عن أعمال أخيه طالباً إليه سلوك سبل أخرى لعمليّاته فامتثل هذا وانثنى باتّجاه أرضروم وتربيزوند (ترابزين - المرفأ على البحر الأسود) مهاجماً طريق الشمال الذي يربط إيران بأرمينية وآسية الصغرى وحقّق هناك نجاحات كبيرة والأمر الأساسي الذي أعطاه الأخوان الأهميّة الأولى هو تسهيل تدفّق قبائل الأوخوز نحو الغرب تحت ستار حرب الجهاد المقدّسة.-وهذا التوسّع الإستيطاني الأخير كان يتمّ برعاية وحماية القوّات المؤتمرة مباشرة بأمر القائد السلجوقي.. والمهامّ كانت موزّعة بإحكام:- قوىً تهاجم أرض العدو وتنهبها، وقوىً أخرى تستكمل فتحها وإقرار النظام فيها بعد الإستيلاء على أراضيها.. قوى تشيع الخوف والرعب والدمار، وقوى تظهر أنّها الحارسة للأمن والنظام يقبل بل يطلب وجودها سكّان هذا البلد أو ذاك!.. هكذا، وبين /١٠٤٠/ و/١٠٥٤/ خلقت عمليّات الغزو المتتالية على النحو الآنف الذكر أزمة إقتصاديّة خطيرة بعد النهب الفظيع للمناطق الزراعيّة حتّى داخل إيران حيث استمرّ وتسارع تقدم السلاجقة ففي عام /٤٤٢/١٠٥٠/ سقطت أصفهان بعد حصار

طويل واحتلّت همذان واستقرّ طغرل في الريّ حيث تلقّى من الخليفة ألقاب الشرف.

وتغلغل الترك في فارس وانحدروا حتّى السّواد وما إن بلغوا حدود العراق حتّى بادر الخليفة إلى ملاينتهم والتعامل الودّي معهم وبعث إليهم رسولاً القاضي المشهور الماوردي (٤٣٣/ ١٠٤٢) وكان جواب السلجوقي للخليفة أنّه طمأنه إلى ولائه التامّ له؛ ومنذئذٍ حاول الخليفة الذي لا يملك قوّات عسكريّة أن يخلع عنه نير الطاعة للبويهيّين الذين فرضوا أنفسهم أوصياء عليه وأغدق الخليفة «القائم» على طغرل الألقاب والإمتيازات وخلع عليه وأقرّه على فتوحاته وباختصار جعل منه السيّد المطاع وجعل آخر البويهيّين مقصوصي الأجنحة وبذلك، وبالتدريج، استعاد الخليفة سلطته على العراق الأمر الذي أقلق الشيعة وأغضبها.

وحصل حدث خطير عام /١٠٥٤/٤٤٦/ فقد ثار الجيش الموضوع بإمرة عبد تركي سابق رقي إلى رتبة قائد في عهد البويهيّين يدعى أرسلان البازاريري ودلّت الظواهر أنّ القاهرة كانت وراء العمليّة وهذا ما ثبت فعلاً بعدئذٍ إذ نجح الدعاة الفاطميّون في تنظيم تحالف ضمّ إلى قوّات البازاريري أمراء عرباً من العراق وما بين النهرين وأكثرهم من الشيعة المتضايقة من تعاظم النفوذ السلجوقي. وكان إقليم الموصل داخل دائرة نفوذ القائد المتمرّد وإزاء الخطر المحدق هذا أخذ الخليفة القائم برأي وزيره ابن المسلمة واستنجد بطغرل الّذي أعدّ في همذان زحفه على بغداد التي صبغت حوادث الشغب ساحاتها بالدماء وعمّها الإضطراب وسادتها أعمال النهب والسلب. وانتشرت دعاية نشطة نقلتها الأفواه إلى الآذان: ـ الوزير يقود حملة تأديبيّة ضدّ البازاريري.

وتولي آخرون نشر دعاية أخرى مفادها أنّ طغرل تعهّد بتأمين طريق الحجّ ومحاربة زعماء الهرطقة وناشري البدع والذهاب الى سورية وإلى مصر لإسقاط حكم الفاطميّين. ـ هذا برنامج وضعه

السلاجقة ولكن لوقت متأخّر فالعقبة الوحيدة التي كانت تهمّ طغرل بك كانت تتمثّل في قوّات البازاريري وان كانت أقلّ عدداً من القوّات السلجوقيّة ولم يكن يعطي أهميّة لعناصر الشيعة من سكّان بغداد لأنّ السلاح كان ينقصهم. وهكذا استطاع طغرل بك دخول بغداد بأبّهة وعظمة في /١٢/ رمضان ٤٤٦/ ١٥ كانون الأول ١٠٥٥/ ونجح المتمرّد في الهرب والالتجاء إلى «دُبَيس» أمير المزْيديّة في الحلّة.. - لقد استبدل الخليفة «حاميه» ودخل اسم طغرل بك في الخطبة وحرص هذا الأخير على إلزام قوّاته باحترام بغداد وأحلّهم في منازل منفردة خارجها في الضواحي. -وفي الادارة استبقي الرؤساء المحلّيين الّذين ساعدوه وأنشأ طابوراً خامساً حقيقياً تولّى أمور الضبط والربط بين الترك والإيرانيّين ولم يتردّد في إحاطة نفسه بمستشارين إيرانيّين يتكلّمون العربيّة التي يجهلها هو نفسه وهكذا زالت الهيمنة البويهيّة على الخلافة بعد أن دامت مئة عام فتحرّر الخليفة السنّي من سيطرة الشيعة.

وظهر القائد السلجوقي بمظهر المختلف عن سابقيه ازاء الخليفة إذ ظلّ يؤكّد له أنّه تحت كنفه وأفسح له مجال توسيع ممتلكاته لأن طغرل بك كان يريد فعلا تجديد وإحياء وتقوية المذهب السنّي ويتطلّع إلى مناجزة الفاطميّين القتال في عاصمتهم وهذا برنامج وضعه الغزنويّون قبله ولكنه لم ينفّذ فعلا إلاّ في القرن الثاني عشر على يد الزنكيّين. - والخليفة، من جانبه، شاء إعطاء الدليل على أنّه يحفظ لطغرل بك مكانته ويحفظ له جميله فلجأ إلى أسلوب الزواج السياسي المتعارف عليه في ذاك العصر وتزوّج من إبنة أخ السلجوقي الذي لم ينجب البنات وذلك لتوثيق روابط القربى معه عن هذا الطريق.. ومن بين الألقاب التي أغدقها عليه في مطلع عام /١٠٥٨/ «ملك أمراء المشرق والمغرب» وهو لقب تفويض بفتح البلدان التي لا تعترف بسلطة الخلافة العبّاسيّة وتكليف بمهمّة محاربة خلافة القاهرة الفاطميّة. كما تلقّى طغرل لقب «سلطان» وهو

اللّقب الّذي يتحدّد بالسلطة الدنيويّة العليا دون السلطة الدينيّة؛ علماً أنّ إغداق النعوت والألقاب أصبح عنوان ذاك العصر وما تلاه من عصور. وبالنسبة لطغرل بك خاصّة فقد قلّده الخليفة تفويضاً بالسلطات التامة المطلقة.

وكان على طغرل بك أن يواجه حركة استياء قامت في القوّات؛ فالقادة من حاشية طغرل ادّعوا أنّهم أُوذوا ونالهم ضيم وتفجرّت ثورة تركمانيّة قادها « إبراهيم بن إنعال» وساندها « قطلمش» أحد أبناء أرسلان في صعيد ما بين النهرين وفي إيران. وكشف طغرل بك مفاوضات كانت تجري بين ابراهيم والمتمرّد البازاريري وهزم هذا الأخير فهرب نحو كربلاء جنوباً ثمّ الرقّة شمالاً وطلب ملجأ لدى المستنصر في القاهرة ولكنّ الخليفة المذكور رفض استقباله مكتفياً بإمداده عن طريق شيعة حلب الأقوياء بالخيول والأسلحة والمال. (٥٠٠ ٠٠٠ دينار) تمكيناً له من استئناف المعركة وهذا ما فعله في إيران فبادر طغرل بك لاخماد حركته وما إن أخلى بغداد حتى عقبه البازاريري اليها واحتلّها يوم الجمعة /١٣/ ذو القعدة ٤٥٠/ الأول من كانون الثاني ١٠٥٩/ احتلّها بقوّة قوامها/٦٠٠/ فارساً وقامت الخطبة في بغداد باسم المستنصر بعد أسر خليفة بغداد ووزيره وقد عذّب هذا الأخير حتّى الموت. ولم تدم السيطرة الشيعيّة أكثر من عام لأن طغرل عاد إلى العراق بعد أسر إبراهيم بمعاونة أبناء شاغري واستعاد بغداد وأعاد السلطة فيها إلى الخليفة العبّاسي وقد تلقّى عوناً من ألب أرسلان. أما البازاريري فقد هرب باتّجاه الكوفة ولكنّ مطارديه أدركوه بعد شهر فاستأصلوا شأفته وقطعوا رأسه في الثامن من ذي الحجّة /٤٥١/ كانون الثاني ١٠٦٠/.

لقد تداعى أمراء ما بين النهرين العرب إلى إعلان خضوعهم لطغرل بك ومصالحته ومنهم دُبيس أمير المزيديّة وأمير الموصل قُريش العقيلي.. فتحسّن الوضع وعاد الهدوء. وبعد أن أنقذ السلطان الخليفة مرّة ثانية طلب يد واحدة من حفيداته فرفض الخليفة تزويج

التر ي البالغ من العمر سبعين عاماً أميرة عبّاسيّة. وغضب طغرل وقرّر مصادرة أملاك الخليفة في العراق وهذا إجراء كان كافياً لإخضاع الخليفة فتزوّج طغرل عام /١٠٦٢/٤٥٤/ ولكن الموت باغته بعد ذلك ببضعة أشهر فقط أي في /٨/ رمضان ٤٥٥/ ٤ أيلول ١٠٦٣/.-لقد مات طغرل دون وريث وكان ابن أخيه ألب أرسلان بالمرصاد لأن يخلفه ويأخذ مكانه ولكنّه لم يتداخل إطلاقاً في شؤون خلافة بغداد.

السلاجقة الكبار

● سلطنة ألب أرسلان

قلنا أن طغرل بك مات دون عقب فتسنّم العرش ابن أخيه ألب أرسلان (الأسد الأبيض) فملك تسع سنين من /١٠٦٣/٤٥٥/ إلى/١٠٧٢/٤٦٥/ أحبط خلالها عدّة مكائد ومؤامرات داخل القصر وقد بسط يديه على مجمل الأراضي السلجوقيّة أي ملك أبيه شاغري بك وعمّه طغرل بك وهي امبراطوريّة تمتدّ من ام داريا حتّى الفرات وقد أكسبته الشهرة مزاياه العسكريّة أثبتها خلال العمليّات التي قام بها على الثغور الغربيّة لممالكه. إضافة إلى توق فرسان الترك إلى استيطان هضبة الأناضول وهم الذين ظلّوا طوال عهد طغرل بك في حالة الركود والعزلة على الحدود الإيرانيّة وفي مناطق ما بين النهرين... لقد عرفوا الأناضول وتعلّقوا بها منذ الغارات السّريعة التي شنّوها من قواعدهم في أذربيجان وأعالي ما بين النهرين نحو الأودية العليا لنهر الآراكس ومنابع الفرات وملاطية الغربيّة، ففي عام /١٠٥٩/ احتلّوا مفترق طرق سيواس الهام وأصبح تقدّمهم نحو الغرب بطيئاً لأنّ البيزنطيّين تدبّروا أمرهم مع الفاطميّين سادة سورية آنذاك لقاء صفقة من الحبوب وفاوضوا السلاجقة على عقد صلح بينهم لقد أمر الأمبراطور ان يذكر إسم

طغرل بك بدل إسم الخليفة الفاطمي في خطبة يوم الجمعة بجامع القسطنطينيّة.

في عهد أسرة «كومنين» الامبراطورية هزّت الأمبراطوريّة البيزنطيّة أزمة داخليّة خطيرة (١٠٥٧ - ١٠٧١) فأضعفت قدرتها على الصمود للضغوط الخارجيّة فالأباطرة فقدوا مزايا القادة العسكريّين وغلبت عليهم البيروقراطيّة وساءت العلاقات بين الإدارة والجيش الذي فقد ضبّاطه الرغبة في العمل بعد أن صاروا ذوي اقطاعات وملاّكين كبارا وحتّى بنية الجيش البيزنطي تغيّرت فأصبحت في معظمها من الأجانب. من الترك بخاصّة الذين يبيعون خدماتهم سواء لليونانيّين أم للأمراء العرب من الشيعة (مروانيّين ديار بكر ومرداسيّين حلب).. وهكذا، في بعض المجابهات ولقاء الضدّين كانت لغتهما واحدة! وحتّى السكّان المستوطنون لآسية الصغرى لم يعودوا يشعرون أنّهم بيزنطيّين بل العكس صحيح: ما كانوا يظهرون أيّة كراهية لفرسان الترك بل كانوا يساعدونهم لا حبّا بهم بل كرهاً لليونان. وهذا ما سهّل للترك التوغّل في الأناضول وشنّ الغارات في العمق دون عقبات تذكر:- طلباً للغنائم وبدافع الحاجة إلى الكلأ والمراعي اجتاز التركمان تخوم «دار الاسلام» جماعات.. جماعات في ظلّ سلطة ألب أرسلان.. وتشكلّت عصابات متفاوتة التنظيم أصبحت تمارس ضغطاً مستديماً على الأمبراطوريّة البيزنطيّة إذ خرقت الخط الدفاعي المتكوّن من مراكز محصّنة متقاربة. ومنذ عام/ ١٠٥٧/ صارت حاميات الثغور ضعيفة إذا وُجدت الحاميات أصلاً؟ - وزاد الوضع سوءاً انتفاضات وثورات داخليّة حملت «اسحق كومنين» ثم «قسطنطين العاشر دوكاس» على إخلاء الحدود الشرقيّة وبخاصّة في أرمينية.

وفي عام /٤٥٦/١٠٦٤/ تغلغل السلاجقة في قلب جيورجية واستولى السلطان على «آني» العاصمة القديمة لأرمينية التي كان البيزنطيّون قد ضمّوها إلى امبراطوريّتهم ثمّ احتلّ «قرص»

الحصينة.. وسقطت أرمينية كلّها تحت سلطة المسلمين وبوصولهم إلى بحيرتي «وان وأورميا» صارت طريق هضبة الأناضول مفتوحة وفي عام /١٠٦٧/ وصل الترك الى «قيصريّة» في (كابادوس).

ومنذ العام الموما إليه بدأ ردّ الفعل البيزنطي: - قامت حركة انقلابيّة أوصلت إلى السلطة « رومان ديوجين» وهو جنرال لا تنقصه الهمّة وقوّة الفاعليّة، تزوّج من أرملة قسطنطين العاشر دوكاس فوجد نفسه على رأس الأمبراطوريّة وعزم على العمل المضادّ ففي عام /١٠٦٨/ اغتنم غياب ألب أرسلان على رأس حملة إلى شمال غرب إيران وهاجم شمال سورية فاستولت قوّاته على منبج شرقي حلب على الضفة اليمنى للفرات وفي العام الثاني توغّل البيزنطيّون داخل أرمينية في اقليم بحيرة أورميا في حين كان الترك ينهبون ملاطية ويصلون حتى قونية.

بين /١٠٦٥ - ١٠٦٩/ سوّى ألب أرسلان مشاكله العائليّة في المشرق فأعاد أخاه البكر كاوود إلى الصواب وأقطعه كرمان في إيران وقتل ابن عمّه قطلمش الذي نهج سياسة تخدم شخصه (وسنرى أولاده بعد زمن يلعبون دورهم في تاريخ آسية الوسطى حيث سيؤسّسون سلطنة«روم»السلجوقيّة). - والوزير القندري دارت حوله الشبهات فاستبدل بصنيعة لألب أرسلان يدعى نظام الملك الذي كاد للوزير المذكور وقتله ولم يكن ألب أرسلان يثق بجميع التركمان لأنّهم - كما سبق وقلنا - منهم من وظّف نفسه لخدمة الأمراء العرب ومنهم من كان يعمل لحسابه الخاص، مثل الإفشين الذي بلغ قيصريّة عام /٤٥٩/١٠٦٧/.. أو مثل «آتشيز» زعيم عصابة تركمان الياووكيّة الذي وضع نفسه في خدمة الفاطميّين عام /١٠٧١/.

وانتقل ألب أرسلان بعد ذلك إلى تأمين حياد رومان ديوجين فعقد معه هدنة أعطته ضمانات يحتاج إليها طوال عمليّاته العسكريّة في سورية ومصر لأنّه عزم على تجريد حملة كبرى ضد الخليفة

الفاطمي في القاهرة وهذا كان الهدف الكبير للسلجوقيّين الذي بدا الظرف ملائماً لتحقيقه: - سبع سنوات مجاعة أنهكت مصر والخليفة المستنصر مشغول داخل القاهرة بتنازع النفوذ بين قادة حرسه والإضطرابات في المدينة فالأرمني الداخل في الإسلام، حاكم عكّا السابق، بدر الجمالي، دخل مصر وأعاد الأمن إلى نصابه على ضفاف النيل فقلّده الخليفة لقب أمير الجيش.. الخ..

بدأ ألب أرسلان بهجوم على أرمينية لحماية مؤخّرته فنهب «آرجيش ومنازجرد» والتفّ حول بحيرة «وان» من الشمال منحدراً في وادي أعلى الفرات أو «مراد - سو» حتى وصل «أيديس» التي امتنعت عليه فتابع سيره متجاهلاً منبج المحتلّة من البيزنطيّين منذ عام/٤٦١/١٠٦٨/ ووصل إلى حلب ومن الأمير المرداسي الشيعي المُقطع من قبل الفاطميّين حصل على أن يُذكر في الخطبة إسم الخليفة العبّاسي الأمر الذي ترك ردود فعل لدى عناصر الشيعة من السكّان.

وفي حين كان ألب أرسلان في سورية عزم رومان ديوجين على استعادة آرجيش ومنازجرد. وفي جمادي الثانية /٤٦٣/ آذار /١٠٧١/ انطلق الامبراطور من القسطنطينيّة متوجّهاً نحو أعالي الفرات فاستنجد الأرمن بالسلطان الذي تخلّى، مؤقتاً، عن هدفه في قتال الفاطميّين وعاد فوراً إلى الشمال قاطعاً الجزيرة حيث ضمّ إلى جيشه قوى أخرى كرديّة وتركمانيّة. وفي ذي القعدة /٤٦٣/ آب /١٠٧١/ خاض الترك لأوّل مرّة معركة ضدّ جيش بيزنطي قوي بجوار منازجرد المحصّنة وطبّقوا أسلوب فنّ القتال المعتاد لدى البدو: - لكرّ والفرّ.. التظاهر بالفرار من الوسط وحرب الكمائن على الجناحين الذين يُرتج عليهما فدبّت الفوضى في جيش بيزنطية وتداعى إلى الهزيمة فانضمّ الترك المرتزقة فيه إلى صفوف السلاجقة وجرح رومان ديوجين ثمّ وقع أسيراً.. ومع تناقض واختلاف الشواهد حول المعركة إيّاها، هناك حقيقة تبقى ثابتة: -

لقد منيت الامبراطوريّة البيزنطيّة، ذاك اليوم، ببلاء رهيب هو دفع فدية مقدارها/١٥٠٠٠٠٠/ قطعة ذهبيّة، وغرامة سنوية مقدارها /٣٦٠٠٠٠/ دينار، ومعاهدة تحالف، وإعادة المراكز المحصّنة التي استولى عليها البيزنطيّون من العرب خلال نصف القرن السابق.

وأطلق السلطان سراح رومان ديوجين خشية أن يأتي غيره فيتولّى السلطة وينكل بالإتّفاق ولكن ديوجين المُعتق وصل متأخّراً إلى عاصمته إذ وجد أنّ مجلس الشيوخ قد قرّر خلعه وتوّج مكانه «ميشيل السابع دوكاس» زوج أخت الأمبراطورة.

لقد حقّق ألب أرسلان في منازجرد نصراً إسلامياً ذا نتائج بعيدة جدّاً ليس فقط بالنسبة للشرق الأدنى وإنّما ايضاً، بالنسبة لتاريخ العالم فآسية الصغرى أصبحت مفتوحة لغارات عصابات التركمان التي راحت تزرع رايات الإسلام في كلّ مكان حتّى بحر إيجيه وضمّوا إلى سلطتهم السياسيّة والدينيّة وسط شبه الجزيرة وشرقيّها ففقد البيزنطيّون ومعهم المسيحيّة آسية الوسطى إلى الأبد.. صحيح أنّ جيوباً بيزنطيّة ظلّت موجودة حتّى أرمينية ولكنّها معزولة تعمل لحسابها بالاتفاق مع زعمائها مثلها مثل العصابات التركيّة المستقلّة المنتشرة في بعض المناطق إيّاها.. وسادت حياة الجانبين الحروب حيناً وفترات الوفاق أحياناً.

عام /٤٦٣/١٠٧١/ هو بداية «تتريك» آسية الصغرى. التاريخ الذي فيه أرسيت أسس الأمبراطوريّة العثمانيّة المقبلة.

رغم ذلك النجاح الساحق لم يفكّر ألب أرسلان إطلاقاً بفتح أناضولية فهو يريد الوحدة السياسيّة للعالم الإسلامي ويقدّر، مثل غيره من رجالات ذاك العصر، أنّ الأمبراطوريّة المسيحيّة والأمبراطوريّة الإسلاميّة مؤسّستان مدعوّتان إلى المشاركة الأبديّة في الوجود.. ورغم أنّ الإتفاقات المعقودة بين ألب أرسلان ورومان ديوجين أصبحت باطلة منذ تسنّم ميشيل العرش فقد استمرّ السلطان

يتمنّى حياد بيزنطية أو تحالفها معه وليس هدمها، وعلى أيّ حال لقد تمّ فتح أناضولية على أيدي الترك دون سابق تصوّر. ففي النزاع الذي نشب بين ميشيل دوغاس ورومان ديوجين كان كلّ منهما يدعَم قوّاته بـالمرتـزقة التـرك الأمر الـذي زاد من تعاظم نفـوذ الترك وتغلغلهم..

في /١٠٧٢/٤٦٤/ حدث في آسية الوسطى ما استدعي تدخّل ألب أرسلان: لقد انطلق على رأس حملة ضدّ الكرخانيّين في ما وراء النهر وعلى أثر مبارزة مع ضابط أسير مجهول الأصل جرح جرحاً مميتاً ومات قاهر امبراطور بيزنطية في ربيع الأوّل ٤٦٥/ كانون الثاني ١٠٧٣/ بعد أن عيّن خلفاً له ابنه «ملك شاه» البالغ من العمـر /١٧/ عاما واستمرّت الحملة وعنـدمـا اقتـرب الجيش السلجوقي من سمرقند رضي شمس الملك الكرخاني المتمرّد أن يكون تابعاً مواليّاً لملك شاه وانسحب من موقفه السابق.

● سلطنة ملك شاه

في مطلع عام /١٠٧٣/ انتقلت السلطة إلى إبن ألب أرسلان «ملك شاه» الفتى ابن السابعة عشرة الذي وُضع، باديء ذي بدء، تحت وصاية «نظام الملك» وزير عمّه وأبيه والإسم الذي عرف به الأمير الشاب عشرين عاماً كان هذا المركّب من العبارة العربيّة «ملك» واللقب الفارسي «شاه» ومن خلال معرفتنا لدور الأسماء والألقاب لدى المسلمين (يقول «كلود جوليان») أنّ العبارة تترجم إلى برنامج عمل هدفه توحيد الإسلام الذي بدأ الترك يندمجون فيه.

العاهلان السلجوقيّان، الأوّل والثاني، الكبيران تمّيـزا أنّهما فـاتحان وعسكـريّـان أمّـا خلفهمـا فمهمّتـه كـانت تنـظيم إدارة الأمبراطوريّة.. ولدى الحاجة إلى توسيعها كان يلجأ إلى العمليّات العسكريّة وإلى الوسائل الدبلوماسيّة أيضاً؛ وهو، وإن كان لم يولد

مثلهما في السهوب، فقد كانت له بعض سماتهما المشتركة ونعني هنا عدم الخبرة في توجيه الشؤون الحكوميّة ولذلك أوكل إلى الكوادر القديمة تنظيم الجهاز الإداري والمالي لأمبراطوريّته الواسعة وعدد كبير من الموظّفين أصبحوا عاطلين عن العمل منذ تفكّكت وانحلّت الدولة الغزنويّة والبويهيّة ثمّ استدعاؤهم للعمل في المصالح السلجوقيّة. . فبرزت وهيمنت شخصيّة صارت مرموقة آنذاك هي «أبو علي الحسن الطوسي الملقّب بنظام الملك» المولود في ضواحي «طوس» عام /١٠١٩/٤١٠/ من إحدى عائلات الريف الارستقراطيّة الصغيرة الخراسانيّة. وكان شافعيّ المذهب ظهرت مؤهّلاته بادىء ذي بدء عندما وضع نفسه في خدمة الغزنويّين ثمّ في إدارة شاغري بك ثمّ صار وزيراً لألب أرسلان فتولّى شؤون المال وبعد أن تولّى ملك شاه احتفظ الرجل غير التركي بمنصبه بعد أن نال تفويضاً فيه من العاهل الفتى وكان عنده بمنزلة الأب وهذا معنى لقبه «آتابك». فبدعم من البطاركة وأعيان المدن وملّاك الأراضي في الريف ظلّ الطوسي طوال /٢٩/ عاماً المتولّي الحقيقي على السلطة في الأمبراطوريّة السلجوقيّة ومطمحه الأوّل كان مَدْينة وتحضير دولة أصولها بدويّةمستوحياً ما سبق من نظم إداريّة وبخاصّة النظم السمّينة والغزنويّة وحتّى الساسانيّة. . وفي إصلاحاته تلك سار نظام الملك على خطوات سلفه الحنفي عميد الملك القندري وزير طغرل بك وهو المؤسّس الحقيقي للنظام الإداري السلجوقي. وكان نظام الملك يكرهه الى درجة الكيد له أيام ألب أرسلان والتوصل إلى تصفيته وغسل الأدمغة حتّى من ذكراه.

وتنفيذاً لرغبة السلطان ملك شاه دوّن نظام الملك آراءه السياسيّة لدولة إيرانيّة مسلمة في غسق عمرها (١٠٩١/٤٨٤) وذلك في كتاب عنوانه «سياسة نامه» (بحث حكومة) والمثال كان محمود الغزنوي والكتاب مكوّن من /٥٢/ فصلا ضمّنها المؤلّف آراءه ونصائحه السياسيّة المحلّاة بالقصص والحوادث والنوادر التاريخيّة.

ولم يسلم نظام الملك من مكائد القصر في جناح الحريم بسبب حقد الأميرة الكرخانيّة «تاركان خاتون» فاتّهموه أنّه آثر أولاده الإثني عشر بالمناصب الهامّة وأنّه صار ذا ثراء كبير وأنّه المهيمن على ملك شاه إلى آخر ما هنالك من حجج أدّت إلى إقصائه وتجريده من جميع سلطاته ومات في رمضان /٤٨٥/ تشرين الأوّل /١٠٩٢/ ويروى أنّه مات مقتولا على يد أحد «الفدائيّين» الّذين أخذوا عليه تزمّته المذهبي السنّي ولكنّ القتل إيّاه أوصى به أعداء سياسيّون. ولكنّ ذكرى هذا الوزير ظلّت خالدة عبر الأجيال في بلاد الإسلام لأنّه صاحب فكرة «المدرسة» ومؤسّسها الأوّل فقد بدأت واحدة وخاصّة ثمّ تعمّمت وصار الدارسون فيها يشكّلون كوادر الإدارة.. إنّها «المدرسة النظاميّة» التي أنشأها في بغداد وأصبحت النموذج للمؤسّسات الجامعيّة التي تعدّدت وانتشرت في الشطر الغربي من آسية من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر.

في الجزيرة، وسورية، حقّق السلجوقيّون توسّعاً ملحوظاً في أيام ملك شاه إذ استولى «ابن جُهير» وزير الخليفة في بغداد على إمارة ديار بكر العربيّة المروانية وذلك بتفويض من السلطان الذي كسب حليفاً مأموناً بموقفه ذاك من جهة، ومن جهة أخرى استأنف ملك شاه تشجيع الإستيطان التركي في الهضبة الأناضوليّة وراء ديار بكر فبعد موقعة منازجرد وموت رومان ديوجين ظلّت قوّات بيزنطية دون ضابط تماماً مثل التركمان الذين ظلّوا خارج حدود السلطة الرسميّة السلجوقيّة فدخل الملك البيزنطي ميشيل السابع في مباحثات مع السلطان هدفها توضيح الحالة ومحاولة وضع حدّ لمنازعات المرتزقة وكان ذلك منطلقاً جديداً ملحوظاً في سياستهما كما قال «كلود كاهن»؛ فالسلطان لم يكن راغباً أن يترك الحبل على الغارب لأناس يعملون داخل أرض أجنبيّة خارج مدار سلطته ورقابته.. والحلّ كان التعاون لإخماد منازعات جميع الزعماء الترك والبيزنطيين والنورمنديّين (الموجة البشرية القادمة من الشمال

السكنديناڤي) ، بعد أن بلغت أوج خطرها كما حدث عام /١٠٧٣/ بعدم سقط اسحق كومنين أسيراً في أيدي الترك غربي أنقرة نتيجة خيانة «روسيل دي بايّول» من زعماء النورمند المذكورين. . ويوم استنجد ميشيل السابع بالزعيم التركي «آرتوك» الذي سيبرز في المستقبل على مسرح الأحداث. . وبعد أن انفتحت للترك أبواب المدن التي استعصت عليهم من قبل فيونان آسية صاروا يتلمّسون انحسارهم السريع نحو الشواطىء وقد عجلّت فيه منازعات البيزنطيين والنورمنديّين .فخدموا بذلك استيطان السلجوقيّين على شواطىء بحر ايجيه. تلك فاتحة ملك جديد في تاريخ الإسلام وسيكون المهد للدولة العثمانية.

وطرقت الأسماع أخبار أنباء قطلمش الأربعة مؤسّسي سلالة «روم» السلجوقيّة المالكة. . هؤلاء القادة الأتراك الأربعة ساعدوا فاطميّي القاهرة في سورية ضدّ «عزيز» فألقى القبض على إثنين منهم وبعث بهما إلى ملك شاه ووجّه السلطان السُلجوقي إلى آسية الصغرى واحداً من قوّاده «بُرسُق» ضد الأخوين الناجيين فقتل أحدهما (منصور) وأفلت منه الآخر (سليمان) الذي كلّفه السلطان، بعد زمن، بالإرتحال إلى أناضولية وهناك استعان به الأمبراطور ميشيل السابع ضد النورمندي «روسيل دي بايّول» وقد حاول الإقتداء بمواطنيه الذين فتحوا اليونان الكبرى (صقلّية وجنوب إيطالية) فحاول أن يستوطن في آسية الصغرى.

أعطى ملك شاه موافقته على تدخّل نائبه وأبرم سليمان بن قطلمش إتفاقية مع البيزنطيّين تسمح له بالإحتفاظ بالأقاليم التي احتلّها واستقدام جيش سلجوقي قوي إلى «قبادس» عام /٤٦٦/١٠٧٤/.

واغتنم سليمان ذهاب بعض ملاّكي الأراضي فأعتق من الرقّ جمهرة من العبيد الأمر الذي أكسبه عطف السكّان وودّهم. . وفي

عام /١٠٧٧/٤٧٠/ فتح القائد السلجوقي « قونية» وفي العام الثاني بلغ الجنود المسترزقون الأتراك شواطىء بحر مرمرة وأنشأوا حامية «إزنيق».

كانت الحرب الأهليَّة في بيزنطية قد بلغت أوجها ولعب سليمان لعبته عبر منافسات الأقران: - ميشيل السابع - نيسيفور بوتانيان صاحب آسية الصغرى - نيسيفور ميليسين المتمرِّد في آسية الصغرى - نيسيفور بريَّان حاكم دورازو - كان يضع نفسه في خدمة هذا حيناً وذاك حيناً آخر حتَّى توصَّل ليس فقط لتثبيت مركزه بل لإعلان استقلاله عن البيزنطيِّين وسارع إلى حدود سورية لمناجزة القتال القائد فيلاريت الأرمني الأصل والموالي لرومان ديوجين والذي يقود قوَّات بيزنطيَّة باقية في طوروس مدعومة من السكَّان المسيحيِّين ضدّ الترك (العدوّ المشترك)؛ وليس هذا فحسب بل إنَّ هذا القائد البيزنطي السابق الذي سيطر عام /١٠٧٨/ على طوروس وسيليسية (اقليم أدنة) وأقاليم انطاكية وملاطية، أقام له علاقات جيِّدة مع الأمير العقيلي العربي مسلم بنَ قريش الذي إنتزع حلَب من المرداسيِّين عام /١٠٧٩/٤٧٢/.

في عام /١٠٨١/٤٧٣/ خُلع الأمبراطور نيسيفور الثالث على يد الكسيس كومنين (وكان المخلوع أعطى فيلاريت صلاحيَّات مطلقة) ونشبت في انطاكية نزاعات عنيفة بين أنصار وأخصام فيلاريت الأمر الذِّي أعطى الفرصة لسليمان كي يعلن استقلاله عن البيزنطيين ويؤسِّس سلطنة «روم» السلجوقيَّة فانطلق من «نيسيه» زاحفاً على قونيَّة وفي عام /١٨٠٤/ استولى على سيليسية وهناك تبلَّغ استنجاد انطاكية الذي جعله يعود إلى حدود سورية.

كان الحزب المعادي لفيلاريت يتَّهم القائد بالضعف تجاه الحلبيِّين وظهر أنَّ الأمبراطور الجديد اتَّفق مع سليمان وكلَّفه بانتزاع انطاكية من فيلاريت الذي بدا أنه يدفع غرامة لمسلم بن قريش.

وفي عام /٤٤٧/١٠٨٤ ـ ١٠٨٥/ دخل سليمان انطاكية دون حرب واستولى عليها وأصبح، منذئذ، يسيطر على الطريق الذي يربط سورية الشماليَّة ببحر مرمرة وقد لقي لدى الأمبراطور قبولاً حسناً جعله يتظاهر، ردحاً من الزمن، أنّه «قائمقام بيزنطي».

والسؤال هو: ـ ما هي سياسة الكسيس كومنين إزاء أتراك آسية الصغرى وكذلك سياسة ملك شاه تجاههم؟. ـ كانت رغبة السلطان تتمثَّل في الهيمنة على الترك وتفادي المنافسات بينهم أو تورطهم في إعلان استقلالهم عنه في حين أنَّ الامبراطور، إنطلاقاً من سياسته المعادية للعرب، عمل على احتواء أتراك الأناضول ودعم تمركزهم في المناطق المتاخمة لسورية.. فإسلام الاتراك كان يبدو له هامشيّــاً فهم بنظره بدو غزاة لا تهمّهم العلوم وشؤون اللاَّهوت وسرعان ما تكشَّف غرور البيزنطيِّين وخيبة أملهم: ـ بعد أقلّ من قرن شهدوا الإسلام السنّي يستيقظ مع اندفاعات أمراء الترك الذين تحوَّلوا إلى بناة جوامع ومدارس.

أصبـح السلجوقي سليمـان جـاراً لحلب فـدخـل في إنشـاء علاقات مع الأمير العُقيلي مسلم بن قريش الذي عرض عليه الغرامة التي يدفعها له البيزنطيّون على اعتبار أنَّ سليمان يحكم بإسم الأمبـراطـور ولحسـابـه.. فـرفض العـرض ونشبت الحـرب بين الزعيمين؛ وفي صفر ٤٧٨/ حزيران ١٠٨٥/، وفي معركة قرب انطاكية، قتل مسلم بعد خيانة جانب من قوَّاته وغدرهم به وبه زال وجه آخر من كبار الزعماء العرب في سورية.

شرف الدولة مسلم بن قريش أمير من العائلة العقيلية العربيَّة الكبيرة التي ظهرت ولعبت في القرنين العاشر والحادي عشر دورا هامًّا في شمال سورية والجزيرة العليا حيث اقتطعت لنفسها إمارة امتدّت من كردستان إلى الرقّة. ففي عام /٤٧٠/١٠٧٧/ تطلّع مسلم ـ وهو صهر لملك شاه ـ إلى انتزاع حلب من الأمير سابق

المرداسي وطلب عون السلجوقيين في هذه العمليّة إلّا أنّ ملك شاه الذي نصّب أخاه «طقش» والياً على آسية الوسطى قرّر أن يعطي سورية إقطاعاً لأخيه الآخر «طوطش» شرط أن يتولّى فتحها فانضمّ طوطش إلى الأمير العقيلي وحاصرا حلب عام /٤٧١/١٠٧٨/ ولمّا علم مسلم أنّ اللّعبة كلّها لصالح السلجوقيّين انفصل عن طوطش وقوّاته الضعيفة العاجزة عن فتح المدينة فلم يبق له سوى رفع الحصار بعد يأس من أن يستسلم أهل حلب طوعاً وهم الحذرون من الترك.. وحال إنصراف طوطش تمّت صفقة مقايضة بين الأمير سابق ومسلم الذي أخذ حلب مقابل مدن أقلّ أهميّة وفتحت له أبواب المدينة عام /٤٧٢/ ١٠٧٩/ واعترف ملك شاه بالأمر الواقع وقلّد مسلم الإمارة على حلب وكان يخاف أصلاً أن تتعاظم قوّة أخيه أكثر من المطلوب باستيلائه على عاصمة الشمال.. وهكذا قامت إمارة عربيّة عقيليّة تمتدّ من الموصل حتّى حلب أي تضمّ أراضي إمارتي آل حمدان السابقتين. . ما طوطش فقد انصرف نحو دمشق التي، منذ /٤٦٧/١٠٧٥/ اعترفت بالسلطة السلجوقيّة على يد الأمير عزيز.

● **من كان «عزيز»؟**

«عزيز بن تواق» أمير تركماني حارب في الأناضول أيّام ألب أرسلان وإبّان محاولة بدر الجمالي إخضاع قبائل البدو التي غزت فلسطين ونهبتها وهي إقليم فاطمي استنجد بدر بالتركمان فلبّى عزيز النداء على رأس عصابته وكان متهيّئاً لذلك وهو الخارج حديثاً من حرب منازجرد وسرعان ما أخضع القبائل المذكورة وأعادها إلى الصواب لحساب الخليفة الفاطمي المستنصر. . وبحجّة أنّه لم يكافأ تماماً استولى على البلد لحسابه وأنشأ في القدس إمارة تركمانيّة دون أن يشكّل ذلك احتلالاً سلجوقياً لفلسطين.. وكان بدر الجمالي يبحث عن حلفاء له ضدّ عزيز ووجدهم في الأبناء الأربعة لقطلمش

الموجودين في المنطقة الوسطى من حوض الفرات عند حدود سورية .- وفي عام /٤٦٧/١٠٧٥/ نشبت الحرب بين هؤلاء وبين عزيز فأسر إثنين منهم وأرسلهم إلى ملك شاه برهاناً على تبعيّته له في حين استطاع الآخران منصور وسليمان النجاة هرباً .-. كان عزيز بحاجة لتدعيم مركزه فأوعز بذكر إسم ملك شاه في الخطبة الأمر الذي أغاظ الفاطميّين وحاولوا القيام برد فعل سريع لكنَّ عزيز صمد لهم بعد وصول إمدادات ملك شاه إليه واستعانته بالمماليك الأتراك المتمردين على الفاطميّين فتمكّن من الإستقرار بدمشق التي لم تكن هي بالذات مقصده بل مراعي المرج القريبة منها. . وقد شجّعته نجاحاته على التفكير بمهاجمة القاهرة عام /٤٦٩/١٠٧٧/ ولكنّه هزم وصار عليه أن يواجه ثورة ضدّه داخل فلسطين قام بها الموالون لمصر فقمعها بوحشيّة عام /٤٧٠/١٠٧٨/.

كان عزيز يخاف هجوماً معاكساً من الجيش المصري فاستنجد بملك شاه الذي أقطع سورية أخاه ططش كما سبق وذكرنا ذلك واستقبل عزيز أخا ملك شاه بحفاوة مؤمِّلاً ان يبقى صاحب البلاد كنائب للسُّلطان ولكنَّ ططش صفّاه قتلاً وبذلك بتر المحاولة الأولى لإقامة إمارة تركمانيَّة على الحدود الغربية من الامبراطوريَّة السلجوقية.

عام /٤٧١/١٠٧٩/ أصبح ططش سيِّد قطّاع يضمّ إضافة إلى دمشق سورية الوسطى وفلسطين وأمدّه أخوه بالأمير أرتوق قاهر القرامطة في البحرين (٤٦٩/١٠٧٧) وكانت لهذا الأخير مهمّة سرّية أخرى هي مراقبة ططش وقد استطاع أن يؤسّس سلالة أرتوقيّة حكمت فلسطين.

عام /٤٧٩/١٠٨٥، بعد مقتل أمير حلب أصبحت مهدّدة بالسقوط في يديّ «سليمان بن قطلمش» صاحب «روم» الموجود في انطاكية فاستنجد سكّان حلب بططش الذي بادر إليها ومعه أرتوق

فالتقى الجيشان خارج المدينة وكانت معركة قتل فيها سليمان فأصبح ططش سيِّد سورية كلِّها الأمر الذي أثار مخاوف ملك شاه من طموحات أخيه الأصغر فاحتجّ بدعوة سكان حلب له وحضر إليها بشخصه.. وسكان سورية الشماليّة الذين انهكتهم الإضرابات والفوضى أصبح لا سبيل لهم سوى تسليم أمورهم إلى السلطان فاستلم ملك شاه حلب من الأمير العقيلي لقاء إقطاعه قلعة جعبر وما جاورها على الفرات.. كما بسط السلطان يده عام /١٠٨٥/ على تركة سليمان ومسلم وفيلاريت وإبّان إقامته في حلب اقلقت مضجعه

أحداث إقليمين شرقيِّين: ـ أذربيجان قاعدة ترك آسية الصغرى.. وعرّان حيث تمرّد تابعه الكردي فأعاد النظر بتوزيع ممتلكات السلطنة الغربيّة فاحتفظ ططش بدمشق وفلسطين وظلّ أرتوق حاكماً حتّى موته عام /١٠٩١/ فخلفه ابنه سقمان.. وولّى على حلب الأمير «آق ـ سنقور» جدّ الزنكيِّين وكانت «الرهى» من نصيب الأمير «بوظان» مع قيادة التُخوم الغربيَّة والإشراف على شؤون الوجه المتقدّم من آسية وعادت انطاكية إلى الأمير ياغي بازان (أو سيوان في بعض الروايات) ولم ينسَ ملك شاه هدف أبيه محاربة الفاطميِّين في عقر دارهم ولكنَّ الموت عاجله قِبل تحقيق الهدف الذي لم يستطع تحقيقه أيٌّ سلجوقيٌّ بعده.

وكان على الامبراطور والسلطان أن يواجها معاً إضطراباً حصل على مقربة من بحر إيجيه وأدركا معاً أنَّ في تحالفهما عودة الهدوء فـ «ألكسيس كومنين» هزم «أبو القاسم» ورجاله القادمين بسفنهم بعمليَّة قرصنة في بحر إيجيه وملك شاه، الحريص على احتواء زعماء الترك جميعاً خشية أن ينهض أحد منهم لمنافسته، أرسل الأمير بُرسق إلى الإقليم البحريِّ المذكور.. فاعتبر الكسيس هذا الضابط أشدّ خطراً من رئيس العصابة وأوقف تجاوبَه مع عرض التحالف ولجأ إلى مواربة الموفد بدعوته إلى القسطنطينيّة وكان ملك شاه منهمكاً بالأوضاع الداخليَّة فوجَّه الأمير بوظان ضدّ «أبو القاسم» في عام

/١٠٩٢/ مع عرض تحالف جديد يُعيد بموجبه إلى الكسيس كومنين أراضي انتزعها سليمان في آسية الصغرى وإمداد الأمبراطور بقوّات تكفي لتمكينه من السيطرة على العصابات التركمانيّة.. وأثناء المفاوضات جاء نبأ موت ملك شاه والأمبراطوريّة السلجوقيّة تمتدّ من «ام داريا» إلى نهر العاصي والجانب الأكبر من الخليج ومكّة والمدينة وكانت هضبة الأناضول خاضعة لزعماء التركمان خارج سلطة السلجوقيّين ويلاحظ «كلود كوهين» أنه، لولا الحملات الصليبية، لبلغ التوسّع التركي داخل الامبراطوريّة البيزنطيّة النتائج التي بلغها في وقت أقصر أي قبل قرنين على الأقلّ.

● **الوضع في المشرق لدى موت ملك شاه /٤٨٥/١٠٩٢/**

منذ زمن سبق موت ملك شاه أقلقت البلاط بالمكائد والدسائس زوجته الثالثة وهي أميرة من سمرقند تدعى «تاركان خاتون» وقد ولدت ابنها محمود عام /١٠٨٧/ وعملت على تعيينه وريثاً في حين كان الوزير نظام الملك يؤثر عليه ولداً آخر لملك شاه في الثالثة عشرة من عمره (سنّ الرشد) يدعى «برق ياروق» وهو بكر الأولاد الباقين على قيد الحياة من زبيدة خان وهي زوجة أخرى للسلطان.

ونجحت تاركان بطرد نظام الملك من منصب الوزارة واستبداله بتاج الملك بموافقة ملك شاه الذي كانت تهيمن عليه.. والمعضلة الرسميّة تمثّلت في كيفيّة تقليد أولاده مناصب تتناسب مع الألقاب التي سبق ونالوها وكان عددهم /١٢/ ولداً؟. ولما مات ملك شاه في شوال /٤٨٥/ تشرين الثاني ١٠٩٢/ كتمت تاركان خبر الوفاة بقصد تأمين الإعتراف بولدها محمود الذي لم يكن قد بلغ الخامسة.. يساندها في ذلك تاج الملك الوزير الجديد؛ فرشت الأمراء وبدأت مساعيها لدى الخليفة المقتدي الذي «يملك» منذ /١٠٧٥/ فامتنع بادىء ذي بدء عن تقليد أمير في هذا السنّ ثمّ انصاع ودخل إسم محمود في الخطبة وبعد عامين مات المقتدي.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّها المرّة الأولى التي فيها، يتدخّل الخليفة في وراثة سلجوقيّة كانت العادة أن يسوّى موضوعها داخل العائلة. . تلك السابقة مكّنته من أن يقوم بدور الحكم في تلك النزاعات العائليّة وقد نشبت سلسلة نزاعات مزّقت العائلة السلجوقيية وكثر فيها عدد المرشّحين لوراثة ملك شاه:-أخوته الثلاثة.«أرسـلان آرقـون» الذي استولى على خراسان وإقليم بلخ وقتله أحد عبيده عام /٤٩٠/١٠٩٦/- و«طوقش» الحاكم في ما وراء النهر وطوطش المالك في سورية (٤٧١ ـ ٤٨٨/١٠٧٩ ـ ١٠٩٥).- أبناء السلطان الأربعة:-برق ياروق ومحمد بن ملك شاه وسنجر بن ملك شاه المولود في رجب /٤٧٧/ أو٤٧٩/ تشرين الثاني /١٠٨٤/ أو ١٠٨٦/. ومحمود الآنف الذكر الذي يعيش في بغداد فالثلاثة الآخرون كانوا أطفالاً لدى موت أبيهم إلا أنّ كلاّ من أولاد ملك شاه أصبح بدوره سلطاناً.

حالما أُعلن إسم إبنها في الخطبة لم تعد «تاركان» تحسب حساباً لأسلافها (أخوة زوجها المتوفي) فركّزت مكائدها ضدّ برق ياروق الذي كان يعيش في أصفهان مع أمّه زبيدة. وحال إعلان إسم محمود في الخطبة نشبت ثورة قام بها أنصار نظام الملك خصم تاج الملك فنقلوا برق ياروق من أصفهان إلى الريّ وأعلنوا الفتى سلطاناً ودخل إسمه الخطبة وقد وقف حكّام المدن الكبرى على الحياد حتّى ينجلي الموقف.

في ذي الحجّة /٤٨٥/ كانون الثاني ١٠٩٣/ كانت الأميرة تاركان في طريقها إلى أصفهان لحضور مـراسم دفن ملك شاه ففاجأت القافلة قوّات الفدائيّين أنصار برق ياروق وتخلّى عنها عدد من الأمراء أو غيّروا معسكرهم ونجحت تاركـان بالـوصول إلى أصفهان كلاجئة وهناك ضرب الحصار عليها مع ابنها محمود وبدأت العروض الماليّة تلعب دورها وقبل برق ياروق المفاوضات التي انتهت بالسماح لتاركان وولدها بالإقامة في أصفهان لقاء تعهّدهما

بالإعتراف به سلطاناً. - وبدأت حرب أهليّة حقيقيّة رافقتها أزمات خطيرة سببها أطماع هذا أو ذاك من الزعماء بإنشاء سلالات مالكة أو بالإستقلال. . والزعماء إيّاهم كانوا، غالباً، من «الآتابك» أي «الآباء للأمراء» السلجوقيّين الفتيان (آتا (أب) وبك (أمير)) وما عتمت أن صارت العبارة لقباً مألوفاً ترافق تاريخيّاً مع ظهور السلاجقة وأوّل من لقّب به كان الوزير نظام الملك ثمّ حمله القادة العسكريّون الموكول إليهم تربية الأمراء الفتيان من مختلف فروع العائلة السلجوقيّة.

بعد موت ملك شاه كثر عدد «الآتابك» وصار دورهم أكثر أهميَّة ليس فقط في فرض أنفسهم «قهارمة» (وكلاء مديرو أعمال) إقطاعات الأمير الطفل والتدخل في منافسات أدعياء الحقّ بالسلطنة. . وإنَّما أيضاً، في الطمع بأن يقيموا أنفسهم أوصياء، خصوصاً وأنّه، من حيث المبدأ، الآتابك يمثّل السلطة المركزيَّة لدى اجتباء كلّ أو بعض الدخول. . كلّ فتى سلجوقي كان له آتابك وإذا تعدّد الأولاد كان الآتابك على عددهم. ومنذ برق ياروق أصبح الآتابك عسكريًّا من القادة ذوي الشهرة ويلعب، تماماً، دور الأب فيتزوّج أم الفتى أو الطفل عندما تصبح أرملة!

مبدئيًّا، عندما يصبح الأمير بالغاً تتناقص سلطة الآتابك تدريجيًّا حتّى تزول فيتحوّل إلى مستشار وقد تحصل المقاطعة الموصلة أحياناً إلى قتله كما كانت حالة قوطلشتاكن الذي قتله محمّد الأخ الأصغر لبرق ياروق. وسرعان ما تأكدت وضعيَّة الآتابك مع الزمن بإعطائه سلطة أوسع وإقطاعه الأملاك وتوليته أمر أمير سلجوقي قاصر محافظة على مبدأ التبعيَّة الشكليَّة والطاعة الإسميَّة. . وبلغ الأمر بالآتابك من الناحية العمليَّة، توريث وظيفته حتى على مستوى امتلاك الحكم كما فعل صلاح الدين مثلاً الذي تذرَّع بكونه آتابك صالح إبن نور الدين وعن هذا الطريق استولى على سورية.

وظلّ اللقب حرفة مستقلّة حتّى عهد المماليك (القرن ١٤ -

١٥) حيث كثرت عائلات الأتابك التي كان لها مستقبل لامع مثل آتابك أذربيجان،وعائلة البريدي بدمشق والارثوكي في ماردين وزنكي في الموصل.

● سلطنة برق ياروق

دام ملك برق ياروق من /١٠٩٣/٤٨٧/ إلى /١١٠٥/٤٩٨/ وتلقّى تقليد السلطنة مع الخلعة في بغداد من الخليفة «المقتدي» الّذي مات في نفس اليوم وخلفه المستظهر في شباط /١٠٩٤ .- وكان على برق ياروق الدخول في صراع مع ذويه يسانده النظاميُّون الذين قضوا على تاج الملك ثمّ تركان ومحمود وإسماعيل بن الياقوتي خال برق ياروق بسبب محاولته التقرّب من تركان. . وأقسى معاركه كانت ضدّ عمّه ططش الّذي ثار في سورية طالباً السلطنة بموجب حقّ البكوريَّة وهو حقٌّ قبلي أثار الأعمام ضدّ أبناء الأخوة في حرب أدّت في النهاية إلى تفكّك السلالة السلجوقيَّة..ـلقد نجح طوطش في التحالف مع إثنين من أعوان ملك شاه مدينين بمنصبيهما للسلطان المتوفّي هما «آق سنقور» (الصقر الأبيض) حاكم حلب (هو عبد الله الحجّاب مملوك ملك شاه وجدّ الزنكيِّين وهو غير آق سنقر، البورسقي الذي صار أميراً للموصل في مطلع القرن الثاني عشر .ـ وبوظان إيديس. . فأقسما على الولاء له وقدّما له من في إمرتهما من القوّات. . بينما وقف ياغي بازان على الحياد كما أن قيليج أرسلان إبن سليمان (شمالاً في الأناضول) كان مشغولاً بممتلكاته فلم يتدخّل في الصراعات العائليّة - ـطلق جيش طوطش في حملة نحو المشرق عام /١٠٩٣/٤٨٦/ ماراً من شمال الفرات فاستولى على نصيبين بعد أن ذبح أهلها وقطع دجلة عند الموصل والتقى بقوّات برق ياروق في «إربيل» (حيث هزم الإسكندر داريوس الثالث عام ٣٣٣) وكان آق سنقور وبوظان يقودان الجناحين عندما طبّق طوطش الأسلوب الحربي التقليدي بتظاهر القلب بالهزيمة ولكنّ الأميرين

انضمّا إلى برق ياروق المعترف به وريثاً شرعيّاً لوالده فلم يبق لطوطش سوى متابعة هزيمته عائداً نحو دمشق متوعّداً بالإنتقام أمّا آق سنقور فقد عاد إلى حلب مع تعزيزات كبيرة لأنّه كان يحسب حساب الإنتقام إيّاه.

في ربيع الثاني /٤٨٧/ نيسان - أيّار ١٠٩٤/ كان الفصل الموافق الذي اختاره طوطش للزحف على حلب لتصفية الحساب مع الأميرين الذين خذلاه وأثناء تقدّمه انضمّ بوظان صاحب إيديس إلى آق سنقور وكذلك أمير الموصل كربوخا قائد التعزيزات المرسلة من السلطان والتقى الجيشان في تلّ السلطان جنوبي حلب وتمزّق جيش الأمراء وأُسر آق سنقور ثمّ قتل وتراجع بوظان وكربوخا إلى داخل حلب ولكن طوطش نجح باحتلال المدينة عن طريق الخدعة فأسر بوظان وقُتل وأرسل رأسه إلى إيديس لإرهاب سكّانها وحملهم على التسليم.. أمّا كربوخا فقد ظلّ في الأسر إلى بعد موت طوطش.- هذا النجاح شجّع طوطش على الزحف شرقاً لملاقاة إبن أخيه فضمّ الجزيرة والموصل واجتاز جبال العجمي بعد العراق مارّاً بهمذان وأصبح إسم طوطش يذكر في الخطبة في بغداد وجميع مساجد ما بين النهرين وتقدّم شمالاً نحو الريّ وكان برقياروق مع جيشه الضعيف في أصفهان حيث التفّ حوله عدد من أمراء العراق وخراسان.. وكان مريضاً.. وتمّ اللّقاء في مكان جنوبي الري في /١٧ / صفر ٢٦/٤٨٨ شباط ١٠٩٥/ وذهب طوطش مرّة أخرى ضحيّة الخيانة من داخل جيشه إذ قتله أثناء المعركة ضابط معاون قديم لآق سنقور ثأراً له ودبّت الفوضى في الجيش المنهزم باتجاه سورية ولكن برق ياروق أحجم عن ملاحقة المنهزمين.

صحيح أنّ الخليفة أقرّ برق ياروق سلطاناً على الأقاليم العربيّة من الأمبراطوريّة وكذلك إيران (خراسان) ثمّ سمرقند وغزنة، ولكنّ أمبراطوريّته اختلفت كثيراً عن أمبراطوريّة ألب أرسلان وملك شاه

الّذين وزّعا إقطاعات حدوديّة كثيرة ولكن وحدة الامبراطوريّة ظلّت متماسكة من الداخل أمّا في عهد برق ياروق فقد تحوّلت إلى فدرالية إمارات مستقلّة.

في سورية احتفظ إبنا طوطش بإقطاعاتهما: -رضوان في حلب ودوقاق في دمشق ولكنّ العلاقات ساءت بينهما وأعلن كل منهما ولاءه لبرق ياروق ثمّ حوّل رضوان ولاءه إلى الفاطميّين معتمداً على دعم مليشيات الإسماعيليّة. - وفي أذربيجان حيث يشكّل التركمان مركز قوّة ولّى برق ياروق أخاه الفتى محمد مع آتابك. . وحاول الإنصراف إلى إعادة التماسك للامبراطوريّة ولكن مصالح أفراد العائلة ظلّت تحرّكهم وتدفعه بالتالي للاقتتال معهم. . مع عمّه أرسلان أرخون مثلا الذي أعلن استقلاله في خراسان فوجّه إليه أوّلاً واحداً من أعمامه الآخرين «بوري - بارس» الّذي أسر وذبح ثمّ وجّه أخاه الشاب سنجر عام /٤٨٩/١٠٩٦/ فمات أرسلان مقتولا وأصبح سنجر والياً على الإقليم المذكور.

وبعد تصفية الأعمام أصبح لا بدّ من محاربة الأخوة واعتباراً من عام /٤٩٠/١٠٩٧/ شهد الناس سلسلة من المعارك والتحكيم والتهادن والإتّفاقات؛ ففي /٤٩١/١٠٩٨/ تصادم برق ياروق مع أخيه غير الشقيق محمّد المقيم في أذربيجان ولديه قوّة تركمانيّة منظّمة وكان محمد وأخوه سنجر (وهما من الأخوة الأخياف أي أمّهما واحدة وأبواهما مختلفان) واقعين تحت هيمنة إبن لنظام الملك فزحفا على بغداد واحتلّاها في /٤٩٤/١١٠١/ وانتهت الأمور إلى اتفاقيّة ظلّ برق ياروق بموجبها سلطاناً ونال محمد لقب «ملك» ومارس سلطة هذا اللّقب على أذربيجان وأرمينية. . الإتّفاق لم يكن أكثر من هدنة عقبتها الحرب بين الأخوين عام /٤٩٥/١١٠٢/ و /٤٩٦/١١٠٣/ فهزم محمد وهرب إلى أرمينية وعاد برق ياروق إلى بغداد حيث سقط مريضاً وقد هدّه التعب فرضي، عام /٤٩٧/١١٠٤/ تقسيماً حقيقيّاً للسلطنة واحتفظ له ببغداد وفارس وخوزستان والمدينتين

المقدّستين مكّة والمدينة ومات في ربيع الثاني /٤٩٨/ مطلع ١١٠٥/ وهو في الخامسة والعشرين من عمره.. فتضاعفت بعده تجزئة الامبراطوريّة حيث استقلّ الأمراء بعضهم عن بعض وقامت سلالات محليّة انفصلت عن السلطنة مثل الأرثوقيِّين في ديار بكر وماردين..- واستؤنف الصراع على الخلافة في الملك بين محمود وسنجر فاستولى محمّد على الموصل وزحف على بغداد حيث قلّده الخليفة المستنصر السلطنة رسميّاً ووّجهه إلى أصفهان وفارس حيث اتّسع نفوذ الإسماعيليَّة (الباطنيَّة) ووقعت في أيديهم قلاع جبال الديلم.. وقضى محمّد مدّة ملكه كلّها في محاربة الإسماعيليَّة والهراطقة والخوارج.

● **الإسماعيلية**

الإسماعيلية، في الإسلام، مذهب تفرّع من الشيعة وانقسم بدوره إلى عدّة مذاهب فرعيّة مختلفة المنطلقات والمبادىء. وبداية المذهب سبقت قليلاً عام /١٤٨/٧٦٥/ لدى إسماعيل إبن الإمام جعفر الصادق الذي سبق موت أبيه.. ولا نعرف شيئاً موثوقاً عن المذهب خلال /١٥٠/ سنة الأولى أي إلى القرن /٣/٩/ فالبعض من أتباع جعفر اعتقدوا أنَّ إسماعيل لم يمت بل «غاب»؛ والبعض الآخر أيّدوا موسى الكاظم فلقّب الأوّل «السبعيَّة» والآخرون «الإثنا عشريَّة». وقبل دخول الإسماعيلِّيين تاريخ عصرهم ظهر في بلاد ما بين النهرين في النصف الثاني من القرن /الثالث/ التاسع/ مذهب القرامطة الذي كثيراً ما أشكل التفريق بينهم وبين الإسماعيليَّة لأنَّ أعمال القرامطة تسبَّبت لهم بالكراهية والمقت أو صُوّرت كذلك في سياق الدعاية ضدّ المدّ الفاطمي في المشرق.. الأمر الذي حمل القرامطة على إتّخاذ موقف عدائي من الإسماعيلِّيين لأنّهم أعداء فعلاً ولأنَّ حركتهم جذبت اليها جانباً من أنصار الحركة القرمطيَّة.

في القرن / الثالث/ التاسع/ استكمل الإسماعيليُّون قوّتهم

وتنظيمهم فترسّخت لهم جذور قويّة في فارس واليمن وسورية والسلميَّة شرق شمالي دمشق وما عتم مذهبهم أن انتشر في شمال أفريقية . . ونشط دعاتهم خلال القرن / الرابع/ العاشر/ حتى انتشرت الإسماعيليّة من الأطلس إلى الهند وظهرت السلالة الفاطميّة في المغرب فشنّت ضدّ السلجوقية حرباً سياسيّة وعسكريّة إضافة إلى كونها أصبحت رائدة الحركة الإسماعيليّة إلى أعماق فارس فمن روّاد بلاط القاهرة، مثلاً، «نذير بن خسرويه» (مات عام ١٠٣٨) مؤلّف «سفرنامة».

المركز الإسماعيلي الحقيقي ـ المركز الفكري ـ كان فارس فأقاليم بحر قزوين والخليج وأذربيجان والهند إستقطبتها الدعوة الإسماعيليّة وأصبحت مضطهدة وملاحقة في كلّ مكان باعتبارها حركة سياسيّة ناقضة، هادمة، وبدأت الحركة تنحطّ بسبب الحركات الإنفصاليّة داخلها؛ ففئة الحاكميَّة، مثلاً، اعتقدوا أنّ الحاكم، الخليفة الفاطمي السادس، لم يمت عام /١٠٢١/٤١١/ وهو شخصيَّة غامضة انقسمت حياته إلى ثلاث مراحل متميّزة. ـ الأولى وهو قاصر تحت الوصاية من تسنّمه العرش حتى قتل البرجوان /١٠٠٠/٣٩٠/. ـ والثانية من /١٠٠٠/٣٩٠/إلى /١٠١٧/٤٠٨/ وهو عام إعلان ألوهيّته. ـ والثالثة من /١٠١٧/٤٠٨/ إلى /١٠٢١/٤١١/ أي غيبته والمرحلة الثانية تميّزت بتعصّب ديني فائق للعادة سواء ضدّ السنّة والمسيحيَّة واليهوديَّة وكان الدرزي أحد دعاته (وهو الذي أعلن ألوهيّته وتجسُّد العقل الكلّي فيه) قد هرب إلى لبنان ويقال أنه، هناك، وضع الأسس لمذهب الدروز الذين يمجّدون الحاكم. والحركة الإنفصالية التالية كانت «النزاريَّة» ـ أنصار نزار ـ الإبن البكر للخليفة المستنصر المقتول عام /١٠٩٤/٤٨٧/ وأنصاره كثيرون في سورية وفي فارس وهم موجودون في أفريقية الشرقيَّة واليمن والهند الغربيَّة تحت إسم [BOHORAS] ـ والنشاط الإسماعيلي في ما بين النهرين بأواخر القرن العاشر كانت إحدى

مظاهره رسائل «إخوان الصفاء» (المرجع: عادل العوّا وإيف ماركت).

توسّع الفتوحات السلجوقيّة، ونموّ نظام الإقطاع المرتبط بالتوسّع إيّاه. نتج عنهما قلق إجتماعي فمعارضو السلجوقيّة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر تستّروا تحت غطاء التعاليم الإسماعيليّة دون أن تكون لهم أيّة علاقات مع الشيعة فالستار إيّاه تدرّع به في كلّ مكان معارضو السلجوقيّة وأعداؤها. ومن هنا ظلّت مجهولة، غامضة، الأصول الإجتماعيّة للحركة الإسماعيليّة واقتصر الأمر على التعلّق بالنفوذ إلى غوامض وخفايا وأسرار الفكرة دون دراسة الأوضاع والمسالك العمليّة للّذين يمارسون طقوس المذهب؛ فالحركة اعتمدت، منذ البدء، على الحرفيّين والشغّيلة في المدن الكبرى وعلى الفلاّحين وعمّال الزراعة في الأرياف.. أمّا تقوية نشاط الشيعة الإسماعيليّة فكان مردّها إلى ضعف وتفكّك السلطة القائمة.

ظهرت فرقة جديدة في إيران أطلق عليها إسم «مذهب الحشّاشين» ومؤسّس المذهب كان «الحسن الصباح» الذي نشأ في الريّ.. اعتنق الفاطميّة فتىً وأرسله الداعي ابن عطّاش إلى القاهرة أيّام المستنصر /٤٦٤/١٠٧٢/ فوصلها بعد جولة في إيران وما بين النهرين وسورية.-وفي مصر، بعد موت الخليفة كان من أنصار نزار ضدّ أخيه الأصغر الذي صار خليفة بلقب المستولي وطرد الحسن من القاهرة فقفل راجعاً إلى فارس وسار بالدعوة النزاريّة.- عام /٤٨٣/ ١٠٩٠/ استولى على قلعة «العلموت» قرب قزوين في المنطقة الجبليّة من إيران الشماليّة وراح يبسط نفوذه على مناطق أخرى من الديلم حتى صارت للإسماعيليّين حكومة تيوقراطيّة حقيقيّة عاصمتها «عَلَموت» ونظامها يتوافق مع سكنى الجبال.. ونظّم الحسن الصباح أتباعه تنظيماً إجتماعيّاً سرّياً ذا رُتب درجيّة يسوده نظام صارم وطاعة كاملة للزعيم.. والعمود الفقري للدعوة هو

الإعتراف بالأئمّة السبعة للشيعة. . والمشايع الحديث في الإيمان يجب أن يكون مسلماً مثقّفاً على يد أحد الدعاة ومنجزاً لدورة تدريب وترويض جثماني (وهذا النظام الصارم ليست له سابقة) ثمّ يمرّ بامتحان صعب قبل السماح له باجتياز المرتبة الأولى ويستمرّ تأهيله للرّتب الأعلى وهي سبع رتب والإعتقاد بالتقمّص أمر جوهري كما أن المعضلات الجدليّة في علم اللاّهوت والبراهين المسندة إلى الوصي ثمّ حلّها بتأويل وتفسير رمزي أو شبهي للقرآن. ونخبة قليلة جداً كانت تستطيع اجتياز العقبات والحواجز إلى المراتب الأعلى حتّى بلوغ العليا منها ومرتبة الداعي هي السادسة وفيها يستحقّ لقب «شيخ».

لقد استقرّ الإسماعيليّون على تخوم الامبراطوريّة السلجوقيّة وخاضوا حرباً نشطة لا هوادة فيها ضدّ السلاجقة وبخاصّة ضدّ إقطاعيّي الشرق الأدنى ولعدم توفّر الوسائل العسكريّة الكافية لهم فقد استعاضوا عنها بنظام مرن وقوي نمطه العملي [الأرهاط - الجماعات - الزمر] القليلة العدد والإرهاب الفردي:- والقتل هو الطريقة الرئيسة في العمل التي أوجبها الدين.- «شيخ الجبل» هو الذي يعطي تعليماته للفدائي الذي يتنكّر بزيّ تاجر أو متسوّل أو خادم أو درويش مستعملاً وسائله الخاصّة إذا كان بمفرده أمّا في المهام الكبيرة فعدد الفدائيّين يزداد دون أن يجتمعوا أو يعرف بعضهم بعضاً. . يجمعهم فقط المكان المحدّد لهم. . والفدائي يعرف المداخل ويحسن الدخول كما يحسن الإنتظار أيضاً حتّى يصير مألوفاً في قصر أو جامع أو سوق ثمّ، وفي اللّحظة المختارة يطعن الضحيّة بخنجره.-والقتل يخطّط له في السرّ ويجب أن ينفّذ في مكان عام إرهاباً للجمهور وتحقيقاً لنتائج سياسيّة ونادراً ما يستطيع الفدائي الخلاص من أيدي الحرس أو الجمهور بعد إداء مهمّته ومن هنا جاءت تسميته التي تعني الذي يضحّي بنفسه.-من علموت استعمل البعض مادّة مخدّرة تساعدهم على إداء المهام

الخطرة وهي «الحشيش الهندي» فاستعملوه تدخيناً أو مضغاً. . وإدمــان هؤلاء على الحشيش جــرّ على أصحــاب المــذهب الإسماعيلي كلّهم لقب «الحشّاشين» والنبتة إيّاها تحتوي على صمغ راتينجي منوّم ومخدّر عرف في سومر واستهلك في الهند بإسم «بنج» وفي أفريقية الشماليّة بإسم «كيف» وعبارة «حشّاشين» حوّر الصليبيّون لفظها فصارت[ASSASSIN ـ آسّاسّان] أي «قاتل» وسرعان ما أصبح مدلول الكلمة في فرنسة وإيطالية [قاتل ـ قَتَلة].

الأهميّة الإجتماعيّة للإسماعيليّة وخطرها على الدولة السلجوقيّة أمر أدركه نظام الملك وزير السلجوقيّين الكبيرين الأوّلين في القرن الحادي عشر فجعل الملاحقة شاملة للإسماعيليّين والمتعـاطفين معهم معاً وصار الهمّ الأوّل للسّلطات السنّية شحن النفوس بالبغضاء والحقـد على الإسمـاعيليّين. . ولكن، لا القمــع القـاسي ولا التصفيات الوحشيّة أوقفت العمل السرّي الفدائي والإرهاب.

وكان طبيعيّاً أنّ قلاع الفدائيّين أحيطت بأحياء سكنيّة واسعة بناها الفلاّحون العاملون في الأراضي لصالح النّظام ولا يبخلون بدخولهم ومدّخراتهم في تعبئة وتجهيز الفدائيّين.

في سورية، في زمن رضوان، استقرّ الإسماعيليّون في حلب وفي مطلع القرن الثاني عشر شكّلوا مليشيات باطنيّة واحتلّوا حمص قبل ظهورهم في دمشق. . ففي عام /١١٢٦/ ظهر في دمشق «بهرام» زعيم الفدائيّين ونشطوا نشاطاً واسعاً فيها بدعم من الوزير المزدكاني الذي سلّمهم قلعة بانياس (جنـوب سوريـة). . وكان طوختاكن آتابك دمشق يؤمّل التخلّص من هؤلاء بعد أن اتّخذوا من بانياس وقلعتها ووادي التيم قاعدة لعمليّاتهم وما إن مات طوختاكن وخلفه ابنه «بُرعي» حتّى ظهر في دمشق ردّ الفعل العنيف متمثّلاً بذبح عدد من الإسماعيليّين (١٨ رمضان ٥٢٣/٤ أيلول ١١٢٩/) وفشلت محاولات المنظّمة استعادة دمشق وتصفية صاحبها. ـ ومن

نتائج التدخل في مصر ذبح الوزير الأفضل والخليفة الفاطمي «الأمير» في عام /١١٣٠/ واستقرّ هؤلاء نهائيًا في منطقة القدموس (الكهف) غربيّ حماة في جبل بهراء ولعبوا دورهم في الحروب الصليبية. . وأشهر زعمائهم في سورية كان «سنان بن سليمان» ومنشؤه في منطقة البصرة أعلن استقلال علموت وانتهج سياسة فرديّة استبداديّة فكان خصماً عنيداً لصلاح الدين قبل أن تحوّل إلى حليف له ضدّ الصليبيّين في حملتهم الثالثة وبخاصّة ضدّ ريكاردوس قلب الأسد وفيليب أوغوست وبعد قرنين كاملين من نشاط الإسماعيليّة الفدائي السرّي الّذي نشر الرعب في الشرق الإسلامي وشكّل ضحاياه قائمة كبرى احتوت على خلفاء ووزراء وقادة عسكريّين وموظفين كبار ـ ومرّت الأيّام فأصبح الإسماعيليّون النزاريّون ملاّكي أراضي وصار زعماؤهم إقطاعيّين يهمّهم مردود أراضيهم أكثر ممّا يهمّهم التطبيق العملي لشعارات المذهب. . لقد تحوّلوا إلى بورجوازيّين ومنذ القرن الثالث عشر أصبحت علموت دولة إقطاعيّة صغيرة مثل غيرها. . وبعد موت سنان في سورية هدأ العمل الفدائي وظلّ المذهب حيّاً عبر الأجيال وهو اليوم في مظهره الوديع يمثّله أتباع «آغاخان».

في الأقاليم الشرقيّة اقتربت نهاية حكم السلاجقة الكبار. وفي عام /٥١١/١١١٨/ تلقّى واحد من أمراء السلطان محمّد «آنوشتاكين شرجير». . تلقّى أمراً بالإستيلاء على قلعة علموت وأثناء الحصار قتل السلطان ذبحاً في ظروف غامضة جدّاً. والوارث كان ابنه البكر محمود (١٤ عاماً) ولكنّ عمّه سنجر أصغر أولاد ملك شاه أعلن نفسه رئيساً للعائلة وفق مبدأ «تقديم الأكبر سنّاً» واستولى على السلطة وحصلت معركة قرب همذان عام /١١١٩/ انتصر فيها سنجر بفضل فَيَلته. وتوصّل الخصمان إلى اتّفاق لم يعطِ وحدة السلطنة كبير أهميّة كما أصبح الحال منذ زمن فسنجر هو الذي يذكر اسمه في الخطبة ويملك الأقاليم الشرقيّة بينما يكون محمود صاحب

السلطة المطلقة في العراق وغربي إيران وبذلك اضطلع سنجر بالحروب ضدّ الكرخانيِّين وما وراء النهر وتسوية المشاكل مع خوارزمشاه.

في صفر /٥٣٦/ أيلول ١١٤١/ حلّت على سنجر نازلة نكباء: قبل /١٥/ عاما طردت من شمال الصين قبيلة كاراخيتائي فاتجهت نحو الغرب وقلبت حكم الكرخانيِّين في تركستان فاستنجدوا بسنجر ودارت معركة حاسمة في سهل كتوان قرب سمرقند انتصر فيها الغزاة وهرب سنجر فانعكس ذلك على مركز السلطان ونفوذه فالأمراء أصحاب الإقطاعات الكبيرة أو الصغيرة شنّ بعضهم على بعض منذ زمن حروباً تناحريَّة لا هوادة فيها والإنحلال بدأ مع موت ملك شاه فتجزّأت الامبراطوريَّة السلجوقيَّة وتمزّقت شرّ ممزّق وعلى أنقاضها قام العديد من الدويلات المستقلة والسريعة الزوال.

لقد أصبح على كلّ دارس لتاريخ الشرق أن يلحظ انتقال محور الإهتمام نحو الغرب حيث ظهر على المسرح ممثّلون جُدد: الصليبيُّون.



الفصل التاسع

القرنان ١١ و ١٢

الشرق في زمن الحملة الصليبيَّة الأولى

● **وصول الصليبيِّين.**

قبل وقتنا هذا بكثير، أصبح شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط «الأرض المقدّسة» لدى الغربيِّين. والحجّ إليه كان يتمّ دون انقطاع من القرن الرابع وحتّى الحادي عشر؛ وما أكثر المؤلّفات المحفوظة المكتوبة في وصف «الأرض المقدّسة» دون أن تتطرّق النصوص إيّاها حتّى إلى ذكر الإسلام!

إلى ماذا كان يرمز الإسلام بنظر غربيّي القرن الحادي عشر؟ حتّى وجود الإسلام طرح بالنسبة لمسيحيه القرون الوسطى مشكلة كبرى متعدِّدة الجوانب؛ فكمشكلة لاهوتيَّة كان الإسلام يستدعي جواباً على سرّ وجوده وخفاياه المستندة إلى وحي نزل من السماء وبلّغه الرسول محمّد إلى الأنام. . - هل كان للإسلام دور صادر عن العناية الإلهية؟ - هل كان علامة نهاية العالم أم كان مرحلة من مراحل تطوُّر المسيحيَّة؟ - هل هو دين جديد؟ أهو انشقاق أم انفصال عن الكنيسة الحقيقيّة أم هو هرطقة؟ - وبالنسبة للغربيِّين بالذات كانت العقبة الكبرى الحائلة دون معرفتهم الإسلام تتمثّل في اختلاف اللّغات. . وثمّة عقبة أخرى هي بُعدُهم عن المشرق أضف إلى كلّ هذا ما لا بدّ من الإعتراف به وهو أنّ الإسلام قطع في أربعة قرون طريقاً احتاج الغرب إلى وقت أطول كثيراً كي يقطعه؛ فخلال عصر الإسلام الذهبي بين القرنين التاسع والحادي عشر حقّق منجزات فنّية وعلميَّة لم تستطع المسيحية إنجازها في الحقبة إيَّاها فبفضل

مترجمي بغداد عمّ تأثير الفكر اليوناني والإيراني والهندي ولعب دوراً نشطاً أتاح للفكر الإسلامي أن يعرف انفتاحاً وانطلاقاً مشهودين. ـ والإجتلاغ الكبير بين العالم الغربي اللّاتيني وبين العالم الإسلامي تأتّى من بطء نموّ الأوّل والنضج المبكّر لدى الآخر. فبعد تمزّق وزوال العالم القديم، وبينما كان الغرب واقعاً بين أيدي البرابرة ولا يملك تراثاً خاصاً سوى ثقافة روما اقتطف وورث الإسلام التراث العلمي والفلسفي اليوناني عن طريق الرهبان السريان؛ بمعنى أنّ الفكر اليوناني انتقل دون فترة إنقطاع من مدارس العالم اليوناني، بواسطة السريان، إلى المدارس الإسلاميّة..

وبدأت عمليّة المطابقة والتوفيق بين هذا الفكر وبين الدين الإسلامي منذ بدأ هذا الدين ينشيء مؤسّساته. والإختلاف بين طبيعة كلّ من العالمين يبدو واضحاً إذا أقمنا مقارنة بين رجلين كبيرين من رجال القرن الحادي عشر: ـ في الغرب، البابا سلفستر الثاني (جيربرت) ـ /٩٤٠/ ـ /١٠٠٣/. ـ وفي الشرق إبن سينا /٩٨٠ ـ /١٠٣٧/ وقد عاش الأوّل في بلاط «هوغ كابّيه»، والثاني في بُخارى وأصفهان. ـ في القرن الحادي عشر مرّ قرنان فقط على بداية وجود العلم الإسلامي ومع ذلك فمؤلّفات إبن سينا تركت تأثيراً على النفوس أكثر عمقاً من مؤلّفات جيربرت.

قبل عام /١١٠٠/ لم يكن يوجد أحد في أوروبة الشماليّة يعرف إسم محمّد وكان الغربيّون يجهلون كلّ شيء عن الإسلام كدين وكان المسلمون، بنظرهم، أعداء وجبت محاربتهم في مختلف الميادين. ـ «باد المحترم» لم يميّز بينهم وبين السلافيّين أو الماجيار (هنغار) وهو راهب إنكليزي تخصّص بالتوراة في القرن الثامن ظلّ المرجع والسلطة العليا في هذه المادّة حتّى القرن الثاني عشر. هذا الرجل كان لا يرى في المسلمين سوى «الكفّار غير المسيحيّين» دون أن يكنّ لهم بغضاء أو ضغينة! ـ منذ عام /٧١١/ أصبحت اسبانية على صلة مباشرة مع الإسلام والوضع اختلف هناك: ـ فالفئتان المسيحيّة واليهوديّة خضعتا لقانون «الذمّيّة» وانقطعت صلة المسيحيّين بحضارة وثقافة روما حيث بهرتهم حضارة العرب وجذبتهم إليها فتعلّموا لسانها وهكذا حلّت العربيّة محلّ اللاّتينيّة فاستعرب المسيحيّون

وحملوا إسم «نصارى دولة مسلمي الأندلس» فتمخّضت شبه جزيرتهم عن فنّ وثقافة أصيلين وحتّى طقوسهم الدينيّة أصبحت متميّزة . .

وجود الإسلام وضع الغرب في ضيق شديد حيث شكّل بالنسبة له تهديداً لا سابقة له ولم يكن في الحسبان إضافة إلى كونه عقيدة توحيديّة تتناقض مع مذاهبه.

والذي كان يزعج رجال الغرب بشكل خاص شدّة بأس الإسلام ونفوذه وقوّة إشعاعه وهذه مزايا بلغت أوجها في القرنين التاسع والعاشر ممّا جعل العالم يواجه نظامين اختلفا ديناً وتعبيراً ومجتمعين مختلفين: - فالغرب يشكّل مجتمعاً زراعيّاً إقطاعيّاً رهبانيّاً في حين تركّزت قوّة الإسلام على المدن الكبرى والأسواق الواسعة الغنيّة ونظام طرق المواصلات الطويلة، البحريّة والنهريّة والبريّة بمعنى أنّ المجتمع الأوّل كان منغلقاً على ذاته والثاني لم يكن منفتحاً على العالم فحسب، بل كان يغزوه ويفتحه.

في القرن الحادي عشر شهد الغرب تطوّر فكره الديني إلى القبول «بحقّ القتل» وإدراج هذا الحقّ في الحرّيّات الضامنة لسلامة الغرب. وعندما أشار «الفانديري» إلى هذه الظاهرة استطرد يقول: -«إنها إحدى التعاليم اللّاهوتيّة التي أقرّت العمل المسلح» وخلقت وضعاً جديداً استتبع معارك «نافار» التي قام الرهبان فيها بدور عملي . . ثمّ معارك الحجّاج داخل فلسطين عام /١٠٦٥/ . . من هنا انطلق التحضير التدريجي لمناخ الصليبيّة ورفع شعاراتها: -محاربة الأعداء الكفّار والدفاع عن الأماكن المقدّسة . . وتدخل البابويّة بهدف استعادة الأراضي التي خسرتها المسيحيّة. - ومنذ /١٠٧٤/ رسم «غريغور السابع» هدف إعادة وضع الأسس لتوحيد المسيحيّة التي تصدّعت وحدتها عام /١٠٥٤/ بفعل دعوى عالميّة كلّ من الكنيستين . . وولد لدى البابا تفكير حماية بيزنطيّة من الترك.
-«أوريان الثاني» كان صاحب المبادرة الأولى بالدعوة الصليبية. - في مجمع «بياسنزا - بليزانس» بإيطالية، عام ١٠٩٥، دعم أوريان مطلب رسل البابا إلى المجمع المسكوني إيّاه دون أن يكون مقتنعاً بأنّ الصليبيّة يمكن أن

تحرز نصراً سريعاً وسهلاً. . وبين آذار وتشرين الأول / ١٠٩٥/ قام البابا بجولة إلى أوروبة كلّها لتأمين دعم أصحاب الحلّ والعقد له. وأخيراً، في /١٨/ تشرين الثاني، إفتتح «مجمع كليرمونت» وفي السابع والعشرين، أثناء القدّاس، دعا أوريان الثاني مسيحيّي الغرب إلى تخليص وإنقاذ مسيحيّة الشرق دون تعيين الأماكن المقدّسة ولا حتّى القدس؛ فالدعوة، إذن، استهدفت حرباً هدفها استعادة الأراضي التي يرى الغربيّون أنّ حقّ امتلاكها عائد إلى الكنيسة وفي الدعوة إلى الحملة الصليبيّة الثانية فقط بدأ الكلام عن القبر المقدّس وعن القدس ومهد مخلّص البشر الخ. . .

في نهاية القرن الحادي عشر اجتاحت الغرب أزمة إقتصاديّة خطيرة سببها كثافة السكّان فوُلد هدف رئيسي آخر حرّك بإتجاه الشرق جموعاً بائسة ضاقت ذرعاً بأسمالها فزُرع في رؤوسها الأمل بشروط حياة أفضل. . حياة مادّيّة طبعاً لأن الوعود خصّصت الأراضي والغذاء ثمّ الوجود المعنوي الأفضل لأنّ الموضوع الديني المتمثّل في إنقاذ قبر الفادي المقدّس يأخذ مكانه المناسب من هذا الحلم البشري للصليبيّة. . نقول «مكانه المناسب فقط» لأنّ المصالح والمنافع الأخرى هي التي طغت على الفكرة فالقرن الحادي عشر لم يكن أفضل من القرن العشرين بالنسبة لندرة وجود المثاليّين «والانقياء الأتقياء» في هذا العالم:-فالمنافع الإقتصادية أعطت تلك الغزوات البعيدة طبيعة المشاريع والمجازفات «الإستعماريّة» وكمثال:
- تدخّل جنوى وبيزا ومالفيا والبندقيّة كان يخلو إطلاقاً من أيّ هدف روحي. . . فالجمهوريّات الإيطاليّة كان لها دين واحد هو دين المال وذلك كان سبب زوالها. . .

في عام /٤٩٠/١٠٩٧/ وقع حادث قلب المسلّمات والفرضيّات كلّها في الوجه المتقدّم من آسية: - إنّه قدوم الصليبيّين. . لقد جاء في حقبة مناسبة للغربيّين لأنّ حالة من الفوضى لا يمكن وصفها كانت تسود الدول الإسلاميّة فالناس دوّخهم البؤس والأزمة مستحكمة بسبب المنازعات والحروب المحليّة.

في مصر، كان وصول الصليبيِّين إلى سورية عامل إنقاذ للخلافة الفاطميَّة؛ فلم يعد في مقدور السلاجقة تنفيذ مخطّطهم بإجلاء الشيعة واحتلال القاهرة. - في عام /٤٨٧/١٠٩٤/ مات الأمير الأرمني الأصل وزير الفاطميِّين وقائد جيوشهم وتبعه إلى القبر الخليفة المستنصر الذي ملك قرابة ستِّين عاماً (٤٢٧ ـ ٤٨٧/ ١٠٣٦ ـ ١٠٩٤) فتعدّدت الفتن المسلّحة في القاهرة نتيجة المجابهات بين ميليشيات البربر والترك والسودان ولذلك لم يكن لوصول الصليبيِّين إلى الشرق أيّ ردّ فعل على ضفاف النيل.

في أناضولية قام السلجوقي قيليج بن سليمان بإعلان نفسه سلطاناً عام /١٠٩٢/ واستقرّ في «إزنيق».

في المشرق.. في العراق وإيران، وبدءاً من /١٠٩٦/ تفاقمت المنازعات العائليَّة بين السلاجقة فتفتّت امبراطوريّتهم الواسعة وتلك كانت الطامّة الكبرى لأنَّ القوّة السلجوقيَّة وحدها كانت قادرة على الوقوف بوجه زحف الصليبيِّين.. والجزيرة بدأت تلعب دوراً سياسيّاً ذا أهميَّة متصاعدة فحاكم الموصل اعتدّ بالقوّات والموارد الزراعيَّة التي أتاحت له موازنة ميزانيَّته وبذلك تحرّر من ضغوط بغداد.

وسورية.. أرض المواجهة الأولى للصليبيِّين قطعت إلى شطرين بحكم اقتسامها بين الإبنين الوريثين للسلجوقي طوطش: دُقاق والآتابك طختاكن يحكمان في دمشق ولا يهتمّان أبداً بالأحداث الجارية في الشمال.. أمّا حلب فصاحبها رضوان لا همَّ له سوى الإحتفاظ بمركزه المهدَّد من قبل جيرانه السلاجقة الطامعين به.. ولم يكن يخفي تعاطفه مع الإسماعليِّين واعتماده على الحركات السرِّيَّة الباطنيّة وهي كثيرة وقويَّة في الأوساط الحلبيَّة. وهو، في موقفه ذاك، يعقد الأمل على تلقّي المدد من الفاطميِّين لدى الحاجة. أمّا المسيحيُّون الشرقيُّون فهم، أيضاً، كانوا دون القدرة على تأليف جبهة متماسكة موحّدة تجابه اللاّتين والأرمن واليعاقبة والنساطرة.. كانوا في صدام وتناحر: بينهم حيناً.. وضد النظام الكهنوتي الدرجي البيزنطي أحياناً..

ذلك كان الوضع في الشرق الأدنى في كانون الأوّل عام /١٠٩٦/ عندما وصلت إلى القسطنطينيَّة طلائع الصليبيِّين الأولى التي تغلغلت في المدينة مما اضطرّ «ألكسيس» لنقلها إلى وراء البوسفور تحاشياً لمواجهات خطيرة بينها وبين المدنيِّين (الكسيس الأول امبراطور بيزنطية ١٠٨١ - ١١١٨)

وفي مطلع عام /١٠٩٧/ وصل قادة الحملة الصليبيَّة مع جيوشهم فمرُّوا، بدورهم، في آسية (الجزء الواقع جنوب البحر الأسود من اسية).. وفي ١٩ حزيران (١٠٩٧/ استولوا على نينوى.. وفي أوّل تمُّوز بلغوا اسكي شهر وهزموا السلجوقي قيليج أرسلان الذي تقهقر إلى داخل البلاد بعيداً عن الطرق التي إعتاد البيزنطيُّون سلوكها وعليها سار الصليبيُّون.. وأيّ أمير عربي عجز آنذاك عن التصوُّر أن يلقى نفس المصير...

● حصار انطاكية.

بعد اجتياز أناضولية وسيليسية ومواجهة الإمتحان القاسي الناجم عن نقص المياه والمؤن، مثل الصليبيُّون أمام انطاكية في /ذي القعدة ٤٩٠/ تشرين الأول ١٠٩٧/ وقام بالدفاع عن المدينة ياغي باظان الذي قُلِّد حاكميَّتها من قبل ملك شاه وأرسل يطلب نجدة وتضامن المسلمين فحرّكت دعوته المشاعر في البلدان الإسلاميَّة دون أن يعطي ذلك نتائج فاعلة.. لقد كان دُقاق، صاحب دمشق، سبَّاقاً لإرسال النجدات فهزم قوّات الفرنجة التي توغَّلت في المنطقة ووصلت شمال غرب معرَّة النعمان وقفل الأمير السلجوقي راجعاً إلى دمشق خشية نشوب اضطرابات ضدّه في غيابه.. ومرّ على انطاكية خمسة أشهر وهي محاصرة عندما عزم رضوان على إرسال قوّاته لنجدة المحاصرين وذلك في /ربيع الأوّل ٤٩١/ شباط ١٠٩٨/ ولكنّه لم يستطع مواجهة قوَّة الفرنجة فعاد إلى حلب ووصلت أصداء الحصار إلى بغداد فحاول الخليفة العبَّاسي المستظهر بالله إثارة النخوة والحميَّة لدى «حُماته» السلجوقيِّين ولكنَّ السلطان برق ياروق كان مشغولاً جدّاً بشؤون خراسان واكتفى بإعطاء الأمر إلى الأمير «كربوخا» آتابك الموصل كي يذهب

لتحرير انطاكية . . وكربوخا هذا هو الّذي سبق أن سجنه طوطش في حلب وأخلي رضوان سبيله فأنشأ لنفسه ملكاً واسعاً حول الموصل وحقّق موارد كافية لأن يقوم بمبادرة عسكريّة ترفع من شأنه . ـ في / جمادي الثانية ٤٩١ / أيّار ١٠٩٨ / انتشر نبأ إقتراب جيش قادم من الجزيرة وصادف ذلك في وقت واحد مع قيام بعض المحاصرين ببيع أحد أبراج السور إلى الفرنجة فسقطت ـ المدينة في / جمادى الثانية / مطلع حزيران / واستطاع ياغي باظان النجاة بنفسه ولكنّه سقط عن جواده ومات . . ووصلت قوّات كربوخا متأخرّة فردّها الفرنجة على أعقابها بقيادة «بوهيموند» ؛ وحصلت ثلاث محاولات لاسترجاع انطاكية ولكن عدم وجود التنسيق والتعاون كان سبب فشلها . ـ «رينيه غروسيّ» سمّى غياب الوفاق بين المسلمين في تلك الحقبة «فوضى الإسلام» وهي التي أتاحت للفرنجة الإستيطان السريع في شمال سورية وبنوا لأنفسهم ، بالتتابع ، «كونتيّة إيديس» حيث قام مقام أمير أرمينية بودوان شقيق «جودفروا دي بوييون» ثمّ إمارة انطاكية وقام على رأسها بوهيموند .

بعد استراحة ستة أشهر انطلق الصليبيّون جنوباً وفي / ١٤ محرّم ٤٩٢ / ١١ كانون الأول ١٠٩٨ / استولوا على معرّة النعمان في سورية الوسطى ؛ ثمّ ، في / رجب / حزيران / نفذوا من ثغرة حمص إلى الشاطيء اللبناني وتابعوا زحفهم دون توقّف حتّى أسوار القدس . . وهدفهم كان تخليص القدس من السلجوقيّين ولكنّ ممثّل هؤلاء ، سقمان ، صاحب «حصن كيفا» كان مطروداً من قبل الفاطميّين وهؤلاء ، بدورهم ، عرفوا قديماً بتسامحهم الشديد مع المسيحيّين ويفضّلون ، معهم ، التصالح على الحرب ولكن الفرنجة رفضوا الشروط المفروضة وبعد حصار طويل فتحوا القدس في / ٢٢ شعبان ٤٩٢ / ١٤ تموز ١٠٩٩ / وذبحوا المسلمين واليهود من سكّانها وتأسّست مملكة القدس اللاّتينيّة . . وفي السنين التي عقبت ذلك أصبحت استعادة القدس شعار المسلمين ومحور سياستهم فكلٌّ من الزعماء المتخاصمين يدّعي أنّ هدفه تخليص القدس على طريقته . .

● **الحالة في سورية والجزيرة**

في الأقاليم الشرقيَّة للامبراطوريَّة السلجوقيَّة كانت الحروب والمشاحنات المحليَّة هي الشاغل.. فكلٌ يعمل لأن يبني لنفسه ملكاً في امبراطوريَّة تجزَّأت بين أعضاء العائلة السلجوقيَّة.. وحتى كربوغا بالذَّات المهزوم من الفرنجة في إقليمٍ بعيد عن أرضه بدا كأنَّه غير راغب إطلاقاً بالثأر والإنتقام مفضلاً على ذلك عرض مساعدته على السلطان برق ياروق .- وبعد موت كربوغا عام /٤٩٤/١١٠١/ شهدت الموصل تتابع عدد من «الآتابك» كان أشهرهم «الأمير جاكارموخ» وبُتر التتابع السريع إيَّاه بتقليد السلطان محمد الأمير مودود أمر الموصل وذلك في نهاية عام /٥٠١/ تموز /١١٠٨/ وكان الفرنجة في تلك الحقبة يتخذون إيديس (أورفة اليوم) قاعدة لهم ويسلكون وادي البليخ جنوباً ويهاجمون الرقة على الضفة الشماليَّة للفرات وقلعة جعبر على هضبة مشرفة على الرقَّة ومعبر هام للفرات.. وهي منذ عام /٤٧٩/١٠٨٦/ في أيدي الأمراء العقيليِّين.-عام /٤٩٧/١١٠٤/ قام آتابك الموصل بهجوم مضادّ ضدّ الفرنجة أجبرهم على الإنكفاء إلى قاعدتهم وبعد قليل حاولوا الإستيلاء على حرّان الموقع الهام جدّاً بالنسبة للعلاقات بين الموصل وحلب وبالإستيلاء عليه يمكن فصل حلب عن الجزيرة ومنع وصول المدد من الشرق وكذلك قطع الإمداد بالحبوب والمؤن.. فقام جيش النجدة الموصلي بمناورة استدرج فيها الفرنجة نحو الخابور؛ وهناك، قرب رأس العين، هزمهم وأسر بودوان ونجا كلّ من سانكريد وبوهيموند ولجأوا إلى إيديس وتمركزت حامية إسلاميَّة قويَّة في حرَّان التي أصبحت مركزاً متقدِّماً للموصل في مواجهة الصليبيِّين.-في كانون الأوَّل /١١٠٩/ جمادي الأولى ٥٠٣/ نجح السلطان محمد بإخضاع الإسماعيليِّين في خراسان وانتزاع قلعة علموت منهم وقرَّر استئناف الجهاد، ومنذئذ صار الأمير آتابك الموصل هو المكلَّف بإدارة الجهاد وقيادة العمليَّات

ضدّ الفرنجة فعُبِّئت فرق من بلاد ما بين النهرين ووُضعت تحت إمرة الآتابك مودود الموعود بمراتب ومهامّ «الاصفهصلار». وتتابعت «حملة الصيف» أربعة أعوام متتالية (١١٠٩/٥٠٣ - ١١١٣/٥٠٧) منطلقة غرباً وهدفها إيديس (الرها - اورفة) وظلّت جيوش الموصل تكرِّر محاولاتها الاستيلاء على هذا المركز الفرنجي المتقدِّم طوال ثلاثين عاماً.

في دمشق، عام /١١٠١/٤٩٤/ إستأنف دُقاق بن طوطش حلم أبيه بتوسيع ملكه وضمّ ديار بكر وأعالي ما بين النهرين إليه. وتحرُّكُهُ وراء هذا الهدف أقصاه عن دمشق وعن تلقّي دعوة الفاطميين لمساندتهم لإنقاذ مدن فلسطين التي ما زالت باقية في أيدي المسلمين علماً أنَّ دُقاق اختار موقف عدم التدخّل لقاء موقف مماثل من قبل فرنجة القدس حيال دمشق.-وفي عام /١١٠٢/٤٩٥/ بلغ دُقاق الفرات ومن هناك اضطرّ للعودة على أعقابه إلى حمص التابعة لدمشق آنذاك لأنَّ واليها قُتل بأمر من رضوان صاحب حلب علماً أنَّ حمص ظلّت طوال القرن الثاني عشر محور التنافس بين حلب ودمشق وأيُّهما غلب بسط وصايته عليها!

● **آل البريدي بدمشق.**

عام /١١٠٢/٤٩٧/ مات دقاق وانتقلت السلطة إلى الآتابك طختاكين المملوك السابق لطوطش فكان المؤسِّس للسلالة البريدية التي ظلّت تتحكّم بمقدّرات دمشق زهاء نصف قرن /١١٠١ - ١١٥٤/.

والسياسة الدمشقية قامت على محاولة الإحتفاظ باستقلاليّتها عن كلٍّ من الموصل والقدس في إطار حلِّ مشكلتها الرئيسيَّة وهي تموين دمشق ولا يتمّ ذلك إلاَّ باستمرار السيطرة على البقاع وحوران أهمّ منطقتين زراعيّتين منتجتين للحبوب آنذاك إضافة إلى الغوطة الغنيَّة بزراعة البقول والأشجار المثمرة. فالبقاع، جوف سورية أيّام الرومان،

سهل بين سلسلتي جبال لبنان الغربية والشرقيَّة المواجهة يرتفع /١٠٠٠/ متراً عن سطح البحر تقريبا وهو غني جداً بزراعة الحبوب ويستهدف لأطماع حمص وحلب شمالاً، والفرنجة من الجنوب ومن هنا كانت أهميَّة بعلبك المبنيَّة على خطّ توزّع المياه للدفاع عن المنطقة والسيطرة على الطريق التي تربط دمشق بحمص.أمَّا الإقليم الزراعي الثاني ذو التربة الغنيَّة جدّاً والصعبة الحراثة بسبب كثرة الحجارة البركانيَّة فيها فهو «حوران» الذي أصبح المحور الدائم للحروب بين دمشق والقدس لأنَّه ذو مدخل سهل نسبيّاً من الشمال والغرب والمركزان الصالحان لمراقبة التحرُّكات في الإقليم هما بصرى وصلخد والتحاسد كان دائماً بين حاكمي قلعتي المدينتين ولذلك كان يولّى عليهما أمراء متنافسون تتجاذبهم إغراءات دمشق حيناً والقدس حيناً آخر. فالمعركة، إذن، في هذا الإقليم، لم تكن يوماً إيديولوجيَّة بل تحرّكها ضرورات إقتصاديَّة. فالتموّن بالحبوب والأعلاف كان الهمّ الأوّل لكلّ من دمشق والقدس؛ ولكن عبثاً حاول فرنجة المملكة اللاَّتينية استعداء حوران ضدّ دمشق جاهلين المصلحة المشتركة التي أصبحت تتطلَّب حماية دمشق والقدس معاً من خطر الشمال المتمثّل في تهديدات زنكي عام /٥٢٢/١١٢٨/ فلم يعد للدولتين مصلحة في أن تحارب إحداهما الأخرى بل رأيناهما تتحالفان. فبعد أن هزم طختاكين الفرنجة في طبريَّا عقد مع بودوان صاحب القدس هدنة أربعة أعوام الأمر الذي أتاح للفرنجة قدرة شنّ الغارات ضدّ المرافىء الباقية على ولائها للفاطميِّين؛ ففي شعبان /٥٠٢/ آذار ١١٠٩/ قامت القوَّات الإقليميَّة التابعة «لبرتراند ابن ريموند دي سان جيل»، مدعومة من الجنويِّين، قامت بمحاصرة طرابلس التي تحكمها عائلة بني عمّار الشيعيَّة وتلعب دورها المنشّط للمقاومة ضدّ الفرنجة ونظرا لعجز الفاطميِّين عن تقديم نجدة فعَّالة طلب الطرابلسيُّون النجدة من طختاكين وأرسلوا بعثة وصلت إلى نفس بغداد ولكنّهم لم يحصلوا

على أيّة نتائج فسقطت طرابلس في أيدي الفرنجة في /١١ ذي الحجّة/ ١٢ تموز ١١٠٩/ وجعلوا منها عاصمة «كونتيّة طرابلس» أي الدولة اللاّتينيّة الرابعة في الشرق برئاسة «برتراندي سان جيل» كونت تولوز ولم تمضِ أشهر قليلة حتّى تمّ الإستيلاء على مرافىء بانياس وجبيل وبيروت ولم يبق للفاطميّين سوى صيدا وصور وعسقلان.

نجاحات الفرنجة بدأت تضايق بغداد وبين /١١٠٩ و١١١٣/ خضعت إيديس (الرها) لمناوشات المسلمين المتتالية المنظّمة ولا أمل لحكّام هذا المركز الصليبي المتقدّم في دعم من الدول اللاّتينية إلاّ إذا تدخّل ملك القدس شخصيّاً.. لقد سقط بعد أن استطاع الصمود /٣٠/ عاماً بوجه جيش الموصل. /وفي العمق الغربي كانت المعارك والهدنات سجالاً بين حلب وإنطاكية تماماً كما كان الحال زمن بيزنطيّة الأمر الّذي كلّف حلب أعباء إقتصاديّة ناءت تحتها ممّا دفع الحلبيّين لإرسال بعثة إلى بغداد عام /٥٠٤/١١١٠/ التقت هناك بممثلي لاجئي طرابلس في طلب العون من الخليفة ومن السلطان الّذين تعمّدا اللامبالاة بالجهاد لأنّ رضوان أمير حلب رفض في العام السابق مساعدة مودود آتابك الموصل متذرّعاً بوجود هدنة بينه وبين تانغريد صاحب انطاكية المحتلّة.. ولمّا رفض قصر الخلافة استقبال الوفد عمد الحلبيّون على إثارة الجمهور في صلاة الجمعة بالمسجد الكبير ببغداد فحصلت إضطرابات خطيرة وفي الجمعة التالية تجدّد الهياج فرضخ السلطان محمد لضغط الرأي العام الشعبي وكلّف رسميّاً الأمير مودود باستئناف عمليّات الجهاد. في-٠/رمضان /٥٠٥/ آخر تموز ١١١١/ هاجم جيش الموصل الفرنجة ليس في أورفة (الرها) بل في «تل بشير» وراء الفرات بعد عبوره إلى البيرة وبذلك قطعت طرق المواصلات مع الرها ولكنّ الحامية قاومت الحصار /٤٥/ يوماً وهذا فشل بالنسبة لمودود الذي انسحب،وفي الخريف سرّح جيشه وواعده كالعادة في الربيع

القادم (لو أن رضوان أمير حلب تدخَّل لسقط الموقع سريعاً).

في شوال / ٥٠٥/ نيسان ١١١٢/ انطلقت حملة جديدة من الموصل باتّجاه إيديس (أورفة) فدمَّرت الكونتيَّة ونهبت في /ذي القعدة /أيار/ ؛ إلاَّ إنَّه، ما دام أمراء سورية لا يتعاونون، لن يتحقّق أي نصر جادّ وفعّال.

عام /٥٠٦/ حزيران ١١١٢/ حزيران ١١١٣/ تعاقدت دمشق والموصل على التعاون ضدّ الفرنجة وذلك للمرَّة الأولى فاستجاب مودود لدعوة طختاكين للعمل معاً وصدّ بودوان قائد فرنجة القدس الذي أصبح على أبواب بعلبك فنجح المسلمون في دحر الفرنجة حتّى طبريًا ورغم هذا النجاح الأولي لم يستطع التركمان الصمود في طبريّا بسبب حرارة شمس آب أضف إلى ذلك أنَّ الفرنجة تلقّوا مدداً كبيراً اضطّر مودود إلى التقهقر وتسريح سراياه وقبول دعوة طختاكين فعاد إلى دمشق وهناك، في ربيع الثاني، /٥٠٧/ تشرين الأول ١١١٣/. . في يوم جمعة. . وعند الخروج من الصلاة، طعن مودود بسكّين أربع طعنات قاتلة وهو خارج من الصلاة في المسجد الكبير.ـ من كان مرتكب الجريمة؟-لقد ألقيت التهمة على الباطنيِّين ولكن رضوان أشاع أنَّ المسؤول كان طختاكين نفسه فأنيط منصب الموصل الفارغ بآق سنقور البرسقي قائد جيش العراق الذي أصبح آتابك مسعود الفتى ابن السلطان محمد.

● ٢ ـ الغازي صاحب ماردين

بعد بضعة أشهر من موت رضوان في رجب /٥٠٧/ كانون الأول ١١١٣/ سادت الفوضى حلب وتعرّض الإسماعيليُّون لهجوم من السكان. في عام /٥٠٩/ ١١١٥/ نصّب أصحاب الحلّ والعقد الحضي لؤلؤ حاكماً فثار ضد سلطة الموصل واستدعى طختاكين دمشق لمساعدته وكذلك الغازي صاحب ماردين صهر طوطش. واتفق الثلاثة على طلب مساعدة

انطاكيه ضدّ الجيش الزاحف من الجزيرة لاستعادة سلطة الموصل وقد هزم الجيش المذكور في تلّ دانت. . واستمرّت الإضطرابات في حلب التي فرغت خزينتها ونهبت ضواحيها وفي ذي الحجّة /٥١١/ نيسان ١١١٧/ مات لؤلؤ مقتولاً وانتهى الأمر ببورجوازيّة حلب - بعد أن أعيتها الحيل إلى استدعاء الغازي وهكذا تأسّست في شعبان /٥١٢/ كانون الأول /١١١٨/ إمارة استقطبت قسماً من ما بين النهرين وشمال سورية ولم يتأخّر ردّ فعل روجيه حاكم انطاكية فاستولى في رأس السنة على إعزاز التي تسيطر على منفذ حلب الشمالي وتضاعفت الدسائس والمكائد في الموصل. . وفي ذي الحجّة /٥١٢/ نيسان /١١١٨/ خلف محمود أباه سلطاناً في جوّ من الدسائس التي كانت ترافق كلّ تغيير في السلطة وهي من تدبير الّذين يرشّحون أنفسهم للمنصب إيّاه.

إذن، لم يبق آنئذٍ سوى خصم واحد جادّ للصليبيّين: إنّه أمير ماردين الذي نظّم عام /٥١٣/١١١٩/ حملة ضدّ انطاكية بعد أن أمّن حياد إيديس ومؤازرة دمشق فاجتاز الفرات وهاجم الصليبيّين على بُعد /٣٥/ كيلومتراً غربي حلب. وفي ربيع الأوّل ٥١٣/ آخر حزيران ١١١٩/ استطاعت القوّات الإسلاميّة المتّحدة أن تلحق بالفرنجة هزيمة قاسية كانت الأولى من نوعها منذ بدء الغزو الصّليبي: ورغم أنّ روجيه حاكم انطاكية كان في جملة القتلى وأصبحت انطاكية دون حماية فالأمراء لم يلاحقوا الهاربين إلى أبعد من الأثارب على بعد /١٦/ كيلومتراً غربي حلب وتكرّرت مهزلة الهدنات والإشتباكات المتتابعة!

في عام /٥١٦/١١٢٢/ مات الغازي وتجزّأت إمارته فأقام ابنه تيمورتاخ في ماردين وابنه سليمان في ميّافارقين في حين حصل ابن أخيه سليمان بن عبد الجبّار على حلب وهو لا يملك قوّة كافية للدفاع عن المدينة ودرء خطر الفرنجة وغاراتهم المستمرّة لنهب الأراضي وبلوغ أسوار المدينة وساد في سورية الشماليّة وفي العراق جوّ البلبلة واليأس والشعور بالخزي وذلّ الهزيمة.

ظلّ الإستيطان الفرنجي زهاء ربع قرن تقريباً لا يثير إنعكاسات جادّة داخل سورية فأمراء حلب وحماه وحمص ودمشق وشبرز (نكتفي بذكر أهمّهم فقط) تمادوا في تنافرهم وحتّى فكرة التآزر والتحالف لم تخطر لهم على بال . . لقد استمرّوا يتشاحنون ويتقاتلون ويتعاطون اللهو والصيد ويسمعون المناظرات الشعريّة في مجالسهم وكلّما أراد أحدهم مهاجمة جاره لا يتورّع عن طلب العون من الفرنجة مباشرة وتلك لعبة خطرة على حساب الإسلام لا تنقطع أو تخفّ وطأتها إلّا عندما ينشب صراع ما بين الفرنجة . . أمّا جماهير السكّان في الريف وفي المدن فلم تحرّك ساكنا باديء ذي بدء : - إنها تشهد الترك يأتون والفرنجة يستوطنون والجميع ، دائماً ، أجانب غرباء .

● السلالة الزنكيّة والتحرُّك المضادّ للصليبيّة .

في مطلع القرن / السادس / الثاني عشر / ظهرت عائلة مالكة لعبت دوراً رئيساً في ما بين النهرين وسورية لإحياء الإسلام هي السلالة الزنكيّة رائدة الرجوع إلى السنّة ونقل مركز ثقل الإسلام إلى سوريّة .

عام / ١١٢٧/٥٢١ / قُلّد زنكي ولاية الموصل مع منصب آتابك فرقان ألب أرسلان ابن السلطان محمود وقد خلف أباه آق سنقور الذي ذبح قبل عام كما سبق وذكرنا . ذاك التاريخ كان نقطة انطلاق المقاومة السنية الجادّة ضدّ الفرنجة وبداية الإنتصارات الإسلاميّة على الصليبيّين .

الضدّان ، كلاهما ، اعتراهما الضعف والوهن بفعل الصراعات الداخليّة وإن كان الفرنجة قد احتفظوا بتفوّق أكيد على المسلمين لأنّ غاراتهم ظلّت تعمل خراباً ونهباً في أراضي حلب ومناطق حماه وحمص . . والحركات السريّة ظلّت تشيع الإضطراب في دمشق فتتركها عرضة لتهديد الفرنجة إذ لم تبق مدينة سوريّة واحدة لم تدفع غرامة للغزاة حتّى كان حضور عماد الدين زنكي فأعاد توازن القوى وشنّ هجوماً منظّماً ضدّ الصليبيّين ؛ وتميّز مُلك زنكي ، باديء ذي بدء ، بالرجوع المخطّط له إلى السنّة وإعادة إلحاق حلب بالموصل وبذل المحاولات لضمّ دمشق وأخيراً الإستيلاء على

إيديس وهو حدث كان العامل الأصلي المباشر للحملة الصليبيَّة الثانية.

لقد كان زنكي رجلاً عالي الهمّة، صارماً، طاغية، وعسكريّاً مؤهلاً ولكن مجرَّداً من الضمير الأخلاقي وخادماً أميناً للسلطان فتولّى تنظيم إعادة فتح أراضي «دار السلام» مبتدئاً بمحاولات إخماد المنافسات داخل المعسكر الإسلامي فأمَّن سلطته على الأمراء المجاورين للموصل وبخاصَّة الأرثوقيِّين (ماردين) وعقد هدنة مع «جوسلين» صاحب إيديس وانطلق غرباً لاستعادة إقطاعته حلب حيث تمركز الإسماعيليُّون مع ميليشياتهم منذ بداية القرن وحيث كان ولاة المدينة يخلف أحدهم الآخر - وميليشيات المدينة المواجهة للشيعة [الأحداث وقائدها الرئيس] كانت تفرض نفسها على السلطات وتتحكّم بالمدينة؛ أمّا السكّان فقد ضاقوا ذرعاً بالفوضى والإضطرابات وأعاروا آذاناً صاغية لدعاة زنكي الذي حقّق دخوله المنتصر إلى المدينة في جمادي الثانية ٥٢٢/ حزيران ١١٢٨/ وأقام له الحلبيُّون استقبالاً منقطع النظير.. ولكنّه لم يمكث في حلب بل ترك فيها والياً وعاد إلى الموصل لتسوية بعض المشاكل مع السلطان.

في دمشق مات الآتابك طغتاكن في صفر /٥٢٢/ شباط /١١٢٨/ وفي الخريف /١١٢٩/٥٢٣/ اكتشفت فيها مؤامرة انقلابيَّة إسماعيليَّة هامَّة خلقت ردّ فعل شعبي واسع وانتهت بمذابح رهيبة عقبها حصار قصير للمدينة من قبل فرنجة القدس الّذين لم يطل مقامهم وعادوا على أعقابهم.. وتولّى السلطة في المدينة تاج الملك ابن طغتاكن الذي انطلق هو أيضاً في حركة للرجوع إلى السنّة وهكذا أصبحت سورية كلها في مطلع الربع الثاني من القرن /السادس/ الثاني عشر/ أصبحت خاضعة لتيَّار عام متعطّش لخدمة مذهب السنّة والولاء له ومن الصعب أن نعرف كيف تكوّن التيَّار العام المضادّ للصليبيَّة في نفس الحقبة بسبب عدم وجود المصادر الإسلامية المعاصرة.

خلال العصر الّذي تلا الإنتصار الإسلامي في منازجرد استهدف «الجهاد» من دعاهم «الملحدين والزنادقة» ويعني بذلك فاطميِّي مصر ذلك لأنّ الدخلاء الأجانب من ترك وكرد هم الّذين تولّوا إيقاظ حروب الجهاد..

وبعد مجيء الصليبيّين صار لا بدّ من خلق شعور خصومة ومنازعة دينيّة إسلاميّة ـ مسيحيّة وهو شعور زال من سورية منذ زمن طويل حيث ما من أحد يفكّر بطرد المسيحيّين الذين يتعايشون تماماً مع المسلمين. . والّذي طرأ أخيراً لدى السّوريّين هو ردّ فعل إيديولوجي حوّل النفوس المعبّأة للجهاد ضدّ الهرطقات المضادّة للسنّة. . حوّلها ـ بعد أن عادت للسنّة مكانتها ـ إلى حرب منظّمة ضد الفرنجة الغزاة لبلاد المسلمين.

مسيحيّو الشرق كانوا يتمتّعون بالحماية (الذمّة) يدفعون الجزية ولا تشملهم النظرة إلى مسيحيّي الفرنجة. . لقد وصلت الحملة الصليبيّة الأولى وأنشأت دولاً لاتينيّة شرقيّة تنتمي إلى كنيسة مختلفة جدّاً عن الكنائس الشرقيّة وبالأصل كان العداء مستحكماً بين الكنيسة الموالية لروما وسواها من ملكيّين ويعاقبة الخ. . إذن فطبيعة الجهاد تبدّلت جذريّاً: ـ تحوّلت من هجوميّة إلى دفاعيّة. . وفكرة الجهاد أصبحت فكرة المقاومة والتحرّر من نير الغير. . تحرير الأراضي المحتلّة من قبل اللاّتين الآتين من الغرب وإلاّ فلن يبقى لسكّانها المسلمين سوى الجلاء واللّجوء إلى أرض إسلاميّة أخرى أي تهجير الفلسطينيّين إلى سوريّة مثلاً لدى استقرار الأمر لمملكة اللاّتين في القدس. ولا بدّ من التذكير هنا أنه إذا كان الجهاد الهجومي فريضة (شخصيّة) على الفرد فيكون الجهاد الدفاعي فريضة جماعيّة: ـ واجب جميع المؤمنين القادرين أن يهبّوا لنجدة الّذين وقع عليهم العدوان.

وحتّى نعرف أصول هذا الإحياء النوعي للجهاد والقوى التي خلقته وصيغ العمل والتعبير التي أخذها وحتّى مراحل تطوّره تستند إلى مقاطع من معاهدة أملاها الدمشقي السُّلامي عام /٤٩٨/ ١١٠٥/ واستهدفت العدوّ الفرنجي وتمثّلت الصليبيّة على أنّها «جهاد ضدّ المسلمين». هذا المؤلف استدرك للعمل العسكري مرحلتين تمهيديّتين: ـ مرحلة التعبئة المعنويّة التي يجب أن تضع حدّاً للإنحراف الفكري والأخلاقي. . ومرحلة التبصُّر بإعادة تعبئة القوى الإسلاميّة وتوحيدها.

وفي حين كان السُّلامي يدعو إلى الجهاد كان الفرنجة منشغلين بالمدن الشاطئيّة وقواهم موزّعة وبعيدة عن قواعدها بمعنى أنّ الوضع كان ملائماً لأن

يعمل المسلمون ولكنَّ أحداً لم يتحرَّك فاستطاع الفرنجة ترسيخ وجودهم في الشرق . . وصحيح أنَّ ثمَّة عمليَّات عسكريَّة جرت ضدَّ الصليبيِّين ولكنّها كانت متفرِّقة ، سيِّئة الإعداد ، محدودة الأهداف ، فكان يجب إنتظار منتصف القرن الثاني عشر حتَّى قام جهاد شامل ومخطّط له .

في مطلع عام / ٥٢٤ / كانون الثاني ١١٣٠ / عاد زنكي من الموصل إلى حلب لاستئناف الجهاد ضدّ الفرنجة وهو الوقت الذي كانت انطاكية فيه تجتاز أزمة وصاية (تولّي السلطة بالنيابة عن الملك) ، بعد موت بوهيموند الثاني . . فعمد زنكي إلى تخفيف ضغط الفرنجة على أراضي حلب التي كانت تؤدّي للصليبيِّين نصف موارد قطاعها الغربي فشنَّ الآتابك غارة لاستعادة الأثارب المشرفة على سهل العاصي ويتّخذها الفرنجة قاعدة لغزواتهم وغاراتهم . . وبعد أن أحكم زنكي حصار المكان انطلق لسحق جيش قادم لنجدتها ثمَّ عاد لمتابعة محاصرة الأثارب حتَّى سقطت وتقدّم المسلمون حتَّى بلغوا حارم وهكذا ، في حملة واحدة ، لم ينجح زنكي ، فقط ، في استعادة الأراضي التي كانت تدفع الغرامة للفرنجة بل انتزع من فرنجة حارم غرامة موازية لتلك التي سبق للحلبيِّين أن دفعوها وإنَّ جباية نصف واردات أرض محتلّة كان في ذاك العصر ثمن متاركة (مهادنة) - وسرعان ما تحسَّنت الأوضاع في حلب وأصبح بإمكان زنكي التغيُّب عنها دون خوف منها أو عليها . .

في الوقت المذكور كان يوجد أميران كرديَّان أخوان منشؤهما إقليم دقين بأرمينية هما «أيُّوب وشيركوح» وكانا في خدمة العائلة الشدَّاديَّة المالكة في القفقاز وقيِّض لكلّ من الأخوين مستقبل مرموق . - بعد عام / ١١٣٠ / دخلا في خدمة أحد سلاجقة بغداد . . «بهروز» الذي أقطع أيّوب مركز «تكريت» المهمّ على دجلة وهناك استقرّ مع أخيه . - وأثناء تدخُّل زنكي ، عام / ١١٣٢ / ، بالمنازعات السلجوقيّة عقب موت السلطان محمود بن محمّد اتّخذ موقفاً مضادّاً للخليفة وساند مسعود بن محمد شقيق السلطان المتوفَّى وحاول مهاجمة بغداد فاستهدف لملاحقة أخصامه له فساعده أيُّوب صاحب تكريت على اجتياز النهر واستضافه عنده وبذلك خان وليَّ نعمته الذي لم

يستطع أكثر من توجيه اللّوم إلى الأمير الكردي. . تلك الخدمة كانت الأساس للعلاقات الجيّدة بين العائلتين حتى ظهر صلاح الدين.

استمرّت المناوشات عند تخوم انطاكية وحلب. وعند نهاية /٥٢٧/ آخر ١١٣٢/ مطلع ١١٣٣/ وصل الفرنجة على بُعد عشرين كيلو متراً جنوب غرب حلب ولكنّ مساعد زنكي الأمير «ساوار» أعاد الكرَّة ثمّ هزم ووصل الفرنجة إلى قنّسرين [CHALCIS] القديمة ثمّ دخلوا انطاكية.

في دمشق لدى موت برعي أثر جرح قاتل (رجب /٥٢٦/ حزيران ١١٣٢) على يد واحد من الإسماعيليّين، تولّى السلطة شمس الملك إسماعيل بن رُعي فتمكّن من استعادة بانياس الّتي تركها الإسماعيليّون للفرنجة. وفي رمضان /٥٢٧/ تموز١١٣٣/ اغتنم إسماعيل فرصة وجود زنكي في العراق فاستولى على حماه ومنطقتها الزراعيّة الغنيّة وكانت تابعة للموصل. . ثمّ هاجم شيزر على العاصي ذات القصر الحصين الذي يقطنه أمراء بني مُنقذ فدفع له هؤلاء مبلغاً من المال اشتروا به منه مهادنته لهم.

بعد زمن شعر إسماعيل بن بُرعي أنّه مهدّد من قبل ذويه وأصبح مهيّأ لتسليم دمشق لأيٍّ كان باستطاعته إنقاذها فاستنجد بزنكي سرّاً. . ولم تكن تحسُّبات اسماعيل خاطئة إذ قُتل في /١٢ ربيع الثاني ٥٢٩/ ٣٠ كانون الثاني ١١٣٥/ بتحريض من أمّه. . وتقول رواية أخرى أنّ القتل تمّ بتحريض من خادم غرفة الملك يوسف بن فيروز الذي يقال أنّه عشيق الأميرة الأرملة المتمتّعة. . فانتقل الملك إلى شهاب الدين محمود شقيق المقتول. - ورغم التغيير الطارىء تابع زنكي زحفه على دمشق، وفي جمادي الأولى /٥٢٩/ شباط ١١٣٥/ حاصر المدينة وانتهت العمليّة بالإتّفاق وعاد زنكي بعده إلى الشمال فاجتاح أراضي انطاكية ونهبها لتعويض مصاريف حملاته واضطرّ لأن يعود مرّة أخرى إلى العراق لمعالجة المنازعات المستجدّة هناك والّتي هدّدته باقتطاع الموصل منه وإقطاعها محظوظاً آخر يسانده كلٌّ من السلطان والخليفة. . وفي عام /٥٣١/١١٣٧/

ثبّت زنكي وضعه في الموصل ورجع إلى حلب في شعبان /أيّار/.

في تلك الحقبة وصل الأمبراطور البيزنطي إلى أنطاكيةوتغيرّت بذلك رقعة شطرنج السياسة العسكريّة في سورية الشماليّة. لقد كان الامبراطور، منذ شهور، يمنّي النفس بامتلاك المدينة عندما عرضت عليه الوصيّة على الكونتيّة (آليس) يد (كونستانس) ابنة بوهيموند الثاني لابن الأمبراطور «مانويل» ولكن المشروع فشل لأنّ «جان كومنين» مارس حقّه بموجب إتفاقيّـة عام /١١٠٨/ التي بموجبها، يمتلك الفرنجة الأراضي التي يفتحونها خارج الحدود القديمة للامبراطوريّة البيزنطيّة وهذا يعني ضمّ انطاكية الى ممتلكات جان المذكور. إلاّ أنّ ذلك العارض لم يمنع الفرنجة من الاشتراك مع اليونان في عمليّات جديدة داخل سوريّة ففي شعبان /٥٣٢/ نيسان ١١٣٨/ حاصرت قوّات الامبـراطوريّتين شيـزر فاستنجـد أمراؤ ها من آل مُنقذ بزنكي الذي تحرّك الى مكان قرب حماه ودون خوض معركة مباشرة استطاع زرع الخلاف بين الحليفين المسيحيّين فرفع البيزنطيّون الحصار دون إنذار حليفهم وذلك لقاء تعويض مجزٍ وذهبوا تاركين أجهزة الحصار غنيمة لزنكي وفي ذلك العام صار «بهروز» «شحنة» بغداد فعزل والي تكريت الذي عصاه مرّتين ومال إلى خدمة أخيه الملاحق بجرم قتل أحد الكتبة المسيحيّين فلجأ الرجلان إلى المـوصل حيث استقبلهمـا زنكي وقلّدهما منصبين ممتازين.

في شوّال /٥٣٣/ حزيران ١١٣٩/ قتل شهاب الدين أمير دمشق على يد ثلاثة من خدمه وحاولت زمرّد خاتون والدة القتيل التي تزوّجت من زنكي حثّ زوجها على الثأر لإبن زوجته والإستيلاء على دمشق وكان الأمير معين الدين عينار قد استلم زمام الإدارة وزنكي يتحيّن الفرص للإستيلاء على دمشق وما إن راجت فيها أخبار زحفه نحوها حتّى عمّ الإستياء السكّان وتحصّنوا وراء الأسوار فعمد إلى سلاح رشوة أصحاب الحلّ والعقد وبانتظار النتائج بادأ بعلبك

بالهجوم باعتبارها مفتاح البقاع ولها لدى دمشق أهميَّة إقتصاديَّة كبرى واستعمل المنجنيق في هجومه فاستسلمت المدينة باستثناء القلعة التي ظلّت تقاوم داخل الهيكل العريق وفي صفر /٥٣٤/ تشرين الأول /١١٣٩/ أعطى رجال حاميتها وعداً أنَّ حياتهم في أمان إذا استسلمت ولكنَّه نكث العهد وذبحهم حال خروجهم منها. . وذلك موقف كان ضلالاً سياسيَّاً ثقيل الوطأة على صاحبه لأنَّ دمشق لم تعد تثق بوعود ومواثيق زنكي وتصلَّبت في موقفها فقلَّد زنكي أمور بعلبك الى ممثّله الأمير أيُّوب الذي مكث فيها قرابةَ ثمانية أعوام ومعه ابنه الفتى صلاح الدين الذي حرَّف مؤرِّخو الغرب اسمه فصار (صالادان).

بعد تثبيت وضع بعلبك سار زنكي نحو دمشق بعد أن بعث إليها رسلاً كلَّف بعضهم بالإتِّصال بالأمير وأن يعرضوا عليه استبدال دمشق ببعلبك أو حمص أو أيَّة مدينة أخرى. . والبعض الآخر باستمالة الميليشيات الشعبيَّة «الأحداث» وكذلك الغلمان - الأشرار «الزناترة» وإغراء هؤلاء «القبضايات» بالمكافآت الكبيرة ولكنَّه لم يتلقَّ جواباً من أحد. . واقترب أكثر في فصل الأيام القصيرة ربيع الثاني/ كانون الأول/ واستمرَّ تبادل الرسل وأصاب المرض جمال الدين محمد بن بُرعي الذي اطلق عليه السكان إسم أخيه محمود يوم كان والياً على بعلبك فتجدَّدت آمال زنكي ومات الأمير في مطلع شعبان /٥٣٤/ آخر آذار ١١٤٠/ وانتقلت السلطة إلى ابنه مجير الدين إيـواك وتبلورت المقاومة حول الأمير معين الدين عنَّار الذي - من أجل فك الكمَّاشة المطبقة عليه - توجَّه نحو الفرنجة فأسرعت القدس بقوَّاتها التي لم تذهب أبعد من تخوم المملكة اللاَّتينيَّة فعادت الطمأنينة إلى زنكي وساد الهدوء الشتاء. . وفي الربيع - نيسان /١١٤٠/ - عرض معين الدين علي زنكي أن يذكر اسمه في الخطبة ويعترف بمولويَّته فقبل زنكي نظراً لصعوبة الإستيلاء على المدينة وعرض الأمير على أصحابه على أنَّه نصر معنوي وقفل راجعاً إلى الشمال. وعملية

زنكي الآنفة الذكر لم ينجم عنها سوى التقريب بين دمشق ومملكة القدس وأصبحت سابقة تمثل بها الأرتوقيُّون في الشمال إذ حاولوا الإتفاق مع انَطاكية ضدّ زنكي وتبعهم آخرون حتّى تميَّزت محصَّلة سياسة زنكي لتلك الحقبة بالتحالفات بين أمراء مسلمين وبين الدول اللاّتينيَّة.

وبين /٥٣٤/ ١١٤٠/ و /١١٤٣/٥٣٧/ دارت العمليّـات الحربيَّة بين زنكي والتركمان وارتوقيّي ديار بكر والأكراد.

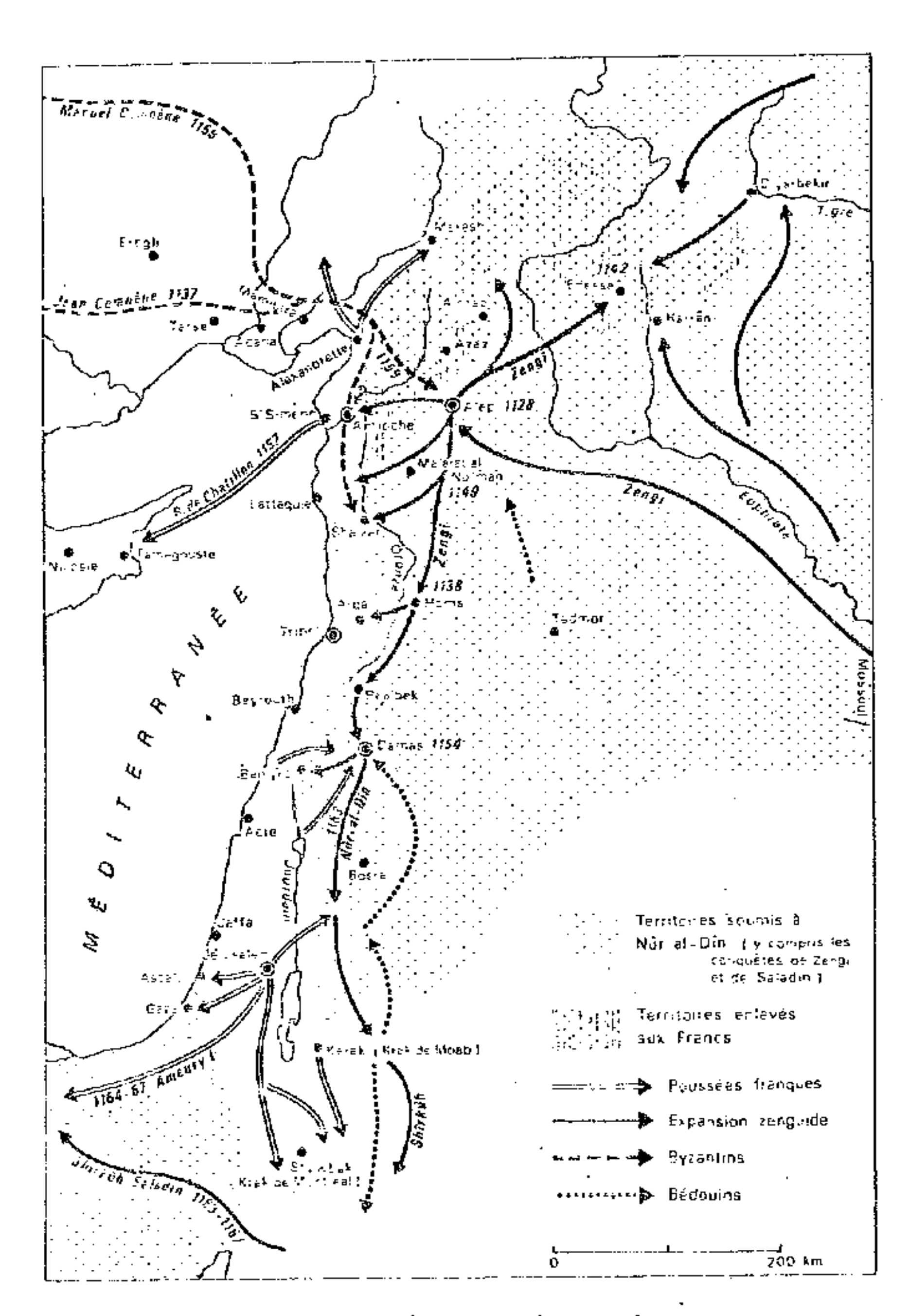
كان زنكي يعلم بوجود عداوة عميقة بين أمير انطاكية وكونت إيديس. . في /١١٤٤/٥٣٨/ عزم على اغتنام الفرصة والتوجُّه إلى أعالي ما بين النهرين ناشراً مقولة وهميَّة هي أنه ذاهب لمهاجمة الأرتوقيّين في ديار بكر حتّى أنه استولى فعلاً على بعض مراكزهم كي لا يوقظ شبهات الفرنجة. . وعلم آنئذ أنَّ جوسلين خرج من إيديس لمهاجمة الرقَّة ولكنَّه لم يحرِّك ساكناً وغيَّر جوسلين رأيه وانقلب راجعاً إلى نواحيه غربي الفرات وقدّر زنكي أنَّ جوسلين أصبح بعيداً عن ايديس فأرسل لحصارها بعض قوَّاتـه ومعهم قوَّات كـرديّة وتركمـانيّة. . وإيديس (الرها) كانت مسكونة بالمسيحيِّين ومعظمهم أرمن أعداء لبيزنطية وهي أهمُّ مدينة فرنجيَّة شرقي الفرات وكانت حاميتها القويَّة تشنُّ غاراتها المتتابعة ضدّ المسلمين إضافة إلى كونها مفترق طرق مواصلات: طريقان يصلان من الشرق الأوَّل من آميد عاصمة ديار بكر والثاني يربط مـاردين ونصيبين مع تـل موزان وإيديس. . ونحو الغرب طريق يجتاز الفرات عند البيرة بـاتجاه مرعش أو أنطاكية ماراً بمنحدر وادي عفرين. . وطريق فرعي يلتوي جنوباً نحو ساروج ليبلغ الفرات ثمَّ منبج وحلب. . وطريق شمال ـ جنوب يمرُّ في إيديس. . وطريق سُميرات الرقة بواسـطة وادي البليخ. . ومنذ القرن الثاني عشر استولى المسلمون على مركز حرَّان جنوب إيديس فقلَّ استعمال الطريق الأخير المذكور.

في جمادى الأولى /٥٣٩/ تشرين الثاني ١١٤٤/ بدأ زنكي

محاصرة مُحكمة لإيديس التي سبقت محاولتان للإستيلاء عليها:ـ مودود عام ١١١٢/-وآق سنقور البرسقي عام ١١١٤/ .-والمحاصرة هذه المرَّة تمَّت بأعداد كبيرة من الجنود وأعتدة ضخمة تتزايد دوماً بفضل المدد المتواصل ونشطت أعمال الحفر تحت الأسوار وفتح الخرسانيُّون أنفاقاً.-وعرف جوسلين بالحصار وعاد على عجل ولكنه وصل متأخراً جداً:ـ في ٢٦ جمادى الثانية / عشية عيد الميلاد ١١٤٤/ أضرمت النار في التخاشيب فأحرقت الجسور ودمَّـرتها فانهارت شقَّة أحد الجـدران ونفذ المسلمـون من ثلمة الحـائط وسقطت القلعة بعد يومين من دخول المدينة واتَّخذ زنكي تدابير سريعة لمنع وقوع مـذابح وردّ الأرزاق المنهـوبة إلي أصحـابها المسيحيِّين ـ اليعقوبيّين فاغتاظ الأرمن وأبيحـت أرزاق اللاّتين وبـذلك أصبحت أنطاكية هي الدولة الفرنجيَّة الوحيدة في الشمال وأصبحت الهدف الرئيسي لحلب والموصل.

عام /٥٤٠/ حزيران ١١٤٥/ ـ حزيران ١١٤٦/ أصبحت لدى زنكي ثلاثة اهتمامات رئيسة :-الإحتفاظ بايديس ـ واجتناب أي هجـوم يأتيـه من الشرق.ـ وصيـانة حـرّية العـلاقات بين حلب والموصل.

وتثبيتاً للهدف الثاني أخضع زنكي أكراد بزنوي المستوطنين شمال غرب جزيرة ابن عمر على دجلة.ـ وفي اطار الهدف الثالث سعى للإستيلاء على قلعة جعبر على يسار الفرات مقابل صفّين المركز المشرف على الملاحة النهريّة ومقاطع (مخاضات) النهر المجاورة. وهي، منذ عهد ملك شاه في أيدي الأمراء العقيليّين الأسرة العربيّة الشيعيّة الصغيرة.. ودام الحصار الصّيف كلّه لعام /١١٤٦/٥٤٠/ وفي /٥/ ربيع الثاني ٥٤٠/ ١٤ أيلول ١١٤٦/ في أمسيّة نحر وشرب طُعن زنكي بخنجر من يد ندماءلهوه واستطاع القتلة الإلتجاء إلى القلعة المعادية ومن أعلى سور القلعة أذاع



SYRIE ET PALESTINE AU TEMPS DE NÛR AD-DÎN (1118-1174)

المحاصرون نبأ وفاة زنكي فنفر الأمراء ولكنّهم وجدوه يلفظ أنفاسه أربعـة:ـ نور الدين محمود أحد الأبناء الأربعة للأتابك المتوفي انتزع الخاتم ـ علامة سلطة والده ـ بالقوّة ووضعه في اصبعه وقلبت صفحة جديدة.

دور زنكي كان يمكن أن يكون حاسماً على الصعيد الإسلامي فقد حاول أن يعيد للجهاد معناه ومحتواه وتمكّن من وقف الإندفاعة الفرنجيّة وإعادة الجمع بين عدد من أمراء المسلمين وبفضله قام توازن ما بين قوى الفرنجة وقوى المسلمين وأصبح قَدَرُ ابنه نور الدين محمود أن يجعل كفة الميزان ترجح لصالح الإسلام بعد استعادة القدس على يد صلاح الدين.

ملك نور الدين

● بدايات عهد نور الدين

الحقّ في وراثة زنكي طرح سلسلة من المشاكل فقد كان ورثة تركته أربعة:-الإبن البكر سيف الدين غازي ممثّل والده في الموصل المعتمد في الإعتراف بسلطته على الخليفة والسلطان في حـال قبولهما مبدأ الإرث على الأراضي التي يملك زنكي حقّ الإنتفاع بها واستغلالها فقط.

الإبن الثاني نور الدين محمود كان في التاسعة والعشرين من عمره ورافق أباه في معظم عمليّاته الحربيّة وتمتّع بالنفوذ والحظوة داخل الجيش.

والثالث نُصرَة الدين أمير أميران الذي ثار ضدّ نور الدين كان والياً على حرّان.

والرابع قطب الدين مودود كان في السادسة عشرة من عمره وهو

الذي سيخلف أخاه البكر في الموصل. وأخيراً، لزنكي بنت أيضاً تزوّجت من الأمير ناصر الدين السوري.-لقد تولّى تصفية التركة إثنان من مستشاري زنكي المقرّبين:-وزيره جمال الدين محمد بن علي الجواد الأصفهاني الشهرازوري وهو موظّف سلجوقي سابق، والحاجب صلاح الدين محمد الياغيباصاني والعلاقات بين الشخصيّتين لم تكن ودّية ولكن الخطر المشترك قرّب كلاّ منهما إلى الآخر.-لدى إعلان موت زنكي خطر للقاصر الفتى السلجوقي ألب أرسلان إبن السلطان محمود أن يحصل على الإعتراف به سلطاناً فركب حصانه ومرّ على مرأىً من قوّاته التي قدّمت له التعظيم الواجب الأمر الذي لم يرق لمستشاري زنكي خوفاً على مناصبهم التي لا طريق للحفاظ عليها إلا في مساندة أبناء مولاهم السابق وهنا استعملوا دهاءهم وأبعدوا الفتى السلجوقي نحو الرقّة حيث استقبل الفتى بأبّهة وبذخ فاستطاب المناخ هناك حيث النبيذ الكثير والراقصات الحسناوات الجذّابات.

نور الدين الذي رافق والده في لحظات حياته الأخيرة أسرع إلى حلب بناء على نصيحة من صديق لأبيه الأمير الكردي أسد الدين شيركوح. وفي عاصمة شمال سورية اعترف الأمير سوّار الذي خدم بأمانة الآتابك المتوفيّ.. اعترف بالسلطة الزنكيّة وأقرّها وكذلك فعل أمير حماه صلاح الدين الياغيباصاني.. أمّا في الموصل فالحالة أكثر تعقيداً ومعظم السكّان كانوا موالين لألب أرسلان إلاّ أقلّية قليلة تلتفّ حول الأمراء الموالين للزنكيّين وحينها كان ألب أرسلان يمارس حياة اللهو في الرقّة فسعى الوزير والحاجب لدى والي الموصل زين الدين على كوتشوك بن بختكين للعمل على سرعة استقدام سيف الدين غازي إلى الموصل (وكان آنئذٍ في شهرازور في كردستان) والعمل على الإعتراف بسلطته.. وفي نفس الوقت استمرّ الإحتيال على أمراء جيش زنكي ووحدات الموصل كي يعترفوا بسلطة بكر الورثة لزنكي. وإبّان عودة الجيش شرقاً كان

ينطلق، كلّ يوم، فريق من ضبّاطه بحجّة الريادة والإستكشاف ثمّ لا يعودون لأنّهم كانوا ينضمّون في الموصل إلى صفوف أنصار سيف الدين وأدرك ألب أرسلان تناقص قوّاته على الشكل المذكور وهو على بعد مرحلة من سنجار وعندها تمّ اختطافه وسجنه في الموصل ولم يقف أحد على أثر له بعدها. . عندها استحصل فريق الموالين للزنكيّة على موافقة السلطان الرسميّة فقلّد سيف الدين ولاية الموصل وخلع عليه. وإنّ حلّ مشكلة الوارثة على هذا الشكل رسّخ مبدأ جديداً هو انتقال الإقطاع إرثاً وقد عمّم نور الدين هذا المبدأ في سوريه.

كان الفرنجة يؤمّلون أن تؤدي النزاعات الإرثيّة إلى إضعاف القوّة الزنكيّة ولم يتلقّ ريموند دي بواتييه أمير انطاكية نبأ القتل إلّا بعد أسبوع من وجود نور الدين في حلب وهذا برهان على ضعف جهاز المخابرات لديه. . فأطلق وحدتين مقاتلتين الأولى ضدّ حلب والثانية ضدّ حماه وخلق ظهور الفرنجة المباغت تشوّشاً لدى المسلمين فاستعادوا تماسكهم وقامت سرايا شيركوح بهجوم مضادّ ردّ الفرنجة على أعقابهم نحو انطاكية وحرّر المسلمين الأسرى الذي استقدمهم الفرنجة معهم. . وهكذا كان ردّ الفعل محدوداً في انطاكية على خلاف ما صار إليه الحال في ايديس:ـ العناصر الأرمنيّة التي تشكّل أكثريّة السكّان عزلت الحامية الإسلاميّة واستنجدت بجوسلين الذي كانت أمّه أرمنيّة فدخل الفرنجة المدينة في حين ظلّ المسلمون متحصّنين في خنادق القلعة بانتظار نجدة الموصل حسب العائديّة ولكنّ نور الدين كان سبّاقاً للوصول أوّلا قادماً من حلب قاطعاً المسافة في ستّة أيّام من السّير الحثيث رغم ثقل أحمال أجهزة القتال ونظّم حصاراً محكماً أجبر الأرمن بالنهاية على إخلاء المدينة بعد سقوط عدد كبير منهم قتلى وأسرى وبينهم بودوان مرعش. . أما جوسلين فنجح في قطع الفرات واللّجوء إلى صُمَيصَات ومنذئذٍ ضُمّت ايديس المدينة المسيحيّة التابعة للموصل إلى أراضي حلب

تحت سلطة نوار الدين. أمّا التعزيزات المرسلة من الموصل فقد وصلت متأخرّة جدّاً ولم يرسل نور الدين شيئاً من الغنائم إلى أخيه البكر والي الموصل ومولى نور الدين من الوجهة الرسميّة.. فتدهورت العلاقات بين الأخوين لمدّة قصيرة بادر بعدها نور الدين إلى تقديم التعظيم الرسمي لأخيه مع حصّته من الغنيمة وقد تطلّب ذلك الظرف السياسي المتمثّل في ضغوط الفرنجة وتحرّكات الأرتوقيّين والبلاط السلجوقي؛ كلّ ذلك كان يتطلّب إتّفاقاً وثيق العري بين ورثة زنكي حفاظاً على أملاكهم فلم يضع الأخوان حدوداً لنفوذ كلّ منهم وحدّدا الخطّ العام لسياستهما فبقي سيف الدين في الموصل وبوصفه رئيس العائلة تولّى الحفاظ على التراث أزاء أطماع الأرتوقيّين والأكراد الحكّاريّة.. واستقرّ نور الدين في حلب معترفاً بالمولويّة لأخيه، حاصلاً على ضمانات للحدود الشرقيّة الواصلة إلى الضفة اليسرى للبليخ. آخذاً على عاتقه مواصلة الجهاد ضدّ الأعداء في الغرب.. ولأنّه لم يعد يعتمد على أيّ عون من قبل الجزيرة أصبح على نور الدين تنظيم وحدة سوريّة حتّى يتمكّن من متابعة الحرب ضدّ الصليبيّين تقرّر استئناف العمل لتحقيق هدف أبيه بالإستيلاء على دمشق ودمج المدينة مع سورية الموحّدة ووراء ذلك أهداف حيويّة واضحة.-إنّ انقطاع شمال سورية عن الجزيرة يجعلها بحاجة ملحّة إلى البقاع وحوران للتموّن بالحبوب.

لدى موت زنكي استعاد حاكم دمشق معين الدين عنّار سيطرته على بعلبك وتمّت العمليّة دون قتال فاحتلّت قوّات دمشق المدينة وحاصرت القلعة فتحالف الحاكم نجم الدين أيّوب شقيق الأمير شيركوح ووالد صلاح الدين، تحالف مع البريديّين بعد أن قبلوا الشروط التي وضعها ومنها أن يبقي حاكماً لبعلبك ويحصل على مبلغ هام من المال وبيت في دمشق مع واردات عشر قرى من الغوطة.. وبهذا دخل المعسكر المعادي للزنكيّين والحزب المعارض لحزب أخيه شيركوح ولكنّه سرعان ما لعب دوراً هامّاً

كصلة وصل لأخيه وممثّل رسمي لنور الدين في دمشق وبذلك لعب إزاء السكّان دوراً سياسيّاً هاماً.

من الجانب الآخر أقام نور الدين صلات جيّدة مع حمص وحماة وكان أمير دمشق الذي تفصله عن نور الدين إمارتان صديقتان ويقبض على زمام بعلبك ويطمئن إلى الهدنة القائمة مع القدس.. كان يؤمّل القدرة على سلوك سياسة حياد إيجابيّة. - وفي ربيع عام /٥٤١/١١٤٧/ بعد شهرين من زواج نور الدين من ابنة معين الدين جابه الأميران متّحدين الفرنجة في حوران وكان هؤلاء قد انتهزوا تطلّع حاكم صلخد إلى الإستقلال وتدخّلوا في المنطقة الأمر الّذي آل إلى تدعيم مركز نور الدين إذ ظهر بمظهر المنقذ لدمشق وكانت بغداد لا تخفي استياءها من نجاحات نور الدين الأمير الزنكي فحاولت التدليل على مولويّتها على الأمير البريدي وبعثت، في صفر /٥٤٢/ تموز ١١٤٧/ مبعوثاً يحمل له تقليد ولاية وخلعة وكان ذلك نذيراً لنور الدين من خليفة وسلطان يرفضان رؤية سورية موحّدة.. والبلاط الفاطمي في القاهرة أرسل مبعوثه أيضاً إلى دمشق حاملاً مشاعر الودّ تجاه الأمير البريدي فظهر نور الدين في تلك اللحظة وكأنّه الخصم الخطر للمسلمين والفرنجة سواء.

في الشّمال، في الربيع التالي للإستيلاء على إيديس تجدّدت العمليّات العسكريّة في آسية الصغرى بين السّلاجقة والبيزنطيّين وقامت عصابات تركمانيّة في سيليسية بقطع طرق المواصلات بين انطاكية والقسطنطينيّة كما استفاد سلاجقة قونية من وجود نور الدين في الجنوب من سورية وهاجموا الفرنجة على تخوم كونتيّة إيديس وهدفهم الإستيلاء على أراضي الكونتيّة المذكورة المطاولة للفرات فتعجّل نور الدين العودة من حوران إلى حلب وهاجم المناطق التابعة لانطاكية لعزل هذه الإمارة ومنعها من التحرّك للدفاع عن إيديس.

● الحملة الصليبيّة الثانية

ما إن علم نور الدين أنّ صليبيّين ألماناً اجتازوا البوسفور حتّى اتّخذ إجراءات احتياطيّة منها عزل إمارة انطاكية والاستيلاء على المراكز المشرفة على طريق مواصلات الشمال وقطع الطريق الذي يربط المدينة بالجنوب في منتصف مجرى العاصي ومن جهة أخرى كان خبر وصول لويس السابع إلى قسطنطينيّة باعثاً لشجاعة ريموند صاحب انطاكية والموالين له من السكّان وتتالت أخبار اقتراب الحملة الصليبيّة فتجدّد الأمل في سلبيوس في حين ساد الخوف في حلب ودمشق. ولكن المشاعر المذكورة انقلبت إلى عكسها بعد المعلومات المستجدّة عن مصاعب وخسائر نزلت بالحملة إيّاها واعترضتها.

● ماذا كان السبب الأصلي لهذه الحملة الثانية؟

● منذ سقوط ايديس أرسل أمير انطاكية والوصيّة على عرش القدس يستنجدان بالبابا أوجين الثالث والأرمن القادمون من ايديس سبقوا المبعوثين وطلبوا العون ضدّ البيزنطيّين وكان الحبر الأعظم خارج مقرّه في روما ويتخبّط في مصاعب داخليّة جادّة في «فيتارب» ويتردّد في القيام بأيّة مبادرة صليبيّة.

ومنذ صيف /١١٤٥/ بدأ الحجّاج العائدون إلى أوروبة ينشرون حكاية الإستيلاء على إيديس بشكل مضخّم كما هو حال الذين لا يشهدون الأحداث بأعينهم.. تلك الروايات أثارت مشاعر الهول إلاّ في الأوساط الشعبيّة؛ وفي ميلاد نفس العام أذاع لويس السابع فكرة حملة صليبيّة ثانية لم تجد صداها المطلوب بل أثارت، على الصعيد الشعبي السؤال التالي:- لماذا الحملة الصليبيّة.. أوليس قبر المسيح في أيدي المسيحيّين؟! أما إيديس فلا تشكّل أكثر من نقطة على مجمل الجبهة الصليبيّة لأنّهم، في أوروبة، كانوا منذ قبل، يخوضونها صليبيّة باتّجاه الشرق وضدّ والونيد والسّلاف وباتجاه

البحر الأبيض المتوسّط ضدّ اسبانية والبرتغال اللتين تشكّلان الثغر المستهدف من جهة الغرب وأصبحت الدول اللاتينيّة في سورية وفلسطين تشكّل الثغر الشرقي.. أمّا في عقر الدار فالنورمندي روجيه الثاني صاحب صقليّة كان خصم البابا والامبراطور معاً..

تلقّى «برناردي كليرفو» رسالة من الباب للدعوة لحملة صليبيّة، وبفضل فصاحته استطاع إقناع الأمراء والجمهور في «فيزيلاي» - في فصح عام ١١٤٦ - وفي «سبير» في عيد الميلاد وذلك في غمرة حرب «الفيلف والبهوهانستوفن» - البابا هو الذي حسم موضوع قيادة الحملة ففضّل لويس السابع على كونراد الثالث وولّى لويس السابع شؤون الدعوة إلى «برنارد دي كليرفو» وهرب من نفوذ زوجته «آليينور داكيتان» التي لم يكن ينقصها لا الخلق ولا الإعتدال.. وتعرّضت الحملة الجديدة للعديد من الكوارث بسبب سوء الإعداد النفسي والعتادي.. ولم يرتح العاهلان قائدا الحملة إلى معاملة الأمبراطور الذي ركّز على وجوب التطبيق الدقيق من قبلهما للشروط التي أملاها الكسيس كومنين على الحملة الأولى: - كلّ أرض تفتح وكانت تشكّل جزءاً من الامبراطوريّة القديمة قبل استيلاء المسلمين عليها يجب ان تعاد إلى الأمبراطوريّة البيزنطيّة ويمتلك الصليبيّون ما سوى ذلك.. - ومانويل الذي يعلّق الأهميّة الأولى على ممتلكاته الأوروبيّة عقد مهادنة مع سلطان قونية السلجوقي وقد ضاق ذرعاً بتصرّفات قوّات كونراد الثالث التي نهبت المدن البيزنطيّة في طريقها فأغلق أبواب عاصمته بوجه جيوش صهره واكتفى بتقديم ما يلزمه من تجهيز وتموين طالباً إليه السير السريع مع الشاطىء وعدم التوغّل في الداخل.

«أودون دي روي» كتب وصف تلك الحملة التي لم تتجاوز «دوريليه - اسكي شهر». - في ٢٩ جمادي الأول / ٥٤٢ / ٢٦ تشرين الأول / ١١٤٧ هاجم فرسان الترك قوات الألمان الثقيلة فكانت مذبحة نجا منها واحد من عشرة فقط.. بين وقت وآخر كان يصل

إلى بيزنطية نبلاء (بارون) فرنسيّون مروراً في آسية ونينوى فيطّلعون على الهزيمة الكارثة التي مُني بها كونراد الثالث.. وتابع الجيش الصليبي تقدّمه الملازم للشاطىء وبدأ يشكو نقص ونفاد المؤن والأعلاف وبدافع الجوع انصرف الجنود إلى النهب فأثاروا سخط السكّان المسيحيّين.. هذا وغارات التحرّش من قبل الترك تتتالى وتكلّفهم خسائر كبيرة.

في رمضان/٥٤٢/ شباط ١١٤٨/ وصل الصليبيّون منهكين إلى «آضالية» على شاطىء «بامفيلية» فأخذ لويس السابع، مع عدد من خيّالته، مركباً وسافر بحراً فوصل انطاكية.. بينما تابع الجنود المشاة والحجّاج المرافقون للحملة سيرهم على الأقدام عبر منطقة جبليّة فوصل أقلّ من نصفهم أحياء إلى انطاكية بمعنى أنّ القوّة التي بلغت الهدف كانت جدّ ضعيفة لا تملك سوى أن تمارس لعبة المنازعات الإسلاميّة - الإسلاميّة كما كان يفعل مانويل.. ولكنّ حقد بيزنطية حال دون انتهاج نفس السّياسة.. وقرارات ومواقف الصليبيّين كانت، خلال عامين، الدافع السلبي إلى توحيد المسلمين، وصانع وحدتهم كان نور الدين.

ريموند صاحب انطاكية عرض على القادمين الجدد الإقامة الوقتية في الإمارة التي تهدّدها قوّات حلب وهو يأمل أنّ القوّات القادمة من أوروبة ستكون عامل إبعاد الضغوط الإسلاميّة إضافة إلى اعتقاده أنّ الحملة الثانية المعبّأة بعد كارثة ايديس استهدفت تسوية أوضاع دول الشمال اللاتينيّة.. وإذا كان يصعب استعادة إيديس فلا أقلّ من إبعاد نور الدين وخطره.. ووصولاً إلى ذلك كان ريموند يرى مهاجمة حلب وتقليم أظافر نور الدين ولكنّ لويس السّابع لم يكن مع هذا الرأي فحاول الأمير الاستعانة بتدخل إبنة أخيه آليفور مما أثار مشاحنات بيتيّة وراءها الظنّ أنّ للملكة علاقات مشبوهة مع عمّها فعادت أخيراً إلى فرنسة وحصلت على الطلاق عام ١١٥٢ وتزوّجت «هنري الثاني بلانتا جينيت» وإقطاعة آكيتان كانت المهرا-

تدخل بطريرك اللاّتين بالقدس «فوشيه دانغوليم» دافعاً التقي لويس السّابع لأن يعلن تأجيل أيّة مبادرة من قبله قبل أن يؤدّي مراسم الحجّ التي سبق ونذرها فسافر إلى القدس وسبقه إليها كونراد الثالث عن طريق البحر وهكذا تخلّص نور الدين من معركة كان يمكن أن تكون صعبة وسبب ذلك غياب الحسّ السّياسي لدى لويس السابع وباروناته.- في القدس احتشد عدد كبير من الأمراء والبارونات والغائبان الوحيدان هما ريموند انطاكية وجوسالين ايديس لعدم إمكان مغادرة أراضيهما ولم يحضر ممثلون لأنطاكية فانعقد آنئذٍ مجلس حقيقي؛ وفي/٢٤/ حزيران ١١٤٨/، بعد مناقشات طويلة، قرّر المجتمعون الزحف لمهاجمة دمشق وهذا ضلال مبني بعد رفض مهاجمة حلب: فالقدس لم تكن مهدّدة وكذلك سياسة الهدنات؛ ولكنّ رأي البعض كان بأنّ الاستيلاء على دمشق يعني فصل مسلمي مصر وافريقية عن مسلمي سورية والمشرق أي تجزئة العالم الإسلامي بواسطة قوّة وإرادة خارجيّتين ومسؤوليّة الحملة لا تقع على عاتق القادمين الجدد الذين يجهلون كل شيء عن السّياسة الشّرقيّة بل تقع على فريق من بارونات القدس ذوي التفكير الخاطىء.. فأمير دمشق كان وحده المستفيد من العلاقات الجيّدة مع القدس وهو يعلم أنّ نور الدين ينتظر أيّة فرصة للإستيلاء على المدينة ومصلحة الفرنجة كانت عدم التسبّب بأيّ إجراء يؤدّي إلى التقارب بين دمشق وحلب فالهجوم على دمشق يعني دفعها بين ذراعي نور الدين.-كلّ هذه الإحتمالات لم يُقم الفرنجة لها وزناً وهم يتجمّعون في طبريّا ويزحفون إلى دمشق فوصلوا في/٦/ ربيع الأول ٢٤/٥٤٣ تموز ١١٤٨/ أي في أيّام الحرّ الشديد.

وطلبت دمشق عوناً عاجلاً من الموصل وحلب حالما ذاع نبأ اقتراب الفرنجة منها. وتحت أسوار دمشق، في بساتين غوطتها، دارت معارك أحسن وصفها كلّ من إبن القلانيزي وغيّوم الصوري..- معين الدين اغتنم مشاحنات الفرنجة حول موضوع

استبدال زعامة دمشق القائمة بعد الإنتصار وهدّد بتدخّل زنكيّ. -
أخيراً، ما إن شاع نبأ اقتراب نور الدين حتّى رفع الفرنجة الحصار عن دمشق خلال أربعة أيّام وغيّوم الصوري يتّهم أمير دمشق أنّه حمل الفرنجة على الذهاب لقاء دفع مبالغ كبيرة من العملة المزوّرة! -
وعاد الصليبيّون إلى فلسطين وهم يتصدّون لمناوشات عصابات التركمان وعاد كونراد إلى ألمانية بعد قضاء عيد الميلاد مع صهره مانويل في قسطنطينيّة؛ وبقي لويس السابع في القدس إلى الربيع التالي لحضور احتفالات الفصح وعاد بحراً عام /١١٤٩/ بعد الإلتقاء مع روجيه الثاني صاحب صقلية. -وفي أوروبة لم يستطيعوا فهم أسباب فشل الحملة الصليبيّة الثانية فألقوا على بيزنطية مسؤولية الشّرور كلّها حتّى ولدت فكرة حملة صليبيّة ضدّ القسطنطينيّة التي دعمها الزعيم الإكليريكي سوجير وبرنارد دي كليرفو والمعادلة كانت زوال بيزنطية من الوجود من أجل مجد روما دون أن يفهموا أنّهم، بذلك، وعند أقلّ فشل، يفتحون أبواب أوروبة للترك.

في بدء عام /٥٤٤/ أيّار ـ حزيران ١١٤٩/ بعد عودة جميع فرنجة الثانية وفي حين كانت قوّات نور الدين تشنّ الغارات على الجليل طلبت القدس من دمشق هدنة جديدة على أساس الإبقاء على الوضع الراهن ولكن خطر نور الدين كان ثقله يتزايد كلّ يوم. .

● توطيد وضع نور الدين

حصل حدث فاضح إبّان أزمة المشاحنة بين برتراند دي تولوز وابن عمه ريموند الثاني صاحب طرابلس الذي، من أجل إقصاء منافسه، لم يتردّد في الإستعانة بالمسلمين. . وبناء على طلب من كونت طرابلس ودون أن تبدي أيّ من الدول اللاّتينية اعتراضاً ما؛ قام جيش يضمّ وحدات من حلب ودمشق وحمص والمَوصل بالإستيلاء على قلعة عُريمة وهدم أسوارها وكانت تطلّ على سهل

عكار وتهيمن على الطّريق الشاطئي على بُعد أربعين كيلومتراً شمال طرابلس. . وكان حدثاً نوعيّاً خطيراً فيه اكتشف المسلمون أنّهم هم سادة الموقف القادرون على مهاجمة كلّ دولة فرنجيّة دون أن تتمكّن الدول الأخرى من التدخّل. . لقد بدأت قوّة المسلمين تنمو وتصبح أكثر تنظيماً في ظل قيادة نور الدين الذي بدأ يولي كلّ اهتمامه الوحدة السياسيّة والمعنويّة لسورية. . ففي رجب /٥٤٣/ تشرين الثاني ـ كانون الأول ١١٤٨/ قام نور الدين بعمليّة ضد إسماعيليّي حلب وشيعتها الذين لم يستطيعوا إخفاء ارتياحهم إلى الفشل الّذي باء به نور الدين على يد الإسماعيليّين والفرنجة وهو يهاجم انطاكية بطلب من السلطان محمود صاحب قونية. . وفي حلب منع نور الدين تظاهرات الشيعة العامة وأبطل العبارات الشيعيّة في الآذان التي ظلّت تسمع منذ /٣٥٨/٩٦٩/.- وإجراءات القمع تلك ضدّ الشيعة ترافقت مع إحياء للدعوة السنّيّة فتضاعف عدد المدارس وبخاصّة تلك العاملة على تأهيل الفقهاء وتأمين الأجور والمكافآت للمدارس والمدرّسين والدارسين وذلك من مصادر وقفيّة وتمّ إحياء الدراسات المذهبيّة ونما تيّار المذاهب الصوفيّة فظهرت في سورية «الخانكاه والربعات» الخاصّة بالصوفيّة؛ وإلى جانب المؤسّسات المذكورة أنشأ نور الدين مؤسّسة جديدة هي «دار الحديث» يدرّس فيها الحديث وهي البديل «لدار العلم» التي أنشأتها الشيعة.

عام /١١٤٩/ (شعبان/٥٤٣/ شعبان ٥٤٤) كان غنيّاً بالأحداث ففي الربيع عزم نور الدين أن يردّ على هجمات ريموند صاحب انطاكية فقرّر مهاجمة منطقة آفامية المحتلّة من قبل الفرنجة وبعد أن وصلت الإمدادات من دمشق حاصر «النبع» المركز المسيطر على وادي الغاب. ـ وفي /٢١/ صفر /٥٤٤/ ٢٩ حزيران ١١٤٩/ دارت في المكان المسمّى «أرض الحطيم» (فون موراتوس كما سمّاه الغربيّون) معركة دامية مات فيها رينود دي مرعش ابن زوجة جوسلين الثاني صاحب ايديس وريموند صاحب انطاكية وبسرعة أتمّ نور

الدين احتلال المناطق بين الروج والعاصي حتّى بلغ انطاكية وضرب حصاراً حول أسوارها وأثناء الحصار استولى على حارم وأقام فيها حامية مسلمة ثمّ استولى على آفامية وقلعة المضيق وعاد إلى تحت أسوار انطاكية وانتهى الأمر بالأعداء أن عقدوا هدنة معه.

في غضون ذلك مات معين الدين في دمشق (٢٣ ربيع الثاني/٢٨ آب ١١٤٩) فبادر مجير الدين إيواق إلى إستلام زمام الأمور ولكن الوضع اضطرب في المدينة ولم يستطع نور الدين التدخلّ رغم رغبته الشديدة في ذلك والسبب كان مرضاً خطيراً أصاب أخاه سيف الدين في الموصل، في بداية جمادى الأولى /أيلول/ وذلك عقب أن انتزع من أرتوقيّين ماردين مواقع سبق لتيمورطاخ أن استولى عليها.. ومات أمير الموصل بعد شهرين وفي حين كان نور الدين مشغولاً بتسوية مشاكل الإرث في الجزيرة وتأمين ولاية الموصل لأخيه الأصغر قطب الدين مودود تتابعت الفتن والتهاريج في دمشق وتسمّم الجوّ السياسي. وفي عام /١١٥٠/ واجه نور الدين مسألة الذهاب للإستيلاء على دمشق واحتاج الى سنوات أربع حتّى أصبح سيّد المدينة فوجد أمير حلب حجّة التدخل في الحركات التي خلقها الفرنجة في حوران وطلب مشاركة قوة من جند دمشق وهو يعلم أنّ مجرّد قبول مجير الدين يعني إبطال الهدنة القائمة مع القدس ولكنّ هذا الأخير آثر العلاقات الجيّدة مع الجميع مستنبطاً الحجج والمخارج حتّى أنّه طلب عوناً من الفرنجة ضدّ نور الدين الذي لم يوقف زحفه عبر البقاع حتّى خيّم في «منازل العساكر» جنوب المدينة في /٢٥/ ذي الحجّة/ ٢٥ نيسان ١١٥٠/. ومن هناك وجّه بياناً إلى سكّان المدينة الذين انقسموا الى ثلاث فرق:- أكثرية مع الوفاق مع الفرنجة.. وأناس ولاؤهم فاطمي.. وفريق ناصروا الإتّفاق مع نور الدين كانوا قلّة وأخذ عددهم يتزايد في حين فتح نور الدين باب المفاوضات فاعترف به إسميّاً وذكر اسمه في الخطبة بعد الخليفة والسلطان وقرّر الإنتظار «حتّى تنضج الثمار»..

واستدعى الأمر ذهابه إلى حلب بعد أن علم بأسر جوسلين صاحب ايديس الذي كان قد ورث عدّة مواقع غربيّ الفرات عند موت صهره رينود صاحب مرعش فشدّد الأرتوقيّون عليه الضغط حتّى تخلّى عن مواقعه للأرمن مقابل مواقع أخرى وهكذا أصبح القسم الشرقي من كونتيّة ايديس محتلاً من قبل أمير حصن كيفا الأرتوقي ولم يشأ مسعود (قونية) أن يترك للأرتوقيّين الإنفراد بالغنائم إيّاها وتدخل بدوره وأرسل ابنه قليج أرسلان الثاني فاستولى على مرعش وهاجم تلّ بشير (توربيسيل) حيث لجأ بلاط جوسلين الذي انتهى الى توقيع اتفاقيّة مع السلجوقيّين الذين كانوا يتحاشون تدخّلاً فرنجيّاً لأنّ الملك بودوان كان موجوداً في انطاكية على رأس قوّة كبيرة من الجنود والرهبان «الهيكليّين». ونجح نور الدين بالقبض على جوسلين الذي أسرته جماعة تركمانيّة وهو في مساره من تلّ بشير إلى انطاكية في ذي الحجة ٥٤٤/ نيسان ١١٥٠/ وسجنه في قلعة حلب.. فأصبحت كونتيّة ايديس بين يديّ إمرأة، «بياتريس»، في حين كانت انطاكية في يد كونستانس ومنذ ذاع خبر أسر جوسلين طوّق مسعود صاحب قونية تل بشير ودعا نور الدين للإنضمام اليه.

أصبح الوضع حسّاساً في المناطق الباقية من كونتيّة ايديس والفرنجة المتمسّكون باتّفاقات الحملة الصليبيّة الأولى عزموا على تسليم المناطق إيّاها للبيزنطيّين لقاء الدفاع عنها؛ فزال ملك جوسالين على مرحلتين أولاهما إخلاء الفرنجة للمدن وتسليمها للبيزنطيّين والثانية طرد اليونان أثناءها من قبل المسلمين المتمركزين في إقليم شماليّ انطاكية.. والامبراطور مانويل المشغول بحربه ضدّ روجيه صاحب صقلّية والنورمنديّين في جنوبي ايطالية عجز أن يدافع عن مناطق كونتيّة ايديس الآنفة الذكر.- في /٢٥ ربيع الأول /١٢/٥٤٦ تموز ١١٥١/ احتلّ الأمير حسن المنجبي تلّ بشير بإسم نور الدين الموجود للمرّة الثانية تحت أسوار دمشق.- أيّوب وشيركوح باقيان في المعسكرين وهما أداةالتفاوض؛

وفي أقلّ من عامين أضاع المسيحيّون نهائيّاً آخر ما تبقى من مناطق إيديس لدى موت ريموند صاحب انطاكية. . وأصبحت حدود نور الدين ومسعود صاحب قونية مشتركة ونقلت حدود دار السلام من الفرات الى العاصي وتابع الأمير الزنكي سياسة توحيد سورية وضمّ دمشق دون تدخّل جادّ من جانب الفرنجة.

وفي دمشق لا تهدأ المشاحنات بين الوجهاء وأثيرت مسألة تجديد الهدنة مع القدس بحجّة وجوب مجازاة الدمشقيّين على اتّفاقهم مع الفرنجة واضطرب الوضع منذ تمركزت قوّات حلب على سفح قاسيون قبل انتقالها جنوباً للتخييم في القدم. . واستجاب الفرنجة لنجدة طلبها مجير الدين فانسحب نور الدين لدى اقترابهم وجدّد إتّفاق عام ١١٤٩. وتولّى منصب «شحنة» دمشق طوران شاه الشقيق الكبير لصلاح الدين الذي، بدوره، شغل نفس المنصب في المستقبل أي عام /١١٥٢/ وهو في الثانية عشرة من عمره. . وقفل الفرنجة عائدين إلى القدس على أثر نبأ أنّ الفاطميّين في الطريق لمهاجمة السّواحل الفلسطينيّة. . وكانت عسقلان في يد المصريّين والأسطول المصري وحده كان يجوب مياه شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط: - الأسطول البيزنطي كان موجوداً في الأدرياتيكي وفرنسة لا تملك أسطولاً وللإيطاليّين أسطول تجاري فقط. لم يقدّم نور الدين عوناً للفاطميّين في عمليّتهم ضدّ موانىء الشاطىء الفلسطيني - اللّبناني؛ ولكنه - بعد عام أي في محرّم /٥٤٧/ نيسان - ايار /١١٥٢/ استولى على طرطوس قاطعاً طريق الإتّصال بين كونتيّة طرابلس وإمارة أنطاكية واستعاد فرسان الهيكل المرفأ منه عام /٥٧٩/١١٨٣/.

في مطلع ذي القعدة /٥٤٨/ آخر كانون الثاني /١١٥٣/ استأنف الفرنجة حصار عسقلان المركز البحري الهام وأحاطوا سورها بعتاد وعدد حربي ضخم وتأخّر تحرّك مصر لمواجهة الخطر بسبب اغتيال الوزير الفاطمي في القاهرة؛ والفرنجة من جانبهم لم

يستفيدوا من التباطؤ المصري فاستطاع المصريّون إدخال إمداداتهم إلى المرفأ لدى وصولها وبفضل آلتهم الحربيّة تفوّق الصليبيّون وسقطت المدينة في ٢٦ جمادى الأولى /٥٤٨/ ١٩ آب ١١٥٣/ وأصبح الشاطىء من السويديّة إلى غزة في أيدي الفرنجة.

● الإستيلاء على دمشق

في حين كان همّ الصليبيّين أن تستمرّ في دمشق سلطة مستقلة لها مظاهر الحياد كلّها، لم يكن الزنكيّون يوماً يخفون نواياهم للإستيلاء على كبرى مدن سورية.-وبعد أخذ عسقلان أصبحت حرّية الحركة متاحة للفرنجة جنوب سورية؛ ومجير، من جانبه، قطع على ملك القدس حجّته وقبل أن يدفع له غرامة سنويّة ثقيلة.. وأمام الخيارين فضّلت المدينة الفرنجة على الزنكيّين ولكنّ نور الدين قلب الوضع وبأساليب الدهاء والمكر استطاع تصفية أهمّ أمراء دمشق على يد الآتابك نفسه الذي أضعف شأنه ومركزه بنفسه.. زد على ذلك ارتفاع الأسعار غبّ تموين المدينة فعُزي الغلاء إلى سياسة مجير الدين الموالية للفرنجة واستعمل نور الدين سلاح الإشاعات لكسب السكّان إلى صفّه فاستمال «الأحداث» وكسب متواطئين معه داخل الوسط البورجوازي نفسه.. وفي محرّم/ ٥٤٩/ بدء نيسان ١١٥٤/ بدت الفرصة سانحة إذ جاء الأمير شيركوح بألف مقاتل وخيّم عند أسوار المدينة وكان شقيقه الأكبر نجم الدين أيّوب يؤيّد النوايا الزنكيّة تجاه دمشق.. واستنجد مجير الدين بالفرنجة لكنّ نور الدين ناجزه القتال بالتواطؤ مع عناصر من السكّان ونجح في /١٠صفر/٥٤٩/ ٢٥ نيسان ١١٥٤/ بأن تفتح له أبواب السّور وأن يدخل المدينة ويحتلّها واستتبّ النظام خلال ساعات معدودات بعد طمأنة السكّان وتخلّى مجير الدين عن الحصار في القلعة ونال لقاء استسلامه ولاية مدينة حمص وتولّى شيركوح قيادة قوّات دمشق وهكذا استطاع نور الدين تحقيق حلم والده بعد صبر دام ثمانية

أعوام إذ حقّق وحدة سورية. وبعد أن دعّم مركزه في حلب وصفّى، نهائيّاً، كونتيّة إيديس. بسط الأمير الـزنكي سلطته على الجـانب الشرقي من إمارة انطاكية واتّخذ مقاماً له على الضفة اليمنى لنهر العاصي لسحق أيّة محاولة من كونت طرابلس ضدّ حمص وحماه.. وهكذا، باحتلاله دمشق، حرّرها من حماية الفرنجة ووحدّ دمشق وحلب تحت راية السنّة فامتدّت الدولة من طوروس حتّى حوران في حين اقتصر ملك زنكي على الموصل وحلب ومنذئذٍ أصبحت دولة نور الدين خطراً ثقيل الوطأة على الصليبيّين.

ودولة نور الدين كانت أشبه ما تكون بالموزاييك المختلف الشكل والأهميّة فتنظيم الملكيّة العقاريّة كان مرناً متحرّكاً قائماً على توزيع الإقطاعات وكثرة تبديل المُقطعين باعتبار المُقطعين من كبار الموظّفـين والقادة العسكريّين المعرّضين للعـزل والإستبدال فهم، مبدئيّاً، أخصّ النّاس بجواز الإقطاع لأنّ لهم أرزاقاً مقدّرة تصرف إليهم مصرف الإستحقاق لأنّها تعويض عمّا أرصدوا نفوسهم له من حماية البيضة والذبّ عن الحريم.. وهو إقطاع إستغلال لا تمليك فالأرض لله تحديداً؛ وللخليفـة - الإمام - إقطاعهـا وفق الأحكام المشروعة (انظر «الأحكام السلطانية» للماوردي - الباب السابع عشر - في أحكام الإقطاع).

أمّا في عهد نور الدين فكان يخصّص المُقطع بإقطاعه على أساس تخمين تقريبي يساوي استحقاقه ويعود إلى المقطع المستفيد تخمين ما تغلّه إقطاعته لدفع مال الخراج أو الأجر أو الجزية.. ويلتزم بأن يقدّم لمقطعه عدداً من الرّجال المجهّزين للحرب يحدّد لدى تخصيص الإقطاعة التي تظلّ، هنا، تختلف عن «الإخاذة» [FIEF] وأقرب ما تكون إلى ما يسمّى في الغرب «إخاذة الفرسان» أو «إخاذة تأليف» مقابل إقطاع الصّلة التي جعلها أمراء اللاّتين في الشرق وفي منتصف القرن الثاني عشر، إقطاعات تؤمّن الدخول لأتباعهم مدى حياة المقطع منهم الذي قد يكون من أبناء البلاد التي

أدخلوها في ممتلكاتهم. - والمستغلّ ملزم بتعهّد وإطعام وتجهيز والتسليح الفردي لعدد محدّد من الرجال والمرتّبات والإلتزامات تقتطع سلفاً على حساب الغلال. . والمُقطع ملزم أيضاً بأن يتعهّد إقطاعته على أحسن شكل (بخاصّة ما يتعلّق بالري والسقاية) يجعلها تعطي أحسن وأعلى مردود فتمكّنه من القيام بالتزاماته كلّها. . وهذا النهج المتوازي في تأمين الدخول عن الطريق الآنف الذكر سواء لدى البيزنطيّين والفرنجة والمسلمين في آسية الصغرى في القرن /السادس/ الثاني عشر/ يعود إلى درجة متميّزة ونوعيّة من التطوّر في إطار البُنى الإقتصادية والإجتماعيّة للعصر إيّاه.

بعد الهزيمة التي مُني بها نور الدين في «بوكيه - سفح كراك دي شفالييه» عام /٥٥٨/١١٦٣/ (لوحة في كريساك - شارانت تمثّل هزيمة نور الدين) اضطرّ إلى إعادة النظر في أسس بناء الجيش وإعادة الثقة إلى الشعب ومنذئذ أصبح يرتكز اعتماده على رجال الدين ويعيش حياة زهد وتنسّك وفي عاداته المرعيّة وبياناته كان يظهر بمظهر حامي المضطهدين من ظالميهم فأصبح الناصر للضعفاء واستقطب حوله المستضعفين. . ثمّ استوحى الإجراءات المتّخذة من قبل الخليفة والسلطان بعد موت زنكي والخاصّة بتركته من الأملاك وأعلن، بصفته المفوّض إليه من قبل الخليفة والسلطان تدبير أمور سورية والحقّ في الوراثة، فأعلن أنّ الإقطاع إقطاع استغلال لا تمليك ويخضع - منذ إعلانه ذاك - خضوع الإقطاعات لنظام العشر مثل باقي أراضي المسلمين. . ومارس الأمير تحقيقاً ومراقبةً صارمين فأسند إدارة الإقطاعات العسكريّة إلى ديوان الجيش (المساوي لوزارة الحربيّة في أيّامنا) حيث توجد السجلّات المبيّنة فيها مواصفات الأملاك، كالحدود والحقوق الأميريّة (الجبائيّة) وكذلك أسماء وأعداد الرّجال المجنّدين وأسلحتهم وأعتدتهم والحيوانات الجاهزة حال الإنطلاق إلى المعركة. . وهناك عمّال وكلاء للأمير يراقبون حسن سير إلتزامات الخضوع والطاعة ودفع الضرائب وتقديم

الخدمات. . ولا بدّ هنا من الإشارة إلى أنّه لم يحدث في أيّ مكان في آسية المسلمة أنّ نظام الإقطاع اقترن، في العصر المذكور، بتكوين طبقة مختصّة بالأشراف (النبلاء) ذات حقوق إرثيّة. . لا شكّ أنّ التيّار العاصف للغزو المونغولي بقيادة جنكيزخان كنس، في القرن الثالث عشر، الارستقراطية العقاريّة وهي في مرحلة تكوّنها وترسّخها.

بعد أخذ دمشق وطوال اثني عشر عاماً، ظلّت السياسة الداخليّة شغل نور الدين الشاغل فحاول ترسيخ مولويّته على سورية واحتواء مطامع سلاجقة قونية وتجنب مهاجمة الفرنجة ما داموا هم يتركونه وشأنه في الشمال كما في الجنوب. . وذلك لأنّه لم يكن يملك إمكانات المحاربة على جبهتين وعليه تأمين حياد باقي جيرانه في حال ظهور أيّ عدوان من أحدهم حتّى يواجهه معزولاً وينفرد به. . وحاول أيضاً تأمين حالة «حياد إيجابي» من قبل مصر فيجابه بشكل أفضل مملكة القدس وامبراطوريّة بيزنطية وسلطنة قونية السلجوقيّة ومعالجة الأمور مع انطاكية. وفي عام /٥٤٩/١١٥٤/ اضطربت الأوضاع في الشرق وتضاعفت الإضطرابات في بغداد نفسها لأنّ الخليفة المكتفي حاول، ليس فقط تأكيد استقلاليّته؛ بل، ايضاً، توسيع سلطته مستفيداً من حروب الأخوة التي استنزفت قوى السلاجقة في العراق وخراسان وكذلك الصراعات التناحريّة بين العائلات التركيّة والكرديّة في ديار بكر.

في الجنوب الغربي، في مصر، دخلت الأوضاع مرحلة جادّة نتيجة الإضطرابات الدامية والإنقلابات المتتالية في القاهرة حيث أصبح القتل السياسي وسيلة الوصول إلى الحكم أو البقاء فيه فغرقت البلاد في الفوضى. . وضعف الخليفة الفاطمي جذب إلى ضفاف النيل ملك القدس اللّاتيني وأمير سورية السنّي وكلاهما طامع أن يستأثر لحسابه بموارد البلاد وثرواتها. . فالمنافسة بين فرنجة فلسطين المسيحيّين ومسلمي سورية وجدت في مصر ميداناً مغلقاً تتالت

المجابهات عليه؛ واعتباراً من/٥٥٠/١١٥٥/ عزم نور الدين على الحيلولة دون ذهاب الفرنجة إلى مصر فتدخّل تحت ستار التضامن مع مسلمي القاهرة باتراً الهدنة مع الفرنجة التي كانت صمّام الأمان منذ احتلال دمشق وبموجبها كان نور الدين يدفع للفرنجة نفس غرامة البريدي ومقدارها ثمانية آلاف دينار صوري (دينار ضرب أصلاً في صور من قبل الفاطميّين وكان وزنه عام /٥٥٣/١١٥٨/ ٤,٨٣ غراماً ومعياره ٩٨٪ فكان أقوى العملات حتّى سمّاه «لوبيز» دولار القرن الوسيط وفي بغداد كان التداول بالدينار الإمامي ووزنه مرّتين أقلّ وقتها).

عام /٥٥٠/١١٥٥/ جدّد الأمير السوري الهدنة لعام واحد.. وفي الشمال عمل نور الدين ما بوسعه لاجتناب أيّ صدام مع فرنجة انطاكيةَ الذين يمكن أن يشكّلوا خطراً حقيقيّاً عليه سواء إذا تلقّوا دعماً ما من الأمبراطور البيزنطي أم من سلجوقي قونية.. وذلك حتى يتمكن من التدخّل، وهو آمن، في النزاع بين الدانيشمنديّين والسّلاجقة على ميراث السلطان المتوفي.. واستمراره في لعبة دعم ارتوقييّ ديار بكر حيناً ودانيشمنديّي قبادوسية حيناً آخر وكلاهما خصم لسلاجقة روم.-في عام/٥٥٢/١١٥٧/ خرق الفرنجة الهدنة مع نور الدين.. فمنذ انتصار عسقلان تراكمت الديون على الملك بودوان ولا سبيل إلى دفعها إلاّ عن طريق غنائم حرب جديدة فهاجم إقليم سفوح جبل الشيخ والجولان قرب القنيطرة حيث المراعي الخصبة واستهدف غزوُ الفرنجة قطعان الماشية والخيول في مراعيها ولم يكن بإمكان نور الدين الوقوف متفرّجاً وحتّى يوقظ حماس الدمشقيّين أقام «اسبوع تسلّح» فيه عرضت مختلف أصناف الأسلحة الثقيلة والخفيفة وشعور الجمهور كان أنّه مدعو لدفع ضريبة الجهاد.. وحاول الفرنجة الإفلات من قبضة نور الدين بالتحرّك شمالاً باتّجاه بانياس بجميع قواهم التي تضمّ فرسان الهيكل والراهبات للإعتناء بالجرحى والمرضى والأعوان من شيعة جبل

عامل. . ولكنّ المسلمين قطعوا عليهم الطريق وفي ٩/ ربيع الثاني/ ٢١ أيار/ احتلّت قوات نور الدين الموقع ودخلت حالة الكرّ والفرّ بعد أن علمت بالوصول القريب لمدد صليبي قويّ قوامه قوى تحالف رينود دي شاتيّيون بجند انطاكية وريموند الثالث بجند طرابلس إضافة إلى قوّات القدس وخلال المعارك التي دارت حدثت عدّة هزّات أرضيّة أحدثت أضراراً بالغة ليس فقط في حوض العاصي وحلب بل، أيضاً، في كونتيّة طرابلس وعلى طول الشاطىء.

أخيراً، تميّز عام /١١٥٧/٥٥٢/ بمرض خطير أصاب نور الدين الذي اتّخذ إجراءاته الضروريّة الخاصّة بتركته وبموجبها ولّى نجم الدين أيّوب حاكميّة دمشق العسكريّة وشيركوح يكون الممثّل للسلطان. . وبعد موت نور الدين اتخذ الايوبيّون من الإجراءات إيّاها مبرّراً لادّعائهم الخاص بولاية سورية.

«فرديناند شالاندون» سجّل حقيقة تاريخيّة هي أنّ بودوان كان على يقين من عجزه عن إحراز أيّ نصر حاسم ودائم ضدّ المسلمين الموحّدين بقيادة نور الدين إلاّ إذا تحالف مع الامبراطوريّة اليونانيّة. . وبعد أن عمل على إقناع الدول اللاتينيّة الثلاث بهذه الحقيقة وجّه ملك القدس سياسته نحو تحالف مع بيزنطية. . وتوصّل المتفاوضون مع مانوئيل كومنين إلى إتّفاقيّة صريحة ومهر التحالف بزواج سياسي. -تزوّج بودوان من تيودورا إبنة أخ امبراطوربيزنطية. - وهكذا نشأت جبهة مشتركة في مواجهة المعسكر الإسلامي فنشط نور الدين داعياً قادة المسلمين إلى توحيد قواهم واستئناف الجهاد. - في ربيع الثاني/٥٥٤/ نيسان ١١٥٩/ عاد مانوئيل للظهور في الشرق بعد غياب طويل فدخل انطاكية بعد اعترافها بسلطته العليا وهذا يعني قبول الفرنجة بمطلب بيزنطي جوهري هو الهيمنة على أراضي الامبراطورية الرومانيّة وهذا التسليم كان نتيجة اتّساع دولة نور الدين وانطلق المتحالفون على رأس قوّاتهم باتّجاه حلب

لمواجهة قوات نور الدين ولكنّ المعركة لم تحدث لأنّ مانوئيل فاوض نور الدين وتوصّل معه إلى اتفاق يتضمّن وعداً بالتدخّل ضدّ قيليج أرسلان صاحب قونية وعدوّ بيزنطية. . وهكذا كانت صليبيّة عام /١١٥٩/ عاصفة في فنجان لأنّ مصالح الأمبراطور تتناقض مع مصالح اللاّتين وهمّ مانوئيل كان منصرفاً إلى تأكيد سلطته على سيليسية وإنطاكية ولم يفكّر قطّ بإسقاط نور الدين لأنّه بحاجة الى وطأة خطره على انطاكية إضافة إلى أنّ الخوف من تدخّل بيزنطي يجعل الأمير الزنكي يتردّد في القيام بأيّ عمل عسكري ضدّ إنطاكية.

من جانب آخر كان قيليج ارسلان يهدد مانوئيل فدعاه نور الدين إلى مواجهة مشتركة ودعم مشترك للدانشمنديّين أخصام قيليج أرسلان الذي استطاع التوصّل إلى تفكيك هذا التحالف. . ومرّت ثلاثة أعوام تميّزت أولاها بحملة فرنجيّة ضدّ دمشق أثناء وجود نور الدين في الشمال. . ولعدم وجود قوّات لدى نجم الدين أيّوب استطاع صرف القوى المحاصرة للمدينة لقاء غرامة مقدارها /٤٠٠٠/ دينار.- وفي اخر العام إيّاه أثيرت، من جديد، مشكلة انطاكية؛ ففي ذي الحجّة /٥٥٥/ تشرين الأول ١١٦٠/ وقع رينود دي شاتيّيون أسيراً وسجن في قلعة حلب حيث بقي /١٦/ عاماً مع رفيق سجنه جوسلين الثالث دي كوتناي.- وحلّ مانوئيل مشكلة الوصاية بوضع المدينة في عهدة كونستانس وتزوّج، عام /١١٦١/، ماري ابنة الوصيّة وبذلك أصبح صهرها. . ولكن الأكثر أهميّة كان موت بودوان في /١٠ شباط ١١٦٣/ وهو في الثالثة والثلاثين من عمره بعد إصابته بمرض عضال وبهذا زال من الوجود العدوّ الرئيسي لنور الدين فبدأت مرحلة جديدة:- التفت الفرنجة بزعامة آموري الأوّل نحو مصر ولم يغب عاهل دمشق عن مسرح العمليّات وأصبحت السنوات التالية حقبة صراع بين فرنجة فلسطين ومسلمي دمشق على فرض السيادة على القاهرة.

● مصر محور الصراع

إنّ غزو مصر، بل إسقاط الخلافة الفاطمية، كان قديماً في المخطّط السياسي للسلاجقة ونـور الدين هـو الذي حقّق هـذا الهدف. . فمنذ قتل الوزير ابن الصلّار (جمادى الأولى ٥٤٨/ آب ١١٥٣) أصبح وضع القاهرة مأساويّاً فقد ذبح الخليفة الظافر في محرّم/ ٥٤٩/ نيسان ١١٥٤/ ونصّب مكانه طفل في الخامسة «فائز» فاستنجدت أخوات الظافر بوالي وسط مصر «فارس الدين طلاعي بن رزق» للثأر لأخيهنّ وخاض هذا الأخير، داخل القاهرة، حرب شوارع حقيقيّة. . وقتل الوزير عبّاس في المعركة، وبناء على تقليد نافذ هو أنّ من يقتل وزيراً يحلّ محلّه، استلم طَلاَعي مقاليد السلطة وحاول تقويم الوضع وتصحيحه ولأنّه بحاجة إلى فترة هدوء حذا حذو نور الدين ففتح باب التفاوض لعقد هدنة مع القدس لقاء دفع غرامة سنويّة تقتطع من حساب إقطاعات القادة العسكريّين الذين ثاروا وعزموا على قطع العلاقات عن طريق حملة قرصنة جهّزوها ضدّ صور. . تلك المعارضة حوّلت طَلاَعي إلى التفاوض مع نور الدين للقيام بعمل مشترك ضدّ القدس. . ولكنّ الأمير الزنكي لم يرتبط بأيّ التزام وهو مشغول آنئذٍ بجرائر موت مسعود سلطان قونية فوقفت مصر، وحدها، ضـدّ القدس. . وفي عـام /١١٥٨/٥٥٣/ شهر صفر/ آذار/ كانت القوّات الفاطميّة تنهب جنوب فلسطين وتناوش، عن طريق البحر، مناطق السّاحل حتّى بيروت فشنّوا عدّة غارات لم يحقّق نتائج حاسمة بل اقتصرت على إحراز الغنائم. .ـ في ذلك العام شهدت القاهرة نشاطاً دبلوماسيّاً مكثّفاً: ـ رُسل نور الدين دخلوا مفاوضات تفصيليّة مع وزراء مفوّضين مطلقي الصّلاحيّة لبودوان الثالث وسفراء مانوئيل. . وشاغل الجميع كان أهميّة المكانة التّي احتلّتها مصر على رقعة شطرنج سياسة الشرق الأدنى. . ومبعث قوّتها المستجدّة تلك كان الأسطول البحري

الّذي بناه لها طلاعي.. ولكنّ واقع حال القاهرة كان عكس المظاهر تماماً:- تدهور مُستمر في القوّة الفاطميّة.

في رجب /٥٥٥/ تموز١١٦٠/ مات الخليفة بسبب مرض وهو في الثانية عشرة وخلفه طفل آخر في التاسعة لقبه «الوديد» وظهرت نُذر العاصفة داخل القصر:- الوزير احتكر السلطة وآثر مقرّبيه ومن جانب آخر كان طَلاَعي الأرمنيّ الأصل، الاثنا عشري المذهب، يراعي السنّة آخذاً بالحسبان أنّ أكثريّة سكان مصر على مذهب الإمام الشافعي.- في عام /١١٦١/٥٥٦/ تعرّض طَلاَعي لمحاولتي اغتيال نسبتا إلى الباطنيّة وجُرح جرحاً مميتاً في رمضان /ايلول/ فعيّن ابنه رزق خلفاً له في الوزارة وقبل أن يلفظ أنفاسه حذّر ابنه من الأمير «شَاوَر» والي مصر العليا المقيم في «كُوس». .واستمرّت المؤامرات في القاهرة والإنتفاضات في الدلتا ولم يتقيّدرزق بنصيحة أبيه فأقال شَاوَر الذي يملك الأنصار داخل القصر وبذلك وقّع صك موته ففي /٢٣/ محرّم ٥٥٨/ ٨ كانون الثاني ١١٦٣/ دخل شاور القاهرة وقبض على رزق الذي اختفى قبل بضعة أيّام وسجنه وقتله في سجنه في /٢١ رمضان/ ٥٥٨/ ٢٣ آب ١١٦٣/ ودامت وزارة شاور ثمانية أشهر فقد أقال أنصاره وصفّاهم وجابه منافساً خطراً هو القائم بخدمة غرفة الخليفة «ضرغام» الذي استعطب الناقمين فنجا شاور ولجأ إلى دمشق لدى نور الدين وأصبح ضرغام وزيراً في/ شوال/ ايلول/ يدعمه فريق من الضّباط فقام بحملة تطهير أضعفت الجيش وخزينة الدولة التي تغذّيها ضرائب الأراضي ورسوم جمارك الإسكندريّة التي كانت تتعامل تجاريّاً مع جمهوريّات إيطاليّة وبخاصة «بيزا».. وصُرفت مدّخراتها لتغطية المرتّبات العالية لأنصار الوزير الجديد.. والإدارة ظلّت فوضى تدفع مصر إلى السقوط في براثن الطامعين من الخارج.

الفرنجة فقدوا الأمل بفتح أراضي جديدة في سورية واكتفوا بشيء من التصلّب السياسي تجاه نور الدين.. ابودوان خلف أخاه

آموري وهو رجل نشيط وذكي بدأت بمجيئه حقبة تاريخيّة جديدة ليس فقط بالنسبة لمملكة القدس اللاّتينيّة بل، أيضاً، بالنسبة لمصر وسورية.. فعزم الملك على مهاجمة أضعف الجارين ونظّم حملة الفرنجة ضدّ مصر انطلاقاً من المعادلة التالية: إمّا أن تقع مصر بين يدي نور الدين فيطبق فكّا الكمّاشة على مملكة القدس؛ وإمّا أن ينجح الفرنجة بالإستيلاء على بلاد النيل فلا يبقى سوى جبهة واحدة يخشى جانبها هي سورية.. هذه كانت نفس سياسة آموري الأوّل وقامت محاولات لتطبيقها عمليّاً أيّام مُلك بودوان في ربيع عام /١١٦١/٥٥٦/ بقيادة آموري الذي أوقف حملته في الطريق لقاء وعد بغرامة سنويّة مقدارها ستون ألف دينار.. وكان يعرف وزن مصر الإقتصادي كما يعرف الوضع العسكري فيها فوجد مبرّراً لغزوها في تسويف المصريّين بدفع الغرامة التي وعدوا بودوان بها فانكفأ المصريّون سريعاً نحو الغرب حتّى بلبيس وكسروا سدود النيل وهو في حالة فيضانه فغمرت مياهه الأرض كلّها واضطرّ الفرنجة للتقهقر..

عام/ ٥٥٩/ ١١٦٤/ جاءت أحداث مصر طبق مرام نورالدين:- الوزير شَوَار التجأ إلى دمشق ودعا مضيفه للتدخّل ضد صاحب القاهرة الجديد ضرغام؛ وبدت الفرصة مناسبة ولكنّ نور الدين الذي مُني العام السابق بهزيمة كاوية في «كراك دي شيفاليه» لم يكن قد أنجز تجهيز قوى كافية لدخول عمليّات حربيّة على ضفاف النيل.. ومن جهة أخرى تلقّى نور الدين رسل ضرغام حاملين طلب المساعدة ضدّ ضغوط الفرنجة ولكنّ المسعى خاب فأسقط في يد ضرعام وحاول استرضاء آموري عارضاً عليه غرامة سنويّة كبيرة ولكنّ الفرنجة فضّلوا تطويل امد المفاوضات وشاور يدرك حقيقة نواياهم فجدّد مسعاه لدى نور الدين واعداً إيّاه ـ لقاء النجدة ـ بثلث واردات الدولة ومصاريف الحملة وإقطاعه جزء إقليم الدلتا المجاور لمملكة الفرنجة وفوق كلّ هذا التزام الوزير بالإعتراف بمولويّة نور الدين

وقيادة شيركوح للجيش. . وظلّ نور الدين على تردّده حاسباً حساب النتائج الثقيلة للعمليّات المطلوبة منه في مصر.ـ وكان أيضاً يحسب حساب عدوان بيزنطي في الشمال أثناء غيابه. . وأخيراً استطاع شيركوح إقناع نور الدين بالعمل لإعادة شاور إلى وزارته وباعتباره القائد العام للجيش كان يضمر في سرّه امتلاك مصر والإستقلال فيها. . وتحرّك الجيش السوري في جمادى الأولى / ٥٥٩/ نيسان ١١٦٤/ وبين أمرائه شاب أرغمه على السير عمّه شيركوح. . إنّه يوسف بن أيّوب (أو صلاح الدين في المستقبل) الذي برز وكسب الشهرة خلال عمليّات مصر.

لدى اقتراب قوّات نور الدين أحسّ ضرغام بالخطر فاستنجد بالفرنجة معلناً استعداده بالإعتراف بموجب اتفاقية مبرمة أن تصبح مصر إقطاعة للقدس. . وكم كان آموري راغباً بالتدخلّ لكنّه لا يملك القوّات الكافية لفتح جبهتين معاً، وكان التقدّم السوري سريعاً ووصول شاور الأرض المصريّة زرع الرعب في القاهرة بين أنصار ضرغام، وبعد اصطدامات خاطفة ضدّ بعض الحاميات المصريّة لم يجد شيركوح صعوبات تُذكر وبلغ أبواب القاهرة في /٦ جمادى الثانية/ ٥٦٩/ أوّل أيار ١١٦٤/ ولمّا يئس ضرغام من وصول الفرنجة حاول الهرب ولكنّه أوقف وأعدم .ـ في أول رجب/ ٢٥ أيار/ أعيد شاور إلى منصب الوزارة بتقليد من الوديد وخيّمت القوّات السوريّة حول القاهرة بانتظار أن يقوم حاكم مصر الجديد بالوفاء بالإلتزامات ولكنّه حاول التملّص منها ورضي أخيراً بدفع تكاليف الحملة دون أن يصرف فلساً واحداً من الغرامة الموعودة وأمر شيركوح بمغادرة مصر. . ولكنّ الأمير الكردي لم يضيّع وقت إقامته الّذي صرفه بالإتّصال مع السنّيين وبدأ آنئذٍ سباق حقيقي بين أبطال المسرح الثلاثة وكلّ منهم يسعى لتحقيق أربه عن طريق تدخّل خارجي:ـ وهكذا تحوّل الخلاف الداخلي إلى أزمة مدوّلة وشاور المنتصر في الجولة الأولى راح يرسّخ قدمه في السلطة عن طريق

لعب دور الرقّاص بين القدس ودمشق.

وعزم السوريّون آنئذٍ على احتلال بلبيس المركز الحصين القائم على طريق القوافل الذي يربط القاهرة مع سيناء وإقليم الشرقيّة فقبل آموري نداءات شاور المتكرّرة مؤمّلاً أن يصبح سيّد وادي النيل واتّجه الفرنجة نحو الوادي في شعبان/ ٥٥٩/ تموز ١١٦٤/ عن طريق غزّه ـ العريش ـ فاراميا. فتخندق السوريّون في بلبيس وواجهوا حصاراً فرنجيّاً ـ مصريّاً دام ثلاثة أشهر ووصل نبأ عمليّة مشاغلة قام بها نور الدين ضدّ بانياس ممّا اضطرّ آموري للعودة بعد عقد اتفاق مع شيركوح التزم كلّ منهما بموجبه بالعودة إلى بلده دون أن يحقّق الفرنجة من الحملة أيّة فائدة اقتصاديّة.

قيام نور الدين بفتح جبهة ثانية أنقذ الأمير الكردي ونجح شاور طوال عامين أن يكون صاحب السلطة في القاهرة دون أن يدفع شيئاً لأحد وبعد إجلاء جميع الجيوش الأجنبيّة.ـ ولمواجهة ضغوط المسلمين المتزايدة كان المخرج الوحيد لدى آموري هو عقد إتّفاق مع بيزنطية وتلك كانت مشكلة نور الدين أي التدخّل في شمال سورية.

والأمير شيركوح، من جانبه، كان يعضّ اللُّحم منذ عودته من مصر فهو يريد العودة إلى وادي النيل وإقامة سلطة قويّة إلى حدّ الإستغناء كلّياً عن سورية وهو على يقين أنّه ما دامت مملكة الفرنجة قائمة لن يحدث ما يخشاه من جانب دمشق؛ وحتّى يحمل نور الدين على قبول العمل في مصر طلب شيركوح العون من بغداد وحجّته إقامة حكم السنّة في القاهرة.. فطوّقت الضغوط عاهل سورية التّقي ورضي بتنظيم حملة جديدة بدأت تعبئتها في بداية عام/ ٥٦٢/ آخر عام ١١٦٦/ .ـ ولم يكن هناك مهرب لآموري من أن يدخل الميدان خشية وقوع مصر في يدي نائب نور الدين وتلك كانت رغبة شاور المطلوبة علناً

في ربيع الثاني/٥٦٢/ كانون الثاني ١١٦٧/ كانت الاستعدادات تسير حثيثاً في دمشق وحفاظاً على التوازن بين سرايا التجريدة ضمّوا إليها وحدات كرديّة هامّة موالية لشيركوح ووحدات أخرى تركمانيّة موالية لنور الدين. ـ في /٢٩ ربيع الثاني /٢٢ شباط/ انطلقت القوّات جنوباً وقوّات الفرنجة غادرت عسقلان في آخر كانون الثاني على الطريق السّاحلي باتّجاه مصر بعد أن عزم ملك القدس على الإستيلاء عليها. وقد وصل الجيشان في وقت واحد:ـ آموري وصل أبواب القاهرة وخيّم الفرنجة في الفسطاط. . شيركوح أقام معسكره على ضفة النيل المقابلة في الجيزة.ـ وبعد شهر تحرّكت القوّات السوريّة جنوباً فخشي الفرنجة التطويق وقطعوا النيل معاكسين مجراه على الضفة اليسرى والتقوا مع الجيش السوري على سفح سلسلة الجبال الصغرى المقابلة للسّلسلة الليبيّة ووضع شيركوح النيل أمامه شرقاً واتخذ الجبال الرمليّة ظهيراً له ومن الغرب امتداد الصحراء وبدأت المجابهة في «البابين» في إقليم غشمونين على بعد /٣٠٠/ كيلومتراً جنوب القاهرة ودارت معركة متلاحمة في التلال الرمليّة منيت فيها القوّات الفرنجيّة ـ المصريّة بخسائر كبيرة فانسحبت من المعركة متقهقرة تحت جنح الظلام بينما سار شيركوح ـ عبر الفيّوم ـ باتّجاه الإسكندريّة حيث استقرّت قوّاته لأنّ سكّان الإسكندريّة من السنّة الشافعيّة والعداء تقليدي مزمن بينهم وبين القاهرة. . وبينما كانت القوّة التي يقودها صلاح الدين تمسك زمام المدينة وصل اسطول فرنجي ـ بيزاني (توسكاني) وحاصر المرفأ وسارعت قوّات فرنجيّة ـ مصريّة إلى محاصرة المدينة من جهة البرّ فتحمّل السكّان بشجاعة الحالة الناجمة عن هذا الحصار باستثناء البورجوازيّة التاجرة الميّالة إلى التسليم لاستئناف تجارتها الناشطة مع الغرب وصعّد الفرنجة قصفهم المنجنيقي وطلب صلاح الدين نجدة شيركوح الذي كان مشغولاً بجمع الأموال في مصر الوسطى. وأدرك آموري وشيركوح أنّهما يعملان لصالح الوزير الفاطمي ففتحا

باب مفاوضات الصلح واتّفقا على إخلاء متزامن للأراضي المصريّة. والمستفيدون من حرب عام /٥٦٢/١١٦٧/كانوا:ـ شاور الذي احتفظ بمنصبه ووارداته.. والبيزنطيّون (التوسكانيّون) الذين حصلوا لقاء مساعدتهم على تخفيضات في الرسوم الجمركيّة من قبل مصر.

خلال كلّ ذلك هاجم نور الدين، مع مدد تلّقاه من الموصل، كونتيّة طرابلس واستولى على عدد من المواقع الحصينة مثل العُريمة وصافيتا وبانياس وحُنين (شاستيل ـ نوف) فهدمت أسوار ودفاعات هذه الحصون مع سلب ونهب المناطق المحيطة بها.. وانشغل بعد حين بالوضع المستجدّ في الإمارة الأرتوقيّة لحصن كيفا انعكاساً لأحداث سلطنة قونية ونجح بالإستيلاء على قلعة جعبر آخر مركز عقيلي على ضفة الفرات اليسرى حيث لقي والده حتفه وبذلك سيطر نور الدين على جميع طرق المواصلات التي تربط سورية بالجزيرة.

في تلك الأثناء عاد شيركوح من مصر بخيبة جديدة والفرنجة عادوا تاركين بعض قوّاتهم في القاهرة حتى استيفاء الغرامة الموعودة وقد وعى مسلمو العاصمة المصريّة الوضع على حقيقته فوضعوا آمالهم كلّها في نور الدين لِتحررهم من الوصاية المفروضة عليهم من ملك القدس بتأييد من شاور وبدأت الإتّصالات تتكثّف وتتعمّق بين أصحاب الحلّ والعقد في مصر وبين العاهل السوري؛ ومن بين تلك المساعي دعوة عاجلة من الخليفة الفاطمي تستدعي حملة ثالثة إلى مصر التي عمّها الفزع بعد الإطّلاع على وجود خطّة سيطرة مشتركة فرنجيّة ـ بيزنطيّة.

ففي ذي الحجّة/٥٦٣/ أيلول ١١٦٨/ تلقّى آموري الذي تزوّج العام السابق في صور من الأميرة البيزنطيّة ماري كومنين.. تلقّى وعداً بالمساعدة من مانوئيل لفتح مصر.. وشرط الامبراطور هو

الحصول على نصف واردات مصر أي مقاسمة حقيقيّة. . وقد عُلم أنّ الحملة ستبدأ قبل وصول المدد البيزنطي إلى فلسطين ممّا أثار التساؤلات حول سبب التحريك المفاجىء والفوري ـ أو السابق لأوانه على الأقلّ ـ للعمليّات :لعل كان آموري يأمل الإنفراد بالإستيلاء على مصر؟ـ هل ثقته بالوعد بإرسال المدد سمحت بالتحرّك الفوري؟ـ أم هو يريد اغتنام فرصة إنشغال نور الدين في شمال سورية؟ـ لماذا لا يكون السبب كامناً في المناخ السائد في القاهرة نفسها لأنّ القوّة الفرنجيّة بقيادة مفوّض سام كانت مكروهة منبوذة من قبل السكّان؟ـ فالرأي العام كان ضدّ الإحتلال الفرنجي والقوّة المتروكة أزعجها ذلك وحرّضت الملك على احتلال البلاد كلّها. . وحتّى في البلاط الفاطمي كان الشعور العام السائد يفضّل نور الدين السنّي على آموري الكاثوليكي، في حين كان فريق يطرح رأياً يُشير بإرضاء آموري بدفع الغرامة الموعودة شرط أن يبقى خارج مصر وهذا خير وأبقى من رؤ ية الترك يتغطرسون على ضفاف النيل؛ أمّا في القدس فأنصار الإسراع بالحملة يقولون أنّ مصر لا تجد أحداً يحميها أو يرعاها فيجب المبادرة قبل وصول جيش يرسله نور الدين.

وآموري، من ناحيته، يبدو أنّه كان يفضّل حلّ الحماية. . حلّ مصر الإقطاعة (الإخاذة) ولا يستبعد فتحاً يتبعه ضمّ وهذا لا يتحقّق إلّا بمساهمة البيزنطيّين وبخاصّة دعم أسطولهم الضروري من أجل السيطرة على المياه الشرقيّة للبحر الأبيض المتوسّط. . لا بدّ من قوّة لدحر وردع الجيوش الإسلاميّة لأنّ احتلالاً مسيحيّاً يستتبع حتماً ارتماء المصريّين بين ذراعي نور الدين. . والمنافسات في معسكر الفرنجة أشاعت توقّع الشرّ من وراء العمليّات إيّاها. .ـ «فرسان القبر المقدس» وعدوا بمساهمتهم المقبلة (ميليشيات مقاتلة من رجال الدين) الأمر الذي أزعج «فرسان الهيكل» المتمركزين في حصون التخوم مع مصر وبخاصّة داروم.ـ وأخيراً غلب رأي أنصار العمل الفوري فتولّى آموري قيادة العمليّات وحشد جيشه في عسقلان

وفي/١٦/ محرّم ٥٦٤/ ٢٠ تشرين الأول ١١٦٨/ انطلق في الطريق المطاول للشاطيء جنوباً وبلغ الدلتا، فانزعج شاور ولم يخفِ دهشته ولكنّ اللاّتين الذين خرقوا الإتّفاقات أعطوا تفسيرات متلبّكة لتصرّفهم واتّضح للوزير أنّه الضحيّة لعدوان مبيّت فاتّخذ إجراءاته ودعم حامية بلبيس. - في/٢٨/ محرم/ أوّل تشرين الثاني/ بدأ آموري حصار الموقع وبعد ثلاثة أيّام دخلها الفرنجة ونهبوها وتابعوا سيرهم بعدها نحو الفسطاط فوصلوا اسوار القاهرة. - وفي /٩/ صفر/١٣ تشرين الثاني/ أعطى شاور أمراً بحرق المدينة القديمة إذ رجمها بقنابل النفط ومشاعل الدُسُر وبفعل تغذية الحريق المتّصلة بالقذائف دام /٥٤/ يوماً ومنع الفرنجة من الإقامة في القطّاع كلّه. . وأرسل الخليفة وشاور رسالة إلى نور الدين يستقدمونه للنجدة عارضين عليه ثلث واردات مصر شرط حضور شيركوح بسرعة على رأس جيش قوي ووعد المصريّون، إضافة إلى الثلث الموعود، بأراضي تستوعب القوّات السّوريّة وتكون وارداتها لهم. - العروض كانت مغرية ونور الدين هو الذي طلب، هذه المرّة، من شيركوح الذهاب إلى مصر فتظاهر الأمير الكردي بالتردّد حتى نال المواثيق المطلوبة وعلى رأسها تفويض الأمير بصلاحيات مطلقة وسلطة كاملة على الجيش والأموال في الأراضي التي يحتلّها وهذا الاستقلال الإداري سيساعد صلاح الدين، إبن أخ شيركوح، في المستقبل، أن يطلب الإستقلال الناجز.

في ربيع الأول/٥٦٤/ كانون الأول١١٦٨/ تجمّع الجيش السوري جنوبي دمشق وكان قد مضى شهر على محاصرة الفرنجة للقاهرة وينتظرون المدد من اسطول نجدة لصعيد النيل لم يستطع الوصول لأنّ المصريّين عرقلوا سيره وأوقفوه وكان شاور في ضيق داخل القاهرة وينتظر العون من شيركوح، وبالإنتظار لجأ إلى الدّهاء وتظاهر بالميل إلى الإتّفاق مع آموري عارضاً عليه الصلح خشية أن تقع البلاد في أيدي السوريّين القادمين. . ووعد بمبلغ ضخم دفع

قسطة الأوّل البالغ مئة ألف دينار لقاء إبتعاد الفرنجة عن القاهرة بانتظار جمع المتبقّي ـ ولم يكن الفرنجة أحسن حالاً فقبلوا العرض ورفعوا الحصار منكفئين إلى بلبيس على أمل أنّ ابتعادهم يجعل الوزير والخليفة يتراجعان عن طلب العون الزنكي . . . وما إن وصل جيش شيركوح الأراضي المصريّة حتّى رفض شاور دفع باقي الغرامة للفرنجة وحتى لا يقع الفرنجة بين فكّي الكمّاشة المصريّة ـ السوريّة؛ قرّروا الرجوع على أعقابهم في مطلع ربيع الثاني/ ٢ كانون الثاني ١١٦٩/ـ بعد ستّة أيّام كانت جيوش نور الدين على أبواب القاهرة وخيّمت عند باب اللّوق فكان وصول شيركوح بمثابة إنقاذ للإسلام يحمي الخليفة ويتحالف مع شاور الذي اصبح في مأزق صعب لأن شيركوح يتمتّع بشعبيّة كبيرة في مصر؛ وكعادته نكث عهوده ولم يدفع شيئاً للسّوريّين وعرف شيركوح أنّه لن ينال شيئاً ما دام شاور في الوجود فلا بدّ إذن من تصفيته وقد أجمع الأمـراء السّـوريّون على هذا الـرأي وبقـي إيجـاد الوسيلـة والفرصة:ـ خلال الزيارة اليوميّة التي كان الوزير يقوم بها لمعسكر شيركوح قبض عليه صلاح الدين وسجنه فطالب الخليفة برأسه ولكن شيركوح لم ينفّذ الطلب إلاّ إذا اقترن بأمر خطّي من الخليفـة.ـ في/١٧/ ربيع الثاني/ ١٣ كانون الثاني ١١٦٩/ ووفاقاً للقاعدة أن من ينتصر على الوزير يحتلّ مكانه، قلّد شيركوح الوزارة فقلّد أعوانه مناصب مراكز المسؤوليّة وأصبحت البلاد عمليّاً في قبضة يده. . ومنذئذٍ أصبحت مملكة القدس داخل حلقة محكمة من الحصار الإسلامي وحُشدت الجيوش الموالية لنور الدين على تخوم المملكة كلّها وكان هذا الأخير ينتظر وصول المال لتغطية تكاليف المعركة الحاسمة فرفض شيركوح العودة إلى سورية لأنّه تدبّر أمره في القاهرة في خدمة الخليفة الفاطمي الذي جعل من الجيش السوري الغازي موضع ثقة مصر وإخلاص لمصر. . فأمر نور الدين بمصادرة أملاك مُقطَعِهِ الكردي في سورية ولم تدم الأزمة طويلاً بين الرجلين لأنّ شيركوح

مات متخوماً في جمادى الثانية/ آذار ١١٦٩/ بعد أن حكم مصر شهرين وخمسة أيّام وبدأ فصل جديد من حياة العائلة الكرديّة الطّمُوحة.

● **وزارة صلاح الدين**

عقب موت شيركوح بقيت الوزارة دون تعيين صاحب الحقّ فيها وكذلك الجيش الغازي أصبح لا قائد له بمعنى أنّ تولية البديل تتمّ على مرحلتين:ـ انتخاب قائد للجيش أوّلاً ثمّ التقليد الرسمي للوزير.

لقد شارك صلاح الدين القاضي الفاضل المشهور في تسيير الشؤون الإدارية للوزارة وقد عيّنه عمّه خلفاً له ولكن هذا التعيين لم تقرّه أيّة سلطة ولا بدّ من التوصّل إلى حلّ سريع دون حاجة إلى سفك دماء.. ولم يكن ممكناً أخذ رأي نور الدين الموجود في حلب فتقرّر انتخاب قائد من بين الضّباط السوريّين غير الملزمين باستشارة الخليفة الفاطمي وكان الجيش منقسماً إلى معسكرين:ـ النوريّة الموالون لنور الدين والأسديّة أنصار أسد الدين شيركوح وبعد مداولات معقّدة وقع الخيار على صلاح الدين.

أمّا بالنسبة للوزارة فالخليفة «العادد» لم يأخذ برأي العائلين بتقديم مرشّح عسكري فاطمي وقرّر استناداً إلى تعلّقه بالوزير السابق شيركوح أن يقلّد الوزارة إلى القائد العام للقوّات السوريّة صلاح الدين وقد بلغ هذا الثلاثين من عمره في/٢٥ جمادى الثانية/٢٦ آذار ١١٦٩/ وخلافاً لرأي البعض فيه فقد كان طموحاً وأثبت بالتجارب العمليّة كفاءته كقائد عسكري شجاع ومدبّر نابه يعرف من أين تؤكل الكتف فكان طبيعيّاً أن يملأ الفراغ الذين تركه عمّه. وتمّ الإحتفال الرسمي في قصر الوزارة حيث تُلي عقد الوزارة أماه جمع غفير. والعقد إيّاه الذي غطّى نصّه/٩٠/ طلحيّة تضمّن تقليد الوزير الجديد لقب الملك الناصر الأمر الذي أغاظ نور الدين ودعا

لإصداره الأمر بعودة قسم من القوّات السوريّة مقدّراً أنّ هذا الإجراء يضعف مكانة صلاح الدين لدى الخليفة ويخضعه لنفوده فأصبح همّ صلاح الدين الأوّل تثبيت مركزه في مصر فيبقى على علاقات طيّبة ليس فقط مع الخليفة بل، أيضاً، مع المحيط المصري، ومع مختلف فئات القصر، وتعويضاً عن كراهيّة الأمراء المصريّين له بسبب انتزاع جانب من مواردهم منهم استمال إليه قلوب الشعب وحظوته. والعلاقات مع نور الدين صارت صعبة:ـ استمرّ صلاح الدين في تقديم إسم الأمير السوري في الخطبة ولكن نور الدين لم يعترف، بالمقابل، بصفة الوزارة لصلاح الدين فهو، فقط، القائد العام للقوّات السوريّة في مصر. وبعد عودة القوّات الموالية لنور الدين رغب صلاح الدين في إستقدام أبيه وإخوته إلى مصر لمساعدته ولكنّ نور الدين لم يسمح لغير الوالد بالذهاب (رجب ٥٦٤/ نيسان ١١٦٩) وبدأ صلاح الدين تأليف جيش جديد ولزمه المال فاقتطعه استلافاً على حساب بيت مال شيركوح والضرائب واشترى مماليك وأجهزة.. تنقصنا الوثائق والمعلومات عن حجم جيش صلاح الدين عام ١١٦٩، ولكنّنا نعلم أنّه، في عام/١١٨١/ بلغ عدد قوّات مصر البرّيّة/٨٦٤٠/ رجلاً وارتفعت ميزانيته السنوية إلى/٣٦٧٠٠٠٠/ ديناراً أي/٤٢٥/ ديناراً للرأس في العام. وبعد ذهاب النوريّة أصبح جيش صلاح الدين مؤلّفاً من/٥٠٠/ مشاة و/٣٠٠٠/ خيّالة من الغــجّ بقيادة بهاء الدين قراقوش وميزانيّته/١٤٨٧٠٠٠/ ديناراً.

عام/١١٧١/ (ايلول) بلغ جيش صلاح الدين/١٤٠٠٠/ رجل تكاليفهم السنوية/ ٥٨٥٠٠٠٠/ دينار أي مبلغ يزيد على الميزانيّة المصريّة.. فلزمه ديون استثنائيّة وأصبحت القوّات المصريّة لا تقبض رواتبها ومخصّصاتها نقداً بل على أساس نظام واردات الإقطاعات.. وصرف صلاح الدين جميع الموارد الإقتصاديّة من أجل الأمن الخارجي والإستقرار الداخلي وكانت قوّة صلاح الدين

المتنامية تزعج أنصار القضيّة الفاطميّة وما عتّموا أن اقتنعوا أنّ تدعيم وتنمية القوّة العسكريّة كانا ضروريّين عندما جدّد الفرنجة عزمهم على مهاجمة الدولة الفاطميّة من جديد.

كان آموري يرى في تعاقب أفراد العائلة الأيّوبيّة على منصب الوزارة الفاطميّة عمليّة توسيع لسلطة نور الدين في مصر ولا بدّ من الحيلولة دون ترسيخ أهميّته الستراتيجيّة ونور الدين يعي هذا ورغم نظرته إلى صلاح الدين اتخذ الإجراءات اللازمة لتدعيم مركزه في مصر وسمح لإخوته بالذهاب إلى القاهرة فوصلوها في/٣ ذي القعدة ٢٩/٥٦٤ تموز ١١٦٩/ واكتشفت بعد قليل مؤامرة فرنجيّة ـ مصريّة ضدّ صلاح الدين تديرها «سنيّة الملك» فاعتقلت وأعدمت. وفي بداية محرم /٥٦٥/ نهاية ايلول ١١٦٩/ عيّن صلاح الدين بهاء الدين قراقوش مديراً للقصر فثار الحرس السوداني وانضمّت إليه وحدات موالية للفاطميّين فبلغ عدد الزاحفين ضدّ قصر الوزير خمسين ألفاً وحصلت المجابهة في حيّ باب القصرين فأضرم جنود صلاح الدين النار في الحيّ قرب باب «زُويلا ZUWAYLA» حيث يسكن نساء وأولاد الميليشيات السودانيّة، وبعد يومين من القتال ألقى السودانيّون السلاح فذبحوا على يد أخ لصلاح الدين يدعى شمس الدولة إلاّ فئة قليلة منهم نجت وهربت إلى صعيد مصر ومنذئذٍ جُرّد الخليفة من حرسه وصار تحت رحمة صلاح الدين وبالتحديد بهاء الدين قراقوش.

● ردود فعل ضدّ صلاح الدين

منذ وصول شيركوح إلى القاهرة أحسّ الفرنجة بخطورة الحالة وبعثوا برسلهم إلى بلدان الكثلكة جميعها وكان اللاّتين يحثّون شركاءهم في الدين للحيلولة دون استعادة المسلمين للقدس. ـ في شوّال/ ٥٦٤/ تموز ١١٦٩/ (حقبة وزارة صلاح الدين في القاهرة) وصل الرسل إلى أوروبة ولكنّ الحرب بين «الكابيسيان» (سلالة

مالكة فرنسية ٩٨٧ ـ ١٣٢٨).. وبين «البلانتا جينيتز» (إقطاعيو غرب فرنسة لعبوا دوراً في الحروب الفرنسية ـ الانكليزيّة ١١٥٤ ـ ١٤٨٥).. لم تسمح لأيّ من المعسكرين المتحاربين أن يرسل مدداً إلى الشرق.. وأدرك آموري أنّ مشاغل السفن في دمياط والإسكندريّة المزوّدة بالخشب من قبل البيزانيّين (التوسكانيين) تمكّن المصريين أن يكون لهم أسطول قادر على قطع علاقات الصليبيّين البحريّة مع أوروبة فعزم على الإستنجاد بالبيزنطيّين من جديد وقبل الامبراطور إرسال مئتي سفينة من مختلف الأوزان والأحجام وأقلع الأسطول في بدء شوّال/ ٥٦٤/ أوّل تموز١١٦٩/.. أقلع من القرن الذهبي باتّجاه قبرص حيث أسر سفينتين مصريّتين والسفن التي نجت أعلمت الإسكندريّة باقتراب الأسطول. وفي بدء محرّم /٥٦٥/ آخر ايلول ١١٦٩/ أي عقيب قمع الثورة السودانيّة في القاهرة نظّم صلاح الدين الدفاع عن مصر وتلقّى آموري مدداً ماليّاً وقوّات مشاة بيزنطيّة تحرّكت في/ محرم/ تشرين الأول/ باتّجاه دمياط حيث كان مقرّراً في الخطّة أن يقوم الفرنجة واليونانيّون بإنزال أجهزة وعتاد يحملها الأسطول البيزنطي ولكنّ الرياح عاكست سير السفن فأعاقت تقدّمها وبالتالي وصولها وهذه فرصة اغتنمها صلاح الدين فطلب المال من الخليفة الفاطمي لأنّه لا يثق بجنوده وطلب الجنود من نور الدين وبدأ المدد العسكري المتواصل يصل من سورية فبدأ حصار دمياط في صفر /٥٦٥/ تشرين الثاني ١١٦٩/ ورغم ضخامة آلتهم الحربيّة لم تستطع قوّات الفرنجة وبيزنطية الاستيلاء على المدينة فدبّ الشقاق بينهم وتفاقم بسبب نقص المؤن وانتشار مرض الزحار وهبوب عواصف عاتية رافقتها أمطار غزيرة هدمت الخيام وفي نهاية مدّة /٣٥/ يوماً أنهي الحصار ونجت دمياط بفضل الإمدادات من نور الدين وبعد هذا الإنتصار تلقى الخليفة التهاني من عاهل سورية ولكن «العادد» قبل مشورة صلاح الدين وطلب من نور الدين أن يستعيد العناصر التركيّة

التي أرسلها إلى مصر فردّ هذا على الغطرسة بالثناء والمغالاة في مديح الترك قائلاً أنّ لا غنى عنهم من أجل أمن مصر. - وفي رجب /٥٦٥/ نيسان ١١٧٠/ أذن لنجم الدين بالذهاب عند صلاح الدين مؤمّلاً أن الأب يستطيع لجم مطامح ولده. . وفي نفس الآن قام الأمير السّوري بضرب الحصار على قلعة الكرك موآب لمشاغلة الفرنجة وصرفهم عن اعتراض طريق القوّة التي سار بها نجم الدين إلى مصر ولمّا اقتربت النجدات الفرنجيّة من القلعة المحاصرة رفع نور الدين الحصار وقفل راجعاً إلى وسط سورية حيث علم باتّساع أضرار الهزّة الأرضيّة في /١٣ شوال ٥٦٥/ ٢٩ حزيران ١١٧٠/ فأصبح على الفرنجة والمسلمين سواء إصلاح دفاعات معظم حصونهم.

في ذي الحجة ٥٦٥/ أيلول ١١٧٠/ واجه نور الدين، للمرّة الثانية في حياته، معالجة مسألة الحقّ في وراثة الموصل. . لقد مات قطب الدين مودود بعد ملك دام /٢١/ عاماً ومسألة من يعقبه كانت معقّدة. . فذهب نور الدين بنفسه الى الموصل لتسوية القضيّة مع أولاد عمّه وبفضل دعم الخليفة ظلّت الجزيرة خارج سلطة سلطان السلاجقة وبذلك تدعّمت أكثر وحدة الامبراطوريّة الزنكيّة ورجع نور الدين إلى جنوب سورية في شوّال /٥٦٦/ حزيران ١١٧١/ لمراقبة تحرّكات الفرنجة.

في تلك الأثناء تتابعت مناوشات صلاح الدين ضدّ مملكة اللاّتين بالقدس فقد شنّ غارة ضدّ غزّة ولم يتمكّن من الإستيلاء على داروم وحاميتها من فرسان الهيكل فباعت غزّة واستولى عليها وفي نفس الوقت نقل على الجمال، عبر سيناء، سفناً مصنوعة في (ماكس - مشغل سفن القاهرة) وذلك بعد أن فكّكها إلى قطع ثمّ أعيد بناء السفن إيّاها وفي /٢٠ ربيع الثاني ٥٦٦/ ٣١ كانون الأول ١١٧٠/ استولت على عيلات.

منذ فشله في دمياط وملك القدس يعمل فكره في السبيل الى

هزم صلاح الدين وفتح مصر ثمّ الإطباق على نور الدين. ـ في رجب/٥٦٦/ آذار ١١٧١/ ذهب آموري الى قسطنطينيّة ووقّع إتّفاقية مع مانوئيل تنصّ على تقديم العون للملك في أيّة عمليّة ضدّ مصر وفي الحرب ضدّ نور الدين ـ الذي أصبح عليه أن يحسب حسابه للحرب على جبهتين ـ كان عدد أنصار الخليفة الفاطمي يتناقص في مصر وقد ولّى صلاح الدين رئاسة الدواوين ودائرة الختم للمرن الداهية القاضي الفاضل. وبغداد، ممثّلة بنور الدين، أصرّت مرّة جديدة على ضرورة إعادة الخطبة العبّاسيّة إلى القاهرة ولكنّ صلاح الدين تملّص من هذا الإلتزام وبدا أنّه يخدم الخليفة الفاطمي لأنّه يحتاج إلى الإعتماد عليه. ـ في /نهاية ذي الحجّة/٥٦٦/ بداية أيلول ١١٧١/ وقع «العادد» في مرض شديد وانتهزت الظروف فألقيت الخطبة العبّاسيّة باسم خليفة بغداد وذلك في أوّل جمعة من محرّم /٥٦٧/ ١٠ أيلول ١١٧١/ دون أن يحصل أيّ ردّ فعل شعبي ودون أن يُحظر بذلك الخليفة العلوي الذي مات بعد ثلاثة أيّام في يوم عيد عاشوراء فحضر صلاح الدين شخصيّاً مراسم المأتم وأمسك بزمام شؤون الدولة وتولّى بنفسه رعاية أهل وذوي قرابة الخليفة المتوفّي. ومرّت في القاهرة إعادة السنّة دون ضجّة ملحوظة وتلقّى نور الدين من بغداد تقليداً رسميّاً بتوليته سورية ومصر التي عادت الى حضن الخلافة العبّاسيّة. . وبعد مرور عدد من السنين تآمر أنصار الفاطميّين سرّاً وعادت إلى الوجود ميليشيات السّود التي حلّها صلاح الدين وقامت ثورة تطوّرت وامتدّت حتى /٥٧٢/١١٧٦/ فطلب صلاح الدين من قراقوش تدعيم أسوار القاهرة واتخذ بعض الإجراءات ضدّ الشيعة: ـ أبطل الآذان على طريقة المذهب الشيعي وأسّس مدرستين الشريفيّة الشافعيّة في القاهرة، والكامهيّة المالكيّة في الفسطاط وألغي تعليم المذهب الشبعي في الأزهر وحصلت تغييرات أخرى في القضاء حيث حلّ القضاة الشافعيّون محلّ الفاطميّين. ـ في ٧ ربيع الثاني ٥٦٧/٨/ كانون الأول ١١٧١/ ظهرت،

للمرّة الأولى، عملة مضروبة باسم الخليفة العبّاسي. وفي آذار ١١٧٢ أقيمت الإحتفالات الرسميّة بإعادة السيادة العبّاسيّة.

التنافس بين نور الدين وصلاح الدين

حتّى عام /٥٦٧/ ١١٧١ - ٧٢/ بقيت العلاقات بين نور الدين وصلاح الدين كما تكون بين رئيس ومرؤوسه.. وموت العادد قوّى مركز صلاح الدين الرجل الواقعي الذي لم يتكتّم يوماً على مطامحه ورغبته بالإستقلال تجاه السلطة الزنكيّة.. والأزمة بين الرجلين أزمة اختلاف مزاجين تركي وكردي.. وأزمة اختلاف وجهة نظر حول سير الحرب ضدّ الصليبيّين وبالتالي أزمة جيلين وفارق السنّ.- «سير هاملتون جيب» المؤرّخ والمستشرق الإنكليزي قال:- «إنّ سورية- بلاد الشام - بالنسبة لنور الدين، هي الميدان الرئيسي للعمليّات ضدّ الفرنجة؛ وليست مصر سوى مصدر موارد لا يجوز أن تقع في أيدي الصليبيّين أي أنّ السياسة الزنكيّة وضعتها حتّى خارج الهامش.- أمّا صلاح الدين فيعتبر مصر القاعدة الرئيسيّة ضدّ مملكة القدس ويرى مكانه خارج الإطار السوري».

في عام /١١٧٢/ لم تعد أراضي مصر مهدّدة من قبل الفرنجة فتحسّن وضعها المالي وخفّت اعباؤها العسكريّة فأصبح نور الدين يؤمّل الحصول على الذهب لتغطية المصروفات التي التزم بتقديمها، خلال عدّة سنين، لمعارك حروب مصر فأرسل له صلاح الدين مجوهرات وحجارة كريمة أخذت من بيت المال الفاطمي ومع كميّةمن الدنانير وجدها نورالدين غير كافية:- لكنّ مدّخرات الذهب كانت متواضعة فالغرامات السابقة المدفوعة - بخاصة للفرنجة - استنزفت الخزينة.. أضف إلى ذلك أنّه كان يؤمّل الحصول على مشاركة ماليّة جوهرية في حرب الجهاد ولكنّ صلاح الدين رفض أن تكون مصر مستعمرة زنكيّة والحلّ أصبح واضحاً:- أن يكون سيّداً في

القاهرة. . فهو يحتاج للموارد كلّها لبناء أو ترميم قواه الدفاعيّة وبناء جيش وأسطول لديهما الجاهزيّة الكاملة للقتال ضدّ الفرنجة. وبالفعل حصل تحسّن إقتصادي ملحوظ منذ خريف /٥٦٧/١١٧١/ وألغيت المكوس (الضرائب والرسوم غير المشروعة) بناء على أمر من نور الدين ممّا سهّل سير التجارة الدوليّة وبخاصّة تلك التي تمرّ عبر البحر الأحمر إلى الأبيض المتوسط.

وبموجب اتفاقيّة عام /٥٦٨/١١٧٣/ خوّل للبيزانيّين أن يستقرّوا في الاسكندريّة. وتناقصت موارد الذهب في مصر بسبب استنفاد مناجم النوبة والإنفصال عن السودان الغربي بعد قيام العائلة المالكة القويّة «المهادية» التي ملكت المغرب. . إلاّ أنّ نور الدين كان على يقين أنّ صلاح الدين يحجب موارده عن دمشق فأرسل إلى القاهرة، ربيع عام /٥٦٩/١١٧٤/ ابن القيصراني مزوّداً بمهمّة تقدير واردات مصر فمني نور الدين بخيبات أمل في مجال التعاون العسكري مع صلاح الدين وبخاصّة في المجهود الحربي ضدّ الفرنجة..فقد دعا صلاح الدين الى المساهمة في عمليّات مشتركة في فلسطين، وفي محرّم /٥٦٧/ أيلول /١١٧١/ غادر صلاح الدين القاهرة وتحرّك نور الدين للإلتقاء معه في بلاد موآب (سدوم - البحر الميّت) وحاصر صاحب القاهرة قلعة الشوبك التي بنيت عام /١١١٥/ وتشرف على عقدة طرق دمشق - مصر - الحجاز، في حين تمركز نور الدين تجاه الكرك مفتاح سورية. . وفجأة عزم صلاح الدين على العودة إلى القاهرة في/١٥ /ربيع الأول/٥٦٧/١٦ تشرين الثاني ١١٧١/ ومنيت العمليّة بفشل كامل وحجّة الزعيم الكردي كانت الخوف من مؤامرات داخل مصر وإن كان للمؤرّخين رأي آخر هو أنّه أراد أن يتجنّب مواجهة نور الدين؟. . والإحتمال الأكثر واقعيّة هو أنّ صلاح الدين مُني بخسائر كبيرة - بخاصّة في المطايا - بسبب غارات بدويّة موالية للفرنجة.

رفض الأمير الزنكي الحجج إيّاها وقرّر الذهاب بشخصه إلى

القاهرة وإعادة تابعه العنيد إلى جادّة الصواب ومهّد لذلك بطلب تجديد عقد ولايته على جميع الأقاليم المعترف بسلطانه عليها أي الجزيرة وسورية ومصر فاستجاب الخليفة للطلب وبذلك انتزع منّ ورثة السلجوقيّين الكبار سلطتهم كلّها على بلاد غربيّ دجلة وأخضع صلاح الدين لسلطته.

رغم الإجراءات المذكورة اعتبر صلاح الدين نفسه سيّد مصر وعزم على إعلان استقلاله واستشار بذلك امراءه فتدخّل نجم الدين وأقنع ابنه بعدم الدخول في عداء سافر ضدّ نور الدين اجتناباً لتدخّل مسلّح محتمل من قبل صاحب دمشق.

عام/١١٧٢/ اعترضت صلاح الدين مصاعب ماليّة لمواجهة المصروفات العسكريّة فانتقل في/٤ شعبان/ مطلع نيسان/ إلى الإسكندريّة حيث عقد مجلس حرب وكانت لديه فكرة القيام بحملة عسكريّة باتّجاه الغرب نحو برقة بليبية فوافق المجلس ووضعت الحملة تحت قيادة ابن أخيه تقيّ الدين عمر ولكن حدث ما دعا لتأجيلها لأنّ النوبّيين الناجين من مذابح الفسطاط والجيزة زحفوا شمالاً وحاصروا أسوان التي يقود حاميتها كنز الدولة فهزم السود ورُدّوا على أعقابهم وأرسلت حملة تأديبيّة بقيادة طوران شاه اجتاحت الإقليم حيث يتجمّع أنصار الفاطميّين واحتلّت إبريم ووضعت فيها حامية كرديّة وعادت القوّات محمّلة بالغنائم وذلك إنتصار جديد قوّى مركز صلاح الدين في مصر العليا وأحدث انعكاسات اقتصاديّة نتيجة فتح طرق وسط افريقية فتيسّر وصول الذهب والماس والعبيد.

سُوّيت مشكلة النوبة واستؤنف تنفيذ الحملة نحو الغرب عام/٥٦٨ /١١٧٣/ فتغلغل المصريّون في أفريقية مدعومين من قبل القبائل البدويّة المعادية للمهاديّة فكانت حملة موفّقة عادت بغنائم كبرى من المراكز الساحليّة وكانت مجدية على الصعيد العسكري لأنّها سمحت بالحصول على الخشب من غابات أفريقية

الشماليّة لبناء السفن واجتذاب عناصر عميقة الخبرة والتجربة لتشكيل الطواقم اللازمة للسفن إيّاها.

وفي حين كان نور الدين في شمال سورية لمعالجة نزاعات بين قيليج أرسلان السلجوقي صاحب قونية والدانيشمانديد ذو النون الذي حاول امتلاك سيواس وملاطية مستفيداً من إقامة آموري في انطاكية انطلق صلاح الدين في/١٥/ شـوّال ٥٦٨/ ٣٠ أيار ١١٧٣/ لمهاجمة إقليم الشوبك والكرك ومقاصصة البدو الّذين ألحقوا به أضراراً قبل عامين فحاصر القلاع وهو ينجز عمليّاته المذكورة ثمّ رفع الحصار وعاد إلى القاهرة.

إبن الأثير لمعروف بمدائحه الطويلة للزنكيّين فسّر الأحداث فأعطاها وجهاً آخر:- رفع صلاح الدين الحصار عن الحصنين في نهاية تموّز إذ علم باقتراب نور الدين لأنّه لا يريد دمجاً للقوّات المصريّة والسوريّة يكون ثقيل الوطأة على مملكة القدس بل يستطيع إزالة الدولة اللاّتينيّة تلك فصلاح الدين راغب بالفعل ببقاء هذه الدولة «الصمّام» بينه وبين نور الدين وقد وجد حجّة لذهابه هي صحّة والده نجم الدين الذي أصيب أثر سقوطه عن جواده؟

فشل قيام التعاون بين القائدين مدّ في عمر دولة القدس/١٤/ عاماً وظلّ ينتظر في دمشق (طوال تلك السنين) منبر خشب الأبنوس الحلبيّ الصنع الذي أوصى نور الدين بصنعه ليوضع في المسجد الأقصى نذراً منه لاستعادة القدس.

وجد صلاح الدين أنّ والده قد مات منذ /٢٧ ذي الحجة ٥٦٨/ ٩ آب ١١٧٣/ فأصبح منذئذٍ هـو كبير العـائلة واستمرّ بالإعتراف بالسلطة العليا لنور الدين بذكر اسمه في الخطبة وموافاته بالتقارير عن الأوضاع في مصر.- آنئذٍ لم يكن صلاح الدين يضع الدخول في معركة حاسمة مـع الصليبيّين في المقام الأوّل من

سياسته:-عام /٥٦٩/١١٧٤/ عمل على توسيع نفوذه في البحر الأحمر لتنمية موارده والسيطرة على التجارة الدوليّة في هذا الإقليم المكسب فقرّر احتلال اليمن بموافقة من نور الدين الطامع بحصّة من الفوائد المرجوّة؛ وفي رجب /٥٦٩/ آخر شباط ١١٧٤/ انطلقت حملة عسكرية بقيادة شمس الدولة طوران شاه إلى العربيّة السعيدة فوصل الجيش الحجاز وتوقف في مكّة لإداء مناسك العمرة ووصل إلى «زابد» في/١٠ شوال ٥٦٩/ ١٣ أيار ١١٧٤/ وتمركز الأمير في تعز واحتلّ عدن فظلّت طوال نصف قرن التجارة البحرية بين المحيط الهندي والبحر الأحمر ومعها الطريق البرّي لتجارة البخور والتوابل.. ظلّت خاضعة لسيطرة عائلة مالكة أيوبيّة.

إبّان قيام أخيه بحملة «إستعماريّة» في العربيّة واجه صلاح الدين مؤامرة لقلبه وإعادة السلطة الفاطميّة وقد تجمّع المتواطئون من أقاليم مختلفة مغتنمين فرصة غياب جانب هامّ من الجيش وتعاضد في المؤامرة حنبليّون واسماعيليّون وسقطت الضحايا من الفريقين أثناء حملة التطهير التي قام بها صلاح الدين منذ علم أنّ آموري احيط علماً بها سرّاً فعمل بقسوة متناهية؛ وفي آخر شعبان /٥٦٩/ مطلع نيسان ١١٧٤/ جرت اعتقالات جماعيّة واسعة شملت رؤوس المشاركين ومنهم الشاعر المشهور عمارة اليماني فأعدم فريق على ملأٍ من الناس ونفي الباقون وهكذا تقطّعت أوصال المَعارضة وكان ابن القيصراني مبعوث نور الدين قد وصل إلى القاهرة في ظرف غير ملائم تضاعفت فيه قوّة صلاح الدين. - وفي ربيع /٥٦٩/١١٧٤/ أعدّ نور الدين حملة ضدّ صلاح الدين وهو يعلم ذلك وكان قصد الأمير السوري إعادة إحكام الطوق حول مملكة القدس؛ ولكنّ حدثاً طرأ فقلب مجرى السياسة في الشرق: في /١١ شوال ٥٦٩/ ١٥ أيار ١١٧٤/ مات نور الدين بسبب إلتهاب في الحنجرة مخلّفاً ابناً عمره /١١/ عاماً هو الملك الصالح إسماعيل فدفن جثمانه أوّلاً في قلعة دمشق ثمّ نقل إلى مدرسته

المأتميّة المبنيّة جنوب المسجد الكبير بدمشق ولا يزال قبره إلى الآن موضع تعظيم الشعب.

بعد أسابيع قليلة من موت نور الدين مات آموري أيضاً تاركاً تاج القدس لفتى هو بودوان الرابع الملك الأبرص والوصي عليه ريموند صاحب طرابلس فأصبح خصما صلاح الدين غلامين.

لقد ملك نور الدين /٢٨/ عاماً وكانت منعطفاً حاسماً أحيى ضمير الجهاد في سورية فالجهاد ضدّ الصليبيّين أصبح القوّة المحرّكة للحياة السياسيّة والروحيّة في سورية والجزيرة؛ ولا شكّ أنّ نور الدين كان الروح لهذا المنطلق فقد عمل لبلوغ وترسيخ النقاط الأربع التالية:

١ - ايديولوجية الجهاد الكلاسيكيّة عادت إلى الظهور بكلّ أبعادها وأهمّها طلب الشهادة والموت في ميدان الشرف.

٢ - في إطار العراقة، وإلى سفرها، أضيفت فكرتان جديدتان: قدسيّة القدس وفلسطين التي صارت أحد أقطاب الدعوة ثمّ إعادة الوحدة السياسيّة إلى الإسلام في الشرق الأدنى واعتبارها الهدف الأوّل بل الشرط الأوّل للجهاد ضد الصليبيّين.

٣ - قيام جهاز واسع وظيفته بثّ هذه الإيديولوجيّة بين جميع طبقات المجتمع.

٤ - وأخيراً، حركة الجهاد إيّاها، انصهرت مع حركة روحيّة تخمّرت منذ قرن في الشرق هي عودة المدّ السنّي الإسلامي وتبني نور الدين هذه الإيديولوجيّة الإسلاميّة أكسبه دعم الرأي العام وكان حافزاً عميقاً للتحرّك الشعبي.

ومن بين الظواهر الدعائيّة كان الأسلوب المستعمل في التدوين التعظيمي لنصّ تقليد الإمارة وسواها من المناصب العالية فهو تعبير حقيقي عن المجاهرة بالعقيدة وتقييم لوزن وقيمة الكلمة؛ ومحور

الدعوة ومحرّكها كان تقديم نور الدين بألقاب الحماية للدين والطاعة والعبادة لله ثمّ تأتي الشعارات من المرتبة الثانية المتّصلة بوحدة الأمّة وإعادة فتح البلدان الخارجة على هذه الوحدة ومن أجل بلوغ الوحدة وتحقيق النصر بالجهاد يجب أن تعمل دول الإسلام تحت راية زعيم واحد. وكانت ظروف نور الدين ملائمة لخلق المناخ النفسي لهذا كلّه أضف إلى ذلك أنّ الأدب والثقافة ساهما في بثّ هذه الإيديولوجيّة ونخصّ مؤسّستين جديدتين في سورية هما المدرسة والخانقاه (مقرّ الطرق الصوفيّة).. وخلاصة القول أنّ نور الدين عرف كيف يستغلّ التسليح المعنوي الجديد وهو، بالأصل، أحد محقّقيه.

من الإستيلاء على ايديس عام/١١٤٤/ إلى حملة مصر عام/١١٦٤/ استطاع الزنكيّون إعطاء الإسلام تفوّقاً جعل إسقاط مملكة القدس وزوال الدول الصليبيّة تحصيل حاصل.. إلّا أنّه، بعد موت نور الدين، فقدت الحرب ضدّ الصليبيّين زخمها زمناً طويلاً وخلال عشرة أعوام كاملة لم يفقد الفرنجة شبراً واحداً من الأراضي التي احتلّوها وأدرك صلاح الدين أنّه يتحمّل كامل المسؤوليّة فليس له إلّا الطريق التي شقّها مولاه السابق وعليه أن يتابع حرب الجهاد حتّى استعادة القدس.

ملك صلاح الدين

● **سورية غداة موت نور الدين**

في نفس يوم وفاة نور الدين أجمع وجهاء دمشق على الإعتراف بالملك الصالح عاهلاً. ونظراً لصغر سنّه وضع تحت وصاية إبن المقدّم الذي تولّى قيادة قوّات دمشق.. وقلّد ابن العجمي الوزارة مكان ابن القيصراني الموجود بمهمّة في القاهرة وتمّ انتقال السلطة دون عقبات ولكنّ إعادة بعض المكوس أثار استياء السكّان وتحرّكت

حلب ضدّ إجراءات دمشق فالشيعة التي كانت مضطهدة أيّام الأمير الزنكي أمّلت الحصول على حرّيّات أوسع ولكنّ التحرّك قمع بسرعة.

وبقيادة «إبن الخشّاب» طالب سليلو «إبن الداية» (حكام المدينة الكبيرة منذ/٣٣/ عاماً) طالبوا بحقّهم في الوصاية على ابن نور الدين ونقله إلى حلب ودارت محادثات في دمشق مثل الجانب الزنكي فيها الأمير «سعد الدين كوموشتاكين» القائد السابق لقلعة الموصل واللاّجيء إلى حلب فاقترن الطلب بالنجاح ونقل إسماعيل إلى حلب إذ غادر الأمير الفتى دمشق في /٢٣/ ذي الحجّة ٥٦٩/ ٢٥ تموز ١١٧٤/ وحال وصوله إلى حلب سجن الأمير كوموشتاكين أعضاء عائلة إبن الداية واستلم مقاليد السلطة باعتباره الآتابك للأمير الزنكي.

المصاعب الداخليّة السوريّة تعمّقت بسبب نشاط أخصام حاكم دمشق الجديد وعلى رأسهم صلاح الدين صاحب مصر وسيف الدين غازي ابن أخ نور الدين ونائبه في الموصل ثمّ ملك القدس في حدود معيّنة.. وكان صلاح الدين مصدر الخوف الأوّل رغم اعترافه بمولويّة اسماعيل وذكر إسمه في الخطبة وضرب النقود بإسمه وأظهر رغبته بدعم العاهل الجديد بدمشق.

أمير الموصل عرف بموت عمّه وهو في طريقه إلى سورية على رأس قوّات مدد للحملة التي جهّزها نور الدين ضدّ مصر فاغتنم سيف الدين غازي الظرف لضمّ عدد من المواقع وتلقّى التأييد من حكّام ايديس وحرّان والرقّة بخاصّة وهكذا عاد الفرات ليكوّن حدود الجزيرة.

الفرنجة، من جانبهم، تحرّكوا بعد موت نور الدين وهاجموا بانياس فدخل شمس الدين إبن المقدّم معهم في مباحثات انتهت بتوقيع هدنة مع آموري الذي مات بعد ذلك بأيّام قليلة أي في ٩/

ذي الحجّة/ ١١ تموز ١١٧٤/ وبموته زال خطر الفرنجة.

ازاء الفوضى التي سادت سورية ظهر صلاح الدين أقوى أمراء المسلمين والوحيد القادر على متابعة سياسة الوحدة والسنّة التي كرّسها نور الدين وبدأ يضاعف اتّصالاته مع أنصاره في سورية آخذاً على ابن المقدّم موقفه التخاذلي المتمثّل في عقد هدنة مع ملك القدس.. وراح يزرع الشّقاق بين الزنكيّين محرّضاً سيف الدين صاحب الموصل ضدّ أخيه عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار.. هذا مع الحرص دائماً على إصدار التصريحات الكبيرة عن إخلاصه وولائه للملك الصّالح إنطلاقاً من مبدأ وحدة الإسلام؛ وطوال صيف عام/٥٦٩/١١٧٤/ لم يغادر صلاح الدين ضفاف النيل إلاّ أنّه أبقى جيشه على أهبة الاستعداد على الحالة الدفاعيّة. وفي/٢٦ ذي الحجة/٢٨ تموز ١١٧٤/ هاجم النورمنديّون الإسكندريّة وهي عمليّة محسوب حسابها منذ المؤامرة الفاشلة المدعومة من الفرنجة التي قام بها أنصار الفاطميّين.. فملك صقليّة ظلّ يجهل فشل المؤامرة (وهذا أمر مدهش!) أو هو عرف بها وقرّر استمرار حملته في مهمّتها لحسابه الخاص؟-/ ٢٨٠/ سفينة محمّلة بالرجال والخيول والعتاد وآلة الحرب والمؤن ألقت مراسيها تجاه المرفأ وحاصرت المدخل فاصطدمت القوّات المُنزلة بالتحصينات القويّة للمدينة وبعد ثلاثة أيّام وصلت الأخبار عن قرب وصول إمدادات صلاح الدين فقفل النورمنديّون عائدين بسفنهم؛ وبعد أيّام أي في بداية/ محرّم ٥٧٠/ بداية آب ١١٧٤/ قامت ثورة فاطميّة قويّة بقيادة كنز الدولة وسيطرت على إقليمي اسوان وكوس فأرسل صلاح الدين إمدادات إلى أخيه الأصغر سيف الدين العادل وسحق التمرّد في/٧ صفر ٥٧٠/ ايلول ١١٧٤/ وتلك كانت آخر انتفاضة بإسم الفاطميّين.

● **بدايات تدخّل صلاح الدين في سورية.**

في أواخر الصيّف تحرّجت الأوضاع في سوريـة إذ تضايق الدمشقيّون من سياسة كوموشتاكين فاتّصلوا بسيف الدين غازي الذي رفض الاستجابة خوفاً من ردود فعل معيّنة فأصبح طريق السّلامة الوحيد لحكومة دمشق تدخّل صلاح الدين الّذي رحّب بالعروض المقدّمة له وخصّص شهر أيلول وبداية تشرين الأوّل للإستعدادات ثمّ ولّى أخاه سيف الدين العادل على القاهرة وانطلق مع آخر من أخوته، طختاكين، والقاضي الفاضل، وانضمّ إليه عدد من الأمراء في الطّريق وبفضل التمهيد الدعائي والإعلامي الحسن حظي صلاح الدين باستقبال شعبي فخم لدى دخوله دمشق في/ ٢٩ ربيع الأول ٥٧٠/ ٢٨ تشرين الأوّل ١١٧٤/ فأقام علاقات جيّدة مع وجهاء المدينة وألغى المكوس غير القانونيّة المفروضة بعد موت نور الدين ولإزالة أيّ إلتباس أعلن أنّ غايته الوحيدة من المجيء إلى دمشق هي حماية مصالح الملك الصّالح الّذي يعترف بمولويّته اعترافاً مطلقاً فهو راعي الأسرة المالكة ليس إلاّ.. وصحيح أنّ صلاح الدين حمل لقب سلطان منذ اليوم الأوّل لتقليده الوزارة من قبل الخليفة الفاطمي ولكنّ الّلقب إيّاه لا علاقة له البتّة مع اللّقب المماثل الممنوح للسلاجقة من قبل خليفة بغداد.

ما جرى ويجري في دمشق وضع فرنجة القدس في مأزق صعب: لقد عاد الطوق الإسلامي للإطباق عليهم فهم عرضة لهجوم سوري ـ مصري ـ ولكن صلاح الدين لم يفعل قبل أن يُعيد وحدة سورية إلى ما كانت عليه فاهتمّ أوّلاً بحلب حيث يقيم مولاه الشرعي بين ايدي فريق من الأمراء السابقين في عهد نور الدين وصارت سورية مفصولة إلى شطرين متنافسين زنكي وأيّوبي ولا مناص من المجابهة الحاسمة فأعطى صلاح الدين توجيهاته لتنظيم عمليّة ضدّ حلب.

في ربيع الثاني/ تشرين الثاني ١١٧٤/ ولّى صلاح الدين أخاه طغتاكين على دمشق مكان إبن المقدّم الذي أرسل والياً على بعلبك واتّجه إلى شمال سورية لاستعادة المدن الّتي ـ عمليّاً ـ أصبحت مستقلّة. . وكان تقدّمه بطيئاً:ـ مرّ في بعلبك ووصل إلى حمص في/١٢/ جمادى الأولى ٥٧٠/ ٩ كانون الأول ١١٧٤/ واستولى على المدينة بعد ثلاثة أيّام وترك القلعة لأنّها استمرّت في المقاومة ونزل وادي العاصي حتّى بلغ حماه ففتحت له أبوابها في أوّل جمادى الثانية/٢٨ كانون الأوّل /وفي/٣٠ / منه خيّم قرب حلب دون أن يكون لجيشه القوي أيّ تأثير في نفوس السكّان الّذين ظلّوا متماسكين خلف الأمراء الحاكمين بإسم الملك الصالح وظلّت أبواب المدينة مغلقة فبدأ صلاح الدين ضرب الحصار عليها في ظروف طقسيّة قاسية من شتاء سورية الشماليّة وطلب الحلبيّون العون من كلّ مكان:ـ طلبوا من «سنان» زعيم الاسماعيليّة (شيخ الجبل) المقيم في مصياف تنظيم محاولة اغتيال تنهي صلاح الدين فنجا من المحاولة سالماً؛ وبتحريض من أصحاب حلب تحرّك ريموند الثالث صاحب طرابلس وحاول قطع المواصلات مع الجنوب على صلاح الدين فهاجم حمص في/٧ رجب ٥٧٠/ أوّل شباط ١١٧٥/ وعاد صلاح الدين لمناجزة الفرنجة القتال وبلغ حماه فعادوا من حيث أتوا بحجّة أنّهم حقّقوا هدفهم وهو إجبار صلاح الدين أن يفكّ الحصار عن حلب.ـ في /٢١ شعبان /١٧ آذار ١١٧٥/، بعد معارك قاسية، استولى على قلعة حمص. . وفي ٤ رمضان / ٢٩ آذار/ أرغم بعلبك على التسليم.

إنّ احترام مولويّة الزنكي الملك الصالح لم يسمح لصلاح الدين ببسط سلطته على سورية الشماليّة فأعاد النظر في سياسته واتّجه نحو «المستغدي» خليفة بغداد وطلب منه الإعتراف بسلطته على مصر والأقاليم التي فتحها في افريقية الشّمالية واليمن وسورية وأقاليم أخرى كانت تابعة لنور الدين وكذلك على البلدان التي

يستطيع فتحها لحساب الخليفة العبّاسي.. وتقليد رسمي من هذا المستوى يمكّنه من ترسيخ وضعه تجاه الرأي العام الذي ما زال يقيم وزناً لسلطة الخليفة.

العائلة الزنكيَّة، كلّها، - باستثناء عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار وحليف صلاح الدين منذ عام ١١٧٤ - اجتمعت ضدّ صاحب القاهرة. وسيف الدين غازي، أمير الموصل، أعلن استعداده للإنضمام لكلّ إتّحاد موجّه ضد صلاح الدين وانطلق جيش من الموصل بقيادة عزّ الدين مسعود لمساعدة حلب ولكنّه وصل متأخّراً في مطلع رمضان /آخر آذار ١١٧٥/ فارتأى متابعة السير ومهاجمة صلاح الدين في سورية الوسطى فواجه صلاح الدين بعض المصاعب.. وانتظاراً للمدد من مصر عمل على كسب الوقت فاتحاً باب المفاوضات مع ممثّلي حلب الّذين حضروا للإجتماع به في حماه فقبل شروطهم جميعها ورفض فقط التخلّي عن الرحبة فقطعت المفاوضات وعاد الوفد إلى حلب ناشراً الدعاية أنّ قوّات صلاح الدين ضعيفة ممّا شجّع قوّات حلب والموصل متّحدة على اختيار الهجوم عليه حيث هو والتقى الخصمان في «قرون حماه» في/١٩ رمضان ٥٧٠/ ١٣ نيسان ١١٧٥/ وما عتم أن وصل مدد القاهرة فتحوّل ميزان القوى لصالح صلاح الدين وهزمت قوّات حلب والموصل ولاحقها المنتصرون حتّى حلب وهناك، من مركز القوّة، أملى صلاح الدين شروطه فكانت غاية في البساطة وعلى رأسها مساهمة الجميع في المعركة ضدّ الصليبيّين والشرط الوحيد الآخر لإلقاء السلاح كان التعاون العسكري بين صلاح الدين وأصحاب حلب وعدم منع أيّ من الفريقين من إقامة العلاقات الدبلوماسيّة المستقلة مع من يشاء ومتى شاء. في/١٢ شوال ٥٧٠/٦ أيار ١١٧٥/ عاد صلاح الدين إلى حماه وهناك تلقّى التقليد المطلوب من الخليفة وأصبح إسم إبن أيّوب يذكر في الخطبة في سورية وفي مصر وضربت النقود بإسمه «الملك الناصر يوسف بن أيّوب».

لقد ظلّ صلاح الدين يصطدم بمعارضة قويّة في سورية حتّى بعد انتصاراته الأخيرة فأوكل أمر حمص وحماه إلى المؤتمنين من عائلته.. صحيح أنّ جيش حلب مني بكارثة اندحاره في قرون حماه ولكنّ صلاح الدين ظلّ يتدبّر أمور حلب بمهارة وحذر خشية أن يؤلّف الحلبيّون ضدّه تحالفاً يضمّ الإسماعيليّين والصليبيّين وهذا لم يمنعه من القيام - / في النصف الثاني من أيّار ١١٧٥/ - ببعض العمليّات العسكريّة في شمال سورية من بينها مهاجمة المراكز التي يتحصّن فيها الإسماعيليّون.

وظلّ وضع صلاح الدين في سورية يتوقّف تماماً على مصر فالقوّات المصريّة هي التي تواكبه دائماً وميزانيّة مصر هي التي تغطّي مصاريف حملاته كلّها بمعنى أنّ المصريّين حملوا عبء الحرب كلّه اقتصاديّاً وماليّاً.. وبعد غياب عامين كاملين ارتأى أنّ عليه العودة إلى ضفاف النيل وزيادة في الحيطة والإطمئنان تناسى ما أعلنه عام/ ١١٧٤/ ودون تردّد عقد هدنة مع مملكة اللاّتين في القدس.

وبقي الوضع في سورية معلّقاً: - كان سيف الدين غازي على يقين أنّ مجرّد القبول بحضور صلاح الدين في سورية يعني زوال ملك العائلة الزنكيّة.. وبدأ صاحب الموصل ينظّم تحالفاً مع حلب.. وحُذّر صلاح الدين من ذلك فطلب مدداً مصريّاً حدّد وصوله آخر شباط ١١٧٦/ (نصف شعبان ٥٧١) أي عقب انتهاء حدّة الشتاء وكان الأخصام يعبئون القوى أيضاً فتلقّى سيف الدين مدداً من ديار بكر والجزيرة اجتاز به الفرات عند البيرة في منتصف عام/ ٥٧١/ مطلع عام ١١٧٦/ وعملت حلب على تأمين حياد الفرنجة على الأقلّ فأطلقت سراح «جوسالين ودي كورتيناي ورينود دي شاتّييون».. الذي عيّن فوراً سيّداً للكرك والشوبك حيث ظلّ /١٢/ عاماً يعرقل سير القوافل التجاريّة. - في بداية شوّال/ منتصف نيسان ١١٧٦/ زحف الجيش الذي يقوده سيف الدين نحو

دمشق لكنّه توقّف في تلّ السلطان على بعد/٢٠/ كيلومتراً جنوب حلب وعندما انضمّ جيش مصر إلى جيش دمشق في أوّل رمضان/١٤ آذار ١١٧٦/ أصبح صلاح الدين قادراً على السير إلى الشمال وقد ناور قرابة الشهر في إقليم حماه واجتاز العاصي عند شيزر. وفي/٢٩ رمضان/ ٢١ نيسان/ وصلت طلائعه تلّ السلطان وأحرزت خيّالته في اليوم التالي نصراً ساحقاً وظلّ محتفظاً بزمام المبادرة في العمليّات التالية التي ظهر فيها عجز الأخصام عن مواصلة القتال؛ وبعد استراحة قصيرة توجّه نحو حلب وفضّل عزلها على محاصرتها واستولى على بُزاعة غرباً في/٢٣ شوال/٤ أيار

ودخل منبج دون قتال فوجد فيها غنائم وافرة وبذلك قطع المواصلات المباشرة بين حلب والموصل. ثمّ، وفي بداية ذي القعدة/ منتصف أيّار/ حاصر إعزاز فاستلمت في/١١ ذي الحجّة/٢١ حزيران/ وتعرّض الجيش المصري، أثناء الحصار، لغارات استنزاف وجرت محاولة فدائيّة جديدة ضدّ شخص صلاح الدين أصيب فيها بجرح وقُتل وجُرح عدد من حرسه الخاص..
وبقيت حارم جنوب غرب حلب لكن صلاح الدين أطبق بقوّاته على حلب التي صدّت الهجمات كلّها فكان لزاماً إبرام إتّفاقيّة صلح ضمنت لصلاح الدين ملكيّة أراضي المسلمين من حماه حتى حدود مصر وتعهّدت حلب بالمشاركة بكلّ عمليّة تحصل ضدّ الصليبيّين فتحرّك صلاح الدين إلى مصياف وقصف قلعتها بالمنجنيق ولكنّ سنان صمد دائماً وعلم صلاح الدين أنّ عمليّة مشاغلة يجري تنظيمها في البقاع فاضطرّ لإبرام إتّفاقيّة مع سنان ظلّ محتواها مجهولاً والشيء العملي الّذي تمّ هو أنّه، بعد توقيعها، لم تحدث أيّة محاولة إغتيال ضدّ الزعيم الأيّوبي.- فأعطى صلاح الدين إجازة لقوّاته في محرّم /٥٧٢/ تموز ١١٧٦/ وبعد إقامة قصيرة في حماه التقى فيها بأخيه طوران شاه العائد من اليمن عاد إلى دمشق في/١٧ صفر/ ٢٥ آب ١١٧٦/ حيث تزوّج للمرّة الخامسة من ابنة معين

الدين عنّار أرملة نور الدين التي تزوّجت منه عام ١١٤٧/ وبهذا الزواج حرّك دعواه بحقّ وراثة العاهل الزنكي.

● **عودة صلاح الدين إلى مصر**

لدى عودته إلى القاهرة تلقّى صلاح الدين نبأً يفيد أنّه، قبل أيـام، أي في/١١ ربيع الأول ٥٧٢/ ١٧ أيلول ١١٧٦/ مني الأمبراطور مانوئيل بهزيمة ثقيلة الوطأة من قبل السلجوقي صاحب قونية في موقعه «ميريوكيفالون» وهو فشل وضع فرنجة انطاكية، في مأزق صعب إذ فقدوا الأمل، منذئذٍ، بأيّة مساعدة بريّة بيزنطيّة تمكّنهم من متابعة حربهم ضدّ المسلمين وبالمقابل تدعّم واستقرّ الوضع الأمني في مصر فلم يعد يُحسب حساب أيّ هجوم بيزنطي ضدّها رغم وجـود الأسطول الإمبراطوري. - من جهـة أخرى، استعادت البندقيّة وبيزا وجنوى- التي كان لها وكالات ومصارف تجـاريّة خـاصّة بـالمستعمرات على طـول الشاطىء السـوري - الفلسطيني مقابل خدمات أدّتها للفـرنجة الصليبيّين - استعـادت علاقاتها التجاريّة مع مصر التي أصبحت «بلد ترانـزيت» تجارة الشرق الأقصى وزبون الجمهوريّات الإيطاليّة التي لـم تعد لها أيّة مصلحة في دعم توسّع مملكة اللاتين وهكذا انتفى عامل الخوف من القدس لدى كلّ من حلب ودمشق والقاهرة.

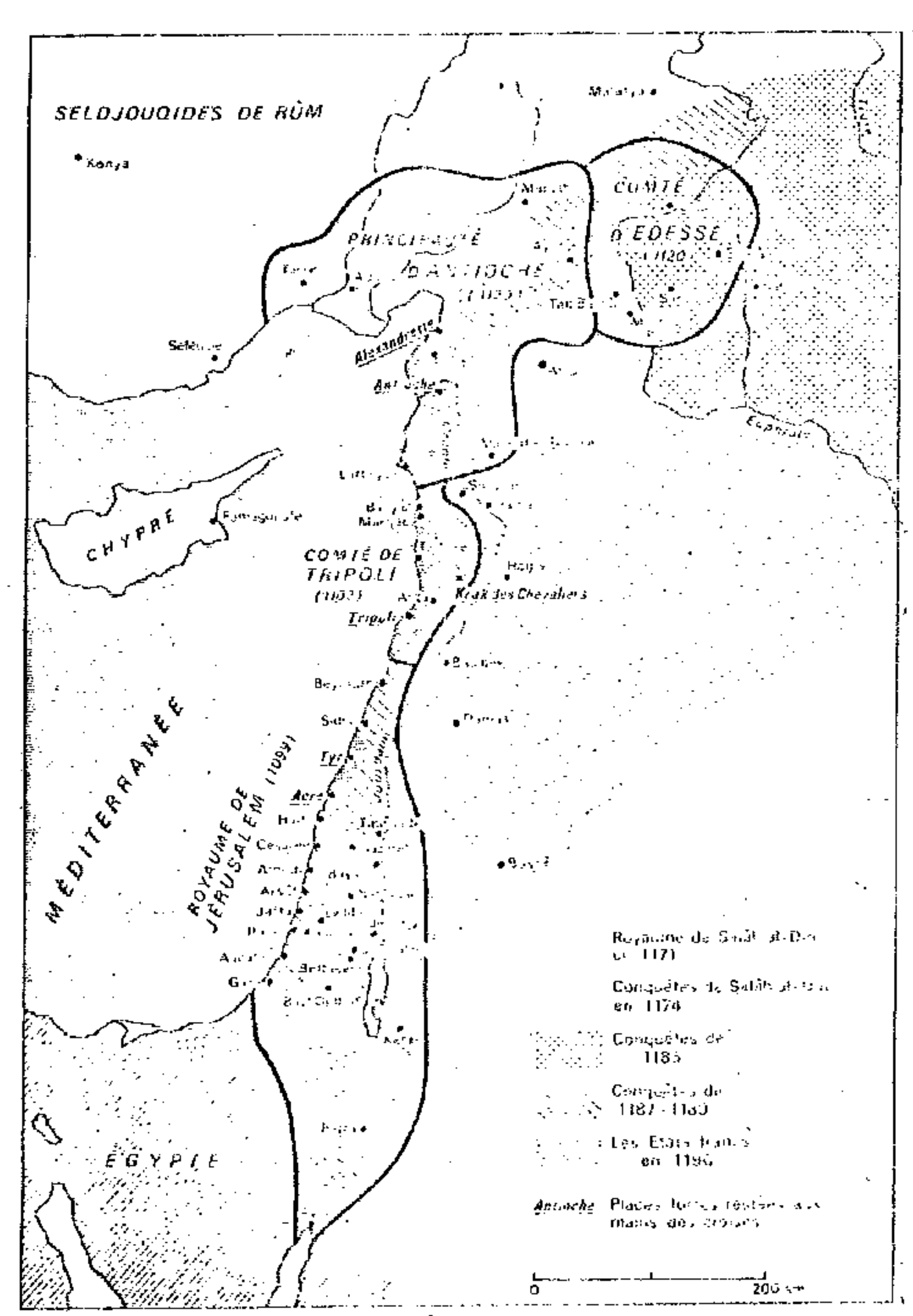
في الربع الأخير من القرن الثاني عشر استعادت مصر استقرارها وقوّتها وعرفت الإزدهار الإقتصادي بعد أن ظلّت قرناً كاملاً هدف الغزوات المتلاحقة وهذا سهّل زوال الفاطميّين من فلسطين.

اما الاقتصاد السوري الذي عانى ما عاناه من الحروب والمعارك بين صليبيّين ومسلمين فقد عقدت آمال المسؤولين عنه على بلاد النيل التي تسدّ مواردها الخلل وتكمّله ففي /١١٧٤/ بلغت الأزمة السوريّة مرحلة قلب الأدوار عكساً :-سادة القاهرة هم المعنيون بالإهتمام بسورية ورعايتها العوامل

استراتيجيّة إذ أصبحت فعلاً مركز انطلاق حملاتهم باتّجاه الشمال والشمال الشرقي . . ومن جهة أخرى ركّزوا على الإحتفاظ بسيطرتهم على سورية الجنوبيّة وعلى فلسطين لحماية التخوم الشرقيّة لمصر؛ والجدير بالذكر هو أنّ سادة مصر لم يحاولوا إطلاقاً نقل المركز السياسي للسلطة الى سورية أو الإتيان بأي إجراء فيها يكون مصدر خطر على أوضاع مصر . . فمن أجل تدعيم سلطته جعل صلاح الدين شغله الشاغل الإهتمام بحدود سورية . . بأقاليمها الجنوبيّة والغربيّة . . لأنّها الضمانة لأمن مصر مثلها مثل شواطىء البحر الأحمر حتّى اليمن حيث السلطة لعائلة مالكة أيّوبيّة . . وهذه سياسة تتطّلب تنمية القوّة العسكريّة وإعادة تنظيم وسائط الدفاع . والجيش يضمّ فرقاً نظاميّة (عسكريّة) من الخيّالة التركمان والترك والكرد وفرق مساعدة من العرب البدو . . ثمّ تأتي «حلقات الأجناد» وهي نوع من الميليشيات المقاتلة بالحربة والسيف وتشكّل خيرة وحدات جيش صلاح الدين وتضاف وحدات المماليك العبيد الّذين يشتريهم هذا الأمير أو ذاك على حساب واردات إقطاعته أو إخاذته تأميناً للخدمات التي يلتزم الأمير إيّاه بها تجاه مولاه . . ومنذ موت نور الدين غادرت مصر الوحدات الموالية للزنكيّة «والنوريّة» وبقيت «أسديّة» شيركوح وانضمّت إليها الوحدات «الصّلاحيّة» التي أنشأها صلاح الدين منذ نمّى جاهزيّات جيشه في السنين الخمس الأولى من حكمه حسب الفئات الثلاث المتميّزة التالية :

الفئة الأولى تتشكل من أهمّ الأمراء الحاصلين على امتياز الإقطاعات الممنوحة عادة إلى ضبّاط وقادة مصريّين . . ثمّ المماليك أصحاب الحقّ في «الجامكيّة» (الراتب) أو بإقطاعة، أو بجزء من إقطاعة، ونفقات كثيراً ما تكون عينيّة . والجامكيّة (الراتب) المصروفة للقوّات العسكريّة النظاميّة تصرف على أساس (دينار جندي) وقيمته تساوي ثلث أو ربع الدينار العادي ويكمّل ثلثا الأجر أو ثلاثة أرباعه من الحبوب بمعنى أنّ الرّاتب مجزّأ إلى نقد وعينيّات وهناك فئة لا تثبت وجودها مع الوحدات :- أنهّم «البطّالون» .

الفئة الثانية تضم «الكنانيّة» الآتين من فلسطين بعد سقوط



LES CONQUÊTES DE SALADIN

عسقلان (١١٥٣) والمستوطنين في دمياط ومعهم وحدات مدوّنة في السجلّات المصريّة وهذه الفئة تقبض نصف مرتّب.

الفئة الثالثة تتشكّل من قوّات البحريّة وتتقاضى ربع الراتب. - عام /٥٦٧/١١٧١/ وصلت القوّات المجهّزة لدى صلاح الدين /١٤٠٠٠/ خيّالاً و/١٣٠٠/ بدوي راكب (محمول). - وإلى نواة الجيش المصري تضاف وحدات الإمارات السوريّة: - في دمشق ثلث القوّات فقط أي/١٠٠٠/ رجل لم يلتحق بحلب. - في حمص موجود القوّات/٥٠٠/ رجل. - في منطقة حماه/١٠٠٠/ رجل. - وفي الجهة المواجهة لصلاح الدين: - جيش حلب وشمال سورية/١٠٠٠/ رجل. - الموصل/٦٥٠٠/ (عسكري نظامي مسجّل) يضاف اليهم /١٠٠٠/ رجل في حاميات الجزيرة وديار بكر.

القوّات المساعدة تتشكّل من الخيّالة والمشاة فالسرايا التركمانيّة الخفيفة «السيّارة» مكلّفة بمناوشة العدوّ المتحرّك ومهاجمة طرق تموينه. . واستعمال الخيّالة استبعد الّلجوء إلى المشاة في المعارك العاديّة فالمشاة تأخذ دورها في حالات الحصار الهجوميّة والدفاعيّة. وهناك التقنيّون والحجّارون (العاملون على المنجانيق) والعرّادون والنقّابون (عمّال المناجم) والخراسانيّة (حفّارون تحت الجدران أو بلطجيّون مسلّحون بالبلطات) والجسّاسون (حفّارو الخنادق).

في القرن الثاني عشر كان الجيش النظامي يتألّف من وحدات تعدادها من/٧٠/ إلى /٢٠٠/ رجل بقيادة أمير وفي حال التعبئة للمعركة توزّع الدروع والأسلحة المحفوظة في المستودعات(زردخانة) والمكمّلات التي يحتاج إليها العسكري بعد التوزيع المذكور يستطيع شراءها من «سوق العسكر». إن بناء نظام دفاعي كامل حول مدنية ما عمليّة باهظة التكاليف، ولكنّ اهتمام صلاح الدين بحماية القاهرة من أيّ هجوم فرنجيّ محتمل دعّم السّور الذي بناه قبل قرن بدر الدين الجمالي وبنى قلعة القاهرة التي أقيمت على سفح

المقطّم عام/١١٧٦/٥٧٢ ـ و ١١٨٣/٥٧٩/ ١١٨٤ ٨/ ولم يكتمل بناؤ ها في عهده فأكملها بعده أخوه الملك العادل الباني الكبير في العائلة. . وصلاح الدين هو الّذي بنى، أيضاً، أبراج السور وثلاثة أرباع شكلها دائريّة. . وبطانة جدرانها من الخشب الأملس. . وممّا يُذكر من إنجازات صلاح الدين بناء الأسطول البحري المصري الّذي صار قادراً على مجابهة الأسطول الأمبراطوري البيزنطي وسيطر على تحرّكات سفر الفرنجة شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط والبرنامج عرضه صلاح الدين بالذات في زيـارة قام بهـا إلى الإسكندرية في/١١٧٧/٥٧٢/ .

عام /١١٦٩/٥٦٥/ زالت آخر الآثار البحريّة للدولة الفاطميّة فمرافىء الشّواطىء السوريّة ـ الفلسطينيّة أصبحت كلّها في أيدي الصليبيّين؛ وقبرص وكريت بيزنطينيّتان وبذلك ضاق محيط دائرة حركة القوّات البحريّة المصريّة لعدم وجود مركز تموين متقدّم. . ولصلاح الدين فضل الإدراك لأهميّة الأسطول القويّ للدّفاع عن مصر؛ ومَرحَلَ المشروع فعمل على اجتذاب المؤهّلين للتطوّع عن طريق زيادة مرتّبات البحّارة /٢٠٪/. وتعاقد مع البيزانيّين على توريد الخشب والحديد والزّفت (القار) والصمغيّات وتزايد بشكل ملحوظ جدّاً نشاط مشاغل وورشات بناء السفن في الإسكندريّة ودمياط والمكس بالقاهرة.ـ كما أنّ احتلال الشّريط الشّاطئي من الإسكندريّة حتّى افريقية لم يضع فقط سفن الموانىء الافريقية تحت طلب مصر وحاجاتها بل حفز على تزويد مصر بأخشاب غابات افريقية الشّماليّة الغنيّة وذلك بأسعار رخيصة. . كما سمح بالحصول على بحّارة مجرّبين.ـ في آخر عام/٥٧٤/ ربيع عام ١١٧٩/ بلغ عدد قطعات البحريّة المصريّة الثمانين. . منها/٦٠/ سفينة حربيّة و/٢٠/سفينة شحن؛ تضاف إليها الحرّاقات راجمات قذائف النّار اليونانيّة وقسمت القوّة البحريّة تلك إلى اسطولين أحدهما من/٥٠/ وحدة مهمّتها الدفاع عن شواطىء مصر والثانية من/٣٠/ قطعة

مهمّتها الهجوم ضدّ الصليبيّين وأنشأ صلاح الدين «ديوان الأسطول».

في بداية عام/٥٧٣/ صيف ١١٧٧/ قام قسم من الأسطول النورمندي، قدم من صقلّية، بغارة ضدّ مركز تنّيس الصّناعي في الدلتا؛ وفي نفس الوقت وصل «فيليب دي فلاندر» مع قوّة هامّة من الخيّالة إلى فلسطين وحُذّر صلاح الدين من وجود مخطّط فرنجي لمهاجمة مصر وخرق الهدنة القائمة.. وفي جمادى الأولى/نهاية تشرين الأوّل/ أرسل صلاح الدين قوّة كبيرة إلى جنوبيّ فلسطين حيث كان يقدّر حدوث التحرّك الفرنجيّ وبعد قليل هاجم الفرنجة حماه فرُدّوا على أعقابهم فضربوا الحصار على حارم وهي إقطاعة تابعة لكوموشتاكين صاحب حلب فقام صلاح الدين بهجوم على إقليمي غزّة وعسقلان لإبعاد خطر الصليبيّين عن شمال سورية ولكنّ القوّات المصريّة وقعت في كمين في تلّ الصّافية (أوّل جمادى الثانية/٢٥ تشرين الثاني/ من قبل جيش فرنجي بقيادة رينود دي شاتيّيون ومنيت بهزيمة قاسية ولكنّ صلاح الدين عبّأ خلال أربعة أشهر جيشاً جاهزاً للدخول في معركة حاسمة.

في منتصف عام/٥٧٣/ بداية ١١٧٨/ عرفت حلب مصاعب داخليّةجادّةولـذلك استطـاع الفرنجةالإستمـرار في حصارحـارم.- وفي دمشق واجه صلاح الدين بعض المتاعب مع أخيه شمس الدّولة طوران شاه الذي يريد الحصول على بعلبك فقبل صلاح الدّين ولكنّ صاحب بعلبك ابن المقدّم رفض التخلّي عن منصبه وسوّيت المسألة بعد حصار دام سبعة أشهـر.-في شمال سورية رغب كيليج أرسلان قاهر البيزنطيّين صاحب قونية بضمّ مراكز في أعلى الفرات سبق أن احتلّها نور الدين عام/٥٥٥/١١٦٠/ فأرسل صلاح الدين فرقة من الخيّالة أرغمت قوّات السلجوقي على رفع الحصار عن «رعبان» فاغتنم الفرنجة فرصة تلك العمليّات وقاموا بغزوات في أراضي المسلمـين.- في ربيع/٥٧٤/١١٧٩/ قام صـلاح الدين

بهجوم مضادّ وبعد عدّة انتصارات في المناطق السّاحليّة مُني الجيش المصري بهزيمة في مرجعيون على يد جيش القدس وفي نفس الوقت قام اسطول مصر بعمليّة إنزال على شاطىء سورية وعاد إلى مصر محمّلاً بغنائم ضخمة وبألف أسير. . وفي الصيف هاجم صلاح الدين «بيت الأحزان»، وهي قلعة بين دمشق والساحل، وسقطت القلعة في نهاية ربيع الأوّل/ ٥٧٥/ آخر آب ١١٧٩/ تاركة بين أيدي المسلمين بضع مئات من الأسرى وعتاداً ضخماً. ـ في جمادى الأولى/ ٥٧٥/ تشرين الأوّل ١١٧٩/ دخل أسطول مصري مرفأ عكّا فأحدث خراباً واسعاً خلال يومين وعاد إلى قاعدته في مصر فأصبح الصليبيّون في موقف صعب بسبب ما مُنوا به من خسائر ثقيلة وكذلك الجدب المتواصل بسبب الجفاف.

في شوّال / ٥٧٥/ آذار ١١٨٠/ مات الخليفة العبّاسي المستعدي في بغداد وخلفه الناصر لدين الله. . فقدّم له صلاح الدين مراسم الخضوع مؤمّلاً أن يتلقّى تأكيداً للتقليد السابق فحدثت مشاكل أخرى. ـحالة الموصل وأطماع قونية أجبرت صلاح الدين على تأمين حياد مملكة القدس وكونتيّة طرابلس عاقداً معهما هدنة مدّتها سنتان. ـ في شعبان/ ٥٧٥/ بداية ١١٨٠/ نشب نزاع بين كيليج أرسلان الثاني ونور الدين أرتوق شاه أمير حصن كيفا فعزم صلاح الدين على التدخّل لصالح الأخير وسار حتى وصل «باحسنة» وهناك دارت مفاوضات بينه وبين موفد الأمير السلجوقي واغتنم عندئذٍ الفرصة لمهاجمة «روبين» ملك ارمينية الصغرى في/٢/ صفر ٢٨/٥٧٦ حزيران ١١٨٠/ مات سيف الدين غازي في الموصل وخلفه أخوه عزّ الدين فطلب من صلاح الدين اعترافاً موثّقاً بفتوحات سيف الدين لحساب ملك نور الدين فرفض العاهل الأيّوبي بحجّة أنّ الأمير المتوفّي لا يملك سوى سجلّات الأملاك إيّاها. . واغتنمها فرصة لإشعار الخليفة أنّه بحاجة لمساهمة فعليّة من جيش الجزيرة لمتابعة حرب الجهاد. ـ في نهاية عام /١١٨٠/ أبرم صلاح الدين مع

الزنكي صاحب الموصل إتّفاقيّة مدّتها سنتان واتّفاقيّة مماثلة مع كلّ من سلجوقي قونية وملك أرمينية وأمراء ديار بكر الأرتوقيّين وبختجينيّي اربيل في أعالي ما بين النهرين ووصلت بعثة من بغداد تحمل وثيقة تأكيد التقليد وتثبيته من الخليفة الجديد. ـ في تلك الأثناء ظهر على المسرح ـ بعد غياب سبع سنين ـ رينود دي شاتيّيون فكان ينطلق لعرقلة سير القوافل واعتراضها من الكرك ـ موآب والشوبك ومونتريال الفرنجة قرب البتراء. وعام/٥٧٦/١١٨١/ قام عاهل انطاكية السابق بمهاجمة تيماء على طريق المدينتين المقدّستين لاعتراض الحجّاج وقطع طريق الحجاز التجاري.

كانت إدارة القاهرة تعمل على تسهيل الترانزيت عبر مصر وبخاصّة ترانزيت البضائع الآتية من الشرق الأقصى بواسطة البحر الأحمر وعليها يتركّز اهتمام تجّار عدن وحجر الشبّ كان موضع إهتمام خاصّ من الحكومة فهو مستخرج من مناجم مصريّة ومحصور بالدولة مباشرة وهذا «السلفات» كان يستعمل في تثبيت الأصبغة والطلب شديد عليه من قبل صانعي النسيج الإيطاليّين الّذين مقابله، كانوا يزوّدون مصر بموادّ ستراتيجيّة مثل الخشب والحديد والقار والمشاقة والدُّسر.

في ٢٥ رجب/٥٧٧/ ٤ كانون الأول ١١٨١/ مات الملك الصّالح ابن نور الدين بعد أن طلب إعطاء حلب لعزّ الدين صاحب الموصل وهو الزنكيّ الوحيد القادر على مجابهة صلاح الدين. ـ في/٢٠/ شعبان/٢٩ كانون الأول/ استلم عزّ الدين حلب وحتى يعطي مولويّته صفة الشرعيّة تزوّج من أم ابن عمّه المتوفّي وتبعاً لنظام التعاقب العائلي استعاد عزّ الدين مسعود ملكيّة سنجار من أخيه عماد الدين زنكي الثاني الذي أخذ حلب عوضاً عنها ودخل حلب فعلاً في/١٤/ محرّم/ ٢٠ أيار ١١٨٢/ وقد أثار ذلك صلاح الدين فغادر القاهرة إلى سورية وهو يجهل أنّ عينيه لن تكتحلا بعد برؤية وادي النيل.

● **إقامة صلاح الدين في سورية.**

رغم تعافي مصر السياسي والإقتصادي والعسكري ظلّت تعاني الضّيق من جرّاء وجود الصليبيّين في فلسطين وخطرهم الدائم على حركة القوافل بين مصر وسورية.. ولم يكن الفرنجة، بدورهم، أحسن حالاً، إذ أصبحوا لا يتلقّون العون من بيزنطية التي هزمها سلجوقيّو قونية وتتعرّض لمناوشات النورمنديّين أصحاب صقلّية كما أصبح من الصعب انتظار العون من أوروبة بعد نشوب النزاع الفرنسي - الإنكليزي على ممتلكات«بلانتاجينيه».. يضاف إلى هذا كلّه أنّ التيّارات المستجدّة للتجارة الدوليّة زادت من خطورة وضع الدول اللاتينيّة الاقتصادي التي أدار لها تجّار إيطالية ظهورهم وهجروها.

لقد عبّأ صلاح الدين حوله جيشاً قويّاً قوامُه الفرق المصريّة والوحدات السّوريّة وسرايا التركمان وبدأ الهجوم الإسلامي في ربيع الثاني/٥٧٨/ تموز ١١٨٢/ تدعمه القوّات البحريّة.ولم ينجح المصريّون - عند بيروت - في ضبط تزامن العمليّات البحريّة والبرّيّة فعدل صلاح الدين عن متابعة المعركة ضدّ الفرنجة وانعطف لمحاربة منافسيه المسلمين فواربه الأمير مظفّر الدين صاحب حرّان وتابع صلاح الدين السير بقوّاته ضدّ الجزيرة وأثناء تقدّمه، ضمّ إليه الأمراء المشاقّين في الأراضي الزنكيّة وقاومت الموصل باستماته ولكنّ التخلّي عن محاصرتها يعني المقامرة بنفوذ وحظوة صلاح الدين.. وفي شعبان /٥٧٨/ كانون الأوّل ١١٨٢/ فشلت وساطة حاولتها بغداد فعزم صلاح الدين على رفع الحصار والإنطلاق للإستيلاء على موقع سنجار ثمّ عاد إلى حرّان وهناك منح قوّاته إجازة استراحة بعد عمليّات متّصلة دامت سبعة أشهر.

في شوّال /٥٧٨/ كانون ثاني - شباط ١١٨٣/ عزم رينود دي شاتيّيون، بعد أن قطع المواصلات البرّية بين مصر وسورية، عزم

على مهاجمة مراكز تجارة البحر الأحمر وهو طامع بالوصول إلى المدينتين الإسلاميّتين المقدّستين فأنزل إلى البحر سرّية قرب إيلات وكادت العملية تكلل بالنّجاح لولا التدخّل السريع من قبل الأسطول المصري إذ هاجم سفن الفرنجة تجاه عيذاب المرفأ التجاري المصري فأُغرقت سفن الصليبيّين الواحدة تلو الأخرى والّذين نجوا من الغرق أخذوا أسرى واستطاع رينود الهرب والنتيجة الأولى للمعركة المذكورة هي أنّه أصبح محرّماً على أيّة قوّة بحريّة غير مسلمة أن تدخل البحر الأحمر.

في نهاية عام/٥٧٨/ ربيع ١١٨٣/ عاد صلاح الدين إلى الشمال وحاصر آميد - في ديار بكر - واستولى عليها رغم دفاعاتها القويّة؛ وفي ١١ محرّم / ٥٧٩/ ٦ أيّار ١١٨٣/ ومنذ انتصاره ذاك تحوّل أرتوقيّو ميّافارقين وماردين من معسكر الزنكيّين إلى التحالف معه فعزم على مهاجمة حلب واستولى على تلّ خالد وعينتاب.وفي ٢٦ محرّم / ٥٧٩/ ٢١ أيّار ١١٨٣/ ضرب حصاراً على مدينة المعارضة الزنكيّة ودارت مفاوضات سرّيّة مع صاحب حلب عماد الدين زنكي الثاني الذي قبل معاوضة حلب بسنجار ونصّيبين خابورة (الحسكة الحاليّة) والرقّة وساروجه.. وهكذا، بعد جهود ثمانية أعوام، وفي/١٧ صفر ١١/٥٧٩ حزيران ١١٨٣/ خفقت رايات صلاح الدين الصفراء فوق قلعة حلب. وبعد/١١/ يوماً تمّ الإستيلاء على حارم فأصبحت سورية كلّها في يدي العاهل الأيّوبي. في ربيع الثاني / ٥٧٩/ آب ١١٨٣/ أعلم صلاح الدين خليفة بغداد أنّه عزم على استئناف الجهاد ضدّ الصليبيّين وخلال صيف عام/١١٨٣/ وعام ١١٨٤/ حاصر الكرك ولم يستطع الإستيلاء على المركز الذي دافع عنه رينود دي شاتيّيون.

صحيح أنّ الفرنجة أعادوا بناء جيشهم منذ/١١٧٩/ ولكنّه ظلّ أضعف من قوّات صلاح الدين الذي أجّل هجومه الجادّ على مملكة القدس حتّى صفّى مشاكله المعلّقة في شمال سورية وفي

الجزيرة.. وتمكيناً وتوطيداً للسلطة الأيّوبيّة في حلب أرسل إليها أخاه الملك العادل في نهاية شعبان / ٥٧٩/ كانون الأول١١٨٣/ .- في الشتاء نفسه حدث انقلاب في الموصل وعمّها الشقاق واتّهم عزّ الدين منافسيه بتعاطفهم مع صلاح الدين وطلب من الخليفة لجم المطامع الأيّوبيّة فلم يُعر المقولة المذكورة أذناً صاغية..

في مطلع عام/٥٨١/ ربيع ١١٨٥/ علم صلاح الدين أنّ عزّ الدين تلقّى مدداً عسكريّاً من أتابك أذربيجان السلجوقي وأنّه يهدّد إربيل - وصاحبها حليف له - فانطلق إلى الموصل وأرجأ مرّة جديدة حربه ضدّ الفرنجة بعد عقد هدنة معهم في نهاية عام/ ٥٨٠/ مطلع ١١٨٥/ ولكن مثابرة صلاح الدين العنيدة على عمليّاته العسكريّة ضدّ الموصل أغضبت أهل القاهرة وضاعفت شكواهم من إطالة غيابه عنهم رغم تدهور الحالة في مصر فموسم عام /١١٨٤/ أصيب بكارثة نتيجة عدم انتظام فيضان النيل.. وقامت القبائل البدويّة بثورة في الشرقيّة.. وجيش مصر مات عشره بوباء الطاعون.. وحصلت مصاعب في الحصول على النقد الذهبي.. يضاف إلى كلّ ذلك أنّ الخطر الفرنجي أشاع حالة من القلق وبخاصّة في بلبيس.. ولكنّ رسائل القاضي الفاضل لم تنجح في إقناع صلاح الدين بالعودة إلى قلعته على سفح جبل المقطّم لأنّ الحملة الأخيرة ضدّ الموصل كشفت الرغبة العميقة لدى صلاح الدين أن يرث نور الدين وأن يجعل من الأيّوبيّين ورثة الزنكيّين.- في/٨/ ربيع الأول ٥٨١/ ٩ حزيران ١١٨٥/ وصل جيش صلاح الدين الموصل وفي تمّوز انشغل بتغيّرات سياسيّة في أرمينية ولم يستطع السيطرة على موقع «أخلاط» فاستعاض عنه بالإستيلاء على ميافارقين ثمّ، وفي شعبان ٥٨١/ تشرين الثاني ١١٨٥/ استأنف حصار الموصل فحاول عزّ الدين التفاوض ولكن صلاح الدين أصيب بمرض شديد وفي نهاية كانون الأوّل توجّه إلى حرّان ووجّه قوّاته إلى نصيبين وهو ينوي استعمال الطرق الدبلوماسيّة لتأمين الأراضي التي فتحها إرثاً

لذرّيته.. فمنذ/١٤/ عاماً كان همّ صلاح الدين زوال الزنكيّين وتثبيت الأيّوبيّين في امبراطورية نور الدين.. لقد برد حماسه لخلق الوحدة الإسلاميّة وتركّز نهجه الشخصي في السّياسة على إرضاء وتأمين مصالح عائلته.

في ذي الحجّة/٥٨١/ آخر شباط - آذار ١١٨٦/ بدأت مباحثات الصلح مع الموصل وأبرم إتّفاق في/٩/ ذي الحجة/ ٣ آذار/ أقرّ فيه صلاح الدين حقوق عز الدين وهذا الأخير وضع جيش الموصل تحت قيادة الزعيم الأيوبي.- في/٢ ربيع الأول ٥٨٢/ ٢٣ أيار ١١٨٦/ رجع صلاح الدين إلى دمشق وولّى أخاه الملك العادل على مصر مكان ابن عمّه تقي الدين عمر.. ومن أجل تهدئة حركات التذمّر داخل عائلته لم يجد الزعيم الأيّوبي سوى وسيلة واحدة هي استئناف الجهاد:- الحقبة بين/١١٨٧ - ١١٩٢/ هي الحقبة المعروفة جيّداً في الغرب بسبب المعارك التي اشتهرت بها والحملة التي قادها إلى الشرق ريكاردس قلب الأسد.

● جهاد صلاح الدين

في تقليد الإمارة على الجهاد أعطى الخليفة صلاح الدين صفة القائد لجيوش المسلمين فهو يخوض الحرب تحت كنف ورعاية الخليفة العبّاسي وبعد إتّفاق الموصل تفرّغ صلاح الدين لمملكة اللاّتين بالقدس إبّان تخبّطها في متاعب داخليّة اثر تتويج «غي دي لوزينيان» يدعمه زعيم فرسان الهيكل.. ولكنّ ريموند صاحب طرابلس قاوم ذلك وطلب دعم صلاح الدين الذي سلك سياسة تقارب مع بيزنطية ووقّع إتّفاقيّة مع الامبراطور لأنّ الأيّوبيّين والبيزنطيّين كان لهم عدوّ مشترك هو نورمنديّو صقلّية وسلاجقة قونية وقبرص وكذلك الصليبيّون وحلفاؤهم الغربيّون الّذين شكّلوا حجر عثرة بوجه دولتي شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط.- إبّان التحالف إيّاه استولى كونت طرابلس على «الكسيس انج» وهو في طريقه إلى

عكّة، فطلب «إسحق آنج» من صلاح الدين مهاجمة الصليبيّين لتحرير الكسيس منهم.. عندها دخلت العلاقات الأيّوبيّة مع القدس مرحلة حرجة لأنّه، في نهاية عام /٥٨٢/ بداية ١١٨٧/ خرق رينود دي شاتّييون الهدنة وهاجم قافلة كبيرة كانت في طريقها من القاهرة إلى دمشق واستولى عليها فسلك صلاح الدين، أوّلاً، أسلوب التفاوض لاستعادة الأرزاق والرجال ولكنّ رينود أصمّ أذنيه عن سماع وساطة غي دي لوسينيان والإنذار الأخير من قبل صلاح الدين وهكذا أصبحت المجابهة أمراً محتوماً..

في بداية ربيع الأوّل /٥٨٣/ نهاية أيار ١١٨٧/ أصبح جيش صلاح الدين على أهبة الإستعداد وعدده /١٢٠٠٠/ خيّالاً وهو تكتّل متجانس من عناصر منتقاة من مختلف إمارات آسية المتقدّمة وقد أثبت فعاليّته تحت قيادة السلطان الأيّوبي.

يوم الجمعة ١٧ ربيع الثاني ٢٦/٥٨٣ حزيران ١١٨٧/ أخذ صلاح الدين مكانه في قيادة الجيش إيّاه وبدأ معركة فلسطين وجيش الصليبيّين كان مساوياً، عدداً، لجيش المسلمين لكنّه لم يكن موحّداً وقد أقاموا معسكرهم على هضبة حطّين غربي بحيرة طبريا بعد أن دفعتهم إليها مناورات صلاح الدين.. وهناك، تحت شمس تمّوز المحرقة، وعتادهم وسلاحهم الثقيلين عانى جنود الفرنجة ما لا يطيقون من الحرّ والظمأ ثمّ دخان الهشيم بعد أن أضرم المسلمون فيه النار من جوانب الهضبة وأطبق عليهم رجال صلاح الدين وسحقوهم في ٢٤ ربيع الثاني/٤ تمـوز/ .-فرسان الهيكل وفرسان القبر المقدّس ذُبحوا دون رحمة.. غي دي لوزينيان أسر.. رينود دي شاتّييون أسر وقتل بيد صلاح الدين نفسه.. وبادت دولة الفرنجة فمعركة حطّين فتحت فلسطين للمسلمين.. في اليوم الثاني استولى صلاح الدين على طبريّا وبعد أيّام قلائل كان يُحكم الحصار على عكّا التي استسلمت وفيها حرّر أربعة آلاف أسير مسلم ومعهم الكسيس شقيق الامبراطور البيزنطي.. بعد شهرين من حطين تم

الإستيلاء على جميع المرافىء ما عدا صور وعسقلان فقد لجأ إلى صور ريموند صاحب طرابلس ومعه آخرون من قادة الفرنجة وتلقّوا إمدادات «كونراد دي مونفرّان». وبدلاً من مهاجمة صور توجّه صلاح الدين نحو عسقلان التي استسلمت مقابل تحرير غي. دي لوزينيان من الأسر وبقيت صور المرفأ الوحيد على الشّاطىء في يد الفرنجة فأهملها صلاح الدين وتوجّه إلى القدس فاستسلمت حاميتها بعد حصار/١٢/ يوماً أي في/٢٧ رجب ٥٨٣/ ٢ تشرين الأول ١١٨٧/.

بعد/٣/ أشهر من حطّين.. يوم الجمعة/٤/ شعبان/ ٩ تشرين الأول ١١٨٧/ خفقت راية صلاح الدين الصفراء في سماء القدس.. وقاضي حلب مهد الدين التقي ألقى الخطبة باسم الخليفة الناصر لدين الله في المسجد الأقصى من على منبر الابنوس الذي أمر نور الدين بصنعه.. واستعادة القدس كانت قمّة انتصارات صلاح الدين الّتي خلّدها التاريخ.

في ٢٧ شعبان ٥٨٣/ أول تشرين الثاني ١١٨٧/ هاجم صلاح الدين صور لكنّ قوّاته كانت مجهدة واعتراها الوهن: أولم يتمّ تحرير القدس هدف الجهاد؟ - لماذا مواصلة القتال في فصل الشتاء القاسي؟

في صور، معنويات الفرنجة كانت عالية وجاء الأسطول المصري يدعم الحصار من البحر بعد أن تحوّلت ضواحي المدينة إلى بحيرة من الأوحال. وفي/٢٧ شوال/ ٣٠ كانون الأول/ مُني الأسطول بهزيمة. - أخيراً، في/٢٩ شوال/ أول كانون الثاني ١١٨٨/ عزم صلاح الدين على رفع الحصار وانصرف تاركاً العتاد الثقيل في أماكنه وكانت لهذه النكسة نتائج ثقيلة فالعلاقات تردّت بين صلاح الدين والخليفة العباسي الذي نسب إلى قوّاته الفضل في استعادة القدس، في حين أنّ الزعيم الأيّوبي أكّد أنّ جيشه هو الّذي أحرز النصر المذكور وترجم العزوف عن مهاجمة فرنجة صور - من قبل

بغداد ـ على أنّه رغبة يبيّتها صلاح الدين لتقويض الخلافة العبّاسيّة كما فعل بالفاطميّين وزادت الطين بلّة الأحداث العارضة لدى حضور حجّاج بغداد المتزامن مع حضور حجّاج دمشق الأكثر عدداً.

لقد أنفق صلاح الدين جميع أمواله المدّخرة وجاءته المشاكل الناجمة عن ذلك من ذوي قرباه قبل سواهم. ـ في الخامس من ذي القعدة/٦ كانون الثاني ١١٨٨/ حضرت بعثة بيزنطيّة إلى دمشق تقدّم الشكر لصلاح الدين على فكّ إسار شقيق الامبراطور وتهنئته باستعادة القدس حيث حلّ الإكليروس اليوناني محلّ الإكليروس اللاّتيني. ونقلت إليه كذلك نبأ الحملة الصليبيّة الثالثة القادمة.

في تلك الأثناء مات ريموند الثالث صاحب طرابلس دون عقب وبموافقته انتقل إرث الكونتيّة الى الأسرة المالكة بانطاكية ومنذئذٍ عملت انطاكية وطرابلس على تقديم حجّاج بغداد على حجّاج دمشق الأكثر عدداً.

في الأشهر التالية استولى صلاح الدين على عدد من المواقع التي تحمي إمارة انطاكية مثل جبلة واللاّذقيّة وسيحون وبقاس والشغر. كذلك دربساك وبغراش سقطتا في أيدي المسلمين وأصبحت انطاكية مطوّقة عمليّاً منذ رجب/٥٨٥/ أيلول ١١٨٨/. بعض الحصون مثل المرقب ـ طرطوس ـ صافيتا ـ حصن الأكراد (كراك دي شيفالييه) كانت في أيدي فرسان الهيكل وفرسان القبر المقدس ولكلّ من المنظّمتين الدينيّتين العسكريتين سياستها الخاصّة تجاه المسلمين.

وأبرمت إتّفاقيّة هدنة مع «بوهيموند الثالث» فتحرّكت القوّات الأيّوبيّة جنوباً واستولت على الكرك ـ موآب في تشرين الثاني١١٨٨/ ثمّ استولت على صفد؛ وفي/١٥ ذي القعدة ٥٨٤/ كانون الثاني /١١٨٩/ استولت على كوكب (بلفورا). ـ إنّ معظم هزائم الفرنجة

في تلك الحقبة نجمت عن النقص الديمغرافي فهم قلّة وينقصهم العنصر البشري لتثبيت أقدامهم في فلسطين.

الحملة الصّليبيّة الثالثة

سقوط القدس أحيى في أوروبّة ـ بعد زيارة غيّيوم صاحب صور ـ قيام الحملة الصّليبيّة الثالثة التي ساهم فيها ثلاثة ملوك: ـ فريدريك بارباروس أمبراطور ألمانية وعمره /٦٧/ عاماً ـ ريكاردس قلب الأسد ملك انكلترة (٣١ عاماً) وفيليب أوغوست ملك فرنسة (٢٣ عاماً). تلك الحملة أقضّت مضجع صلاح الدين وإسحق آنج فعزم عاهلا الشرق على التحالف للدفاع عن النفس؛ ولكنّ إسحق لم يتدّخل مباشرة ضدّ الفرنجة الصليبيّين. ـ وانطلق، أوّلاً فريدريك دي بارباروس عبر بيزنطية ودخل في مفاوضات مع سلطان قونية عدوّ البيزنطيّين وطلب من الامبراطور السماح له بالمرور في الأراضي البيزنطيّة وحال وصوله اشتدّ التوتّر بين الألمان والبيزنطيّين ووقّع اسحاق، في/محرم ٥٨٦/ شباط ١١٩٠/ إتّفاقيّة مع الامبراطور. في /صفر/آذار/ اجتاز الألمان البوسفور وتوغلوا في آسية مرتكبين نفس الضّلالات التي ارتكبتها، قبلهم، الحملة الأولى ومُنوا بالخسائر الباهظة وفي جمادى الأولى/ حزيران/ ١١٩٠/ أغرق الامبراطور نفسه في «سيليفقة». أمّا قائدا الحملة الآخران فقد وصلا عن طريق لبحر.ـ جيش ريكاردس قلب الأسد (ومعظم رجاله نورمنديّون) أقلع من مرسيلية في حين أقلع فيليب أوغوست من جنوى، ومكان الإلتقاء المتّفق عليه بينهما كان صقلّية عام ١١٩٠. ثمّ استولى ريكاردس على قبرص وولّى عليها فرسان الهيكل. وفي عام /١١٩٢/ أعطى الجزيرة إلى غي دي لوسينيان.

وصل الصليبيّون إلى الشّرق ودام حصار عكّا/١٨/ شهراً في ظروف طعبة.. وبخاصّة أثناء شتاء عام١١٩٠-١١٩١.ـ في حزيران /١١٩١/ استقدمت الحملة مدداً كبيراً. وفي/١٧ جمادى الثانية/١٢

تمّوز ١١٩١ استسلمت المدينة وسمح للسكان المسلمين بالنّزوح. .
ومع أنّ فيليب أوغوست المصاب بالحمّى اضطرّ للعودة إلى فرنسة فإنّ الحملة الصّليبيّة الثالثة المموّلة في أوروبة بضريبة خاصّة سمّوها «عشر صلاح الدين»، بدأت عمليّاتها الداعية، بادىء ذي بدء، إلى تفاؤل الفرنجة، بعكس الفريق الآخر. لأنّ روح الهزيمة استبطنت حلفاء الزّعيم الأيّوبي وسادت صفوفهم؛ والعديد من مُقطعيه ـ وهم على ولائهم باقون ـ كانوا يرفضون مساعدته «لأنّهم لديهم قضاياهم الخاصّة فهم منشغلون في حلّها. .» ـ كذلك الأمراء الزنكيّون والسلجوقيّون حجبوا مساعداتهم عنه. وخليفة بغداد، وحده، استجاب لندائه وأرسل له من أجل حربه ضدّ الفرنجة حمولة سفينتين من النفط مع خمسة من المختصّين بقذف اللّهب. ـ وفي/ ١٤ شعبان ٥٨٧/ أيلول ١١٩١ استولى قلب الأسد على «ارصوف» ثمّ، وبعد أيّام ثلاثة، استولى على يافا. . وكونراد دي مونفرّان عرض مساعداته ضدّ ملك انكلترة مقابل صيدا وبيروت فرفض العاهل المسلم وبقي الصليبيّون عامين داخل شريط شاطئيّ ضيّق وصلاح الدين عاجز عن إجلائهم رغم أنّ قلب الأسد خسر جانباً كبيراً من قوّاته. فالحقبة كانت صعبة على صلاح الدين إذ هبطت سمعته وكثرت مظاهر العداء ضدّه وبخاصّة في دمشق الّتي اضطرّ إلى إستبدال قاضيها بآخر. . أمّا حلب فقد استعاد المناوئون للأيّوبيّين تكتّلهم حول السهروردي بأفكاره غير المتحمّسة كثيراً للسنّة. . كما أزعج صلاح الدين استقطاب هذا المتصوّف لجموع الشعب فأعطى أمراً بقتله في/ ٥ رجب ٥٨٧/ ٢٩ تموز ١١٩١/ واعتبره الناس شهيداً. . ـ تقيّ الدين عمر بدأ معاكساته في أرمينية وظهرت المنافسة بين العادل شقيق صلاح الدين والأفضل ابنه البكر.

في/ ٣/ محرّم ٥٨٨/ ٢٠ كانون الثاني ١١٩٢/ استولى قلب الأسد على عسقلان ثمّ داروم وهدّد طرق المواصلات بين مصر وسورية فاتّخذ صلاح الدين إجراءات احتياطيّة عاجلة في مصر وعزّز

وضع دمياط العسكري وأجلى المدنيّين عن تنيس واستدعى القوّات التي ذهبت للإشتاء واستعاد يافا ثمّ استعادها منه قلب الأسد الذي أقعده مرض طارىء معطياً صلاح الدين فرصة التفرّغ لمشاكله في الشرق فعُقد إتّفاق في/٢٢ شعبان ٥٨٨/ ٢ أيلول١١٩٢/نصّ على هدنة مدّتها ثلاثة أعوام كما نصّت على تقسيم فلسطين واسم الإتفاقيّة «صلح الرّملة». فاحتفظ الصليبيّون بالشريط السّاحلي من صور إلى يافا وأعيدت عسقلان الى صلاح الدين ونال المسلمون والمسيحيّون سواء حرّيّة المرور في فلسطين كما حظي حجّاج القدس بالحماية الإسلاميّة وعاد قلب الأسد إلى انكلترة واعداً بالعودة بعد ثلاثة أعوام.

الحملة الصليبيّة الثالثة استعادت عكّا ولكنها أبقت القدس في أيدي المسلمين وهذه نتيجة محبطة بالنسبة لها؛ يُضاف إلى ذلك انتحار فريدريك بارباروس وإغراقه نفسه ورجوع فيليب أوغوست المفاجىء وأخيراً فشل قلب الأسد وتجدّد المنازعات بين المنّظمتين الدينيّتين العسكريّتين فرسان الهيكل وفرسان القبر المقدّس.

طوال الأعوام الأخيرة، يطلّب المجهود الحربي تضحيات اقتصاديّة كبرى فهبطت قيمة العملة وارتفعت الأسعار فقرّر صلاح الدين فرض ضرائب جديدة مما زاد الاستياء العام تفاقما.. واكتشف الفرنجة أهميّة مصر على رقعة شطرنج الشرق.. فالمدد بالقوّات كان، دائماً،يأتي من مصر، والأسطول البحري الذي تحمّل خسائر كبيرة كان مصريّاً..والتموين بالمال كان مصدره مصر.. فأدركوا أنّه من المستحيل المواجهة لمصر وفلسطين في آن واحد.. وأنّ مفاتيح القدس موجودة في القاهرة؛ ولذلك رأى المؤرّخون، منذ القرن الثالث عشر، أنّ الفرنجة وجّهوا هجومهم ضدّ مصر.

● نهاية ملك صلاح الدين

عاد ريكاردس قلب الأسد إلى أوروبة وقد أنهكت الحرب العدوّين كليهما وأمضى صلاح الدين شهر رمضان/١٠/٥٨٨ أيلول - ٩ تشرين الأوّل ١١٩٢/ في القدس وفكّر بإداء فريضة الحجّ إلى مكّة ولكنّ إمارة دمشق مرّت بأزمة خطيرة فصرف النظر عن سفره إلى الحجاز وعاد إلى دمشق في/٢٦ شوّال/٤ تشرين الثاني١١٩٢/ أي بعد غياب أربع سنوات عنها فأقام فيها مع أولاده الصّغار ومارس هواية الصّيد وبجانبه ابنه البكر «الأفضل» ذو الشعبيّة الواسعة داخل الجيش، والقاضي الفاضل. - في١٨ ذي القعدة/٢٥ تشرين الثاني ١١٩٢/ حضر إلى دمشق الملك العادل مسؤول الأقاليم الشرقيّة لمقابلة أخيه.

في صفر ٥٨٩/ آخر شباط ١١٩٣/ ركب صلاح الدين جواده وخرج لملاقاة قافلة الحجّاج وشعر أنّ صحّته ليست على ما يُرام.. وفي اليوم الثاني اشتدّت عليه الحمّى فأثارت قلق حاشيته وظلّ السكّان يجهلون الحالة.. وفي حين دخل حالة النزع نظّم الأفضل مراسم الوراثة واستحصل على مبايعة ضبّاط الجيش السوري فرفض أمراء مصر الإذعان لأوامره.. وبعد ثلاثة أيّام، في/٢٧ صفر ٥٨٩/ ٣ اذار ١١٩٣/ لفظ صلاح الدين أنفاسه الأخيرة عن عمر بلغ الخمسين عاماً ودفن في دمشق في مدرسة العزيزيّة.

إنّ الشهرة التي حظي بها صلاح الدين حتى أيّامنا هذه لا يبدو أنّ بعضها، على الأقلّ، يقترن بوقائع تثبت أنّه حقيقة.. ففي بداية ملك صلاح الدين أخذت سورية مكان الإقطاعية التّابعة للقاهرة في حين أصبحت مصر المركز ونقطة الدائرة للعالم الإسلامي وعرفت الإستقرار من جديد في ظلّ شروط التوافق بين ازدهار الزراعة والصّناعة والتجارة. ولكنّ كل شيء تغيّر في عام/٥٧٨/١١٨٢/ :- انطلق صلاح الدين إلى سورية لمتابعة سياسة التوسّع الأيّوبي مهملاً، أو مؤجّلاً، إسقاط مملكة اللاّتين بالقدس رغم ضعفها..

ومنذئذٍ تحوّلت مصر إلى مستعمرة: تُقدّم الرّجال للمعركة، والعتاد للقوّات، وجباياتها الضرائبيّة تغطّي الأعباء العسكريّة الثقيلة.. ومن حسن حظّ صلاح الدين أنّه وجد إلى جانبه مادحين مخلصين هما عماد الدين الأصفهاني وبهاء الدين ابن شدّاد الّذين وصلت مؤلّفاتهما إلينا.. وقد أهملا فيها أيّة إشارة إلى السّياسة المتجبّرة لسيّدهما واهتمامه أوّلاً بالقضاء على الزنكيّين وضمّ أملاكهم لصالح ذويه، ولم يركّز قطّ على حقيقة هي أنّه، في أعماله، لم يعط المكان الأوّل للجها.. ونجحا في تقديمه مكمّلاً لسياسة السلجوقيّين والزنكيّين ونسبا إليه فضل إعادة الخطبة العبّاسيّة وهي التي لم يبادرها بنفسه إطلاقاً وتركها تتمّ على لسان خطيب فارسي.. وأخيراً ركّزا على قيمة انتصاره في حطّين واستعادة القدس.

بعد موت صلاح الدين تقطّعت أوصال تركته سريعاً فاقتسم أولاده وأخوه الامبراطوريّة الأيّوبيّة ونشأت عائلات أيّوبيّة مالكة في سورية ومصر واليمن وانتهى الأمر بأبناء الأخوة بالقضاء على أولاد المليك الراحل فالمزاحمات بين الفروع الأيّوبيّة المختلفة حالت دون المحافظة على وحدة الامبراطوريّة والوحدة شرط البقاء الوحيد في عالم يترصّد الفرص فيه المماليك والمغول.

الفصل العاشر

القرن الثالث عشر

● **الأيّوبيّون**

في ظلّ ملك صلاح الدين عادت إلى مصر السلطة الروحيّة للخليفة العبّاسي وفيها سادت المذاهب السنّية؛ فعادت مصر لتكون المركز ونقطة الدائرة لأمبراطوريّة واسعة الأرجاء لا تشكّل سورية فيها أكثر من إقليم تحكمه مصر.

الشاغل الجوهري للسّلطان الأيّوبي الحفاظ على سلطته على أقاربه أمراء سورية الّذين انساقوا مع تيّار التحالفات المعقّدة وتتالت محاولاتهم الإستقلال عن مصر.. وفي الحقبة الأيّوبيّة التي تشمل النصف الثاني من القرن الثالث عشر مرّت الحرب ضدّ الصليبيّين في مرحلتها الثّانيّة وبعدها أصبحت نادرة العمليّات الهجوميّة الأيّوبيّة ضدّ الفرنجة فقد عرف، آنئذٍ، الشرق الأدنى العربي، فترة استقرار تزداد ترسّخاً بمقدار لامبالاة السكّان بالمشاحنات العائليّة بين أعقاب صلاح الدين قريبهم وبعيدهم.. وعندما يفضّل السكّان إيّاهم، على الإهتمام المذكور، تكريس الجهود لتنمية الزراعة والتجارة اللّتين ساهمتا في النهوض باقتصاد الإقليم وحقّقتا ازدهاراً مادّيّاً ونموّاً في الموارد على صعيدي الفرد والدولة.. وقد حصرت الدولة، بها إنتاج السكّر واستخراج معدن حجر الشبّ والصّناعات

النسيجيّة . وشجّع السلاطين العلاقات التجاريّة مع الجمهوريّات الإيطاليّة فتتوّج النهج بالتوصّل إلى إرساء أسس علاقات سياسيّة سليمة مع الفرنجة.

على الصّعيد الثقافي، كان العهد الأيّوبي مشرقاً سواء في مصر أو سورية إذ أصبحا مركز ومحور علوم وآداب وثقافة العرب ولهما مركز الرّيادة على صعيد البلدان ذات الثقافة العربيّة. وفي ظلّ رعاية وحماية الأمراء الأيّوبيّين، صانعي بعث السنّة، ظهر نموّ ملحوظ في العمران، وبخاصّة بناء عدد كبير من المدارس. . وجرى التقليد أن يُدفن في المدرسة مؤسسها بعد موته. ـ وكذلك بناء مقرّات (خانقاه) للطرق الصوفيّة. ـ والمنشآت الدفاعيّة في المدن الكبرى، وفي القلاع المعزولة، تشهد على تقدّم كبير في الفنّ العسكري. . وأخيراً فنّ التزيين والزخرفة الذي غلب عليه عنصر الكتابة والزهر بلغ درجة كيفيّة عالية من الدقّة والنمنمة فأعطى العصر الأيّوبي مكانه بين العصور الفنيّة الكبرى لبلاد الإسلام.

بعد موت صلاح الدين نشبت اضطرابات في الشرق مزّقت وحدة الامبراطوريّة؛ والأقاليم التي وزّعها العاهل في حياته بين أعضاء عائلته ـ إمّا على شكل إقطاعات، وإمّا على أساس الإرث ـ أصبحت على درجات متفاوتة من الإستقلال. . وأصحاب الحقّ في الولاية عليها صاروا أصحاب سيادة كاملة. . وخلال الثمانية أعوام الّتي عقبت موت المؤسّس الحقيقي للعائلة المالكة وُضعت على المحك فكرة العائلة السلطانيّة: ـ ثلاثة من أبنائه تولّوا المراكز الرّئيسيّة في مصر وسورية؛ البكر «الأفضل علي» في دمشق وسورية الوسطى والجنوبيّة. . والظاهر غازي في حلب وسورية الشماليّة. . والعزيز عثمان في القاهرة ومصر كلّها. . وشقيق صلاح الدين «العادل» (المعروف لدى المؤرّخين الغربيّين باسم «صفادين» ويبدو أنّ أصل التسمية يعود إلى لقب «صفاء الدين» وليس إلى سيف الدين المنسوب إليه عادة) نال حقّ الولاية على الجزيرة وأعالي ما بين

النهرين وديار بكر وميافارقين. . وابنه المعظّم عيسى كان صاحب الكرك وشرقيّ الأردن.

وتغيّرت البنية السّياسيّة لسورية فأمراء حلب ودمشق حاول كلّ منهم الإحتفاظ باستقلاله تجاه أقاربه الأقوياء أصحاب مصر وما بين النهرين.- أمير حماه، تقيّ الدين عمر، متولّي السلطة بالنيابة في مصر سابقاً وأمير حمص «المجاهد» حفيد شيركوح، لجآ الى جانب من الأقارب لحمايتهم من أطماع الجانب الآخر وحتّى أبناء صلاح الدين وصلت بهم الخلافات إلى طلب التحكيم إن لم يكن التحالف من عمّهم العادل كبير العائلة. . فتاريخ الأيّوبيّين تحوّل إلى سلسلة طويلة من المؤامرات والنزاعات بين أمراء العائلة. . وكان أكثرها ظهوراً أنّ الأمير الأيّوبي، صاحب مصر، حاول بسط سلطانه على ممتلكات أعضاء العائلة الآخرين المالكين في سورية وبلاد ما بين النهرين.- ومن جانبهم، اتّفق هؤلاء على عدم الخضوع لمولويّة صاحب مصر ومن جهة أخرى كان كلّ منهم يسعى لامتلاك دمشق التي ظلّت نصف قرن محور النزاعات العائليّة المذكورة.

ولا بدّ من الملاحظة، أيضاً، أنّ كلّ جيل من أجيال العائلة، برز فيه عضو قادر على فرض سلطته على الآخرين مثل الملك العادل وابنه الملك الكامل ثمّ الملك الصالح أيّوب.

● **ملك الملك العادل**

بعد موت صلاح الدين أصبح الملك العادل صاحب الجزيرة هو كبير العائلة وهو رجل حنكة وخبرة أكيدين وفي حياته حقبتان متميّزتان:- في الأولى خدم أخاه صلاح الدين وقام مقامه في القاهرة في حال غيابه كما في عام/٥٧٠/١١٧٤/ ومثّله في حلب عام/٥٧٩/١١٨٣/ وعام /٥٨٢/١١٨٦/. . وبعدها كُلّف بإدارة شؤون مصر في ظلّ السلطة الإسميّة للعزيز عثمان أحد أبناء صلاح الدين وكان العادل على معرفة عميقة بدخائل كلّ إمارة وظلّ طيلة

حياة أخيه مرجعه الأمين الموثوق به.ـ والمرحلة الثانية من حياته هي حقبة ملكه كأمير للجزيرة إذ أصبح همّه الأوّل (بعد موت أخيه) قتال الزنكيّين عزّ الدين صاحب الموصل وعماد الدين صاحب سنجار والحيلولة بينهم وبين استعادتهما المواقع التي انتزعها منهما صلاح الدين. وخلال السنوات الأربع الأولى بعد وفاة أخيه حاول أن ينهج سياسة سوريّة ـ مصريّة وأداته الدبلوماسيّة والدهاء بدل الحرب. وقامت مشكلة الأفضل أمير دمشق وبكر أولاد صلاح الدين الذي اعتبره البعض في مكان زعامة أبيه، ولكنّ نقص كفاءاته قلب «الصلاحيّة» ضدّه. وفي جمادى الأولى/ ٥٩٠/ أيار ١١٩٤/ زحف العزيز إلى دمشق وانضمّ العادل إلى التحالف الأيّوبي السوري فهزم صاحب مصر والتقى العادل بالأفضل في دمشق، وفي العام الثاني عاد العزيز إلى دمشق يدعمه الظاهر صاحب حلب وتوصّل العادل إلى فرط الإتّحاد بالمكيدة وعاد العزيز إلى القاهرة ثمّ تبعه عمّه إليها واتّفقا على إقصاء الأفضل عن إمارة دمشق؛ وفي رجب/ ٥٩٠/ حزيران ١١٩٦/ استقرّ العادل في دمشق بصفته نائب الملك العزيز وبعد قليل دارت سلسلة عمليّات حزبيّة ضدّ الفرنجة اجتاح العادل، فيها، أراضي عكّا واستولى على يافا وذلك في/ ٢٠ شوّال ٥٩٣/ ٥ ايلول ١١٩٧/.ـ في الشهر التالي استعاد آموري دي لوزينيان بيروت. في/ ١٠ محرّم/ ٢٢ تشرين الثاني/ ـ عيد عاشوراء ـ حاصر الألمان تبنين (طورون) فتلقّى العادل مدداً من مصر وسورية ونجح برفع الحصار في/ ٢٣ ربيع الأول ٥٩٤/ ٢ شباط ١١٩٨/؛ وفي رجب/ حزيران/ فاوض على الصلح مع آموري الثاني وفي/ ٢٤ شعبان/ أوّل تموز/ أبرمت هدنة خمس سنوات وخمسة أشهر وعندها ترك العادل ابنه المعظّم عيسى في دمشق وعاد إلى الجزيرة.

في ٢٧ محرّم ٥٩٥/ ٢٩ تشرين الثاني ١١٩٨/ مات العزيز في القاهرة تاركاً ولداً قاصراً (المنصور محمد) فقام أمراء الأسديّة من جيش شيركوح القديم باستدعاء الأفضل وصيّاً في حين استدعى

الصلاحيّة إلعادل للوصاية؛ فحاول الأفضل - بمساعدة أخيه الظاهر صاحب حلب - قطع الطريق على عمّهما واستطاع العادل أن يجد ملجأ له وراء أسوار دمشق حيث بقي ستّة أشهر حتّى وصل ابنه الكامل محّمد على رأس قوّات من الجزيرة لفكّ الحصار عنه وطرد الأفضل إلى مصر حيث هزم في بلبيس.

في ١٨ ربيع الثاني ٥٩٦/٦ شباط ١٢٠٠/ عاد العادل إلى القاهرة منتصراً وأصبح صاحب السلطة في مصر واعترف أبناؤه بالسلطة إيّاها وهم أصحاب الجزيرة وديار بكر ودمشق فأعلن نفسه سلطاناً في القاهرة بحجّة أنّه يريد إنقاذ وحدة الامبراطوريّة الأيّوبيّة وذلك في/٢١ شوال ٥٩٦/ ٤ آب ١٢٠٠/ ورغب أن يقتدي بأخيه ويجعل كلّ واحد من أبنائه ممثّلاً له في الأقاليم الكبرى ولكنّه لاقى بعض المصاعب مع ابني اخيه الظاهر صاحب حلب والأفضل الموجود عنده. - في الربيع ٥٩٧/ ١٢٠١/ استولى الأخوان على منبج وقلعة نجم المسيطرتين على الطريق الّذي يربط سورية الشماليّة بالجزيرة وتقدّما جنوباً فلم يتمكنا من الإستيلاء على حماه وفي ذي القعدة/٥٩٧ / آب ١٢٠١/ سارا إلى دمشق يدعمهما أمراء الصلاحيّة في فلسطين حلفاء الأفضل وقبل بلوغ غايتهما ربح العادل الجولة بالمكائد ففرط عقد اتّحاد الأخوين وربح الصّلاحيّة إلى صفّه

في ربيع الثاني/٥٩٨/ كانون الثاني/١٢٠٢/ حاصر حلب حيث السلطة ما زالت بيد الظاهر؛ أما الأفضل، فلقاء اعترافه بالعادل أُقطع «صُميصات» وفيها مات عام/٦٢٢/١٢٢٥/ تابعاً للسلجوقي صاحب روم.

عام/٦٠٤/١٢٠٧/ تلقّى العادل تقليداً بالسلطنة من الخليفة وعزم على إعادة توزيع الممتلكات بين أبنائه فثبّت المعظّم عيسى في دمشق وأعطى مصر للكامل محمّد والجزيرة للأشرف موسى وعادت ديار بكر للأوحد أيّوب؛ واضطرابات «اخلاط» بأرمينية كانت

فرصة لضمّ إرث شاه أرمن إلى الامبراطوريّة.. وقلعة جعبر سلّمها إلى الحافظ أرسلان وحمص بقيت في أيدي أسرة شيركوح بينما احتفظ باقطاعة حماه ورثة تقي الدين عمر الأول ولم تقطع العلاقات مع الظاهر الإبن الوحيد الكفؤ لصلاح الدين الباقي في حلب فتفرّغ هذا الأخير لأشغال تحصين قلعة حلب وقلعة نجم على الفرات وقلعة المضيق على العاصي . واهتمّ العادل بدفاعات ولاياته فأنهى، عام ٦٠٤/١٢٠٧/، أعمال تحصين قلعة صلاح الدين في القاهرة لحماية نفسه ليس فقط من هجوم فرنجي محتمل بل، أيضاً، من منافسيه، وقرّر السلطان أن يباشر إصلاحات هامّة في قلعة دمشق بين عام ٦٠٥/١٢٠٦-٦١٤/١٢٠٩/؛ وحصّن «تل تابور» عام/٦٠٧/١٢١١/ كما كان أنجز سلسلة من الأعمال في/٥٩٩/١٢٠٢/ و٦١٥/١٢١٨ في قلعة بصرى الّتي تشكّل نواتها مسرحاً رومانيّاً..

في حين كان العادل يعالج شؤونه في سورية كانت الحملة الصليبيّة الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤) - التي توجّهت في الأصل ضدّ مصر - غيّرت مسارها وتوصّلت إلى تأسيس مملكة قسطنطينيّة اللّاتينيّة الأمر الذي أتاح للكنيسة الرومانيّة استعادة جميع المقرّات البطريركيّة ما عدا مقرّ الإسكندريّة.

عام/٦٠٥/١٢٠٩/ كان على العادل القيام بعمليّات عسكريّة في أعالي ما بين النهرين حيث نشب النّزاع بين أبنائه وبين الزنكيّين والجيورجيّين فانطلق على رأس جيش عبّأته سورية وهاجم سنجار عازماً على إخضاع الزنكيّين لأنّ الظاهر حاول التحالف معهم، وشقّ عصا الطاعة للعادل.. وجاء جيش من الشّرق يترافق مع أمر بالإنصراف ألزما السلطان الأيّوبي بالتعامل الودّي فنجح بإبرام صلح مدّته ثلاثون عاماً أمّن لأولاده السّلطة على الجزيرة.. كلّ هذا كان له تأثيره على السّياسة الأيّوبيّة تجاه الفرنجة وبخاصّة تجاه مملكة

القدس اللاّتينيّة الضعيفة آنئذٍ والخوف الوحيد كان من احتمال وصول حملة صليبيّة جديدة إلى الشرق.

من أجل المحافظة على سلام مصر واعطاء الأولويّة للتنمية الاقتصاديّة، كان السلطان مستعدّاً لتنازلات كثيرة فأبرم بين /٥٩٤/١١٩٨- و/ ٦١٤/١٢١٧/ عدّة هدنات طويلة الأجل مع القدس ومثلما فعل أخوه صلاح الدين يسّر سبل التجارة مع الجمهوريّات الإيطاليّة وكانت مجزية للطرفين. - وفي عام /١٢٠٧- ١٢٠٨/ بعد الحملة الصليبيّة الرابعة، أبرم مع « بيزا» والبندقيّة اتّفاقيّتين تجاريّتين وعقد بنادقة اللاذقيّة اتّفاقيّة مع الظاهر وامتلكوا في حلب فندقاً.

عام ٦٠٣/١٢٠٦ - ١٢٠٧/ دارت معارك غير خطرة مع فرنجة (حصن الأكراد) - كراك دي شيفالييه - وبوهيموند الرابع في انطاكية وطرابلس وبين أيوبيّي حماه وحمص مدعومين من الظاهر بحلب وهدفها كان التنازع على موارد سورية الوسطى الزراعيّة وبخاصّة البقيعة. في رمضان /٦٠٣/ نيسان ١٢٠٧/ تدخّل العادل نفسه في الإقليم المذكور وحاصر حصن الأكراد واستولى على القليعة في سهل عكّار الخصب وخيّم عند أسوار طرابلس.

في /ذي الحجّة ٦٠٣/ تموز ١٢٠٧/ أبرم العادل صلحاً مع بوهيموند الرابع الذي كانت العلاقات جيّدة بينه وبين جاره الظاهر الذي أزعجته دولة أرمن سيليسية وصار يبحث عن حلفاء أقوياء ضدّهم وضدّ عمّه. - في عام/٦٠٥/١٢٠٨- ١٢٠٩/ قامت قوّات حلب بالتعاون مع قوّات روم السلجوقيّة بمهاجمة سيليسية فطلب الملك «ليون الثاني» شفاعة ووساطة العادل وتوقفت الحملة ونشب نزاع فرنجي - أرمني حول انطاكية ودخل ليون الثاني ملك أرمينية انطاكية في /شوّال ٦١٢/ شباط ١٢١٦/ ونصّبت عليها أميراً «ريموند روبن» (١٢١٦ - ١٢١٩) وازاء الأحداث تلك لم يستطع

الظاهر مبارحة حلب للتعاون مع «كاي كاعوس الأول» في غزو سيليسية. في/٢٩ رجب ٦١٣/ ١١ تشرين الثاني ١٢١٦/ مات الظاهر وخلفه العزيز محمد فبقيت حلب ملكاً للذرّيّة المباشرة لصلاح الدين.

رغم بعض المناوشات بين الفرنجة والمناوشات في شمال سورية سادت الشرق حقبة هدوء قطعها نزوح جماعي من التجار الإيطاليّين في الاسكندريّة نحو عكّا في عام ٦١٣/١٢١٦/ منذراً المسلمين بعمليّات عسكرية قريبة وواسعة؛ وفعلاً وجد العادل نفسه محمولاً على مجابهة الحملة الصليبيّة الخامسة وقد قادها، في البدء، أندرية ملك هنغارية.. فمنذ فشل الحملة الثالثة وتعثّر الرابعة هذه هي العمليّة الأولى الواسعة في الشرق.

عام/٦١٢/١٢١٥/، في المجمع الأسقفي المنعقد في «لاتران» كان «اينوسان الثالث» بالذات، الذي مات بعد بضعة أشهر، هو الّذي دعا أوروبة إلى تحرير قبر المسيح ومعاودة مشروع الإنزال في مصر. وبعد عامين اكتمل تجمّع الصليبيّين في عكّا فأوكل العادل أمر مصر إلى ولده الكامل وخفّ لمساعدة المعظم على حماية القدس وأطراف دمشق.-ومرّ شتاء عام/٦١٤/١٢١٧- ١٢١٨/ دون أن تحدث أيّة معركة واسعة النطاق فوصل الأشرف موسى على رأس قوّاته فأثبت الأيّوبيّون موقفاً موحّداً متكاملاً على جميع الجبهات وما إن علم العادل بإنزال صليبي بقيادة «جان دي بريّان» قرب دمياط حتى أرسل إلى مصر جانباً من قوّاته.

فريق من الحلبيّين معارض للعزيز محمد حفيد صلاح الدين والآتابك شهاب الدين طغرل اغتنم فرصة انشغال العادل واستدعى إلى حلب الأفضل وسلطان قونية السلجوقي، وفي مطلع ربيع الأول ٦١٥/ حزيران ١٢١٨/ قام سلطان قونية «كاي كاعوس» بالإستيلاء على «رعبان وتلّ بشير» في شمال سورية وزحف ضدّ حلب وكان

الأشرف أمير الجزيرة يقوم بعمليّة حربيّة في كونتيّة طرابلس فانثنى الى حلب مدعوماً بقوّات عربيّة وهزم السلجوقيّين في «بُزاعة» في مطلع /ربيع الثاني ٦١٥/ تموز ١٢١٨/ ومنذئذٍ أصبح هذا الأمير الأيّوبي الزعيم المحافظ على حلب تاركاً السلطة للآتابك طغرل.

في فلسطين بقي المعظّم عيسى في مواقعه وانصياعاً لأوامر أبيه هدم أسوار وتحصينات عدد من القلاع منها ثابور وتبنين وبانياس وصفد كي لا تقع في أيدي الفرنجة وهي في حالة جيّدة. . وكان عليه أيضاً أن يهدم دفاعات القدس ولكنّ الأمير الأيّوبي الشاب سارع إلى دمشق ففي/٧ جمادى الثانية ٦١٥/ ٣١ آب ١٢١٨/ مات ابوه العادل في «عالقين» قرب دمشق وهو في الستين من عمره ودفن زعيم العائلة الأيّوبيّة في دمشق، في المدرسة العادليّة بعد أن ملك /٢٣/ عاماً عُرف طوالها، بنهجه الإصلاحي التوفيقي، أن يمارس سلطته على أقاربه في سورية وما بين النهرين. . وأصبح المعظّم صاحب السلطة على سورية الجنوبيّة وأقرّ السلطنة لأخيه الكامل.-وحضور الحملة الصليبيّة الخامسة قوّى التفاف الجميع حول شخصيّة الكامل المتميّزة. .

● ملك الملك الكامل

في دمياط صار وضع المصريّين إلى أسوأ فخضع الموقع لضغط فرنجي نشط رغم أنّ الفرنجة كانوا بدورهم، محاصرين من قبل قوّات السلطان: وفي نهاية رجب/٦١٥/ مطلع تشرين الأول ١٢١٨/ فشل هجوم مصري مضادّ. . وكان الكامل يعلم أنّ الفرنجة سيتلقّون مزيداً من المدد فطلب النجدات من أقاربه ولكن الأشرف كان في الجزيرة مشغولاً بحرب مع الزنكيّين.

وكشفت وأفشلت مؤامرة حبكت داخل المعسكر قادها «ابن مشطوب» وذلك في منتصف ذي القعدة /٦١٥/ أول شباط ١٢١٩/ أي بعد أيّام من وصول المعظّم على رأس مدد من سورية. . وبعد

بضعة أسابيع وصلت إمدادات أرسلها المظفر الغازي من حماه. .
وفتح الكامل باب مفاوضات صلح عارضاً تسليم القدس للفرنجة وكان المعظّم قد بدأ هدم أسوارها حتّى لا تكون منيعة إذا استلمها الفرنجة وعرض أيضاً الإفراج عن الأسرى المسيحيّين وإعادة خشبة الصليب الحقيقيّة مقابل رفع الحصار عن دمياط وجلاء الصليبيّين عن أرض مصر وتوقيع هدنة ثلاثين عاماً. . وكان الملك جان دي بريّان وباروناته مستعدّين للقبول ولكنّ سفير الباب الاسباني «نيلايو» (بيلاج) المدعوم من القادة العسكريّين رفض العرض إيّاه. وفي / جمادى الأولى /٦١٦/ آب ١٢١٩/ تجدّد العرض نفسه ومُني بالرفض نفسه. أخيراً، في/١٤ شعبان ٦١٦/ ٥ تشرين الثاني ١٢١٩/ استولى الفرنجة على دمياط فتقهقر الكامل خمسين كيلومتراً جنوباً الى مقابل المنصورة وعاد المعظّم إلى سورية ليقوم في العام التالي بمناوشة الفرنجة في فلسطين فاستولى على قيصريّة وشنّ هجومين متتابعين على «إثليث» (قلعة الحجّ) وكان الأشرف ما زال في الجزيرة تعيقه عن الحركة مجابهة أرتوقيّي ماردين وآميد. - في جمادى الأولى ٦١٧/ تموز١٢٢٠/ هاجم الزنكيّين بقوّات أمدّته بها حلب واستولى على سنجار وتقدّم باتّجاه الموصل وظلّ بضعة أشهر قرب المدينة ثمّ طلب المفاوضة. - وفي ربيع الأوّل/٦١٨/ أيار ١٢٢١/ وصلت طلائع امدادات الألمان الى مصر وارتأى سفير البابا بيلاج مهاجمة القاهرة. . ومرّ شهر حزيران في الإستعدادات. - في / ٣٠ جمادى الأولى/ ١٧ تموز/ تحرّك جيش الصليبيّين ولقي بعض المقاومة في ١٩منه. .. في/٢١ تموز احتلّ «شرمشاه» وكان الكامل معسكراً في المنصورة ومعه أخواه المعظّم والأشرف وهذا الأخير ترك أخلاط وديار بكر لأخيه المظفّر شهاب الدين والتحق بالكامل في المنصورة. . - وكان جيش صليبي ضخم يتقدّم جنوباً حتى أقام خيامه مقابل جيش المنصورة. ومرّ شهر آب دون أن يتحسّن الوضع بالنسبة للفرنجة وفي آخر آب (بداية رجب ٦١٨) اقترب فيضـان النيل

والمسلمون الخبيرون بنظام الدلتا وأحوال المياه السطحيّة، عرفوا كيف يعزلون القوى العدوّة عن قاعدتها في دمياط فوقع جيش الفرنجة في الشّرك وتقهقر دون نظام وطلب الصّليبيّون الصّلح وقبل الكامل الشّروط التي وضعها فرسان الهيكل وفرسان القبر المقدّس، وانفرد الألمان برفض الجلاء عن دمياط، وفي نهاية المطاف.. في/ ١٠ رجب ٦١٨/ ٣٠ آب ١٢٢١/ وُقّعت إتّفاقيّة هدنة مدّتها/٨/ سنوات نصّت على تبادل الأسرى وجلاء الفرنجة عن دمياط فاستعادها المسلمون في/١٩ رجب ٦١٨/ ٨ أيلول ١٢٢١.

لقد فشلت الحملة الصّليبية الخامسة وعادت المشاحنات بين الأيّوبيّين إلى الظهور.. ومنذ بدء حصار دمياط حصلت أحداث وخيمة العواقب على الحدود الشّرقيّة للأمبراطوريّة العبّاسيّة:- «تيموجين جنكيز خان» مؤسّس الامبراطوريّة المونغوليّة (المغوليّة) و«امبراطور العالم» فرغ من سحق التتار عام /١٢٠٢/ واحتلال بكين عام /١٢١٥/ ووجّه اهتمامه شطر آسية الوسطى والغربيّة وإليهما زحفت قوّاته وأولى مواجهاتها كانت مع جيش خوارزم شاه.

عام /٦١٦/١٢١٩/ وخلال معركة كانت تدور شمال - شرق بحر آرال، تمكّن جيش يقوده «جوتشي» أحد أبناء جنكيزخان من هزم قوّات «جلال الدين منعوبردي».- وفي نهاية عام /٦١٦/ النصف الأوّل من شباط ١٢٢٠/ تغلغل الخان المغولي في ما وراء النهر وكان بالذات على رأس القوّات التي استولت على بخارى؛ وفي /١٠ محرّم ٦١٧/١٩ آذار/ دخل سمرقند دون مقاومة وتغلغلت قوّاته في خراسان.. ففرض على نيسابور وحيرات غرامة ثقيلة ونهب «ثوس» ونفذ إلى العراق العجمي فاجتاح الريّ وقم وهمذان قبل الذهاب للإشتاء في الجنوب الشّرقي من أذربيجان.- في ربيع /٦١٨/١٢٢١/ هاجم تبريز والمراغة وعدل عن عزمه السير إلى بغداد منطلقاً من همذان نحو سهوب روسية والخريمة.. ولاحق

الخان خوارزم شاه حتّى أدركه على ضفاف الهندوس وهزمه هناك في /٧ شوّال ٢٤/٦١٨ تشرين الثاني ١٢٢١/ وقفل راجعاً إلى منغوليّة وهناك مات في /٢٥ آب ١٢٢٧/ في حين ذهب جلال الدين إلى آسية المتقدّمة لاستعادة قواه.

إزاء الخطر المغولي استنجد الخليفة النّاصر لدين الله بالأشرف أمير الجزيرة الأيّوبي ولكن هذا كان قد غادر مكانه لنجدة أخيه الكامل سلطان مصر. ومنذ /١٢١٩ - ١٢٢١/ أصبحت دول الشرق الأدنى الإسلاميّة مهدّدة من الشّرق ومن الغرب.. ولازم الأشرف أخاه الكامل في القاهرة في حين كانت مملكة القدس اللاّتينيّة تلعق جراحها النازفة بعد حملة الدلتا؛ ومع انفراج الخطر الفرنجي عادت فتوتّرت العلاقات بين الأخوة الثّلاثة ومصدر التوتّر كان خوف «المعظّم» من تحالف أخويه ضدّه.

في ربيع الثاني جمادى الأولى ٦١٩/ حزيران ١٢٢٢/ أجبر المعظّم «غي صاحب جبيل» على توقيع معاهدة صلح ثمّ حاول، في ذي الحجة ٦١٩/ كانون الثاني ١٢٢٣/ الإستيلاء على حماه بعد احتلاله مدينتين تابعتين لها هما معرّة النعمان والسّلَميَّة، ولكن أمراً من الكامل أبطل مخطّطه وألزمه بإخلاء المدينتين المذكورتين؛ ولكنّ الوساوس ظلّت تحرّكه، فتحالف مع أمير «إربيل» ضدّ الأشرف وزيّن لأخيه مظفّر غازي القيام بثورة في «أخلاط» فأرسلت قوّات من حلب وقمعت التّمرد وعاد المعظّم فقام بعمليّة جديدة وصل فيها إلى أسوار حمص فتلقّى من الكامل أمراً جديداً بالتزام حدوده وذلك عام /١٢٢٤/٦٢١/ .-وفي حين كان «جوكبوري» صاحب إربيل وحليف الأيوبيّين يقوم بهجوم ضدّ بدر الدين لؤلؤ آتابك الزنكيّين في الموصل.. وكان الأرتوقيّون زاحفين بقوّاتهم ضدّ الجزيرة.. طلب الأشرف نجدة ضد هؤلاء من سلطان قونية السلجوقي.- وفي جمادى الثّانية ٦٢٣/ حزيران ١٢٢٦/ قام المعظّم - من جانبه - بتوجيه الدعوة

إلى جلال الدين مانغوبردي الذي ـ بعد هزيمته أمام المغول على ضفاف الهندوس ـ نجح باستعادة سيادته على إيران وأذربيجان والإستيلاء على ديار بكر. . وغبَّ الدَّعوة إيَّاها شنَّ هجوماً على حمص ولكنَّ قوَّات حلب ردَّته على أعقابه؛ في حين أنَّ الأشرف ـ رغم تسوية أموره مع صاحب قونية لم يكن يأمن جانبه أو يعتمد عليه ولا يجد مناصاً من الخضوع للمعظَّم الذي استبقاه في دمشق. أمير دمشق ـ إيَّاه ـ عمل أيضاً ضدّ الكامل. . لقد استطاع أن يستميل إلى معسكره عناصر من الجيش المصري مثيراً بذلك شكوكه أنَّه يبيِّت له أمراً ما في سورية. . وتضاعف انزعاج الكامل من تحالف أخيه مع خوارزم شاه فأصبح الحلّ الوحيد، بنظره، هو الإستناد إلى فرنجة القدس وفريدريك الثَّاني الوصي على عرشهم فجدَّد لهم عروضه السَّابقة في دمياط وبخاصَّة عرض التخلِّي لهم عن القدس. وفي / جمادى الأولى ٦٢٤/ أيار ١٢٢٧/ تغيَّر الوضع إذ نجح الأشرف في أن يفلت من ربق دمشق وجاهر أميرا حمص وحماه بعدائهما للمعظَّم واستأنف الصليبيُّون تجميع قواهم في عكَّا وهي مقدِّمات للحملة الصَّليبيَّة السَّادسة الَّتي تأخر فريدريك بالقيام بها رغم وعوده المتكرِّرة الَّتي جوزي عليها بالحرم في /٢٨/ أيلول ١٢٢٧/. وقام الأيُّوبي بهدم أسوار وتحصينات القدس حين استولى الصَّليبيُّون الألمان على نصف صيدا وباشروا في /أواخر ذي القعدة ٦٢٤/ مطلع تشرين الثاني ١٢٢٧/ تدعيم دفاعات حصنها البحري وبقي شطرها الثَّاني في أيدي قوَّات دمشق. ـ في أوَّل ذي الحجَّة ١٢/٦٢٤ تشرين الثاني ١٢٢٧/ مات المعظم وأقرّ الكامل تعيين النَّاصر داود خلفاً لوالده في دمشق ولكنَّه، بعد أن أوكل إلى النَّاصر أيُّوب مهمَّة القيام مقامه في القاهرة، وعيَّنه وريثاً له، أسرع السلطان المصري بالزَّحف ضدّ الأمير الشَّاب الذي استنجد بعمّه الأشرف في /رمضان ٦٢٥/ آب ١٢٢٨/ وهو العام الذي فيه كانت المجابهة متوقِّعة على أرض فلسطين بين المسلمين والصليبيِّين وذلك في جوٍّ مشحون بالمجادلات والمناوشات واستعدادات وأعمال التحصين ووصول قوَّات

فرنجيَّة مسلَّحة كبرى ونهوض الامبراطور الوصي على العرش بالقدس، منذ زواجه عام /٦٢٢/١٢٢٥/ من «إيزابيل يولاند» إبنة «جان دي بريَّان» . . نهوضه لقيادة الحملة الصليبيّة رغم أمر المنع من قبل البابا . . فأقلع من برنديزي في /٢٣ رجب ٦٢٥/ ٢٨ حزيران ١٢٢٨/ ومرَّ بقبرص وأنزل قوَّاته في عكّا في /٥ شوَّال ٦٢٥/ ٧ أيلول ١٢٢٨/ وطوال مدَّة إقامة فريدريك الثاني في فلسطين ظلَّت دمشق المسرح للمشاحنات الأيُّوبيَّة. ـ في/ تشرين الثاني ١٢٢٨/ اجتمع الكامل والأشرف في «تلّ العجول» واقتسما الممالك الأيُّوبيّة فأخذ الأشرف دمشق عوضاً عن ديار مصر وعاصمتها إيديس التي صارت للكامل إضافة إلى إحتفاظه بمصر وإحكامه الطوق حول إمارة حلب. . فاشتملت أملاكه على مدن آميد ـ حصن كيفا ، حرَّان ـ إيديس ـ الرّقة ـ رأس العين ـ ساروجة . . وعيَّن الناصر داود في الكرك شرقيّ الأردن مع إحتفاظه بجزء من فلسطين ولكنَّ هذا رفض الخروج من دمشق وظلّ يقاوم حصاراً ضُرب عليها مدَّة ثلاثة أشهر حتّى استسلم في /٨ شعبان ٦٢٦/ ٢٥ حزيران ١٢٢٩/ ـ وأثناء انشغال الأيوبيِّين بمنازعاتهم العائليَّة أجرى الإمبراطور إتِّصالاً مع الكامل (مستعيناً بتمكّنه من اللّغة العربيَّة والثقافة الإسلاميّة وقد حصَّلهما في صقلّية حيث نشأ) . . فطلب منه الكامل عوناً ضدّ أخيه المعظَّم في دمشق ولكنَّ موت هذا الأخير غيَّر الكثير من معطيات المشكلة السُّوريَّة . . واستمرَّت المفاوضات خمسة أشهر أي إلى /٢٢ ربيع الأول ٦٢٦/ ١٨ شباط ١٢٢٩/ حيث توصَّل الامبراطور والسلطان إلى توقيع إتِّفاق مدَّته عشرة أعوام وعشرة أشهر شمل مملكة القدس وحدها (فرنجة انطاكية وطرابلس ظلّوا خارجها) وبموجبها أخذ فريدريك عكا ـ يافا ـ صيدا ـ على السَّاحل والناصرة وبيت لحم والقدس باستثناء المسجد الأقصى ـ وتعهَّد الامبراطور أن يكون عوناً للسُّلطان ضدّ جميع أعدائه وقد شُجب هذا الإتفاق واعتُبر خيانة سواء من قبل البابا غريغوار التاسع ومن قبل النَّاصر داود صاحب دمشق.

بعد استيلاء الأشرف موسى على دمشق جرى توزيع جديد

للممتلكات وقام الصّليبيّون بسلسلة عمليّات عسكريّة في سوريّة فاغتنم فرسان القبر المقدّس انشغال الكامل في الشّمال وهاجموا «بعرين - مونت فيّران» وذلك في محرّم /٦٢٧/ كانون الأول ١٢٢٩/ ثمّ هاجموا حماه في /٢١ شعبان ٦٢٧/٥ تموز ١٢٣٠/ ولكنّ الأمير المظفّر محمود ردّهم على أعقابهم في آخر رمضان/ مطلع آب/.

في الشّمال الشّرقيّ واصل الخوارزميّون عمليّاتهم:- جلال الدين نفذ من شمال - غرب بحيرة «وان» وهاجم حامية الأشرف في أخلاط وبعد حصار دام سبعة أشهر استسلمت الحامية في /١٥ جمادى الأولى ٦٢٧/٢ نيسان ١٢٣٠/ فأقلقت انتصارات خوارزم شاه السلطان السلجوقي «علاء الدين كاي كوباد» وعرض على الأيوبيين مساعداته ضدّ العدوّ المشترك وتولّى الأشرف قيادة جيش الشمال الأيُوبي وفي سيواس التقى مع سلطان قونية فهزما الخوارزميّين قرب أذربيجان في ٢٨ رمضان ٦٢٧/١٠ آب ١٢٣٠/ وبعد استعادة أخلاط وتدميرها هرب جلال الدين لاجئاً إلى تبريز. وتتابعت، منذئذ، الهجومات والهجومات المضادّة حتّى كان الإتّفاق على الهدنة في شعبان ٦٢٨/ حزيران ١٢٣١/.

عام /٦٢٩/١٢٣٢/ استأنف الأمراء الأيُوبيّون عمليّاتهم الهادفة لتقوية سيطرتهم على الحدود الشرقيّة للجزيرة وديار بكر (وقد أصبحت تهدّدها سرايا المغول القريبة في إيران وما وراء النهر).. وخسر الأرتوقيّون آميد وحصن كيفا اللّذين أصبحا من نصيب البكرْ من أولاد الكامل الصّالح أيُوب المعيّن قائداً عامّاً للجيش في الأقاليم الشماليّة الشرقيّة بهدف إبعاده عن مصر وظهر السلطان الكامل في أوج قوّته لولا ظهور أمير آخر منافس هو سلطان قونية السلجوقي «كاي كوباد». وللعاهلين حدود مشتركة يعمل كلّ منهما على تعديلها لصالحه.- وفي القرن الثالث عشر عرفت سلطنة روم نموّاً ملحوظاً تشهد عليه حتّى أيّامنا هذه آثار العمران الباقية. وحاول السلجوقيّون التوسّع عبر جبالهم في السّهول الزراعيّة الخصبة لسورية الشماليّة وديار بكر ومن هنا كانت

مهاجمتهم للأيُوبيِّين في الجزيرة حيناً.. والتدخل في خلافات أمراء حلب مع أبناء عمومتهم في مصر أحياناً..

ولجأ كاي كوباد إلى طريقة لإبعاد عصابات الخوارزميِّين عن ممتلكاته بعد أن قتل المونغوليُّون (المغول) جلال الدين وأجلوا أصحابه بإتِّجاه أناضولية في /١٤ شوال ٦٢٨/١٥ آب ١٢٣١/ فقد أرسلهم إلى أرمينية الكبرى للإستيلاء، لحسابه، على أخلاط وكانت من أملاك الأشرف.. وقد شهدت السنوات العشر الآتية توسُّعاً مونغوليّاً ضمَّ أذربيجان والمدن الرئيسية في أرمينية ـ وفي صيف /٦٣١/١٢٣٤/ عمل الأكراد الأيُوبيُّون ضدّ تعدِّيات الترك السَّلاجقة وذلك بعد أن استقطبهم السلطان الكامل فاستعادوا تضامنهم العائلي.. وكان الأشرف قد وضع أناضولية بين أهدافه ولكنَّ قوَّاته عجزت أن تشقَّ لها طريقاً عبر مضايق طوروس كما ضاعت منه «خربوط» التي استولى عليها السَّلاجقة في /ذي القعدة ٦٣١/ آب ١٢٣٤/ وهدفهم السيطرة الكاملة على شمال ديار بكر حيث المواصلات بين أناضولية وأرمينية.. وهذا فشل كان شديد الوطأة على الكامل الذي اضطرَّ للعودة إلى مصر وتسريح قوَّاته مع حلول الخريف في حين تابع كاي كوباد هجومه واستولى على الجزيرة ونفى سكَّانها وتلك إحباطات أضعفت ثقة الأيُوبيِّين بسلطانهم وحملت المظفَّر تقيِّ الدين الثاني محمود أمير حماه على القيام بمبادرة تفاوض مع السلجوقي كاي كوباد.. وتعقَّد الوضع آنئذ بين حلب وفرسان الهيكل بسبب قلاع «باخراس وداربساك» المشرفة على شِعَاب وفجاج الأمانوس المستخدمة في المواصلات بين انطاكية وسورية الشمالية، وبين خليج اسكندرون وسهل سيليسية؛ فكان لا بدّ للكامل من إحلال الوفاق بينه وبين أقاربه في سورية، وبعد أن تمَّ ذلك قام (بالتعاون مع الأشرف في / جمادى الثانية ٦٣٣/ كانون الثاني ـ شباط ١٢٣٦/) بعملية عسكريَّة فاستعاد الجزيرة وساق إلى القاهرة ثلاثة آلاف أسير سلجوقي وقلَّد الكامل إبنه البكر الصالح أيُوب حكم الأقاليم الشرقيّة المستردَّة وبعد بضعة شهور في /ذي الحجة

٦٣٣/ آب ١٢٣٦/ أعاد السلجوقيّون الكرّة فهاجموا آميد وهدموا الدارعة شمال غرب نصيبين.

في /٢٥ ربيع الأول ٦٣٤/ تشرين الثاني ١٢٣٦/ مات في حلب العزيز محمد إبن الظاهر، تاركاً صبيّاً في السابعة خلفاً له «الناصر يوسف» فتولّت الوصاية عليه جدّته «ضيفة خاتون» أخت الكامل يساعدها المعظّم طوران شاه: فتحالفت مع الأشرف وعندها دعا الكامل الناصر داود إلى القاهرة وولّاه على دمشق وأصبح الأيوبيّون المتّحدون في سوريّة يعتمدون على سلاجقة قونية في مواقفهم ضدّ سلطان مصر ولكنّ كاي كوباد مات في /٤ شوّال ٦٣٤/ وخلفه كاي خسرف الثاني. والحدث المفاجيء كان في الخامس من محرّم ٢٨/٦٣٥ آب ١٢٣٧/ :-إنّه موت الأشرف موسى تاركاً دمشق لأخيه الصالح إسماعيل وبذلك انفرط عقد الإتحاد السوري الآنف الذكر. - المظفّر -الثاني محمود صاحب حماه التحق بالكامل الذي نجح باستبقاء دمشق في حوزته بعد أن ولّى الصالح إسماعيل على بعلبك المركز الستراتيجي الاقتصادي الهام في البقاع وعزم على مهاجمة حلب ولكن الموت عاجله في دمشق في /٢١ رجب ٦٣٥/ ٩ آذار ١٢٣٨/ وهو في الستين من عمره بعد أن ملك عشرين عاماً سلك خلالها نهج الحوار والتفاوض بدل الإحتكام إلى السّلاح.. وبغياب الكامل تمزّق شمل الأسرة الأيوبيّة وحرمت، نهائيّاً، من زعيم منها، يُعيد إليها تضامنها وتماسكها كما كانت في معركة المنصورة مثلا..

● **إنحطاط الأيوبيّين وزوالهم.**

السلالة المالكة الأيوبيّة التي ظلّت لها بعض الفروع في سورية، وبخاصّة في حماه، انحطّت وزالت بسرعة. - العادل الثاني، أبو بكر، الأخ الأصغر للصّالح أيّوب هو الذي أقرّ بحقّه في السلطنة ضبّاط القوّات المصريّة. وانتقل جيش حلب إلى حالة الهجوم مفضّلاً التحالف مع السلاجقة بدل الأيوبيّين ونشبت الحرب بين حمص وحماه، كما تعقّدت

الأزمة بين الصالح أيُّوب والخوارزميِّين المتطوِّعين لخدمة الأرتوقيِّين. فهرب إلى سنجار الَّتي كانت تحت حصار قوات بدر الدين لؤلؤ آتابك للموصل. وفي حال يأسه استنجد الصالح بالخوارزميّين لتخليصه فبادر هؤلاء الى محاصرة آميد واحتلال إقليم الخابور الخصب على حساب الصالح أيوب الَّذي منح منقذيه، إضافة إلى ذلك، إقليم ديار مضر شرقيّ الفرات بين إقليمي حلب والجزيرة. ـ وكان«الجواديونس» حديث العهد بالإستقرار في دمشق بعد أن ولّاه عليها سلطان القاهرة وكان يخشى غزواً من جهة مصر فدعا الصالح أيُّوب لأخذ مكانه فيها وذلك في شهر /ربيع الثاني/ آخر عام ١٢٣٨/ فاستاء الجيران من هذا الإجراء الذي عقبه تحرُّك السيِّد الجديد لسورية الجنوبيّة. . تحرّكه إلى فلسطين لتنظيم هجوم ضدّ مصر. . وفي فرصة غيابه في حمص تحالف عمّه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك مع المجاهد صاحب حمص واستوليا على دمشق التي كان يديرها المغيث عمر مكان أبيه وذلك في /٣٠ ربيع الأول ٦٣٧/ أيلول ١٢٣٩/ فتخلّت القوّات المرافقة للصالح أيُّوب عنه والتحقت بقوّات السلطان ما عدا فئة قليلة من المماليك. وفي نابلس قبض عليه ابن عمّه الناصر داود وسجنه في قلعة الكرك ـ موآب. وكانت قد انتهت، في الحقبة إيّاها، مدّة العشر سنوات المنصوص عليها في الهدنة مع فريدريك الثاني فاستأنف العمليّات الصليبيّة «ثيبوت كونت شامبانيه وملك نافار» الَّذي وصل إلى عكّا في ٣٠ محرم ٦٣٧/ مطلع أيلول ١٢٣٩/. . وكان يملك أحد خيارين: ـالزّحف ضدّ دمشق. . أو الزّحف ضدّ مصر. . بانياً على الخيار الثاني أمل الإستيلاء على دمياط ومقايضتها بالقدس. ـفي / ربيع الأول/ تشرين الأول/ أرسل السلطان العادل الثاني أبو بكر قوّة إلى فلسطين. . وفي ١٤ ربيع الثاني /١٣/ تشرين الثاني ١٢٣٩/ كبّدت الصليبيِّين خسائر في عسقلان. . وكانوا متمركزين هناك في نفس الشهر. وبعد أن بدأ الفرنجة إعادة بناء دفاعات القدس أحكم الناصر داود الحصار على المدينة المقدسة. . وفي منتصف جمادى الأولى ٦٣٧/ منتصف كانون الأول ١٢٣٩/ استعاد

المدينة وهدم التحصينات؛ ولم تحصل أيّة عمليّة واسعة ضدّ الصليبيِّين الذين قاموا ببعض الغارات ضدّ القوافل التي زوّدتهم ببعض الماشية. وكانت الحالة في القاهرة متدهورة إذ نفدت المدّخرات النقديّة ونشب صراع مكشوف داخل جيش مصر بين الأكراد والترك.

موقف المظفّر تقيّ الدين الثاني صاحب حماه قلب السياسة الأيُوبيَّة في سورية رأساً على عقب إذ طلب مساعدة الفرنجة ومال إلى التحالف معهم ضدّ أقاربه ثمَّ عزف عن ذلك والتفت نحو مصر مؤمِّلا أن يجد هناك الحليف ضدّ الإتحاد المعروف بين دمشق ـ حمص ـ حلب ولكنَّ المطلب إيَّاه يستدعي وجود سلطان قوي في القاهرة ولا يوجد سوى الصالح أيُّوب لهذه المهمَّة:ـ فتدخل لدى الناصر داود الذي احتاط للمستقبل البعيد/ ففي ١٧ رمضان ٦٣٧/ نيسان ١٢٤٠/ أطلق سراح الصالح أيُّوب لقاء وعد أن يعطيه ـ إذا صار سلطاناً ـ دمشق وشرقي الأردن. . ومن جهة أخرى أومأ إلى الخوارزميِّين أن يهاجموا حلب وحمص؛ والعادل الثاني الذي تقرَّب من الصالح اسماعيل خرج لملاقاة داود وأيُّوب ولكنه توقف في بلبيس وهناك، في /١٠ شوال ٦٣٧/٤ أيار ١٢٤٠/ تمَّ احتجازه على يد فريق من مماليكه استنجد بأخيه البكر؛ وهكذا في /٢٤ شوال/١٨ أيار/ دخل الصالح أيوب السلطان الجديد القاهرة بتظاهرة تأييد شعبيّة وملك من /١٢٤٠ الى ١٢٤٩/.

نجاح الصالح أيُّوب في مصر أحزن عمّه الصَّالح إسماعيل الَّذي انتزع منه دمشق فمدَّ يده للصليبيِّين طالباً مساعدتهم ضدّ السلطان وضدّ الناصر داود وحمايتهم على الحدود الجنوبيّة من فلسطين ومقابل ذلك أعاد إليهم الأراضي الممتدَّة بين صيدا وطبريّا أي الجليل الأعلى مع قلعة الشقيف (بوفور ـ أو شقيف أرنون) ومركز صفد الذي كان بيد فرسان الهيكل وجبل عامل الَّذي يسكنه الشيعة.-تيبوت وفرسان الهيكل قبلوا هذا التحالف ولكنَّ فرسان القبر المقدَّس شجبوه. ـ ومن الجانب الآخر كان موضع إحتجاج وشجب علماء السنّة بدمشق ورفضت حامية

شقيف أرنون إخلاء المركز الَّذي استولى عليه إسماعيل بالقوَّة. . وتجمَّعت جيوش الصَّليبيِّين وقوَّات دمشق وحمص بين عسقلان ويافا لقطع الطريق الساحلي على السلطان. ـ عام /١٢٤١/٦٣٩/ بدأت الحرب بين الصالح أيُّوب وأخصامه فأقال الناصر داود الَّذي انضمَّ إلى حزب الصالح إسماعيل ودخل طرفاً في الإتِّفاقيَّة مع الفرنجة وحصلت المواجهة في سهل غزَّة فانضمّت القوّات الإسلاميّة إلى معسكر السلطان وسُحقت قوّات الفرنجة الذين قلبوا وجه التحالف: ـ قاطعوا الدمشقيِّين وأبرموا اتّفاقاً مع السلطان!.

في القاهرة إهتمَّ الصالح ـ وأمّه سودانيّة ـ بإصلاح وتقوية موارد الدولة الماليَّة وكذلك بالإحتفاظ باليمن تحت سيطرته وبحركة الملاحة في البحر الأحمر تأميناً للتجارة المربحة مع بلدان المحيط الهندي وقمع الإضطرابات في مصر العليا. . وقبل كلِّ هذا شعر بالحاجة إلى إعادة تنظيم الجيش مستفيداً ممَّا خبره من سلوكيَّة القوَّات الكرديَّة، وعدم ولاء وحدات مصر الأيُّوبيَّة لأبيه وأخيه وكلِّ هذا يستدعي إعادة النَّظر في البُنى العسكريَّة للجيش فأنشأ فرقاً جديدة من المماليك الترك وأعطى ضبَّاطها إقطاعات ومناصب كانت مقصورة على أمراء الوحدات الكامليَّة والأشرفيَّة التي أنشأها كلٌّ من أبيه وأخيه. . وبنى قلعة جديدة في جزيرة الرَّوضة على «بحر النيل» وخصَّصها لإقامته مع قوَّاته الخاصَّة وعناصرها من الترك اشتراهم من ما وراء النهر أو من كيبتشاك وهذا كان الأصل للتسمية التي حملتها الوحدات إيَّاها «البحريَّة» وأصبحت فعلاً هي المحكّم العرفي في مختلف الحالات.

في نهاية عام /١٢٤٠/ حدثت تغييرات في القيادة الفرنجيَّة بفلسطين؛ ففي نهاية/ ربيع الأول ٦٣٨/ آخر أيلول/ عاد تيبوت إلى الغرب وقام مقامه «ريكارد دي كورنواي» صهر فريدريك الثاني واستؤنفت المباحثات مع أيُّوب الَّذي تباطأ في الإعتراف باحتلال عسقلان من قبل الفرنجة الَّذين أنهوا ترميم التحصينات في /شعبان ٦٣٨/ آذار ١٢٤١/ وفسَّر الموقف المصري على أنَّه مقصود لتأجيل

تسليم الأسرى من الفرنجة حتّى يتمّوا إنجاز التحصينات العسكريّة الّتي يبنونها.

خلال فترة المفاوضات، قام الخوارزميُّون حلفاء أيُّوب في شمال سوريَّة بمهاجمة أراضي حلب فهزموا جيش المعظَّم طوران شاه في «بُزاعة» شرقي حلب واستولوا على منبج المسيطرة على الطريق إلى الفرات وذلك في ٢٣ ربيع الثاني ٦٣٨/١١ تشرين الثاني ١٢٤٠/ وبعد بضعة أشهر، في رجب ٦٣٨/ كانون الثاني ١٢٤١/ شنَّ الخوارزميُّون غارة على سوريَّة الوسطى ضدّ سرمين وشيزر ونهبوا أراضيهما؛ ولم يقف أيُّوبيُّو سورية مكتوفي الأيدي إذ قام جيش سوري، قوَّاته من دمشق وحمص، بقيادة المنصور إبراهيم الذي خلف أباه المجاهد.. قام بعمليّات مضادَّة:ـ اجتاز الفرات وأوقع هزيمة بالخوارزميِّين قرب إيديس في /٢٠ شعبان ٦٣٨/٦ آذار ١٢٤١/ فأصبحت مراكز الجزيرة مقسَّمة بين المنتصرين وبين بدر الدين لؤلؤ في حينٍ اضطرَّ جيش حلب (حليف القوَّات السلجوقيَّة ضد طوران شاه إبن وممثِّل السلطان الصالح أيوب) اضطرَّ أن يعيد آميد الى السلطان كاي خسرف الثاني.

في ربيع ٦٤٠/١٢٤٣/ دارت في الجزيرة عدَّةعمليّات:ـالسلطان السلجوقي مهدَّد بغزو من جهة الأناضول فعقد اتِّفاقاً مع الخوارزميِّين وأعطاهم «خربوط» وأعطيت أخلاط إلى الأيُّوبي المظفَّر غازي صاحب الموصل.ـ في ١٢ محرم ٦٤١/٢ تموز ١٢٤٣/ أوقع المونغوليُّون (المغول) هزيمة بكاي خسرف؛ والإنكسار السلجوقي إيَّاه بدَّل الوضع في الشَّمال حيث احتلَّ المغول آميد وأخلاط وهدَّدوا ما بين النهرين.

في جنوب سورية شلَّت قوى الصَّالح أيُّوب صاحب دمشق بعد أن حرم من دعم حمص وحصلت بعض العمليَّات في فلسطين منها حملة مصريَّة انطلقت من غزَّة وهزمت في جوار القدس في /ذي القعدة ٦٣٩/ أيار ١٢٤٢/ إذ هزمها الناصر داود صاحب الكرك

وحليف فرسان الهيكل. ـ بعد بضعة شهور (٥ جمادى الأولى ٣١/٦٤٠ تشرين الأول/ وعلى أثر غارة صليبيّة ضدّ نابلس قام داود بعمليّات ثأريّة وقد انضمّت إليه فيها قـوّات من غزّة وأصبحت نجاحات الخوارزميّين في الشرق مصدر قلق الأيوبيّين الّذي قرّروا وضع حدّ لمنافساتهم ولم يمنع هذا الصالح إسماعيل بأن لا يثق بالصالح أيّوب الذي وافق المظفّر محمود في /ذي الحجة ٦٤٠/ حزيران ١٢٤٣/ علي إرسال بعثة إلى أمراء الشرق وإلى بغداد ومعها تفويض بالإتّصال بالخوارزميّين وبدعوة «بركه خان» لمساعدتهما ضدّ أمراء سورية الباقين الّذين وقّعوا اتّفاقيّة مع الفرنجة تخلّوا لهم بموجبها عن عسقلان وطبريّا والقدس. ـ وفي صيف /٦٤٢/١٢٤٤/ اجتاز عدّة آلاف من الخوارزميّين البقاع ناهبين كلّ ما يجدونه في طريقهم واستولوا على القدس بعد حصار قصير في /١٧ ربيع الأول ٢٣/٦٤٢ آب ١٢٤٤/ واحتلّوا فلسطين ملتقين، في غزّة، مع قوّات سلطان مصر التي يقودها الأمير ركن الدين بيبرس. وكان المنصور ابراهيم الأمير الأيوبي صاحب حمص على رأس التحالف السوري ـ الفرنجي الذي هزم في /١٧ تشرين الأول ١٢٤٤/ رغم الإمدادات التي تلقاها من قبرص وانطاكية. وبعد عزل الفرنجة عن حلفائهم المسلمين بمناورة قام بها المصريّون تمّ تطويقهم وذبحهم من قبل الخوارزميّين. عندها حاصر بيبرس عسقلان واستعاد الشاطىء الفلسطيني واحتلّ القدس الّتي ظلّت منذئذ في أيدي المسلمين حتّى زمن قريب منّا. ففرض سلطان مصر مولويّته على الأيوبيّين وأعاد فرض سيادته على فلسطين وأصبح مصير مملكة القدس في يده. ـ بعد مدّة مات، في سجن دمشق، «مقرث» أحد أبناء الصالح أيّوب فحمل الجيش المصري ـ الخوارزمي على هذه المدينة وبدأ حصارها في /ذي القعدة ٦٤٢/ نيسان ١٢٤٥/ وانتهى في /٩ جمادى الأولى ٢/٦٤٣ تشرين الأول/ حيث قايضها إسماعيل بالإقليمين الخصبين: البقاع مع

بعلبك وحوران مع بصرى. والخوارزميُّون الَّذين منعهم المصريُّون من دخول دمشق بعد أن خصَّصت لهم المنطقة السّاحليّة من فلسطين؛ وصل بهم الإستياء إلى العصيان العنيد فنهبوا غوطة دمشق الغنيَّة وهزموا قوّات بيبرس وعرضوا خدماتهم على داود صاحب الكرك الذي يستطيع، بذلك، استعادة ملك القدس ونابلس والخليل.. كما وضعوا أنفسهم تحت تصرُّف الصالح إسماعيل وحاصروا دمشق (وداخلها حلفاؤهم بالأمس) وخشية أن تقع دمشق في أيدي الخوارزميِّين قطع المنصور ابراهيم علاقاته مع الصالح إسماعيل وانضمَّ إلى حلب وحاول أمير حمص بالتعاون مع المصريِّين إنقاذ دمشق فرفع الخوارزميُّون حصارهم وساروا شمالاً لملاقاة السوريِّين أي قوّات حلب وحمص المدعَّمة بسرايا من البدو والتركمان التي أنزلت بهم ـ في أوَّل محرم ٦٤٤/١٩ أيار ١٢٤٦/ـ هزيمة لم تقم لهم قائمة بعدها.. ووجد إسماعيل له ملجأ في حلب إذ لم يكتفِ صاحبها الناصر يوسف برفض تسليمه إلى أيُّوب بل تحرَّك لانتزاع حمص من الأشرف موسى.ـ في /٢٧ ربيع الثاني ٦٤٤/١١ أيلول ١٢٤٦/ هزم داود أمام قوَّة عسكريَّة مصرية في السلط بالاردن وحوصر داخل الكرك حيث عرض عليه أنَّ بقاءه هناك مشروط بتسليم الخوارزميِّين الموجودين عنده وإعادة الأراضي التي ضمَّها إلى إقطاعته.

بعد ضياع القدس وغزَّة من أيدي لاتين مملكة القدس وتعاظم خطر سلطان مصر على وجود الفرنجة في الشرق، بدأ العمل في أوروبة لتعبئة حملة صليبيَّة هي السابعة؛ وفي فترة الدعوة لها التي ترأسها لويس التاسع ملك فرنسة صارت القوَّات تتوارد على قبرص وتتجمَّع فيها طوال صيف عام ١٢٤٨/.. هذا وكان الصِّراع مستمرّاً بين الأيُّوبيِّين:ـ عاد الصالح أيُّوب إلى القاهرة وكان يعاني من السلّ التدرُّني الذي قضى عليه بالنهاية.. تحالف الصالح يوسف صاحب حلب مع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وتحرَّك لحصار حمص؛

فخفَّ أيُّوب إلى دمشق في وسط/ شتاء عام ١٢٤٨ ـ ١٢٤٩/ وبلغ حمص.. لكنَّ وضعه الصحّي، وأنباء الحشود الصليبيّة في قبرص جعلته يقبل ـ إنقاذاً للمظاهر ـ وساطة الخليفة المستعصم والإتفاق مع الأيوبي صاحب حلب.. وفي /٤ صفر ٦٤٧/١٩ نيسان ١٢٤٩/ نُقل في هودج إلى مصر فتوقّف على الضفة اليمنى من بحر الصخر وأقام معسكره بين أشمون وتناح شرقيِّ المنصورة وأعطى أوامره بتخزين المؤن والعتاد الحربي في دمياط وتجهيز أسطول نهري في القـاهرة.

في منتصف /صفر ٦٤٧/ آخر أيار ١٢٤٩/ انطلق لويس التاسع لمهاجمة مصر هدف الصليبيِّين الرئيسي وعرقلت سيره خلافات نشبت بين الجنوبيِّين والبيزانـيّين الّذين تعهّدوا نقل الرِّجال والعتاد للحملة من قبرص.ـ صباح يوم/ السبت ٢١ صفر ٦٤٧/٥ حزيران ١٢٤٩/ أنزل لويس التاسع قوّاته في شمال دمياط وقام قائد القوّات المصريَّة، وهو أمير من قبيلة بني كنانة، بإخلاء المدينة من سكّانها.. وفي اليوم التّالي احتلَّ الصليبيُّون، دون قتال، ثاني مدن مصر التجاريَّة وحوَّلوها سريعاً إلى مدينة فرنجيّة.

والخيار الوحيد للسلطان الصالح أيوب كان تعبئة قوَّاته في العمق، جنـوبـاً، قـرب المنصـورة حيث عسكـر الكـامـل عـام /٦١٦/١٢١٩ ـ ١٢٢٠/ ودامت العمليّات في مصر حقبة طويلة امتدَّت بين صفر وشعبان/٦٤٧/ حزيران ـ تشرين الثاني ١٢٤٩/ لأنَّ وصول الصليبيِّين تزامن مع فصل فيضان النيل.. وهي مهلة أتاحت للمصريِّين تدعيم قوَّاتهم بوحدات المتطوِّعين للجهاد من الشعب المصري.. وكذلك معالجة أزمة سببها مماليك البحريَّة الترك الذين حاولوا استغلال الظرف للتخلّص من الأيوبيِّين.

وكما جرى /عام ١٢٢١/ زحف الصليبيُّون نحو القاهرة الّتي يعتبرونها مفتاح القدس وذلك في /١٢ شعبان ٦٤٧/٢٠ تشرين

الثاني ١٢٤٩/، صاعدين النيل، تتبعهم السفن الشاحنة للعتاد..
وكما في المرَّة السابقة توقفوا عند المنصورة في رجب ٦٤٧/ كانون الأول ١٢٤٩/ وأقاموا معسكرهم على الضفة اليسرى من بحر الصخر؛ وأثناء تقدُّم الفرنجة جنوباً، في /١٤ شعبان ٢٢/٦٤٧ تشرين الثاني ١٢٤٩/ مات الصالح أيوب وهو في الرَّابعة والأربعين من عمره.. ولكنَّ موته لم يعكس أثراً مباشراً على الوضع إذ أبقي سرّاً من قبل زوجته «شجرة الدرّ» المرأة القويّة الشخصيَّة التي تولَّت بنفسها تسيير شؤون الدولة يعاونها مماليك البحريَّة.. وفي نفس الوقت استدعت إبنه المعظَّم طوران شاه المقيم في حصن كيفا

ولكنَّه لم يصل إلاَّ في نهاية/ ذي القعدة ٦٤٧/ شباط ١٢٥٠/ وقد بدأت معركة المنصور في /٤ ذي القعدة ٨/٦٤٧ شباط ١٢٥٠/ عندما أجتاز الصليبيُّون مخاضة في بحر الصخر لمهاجمة المعسكر المصري وقتل في المعركة «فخر الدين ابن الشيخ» قائد الجيش المواجه لقوَّات فرسان الهيكل فخلق ذلك بلبلة في الصفوف سرعان ما تلافاها ركن الدين بيبرس البندقداري (الرامي بالقوس) قائد مماليك البحريَّة الَّذين أصبحوا، منذئذ، رأس حربة الجيش؛ كما أصبح زمام القيادة بيد ركن الدين المذكور ودامت المعركة وتصاعدت ضراوتها حتى /١١ شباط: من /٧ ذي القعدة ١١/٦٤٧ شباط/ الى/ أول محرم ٦٤٨/ ٥ نيسان ١٢٥٠/ حاول جيش

الفرنجة الصمود في مواقعه وأشرف عتاده على النفاد وتفشَّت في صفوفه أمراض الزحار وسواه وكان السلطان يعلم في أي وضع دقيق وحرج أصبح لويس التاسع عندما عرض هذا الأخير مقايضة دمياط بالقدس ولذلك رفض السلطان العرض..- وفي /أول محرم ٥/٦٤٨ نيسان ١٢٥٠/ قوَّض الصليبيُّون خيامهم وقرَّروا الرُّجوع القهقرى نحو الشمال فالتحمت بهم قوَّات المماليك البحريَّة وطوَّقتهم في «فارسكور» فأسر الملك وعدد كبير من باروناته ولم تكن نتائج معركة المنصورة أخفَّ وطأة على الفرنجة من هزيمتهم في حطين كما يثبت

ذلك المؤرِّخ «جوانفيل».. فقد سُحق وتلاشى جيش الفرنجة وصارت مسموعة في معسكره همهمات ثورة هادرة.. والبحريَّة، صانعو هذا النصر لم يكونوا على استعداد للخضوع لطوران شاه الذي أبلغ الأمر لوالدته شجرة الدر.. وضبّاط المماليك حفظوا خطّ الرجعة حرصاً على مناصبهم والتزموا العمل بقيادة بيبرس. ويوم /الإثنين ٢٨ محرم ٦٤٨/ ٢ أيار ١٢٥٠/ ذبحوا، دون شفقة، طوران شاه وهو يطلب الرحمة.. ومكان الأيُّوبي أعلنوا شجرة الدرّ سلطانة بصفتها أرملة المتوفي الصالح أيوب وأمّ المقتول وشجب الأيُّوبيون وأنصارهم الإجراء إيَّاه كما أن خليفة بغداد، من جانبه، لم يستحسن أن تغتصب التاج إمرأة من حريمه أهداها هو للصالح أيوب ودعا المماليك لأن يختاروا لأنفسهم سلطاناً يكون ذكراً.

في نفس الفترة كانت المفاوضات تجري مع لويس التاسع لاطلاق سراحه لقاء فدية وتمَّت استعادة دمياط حسب الإتفاق في /٢ صفر ٦/٦٤٨ أيار ١٢٥٠/ وبعد يومين تمَّ دفع فدية مقدارها خمسة آلاف دينار ودفع المبلغ بكامله فرسان الهيكل وسافر الملك بحراً إلى عكَّا فوصل في /التاسع من صفر/١٣ أيار/ وسجَّلت المنصورة زوال الفرع المصري للعائلة الأيُّوبيَّة الـذي لم يكن الممثّلان الأخيران له يملكان مزايا وسلطة من سبقوهما.. فالصالح أيُّوب غيَّر بنية الجيش وفيالق المماليك الجديدة أثبتت أنَّها لا تكنّ الولاء وليست أمينة في خدمتها للسُّلالة الأيُّوبيَّة بل تدعم أيّاً من قادتها يطمع بانتزاع السلطة وامتلاكها لشخصه.. وشجرة الدرّ، المرأة الذكيَّة، عيَّنت الأمير إيباك قائداً للجيش وتدعيماً لمركـزه تزوَّجته وتخلَّت عن العرش والملك لصالحه.. فاعترفت به القوَّات وأخذ لقب «المعزّ» وقال معاصرو تلك الأحداث أنَّ ثمَّة نظاماً تركيّاً حلَّ محلَّ العائلة الكرديَّة المالكة. ولكنَّ «النظام» المذكور عمل على إبقاء مظاهر الشرعيّة الأيوبيّة فأشـرك في السُّلطة «الأشرف

موسى الثالث» وهو أمير أيوبي في العاشرة غادر مصر إلى سورية بعد عامين.

لقد قام ملك الصالح أيُّوب في سياق سلسلة من المكـائد والدَّسائس والمشاحنات.. وصحيح أنَّ سلطان مصر نجح في إعادة إنشاء امبراطوريَّة صلاح الدين ولكنَّ ذلك لم يكن أكثر من مظهر لأنَّ العائلة المالكة فقدت قدرة التماسك.. وبعد موت أيُّوب استولى الناصر يوسف صاحب حلب على دمشق وقاد المعارضة في سورية وجمع إتِّحاداً مهيّأً للقيام بهجوم مضادّ على مماليك مصر وخاض المعركة الأولى في غزَّة في /رجب ٦٤٨/ تشرين الأول ١٢٥٠/ وبعد شهرين قام بحملة ثانية زحفت إلى مصر وهُزمت في /٩ ذي القعدة/ ٢ شباط ١٢٥١/ وأسر الصالح إسماعيل وأعدم بأمر من إيباك. وقاد الناصر يوسف حملة ثالثة نجحت باحتلال مركز داروم جنوب غزَّة قبل /شوال ٦٤٩/ آخر عام ١٢٥١/ وظلَّ الجيشان هناك في حالة مواجهة أكثر من عام وانتهى الأمر إلى مفاوضات/ محرم ٦٥١/ آخر آذار ١٢٥٣/ :ـ فتخلّ الناصر يوسف عن القدس لإيباك وساد السلام.ـ كان قد مضى أربعة أعوام على وجود لويس التاسع في عكَّا ومن هناك أجرى إتِّصالات مع فدائيِّي جبل النصيريَّة بسورية الذين حفظوا تجاهه حياد المتعاطف تحت الرقابة اليقظة لفرسان الهيكل وفرسان القبر المقدَّس.. وحاول ملك فرنسة الإتِّفاق مع المغول الذين كانوا يتقاضون غرامة من كلٍّ من سلطان قونية وملك أرمينية حاطوم الأول.. ولكنَّ مساعيه باءت بالفشل لأنَّ الخان الكبير اشترط الخضوع له مقابل أيّ وفاق وقبل أن يغادر عكَّا وقَّع لويس التاسع مع المسلمين معاهدة صلح مدَّتها عشر سنوات وستة أشهر وأربعون يوماً.

عام /٦٥٣/١٢٥٥/ نشب الخلاف بين إيباك والبحريّة بسبب عدم انضباطهم فلم يتردّد في إعدام زعيمهم فهرب عدد كبير منهم وانضمّوا إلى الناصر يوسف بدمشق فاستقبلهم كحلفاء ضدّ مصر..

وفي /١٢٥٦/ أصلح إيباك بينه وبين الناصر وأعاد له فلسطين ومدّد إتفاقية العشر سنوات مع الفرنجة بعد تجديدها فاتّسعت لأيوبيّي سورية فسحة البقاء أربع سنوات قضوا نصفها الأخير تحت كابوس الرهبة من اقتراب خطر المغول الذي لم يكن الشعور به كبيراً على ضفاف النيل. في /٢٥ ربيع الأول ١٢/٦٥٥ نيسان ١٢٥٧/ عملت شجرة الدر على ذبح زوجها.. وبعد ثلاثة أيّام قُتلت هي بدورها؛ والتطوّر الّذي اعتمد في خلافة المُلك أصبح سابقة بالنسبة لسلطة المماليك التي تتابعت في القاهرة.. لدى موت إيبك خلفه ابنه علي دون أن يملك سلطة حقيقية تؤكد شرعيّة الإجراء الذي أصبح يُخضع المستخلف للعبة المماليك السياسيَّة.. لقد خلع علي ونُصِّب ضابط من مماليك إيبك ـ قطز ـ سلطاناً في /١٧ ذي القعدة ١٢/٦٥٧ تشرين الثاني ١٢٥٩/ وعاد البحرية اللاّجئون بدمشق إلى القاهرة حيث لقوا استقبالا حسناً.

وصول المغول ونهاية الأيُوبيِّين

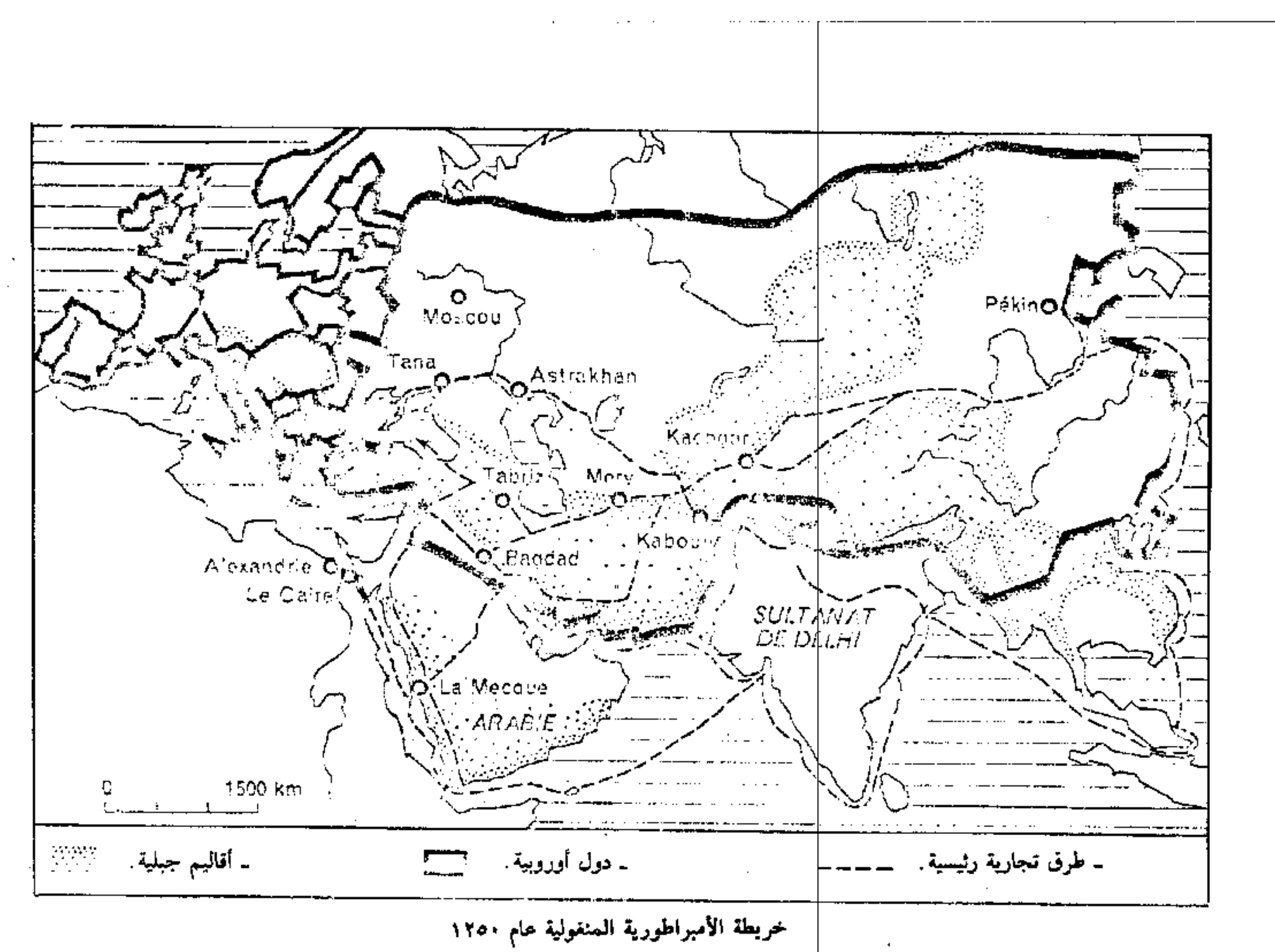
الحقبة الأخيرة من ملك الأيُوبيِّين بدأت مع بداية المجهود الكبير المبذول من قبل الفرنجة لاستعادة مملكة القدس اللاّتينيَّة والذي انتهى مع الهزَّة الذي احدثها النَّصل الَّذي أصاب صميم هذه المنطقة من العالم ومصدره هذه المرَّة آسية الشرقيّة: ـ إنّه غزو المغول.

إن غزواً من آسية المتقدّمة تقوم به شعوب السُّهوب لم يكن أمراً جديداً.. فمنذ قرون جاءت موجات قبليّة صدَّتها حصون طوروس فانعطفت شمالاً نافذة إلى هضبة أناضولية.. والجماعات التركمانيّة كانت إحدى آخر الموجات الموما إليها وسبقت وصول السلاجقة إلى سوريّة في منتصف القرن /الخامس/ الحادي عشر/.. وأصبحت تُعدُّ هيِّنة بمقارنتها مع فتوحات المغول في القرن /السابع/ الثالث عشر/.

وحتّى بدأت تلك الفتوحات لم يكن المغول معروفين من غير جيرانهم المباشرين في الصين وآسية الوسطى ومن بعض البعثات الإسلاميّة والنسطوريّة؛ والمعلومات كانت قليلة مبهمة عن ديانتهم وأساسها المذهب القائل بوجود الروح في كـل الأجسام الحيّـة وبالقدرة على ترويضها وتسخيرها بممارسات طقسيّة معيّنة يمارسها ويعلّمها كهنتهم - [CHAMAN] وقبلا كان يسمع الكثير عن طغيانهم حتّى استبدَّ الرعب بالمستهدفين لخطرهم فكان الهرب سبيلهم الى الغرب. . وفرسان القبائل التي لم تعد تجد الكلأ في إيران وضعوا أنفسهم في خدمة أوّل أمير يدفع لهم كما فعلت عصابات الخوارزميّين في الربع الثاني من القرن /السابع/الثالث عشر/.

في النصف الثاني من عام /١٢٤٣/٦٤٠/ قامت قوّات المغول التي يقودها «باي جو» صاحب أذربيجان باجتياح أرمينية من الشمال والتغلغل في أناضولية حتى بلغت «سيبستة - قوز - داخ» في /ذي الحجة ٦٤٠/ حزيران ١٢٤٣/ منزلة بسلطان السلاجقة في روم هزيمة ساحقة. . وصارت كلٌ من سلطنة قونية وأرمينية، وسيليسية تحت حماية المغول الّذين لم يكن اهتمامهم يتركّز على أناضولية فأنقوا على السلاجقة ومملكة أرمينية لقاء غرامات من جهة وضمان حيادهما من جهة ثانية. . وعند موت السلطان كاي خسرف الثاني، تاركاً وريثين قاصرين قسم المغول سلطنة روم إلى شطرين بين البكر كاي قاعوس الثاني وأخيه قيليج أرسلان الرابع. . وعمّت الفوضى المملكة إيّاها فاغتنمها تركمـان الأقاليم المتـاخمة ونـظّموا، في المدن، جمعيّات حرفيّة يقودها «الأخيس».

في /١٢٥٤/٦٥٢/ سلك ملك أرمينية طريق «كاراكوروم» عاصمة امبراطورية المغول وهي في أوج توسّعها من كورية إلى بولونية ومن خليج تونكين إلى البحر الأسود حاطوم الأول وصل بلاط الخان الأكبر «مونجكي» في الحقبة الّتي أوقف فيها هذا الأخير حملة



خريطة الأمبراطورية المنغولية عام ١٢٥٠

المصدر [ر. س. لوبيز - ميلاد أوروبة]

كانت معبَّأة ضدّ الدول الإسلاميَّة. واغتنمها العاهل فرصة لإظهار الترحيب بمملكة أرمينية وبالمسيحيِّين إجمالا.. حتّى أصبح البعض يؤمّلون قيام تحالف ضـدّ العدوّ المشتـرك: المسلمين.. ولكنَّ السفراء الذين سعوا لتحقيق الهدف إيَّاه خاب سعيهم ما عدا التحالف الأرمني ـ المغولي ظلّ حقيقة واقعة.

عام /١٢٥٦/٦٥٤/ اجتازت امورداريا ووصلت إلى خراسان قوَّات مغوليَّة جديدة يقودها هولاكو فحاصرت علاموت حيث يقيم الفدائيّون الاسماعيليُّون منذ /١٠٩٠/٤٥٤/ وعجزت قلعتهم عن الاستمرار في المقاومة فاستسلمت في /أول ذي الحجة ٦٥٤/٢٠ كانون الأول ١٢٥٦/ وعندها وضع المغول نصب أعينهم فتح العراق وسورية، ومُنيـة هولاكـو هي أن يكون الـوارث لسلاطنـة بغداد السلجوقيِّين الكبار ولكن الخليفة المستعصم الموجود في ملكه منذ /١٢٤٢/ رفض بتأكيد مطلق وكان المغول يعلمون جيِّداً أنَّ الخليفة المسالم لا يملك جيشاً خاصّاً به ويعلمون التنازع العنيف بين السنَّة سكان المدينة وبين الشّيعة في ضاحية الكرخ وسوقها التجاري الواسع؛ فعزموا على العمل هناك وزحفوا على بغداد في ذي القعدة ٦٥٥/ تشرين الثاني ١٢٥٧/ ـ جيش هولاكو سار غرباً وقوَّات القائد باي جو انحدرت من الموصل على الضفَّة اليمنى لدجلة. وفي /١٠ محرم ٦٥٦/١٧ كانون الثاني ١٢٥٨/ بدأ حصار بغداد؛ في /٤ صفر ٦٥٦/١٠ شباط/ استسلم الخليفة لهولاكو الذي جرَّد السكّان من سلاحهم وبدأ ذبحهم ودخان الحرائق يحجب السّماء والآفاق. في يوم الجمعة /٩ صفر/١٥ شباط/ دخل هولاكو المدينة المغطّاة بالخرائب والجيف وبعد خمسة أيّام ذُبح المستنصر بدوره.. فخلافة بغداد العبّاسيّة، بعد وجود متّصل دام خمسة قرون، بادت غارقة في حمَّام من الدم.

الإتفاقات المبرمة منذ /١٢٤٣/٦٤١/ مع السلجوقي قيليج ارسلان الرابـع والملك حاطـوم الأول ضمنت الأمن في الشطر

الشمالي وسمحت منذ /عام ١٢٥٨/ الى ١٢٦٠/ بعمليّة انتشار واسعة استهدفت شمال العراق والجزيرة وسورية وبدأت المنازعات العائليّة تضعف دولة المغول من داخل فقد مات الخان الكبير مونجكي في /١٩ شعبان ٦٥٧/ ١١ آب ١٢٥٩/ ونشب نزاع عنيف على الإرث بين أبنائه؛ وفي /رمضان ٦٥٧/ أيلول ١٢٥٩/ اضطرّ هولاكو للعودة إلى آسية تاركاً «لكيتبوخا نويون» (الزعيم التركي العنصر النسطوري المذهب) قوّات مقطّعة الأوصال. والمغول الّذين انطلقوا من بغداد في الأيام الأولى من أيلول استولوا على الموصل ونصّيبين وماردين وميّافارقين وانعطفوا غرباً ليلتقوا في إيديس بقوّات حاطوم الأرمنيّة وكذلك قوّات صهره بوهيموند الرابع أمير انطاكية وطرابلس الذي انضمّ إلى هذا الحلف وخضعت إيديس وحرّان وساروج ذُبح أهلها والبيرة احتلّت ومنبج تمّ نهبها ومنذ عرف الناصر يوسف بتقدم كيتبوخا ترك حلب وتمركز قريباً من دمشق وهناك انضمّ إليه المنصور الأيّوبي صاحب حماه واستنجد بسلطان القاهرة قطز. . وسارت الجيوش التي تضمُّ وحدات منغوليّة وأرمنيّة وفرنجيّة مع منحنى الهلال الخصيب وقطعت الفرات ووصلت قدّام حلب في /٢ صفر ٦٥٨/ ١٨ كانون الثاني ١٢٦٠/ ودخل المغول المدنية في /٨ صفر /٢٤ كانون الثاني/ وقاومت القلعة شهراً ثمّ هدمت أسوارها ثمّ نهبوا حماه الّتي التحق أميرها الناصر بجوار دمشق وحمص الّتي خضع أميرها الأشرف موسى للمغول أعادوها إليه. . ثمّ، وفي /١٧ ربيع الأول ٦٥٨/ آذار ١٢٦٠/ دخل المغول دمشق الفارغة من المدافعين عنها وفيها نال المسيحيُّون حظوة الغزاة. . وكلّما اقترب المغول من الناصر يوسف والمنصور الثاني تراجعا جنوباً حتّى بلغا العريش على تخوم مصر وهناك غيَّر الناصر إتجاهه وعاد إلى الأردن وهناك استسلم مع خدّامه الأكراد الى كيتبوخا وقد قتله هولاكو يوم تأكدّ هذا الأخير من هزيمة المغول. . وتقدّم الغزاة جنوباً فاستولوا على بانياس وعجلون وقطعوا الأردن

واستولوا على نابلس ووصلت طلائعهم إلى غزّة.- وكانت حقبة مأساويّة في تاريخ الإسلام بدا فيها أنّ ما من قوّة قادرة على الوقوف بوجه المدّ المغولي الّذي ظلّت خارج دائرة اغتضابه مصر وشبه الجزيرة العربيّة وحدهما. . وارسل سفير مغولي إلى القاهرة يطلب منها الخضوع للخان الكبير فرفض قطز الذي أعلن نفسه سلطاناً في ٢٤/ ذي القعدة ١٢/٦٥٧ تشرين الثاني ١٢٥٩/. . رفض وأمر بقتل السفير وهو يدرك فداحة الخطر. . فعبّأ قوّات كبرى وطلب من فرنجة فلسطين الذين وقفوا من المغول موقفاً معاكساً لأصحاب انطاكية. . طلب منهم العون وإلاّ فالسّماح له بالمرور في فلسطين فاستجابوا للمطلب الأخير وقدّموا المؤونة للمماليك وفي حين استطاعت الطلائع المصريّة، بقيادة بيبرس، أن تهزم شمالاً الطلائع المغوليّة التي وصلت إلى غزّة كانت قوّات مصر التي يقودها قطز قد وصلت إلى الجليل؛ وفي يوم الجمعة ٢٥/ رمضان ٣/٦٥٨ أيلول ١٢٦٠/ سحقت الجيش المغولي غربيّ بيسان، في عين جالوت، ووقع كيتبوخا في كمين وقتله قطز بيده.- الأيّوبي المنصور صاحب حماه الذي التحق بالقوات المصريّة ساهم في انتصار المسلمين وكان التأثير المعنوي لهذا النصر بالغ الأثر والعمق:- لم يكن الجيش المغولي، إذن، القوّة التي لا تُقهر. . وتابعت قوّات المماليك زحفها شمالاً وفي دمشق أنزلت القصاص بالّذين تعاونوا مع المحتلّ النسطوري وأصرّ قطز على ملاحقة المغول والقذف بهم إلى ما وراء الفرات وصحيح أنّ الحجم الحقيقي للقوّات التي مع كيتبوخا لم تكن تشكّل إلاّ جزءاً من قوّات الخان الكبير؛ ولكنّ الصحيح أيضاً هو أنّ المغول لم يستطيعوا إطلاقاً أن يجتازوا غرباً الحدود الّتي وصلوها عام ١٢٦٠/.

خلال تقدّمه، أرجع قطز الأمراء الأيوبيّين إلى مراكزهم وعيّن الحكّام لسلطنة المماليك التي ضمّت فلسطين وسورية وعلى طريق العودة نجح بيبرس، بدافع من حقده على قطز وبمساعدة من فريق

من المماليك الموالين له، نجح في قتل بيبرس خلال طلعة صيد في /١٥ ذي القعدة ٦٥٨/ ٢٣ تشرين الأول ١٢٦٠/ وأطلق لخيله العنان حتى بلغ القاهرة واستولى على عرش السلطنة.

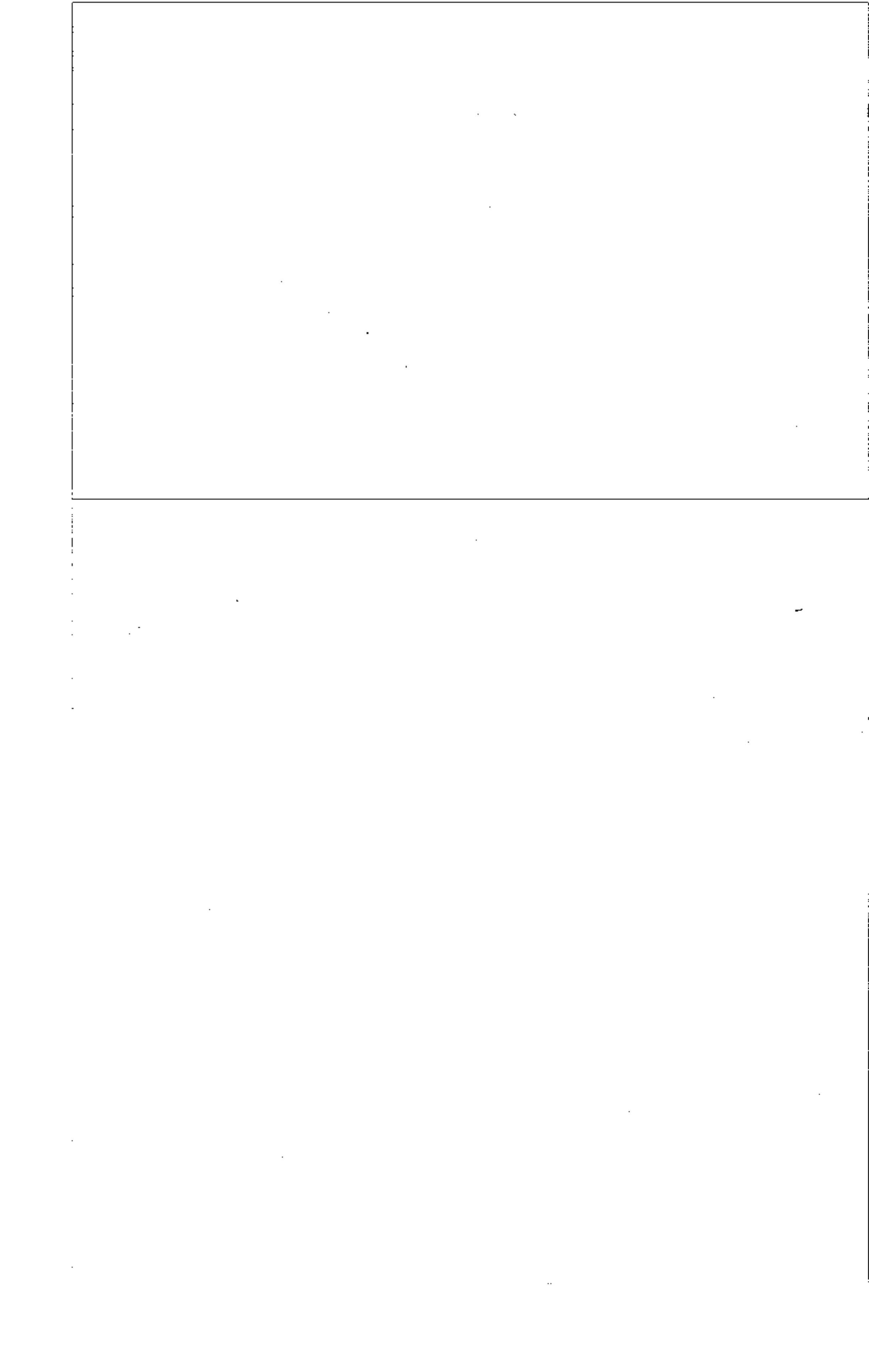
في العام التالي انطلق جيش مغولي آخر من بغداد ودخل سورية وأعاد الاستيلاء على حلب في ذي الحجة ٦٥٩/ تشرين الثاني ١٢٦١/ فجمع المنصور صاحب حماه والأشرف صاحب حمص قوّاتهما وهزما قوّات المغول في /١٥ محرم ٦٦٠/١٠ كانون الأول ١٢٦١/ وقذفا بها إلى وراء الفرات وكان ذلك آخر عمل لامع قامت به الأسرة الأيوبيّة. وعرفت سورية في السنين الآتية، غارات مغوليّة أخرى في حين استمرّت الموصل تحت السيطرة المغوليّة.

عام /١٢٦٣/٦٦١/ أقدم السلطان المملوك بيبرس على خيانة «المغيث» وقتله واستولى على الكرك؛ وفي نفس العام، لدى موت الأشرف موسى آخر ذرّية شير كوح، زالت إمارة حمص.- أمّا حلب فمنذ مات الناصر يوسف خرجت من أيدي الأيوبيّين وبقي المنصور وحده محتفظاً بإمارة حماه وهناك ظلّ الفرع الأخير للسّلالة الأيوبيّة في سورية.. ظلّ باقياً حتى عام /١٣٤٢/٧٤٢/.

فرع أيّوبي آخر أقام حول حصن كيفا وصمد أجيالاً بفضل تأييد القبائل الكرديّـة في الإقليم فبقي إلى ما بعد الاحتلال المغولي والإجتيـاح التيمـوري ثمّ سقط تحت ضـربـات الـ [AK KOYUNLU].

لقـد أنجبت العائلة المـالكة الأيـوبيّة رجـالاً عـظامـاً ولكنّ المنازعات الداخلية قضت عليها.. لقد عاشت أقلّ من قرن في مصر وسوريّة ولكنّها لعبت دوراً بالغ الأهميّة في علاقات الشرق المسلم مع الغرب المسيحي وكـذلك في الميـادين الاقتصاديّـة والفكريّة والفنيّة وعرفت القاهرة ودمشق في عهدهم تفتّحاً وازدهاراً تشهد عليهما آثار خالدة دينيّة ومدنيّة وعسكريّة.

بعد معركة عين جالوت الخالدة فتحت صفحة تاريخيّة جديدة كما فتح عصر جديد. فالأتراك القادمون من آسية حملوا للإسلام قوّة وبأساً جديدين ولم يكن المؤرّخون المحدثون مخطئين عندما سمّوا العصر إيّاه عصر دولة الترك.



خاتمة

لقد حاولنا، في النصّ، أن نتحاشى، قدر الإمكان، استعمال العبارات الغربيّة لأنّها؛ كما لاحظ المؤرّخ البريطاني «برنارد ليويس» ، «عبارات قائمة على أساس مقولات وتحاليل فكريّة غربيّة وتتفرّع، في معظمها، عن تاريخ الغرب. . وإنّ تطبيق هذه العبارات على مجتمع متكوّن تحت مؤشرات أخرى وله مذهب حياتي آخر لا يمكن أن يكون أكثر من تشبيهخادع» ـ إنّه تعميم لا معنى له فبرغم ظواهر التشابه ليست المجتمعات مماثلة بعضها لبعض والتطابق الكامل بينها مستحيل إطلاقاً ـ . وكذلك العبارات والكلمات مثل ديانة ـ دولة ـ طائفة ـ مملكة ـ يختلف معنى كلّ منها حسب أن تتعلّق أو تختصّ بأنظمة غربيّة خالصة أو بأنظمة عَرَبيّة ـ إسلاميّة. . وحتّى نفهم الناس والأنظمة في الشرق العربي يجب أن لا تغيب عن ناظرنا إطلاقاً القرائن والسياق الإسلاميّة الّتي كثيراً ما تبدو كموشور قائم له عدّة أوجه.

ملاحظة تطرح نفسها في موضوع التعبير «القرن الوسيط» المستعمل بمعناه الأوروبي في تقسيم التاريخ الغربي إلى دورات وحقب ولكنّه لا يعني الكثير بالنسبة للشرق. . وفي الواقع إنّ الدورة الزّمنيّة أو الحقبة الّتي وضعها الأوروبيّون بين العصور القديمة والعصر الحديث تقوم على خلاف ما تقوم عليه كتابة التاريخ الإسلاميّة التي

يتميَّز فيها تأريخ حقبة ما قبل الإسلام ثمَّ حقبة الوحي والخلفاء الرَّاشدين الأربعة يتبع ذلك مدَّة دولة بني أميّة التي تبعتها الخلافة العبَّاسيَّة والحقبة التركيَّة السلجوقيَّة وتدمير بغداد على يد هولاكو المغولي ودولة المماليك والامبراطوريَّة العثمانيَّة وأخيراً نهضة العرب الجديدة التي، انطلاقاً من منتصف القرن العشرين، اتَّجهت نحو التغيير الإشتراكي.

ماذا كان يمثِّل الإسلام بنظر غربيِّي القرن الوسيط الأوروبي؟ - إحدى مشاكل التاريخ المختصّ بالقرون الوسطى كانت مشكلة تقارب أنظمة وفكر متناقضة، متنافية وتَعَارُض أنظمةٍ سياسيَّة إلى أقصى حالات الإختلاف.

وحتَّى وجود الإسلام كان واحدة من أهمِّ المشاكل بالنسبة للمسيحيَّة في القرون الوسطى.. فمن وجهة النظر اللَّاهوتيَّة استدعى الإسلام الإجابة على سرِّ وجوده: - ما هو الدور الصادر عن العناية الإلٓهيَّة للإسلام في التاريخ؟ - هل كان الآية على نهاية العالم أم هو انحراف وزيغان في المسار النَّامي للمسيحيَّة؟ - ولأنّه وُلد في إقليم وُلد وعاش فيه معظم أنبياء دين التَّوحيد هل كان الإسلام هرطقة.. أم حركة شقاق انفصاليَّة.. أم نظام فكري أصيل.. أم ديانة جديدة؟

كلُّ هذه الأسئلة.. والتساؤلات.. كان يطرحها علماء ورجال أعمال أصحاب علاقات مباشرة أو غير مباشرة مع الإسلام.. أمَّا لدى المؤمنين المسلمين فقد كان الدين الجديد، منذ البدء، وحياً تنزَّل من السَّماء بواسطة جبريل رئيس الملائكة تلقَّاه محمد رسول الله وبلَّغه المؤمنين في كتاب غير مخلوق هو «القرآن».

بين العالم «اللَّاتيني» الذي يستقطب البلدان المطبوعة بـ «الثقافة الرومانيَّة» الواقعة بين البحر الأبيض المتوسِّط وبين بحر الشمال.. بينه وبين العالم الإسلامي الذي يشكِّل الأطراف الجنوبيَّة للبحر الأبيض المتوسِّط والجزء الأكبر من آسية المتقدِّمة (الوجه الآسيوي) وآسية الوسطى.. هو أنَّ الإختلاف يتكوَّن من بطء نموِّ الغرب ونضج الشرق

المبكِّر (السابق لأوانه).- عندما تمزَّق العالم القديم إرباً ورث الإسلام علم وفلسفة اليونان المنتقلين إليه عن طريق رهبان السِّريان. . في حين سقط الغرب في أيدي الهمج المتوحشين (Les Barbares).

هذا الغرب الهمجي المتوحِّش احتاج إلى وقت طويل حتَّى قبل بوجود الإسلام؛ ومعرفة الغرب للإسلام مرَّت في حقبتين متميِّزتين: قبل، وبعد الحملة الصليبيّة الأولى. . ففي الحقبة الأولى نلحظ جهل أوروبة الكامل للإسلام كدين أو كمنطلق فكري. . ونادرون هم الّذين، في أوروبة، يعرفون إسم محمد. . ولدى عامَّة الناس (الجمهور) كان المسلم عدوّاً نقاتله على عدَّة جبهات وكثيراً ما نخلط بينه وبين النورمندي والسُّلافي والماجياري (MAGYAR).-ومع وصول جيوش المسلمين إلى شبه الجزيرة الإيبيريَّة (اسبانية والبرتغال) انتشرت في أوروبة مقولة وجود [الإسماعيليِّين SARRASIN] (نسبة إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل) هكذا سُمِّي العرب في القرون الوسطى الأوروبيّة وبخاصَّة الّذين - من العرب فتحوا افريقية الشماليَّةوأوروبة.- بين عام /٧٠٠ و ١١٠٠/ حاولوا ربط أصول هؤلاء «الإسماعيليّين» بتاريخ «العهد العتيق». .- «باد المحترم» الراهب الإنكليزي، الذي كان في الغرب، في القرن /الثاني/ الثامن/ هو المختصّ الأكبر بالتوراة وبقي حتَّى القرن /السابع/ الثاني عشر/ صاحب القول الفصل والسلطة المطلقة في المادَّة إيَّاها؛ لم يكن يرى في المسلمين سوى «جاحدين كفَّاراً» لا أكثر ولا أقلّ وحشيّة من سواهم. . ولمَّا أوَّل «باد» «التكوين» وفسّره ردّ الإسماعيليّين إلى «إسماعيل» وهذا يتطابق مع التقليد الإسلامي الذي جعل من إسماعيل جدّ قبائل الشمال في شبه الجزيرة العربيّة. . لم يكن الرَّاهب الإنكليزي يكنُّ العداوة للإسماعيليِّين ولا يستشعر وجودها عندهم فقد كتب مؤلَّفه قبل موته بثلاثة أعوام وبالتحدد في زمن تقدّم الزحف العربي حتَّى «بواتييه» عام /٧٣٢/١١٤/ وكان ذلك، في الحقيقة، من قبيل ردّ الفعل جرى تضخيمه مع الزمن وصار حقلاً لدراسات متتابعة مثل تلك التي وضعها «جورج دوبي» حول «أحد

بوفين» (إحدى مديريات شمال فرنسة هزم فيها فيليب أوغست مدعوماً من ميليشيات محليَّة الامبراطور أوتون الرابع وحلفاءه كونت دي فلاندر ـ كونت دي بولونيي ـ ملك انكلترة وذلك في ٢٧ تموز ١٢١٤).

في اسبانية (الأندلس في النصوص العربيَّة) كان الوضع يختلف عنه في باقي أقطار أوروبة بفعل احتلال المسلمين لمعظم أراضي شبه الجزيرة بعد عام /٧١١/ وأصبحت البلاد على اتصال يومي مباشر مع المسلمين. وكثيرون كانوا الَّذين بحثوا في الرُّؤى التوراتيَّة عن آيات تفسِّر نجاحات الإسلام وانتفت حتَّى الحاجة للعنف والتعصُّب والعداوة الحقيقية أي الظواهر التي برزت في حقبتين: - بداية القرن /الرابع/ العاشر/ والقرن /التاسع/ الخامس عشر/ أي آخر القرون الوسطى حسب التأريخ الأوروبي.

قبل الحملات الصليبيَّة، كان الغرب يكنّ الكراهية للإسلام ليس لأنّه يرى فيه خطراً، وإنَّما لأنَّ مدى هذا الخطر إيَّاه.. هذا التهديد.. كان يصعب إدراك عواقبه.. كان الغرب عاجزاً عن فهم عوامل ظهور الإسلام لأنَّه كان يجهل تماماً طبيعة العوامل إيَّاها.. لقد تشرَّب الغرب حتَّى أعماقه الطابع الكلاسيكي للعصور العتيقة ولم يكن من السهل انسلاخه عن التراث إيَّاه حتَّى يفهم فكراً جديداً غريباً عليه وعنه هو الذي تداخلت في ذهنه وعقله الديانات التوحيديَّة الإبراهيميَّة الثلاث: اليهوديَّة ـ المسيحيَّة ـ الإسلام. ـ وكان الغربيُّون يعتبرون هذا الدين الأخير قد قال بوحدانيَّة الإله جاهلين اتجاهاته ومقاصده المختلفة: فهو ديانة دون اكليروس ودون أسرار مقدَّسة ولكنَّ نقطتين فيه تثيران مشكلة: ـ الإيمان بإله واحد قادر على كلِّ شيء خالق السماوات والأرض واختلاف الوسائل التي اختارها الله لينزل كلامه على البشر؛ فهؤلاء يرون أنَّ الوحي جاء به المسيح؛ في حين أنَّ أولئك يقولون أنَّ القرآن هو الوحي (كلام الله المنزل، غير المخلوق، الَّذي أملي على النبيِّ محمد).. وثمَّة اختلاف آخر حول طبيعة النبي فالإسلام يعترف أنَّ عيسى يسوع إبن

مريم واحد من أنبياء الله دون التسليم بطبيعته الإلّهية ومسألة التجسُّد. . وأنكروا القيامة والثالوث الأقدس واتّهموا المسيحيِّين بالشِّرك .والمسيحيَّة، من جانبها، ترفض الإعتراف بمحمَّد سليل ذريَّة اسماعيل ابن إبراهيم رسول الله وخاتم النبيِّين. .-في القرن الحادي عشر، كلّ ما كانوا يعرفونه عن محمد أنَّه في الأصل كان فقيراً ويتيماً ويحكون أنَّه التحق بطبقة التجَّار عن طريق زواجه بخديجة وثمَّة ترجمة سيِّئة للعادات والأعراف تسبَّبت بانتقادات شتّى ضدّ زواجه المتعدِّد المتتابع. . انتقادات من قبل الغربيِّين الّـذين يرون الزواج بامرأة واحدة زواجاً لا ينحلّ ولا ينفكّ. . والمنتقدون المهاجمون ينسون أو يتجاهلون أنّ الزواج المتعدِّد في الإسلام يتقاضى صاحبه واجبات محدَّدة ويفرض عليه العدل في المعاملة. . وأنَّ أعراف الغرب أباحت العشيقات دون ضوابط ولا حدود!

وتلتقي المسيحية مع الإسلام في عدَّة نقاط مشتركة تجاوزت «الوصايا العشر» هي خلود الروح ووجود حياة أخرى مستقبليَّة والتزام الأعمال الصالحة كشرط لدخول الجنَّة. . وقد واجه الناس ديناً أدان اليهود والمسيحيّة بعدم المحافظة على نقاء وكمال الوحي المنزل على موسى وعيسى ويريد العودة الى نقاءة دين إبراهيم. . دين صدَّق وثبَّت التوراة والإنجيل ولكنَّه أكَّد إيمانه بالقرآن فقط وهو الكتاب المقدَّس الَّذي لم يفهمه الغربيُّون بشكل مباشر ولم يتعرفوا عليه.

والَّذي أقلق رجال الغرب هو قوَّة نفوذ الإسلام وإشعاعه فلو كان ديناً سيِّئاً لكان الإنحطاط على ذلك دليلاً. . وهذا ما لم يحصل بل إنَّ المذهب الفكري الإسلامي لقي قبول ومشايعة رجال كانوا موضع إعجاب غرب القرون الوسطى مثل «الفارابي» (٩٥٠) و «ابن سينا» (١٠٣٧) الحلقتين في سلسلة تحوُّل الفكر اليوناني.- فلا يمكن التَّصوُّر، إذن، أنَّ علماء من هذا المستوى والهمَّة أنجبهم الإسلام كانوا أناساً عاديِّين في العوام. .

ولا بدّ من الإعتراف أنَّ الإسلام، عند ظهور الترك السلاجقة أي خلال أربعة قرون، استطاع أن يقطع طريقاً احتاج الغرب إلى زمن أطول كثيراً لقطع مثله.. والعالم الإسلامي حقق من القرن /٩/٣/ الى /١١/٥/ منجزات فلسفيّة وعلميَّة لم تستطع المسيحيَّة إنجاز مثلها في نفس الحقبة.. لقد تفتَّح الفكر الإسلامي بفضل أعمال المترجمين في بلاط بغداد.. ترجمات سمحت للمؤثرات اليونانيَّة والإيرانيَّة والهنديَّة أن تلعب، عن طريق الرهبان النساطرة، دور الخميرة الفاعلة في نموّ الفكر الإسلامي. والمحافظة في أوساط السنَّة وحدها قامت بحركة انعكاسيَّة لدفع التيَّارات الفلسفيَّة غير المتطابقة مع منطلقات السنَّة.

هذه الإعتبارات المختلفة والمعقَّدة تفسِّر ردّ الفعل المربك والمشوِّش لدى غرب القرون الوسطى تجاه الإسلام.

وكانت هناك، أيضاً، إختلافات بنيويَّة: - المسيحيّة الغربيّة والإسلام الشرقيّ كانا يمثِّلان ليس فقط مذهبين دينيَّين مختلفين بل كانا أيضاً، التعبير عن مجتمعين غير متشابهين من عدَّة وجوه: مجتمع زراعي، إقطاعي، رهباني، طبع الغرب بطابعه في زمن ارتكزت فيه قوّة الإسلام على المدن الكبرى والأسواق الواسعة الغنيَّة، ونظام طرق المواصلات الطويلة البريَّة والبحريَّة والنهريَّة.. المجتمع الأوَّل ينغلق على ذاته والثاني كان ينفتح على العالم بل كان يفتحه ويغزوه.. مثاليَّة الغرب، آنئذٍ، كانت تبتّليَّة، درجيَّة، كهنوتيَّة، تمخضت عن ميلاد نظم الفروسيَّة ومنظَّماتها المعروفة.. ولحسن حظ الغرب آنذاك أنَّه اقتبس من آداب العرب ما كان مصدر انفتاح وصقل لثقافة الغرب.. لقد قدَّم الإسلام فكراً علمانيّاً ومبادىء عدالة ومساواة وكان، آنئذ، يتمتَّع بحرِّية فكر واسعة، بمنأى عن الكهنة والإكليروس والرهبانيَّة أي الثلاثة عناصر التي تمخّض بها عقل الغرب واعتبرها جوهريَّة للتوازن الإجتماعي. ولا بدّ من الإشارة أننَّا شهدنا في الشَّرق، في القرن /السادس/ الثاني

عشر/ رجعة فكريَّة واضحة المعالم كانت وليدة التزمُّت والحرص المفرط. . ورأينا رجال الدِّين يلعبون دوراً رئيساً في الدولة وكثر عدد الأديرة في «دار السلام». إحدى مميِّزات القرن /السادس/ الثاني عشر/ سواء في الغرب أم في الشرق، أنَّه كان عصر الخاصَّة الروحانيَّة في حياة الناس: ثمَّة أزمة أخلاقيَّة كانت موجودة استدعت رغبة الإنسان في تطهير داخله. . ومن هناك تولَّدت الدعوة إلى حياة التصوُّف كما يلحظ «لويس ماسينيون». ففي الغرب قامت الكاتدرائيَّات وشيِّدت الأديرة الكلونيزيّة (نسبة إلى حركة غليوم التقي دوق أكيتان الرهبانيَّة الإصلاحيّة القائمة على التأهيل المهني والفني إضافة إلى المنهاج التربوي الفكري والروحي وقد لاقت انتشاراً واسعاً في اوروبة في القرنين الحادي عشروالثاني عشر).- والسيسترنيزيَّة (حركة رهبانيَّة إصلاحيَّة قادها سان ـ بينوا، وسان ـ برنارد ـ ١١١٣). . أمَّا في الشرق فقد تضاعف عدد المساجد ومدارس المذاهب الأربعة ولحظ تقدم العلوم الصوفيَّة وكثرت فرق الصوفيِّين ومقرَّاتهم المبنيّة في المدن وخارج المدن.

إنَّ نموَّ المجتمعين القائمين على مبادىء متضادَّة لم يسر على نسق واحد فالغرب اللاَّتيني الذي مرَّ بحقبة طويلة من الركود والإستنقاع النسبيِّين حتَّى بلغ القرن الخامس عشر، امتلك تجدُّداً ورقيّاً إجتماعيِّين وإقتصاديِّين طبعاه بطابعهما إلى عدَّة قرون. . أمَّا الإسلام فقد بلغ إكتمال القوَّة والنضج في القرن /الثالث/ التاسع/ والقرن /الرابع/ العاشر/ ثمَّ بدأ تقدُّمه يتباطأ وعرف فعلاً حقباً مجيدة مشرقة في القرون التالية دون أن يستعيد إطلاقاً خصب بداياته.

ومن أجل حكم أكثر عدلاً على كلٍّ من العالمين، نقارن بين فكرين تزامنا:ـ جيربرت المولود عام /٩٤٠/ في «أوفرنيي» وأصبح «بابا» ومات عام /١٠٠٣/ تحت إسم «سيلفستر الثاني».

و «ابن سينا» المولود عام /٩٨٠/ في «ما وراء النهر» ومات عام /١٠٣٧/ -لقد شغل الرجلان مناصب عالية جدّاً وامتلك كلٌ منهما فكراً اهتمَّ بكلِّ شيء فصارا كائنين مشهورين تفوَّقا إلى درجة بعيدة على معاصريهما وهنا تبلغ وجوه الشبه حدَّها: -البلاط الملكي الذي عرف جيربرت كان بلاط «هوغ كابِّيه» ثمَّ بلاط «اوتون الثالث».. والمدارس التي تدرَّج فيها كانت أديرة وكاتدرائيَّات صغيرة وغير مجهَّزة بالمؤلَّفات والمراجع.. فمن اليونان لم يعرف سوى علماء أزمنة روما المتأخِّرة وما استطاعوا نقله عن السَّلف مثل المدخل إلى المنطق لأرسطو (بورفير - آخر القرن الثالث) وترجمات وملخَّصات ومؤلَّفات «بويس - BOÈCE» (فيلسوف وشاعر وموسيقي ورجل دولة لاتيني ولد في روما (/٤٨٠/-٥٤٤/) التي جمعها وصنَّفها جيربرت.. وبهذا الزاد القليل تمخَّض عقله بنمط لنظام كوني أي جهد ضخم يقابله موسم ضحل.. وجيربرت لو وُلد في بخارى بدل أورياك ودرس في بغداد أو أصفهان بدل رينس لكان وجد وسطاً أكثر ملاءمة لطبيعته ووجد في متناول يده جميع المصادر والمؤلَّفات التي يتمنَّى الإطِّلاع عليها.. - ابن سينا ولد قرب بخاري قبل ميلاد جيربرت بأربعين عاماً تقريباً وعاش في البلاط السمّني ثمّ انتقل الى أصفهان ومات في همذان عام /٤٢٨/١٠٣٧/.

فالتضادّ، أو التناقض على الأقلّ، كبير بين الراهب، البابا، رجل السياسة الذي خانته الوسائل اللاّزمة لتحقيق مشاريعه وبين ابن سينا القاضي، الطبيب، رجل السياسة، الفيلسوف، رجل البلاط، ورجل العمل الذي عاش عصره.. - في /١٦/ عاماً من عمره كان ابن سينا يعرف «مدخل بورفير - تلميذ أفلاطون» الذي قرأه جيربرت ولكن ابن سينا عرف إضافة إلى ذلك علوم الهندسة لإقليدوس وعلم الفلك لبطليموس وعرف مجمل مراجع علم الطب اليونانيَّة، وعلم الحساب الهندي، والفقه الإسلامي، فكان موسوعة فكريَّة طابعها علوم حكماء اليونان القدماء.. وعن طريقه عرفنا ما كانت تحتويه

مكتبة أمير بخارى: ـ لم يملك الغرب قط مكتبة مماثلة لها قبل نهاية القرون الوسطى. إنَّ فقدان الإتِّصالات والوثائق كان عقبة كبرى في وجه جيربرت المحدود الأفق لأنَّه لم يتنقَّل ولم يسافر قط. ومؤلَّفاته نُسيت سريعاً في الغرب وبقيت مجهولة في الشرق في حين أنَّ مؤلَّفات ابن سينا لعبت دوراً كبيراً في العالم لأنَّها كانت أداة تفاهم أفضل بين الإسلام والمسيحيَّة.

الصورة التي امتلكها الغرب عن الشرق بعد ألف عام تقريباً من ميلاد المسيح وجد عناصرها ونصوصها عن طريق الحُجَّاج الَّذين كانوا يصلون دون انقطاع إلى الأراضي المقدسة من القرن الرابع إلى الحادي عشر لينعموا فيها ـ حسب نصيحة القدِّيس جيروم بالإتِّصال المباشر بالأماكن التي فيها تحقَّق سرّ فداء البشر على يد المخلِّص وهذا يقتصر فقط على الأماكن الَّتي فيها عاش أو مات أشخاص يُوصى باحترامهم.. سيل الحجَّاج لم ينقطع بل خفَّ قليلاً فترة ما بعد الفتح الإسلامي ومنذ عام /٦٧٠/ أي منذ الزيارة التي قام بها المطران الغالي «أركولف دي بيريغوز» وحتَّى القرن العاشر بلغت وفود الحجَّاج أعلى أرقامها.. حجَّاج المسيحيَّة الى القدس والإسلام إلى مكَّة ويقود الحجّ دائماً أمير يملك صلاحيَّات فرض نظام معيَّن للعمليَّة.. ولكلٍّ من الحجَّين طقوسه المحدَّدة وأماكن تجمُّعه المعيَّنة والمسلم العائد ينال لقب «الحاجّ» بينما ينال المسيحي لقب «حامل سَعَف الفوز والظفر» لأنَّ سَعَف النَّخل كان رمزاً لهذا ولأنَّ الحجَّاج كانوا يعودون بالسَّعف (غصون النخل.. أوراقه) من الديار المقدَّسة.

في القرن الحادي عشر أصبح أمن الحجَّاج غير مضمون في الديار المقدَّسة كلَّما استؤنفت الحروب والمعارك. وظهر آنئذ ما سمَّاه «آلفانديري» «التعليم اللاهوتي للعمل المسلَّح» فتقبَّل فكر الغرب الديني «حقّ القتل» باعتباره السبيل الى إحدى حرِّيات السعادة والخلاص الأبديَّين. ـ في الشرق تحوَّل إعلان الجهاد إلى

إعلان «الحرب العادلة» والدعوة له لم تجد أحياناً صداها المطلوب بسبب تمزُّق الشرق في حروب ومشاحنات العائلات المالكة دون أن تكون للمشاحنات إيّاها أهداف كبيرة وهذا هو المناخ الذي عرف الغرب كيف يختاره في دعوته للحروب الصليبيّة.

الهدف الظاهر لدعوة البابا «أوريان الثاني» واعتماده قنصل كليرمونت فيها كان نجدة مسيحيِّي الشرق أي لم تكن واردة مسألة الأراضي المقدّسة والقدس وقد أعتبر المسيحيّون أن ثلث أفضل أقاليمهم قد اغتصب منهم على اعتبار انّ كلّ أرض سيطرت عليها سلطة مسيحيّة قبلاً وأخذها المسلمون هي من حقّ الكنيسة ويجب استرجاعها . . - في حين كان المسلمون يعتبرون العالم كلّه ملكاً للإسلام وكلّ أرض تحتلّها سلطة مسيحيّة يجب تحريرها.

إنَّ زحف مسيحيِّي الغرب ضد الإسلام في القرن /الخامس/ الحادي عشر/ أقام علاقات جديدة فالإتّصال أصبح مباشراً بين الفرنجة والمسلمين طوال قرنين إثنين وعبارة «إفرنجي» في نظر المسلمين تنطبق على سكان القارة الأوروبيَّة والجزر البريطانيّة وبخاصَّة الصليبيِّين دون تمييز بين قوميّاتهم ثمَّ أصبحت تطلق على الكاثوليك مذهباً كما لحظ ذلك «برنارد ليفيس» وزمن العمليّات العسكريّة والإقتصاديّة المعروف في الغرب باسم العمليّات الصليبيّة أصبح التعارف المتبادل أحسن مما سمح بقيام فترات هدنة طويلة وبنمو التجارة الأوروبيّة - العربيّة التي لم تعرف الضعف أو الزوال إلّا في نهاية القرن الخامس عشر أي في فجر ما يدعى «العصر الحديث».

جدول المصادر المنتقاة

ملاحظة من المترجم:

لقد رأينا من الأفضل تصوير هذا الجدول وتثبيته هنا تماماً كما ورد في الأصل لأنّ معظم المؤلّفات والمراجع بلغات غير العربية أو أشير إليها بأحرف ورموز.. وهكذا يسهل أكثر على من يرغب الرجوع اليها أن يجد أمامه أسماءها وعناوينها الأصليّة:

BIBLIOGRAPHIE SÉLECTIVE

Il sera facile de compléter cette bibliographie sélective au moyen des bibliographies signalées dans certains des ouvrages cités.

Pour la plupart des personnages historiques et des noms de lieux ainsi que pour bien des termes techniques les bibliographies qui figurent à la fin des notices de l'*Encyclopédie de l'Islâm* fourniront de précieuses indications.

1. OUVRAGES DE RÉFÉRENCES BIBLIOGRAPHIQUES

O *Encyclopédie de l'Islâm, dictionnaire géographique, ethnographique et biographique des peuples musulmans*, 4 vol. + 1 suppl., Leyde, Brill, 1913-1943 ; nouvelle édition en cours depuis 1960 : T. I, A-B, 1 399 p ; T. II, C-G, 1 173 p. ; T. III, H-Iram, 1 303 p. ; T. IV, Irân-Kemâl, Pasha-Zâde, pp. 1-912 (livr. 61-74).

O SAUVAGET (J.), *Introduction à l'histoire de l'Orient musulman. Eléments de bibliographie*, 1re édition, Paris, A. Maisonneuve, 1943, 202 pages ; Addenda, 1947, 2e édition refondue et complétée par Cl. Cahen, 1961, 267 p. Edition américaine sous le titre *Jean Sauvaget's Introduction to the History of the Muslim East, a bibliographical guide*, based on the second edition as recast by Claude Cahen, Univ. of California Press, 1965, 252 p. Ouvrage de base pour l'orientation bibliographique.

O MAYER (H.E.), *Bibliographie zur Geschichte der Kreuzzuge*, Hanovre 1960, XXXII + 271 p., Complément dans *Historische Zeitschrift*, année 1969, Sonderheft 3, pp. 641-731. Bibliographie s'arrêtant en 1967.

O CRESWELL (K.A.C.), *A Bibliography of the Architecture, Arts and Crafts of Islâm to 1st Jan, 1960*, American University at Cairo Press, 1961, XXIV + 1330 col. + XXV p.

O CRESWELL (K.A.C.), *Supplément* au précédent, *Jan. 1960 to Jan. 1972*, Le Caire, 1973, in folio, XIII p. + 366 col. + IX p. Nombreuses notices et références à des comptes rendus.

O ATIYA (A.S.), *The Crusade, Historiography and Bibliography*, Londres, O.U.P., 1962, in 8e, 170 p.

O PEARSON (J.D.), *Index Islamicus 1906-1955*. A catalogue of articles on Islamic subjects in periodicals and other collective publications, XXXVI + 897 p., Cambridge, Heffer, 1958.
First supplement, 1956-1960, XXVIII + 316 p., Cambridge, 1962.
Second supplement, 1961-1965, XXX + 342 p., Cambridge, 1967.
Third supplement, 1966-1970, XXXVI + 384 p., Londres, Mansell, 1972.
Fourth supplement, 1971-1975, Londres, Mansell, 1976 (Part I), 1971-1972, XVI + 109 p., 1972 ; (Part II), 1972-1973, XVI + 92 p., 1973 ; (Part III), 1973-1974, XVI + 128 p., 1975 ; (Part IV), 1974-1975, XVI + 109 p. ; (Part V), 1975, XV + 143 p.

2. CADRE GÉOGRAPHIQUE

a) Atlas

O HAZARD (H.W.), *Atlas of Islamic History*, 3rd edition, Princeton, 1954.

O ROOLVINK (R.), *Historical Atlas of the Muslim Peoples*, Amsterdam, 1957, 40 pl. Précieux pour l'histoire médiévale.

b) Ouvrages généraux

O BIROT (P.) et DRESCH (J.), *La Méditerranée et le Moyen-Orient*, T. II : La Méditerranée Orientale et le Moyen-Orient, Paris, P.U.F., coll. Orbis, 1955, 562 p.

BIBLIOGRAPHIE

○ Planhol (Xavier de), *Les Fondements géographiques de l'histoire musulmane*, Paris, Flammarion, 1968, 443 p. 30) pl., 12 cartes. Bibliographie, pp. 369-405.

3. HISTOIRE GÉNÉRALE

○ Hitti (P.K.), *History of the Arabs*, 6e édit., Londres, 1956, 822 p., 21 cartes. Traduction française de M. Planiol, *Précis d'Histoire des Arabes*, Paris, Payot, 1950, 209 p.

○ Perroy (E.), *Le Moyen Age*, Paris, P.U.F., T. III, coll. Histoire générale des Civilisations, 1955, 4e édit., 1965, cf. chapitres d'histoire musulmane par Cl. Cahen.

○ Lewis (B.), *Les Arabes dans l'Histoire* (traduit de l'anglais), Neuchâtel, La Baconnière, 1958, 190 p., seconde édition anglaise, 1968. Ouvrage classique.

○ *Histoire Universelle*, Paris, Gallimard, Encyclopédie de la Pléiade, 3 vol., cartes ; T. I, 1956 : Des origines à l'Islâm ; T. 2 : 1957, De l'Islâm à la Réforme ; T. 3 : 1958, De la Réforme à nos jours.

○ Mantran (R.), *L'Expansion musulmane (VIIe-XIe s.)*, Paris, P.U.F., coll. Nouvelle Clio, 1969, 334 p., 5 cartes, abondante bibliographie en langues européennes.

○ *Histoire du Développement Culturel et Scientifique de l'Humanité* (sous auspices de l'U.N.E.S.C.O.), T. III : *les Grandes Civilisations du Moyen Age* par Vadime Elisseeff, Jean Naudou, Gaston Wiet et Philippe Wolff, 800 p., 27 cartes, nomb. illustr. Paris, R. Laffont, 1969. L'ouvrage traite des grands ensembles de civilisations de 400 à 1300. Manque un index, mais bibliographie utile.

○ Cahen (Cl.), *L'Islâm des origines au début de l'Empire ottoman*, T. 14, Paris, Bordas, coll. Histoire universelle, 1970, 280 p., cartes et illustrations, très résumé.

○ P.M. Holt, Ann K.S. Lambton and B. Lewis, *The Cambridge History of Islâm*, 2 volumes, Cambridge Univ. Press, 1970, vol. 1, *The Central Islamic Lands*, XVIII + 815 p., cartes, bibliographie, pp. 737-750.

○ Sourdel (D.), *Histoire des Arabes*, Paris, P.U.F., coll. Que sais-je ?, 1976, 128 p.

4. GÉNÉRALITÉS SUR L'ISLAM

○ Massé (H.), *L'Islâm*, Paris, A. Colin, 1945, 2e édition, 224 p. Surtout historique.

○ Grünebaum (G. von), *Medieval Islam : a Study in Cultural Orientation*, 1re édit., 1946, 2e édit. Chicago, 1953, VII + 378 p. Traduction française *L'Islâm médiéval*, Paris, Payot, 1962, 383 p.

○ Sourdel (D.), *L'Islâm*, Paris, P.U.F., coll. Que sais-je ?, 1949, 128 p., très cursif.

○ Pareja (F.M.). *Islamologie*, Beyrouth, 1957-1963, 1148 p., cartes. Bibliographie pour chaque chapitre. Introduction brève, mais complète, à la connaissance et à l'étude de l'Islâm sous tous ses aspects.

○ Gabrieli (F.), *Les Arabes* (trad. fr. de *Gli Arabi*, Florence, 1957), Paris, Buchet Chastel, 1963, 245 p.

○ Gardet (L.), *L'Islâm, religion et communauté*, Paris, Desclée de Brouwer, 1967, 406 p.

○ Sourdel (D. et J.), *La civilisation de l'Islâm classique*, Paris, Arthaud, coll. Les Grandes Civilisations, 1968, 676 p., VIII pl. en couleurs, 224 ill., 4 cartes h.t., nombr. fig., plans, cartes.

○ Miquel (A.), *L'Islâm et sa civilisation (VIIe-XXe siècles)*, Paris, A. Colin, coll. Destins du Monde, 1968, 572 p., 25 cartes, 40 pl., 95 fig. Beaucoup d'idées, ouvrage vivant.

○ Lombard (Maurice), *L'Islâm dans sa première grandeur (VIIIe-XIe siècles)*, Paris, Flammarion, 1971, 245 p., 30 cartes et schémas, tableau synoptique. Ouvrage posthume, donne une analyse « économique » de l'histoire de l'Islâm.

○ Schacht (J.) et Bosworth (C.E.), *The Legacy of Islam*, second edition, XIV + 530 p., 63

illustr., Oxford Clarendon Press, 1974. Edition complètement refondue, ne subsiste aucun auteur de la première édition, le libellé même des chapitres est différent.

O HODGSON (Marshall G.S.), *The Venture of Islam, Conscience and History in a World Civilization*, 3 vol. Chicago U.C.P., 1974.

Vol. I, *The Classical Age of Islam*, XII + 532 p. + 8 cartes, glossaire, bibliographie pp. 497-512. Analyse la civilisation islamique des origines à 945.

Vol. 2, *The Expansion of Islam in the Middle Periods*, VII + 609 p., 18 cartes, glossaire, bibliographie complétant celle du vol. 1 pp. 575-579. Dans ce volume sont traitées l'époque de 950 à 1250 et celle de 1250 à 1500.

Vol. 3, *The Gunpowder Empire and Modern Times*, VI + 469 p., 7 cartes. Bibliographie. Ce volume concerne les périodes moderne et contemporaine. Ouvrage magistral ouvrant des perspectives nouvelles pour l'étude du monde musulman.

Pour la chronologie voir :

O CATTENOZ (M.G.), *Tables de Concordance des ères chrétienne et hégirienne*, 2e édit., Rabat, 1954, 368 p. D'usage commode.

Pour les généalogies voir :

O ZAMBAUR (E. de), *Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islâm*, Hanovre, 1927, rééd., 1955. Ouvrage important.

O BOSWORTH (C.E.), *The Islamic Dynasties. A chronogical and genealogical handbook*, XVIII + 245 p. Edinburgh Univ. Press, coll. Islamic Survey n° 5, 1967. Notices plus riches que dans le précédent ouvrage. Pas de tableaux généalogiques. Traduct. russe par P.A. Gryaznevitch, avec bibliographie et notes plus développées, 324 p., Moscou, 1971.

5. L'ARABIE AVANT MAHOMET

O LAMMENS (H.), *Le Berceau de l'Islâm*, Rome, 1914.

O DUSSAUD (R.), *La pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islâm*, Paris, Geuthner, 1955, 235 p., fig., cartes.

O GABRIELI (Fr.), *L'Antica Società beduina*, Studi semitici 2, Rome 1959, 155 p. Ouvrage collectif (7 contributions dont 3 en français).

6. MAHOMET

O BLACHÈRE (R.), *Le Problème de Mahomet, essai de biographie du fondateur de l'Islâm*, Paris, P.U.F., 1952, VIII + 132 p. Important.

O GAUDEFROY-DEMOMBYNES (M.), *Mahomet*, Paris, Albin Michel, coll. Evolution de l'Humanité, 1957, 708 p. Rééd. Livre de poche, 1969, 698 p. Bibliographie à jour. Exposé très documenté, dépasse la personnalité de Mahomet dont il analyse le message.

O GABRIELI (F.), *Mahomet et les grandes conquêtes arabes*, Paris, Hachette, coll. L'Univers des connaissances, 1967, 255 p.

O RODINSON (M.), *Mahomet*, Paris, Club Français du Livre, 1961. Nouvelle édition, revue et augmentée, Seuil, coll. Politique, 1968, 383 p. Exposé original.

O WATT (Montgomery), *Muhammad, Prophet and Statesman*, Londres, 1961, trad. franç. par O. MAYOT, *Mahomet, Prophète et Homme d'État*, Paris, Petite Bibliothèque Payot, 1962, 215 p. Bon résumé.

7. LE CORAN

O BLACHÈRE (R.), *Le Coran*, traduction selon un essai de reclassement des sourates, Paris, G.P. Maisonneuve, 1947-1951, 3 vol., T. I, LIX + 273 p. ; T. II, XIII + 536 p. ; T. III, pp. 537-1240.

O BLACHÈRE (R.), *Le Coran*, n° 1245, P.U.F., coll. Que sais-je ?, 1966, 128 p. Excellente mise au point.

O MASSON (D.), *Le Coran et la révélation judéo-chrétienne. Etudes comparées*, 2 vol., Paris, Adrien-Maisonneuve, 1958, T. I, X + 448 p. ; T. II, p. 449 à p. 829. Bibliographie.

8. PENSÉE MUSULMANE

O GIBB (H.A.R.), *La Structure de la pensée religieuse de l'Islâm*, Paris, Larose (I.H.E.M., Notes et Documents, fasc. VII), 1950.

O GARDET (L.), *La cité musulmane, vie sociale et politique*, Paris, Vrin, 1954, 404 p., 2e édition, 1961, 424 p.

O ANDRAE (Tor), *Les Origines de l'Islâm et le Christianisme*, Paris, Maisonneuve, coll. Initiation à l'Islâm, 1955, 213 p.

O CORBIN (H.), *Histoire de la philosophie islamique*, T. I ; Des origines jusqu'à la mort d'Averroes (1198). Idées, Paris, Gallimard, 1964, 384 p. Eléments de bibliographie. Exposé original, renouvelle la question.

O LAOUST (H.), *Les Schismes dans l'Islâm (Introduction à une étude de la religion musulmane)*, Paris, Payot, 1965, 466 p. Excellent historique des différents mouvements spirituels musulmans.

9. DROIT MUSULMAN ET INSTITUTIONS

O MAWARDI (al-), *Les Statuts gouvernementaux ou règles de droit public et administratif (Ahkâm as-Sultâniyya)*, trad. E. Fagnan, Alger, 1915, XIII + 584 p.

O GAUDEFROY-DEMOMBYNES (M.), *Les Institutions musulmanes*, Paris, Flammarion, 1931, 3e édition, 1946, 221 p. Expose les principes de la Shar 'ia, évoque le culte et les rites.

O TYAN (E.), *Histoire de l'organisation judiciaire en Pays d'Islâm*, Annales de l'Université de Lyon, Paris-Beyrouth, 1938-1943, T. I, 527 p. ; T. II, 504 p. Ouvrage classique.

O LAOUST (H.), *Le Traité de droit public d'Ibn Taimiya*, P.I.F.D., Beyrouth, 1948, XLVIII + 224 p. Indispensable à l'historien du Moyen Age et du Monde contemporain.

O LAOUST (H.), *Le Précis de Droit d'Ibn Qudama*, P.I.F.D., Damas, 1950, LVIII + 342 p. Ouvrage de droit hanbalite de la fin du XIIe s., encore très « actuel ».

O SCHACHT (J.), *Esquisse d'une histoire du droit musulman* (I.H.E.M., Notes et documents XI), Paris, Besson, 1955, 91 p. Ouvrage indispensable, très clair.

O TYAN (E.), *Institutions du droit public musulman*, Paris, Sirey, 1954-1957, T. I, Le Califat, XIII + 545 p. ; T. II, Sultanat et Califat, 626 p. Manuel commode, exposé théorique.

O FATTAL (A.), *Le Statut des non-musulmans en pays d'Islâm*, Beyrouth, 1958, XVI + 394 p. La période étudiée va de 622 à 1517. Excellente étude, bibliographie.

O LAOUTS (H.), *La Profession de foi d'Ibn Batta*, Damas, 1958, CLII + 172 p. et 93 p. de texte arabe.

O SOURDEL (D.), *Le Vizirat 'Abbâside de 749 à 936*, I.F.D., Damas, 1959 1960, 2 vol. LXXVIII + 797 p. Importante bibliographie (334 titres).

O MAQDISI (G.), *Ibn 'Aqîl et la résurgence de l'Islâm traditionaliste au XIe s.*, Damas, 1963, XXXIV + 602 p. Très bonne étude sur les écoles sunnites et shî'ites à Baghdâd. Bibliographie.

O COULSON (N.J.), *A. History of Islamic Law*, coll. « Islamic Survey », Edinburgh University Press, 1964. Excellent ouvrage.

10. ÉCONOMIE ET SOCIÉTÉ

O PELLAT (Ch.), *Le Milieu basrien et la formation de Gâhiz*, Paris, A. Maisonneuve, 1953, XXXVI + 308 p. Bibliographie.

○ ATIYA (A.S.), *Crusade, Commerce and Culture*, O.U.P., Londres, 1962, 280 p., 3 cartes.

○ GOITEIN (S.D.), *A Mediterranean Society. The Jewish Communities of the Arab World as portrayed in the documents of Cairo Geniza*, University of California Press, 1967-1971, vol. 1, Economical foundations, XXXVI + 550 p. ; vol. 2, The Community, XVIII + 633 p. (Etudie la période de 950 à 1250.) Etude fondée sur les documents de la Geniza du Caire.

○ MIQUEL (André), *La Géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XIe siècle*, coll. « Civilisations et Sociétés », vol. 7 et 37, Mouton, Paris-La Haye, 1967-1975, T. I, L + 426 p., bibliographie ; T. II, XXVII + 705 p. Index pp. 541-689.

○ LOMBARD (Maurice), *Monnaie et Histoire d'Alexandre à Mahomet*. Mouton, Paris-La Haye, 1971, coll. « Civilisations et Sociétés », n° 26. En guise d'introduction donne une liste méthodique des sources orientales et occidentales relatives à l'histoire économique du Monde musulman (VIIIe-XIe siècle) et une bibliographie d'orientation.

11. CROISADES

○ CAHEN (Cl.), *La Syrie du Nord à l'époque des Croisades et la principauté franque d'Antioche*, Paris, Geuthner, 1940, VII + 768 p. Ouvrage classique.

○ SETTON (K.M.), édit. *A History of the Crusades*, vol. 1, BALDWIN (M.W.), *The first hundred years*, Philadelphia, 1955, XXV + 694 p., 14 cartes, vol. 2, HAZARD (H.W.), *The later crusades 1189-1311*, Philadelphia, 1962, XXII + 859 p., 23 cartes, vol. 3, HAZARD (H.W.), *The Fourteenth and Fifteenth Centuries*, Univ. of Wisconsin Press, 1975, XXI + 813 p., 21 cartes. Les chapitres sont rédigés par divers auteurs et parfois se chevauchent. Bibliographie en note au début de chaque chapitre, précieux index.

○ OLDENBOURG (Z.), *Les Croisades*, Gallimard, Paris, 1965, 652 p., 51 ill., 6 cartes, bibliographie sommaire. Bonne synthèse générale.

○ ELISSÉEFF (N.), *Nûr ad-Dîn, un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades (511-569 H/1118-1174)*, P.I.F.D., Damas, 1967, LXXVII + 1 076 p. en 3 tomes, 1 carte. Bibliographie, pp. XIX-LXXVII.

○ EHRENKREUTZ (A.S.), *Saladin*, State University of New York, 1972, 290 p. Bibliographie, pp. 263-273.

12. LANGUE ARABE

○ *Arabiya, in l'Encyclopédie de l'Islâm*, nouvelle édit., T. I, pp. 579-622.

○ BLACHÈRE (R.), *Éléments de l'arabe classique* (1re édition, 1939), Paris, G.P. Maisonneuve, 1958, 174 p. Manuel très clair.

○ FLEISCH (H.), *Introduction à l'étude des langues sémitiques, éléments de bibliographie*, Paris, A. Maisonneuve, 1947 (coll. Initiation à l'Islâm, t. IV), 147 p.

○ LECOMTE (G.), *Grammaire de l'Arabe*, coll. « Que sais-je ? », Paris, P.U.F., 1963, 128 p.

13. LITTÉRATURE ARABE

○ PELLAT (C.), *Langue et littérature arabes*, Paris, A. Colin, 1952, 224 p., réédition revue et mise à jour, coll. U 2, 240 p., Paris, A. Colin, 1970.

○ WIET (G.), *Introduction à la littérature arabe*, Paris, G.P. Maisonneuve, 1966, 337 p.

○ MIQUEL (A.), *La littérature arabe*, coll. « Que sais-je ? », Paris, P.U.F., 1969, 128 p. Cursif.

14. RECUEILS DE TEXTES TRADUITS

○ SAUVAGET (J.), *Historiens arabes*. Coll. Initiation à l'Islâm, Paris, Maisonneuve, 1946, 190 p. Pages choisies traduites et présentées, glossaire.

○ DERMENGHEM (E.), *Les plus beaux textes arabes*, Paris, Edit. de la Colombe, 1951, 558 p. Anthologie destinée au grand public.

BIBLIOGRAPHIE

O WIET (G.), *Grandeur de l'Islâm de Mahomet à François Ier*, Paris, Table Ronde, 1961, XI + 376 p. Présente l'histoire du monde musulman au moyen d'un choix de textes arabes classiques traduits. Glossaire.

O DUCELLIER (A.), *Le Miroir de l'Islâm. Musulmans et Chrétiens d'Orient au Moyen Age (VIIe-XIe siècle)*, coll. « Archives », Paris, Julliard, 1971, 313 p.

15. ART DE L'ISLAM

O PIJOAN (J.), *Arte islamico*, vol. XII de la *Summa Artis*, 628 p., 872 ill., 24 pl. couleur, Madrid, 1949. Bon exposé général.

O SOURDEL-THOMINE (Janine), « Art de l'Islâm » dans *Encyclopédie de la Pléiade*, Histoire de l'Art, I, Le Monde non-chrétien, Paris, Gallimard, 1961, pp. 933-1087, 2 cartes. Excellent tableau d'ensemble.

O MARÇAIS (G.), *L'Art musulman*, coll. « Les Neuf Muses », Paris, P.U.F., 1962, 186 p., XXXIX pl. h.t., bibliographie. Exposé cursif.

O OTTO DORN (Katharina), *L'Art de l'Islâm*, Paris, Albin Michel, 1967, 278 p., 60 pl. couleur, 121 fig., 6 cartes. Traduction du *Kunst des Islam*, Baden-Baden, 1964. Classement chronologique par dynasties, belles photos.

O SOURDEL THOMINE (J.) et SPULER (B.), *Die Kunst des Islam*, dans coll. « Propylaen Kunst Geschichte », Berlin, 1973, 426 p., 416 ill. Très belles illustrations, bibliographie pp. 401-410.

O BUCKHARDT (Titus), *Art of Islam, Language and Meaning*, 228 p., 200 pl. couleur, 100 illustrations, Londres, 1976. Publié à l'occasion du World Festival of Islam (1976).

PÉRIODIQUES SPÉCIALISÉS

O *Arabica*, Revue d'études arabes, T.I 1954, traite de la langue, de la littérature et de la civilisation arabes.

O *Bulletin d'Études Orientales*, publié par l'Institut Français d'Études Arabes de Damas (cité B.E.O.), T. I 1931. Études sur les divers aspects de l'Orient musulman.

O *Bulletin of School of Oriental and African Studies*, publié à Londres (cité B.S.O.A.S.), T. I 1917

O *Cahiers de Civilisations Médiévales* (Xe-XIIe siècles), publiés par le Centre d'Études Supérieures de Civilisation Médiévale de l'Université de Poitiers (cité C.C.M.), T. I 1958 publie un fasc. annuel supplémentaire de bibliographie. Fait paraître des articles consacrés à l'Islâm médiéval.

O *Journal d'Histoire Economique et Sociale de l'Orient* (cité J.E.S.H.O.), T. I 1957, Périodique important, articles en plusieurs langues.

O *Mélanges de l'Institut Dominicain d'Études Orientales du Caire* (cité M.I.D.E.O.), T. I 1954, axé sur l'Égypte médiévale et moderne, donne des bibliographies et listes d'éditions de textes arabes.

O *Revue des Etudes Islamiques*, publiée à Paris, T. I 1926 (citée R.E.I.), et ses *Abstracta Islamica* qui constituent un bulletin bibliographique précieux.

O *Studia Islamica*, publiées à Paris, T. I 1953 (citées S.I.).

La liste complète des périodiques et ouvrages collectifs (*festschriften*, en hommages, mélanges) pourra être consultée en tête des volumes de l'*Index Islamicus* de PEARSON.

فهرس الكتاب

صدر حديثاً عن مؤسسة دار الكتاب الحديث

* الشرق الإسلامي في العصر الوسيط — نكيتيا ابلييف
ترجمة منصور ابو الحسن
* الفلسفة الأولى للكندي إلى المعتصم بالله
* قاموس الجيب للمسافر — **ترجمة مجموعة من الأساتذة**
* الإسلام والغزو الأوروبي — **تأليف عطا الله جوليان**
* المقتطف من تاريخ اليمن — **عبد الله بن عبد الكريم الجرامي**
* الأخبار السّنية في الحروب الصليبية — تقديم الياس عبود
سيد علي الحريري
* الطوائف في الدولة اللبنانية — **بيير روندو تقديم الياس عبود**
* وحدة اللغة والوطن
* وحدة الثقافة والتاريخ — **د . احمد محمد الحوفي**
* معنى الحياة — **الفرد ادلر**
ترجمة د . محمود الودرني
* في الرواية الفلسطينية — **فخري صالح**
* ازمة المواد الأولية في الرأسمالية المعاصرة — **مجموعة من الكتاب**
* يوميات المقاومة الوطنية اللبنانية — **اعداد حسين عبد الله**
* فعالية توظيف رؤوس الأموال : خاتشادروف — **ترجمة يونس صالح**
عبد الكريم ابا زيد عيسى الزيدي



نيكيتا ايليسيف

الشرق الإسلامي في العصر الوسيط

● منذ ظهور الإسلام، وحتّى إخفاق وسقوط الهجمة المونغوليّة في الشّرق؛ يُعيد هذا المؤلّف، الذي أردته أن يكون ملخّصاً، موجزاً، جليّاً، نافعاً، يُعيد عرض ورواية مجرى أحداث ستّة قرون من تاريخ غيَّر وجه العالم.

- الأحداث الجوهريّة، تسجّلت عبر تعاقب أشهر الأُسر الحاكمة: منذ الخلفاء الرّاشدين، حتّى سلاطين السّلاجقة.. والمكان المخصّص لعرض مجمل الظروف الروحيّة والفكريّة، الّتي رافقت ظهور الإسلام، وكذلك القرآن؛ يسمح بفهم المناخ الديني الذي تشبّع به رجال ومؤسّسات الشرق العربي، ودراسة نظام الحكم كما كان يتحرّك ويُدار، مثلاً، في ذروة خلافة بغداد.. وتحليل النشاطات الاقتصادية والشروط الاجتماعيّة - بعد وضعها في إطارها الجغرافي - كلّ هذا يزيد من كمال هذا المدخل إلى معرفة تاريخ العالم الإسلامي في القرن الوسيط.

المؤلّف

● «نيكيتا إيليسّييف»: مجاز دبلوم من «المدرسة الوطنيّة للّغات الشرقيّة» ومن «المدرسة التطبيقيّة للدراسات العليا»؛ دكتور في الآداب مع أطروحة متميّزة موضوعها: «نور الدّين، أمير كبير مسلم من سورية في زمن الصليبيّين».. المدير المساعد سابقاً، للمعهد الفرنسي للدراسات العربيّة في دمشق بين عام ١٩٥٦ - ١٩٦٦. ومنذ التّاريخ المذكور أصبح مدرّساً في جامعة «ليون» وهو، منذ ١٩٧٠، أستاذ التاريخ وعلم الأثريّات للعالم الإسلامي ومسؤول تشكيل الدورة الثالثة «الشرق المسيحي والإسلامي». منشوراته العديدة في المجلاّت العلميّة وفي «موسوعة الإسلام» تركّزت على الوطن العربي في القرن الوسيط.

مؤسسة دار الكتاب الحديث
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
ص.ب: ١٤/٥٩٦٣